

آثارُ الشَّيخِ العَلَّامةِ مُحَمَّدِ الأَمِينِ الشَّنْقِيطِيِّ

(٢)

# العَدَبُ المُمِيرُ

مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ

لِلشَّيخِ العَلَّامةِ مُحَمَّدِ الأَمِينِ بنِ مُحَمَّدِ المَحْتَارِ الحَكِينِ الشَّنْقِيطِيِّ

١٣٩٣ - ١٣٢٥

تَحْقِيقُ

خالد بن عثمان السبت

إشراف

بِكَلْبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُوزَيْدَةَ

المجلد الخامس

وقف

مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية

دار عالم الفوائد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# العزب والنمير

من مجالس الشنيطي في التفسير



مؤسسة سليمان بن عبدالعزيز الراجحي الخيرية  
SULAIMAN BIN ABDUL AZIZ AL RAJHI CHARITABLE FOUNDATION

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة

١٤٢٦ هـ

دَارُ الْعِلْمِ وَالْقَوَائِدِ

للنشر والتوزيع

مكة المكرمة ص.ب ٢٩٢٨

هاتف ٥٥٠٥٢٠٥ فاكس ٥٥٤٢٢٠٩

الصف والإخراج دَارُ الْعِلْمِ وَالْقَوَائِدِ للنشر والتوزيع

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَلْبُهُمْ خَائِدٌ فَتَنَةٌ وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال: الآيات ٣٨ - ٤٠].

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال: الآية ٣٨].

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ (جَلَّ وَعَلَا) أَنَّ الْكُفَّارَ يُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ، وَأَنَّهُمْ يَضْمُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ فَيُرْكَمُ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ فَيَجْعَلُونَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، أَمْرَ نَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: إِنَّهُمْ إِنْ أَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ، وَرَجَعُوا إِلَىٰ مَا يَرْضَىٰ رَبُّهُمْ فَأَمَّنُوا بِهِ وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ، يَغْفِرُ لَهُمْ جَمِيعَ مَا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنَ الْكُفْرِ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ ذَنْبٌ مِنْ جَمِيعِ مَا مَضَىٰ. ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يَا نَبِيَّ اللَّهِ قُلْ لَهُمْ ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ لَمْ يَقُلْ لَهُ: خَاطِبُهُمْ، حَتَّىٰ يَقُولَ: إِنْ تَنْتَهُوا يُغْفَرُ لَكُمْ مَا قَدْ سَلَفَ. كَأَنَّهُ أَمْرُهُ بِتَبْلِيغِهِمْ: إِنْ يَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ يُغْفَرُ لَهُمْ. وَحُذِفَ الْفَاعِلُ لِأَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يُغْفَرُ مَا سَلَفَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، فَلَيْسَ هُنَاكَ غَيْرُهُ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْفَاعِلُ؛ وَلِذَا حُذِفَ الْفَاعِلُ لِلْعِلْمِ بِهِ وَعَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ ذِكْرِهِ؛ لِأَنَّهُ مَعْرُوفٌ ﴿ يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ أَي: مَا مَضَىٰ قَبْلَ انْتِهَائِهِمْ مِنْ جَمِيعِ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا ﴾

يُعْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ : اختلف العلماء في المراد بالعود هنا<sup>(١)</sup>، فقال بعض العلماء: هذه الآيات من سورة الأنفال نزلت بعد وقعة بدر، والمعنى ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ للقتال كما فعلوا يوم بدر ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي: طريقة الله فيما مضى بين رسله وأتباعهم وبين الكفرة<sup>(٢)</sup>.

قال بعض العلماء: ﴿ الْأَوَّلِينَ ﴾ يعني الذين هلكوا منكم فقتلوا وأسروا يوم بدر، مضت سنة الله فيهم، فأظهر عليهم نبيه، ونصره عليهم، فإن عدتم إلى القتال أجرى عليكم تلك السنة؛ لأنه لا تجد لسنة الله تبديلاً. وقال بعض العلماء: المراد بالأولين الأمم الماضية ممن قبلنا؛ لأن كل أمة كذبت رسولها وتمردت على ربها أهكلها الله (جل وعلا)، يعني: وإن تعودوا إلى ذلك الكفر والطغيان أهلككم كما فعل بجميع الأمم قبلكم ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَتَرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: الآية ٤٤] وهذا الوجهان في قوله ﴿ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي: سنة الله فيهم، وأصل السنة: الطريقة والشريعة، والشريعة في اللغة: الطريق، والشرائع: الطرق، وكون السنة هي الطريق الذي يمشى عليه، أمر معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته<sup>(٣)</sup>:

من معشر سنَّتْ لهم آباؤهم      ولكلِّ قومٍ سنَّةٌ وإمامها  
أي: طريقة متبعة، وطريقة الله مع الكفرة أنهم إن كذبوا رسله

(١) انظر: ابن جرير (٥٣٦/١٣)، القرطبي (٤٠٣/٧).

(٢) المصدران السابقان.

(٣) شرح القوائد المشهورات (١٧٤/١).

وتمردوا عليه أهلكتهم، كما نطقت به الآيات القرآنية بكثرة وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ يَؤُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨).

وقال بعض العلماء: المراد بالعود هنا: الاستمرار، أي: وإن يستمروا على ما هم عليه من الكفر فقد مضت سنة الأولين. وربما أطلقت العرب ابتداء الفعل على دوامه، مثل: ﴿يَتَأَيَّمَا النَّبِيُّ اتَّقَى اللَّهَ﴾ [الأحزاب: الآية ١] أي: استمر ودم على تقواه. هذان الوجهان في قوله: ﴿وَإِنْ يَؤُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٨].

وأمر الله النبي ﷺ وأصحابه قال: ﴿وَقِنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] (لا تكون) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد (حتى)، و (لا) النافية لا تمنع من ذلك النصب ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال أكثر العلماء<sup>(١)</sup>: المراد بالفتنة هنا: الشرك. أي: حتى لا يبقى شرك على وجه الأرض. ويدل لهذا المعنى قوله بعده — يليه — ﴿وَيَكُونَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ لأن الدين لا يكون كله لله إلا إذا لم يبق على وجه الأرض شرك، فعندئذ يكون الدين كله لله. ويؤيد هذا المعنى وهذا التفسير الذي دلت عليه القرينة القرآنية قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»<sup>(٢)</sup>. هذا هو الأظهر. وجاء في صحيح البخاري في تفسير هذه الآية عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) ما يدل على أن المراد بالفتنة: فتنة الرجل عن دينه، كالمستضعف الذي إذا آمن حبسوه وأوثقوه، أو قتلوه حتى يترك

(١) انظر: ابن جرير (٥٣٨/١٣).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

دينه<sup>(١)</sup>، يعني: قاتلوهم حتى ينتشر الإسلام، وتنكسر شوكة الكفر، بحيث لا يقدرّون على رد إنسان عن دينه، ولا قتل إنسان ولا ضربه ولا إيذاقه بسبب الإسلام؛ لأنهم كانوا في أول الإسلام يفتنون الضعفاء عن دينهم، فكان أمية بن خلف - قبحه الله - يعذب بلائاً فيضجعه في نهار الصيف في رمضاء مكة، فيضع الحجارة على صدره ويعذبه ليكفر بمحمد ﷺ، وهو يقول: أحد أحد. وكذلك أودوا كثيراً، فقتل في ذلك أبو عمار بن ياسر وأمه، وأما هو فلما أرادوا أن يفعلوا به ذلك وخاف القتل قال كل ما يريدون منه، فسب رسول الله ﷺ، وسيأتي - إن شاء الله - إيضاح قصته في الآية النازلة به في سورة النحل في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: الآية ١٠٦]. وهذا معنى قوله: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] والقول الأول يدخل فيه هذا؛ لأنه إذا انتفى الشرك لا يكون هناك كافر يفتن المسلمين عن دينهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُمْ آلًا مُؤْمِنًا﴾ [النحل: الآية ١٠٦].

﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا﴾ عن كفرهم وأسلموا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ فهو بصير بعملهم يجازيهم عليه، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [الأنفال: الآية ٤٠] أعرضوا ولم يرجعوا عن كفرهم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم عليهم، لا يحزنكم توليهم وإعراضهم وإصرارهم على الكفر، فالله مولاكم ناصركم

(١) البخاري في التفسير، باب ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُمْ آلًا مُؤْمِنًا﴾، حديث رقم: (٤٦٥٠)، (٣٠٩/٨)، وانظر: الحديث بعده رقم:

عليهم، و (المولى) وزنه في الميزان الصرفي (مَفْعَل) من الولاية، والمولى في لغة العرب<sup>(١)</sup>: هو كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك؛ ولذا كثر إطلاق المولى على ابن العم؛ لأن عصبية العمومة تجعله ينتصر لك وتنتصر له. وقد أطلق الموالي على العصبية في قوله: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلِيًا مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: الآية ٣٣] العصبية الوارثون. ومنه قول الفضل بن العباس من ذرية أبي لهب<sup>(٢)</sup>:

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا      لَا تَظْهَرُوا لَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا  
ومن هذا المعنى قول طرفة بن العبد<sup>(٣)</sup>:

وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ      إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ

ولكون المولى في لغة العرب يطلق على كل من بينك وبينه سبب موالة يواليك بها وتواليه بها، وكثرت معانيه فأطلق على بني العم، وعلى العصبية، وعلى المعتقّين، والمُعْتَقِينَ بالفتح والكسر، وعلى الناصر، وعلى الصاحب؛ لأن كلاً ينعقد بينك وبينه سبب، فلما انعقد بين الكفار وبين النار سبب يجعلهم يدخلونها، ويخلدون فيها، وهي تؤذيهم بحرّها قال تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَانِكُمْ﴾ [الحديد: الآية ١٥] فجعل النار مولاهم لانعقاد السبب بينهم وبينها بكفرهم،

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) البيت في الكامل للمبرد (٣/١٤١٠)، القرطبي (٧٨/١١)، الدر المصون (٥٦٧/٧)، وقائله هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، من شعراء بني أمية، وصدر الشطر الثاني: «لا تنبشوا بيننا».

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

وكونها دار الله التي يُعذب بها أعداءه، فهذا معنى قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَا﴾ [الأنفال: الآية ٤٠] وهذه ولاية نصر.

وقد أُطلقت الولاية في القرآن بالنسبة إلى الله (جل وعلا) إطلاقين: أطلق المولى بمعنى الولاية الخاصة، وهي: النصر والتمكين والتوفيق، كقوله هنا: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَا﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التحریم: الآية ٤] وهذا كثير في القرآن؛ ولذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرَانَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [١١] [محمد: الآية ١١] أي: لا مولى لهم ولاية نصر وتمكين. وأطلق المولى صادقاً بالكفار؛ لأنها ولاية خلق وقدرة وربوبية وملك، وهو في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ﴾ [الأنعام: الآية ٦٢] وهي في الكفار؛ لأنه مولى الكفار ولاية ملك وتصرف ونفوذ قدرة، ومولى المؤمنين ولاية نصر وتمكين وثواب. فهذا معنى قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَا﴾.

﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [٤] (نعم) فعل جامد لإنشاء [المدح] (١). والتحقيق أنه فعل ماض جامد (٢)؛ لأن تاء التأنيث تدخل عليه:

نِعْمَتْ جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ الْجَنَّةَ دَارُ الْأَمَانِي وَالْمُنَى وَالْمَنَّةُ (٣)  
 خلافاً لمن زعم أن (نعم) اسم. قالوا: لأن أعرابياً قيل له:  
 ولدت امرأتك بنتاً. فقال: ما هي بنعم الولد (٤)، فأدخل عليها حرف

(١) في الأصل: «الذم»، وهو سبق لسان.

(٢) انظر: شرح شذور الذهب ص ٢١، ضياء السالك (٤٠/١)، (٩١/٣).

(٣) البيت في شرح شذور الذهب ص ٢١.

(٤) انظر: ضياء السالك (٤٠/١)، (٩١/٣).

الجر الذي هو الباء، ودخول حرف الجر من علامات الاسم. والمحققون من علماء العربية: أن (نِعْمَ وبئس) فعلان ماضيان جامدان لإنشاء [المدح أو] <sup>(١)</sup> الذم. قالوا: وقول الأعرابي: ما هي بِنِعْمِ الولد. وقول الآخر: نِعْمَ السَّيْرُ عَلَى بئسَ العَيْرِ <sup>(٢)</sup>. محكي قول محذوف، أي: ما هي بولد مقول في جنسه نِعْمَ، نِعْمَ الولد.

وقوله: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (المولى) فسرناه الآن، و (النصير): (فَاعِلٌ) بمعنى (فَاعِلٌ)، بمعنى الناصر، وأصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم، وتخليصه بالإعانة من الظلم، فالله (جل وعلا)، كأنه في هذه الآية يَبَيِّنُ الثناء على نفسه، الثناء الكامل الذي يستحقه في ولايته لأولياته، ونصره لهم.

قال بعض العلماء: بين (المولى) و (النصير) عموم وخصوص من وجه، يجتمع (المولى) و (النصير) في بني عمك وعصبتك إذا كانت لهم قدرة على نصرك، وإعانتك على عدوك، فإذا جاء دونك بنو عمك وعصبتك ومنعوك من أعدائك، اجتمع فيهم أن كل واحد منهم مولى، وأنه نصير، وينفرد (المولى) عن (النصير) في قرابتك وعصبتك إذا كانوا ضعفاء، لا يقدر على نصرتك، فالواحد منهم مولى وليس بنصير، إذ لا طاقة له على النصر، وينفرد (النصير) عن (المولى) في الأجنبي الذي ليس بينك وبينه سبب ولاية إذا نصرك وأعانك ومنعك من عدوك، فهو نصير وليس بمولى. وهذا واضح.

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٢) المصدر السابق.

وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا  
 أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ  
 قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ  
 مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ  
 مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيَحَيَّ مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِنَا وَإِنَّ اللَّهَ  
 لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ [الأنفال: الآيتان ٤١، ٤٢].

يقول الله جل وعلا: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ  
 وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ  
 وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ  
 قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

(اعلموا) معناه: تيقنوا؛ لأن العلم إذا أُطلق في القرآن معناه  
 اليقين في جميع القرآن، وقد جاء في حرف في سورة الممتحنة  
 إطلاق العلم مراداً به الظن الغالب، وهو قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكُمْ  
 الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْتَمَحْنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى  
 الْكُفَّارِ ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠] ﴿ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ [الممتحنة:  
 الآية ١٠] أي: غلب على ظنكم، ظناً قوياً مزاحماً لليقين، ولا يكاد  
 العلم في غير هذا الموضع يُطلق في القرآن إلا مراداً به اليقين  
 الجازم، الذي لا يخالجه ظن ولا وهم ولا شك.

﴿ أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ (ما) موصولة، و (أن) مصدرية، أن  
 الذي غنمتم من شيء، وصيغ الموصول قد تقرر في علم الأصول  
 أنها من صيغ العموم<sup>(١)</sup>؛ لأن الموصول يعم كل ما تشمله صلته،

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

و ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بيان للموصول، من شيء كائناً ما كان، إلا ما سنذكره مما أخرج له دليل مُخَصَّص .

﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ ﴾ قراءة جماهير القراء، منهم السبعة: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ ﴾ وفي بعض الروايات الضعيفة عن بعض السبعة: ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ ﴾ وقد رواه الجعفي عن أبي عمرو<sup>(١)</sup>، أما الرواية التي عليها جمهور القراء، وهي رواية السبعة الصحيحة عنهم: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ ﴾ وهنا محذوف دل عليه المقام: فحقه أن لله خمس، أو: فواجب حتم أن لله خمس. والخمس معروف.

﴿ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ وهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال قد تضمنت أحكاماً كثيرة من أحكام الجهاد، ومن أحكام الغنائم<sup>(٢)</sup>، وقد يحتاج لها المسلمون؛ لأننا نرجو الله (جل وعلا) أن يرفع علم الجهاد، ويقوي كلمة لا إله إلا الله، وأن تخفق رايات المسلمين في أقطار الدنيا، فيحتاجون إلى تعلم ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أحكام الجهاد، ولما كان القرآن العظيم هو مصدر جميع العلوم؛ لأنه الكتاب الذي حوى جميع العلوم، وكانت أصول جميع الأشياء كلها فيه، أردنا هنا أن نبين جُملاً من الأحكام التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة، ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ﴾ معناه: الذي غنمتم، وهي الغنائم التي يحوزها المسلمون من أموال الكفار إذا انتصروا عليهم فقهرتهم، وأموال الكفار على قسمين<sup>(٣)</sup>:

قسم: ينتزعه المسلمون منهم بالقوة والغلبة.

(١) انظر: البحر (٤/٤٩٩).

(٢) انظر: هذه التفاصيل في الأضواء (٢/٣٥١).

(٣) السابق (٢/٣٥٢).

وقسم: يصل إلى المسلمين من غير انتزاع بالقوة من أهله الكفار.

والاصطلاح المشهور عند الفقهاء أن بينهما فرقاً، أن الغنيمة هي ما ينتزعه المسلمون بالقوة من الكفار، أما ما ييسره الله للمسلمين بلا قتال فهو المُسمى بـ (الفيء) وحكمهما مختلف على التحقيق الذي عليه جماهير العلماء ودل عليه القرآن؛ لأن الفيء هو المال الذي يناله المسلمون من الكفرة من غير أن ينتزعه بالقوة، ولا أن يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب، كأموال بني النضير، فإنهم نزلوا على حكم النبي ﷺ، ومكنه الله من أموالهم من غير أن تنتزع منهم بالقوة، وقد سمح لهم النبي ﷺ أن يحملوا على الإبل ما قدروا أن يحملوه، واستثنى السلاح كما ستأتي تفاصيله في سورة الحشر؛ لأنها كلها نزلت في قصة بني النضير، هذا هو الفيء، وهو المذكور في سورة الحشر، وقد نص الله في سورة الحشر على أن مصارفه هي مصارف خمس الغنيمة؛ لأنه قال هنا: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وقال هناك: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فبيّن بقوله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] الفرق بين الفيء والغنيمة؛ لأنه مال لم تنتزعه بالقوة والسلاح من أهله، ولم تسرعوا في انتزاعه على الخيل والركاب التي هي الإبل. ثم قال مبيناً مصارفه وأنها هي مصارف الخمس: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: الآية ٧] مثل ما ذكر هنا في مصارف الخمس سواء بسواء، وشذ بعض العلماء فقال: إن الفيء والغنيمة سواء. وهذا القول

مشهور عن قتادة وطائفة من العلماء، وهو قول وإن كانت تساعده اللغة فالشرع والحقيقة الشرعية لا تساعده؛ لأن العرب تُطلق في لغتها الفيء على جميع ما يُغنم، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي أخي كليب<sup>(١)</sup>:

فلا وأبي جليلة ما أفأنا      من النعم المؤبل من بعير  
ولكننا نهكنا القوم ضرباً      على الأثباج منهم والنحور

يعني: لم نشتغل بالغنائم، وإنما اشتغلنا بقتل الرجال.

وربما أطلق الفيء في القرآن مراداً به كل غنيمة، كقول قتادة، وذلك في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠] لأن المسيبات حكمها في هذا سواء، سواء كانت فيئاً أو غنيمة، إلا أن الاصطلاح المعروف هو التفرقة بين ما أُوجف عليه بالخييل والركاب، وبين ما أُخذ عفواً من غير انتزاع بالقوة، كما قال هنا: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ﴾ فبين أنهم غنموه وانتزعه منهم قهراً، وقال في الآخر الذي هو الفيء: ﴿فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِن خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] فكيف تستحقونه ولم تنتزعه بالقوة، ولم توجفوا عليه بالخييل ولا الإبل؟!!

والإيجاف: الإسراع كما هو معروف.

(١) البيتان من قصيدة يرثي فيها أخاه كليياً، ونص البيتين كما في ديوانه ص ٤١،

وفي «شعراء النصرانية قبل الإسلام» ص ١٧٠ هكذا:

فلا وأبي أميمة ما أبوها      من النعم المؤثل والجزور  
ولكننا طعنا القوم طعنا      على الأثباج منهم والنحور

والبيتان ذكرهما الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٢/٣٥٣) كما هنا.

وهذه الآية الكريمة دلت على أن أربعة أخماس الغنيمة [أنه]<sup>(١)</sup> للمجاهدين الغانمين الذين غنموها؛ لأن قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية يدل على أن المعنى: وأما الأخماس الأربعة فهي للغانمين المجاهدين، ويدل على ذلك إسناد غنيمته إليهم في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ﴾ وهذا هو التحقيق، وعليه جماهير العلماء، أن أربع أخماس الغنيمة للمسلمين المجاهدين الذين غنموها، تُقسم بينهم بالسواء، وأن خمس الغنيمة هو يُصرف في هذه المصارف المذكورة وسنوضحها - إن شاء الله - واحداً واحداً. هذا هو المذهب الحق وعليه جماهير العلماء، وخالف في هذا قوم من العلماء - منهم طائفة من علماء المالكية وغيرهم<sup>(٢)</sup> - قالوا: إن الغنائم كلها والفيء شيء واحد، وأن التصرف فيه كله لرسول الله ﷺ يعطي الغانمين ما شاء ويمنعهم ما شاء. وهذا القول وإن قال به جماعة من المالكية وغيرهم من العلماء فهو خلاف التحقيق.

والذين قالوا هذا القول استدلوا بأدلة كلها مردودة مجاب عنها، قالوا: من أدلته أن الغنائم هي الأنفال، وقد تقدم في أول السورة قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: الآية ١] فصرح بأنها لله وللرسول ﷺ ولم يجعل للغانمين فيها حقاً مستقلاً إذا لم يشأ الرسول ﷺ أن يعطيهم. قالوا: ويتأيد هذا بأمور، منها: أن النبي ﷺ لم يقسم مكة حين افتتحها عنوة، وأنه (صلوات الله وسلامه عليه) في غزوة حنين لما أخذ غنائم هوازن أعطى صفوان بن أمية ما ملأ بين جبلين من الغنم، وأعطى عيينة بن حصن مائة من

(١) في الأصل: «أنهم».

(٢) انظر: المغني (٣٠٤/٩)، القرطبي (٢/٨)، الأضواء (٣٥٤/٢).

الإبل، والأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عطايا كثيرة، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، حتى غضب الأنصار وقالوا: يعطي الغنائم عنا لقريش وسيوفنا تقطر من دمائهم!! فعلم النبي ﷺ بما قالوا فأرسل مَنْ جمعهم وقال: «ألم أجدكم متعادين فألف الله بين قلوبكم بي؟!» قالوا: بلى. قال: «ألم أجدكم على شفا حفرة من النار فأنقذكم الله منها بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله — ﷺ — . فلما عدّد عليهم بعض النعم التي أنعم الله عليهم بسبب رسول ﷺ اعترفوا بذلك كله وسكتوا، قال لهم: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟!» قالوا: وكيف نجيب رسول الله ﷺ؟! قال: «قولوا: ألم يكذبك الناس فصدقناك؟ ألم يُعادك الناس فأويناك ونصرناك؟!» ثم قال: «يا معشر الأنصار ألا ترضون بأن يرجع الناس إلى بيوتهم بالشاة والبعير، وترجعون إلى بيوتكم برسول الله ﷺ؟!» قالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمة. وطابت نفوسهم<sup>(١)</sup>. قال قائل هذا القول من المالكية وغيرهم من العلماء كقتادة: لو كانت الغنيمة مستحقة للغانمين ولم يكن للإمام أن يفعل فيها كيف يشاء، كيف يفضل النبي ﷺ المؤلفه قلوبهم كالأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وصفوان بن أمية ويمنع الأنصار، والأنصار أحق؟! وكيف يفضل الأقرع بن حابس التميمي،

(١) أصل هذا الخبر في البخاري، (من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه) كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، حديث رقم: (٤٣٣٠)، (٤٧/٨)، وأخرج بعضه برقم: (٧٢٤٥)، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفه قلوبهم على الإسلام...، حديث رقم: (١٠٦١)، (٧٣٨/٢)، ومن حديث أنس عند مسلم في نفس الكتاب والباب، حديث رقم: (١٠٥٩)، (٧٣٣/٢ - ٧٣٧)، وأخرجه أحمد (٧٦/٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وعيينة بن حصن الفزاري على العباس بن مرداس السلمي وهو حسن الإسلام جداً؟! وقد غار منهم العباس بن مرداس حتى قال شعره المشهور، قاله أمام النبي ﷺ لما أعطى عيينة مئة، والأقرع مئة، وأعطى العباس بن مرداس قليلاً، قال: مخاطباً لرسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>:

أتجعل نهبي ونهب العبيد	بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس	يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما	ومن تضع اليوم لا يرفع
وقد كنت في الحرب ذا تدرأ	فلم أعط شيئاً ولم أمنع
وإلا أبا عير أعطيتها	عديداً قوائمه الأربع
وكانت نهاباً تلافيتها	بكرري على المهر في الأجرع
وإيقاظي القوم أن يرقدوا	إذا هجع الناس لم أهجع

إلى آخر شعره. قالوا: لو كانت الغنيمة للغانمين لما فضل الأقرع وعيينة على العباس بن مرداس وهو أحسن منهما إسلاماً، ولما

(١) جاءت هذه الأبيات في روايات متعددة على تفاوت بينها في بعض الألفاظ مع زيادة في بعض الأبيات، ففي صحيح مسلم (١٠٦٠) وغيره الاقتصار على الأبيات الثلاثة الأولى، وبعضهم يزيد رابعاً، وأكثر ما وقفت عليه سبعة أبيات وهي عند ابن هشام في السيرة، وفي سبل الهدى والرشاد (٣٩٩/٥) هكذا:

كانت نهاباً تلافيتها	بكرري على المهر في الأجرع
وإيقاظي القوم أن يرقدوا	إذا أهجع الناس لم أهجع
فأصبح نهبي ونهب العبيد	بين عيينة والأقرع
وقد كنت في الحرب ذا تدرأ	فلم أعط شيئاً ولم أمنع
وإلا أفأئل أعطيتها	عديداً قوائمها الأربع
وما كان حصن ولا حابس	يفوقان مرداس في المجمع
وما كنت دون امرئ منهما	ومن تضع اليوم لا يرفع

فضل المؤلفلة قلوبهم على الأنصار وهم أحسن منهم إسلاماً. قالوا: فعطايا النبي هذه - ﷺ - كما أعطى من مئات الإبل، وأعطى من الورق والرقيق، وأعطى صفوان بن أمية ما ملأ بين جبلين من الغنم، قالوا: هذا يدل على أن الغنيمة ليست استحقاقاً محضاً للغانمين، وإنما يفعل الإمام فيها ما يشاء، قالوا: وكذلك لما فتح مكة لم يغنم أموال أهل مكة، ولم يقسم دورها ولا أرضها [فلو كان قسماً الأحماس الأربعة على الجيش واجباً لفعله ﷺ لما فتح مكة. قالوا: وكذلك غنائم هوازن في غزوة حنين، أعطى منها عطايا عظيمة جداً للمؤلفة قلوبهم. وأجاب الجمهور عن كونه ﷺ] <sup>(١)</sup> / أعطى المؤلفلة [ب/ب] قلوبهم، وأعطى عينه مئة، والأقرع مئة، وصفوان ما ملأ بين جبلين غنماً ونحو ذلك من العطايا، أنه فعل ذلك بعدما استطاب نفوس الغانمين عنه، وأن الغانمين طابت له نفوسهم بذلك للمصلحة العامة، وهي تأليف قلوب الرجال الذين لهم شوكة عظيمة وأتباع كثيرون ليقوى بهم الإسلام، وقد فعل ذلك برضا الغانمين وطيب أنفسهم عن ذلك له ﷺ، أما عدا كونه لم يقسم دور مكة ورباعها فقد أجاب عنه الشافعي (رحمه الله) جواباً لكنه غير ناهض بالحقيقة والإنصاف <sup>(٢)</sup>؛ لأن الشافعي (رحمه الله) مع جلالته وعلمه يرى أن مكة المكرمة - حرسها الله - أنها فتحت صلحاً لا عنوة، ويظن أن قوله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وتم استيفاء النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) في

الأضواء (٣٥٥/٢) وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) انظر: الأضواء (٣٥٦/٢).

«أمن»<sup>(١)</sup>. يظن أنها نوع صلح أو شبه صلح، والتحقيق الذي لا شك فيه: أن مكة - حرسها الله - إنما فُتحت عنوة وقهراً بالسيف لا صلحاً، وتأمين النبي ﷺ لبعض الناس لا يقتضي الصلح؛ لأن الصلح أمر عام. والدليل على أنها فتحت عنوة أمور كثيرة وأدلة واضحة لا لبس فيها<sup>(٢)</sup>، منها: ما ثبت في صحيح مسلم وغيره من وقوع القتال فيها يوم فتح مكة؛ لأن النبي ﷺ جعل خالد بن الوليد يوم فتح مكة على المُجَنَّبَةِ اليمنى، وجعل الزبير بن العوام على المُجَنَّبَةِ اليسرى، وجعل أبا عبيدة على الحُسَّر<sup>(٣)</sup> وأخذوا بطن الوادي، ولم يتلقهم أحد إلا أناموه، فقتلوا من قريش قوماً كما هو معروف. وهذا ثابت في الصحيح وغيره، ورجز حماس بن قيس المشهور يدل على ذلك؛ لأن حماس بن قيس هذا رجل حليف لقريش، وكان يقول لزوجته: إنه يجعل لها أزواج رسول الله ﷺ خدماً، وكان يقول لها: إذا جئتك فاراً فأغلقني الباب دوني، وكان يرتجز ويقول<sup>(٤)</sup>:

إِنْ يُقْبَلُوا الْيَوْمَ فَمَالِي عَلَّهْ      هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ وَأَلَّهْ  
وَدُوْغِرَارَيْنِ سَرِيْعُ السَّلَّةِ

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب فتح مكة، حديث رقم: (١٧٨٠)، (٣/١٤٠٥) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، وأخرجه أبو داود في الخراج والإمارة، باب ما جاء في خبير مكة، حديث رقم: (٣٠٠٥، ٣٠٠٦)، (٨/٢٥٦، ٢٥٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: صحيح مسلم (٣/١٤٠٥)، زاد المعاد (٣/٤٢٩)، الأضواء (٢/٣٥٦، ٣٧٣).

(٣) وهم الذين لا دروع لهم.

(٤) الأبيات في ابن هشام ص ١٢٤٩، الأضواء (٢/٣٧٥).

وكان يوم فتح مكة اجتمع مع الجماعة الذين جاءهم خالد بن الوليد، فرأى القتل وجاءها منهزماً، فقالت له: أين الذي كنت تقوله أنك تُخدمني نساءهم، وأني أغلق الباب دونك؟! فقال لها رجزه المشهور، وهو معروف عند علماء التاريخ وأصحاب المغازي<sup>(١)</sup>:

إِنَّكَ لَوْ شَهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ      إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَرَّ عِكْرِمَةُ  
وَاسْتَقْبَلْتَنَا بِالسُّيُوفِ الْمَسْلُومَةِ      لَهُمْ نَهَيْتُ خَلْفَنَا وَهَمَّهَمَهُ  
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمُجْمِهِ      ضَرْباً فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَهُ  
لم تنظقي باللوم أدنى كلمه

وهذه الأدلة وغيرها تدل على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً. ومن الأدلة على ذلك: ما ثبت في الصحيح أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) أمر بقتل مقيس بن صبابه، وابن خطل، وجاريتين معهما، ولو وُجدوا متعلقين بأستار الكعبة. ولو كانت مكة صلحاً لما أمر بقتل مقيس بن صبابه، وابن خطل، والجاريتين المذكورتين معهما<sup>(٢)</sup>، كما هو ثابت معروف، ومما يدل على أنها فتحت عنوة ما

(١) تقدمت هذه الآيات، ونصها في ابن هشام ص ١٢٥٠:

إِنَّكَ لَوْ شَهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ      إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَرَّ عِكْرِمَةُ  
وَاسْتَقْبَلْتَهُمْ بِالسُّيُوفِ الْمَسْلُومَةِ      لَهُمْ نَهَيْتُ خَلْفَنَا وَهَمَّهَمَهُ  
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمُجْمِهِ      ضَرْباً فَلَا يُسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَهُ  
لم تنظقي في اللوم أدنى كلمه

(٢) البيهقي في الدلائل (٥/٥٩)، وابن سعد في الطبقات (٢/٩٨)، وذكره

ابن هشام في السيرة ص ١٢٥١، وابن القيم في الزاد (٣/٤١١)، وابن كثير في تاريخه (٤/٢٩٧ - ٢٩٩) وأخرج الشيخان من حديث أنس (رضي الله عنه): =

ثبت في الصحيح عن أم هانئ أنها أجات رجلاً من أحماها بني مخزوم؛ لأن زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي، أجاته وجعلت له الأمان، فجاهه علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) ليقتله، فشكته إلى النبي ﷺ، فقال ﷺ: «أجرنا من أجات يا أم هانئ»<sup>(١)</sup> فلو كانت مكة مفتوحة صلحاً لما أخذ علي السيف ليقتل المخزوميين الذين أجاتهما أخته أم هانئ (رضي الله عنها)، إلى غير ذلك من الأدلة.

ولكن التحقيق أن الأرض المغنومة لها حكم خاص سنبينه الآن؛ لأن الغنيمة أقسام<sup>(٢)</sup>، منها: ما هو كالذهب والفضة والحيوان، وهذا لا خلاف عند من يُعتدُّ به من العلماء أنه يُقسم ويُخَمَّس، أما أرض العدو التي فتحها المسلمون فللعلماء فيها أقوال<sup>(٣)</sup>: فبعض العلماء يقول: عندما يستولي عليها المؤمنون تصير وقفاً عاماً للمسلمين. وهذا مذهب مالك (رحمه الله) وجماعة من العلماء.

= «أن رسول الله ﷺ دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خَطَلٍ متعلق بأستار الكعبة، فقال: «اقتلوه». البخاري في جزاء الصيد، باب دخول مكة بغير إحرام، حديث رقم: (١٨٤٦)، (٥٩/٤) وأطرافه: (٣٠٤٤، ٤٢٨٦، ٥٨٠٨)، ومسلم في الحج، باب جواز دخول مكة بغير إحرام، حديث رقم: (١٣٥٧)، (٩٨٩/٢).

(١) البخاري في الصلاة، باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحقاً به، حديث رقم: (٣٥٧)، (٤٦٩/١)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى...، حديث رقم: (٣٣٦)، (٤٩٨/١).

(٢) انظر: القرطبي (٤/٨)، الأضواء (٣٦٧/٢).

(٣) القرطبي (٢٢/١٨ - ٢٣)، الأضواء (٣٦٧/٢).

وبعض العلماء يقول: يجب قسم الأرض المغنومة كما قسم النبي ﷺ أرض خيبر وأرض بني قريظة.

وجماعة من العلماء قالوا: الإمام مخير في ذلك، إن رأى المصلحة في قسّمها قسّمها، وإن رأى المصلحة في إبقائها وفقاً للمسلمين تركها وفقاً للمسلمين، فإذا اقتضى نظر الإمام أن يقسمها قسمها وكانت مملوكة للغانمين، وكانت أرض عشور لا أرض خراج، وإن رأى الإمام أن يتركها لعامة المسلمين خزانة لهم - كما هو رأي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) - تركها وفقاً للمسلمين، وكانت أرض خراج لا أرض عشور، يؤخذ الخراج ممن هو يستغلها ويكون لعموم المسلمين. وهذا المذهب بالتخيير هو الحق - إن شاء الله - والنبي ﷺ اختار أن يقسم أرض قريظة وأرض خيبر، واختار أن يترك قسمة دور مكة. وقد فهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من فعل النبي ﷺ أن الأرض التي غنمها المسلمون واحتلوا بلادها بالقوة أن الإمام مخير فيها، فهم ذلك من فعل النبي ﷺ؛ ولذا ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «لولا آخر المسلمين لما فتحت علي قرية إلا قسمتها على الغانمين كما قسم رسول الله ﷺ أرض خيبر»<sup>(١)</sup>. وعمر لم يفعل هذا الصنيع متهجماً على كتاب الله في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٤١]. وإنما فهم من فعل رسول الله ﷺ التخيير في ذلك، وكلامه صريح في أنه يعتقد أنه مخير؛ لأنه قال: «لولا آخر المسلمين لما فتحت علي قرية إلا قسمتها كما قسم النبي ﷺ أرض خيبر» وهذا فيه مصلحة عظيمة؛

(١) البخاري في فرض الخمس، باب الغنيمة لمن شهد الواقعة، حديث رقم:

لأن الغانمين لو قسموا الأرض عندما غنموها فإن آخر المسلمين يكونون لا غلة لهم، ويكون الإسلام وجيوش الإسلام والأموال التي يحتاج بها لحماية بيضة الإسلام وقمع الكفار وإقامة الجهاد يكون ذلك لا يوجد له شيء، فوجود تلك الأرضين الكثيرة لها خراج كثير عظيم يستعين به المسلمون على شراء السلاح، وتهيئة الجيوش، وتعبئة الرجال للقتال في سبيل الله (جل وعلا)، أن هذا هو المصلحة؛ ولأجل تخيير الإمام لم يقسم النبي ﷺ مكة، وقد ثبت أن النبي ﷺ قسم بعض خيبر ولم يقسم بعضها، قال بعض العلماء: البعض من خيبر الذي لم يقسمه رسول الله ﷺ إنما ترك قسمه لهذا الاختيار؛ لأنه مخير في القسم والإبقاء. والصحيح أن الذي لم يقسمه من أرض خيبر كان فيئاً؛ لأن بعض البساتين وبعض الأطراف من خيبر كانوا لم يفتحوا ولم يؤخذوا عنوة ولم يُوجف عليهم بالخيال والركاب، فلما أخذت قريظة نزلوا على حكم النبي ﷺ من غير أن يؤخذوا بالقهر فكان فيئاً، وسمع بهم أهل فدك ففعلوا كذلك، فكانت فدك فيئاً للنبي ﷺ، هي وذلك البعض من قريظة. ومعلوم أن فدك وبعض قريظة كانا من الفيء الخالص لرسول الله ﷺ، وقد طلبته فاطمة (رضي الله عنها) أن يقطعها فدك فأبى، وأقطعها أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لمروان بن الحكم ظناً منه (رضي الله عنه وأرضاه) أن ما كان للنبي ﷺ ينتقل الحق فيه لولي أمر المسلمين بعده، وأن ذلك انتقل إليه، وأنه غني عنه بأمواله فوصل به بعض قُرَبَائِهِ، وهو ابن عمه مروان بن الحكم رضي الله عن عثمان وأرضاه وعن جميع أصحاب النبي ﷺ (١).

(١) انظر: الأضواء (٢/٤١٢).

وحاصل هذا أن التحقيق الذي لا شك فيه — إن شاء الله — أن الأموال المغنومة التي انتزعتها المسلمون من الكفار أنها نوعان: الأرض، وغير الأرض. أما الأرض فلا يتعين قسمها بينهم، والإمام مخير فيها، فإن رأى مصلحة المسلمين في قسمها قسمها، وإن رأى مصلحة المسلمين في إبقائها وقفاً عليهم أبقاها وقفاً ينتفع بها آخر المسلمين. قال بعض العلماء: والقرآن يشير لهذا؛ لأنه لو لم يكن يبقى لآخر المسلمين شيئاً لما قال الله في المستحقين:

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ﴾ [الحشر: الآية ١٠] لأنه قال أولاً: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ﴾ [الحشر: الآيات ٨ — ١٠] وقال بعض العلماء: لا دليل للغنيمة في آية الحشر هذه؛ لأنها في الفياء، وقد أفتى مالك بن أنس (رحمه الله) أن الذين يسبون أصحاب رسول الله ﷺ أنهم لا حق لهم في فياء المسلمين، ولما نوقش في ذلك قال: «هؤلاء الذين سبوا أصحاب رسول الله ﷺ لا حق لهم في فياء المسلمين؛ لأن الله لما ذكر الذين يعطون فيء المسلمين من الأصناف قال: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ أهؤلاء من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم؟» قالوا: لا. قال: «أهم من الذين قيل فيهم: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾» قالوا: لا. قال: «وأنا أشهد أنهم ليسوا من الصنف الثالث الذين قال الله فيهم: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بل هؤلاء جاؤوا يسبونهم ويعيبونهم فليسوا منهم قطعاً، فتبين

أنهم لا حق لهم»<sup>(١)</sup>.

وعلى كل حال فجميع المال المغنوم يقسم بين الغانمين، والأرض فيها للعلماء ثلاثة مذاهب معروفة كل واحد منها لصاحبه عليه أدلة<sup>(٢)</sup>:

أحدها: أنها تكون غنيمة وتقسم، وهو مذهب الإمام الشافعي، واستدل بعموم قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

وكان مالك بن أنس (رحمه الله) يرى أن أرض الكفار عندما يفتحها المسلمون تصير بمجرد استيلاء المسلمين عليها وقفاً للمسلمين آخرهم يستوون فيها جميعاً لمصلحة الإسلام العامة، وللإعانة على تعبئة الجيوش، والرد عن بيضة الإسلام، والدفاع عن المؤمنين في المستقبل.

وقوم قالوا: يخير الإمام إن رأى قسماً مصالحة قسماً. وهذا مذهب الإمام أحمد، ويروى عن أبي حنيفة نحوه والله تعالى أعلم. وهذا القول بالتخيير هو أقواها دليلاً؛ لأنه تنتظم به الأقوال، وتجتمع به النصوص، والجمع واجب إذا أمكن. أما الأخماس الأربعة من

(١) استنباط مالك (رحمه الله) ذكره القرطبي في التفسير (٣٢/١٨) ونصه: «من كان يُبغض أحداً من أصحاب محمد ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في شيء المسلمين، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ...﴾»، وهو في ابن كثير (٣٣٩/٤). أما المحاوراة التي أوردها الشيخ (رحمه الله) فقد أورد نحوها السيوطي في الدر (١٩٨/٦) عن ابن عمر (وليس في موضوع الفيء)، وأورد القرطبي (٣٢/١٨) نحوها عن علي بن الحسين كذلك (وليس في موضوع الفيء).

(٢) انظر: الأضواء (٣٦٧/٢).

الأرض المقسومة إذا اقتضى نظر الإمام أن يقسمها أو من غير الأرض كالذهب والفضة والخيل والإبل ونحو ذلك، أما هذه الأخماس الأربعة فهي للغانمين تقسم بينهم.

واختلف العلماء: هل يجوز للإمام أن ينفل من هذه الأخماس الأربعة شيئاً؟<sup>(١)</sup> فكان مالك بن أنس رحمه الله - إمام دار الهجرة - يرى أن الإمام لا يجوز له أن ينفل شيئاً من هذه الأخماس الأربعة، وإنما ينفل من الخمس الذي قال الله فيه أنه لله وللرسول ولذي القربى إلى آخر مصارفه.

وذهبت جماعة من العلماء إلى أن للإمام التنفيل منه. وكون الإمام له التنفيل منه هو الحق - إن شاء الله - الذي قامت عليه النصوص الذي لا تكاد تدفع.

وتنفيل الإمام من الأخماس الأربعة التي هي للمجاهدين يكون على أنواع، منها: أن ينفل السرايا ويقول للسرية: اخرجي إلى أرض الكفار فما غنمت فقد نفلتك منه كذا، وقد جاء حديث ثابت عن النبي ﷺ أنه نفل السرايا في البدء الربع، وفي العودة الثلث. هذا حديث ثابت رواه مكحول<sup>(٢)</sup> عن حبيب بن مسلمة<sup>(٣)</sup>، وهو صحابي،

(١) السابق (٢/٣٥٧).

(٢) الحديث من رواية مكحول عن زياد بن جارية عن حبيب بن مسلمة.

(٣) أخرجه أحمد (٤/١٥٩، ١٦٠)، والدارمي (مع شيء من المغايرة في اللفظ والمعنى) (٢/١٤٧)، وأبو عبيد في الأموال ص ٢٨٩، والحميدي (٢/٣٨٤)، وأبو داود في الجهاد، باب فيمن قال: الخمس قبل النفل، حديث رقم: (٢٧٣٣)، (٢/٤٢٤)، وابن ماجه في الجهاد، باب النفل، حديث رقم: (٢٨٥٢)، (٢/٩٥١)، وابن حبان (الإحسان ٧/١٦١)، والحاكم (٢/١٣٣)، =

لا تابعي صغير<sup>(١)</sup>، ورواه بعضهم عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه<sup>(٢)</sup> - وهو ثابت، ومعنى تنفيل الربع في البدءة وتنفيل الثلث في العودة: أن للإمام إذا كان المسلمون متوجهين إلى أرض الكفار أن يقول للسرية: اذهبوا إلى الكفار فما غنمتم منهم فقد نفلتكم ربه. ولا ينفلهم أكثر من الربع، فيكون الربع خالصاً لهم، والباقي هم والمسلمون فيه سواء. وأما تنفيل الثلث في العودة: أن المسلمين إذا رجعوا من أرض الكفار - رجعوا من الغزو إلى بلادهم - فيجوز للإمام أن ينفل بعض السرايا في ذلك الوقت الثلث. والفرق بين البدءة والعودة: أن البدءة الكفار في غفلة، والمسلمون متوجهون لبلادهم فخيرهم أهون، وأما في الرجعة فالكفار في حذر ويقظة والمسلمون منصرفون عن بلادهم، فقضيتهم أصعب؛ ولذا نفل أكثر في الحالة الصعبة من الحالة التي هي أقل صعوبة<sup>(٣)</sup>. هذا ثابت ولا ينبغي أن يُختلف فيه، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله<sup>(٤)</sup>.

= (٣/٣٤٧، ٤٣٢)، وابن الجارود (٣/٣٣٤)، وانظر: صحيح أبي داود (٢/٥٢٥)، صحيح ابن ماجه (٢/١٣٩).

(١) انظر: الإصابة (١/٣٠٩)، الأضواء (٢/٣٨٥).

(٢) أخرجه الدارمي (٢/١٤٧)، وأبو عبيد في الأموال ص ٢٩٠، والترمذي في السير، باب ما جاء في النفل، حديث رقم: (١٥٦١)، (٤/١٣٠)، وقال: «وفي الباب عن ابن عباس، وحيب بن مسلمة، ومعن بن يزيد، وابن عمر، وسلمة بن الأكوخ، وحديث عبادة حديث حسن». اهـ، وانظر: ضعيف الترمذي ص ١٨٤.

(٣) انظر: الأضواء (٢/٣٨٦).

(٤) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١١١)، مسائل ابن هانئ (٢/١٠٥)، المغني

وهذا الذي ذكرنا يدل على أن الجيوش إذا خرجت للقتال في بلاد الكفر، وذهبت سرية وغنمت شيئاً، أن الجيش كله شركاء لهم في ذلك الذي غنموه، ولا يختص به دونهم، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء؛ لأن العلماء مجمعون على أن جميع الجيش معهم فيما غنموا إلا ما نفلهم الإمام من ربع في البدء أو ثلث في العودة.

ومن أنواع التنفيل الجائزة للإمام الثابتة عن النبي ﷺ: أن يرسل الإمام سرية ثم - مثلاً - يعطيهم أنصباؤهم من الغنيمة وينفلهم ما شاء، فقد ثبت في الصحيحين عن ابن عمر (رضي الله عنه) أنه أرسله النبي ﷺ مع سرية قبل نجد، فغنموا، وكانت سهمانهم اثني عشر بعيراً، اثني عشر بعيراً، ونُفِّلوا بعيراً بعيراً<sup>(١)</sup>، فنفلهم نصف السدس؛ لأن الواحد من الاثني عشر نصف نصف سدسها. وهذا ثابت عن النبي ﷺ.

ومن أنواع التنفيل التي تجوز للإمام: أن ينفل بعض الجيش المقاتلين، ويعطيه شيئاً خاصاً لقوته وشدته على المشركين<sup>(٢)</sup>، وقد قدمنا حديث سعد بن أبي وقاص الدال على هذا في أول سورة الأنفال؛ لأن سعد بن أبي وقاص قُتل أخوه عمير بن أبي وقاص يوم بدر، قتله عمرو بن عبد ود العامري، ثم إن سعداً (رضي الله عنه)

(١) البخاري في فرض الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس لنواب المسلمين، حديث رقم: (٣١٣٤)، (٢٣٧/٦)، وأخرجه في موضع آخر برقم: (٤٣٣٨).

ومسلم في الجهاد والسير، باب الأنفال، حديث رقم: (١٧٤٩)، (١٣٦٨/٣).

(٢) انظر: الأضواء (٣٨٦/٢).

حمل [على] (١) المشركين، وقتل العاص بن هشام (٢)، وأخذ سيفه، وكان من أجود السيوف، فطلب النبي ﷺ أن ينقله إياه وفي بعض روايات حديثه الثابتة أنه قال: ربما أعطاه النبي ﷺ لرجل لم يُبل بلائي. والنبي ﷺ منعه أولاً ثم أعطاه إياه آخرًا، وقد ثبت في صحيح مسلم والبخاري أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يأكلون جالسين في بعض مغازيهم، حتى جاءهم أعرابي على بعير، فقيد بعيره وجلس يأكل معهم، ونظر إليهم حتى اطلع على غراتهم وعوراتهم، وهو جاسوس للعدو من المشركين، ثم ذهب يشتد، فجلس على بعيره وأثاره، فسار بعيره سيراً حثيثاً، فكاد أن يفوت الصحابة، فجرى عليه رجل بناقة فلم تدركه، فجرى عليه سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) وكان من السابقين على أرجلهم، وقد ضرب له النبي ﷺ سهمين في غزوة (ذي قرد) كما هو معروف، فذهب سلمة يشتد في أثره حتى جاوز الناقة، ثم كان عند ورك البعير، ثم تقدم فأخذ بخطامه وأناخه، واختلط سيفه وضرب الأعرابي على الرأس فقتله، فقال النبي ﷺ: «من قتل الرجل؟» قالوا: سلمة بن الأكوع. قال: «له سلبه أجمع» (٣). فنقله إياه لأنه أدركه وهو في غاية الخفة والسرعة، أدركه على رجله فنقله سلبه.

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٢) مضى عند تفسير الآية الأولى من هذه السورة، وراجع التعليق عليه في الحاشية هناك.

(٣) مسلم في الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، حديث رقم: (١٧٥٤)،

ومن أنواع التنفيل الجائزة<sup>(١)</sup>: قول النبي ﷺ: «من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه»<sup>(٢)</sup>. وهذا قاله النبي ﷺ فثبت عنه في الصحيح يوم حنين. وذكر بعض العلماء أنه قاله يوم بدر أيضاً.

وكان مالك بن أنس (رحمه الله) يقول: ليس للإمام أن يقول هذا إلا بعد أن تنتهي المعركة، أما قبل انتهاء المعركة فلا يجوز للإمام أن يقول هذا؛ لأنه إن قال هذا قبل انتهاء المعركة أفسد نيات المجاهدين؛ لأن المجاهد يكون يقاتل الرجل ليأخذ سلبه فيكون يقاتل للدنيا لا لإعلاء كلمة الله، أما بعد أن تنتهي المعركة ويزول هذا المحذور فلا بأس أن يقول الإمام: من قتل قتيلاً فله سلبه. لأنه في ذلك الوقت لا محذور فيه من إفساد النية<sup>(٣)</sup>. وجماهير العلماء على أنه لا مانع من أن يقول ذلك ابتداءً؛ لأن المسلمين وإن كان لهم رغبة في الغنيمة فكل من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله كما قاله ﷺ. وقد قال النبي ﷺ يوم حنين: «من قتل قتيلاً فله سلبه»<sup>(٤)</sup>. والذي قتل هذا القتيل يكون له سلبه.

واختلف العلماء: هل يكون له سلبه دون تنفيذ الإمام، أو لا يملك السلب إلا إذا نفذ له الإمام<sup>(٥)</sup>؟ قولان معروفان بين

(١) انظر: الأضواء (٢/٣٨٧).

(٢) البخاري في فرض الخمس، باب «من لم يخمس الأسلاب...»، حديث رقم: (٣١٤٢)، (٦/٢٤٧)، ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، حديث رقم: (١٧٥١)، (٣/١٣٧٠).

(٣) انظر: المدونة (٢/٣١)، الكافي لابن عبد البر ص ٢١٥.

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) انظر: القرطبي (٨/٥)، المغني (١٣/٧٠)، الأضواء (٢/٣٩٠).

العلماء، يستدل قائل كل من القولين عليه بأدلة كثيرة، وقد كان أبو قتادة (رضي الله عنه) يوم حنين رأى رجلاً من المشركين يريد أن يقتل رجلاً من المسلمين فجاءه من خلفه فضربه على حبل عاتقه بالسيف، قال: فرجع إلي فضمّني ضمة شممت منها ریح الموت ثم أدركه الموت فأرسلني. ثم لما جلس النبي ﷺ بعد انتهاء المعركة وقال: «من قتل قتيلاً فله سلبه». قلت: من يشهد لي — بعد مرات — فقال رجل: صدق يا رسول الله سلبه عندي، أرضه منه. وقال له أبو بكر (رضي الله عنه): لا هالله لا يعمد إلى أسد من أسود الله يقاتل عن الله ورسوله ويعطيك سلبه. فقال النبي ﷺ: «صدق، أعطه سلبه» قال أبو قتادة (رضي الله عنه): فاشترت به مخرفاً — يعني حائطاً يُخرف منه الثمار — وكان أول مال تأثّلت في الإسلام<sup>(١)</sup>. هكذا قال أبو قتادة رضي الله عنه.

واعلموا أن بعض العلماء قال: إن النبي ﷺ إذا قال: «من قتل قتيلاً فله سلبه». هل يملك القاتل سلب القتيل بمجرد قتله، أو لا بد أن ينقله له الإمام؟ فقال بعض العلماء: يملكه؛ لأن ذلك هو مقتضى كلامه ﷺ.

وقال بعض العلماء: لا يملكه إلا بتفيل الإمام. واستدلوا لهذا بأدلة منها: ما ثبت أن أبا جهل — لعنه الله — يوم بدر ابتدره معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء (رضي الله عنهما) فأطارا قدمه بنصف ساقه، ثم جاء النبي ﷺ فقال: كل واحد منهما أنا قتله.

(١) البخاري في فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب، حديث رقم: (٣١٤٢)، (٢٤٧/٦)، ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقات القاتل سلب القتيل، حديث رقم: (١٧٥١)، (١٣٧٠/٣).

فقال: «هل مسحتما سيفكما؟» قالوا: لا. فنظر في السيفين وقال: «كلاكما قتله»<sup>(١)</sup>. وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. قالوا: لو لم يتوقف هذا على تنفيل الإمام لكان معاذ بن عفراء شريكاً لمعاذ بن الجموح؛ لأن النبي ﷺ صرح بأنهما قتلاه، في أدلة أخرى غير هذا.

قال علماء الأصول: منشأ هذا الخلاف: خلاف العلماء في قول النبي ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه» هل يملكه دون تنفيل الإمام أو لا بد من تنفيل الإمام؟ منشأ الخلاف: هل قوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه» حكماً منه، أو فتوى<sup>(٢)</sup>؟ فعلى أنه حكم يختص بمن قيل له ولا يعم، وعلى أنه فتوى يعم. وذكروا عن أبي طلحة (رضي الله عنه) أنه في يوم حنين قتل عشرين رجلاً. وفي بعض الروايات: واحداً وعشرين رجلاً، وأخذ أسلابهم كلهم<sup>(٣)</sup>. وكان يقول في يوم حنين<sup>(٤)</sup>:

أنا أبو طلحة واسمي زيد وكل يوم في سلاحي صيد

(١) البخاري في فرض الخمس، باب «من لم يخمس الأسلاب...»، حديث رقم: (١٣٤١)، (٢٤٦/٦)، وأخرجه في موضعين آخرين. انظر: الحديثين (٣٩٦٤)، (٣٩٨٨)، ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القاتل، حديث رقم: (١٧٥٢)، (١٣٧٢ - ١٣٧٠/٣).

(٢) انظر: الأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي ص ١١٦ - ١١٩، الأضواء (٣٩٣/٢).

(٣) أحمد (٣/١١٤، ١٢٣، ١٩٠، ٢٧٩)، الدارمي (٢/١٤٧)، أبو داود، كتاب الجهاد، باب في السلب يُعطى القاتل، حديث رقم: (٢٧٠١)، (٣٨٨/٧).

(٤) البيت في الاستيعاب لابن عبد البر (٤/١١٣)، تاريخ دمشق (١٩/٣٩٧)، الإصابة (٤/١١٣).

رضي الله عنه وأرضاه.

قال بعض العلماء: من قتل قتيلاً له سلبه مطلقاً.

وقال بعضهم: لا يكون له سلبه إلا بتنفيذ الإمام. وتوسط قوم فقالوا مذهباً ثالثاً، قالوا: إن كان السلب قليلاً استحقه دون تنفيذ الإمام، وإن كان كثيراً توقف على تنفيذ الإمام. واستدلوا لهذا بما جاء في رواية صحيحة في السنن وغيرها أن مددياً من حمير كان مع خالد بن الوليد يقاتل يوم مؤتة، وإذا رجل عظيم من الروم يقتل المسلمين، فجلس له المددي الحميري وراء صخرة حتى مضى عليه فعقر به فرسه وعلاه بالسيف فقتله وأخذ سلاحه. وكان سلاحه كله مذهباً، وكان ثميناً جداً، فلما جاء خالد بن الوليد (رضي الله عنه) أرسل إليه وأخذه منه، وسمعها عوف بن مالك (رضي الله عنه) فقال لخالد: لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ ثم لما جاء قصّ الخبر على رسول الله ﷺ، فقال: «مَا لَكَ لَا تَعْطِيهِ سَلْبِهِ؟ أَعْطَاهُ سَلْبِهِ». ثم لما قال ذلك قال له عوف بن مالك: يا خالد أما قلت لك إني مُعْرِفُكَهَا عند رسول الله؟ فسمعها ﷺ فأغضبته وقال: «لا تتركون لي أصحابي؟ لا تعطه يا خالد، لا تعطه يا خالد»<sup>(١)</sup>. قالوا: هذا يدل على أنه إن كان كثيراً لا يعطي؛ لأنه لما سأل خالداً قال: «لِمَ لَا تَعْطِيهِ؟» قال: استكثرته يا رسول الله؛ لأنه ما كثر كثيراً جداً؛ لأن سلاح الرجل فيه ذهب كثير وسلاحه كله مذهب.

(١) مسلم، كتاب الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القاتل، حديث رقم:

(١٧٥٣)، (١٣٧٣/٣).

واختلف العلماء في حقيقة السلب<sup>(١)</sup>، قال بعض العلماء: هو يقتصر على ما يأخذه للأمة الحرب، كالسيف والدرع والرمح ونحو ذلك. والثياب تدخل فيه إجماعاً.

أما إذا وُجد في هميانه أي: في منطقتَه التي يُشدُّ بها وسطه إذا وجدت فيها دنانير، أو دراهم، أو جواهر، فإنها ليست من سلبه إجماعاً.

واختلفوا في فرسه الذي يقاتل عليه هل هو من سلبه أو لا؟ فقال جماعة: هو من سلبه يستحقه القاتل. وقال قوم: لا. كما هو خلاف معروف بينهم.

واعلموا أن التحقيق أن الرجل الذي يقاتل على فرس أن له في الغنيمة ثلاثة أسهم: سهمان لفرسه وسهم للرجل، هذا هو التحقيق الذي لا شك فيه — إن شاء الله — وعليه جماهير العلماء، منهم الأئمة الثلاثة<sup>(٢)</sup>، وهو ثابت في الصحيح ثبوتاً لا مطعن فيه. وخالف في هذا الجمهور الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) وقال: إن له سهمين فقط: سهم للفرس، وسهم لصاحبه. والتحقق أن له ثلاثة أسهم: سهمين للفرس، وسهم للراكب. وقد استدلل الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) بظاهر حديث جاء في ذلك، إلا أن غيره أصح منه وأصرح دلالة في محل النزاع.

واختلف العلماء في البراذين والهجن هل يقسم لهما كما يقسم للخيل العراب، أو لا يقسم

(١) انظر: القرطبي (٩/٨)، المغني (٧٢/١٣)، الأضواء (٣٩٧/٢). وفي الأصل هنا: «السلاح»، وهو سبق لسان.

(٢) انظر: القرطبي (٨/١٤ - ١٥)، المغني (٨٥/١٣)، الأضواء (٣٩٩/٢).

لها<sup>(١)</sup>؟ فسئل عن هذا مالك بن أنس (رحمه الله) فقال: ما أرى أن الهجن والبراذين إلا هي من الخيل؛ لأن الله قال: ﴿وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لَتَرَكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: الآية ٨] أترون أن الهجن من البغال؟ قالوا: لا. أترون أنها من الحمير؟ قالوا: لا. قال: هي من الخيل، فتناولها النصوص الواردة في الخيل<sup>(٢)</sup>.

وقال بعض العلماء في الهجين: والهجين: هو ما أحد أبويه من الخيل رديء من البراذين أبوه أو أمه، فإذا كانت أمه من العراب الحرائر وأبوه ليس كذلك فهو المعروف بالمُقَرَّف<sup>(٣)</sup>، ومنه قول هند بنت النعمان بن بشير<sup>(٤)</sup>:

وما هندُ إلا مُهْرَةٌ عَرِيَّةٌ      سَلِيلَةٌ أَفْرَاسٌ تَجَلَّلَهَا بَغْلٌ  
فإن ولدتُ مُهْرًا كَرِيمًا فَبِالْحَرَى      وإن يكُ إقْرَافٌ فَمَا أَنْجَبَ الْفَحْلُ  
فالمقرف: هو الذي أمه من الخيل العراب الجياد وأبوه ليس كذلك، ومن هذا المعنى قول جرير<sup>(٥)</sup>:

(١) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١٦٠ - ١٦٣)، القرطبي (٨/١٦)، المغني (١٣/٨٦)، الأضواء (٢/٤٠١).

(٢) المدونة (٢/٣٢)، الكافي لابن عبد البر ص ٢١٤.

(٣) انظر: المغني (١٣/٨٧)، الهُجْنَةُ تكون من قِبَل الأم، والإقْرَاف من قِبَل الأب، كما في أدب الكاتب ص ٤١، المصباح المنير (مادة: هجن) ص ٢٤٣، فتح الباري (٦/٦٧).

(٤) البيتان في المغني (١٣/٨٧)، أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٤١، الاقتضاب شرح أدب الكتاب للبطلوسي (١/١٦٥)، (٢/٤٣٩)، الأضواء (٢/٤٠٣)، ولفظ البيت الثاني:

فإن تُنجِبتُ مُهْرًا كَرِيمًا فَبِالْحَرَى      وإن يكُ إقْرَافٌ فَمِنْ قِبَلِ الْفَحْلِ  
(٥) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

إِذَا آبَاؤُنَا وَأَبُوكَ عُذُّوا أَبَانَ الْمُقْرِفَاتِ مِنَ الْعِرَابِ  
 فالحاصل أن الهجن والبراذين قال بعض العلماء: يقسم لها  
 كما يقسم للخيل الجياد العِراب. وقال بعض العلماء: يقسم لها  
 سهم واحد، نصف ما يقسم للخيل العراب الجياد. وقال بعض  
 العلماء: إن كان لها غَنَاء يقرب من غَنَاء الخيل الجياد قُسِمَ لها مثل  
 قُسِمِهَا وإلا فنصف قُسِمِهَا. وشدَّ بعض العلماء فقال: لا يُقَسَم لها  
 شيء؛ لأنه حيوان لا يقوم مقام الخيل فأشبهه الحمير والبغال.  
 وقد كان رجل من حمير من بني وادعة من بطون حِمَيْر أميراً على  
 جيش فسبق الخيل الجياد وتأخر البراذين والهجن ف قيل له: اقسام  
 للبراذين والهجن فلم يعطها إلا نصف ما أعطى للخيل الجياد وقال:  
 لا يمكنني أبداً أن نجعل ما لم يدرك كالذي يدرك. فسمعها عمر بن  
 الخطاب فاستحسنها جداً، وقال: هبلت الوادعي أمه، لقد  
 ذكّرنيها<sup>(١)</sup>. وكان الشاعر الحميري يفتخر بمقالة الوادعي الحميري  
 هذه فيقول<sup>(٢)</sup>:

ومتاً الذي قد سنّ في الخيل سنّةً وكانت سواء قبل ذاك سهامها  
 أما إذا كانت عنده خيول كثيرة<sup>(٣)</sup> فبعض العلماء يقول: لا يأخذ  
 إلا نصيب فرس واحد. وهذا به قال جماعة من العلماء؛ لأنه  
 لا يركب إلا على واحد. وقال جماعة من العلماء: يعطى خمسة  
 أسهم، نصيب فرسين فقط، أما الفرسان فلهما أربعة أسهم، والسهم

(١) سنن سعيد بن منصور (٢/٢٨٠)، والشافعي في الأم (٧/٣٣٧)، والبيهقي  
 (٦/٣٢٨)، وذكره الحافظ في الفتح (٦/٦٧).

(٢) البيت في فتح الباري (٦/٦٧)، الأضواء (٢/٤٠٢).

(٣) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١٥٧ - ١٥٩)، الأضواء (٢/٤٠٠).

الخامس له، ولا يزداد على ذلك<sup>(١)</sup>. ولا خلاف بين العلماء أنه لا يعطى أكثر من نصيب فرسين البتّة، ولو كان عنده خيل كثيرة. ومن قال: يعطى نصيب فرسين قال: لأنه قد يحتاج إلى فرسين ولا يحتاج إلى الثالث غالباً؛ لأن الفرس إذا طال ركوبه قد يضعفه ذلك عن الكرّ والفر، فيكون عنده فرس آخر جنيب فيه قوة ونشاط يزاوّل به في الميدان؛ ولذا قال بعض العلماء: يعطى نصيب فرسين ولا يزداد عليهما، ولم يقل أحد: إنه يعطى أكثر من نصيب فرسين.

فإن كان مقاتلاً على بعير<sup>(٢)</sup> فقال بعض العلماء: ليس للإبل نصيب البتّة<sup>(٣)</sup>. وعليه جماهير العلماء. وذهب بعض العلماء إلى أن البعير إذا لم يجد غيره كان له نصيب نصف نصيب سهم الفرس، وهذا رواية عن الإمام أحمد<sup>(٤)</sup>، ومن قال به قليل، واستدل قائل هذا القول بأن الله لما ذكر الموجب الذي استحقوا به الغنيمة ذكر منه الرّكّاب مع الخيل، والرّكّاب: هي الإبل، قال: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَّابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] وله وجه من النظر، إلا أن جماهير العلماء أن الإبل لا يقسم لها، وقد كان عندهم يوم بدر سبعون بعيراً فلم يقسموا لها، ولم تخل غزواته من الإبل، ولم يقل أحد إنه ﷺ قسم لبعير شيئاً.

(١) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١٥٧ - ١٥٩)، القرطبي (٨/١٥ - ١٦)، المغني (١٣/٨٩).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٤٠٣).

(٣) وحكى عليه ابن المنذر الإجماع، كما في الأوسط (١١/١٦٢).

(٤) انظر: المغني (١٣/٨٩).

أما إذا كان يقاتل على الفيلة<sup>(١)</sup> كما كانت الأعاجم تقاتل فلم يختلف اثنان من العلماء أن الفيل لا يقسم له شيء إذا قاتل عليه صاحبه. قالوا: ليس كالبعير؛ لأن البعير حيوان يُسَابَقُ عليه ويجوز المسابقة عليه بالسبق، وهو إعطاء العوض لمن غلب، كما في حديث: «لا سبق إلا في خفٍ أو نصلٍ أو حافرٍ»<sup>(٢)</sup>. أما الفيل فلم يقل أحد من العلماء: إنه يستحق نصيباً إذا قوتل عليه، أما كونه يسابق عليه فقد قاله بعض العلماء، وهو مبني، على الخلاف في قاعدة أصولية معروفة، وهي: هل إذا جاءت عن الله (جل وعلا) أو عن رسوله ﷺ نصوص عامة هل تدخل فيها الصور النادرة أو لا تدخل<sup>(٣)</sup>؟ قال بعض العلماء: تدخل الصور النادرة. وقال بعض العلماء: لا تدخل الصور النادرة. وهذه القاعدة الأصولية تحتها فروع اختلف فيها العلماء، من هذه الفروع: من خرج منه المني بغير لذة، كالذي ينزل في ماء حار فينزل منه المني، أو تلدغه عقرب في ذكره فينزل منه المني، أو تهزه دابة فينزل منه المني، فنزول المني من غير لذة كبرى صورة نادرة، فعلى أن الصور النادرة تدخل في عمومات النصوص يدخل في عموم قوله: «إنما الماء من

(١) انظر: الأضواء (٢/٤٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٥٦، ٣٥٨، ٣٨٥، ٤٢٥، ٤٧٤)، وأبو داود في الجهاد، باب في السبق، حديث رقم: (٢٥٥٧)، (٧/٢٤١)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في الرهان والسبق، حديث رقم: (١٧٠٠)، (٤/٢٠٥)، والنسائي في الكبرى، كتاب الخيل، باب السبق، حديث رقم: (٤٤٢٦)، (٣/٤١)، وابن ماجه في الجهاد، باب السبق والرهان، حديث رقم: (٢٨٧٨)، (٢/٩٦٠).

(٣) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/٥٥)، نثر الورود (١/٢٤٥).

الماء»<sup>(١)</sup> فيجب عليه الغُسل، وعلى أنها لا تدخل في النصوص فلا يجب عليه الغسل. قالوا: ومن فروع هذه القاعدة المسابقة بسببٍ على الفيل؛ لأن الفيل ذو خفٍ فرجل الفيل كرجل البعير، فهو من ذوات الخفاف. والفيل صورة نادرة قد لا تخطر في ذهن المتكلم، فعلى أن الصور النادرة تدخل في عمومات النصوص تجوز المسابقة على الفيل، وعلى هذا القول لا يبعد أن يكون فيه مثل القول الذي في الإبل، وعلى أن الصور النادرة لا تدخل في النصوص لا تجوز المسابقة على الفيل. هذا من حكم الغنائم.

وقد ذكرنا الآن أن الغنيمة إن كانت أرضاً فلإمام فيها ثلاثة أقوال<sup>(٢)</sup>، وإن كانت غير أرض فإنها تقسم على التحقيق بين المجاهدين، وأن التحقيق أن للإمام أن ينقل منها في الصور التي ذكرنا<sup>(٣)</sup> كتفيله الربع في البداية، والثالث في العودة، وتنفيذ بعض الرجال لشدة شكيمته وغنائه، وتنفيذه من أخذ السلب كما قال: «فمن قتل قتيلاً فله سلبه»<sup>(٤)</sup>. واختلاف العلماء فيه هل هو فتوى فيعم، أو حكم فيخص؟. ولأجل هذا اختلفوا في قول النبي ﷺ لهند بنت عتبة بن ربيعة لما قالت له: أبو سفيان رجل يمسك ولا يعطيني ما يكفيني وولدي. فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»<sup>(٥)</sup>.

(١) مسلم في الحيض، باب إنما الماء من الماء، حديث رقم: (٣٤٣)، (١/٢٦٩).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٦٧).

(٣) انظر: الأضواء (٢/٣٨٥).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) البخاري في البيوع، باب «من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع...»، حديث رقم: (٢٢١١)، (٤/٤٠٥)، وأخرجه في مواضع أخرى.

فعلى أنه فتوى فهو يعم جميع النساء<sup>(١)</sup>، فتكون كل امرأة بخل عليها زوجها بالإنفاق اللازم جاز لها أخذه بغير إذنه. أو هو حكم فيكون خاصاً كقضية: «من قتل قتيلاً فله سلبه».

واعلم أن من أحكام الغنيمة: حرمة الغلول<sup>(٢)</sup>، والغلول في الشرع<sup>(٣)</sup>: هو أن يسرق الإنسان من الغنيمة، فإذا سرق الإنسان من الغنيمة قبل أن تقسم، أو زنى ببعض المسيبات في الغنيمة قبل أن تقسم فجماهير العلماء - منهم الأئمة الثلاثة - أنه لا يجلد حد الزنى، وأنه لا تُقطع يده في السرقة<sup>(٤)</sup>؛ لأن له شبهة في الغنيمة؛ لأنه من المستحقين لها وهو مشارك فيها. ومذهب مالك بن أنس رحمه الله في هذه المسألة مشكل غاية الإشكال؛ لأن مالكاً (رحمه الله) يرى أنه إن سرق من الغنيمة قبل القسم، أو وطىء جارية من المغنم قبل القسم أنه يُحدُّ حدَّ السرقة وحد الزنى<sup>(٥)</sup>، مع أنه يرى أنه لو مات في ذلك الوقت لورث عنه وارثه نصيبه من الغنيمة! كيف يكون فيه نصيب يُورث عنه ولا يكون شبهة تدرأ عنه الحد؟ ففي هذا المذهب إشكال، وإن قال به هذا الإمام العظيم الجليل المعروف.

= انظر الأحاديث: (٢٤٦٠، ٣٨٢٥، ٥٣٥٩، ٥٣٦٤، ٥٣٧٠، ٦٦٤١، ٧١٦١، ٧١٨٠)، ومسلم في الأفضية، باب قضية هند، حديث رقم: (١٧١٤)، (١٣٣٨/٣).

(١) انظر في هذه المسألة: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي ص ١١٢ - ١١٤.

(٢) انظر: القرطبي (٢٥٨/٤)، الأضواء (٤٠٧/٢).

(٣) انظر: القرطبي (٢٥٦/٨)، القاموس الفقهي ص ٢٧٧، الأضواء (٤٠٤/٢).

(٤) انظر: القرطبي (٢٦١/٤)، المغني (١٣/١٩٥، ١٩٦)، الأضواء (٤٠٧/٢).

(٥) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ٢١٢، الأضواء (٤٠٧/٢).

واعلموا أن الوقت الذي يستحق فيه الغانم نصيبه من المغنم اختلف فيه العلماء<sup>(١)</sup>: فقال بعض العلماء: إذا أخذوا في الدرب، والدروب هي: الطرق الموصلة إلى بلاد الكفار من العجم ونحوهم إذا أخذوا فيها فكل من مات منهم له نصيبه من الغنيمة، ولو مات قبل أن تُحاز الغنيمة. وهذا قائله قليل وليس بوجيه.

وقال بعض العلماء لا يورث عنه نصيبه ويستحقه حتى يحوز المسلمون الغنيمة، ويخرجون بها من ديار الحرب إلى بلاد الإسلام، فعند ذلك الوقت يستقر مُلكُهم لها، ويورث عنه نصيبه، ويُروى نحو هذا عن أبي حنيفة رحمه الله.

وأظهر الأقوال: أنه إن مات بعد أن حاز المسلمون الغنيمة وأخذوها من الكفار يورث نصيبه عنه، وإن مات قبل أن تُحاز لم يورث عنه شيء<sup>(٢)</sup>؛ لأنه مات قبل أن يحصل شيء يكون ملكاً له حتى يورث عنه، هذا هو الأظهر. هذه أحكام من أحكام الغنيمة.

واعلموا أن العلماء اختلفوا في الغال هل يُحرق رحله أو لا<sup>(٣)</sup>؟ فقد جاءت عن النبي ﷺ أحاديث تدل على أن الغال - السارق من الغنيمة - يُحرق رحله ومتاعه، وهذا جاء عن النبي ﷺ، والخلفاء وغيرهم ربما حرقوا متاع الغال وربما تركوا حرقه. وأظهر الأقوال في هذه المسألة أنها من التعزيرات المالية الموكولة إلى نظر الإمام إن رأى المصلحة في حرق متاعه حرقه وله ذلك، وإن رأى إبقاءه،

(١) انظر: المغني (٩١/١٣)، الأضواء (٤٠٨/٢).

(٢) انظر: المغني (٩١/١٣).

(٣) انظر: القرطبي (٤/٢٥٩ - ٢٦٠)، المغني (١٣/١٦٨ - ١٧٢)، الأضواء

وإن كان فيه مصحف فإنه لا يحرقه، وقد غلّ رجل في بعض الغزوات فيها بعض المسلمين فحرقوا متاعه وجدوا فيه مصحفاً فباعوا المصحف وتصدقوا بثمنه<sup>(١)</sup> كذا قال بعضهم والله أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] قال بعض العلماء<sup>(٢)</sup>: الخمس ستة أنصباء: نصيب لله، ونصيب للرسول ﷺ، ونصيب لذي القرباة، ونصيب لليتامى، ونصيب للمساكين، ونصيب لابن السبيل. ومن قال: إنها ستة أنصباء، لم أعلم أحداً اشتهر عنه هذا القول إلا أبا العالية (رحمه الله) فإنه قال: الخمس يُجعل ستة أنصباء، قال: ونصيب الله هو أنه إذا جاء المال يأخذ الإمام ويملاً يده منه ويجعلها في رتاج<sup>(٣)</sup> الكعبة. فعنده: نصيب الله يُصرف في مصالح الكعبة. وهذا القول لا يخفى ضعفه؛ لأنه لا دليل عليه. والتحقيق - إن شاء الله - الذي عليه جماهير العلماء: أن نصيب الله ونصيب الرسول ﷺ واحد، وأن اسم الله ذكر للاستفتاح والتعظيم لشأنه (جل وعلا)<sup>(٤)</sup>؛ لأن كل شيء له جل وعلا ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلْ شَيْئاً﴾ [النمل: الآية ٩١] فنصيب الله هو نصيب الرسول ﷺ.

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٢/٢٦٩)، والدارمي (٢/١٤٩)، وأبو داود في الجهاد، باب في توبة الغال، حديث رقم: (٢٦٩٦)، (٧/٣٨١)، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في الغال ما يصنع به، حديث رقم: (١٤٦١)، (٤/٦١).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٥٥٠)، القرطبي (٨/١٠)، الأضواء (٢/٣٥٧).

(٣) قال في المصباح المنير: «والرتاج: بالكسر الباب العظيم، والباب المغلق أيضاً، وجعل فلان ماله في رتاج الكعبة، أي: نذره هدياً، وليس المراد نفس الباب». اهـ. (المصباح المنير: مادة: رتج) ص ٨٣.

(٤) انظر: ابن جرير (١٣/٥٤٨)، الأضواء (٢/٣٥٨).

والتحقيق: أن نصيب رسول الله ﷺ من الخمس كان يرده على مصالح المسلمين لا يأخذ منه شيئاً؛ لأنه كان يأخذ خلته الضرورية من فيء بني النضير، وربما أخذ منه بعضاً من فيء قريظة، وأن نصيبه إنما يجعله في مصالح المسلمين، كما جاء عنه ﷺ في حديث ثابت رواه بعض أصحاب السنن والإمام أحمد وغيرهم أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»<sup>(١)</sup>. فصرح بهذا الحديث بأن الخمس مردود عليهم.

واختلف العلماء في نصيب النبي ﷺ بعد موته<sup>(٢)</sup>: فجماهير العلماء على أن نصيبه ثابت بعد موته ولا يسقط بموته، وكذلك نصيب قرابته، وأن الإمام بعده يصرفه في مصالح المسلمين كما كان يصرفه رسول الله ﷺ فيها، وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر يصرفان نصيبه ﷺ في مصالح المسلمين العامة من الكراع والسلاح وغيره كما كان ﷺ يفعله. وخالف في هذا الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) فقال: بعد موته ﷺ يسقط نصيبه ونصيب قرابته، فما يبقى إلا ثلاثة أنصباء،

(١) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:

١ - عبد الله بن عمرو، عند أبي داود في الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال، حديث رقم: (٢٦٧٧)، (٣٥٩/٧)، والنسائي في قسم الفيء، حديث رقم: (٤١٣٩)، (١٣١/٧).

٢ - عمرو بن عبسة، عند أبي داود في الجهاد، باب في الإمام يستأثر بشيء من الفيء لنفسه، حديث رقم: (٢٧٣٨)، (٤٣٤/٧).

٣ - عبادة بن الصامت، عند مالك في الموطأ، حديث رقم: (٩٨٥) ص ٣٠٤، والنسائي في قسم الفيء، حديث رقم: (٤١٣٨)، (١٣١/٧).

(٢) انظر: ابن جرير (٥٥٦/١٣)، القرطبي (١١/٨)، الأضواء (٣٦٠/٢).

وهي نصيب اليتامى والمساكين وابن السبيل. وجماهير العلماء على خلاف هذا.

وقوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] اختلف العلماء في المراد بـ (ذي القربى)<sup>(١)</sup> فقال بعضهم: بنو هاشم. وقال بعضهم: قريش. والتحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه: أن المراد بـ (ذي القربى) بنو هاشم وبنو المطلب خاصة، وقد ثبت هذا في الصحيح عن النبي ﷺ فلا ينبغي العدول عنه. هذا هو المذهب الحق الذي لا شك فيه، وهو مذهب الإمام الشافعي وأحمد (رحمهما الله)، ويروى عن أبي حنيفة. أما ما ذهب إليه مالك من أنهم خصوص بني هاشم. وما قاله بعض القرشيين من أنهم قريش كلهم فهو خلاف التحقيق. والدليل على هذا القول: هو ما ثبت في صحيح البخاري وغيره أن النبي ﷺ لما قسم أموال خيبر وأخرج خمسها أعطى نصيب القرابة من خمس خيبر لخصوص بني هاشم وبني المطلب، ولم يعط لأخوانهم الآخرين. أعني بني عبد شمس وبني نوفل، فجاء عثمان بن عفان وهو من بني عبد شمس، وجبير بن مطعم وهو من بني نوفل، فقالوا: يا رسول الله ﷺ أعطيت إخواننا من بني المطلب ونحن وهم بالنسبة إليك سواء، فلم تعطهم وتمنعنا؟ فأعطنا كما أعطيتهم. فقال ﷺ: «إننا وبنو المطلب شيء واحد». وفي بعض رواياته: «لم نفترق في جاهلية ولا إسلام»<sup>(٢)</sup>. لأن هؤلاء الأربعة إخوة؛ لأن عبد

(١) انظر: ابن جرير (٥٥٣/١٣)، القرطبي (١٢/٨)، الأضواء (٣٦١/٢).

(٢) البخاري في فرض الخمس، باب من الدليل على أن الخمس للإمام، حديث رقم: (٣١٤٠)، (٢٤٤/٦)، وأخرجه في موضعين آخرين. انظر الحديثين: (٤٢٢٩، ٣٥٠٢).

مناف أولاده أربعة: وهم هاشم جدّ النبي ﷺ، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل<sup>(١)</sup>. أما الثلاثة الأولون منهم أشقاء، وأمهم عاتكة بنت مرة، إحدى عواتك النبي ﷺ؛ لأن بعض أصحاب المغازي والأخباريين ذكروا عنه ﷺ أنه قال في بعض مغازيه: «أنا ابن العواتك من سليم»<sup>(٢)</sup>. وعواتك سليم هذه التي انتسب إليها النبي ﷺ ثلاث عواتك معروفة<sup>(٣)</sup>: الكبرى منها عمّة الوسطى، والوسطى عمّة الصغرى كما هو معروف. وسليم بن منصور من قبائل قيس عيلان بن مضر، وسليم أخو هوازن. والعواتك هذه: صغراهن: عاتكة بنت الأوقص بن مرّة بن هلال، وعمتها: عاتكة بنت مرة، وعمّة هذه: عاتكة بنت هلال. أما الصغرى منهما – وهي عاتكة بنت الأوقص – فهي والدّة وهب والد آمنّة بنت وهب أم النبي ﷺ، فهي جدّته من قبيل والد أمّه، وأما عمتها وهي: عاتكة بنت مرة: فهي أم هاشم جدّه ﷺ وأخويه الشقيقين: المطلب وعبد شمس، أما أخوهما نوفل فهو ليس بشقيقهما، وأمّه تُسمى واقدة بنت أبي عدي، واسم أبي عدي: نوفل. سمّت عليه ولدها نوفل هذا. والحاصل أن النبي ﷺ لما عاداه المشركون، وقاطعوا بني هاشم، واضطروهم إلى

(١) انظر: القرطبي (١٢/٨)، الأضواء (٣٦٢/٢).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٨٤٠، ٢٨٤١)، والطبراني في الكبير (١٦٨/٧ – ١٦٩)، والبيهقي في الدلائل (١٣٥/٥، ١٣٦)، وابن عساکر (تهذيب تاريخ دمشق ١/٢٨٩)، والعلائي في جامع التحصيل ص ٢٣٤، وذكره الهيثمي في المجمع (٢١٩/٨) وقال: «رجاله رجال الصحيح». اهـ، وابن كثير في تاريخه (٣٢٨/٤)، وهو في الكنز (٣١٨٧٤، ٣٥٥٠٤)، والسلسلة الصحيحة (١٥٦٩).

(٣) انظر: تهذيب تاريخ دمشق (٢٨٩/١)، الأضواء (٣٦٢/٢).

أن يرحلوا إلى الشَّعب كان بنو المطلب معهم في كل بلية، ولم يفارقوهم في شيء، وكان إخوانهم الآخرين بني عبد شمس وبني نوفل كانوا معادين لهم مع قريش، ولم ينصروهم عليهم، وكان أبو طالب يقول لهم في لاميته المشهورة<sup>(١)</sup>:

جَزَى اللّهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلًا      عُقُوبَةَ شَرِّ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ  
بِمِيزَانٍ قَسِطٍ لَا يَخِيسُ شَعِيرَةً      لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلٍ  
لَقَدْ سَفَهَتْ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا      بَنِي خَلْفٍ قِيضًا بِنَا وَالْغِيَاطِلِ  
وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ      وَآلِ قِصِي فِي الْخَطُوبِ الْأَوَائِلِ

فعرَّف النبي ﷺ لبني المطلب انسجامهم معهم في كل البلايا وصبرهم عليهم في الشدائد فجعلهم من القرابة، وأعطاهم من خمس خبير سهم ذي القرابة، ولم يعط إخوانهم الآخرين، أعني بني عبد شمس وبني نوفل شيئاً. وهذا هو التحقيق في ذي القرابة.

واختلف العلماء في ذي القرابة هل يُفضل ذكرهم على أنثاهم<sup>(٢)</sup>؟ فذهب الشافعي وأحمد أنهم يُعطون للذكر مثل حظ الأنثيين، قالوا: نالوه بالنبي ﷺ، وهم عصبته، والمعروف أن المال المستحق للعصبة يكون فيه الذكر له حظ الأنثيين.

وقال بعض العلماء: ذكرهم وأنثاهم سواء. وهذا أقربها؛ لأن تفضيل الذكر على الأنثى يحتاج إلى دليل، ولم يرو أحد أنه فضل ذكرهم على أنثاهم. ولا يشترط فيهم على التحقيق الفقر<sup>(٣)</sup>، فيعطى بنو هاشم والمطلب غنيهم وفقيرهم.

(١) القصيدة في البداية والنهاية (٣/٥٣ - ٥٧)، الأضواء (٢/٣٦٣).

(٢) انظر: القرطبي (٨/١٢).

(٣) انظر: السابق.

أما نصيب اليتامى والمساكين فلا يعطى إلا لفقرائهم، فلا يُعطي يتيمٌ غنيٌّ ولا مسكينٌ غنيٌّ.

واليتيم من بني آدم: هو من مات أبوه<sup>(١)</sup>. وغلط قوم فقالوا: اليتيم من الآدميين: من مات أبوه وأمه. قالوا: قال مجنون ليلي<sup>(٢)</sup>:

إلى الله أشكو فقد ليلي كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم  
فسمّاه يتيماً بفقد الوالدين. والصواب: فقد الأب وحده يكفي في يتمه.

وابن السبيل: هو المنقطع عن بلاده. والسبيل: الطريق. وإنما قال له: ابن السبيل كأنه يقول: ولد الطريق. وتسميته ولد الطريق فيه للعلماء وجهان:

أحدهما: أنه كثر سلوكه لها، والعرب إذا كثرت ملازمة الشيء للشيء قالوا ابنه. ومنه قول غيلان ذي الرمة<sup>(٣)</sup>:

وردتُ اعتِسَافاً والثُّريا كأنَّها على قمةِ الرأسِ ابنِ ماءٍ مُحلَّقِ  
فسمى طير الماء الملازم له: ابن الماء، فلما كان المسافر ملازماً للطريق قيل له: ابن الطريق.

وقال بعض العلماء: كأن الفلاة تمخّضت عنه كما تتمخّض النتوج عن ولدها فرمتنا به كما ترمي الحامل بما في بطنها. وهذا

(١) تقدم عند تفسير الآية (١٥٢) من سورة الأنعام.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٨٨.

(٣) البيت في تاريخ دمشق (٢٤/٢٥٢).

المعنى أوضحه مسلم بن الوليد الأنصاري صريح الغواني إيضاحاً كاملاً - وإن كان الشعر هنا لا يصلح شاهداً لتأخر زمنه ولكن يصلح مثلاً للإيضاح - فإنه قال في رجل يزعم أن بيداء - وهو الفلاة الواسعة - ولدته وتمخضت عنه وصار ابنها كما تتمخض التوتج عن ولدها قال (١):

تمخضت عنه تماً بعد محمله شهرين بيداء لم تضرب ولم تلد  
ألقته كالتصل معطوفاً على همم يعمدن متجععات خير مُعتمد

وابن السبيل: هو المحتاج الآن، وهو منقطع عن بلده، ولو كان غنياً في بلده، فيعطى من الخمس ما يوصله إلى بلده حتى يرجع إلى محله. هذا معنى: ﴿وَأَيَّتَمَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

/ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ [١/٥]﴾  
وَأَيَّتَمَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادْنَا كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَلَكِنَّا نَزَّلْنَاهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ [الأنفال: الآيات ٤١ - ٤٤].

(١) البيت في ديوانه ص ٧١، وفي شرحه للدهان ص ٨٤.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ [الأنفال: الآية ٤١] تكلمنا بالأمس على جمل من الأحكام الداخلة تحت هذه الآية من أحكام المغانم، ومن جملة ما ذكرنا: أن العلماء اختلفوا في خمس الغنيمة، فقال بعضهم: يُجعل ستة أقسام، قسم لله، وقسم للرسول ﷺ، وقسم لذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وكان أبو العالية (رحمه الله) يقول: إن قسم الله (جل وعلا) يُجعل للكعبة. وزعم أن النبي ﷺ كان يضرب بيده في الخمس فيأخذ منه ويجعله للكعبة، وأن هذا هو نصيب الله<sup>(١)</sup>. وأكثر العلماء على أن نصيب الله والرسول ﷺ واحد، وأن اسم الله إنما ذكر تعظيماً وإجلالاً واستفتاحاً للكلام بذكر اسمه؛ لأن كل شيء كائناً ما كان فهو له — جل وعلا — ونصيب الرسول ﷺ كان يصرفه في مصالح المسلمين كما دل عليه حديث: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»<sup>(٢)</sup>.

وقد قدّمنا أن أصح الأقوال: في (ذي القربى) أنهم بنو هاشم وبنو المطلب، وأن النبي ﷺ بين أنهم هم المرادون بآية الأنفال هذه؛ لأنه لما خَمَسَ خبير أعطى خمس الخمس لبني هاشم وبني المطلب باسم أنه سهم ذي القربى. وهذا ثابت عن النبي ﷺ في صحيح البخاري وغيره؛ لأن البخاري (رحمه الله) أخرج الحديث هذا في صحيحه في مواضع متعددة: جاء عثمان بن عفان، وجبير بن

(١) مضى قريباً.

(٢) مضى قريباً.

مطعم إلى النبي ﷺ لما أعطى بني هاشم وبني المطلّب خمس ذي القربى من غنائم خيبر، قال العبشميون والنوفليون: نحن من رسول الله ﷺ قرابتنا مثل قرابة بني المطلّب، فجاء عثمان وهو من بني عبد شمس؛ لأن أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) هو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وعبد شمس أخو المطلّب. وهاشم، وجبير بن مطعم هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل، ونوفل هذا أخو هاشم والمطلّب، فجاء جبير وعثمان يطلبون النبي ﷺ أن يسوي بني نوفل وبني عبد شمس بيني المطلّب، فأبى النبي ﷺ ويبيّن أن بني المطلّب وبني هاشم هم المرادون بالقرابة، وأنهم هم المستحقون خمس خمس الغنيمة. وهذا ثابت في الصحيح عن النبي ﷺ<sup>(١)</sup> فلا ينبغي الخلاف فيه. وإن كانت جماعة من العلماء منهم مالك وأصحابه قالوا: أن ذي القربى أنهم الهاشميون. وجماعة قالوا: إنهم قريش كلهم. فأصح الأقوال وأثبتها دليلاً أن المراد بذي القربى: بنو هاشم وبنو المطلّب ابني عبد مناف دون إخوتهم الآخرين من بني عبد شمس وبني نوفل، فهذا هو الصواب - إن شاء الله -؛ لأنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه فعله ميّناً به معنى هذه الآية الكريمة.

وقد ذكرنا أن العلماء اختلفوا في ذي القربى، فجمهور العلماء على أن نصيبهم باق، وأنه لم يسقط بموته ﷺ خلافاً لأبي حنيفة. وقد قدّمنا أن أكثر العلماء على أنه يعطى منه غنيّهم وفقيرهم ولا يختص بفقرائهم، وأن بعض العلماء قال: يُفضّل ذكرهم على أنثاهم كالميراث. وبعضهم قال: يُسوّى فيه الذكر والأنثى.

(١) تقدم تخريجه قريباً.

وأن المراد بنصيب اليتامى: قال بعض العلماء: يجعل خُمس الخُمس لسد خلّات اليتامى الفقراء الذين لم يترك لهم آباؤهم مالاً.

والمساكين: جمع مسكين، والمسكين إذا أطلق وحده - لم يذكر معه الفقير - تناول الفقير. وعلماء التفسير يقولون: المسكين والفقير إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. يعني: إن ذكرا معاً مجتمعين افترق حكمها فكان أحدهما أشد فقراً من الآخر، وإن افترقا - بأن ذكر المساكين دون الفقراء، أو الفقراء دون المساكين - اجتمعا. أي: شمل المسكين حكم الفقير، والفقير حكم المسكين<sup>(١)</sup>. ومعلوم اختلاف العلماء في الفقير والمسكين أيهما أحوج<sup>(٢)</sup>، فذهب بعض العلماء، وهو رأي مالك بن أنس وطائفة من العلماء إلى أن المسكين أشد حاجة. واستدلوا بأن الله قال: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾<sup>(١٣)</sup> يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ [البلد: الآيات ١٤ - ١٦] فوصف المسكين بأنه (ذو متربة) ومعنى (ذو متربة): لاصق بالتراب ليس له شيء غير التراب، وأنه (مفعيل) من السكنى؛ لأن يده سكنت عن التصرف، وجوارحه عن النشاط من الجوع والفاقة.

وقال مالك: إن العرب تطلق الفقير على من عنده مال لا يكفيه. واستدل بقول راعي نمير وهو عربي فصيح<sup>(٣)</sup>:

(١) انظر: ابن جرير (٣٠٥/١٤)، الفروق اللغوية ص ١٤٥، القرطبي (١٦٨/٨)، ابن كثير (٣٦٤/٢).

(٢) السابق.

(٣) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص ٩٠، القرطبي (١٦٩/٨)، وقوله: «سبد»، أي: وير، وقيل: شعر، وذلك كناية عن الإبل أو الغنم.

أما الفقيرُ الذي كانت حلوبته وَفُقَ الْعِيَالِ فلم يُترك له سَبَدٌ  
فسمّاه فقيراً وعنده حلوبة قدر عياله .

وقال جماعة آخرون من العلماء: إن الفقير أشد حاجة،  
واستدلوا بأن الفقير كأن الفاقة قصمت فقارته لشدتها. قالوا: وقد  
سمى الله قوماً مساكين وعندهم سفينة عاملة في البحر في قوله:  
﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ [الكهف: الآية ٧٩]  
فسماهم مساكين مع أن عندهم سفينة عاملة بالإيجار، هكذا قال  
بعض العلماء .

وابن السبيل معناه: ولد الطريق. يُعطى من خُمس الخُمس ما  
يبلغه أهله. وابن السبيل مصرف محتاج، ولو كان غنياً في محله؛  
لأن ماله في محله الذي هو متغرب عنه لا يدفع فقره في حالته الراهنة  
في حال كونه متقطعاً في سبيله .

وهذا معنى قوله: ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ [الأنفال: الآية ٤١]  
هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال يعظم الله فيها شأن الخُمس،  
كأنه جعل أداء الخُمس من الإيمان. يعني: إن كنتم آمنتم بربكم  
(جل وعلا) وما أنزل على نبيه فاعلموا وتيقنوا أن ما غنمتم من  
شيء فإن لله خمسه، ونفّذوا ذلك؛ ولذا ذكر البخاري (رحمه الله)  
في كتاب الإيمان أن أداء الخُمس من الإيمان<sup>(١)</sup>؛ لأن الله قال  
لما ذكر أداء الخُمس قال: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ [الأنفال:  
الآية ٤١] وفي حديث وفد عبد القيس الثابت في الصحيح المشهور

(١) البخاري (مع الفتح) (١/١٢٩).

أن النبي ﷺ لما عدَّ خصال الإيمان عدًّا منها أداء الخمس<sup>(١)</sup>.  
وذلك لأن الله قال بعد ذكره أداء الخمس: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ  
بِاللَّهِ﴾.

واعلموا أن جماعة من العلماء منهم مالك وأصحابه<sup>(٢)</sup> قالوا:  
إن هذه المصارف الخمسة<sup>(٣)</sup> لا تعين كلها بل الأمر موكول إلى  
اجتهاد الإمام يضعه حيث يشاء، إلا أن الله أرشد إلى أن هذه الخمسة  
هي المصارف الذي لا ينبغي أن يتجاوزها به. وهذا رأي مالك  
ونصره غير واحد، والظاهر الذي هو الاحتياط: أن يجعله خمسة  
أنصباء<sup>(٤)</sup>، كما قال الله (جل وعلا)؛ لأن الله شدد في ذلك في قوله:  
﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ ﴿عَبْدِنَا﴾: هو  
محمد ﷺ. وصيغة الجمع في قوله: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا﴾ للتعظيم. وقوله:  
﴿وَمَا أُنزِلْنَا﴾ معطوف على اسم الجلالة، أي: إن كنتم آمنتم بالله  
وآمنتم بالذي أنزلنا على عبدنا محمد ﷺ من هذه الآيات القرآنية؛  
لأن الله أنزلها عليكم، ونصركم عند نزولها، وأمركم فيها بأداء  
الخمس إن كنتم مؤمنين، فإن كنتم مؤمنين بما أنزل الله على نبيه

(١) البخاري في الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، حديث رقم: (٥٣).

وأخرجه في مواضع أخرى. انظر الأحاديث: (٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨، ٣٠٩٥،  
٣٥١٠، ٤٣٦٨، ٤٢٦٩، ٦١٧٦، ٧٢٦٦، ٧٥٥٦).

ومسلم في الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين،  
حديث رقم: (١٧، ١٨)، (٤٦/١).

(٢) انظر: القرطبي (١١/٨)، قوانين الأحكام الشرعية لابن جزي ص ١٦٩ -  
١٧٠.

(٣) أي: للخمس.

(٤) انظر: الأضواء (٣٦٥/٢).

فاعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه؛ لأن ذلك من جملة ما أنزل الله في هذه الآيات النازلة يوم بدر.

وقال بعض العلماء: المراد بقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالذي أنزلنا على عبدنا قالوا هو قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: الآية ١] وقد أمر الرسول ﷺ أن يخرج خمسه ويصرفه في هذه المصارف المذكورة ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] بذلك المنزل فاعلموا أنما غنمتم من شيء فخمسه لله. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ لأن العبد من أشرف الصفات؛ لأن أشرف الصفات: العبودية له (جل وعلا)؛ ولذا إذا أراد الله أن يرفع من شأن نبيه ويعظم الموقف الذي هو فيه عبّر عنه بلفظ العبد؛ لأنها أعظم صفة وأكرمها كما قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: الآية ١] وقال هنا: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم الفرقان هو يوم بدر، لم يكذب يُختلف في ذلك، وإنما قيل لبدر يوم الفرقان لأنه يوم فرق الله به بين الحق والباطل، أوضح حجة الإسلام أنه الحق، وأن الكفر باطل إيضاحاً يشاهده الجاهل والعالم والغبي؛ لأنه التقت فئتان: فئة كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، وهي فئة قوية في عددها وعُددها، وفئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، هي ضعيفة في عددها وعُددها، فنصر الله [الضعيفة على القوية]<sup>(١)</sup> وغلبتها وقتلت صناديدها وأشرفها وأسرتهم، فتيين بهذا بياناً واضحاً شافياً يراه الناس بحواسهم أن

(١) في الأصل: «القوية على الضعيفة» وهو سبق لسان.

الإسلام دين الحق، وأن الله فرّق بين الحق والباطل بوقعة بدر، إذ ليس من المعقول أن تكون الفئة الضعيفة القليلة في عددها وعددها هي الغالبة القاهرة إلا بتأييد من خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، وهذا التأييد لا يكون منه إلا لأنها هي المحقّة؛ ولذا سمّى الله بدرأ (فرقانا) وسمّاه (بيّنة) وسمّاه (آية). سمّاه (فرقانا) في قوله هنا: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وسمّاه (بيّنة) في قوله في هذه الآية ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] لأنه سيأتي تفسيره، أي: ليبقى على كفره من كفر على وضوح من أمره أن الكفر باطل، ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ بالإيمان ﴿مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ وضوح ظاهر لا شك فيه أن الإسلام حق لنصر الفئة القليلة الضعيفة على الفئة الكافرة القوية. وسمّاه (آية) في سورة آل عمران في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٣] آية: أي: علامة على أن دين الإسلام هو الحق الذي لا شك فيه.

وهذه الآية القرآنية تدل على أن من علامات دين الإسلام وأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره كما قال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥] وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: الآية ١٩] وقال: ﴿وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣] تُبيّن أن من خصائص هذا الدين ومن علاماته: أن الفئة القليلة المتمسكة به تغلب الفئة القوية الكافرة التي لم تتمسك به، وقد جاءت لهذا أمثلة عديدة في القرآن سنذكر لكم بعضها ليتّضح معنى الآية<sup>(١)</sup>: من ذلك ما قصّه الله (جل وعلا) علينا في سورة

(١) انظر: الأضواء (٣/٤٥٣).

الأحزاب في غزوة الخندق لما جاء الكفار في عددهم وعددهم وحاصروا النبي ﷺ وأصحابه بالمدينة - هذه حرسها الله - وحاصروهم ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم الذي نوّه الله بشأنه، وبين شدته وعظمه في سورة الأحزاب في قوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٥﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] هذا الحصار العظيم جاء وعدد الكفار ضخم، وعددهم قوة، وأصحاب النبي ﷺ في ضعف وقلة من المال والسلاح، وفي جوع، حتى إن في غزوة الخندق وسيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) كما يذكره المؤرخون والأخباريون وغيرهم يشد حزامه على الحجارة من شدة الجوع، وهم في ذلك الوقت الناس جميعاً مقاطعوهم سياسياً واقتصادياً، ليس بينهم وبين أحد من أهل الأرض علاقات اقتصادية، ولا علاقات سياسية، آخر قوم كانت بينهم وبينهم عهد: يهود بني قريظة، فلما نزل الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم وحاصروهم هذا الحصار العسكري التاريخي العظيم المنوّه عنه في القرآن، في ذلك الوقت غدر بنو قريظة ونبذوا العهد، وصاروا مع الكفار، فلم يبق لهم تحت أديم السماء صديق ولا معين إلا الله (جل وعلا) وحده، ولما أرسل النبي ﷺ سعد بن عبادة وسعد بن معاذ (رضي الله عنهما) إلى بني قريظة يعرف خبرهما هل هما على عهدهما أو نقضوا العهد وصاروا مع المشركين؟ قال لهم (صلوات الله وسلامه عليه): «إن وجدتم القوم نقضوا العهد فكثروا لي ولا تصرّحوا بإشارة نفهمها ولا يفهمها غيري»؛ لأن النبي ﷺ يخاف أن يداخل الناس شدة الجبن والجزع؛

لأنهم ما كان لهم من الأصدقاء إلا القرظيون من اليهود، فإذا غدروا وصاروا مع الكفار في هذا الوقت الضنك وهذا الموقف الحرج كان الأمر أعظم واشتد على غير أقوياء القلوب من المسلمين، فجاء سعد وسعد إلى بني قريظة فوجدوا سيدهم كعب بن أسد - قاتله الله - فتته اللعين حيي بن أخطب سيد بني النضير، ونقضوا العهود، وغدروا، وصاروا مع المشركين على رسول الله ﷺ. فجاءوا إلى النبي ﷺ وقالوا: هم عضل. ليفهمها رسول الله ﷺ ولا يفهمها غيره. وعضل: يعني هم وبنو القارة من الذين غدروا ببعث الرجيع. فأشاروا له بأنهم في الغدر كبنى عضل وبنى القارة، ففهمها رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>، ففي هذا الموقف الضنك الحرج كان الذي واجه المسلمون به هذا الموقف الضنك العظيم والحصار العسكري العظيم [هو الإيمان والتسليم كما أخبر الله - تعالى - عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾<sup>(٣)</sup> [الأحزاب: الآية ٢٢] وكان من نتائج هذا الإيمان العظيم والتسليم الكبير ما قصه الله علينا في محكم كتابه في سورة الأحزاب في قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتْنَةَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾<sup>(٤)</sup> [الأحزاب: الآية ٢٥] يقول: إن كنتم أذلاء - لستم بأعزاء ولا أقوياء - فهو (جل وعلا) قويٌّ عزيز لا يُغلب من استند إليه، فالفئة القليلة المستندة إليه يقويها بقوته ويعزها بعزته، فلن تُغلب، إلى أن قال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ

(١) سيأتي تخريجه عند تفسير الآية (٥٧) من هذه السورة.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾  
 [الأحزاب: الآية ٢٧] يعني: إن كانت قدرتك ناقصة وأنتم عاجزون فهو (جل وعلا) على كل شيء قدير، فالفئة المستندة عليه يجعل لها القدرة والتمكين بقدرته، ومن أمثلة هذا أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) لما صدّه المشركون مع أصحابه في غزوة الحديبية وهم محرمون كما سيأتي في قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيَةِ مَعَكُوفًا أَنْ يُبَلِّغَ إِلَيْكُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٥] وأرسل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بالهدايا لينحرها في الحرم، وتلقاه بنو عمه؛ لأنه أراد أولاً أن يرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر: إن بني عدي لا يقدر أن يحموني من قريش، ولكن أدلك على رجل أعزّمني في قريش هو عثمان بن عفان رضي الله عنه: فأرسل عثمان رضي الله عنه بالهدايا وتلقاه بنو عمه يقولون<sup>(١)</sup>:

أَقْبَلْ وَأَدْبِرْ لَا تَخَفْ أَحَدًا      بُنُو سَعِيدٍ أَعَزَّةَ الْحَرَمِ

فأخبر النبي ﷺ بخبر كاذب أن الكفار قتلوه، فبايعه أصحابه تحت سمرة من شجر الحديبية بيعة الرضوان، وعندما بايعوه علم الله في ذلك الوقت من قلوبهم الإخلاص الكامل والإيمان كما ينبغي بالله (جل وعلا)، فكان من نتائج ذلك الإيمان الكامل والإخلاص الذي أطلع الله عليه في قلوبهم أنه بين لهم أنه يجعلهم قادرين على من هم عاجزون عنه كما أوضح هذا في سورة الفتح في قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأنعام.

[الفتح: الآية ١٨] أي: علم الله ما في قلوبهم من قوة الإيمان والإخلاص لله، فنوّه عنه بالاسم المبهم الذي هو الموصول، فكان من نتائج هذا الإيمان والإخلاص كما ينبغي ما قصّ الله علينا في سورة الفتح حيث قال: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ [الفتح: الآية ٢١] فصرّح بأن إمكانياتهم العددية والعُدديّة لا تُقدِرهم عليها، ثم قال: ﴿فَدَّ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: فأقدركم عليها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: الآية ٢١] إن كانت قدرتكم ناقصة فقدرته (جل وعلا) كاملة، والطائفة الضعيفة القليلة المستندة إليه يقوّيها بقوته، ويعزّها بعزّته، ويُقدِّرها بقدرته. وهذه أمثلة تدل المسلم على أن دين الإسلام حق، وأنه هو هو، وأن صلته بالله هي هي، وأن المتمسك به لا يُغلب ولا يُقهر<sup>(١)</sup>، ولكن المسلمين تنكروا لدينهم فتركوه ولم يعملوا به، فتركوا الآلة القاهرة التي يُقهر بها العدو، فبقوا لقمة سائغة يضطهدهم الكفرة في أقطار الدنيا، ويبتزون ثروات بلادهم؛ لأنهم تركوا السلاح الأعظم لِقهر العدو وهو دين الإسلام كما بيّنّا؛ ولذا قال هنا: ﴿يَوْمَ أَلْفُرْقَانٍ يَوْمَ أَلْتَفَىٰ أَلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] يعني: جمع المسلمين وجمع المشركين يوم بدر.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤١]. جرت العادة بذكره قدرته عند نصره الضعاف من عباده المتمسكين بدينه كما قال هنا: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال في الأحزاب: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٧]. وقال في الحديدية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: الآية ٢١] كل هذه الآيات على وتيرة واحدة، معناها: إن كنتم ضعافاً

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٦) من سورة الأنعام.

عاجزين فهو (جل وعلا) قادر قوي لا يعجز عن شيء، فإنه ينصر أوليائه ويقويهم ويقدرهم على من هو أقوى منهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله (جل وعلا) قادر على كل شيء، فهو قادر على ما شاءه، وقادر على ما لم يشأه، فهو قادر على هداية أبي بكر، وقد شاء هذا المقدور، وقادر على هداية أبي جهل كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: الآية ١٣] ولكنه لم يشأ هذا المقدور، فتبين أنه قادر على ما شاء، وقادر على ما لم يشأ.

وقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] قال بعض العلماء<sup>(١)</sup>: هو بدل من ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتْحِ الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] لأن يوم الفرقان يوم التقاء الجمعان هو الظرف المُعَبَّر عنه بكيونتهم في العدو الدنيا وأعدائهم في العدو القصوى، وهذا ظاهر.

وقرأ هذا الحرف من السبعة: ابن كثير وأبو عمرو: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ بكسر العين في الموضعين. وقرأه باقي السبعة: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ بضم العين في الموضعين<sup>(٢)</sup>.

والعِدْوَةُ والعُدْوَةُ معناهما واحد. وأصل العِدْوَةُ والعُدْوَةُ: شاطئ الوادي وجانبه، فكل ما صاحب شاطئ الوادي وجانبه من الفضاء تسميه العرب: عُدْوَةٌ وَعِدْوَةٌ، وهو عدوة الوادي<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: الدر المصون (٦٠٩/٥).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢١.

(٣) انظر: ابن جرير (٥٦٣/١٣).

وقوله ﴿ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ أي: عدوة وادي بدر ﴿ وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ و (الدنيا) تأنيث الأدنى. أي: العدو الدنيا التي هي أدنى للآتي من المدينة ﴿ وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ و (القصوى) تأنيث الأقصى، و (الدنيا) تأنيث الأدنى. أي: لأن العدو التي فيها الكفار هي التي هي أشد قُصُوراً وبعداً من الآتي من المدينة، والتي فيها النبي ﷺ وأصحابه هي الأقرب للآتي من المدينة.

﴿ وَالرَّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ المراد بالركب: الجماعة الذين هم في غير أبي سفيان بإجماع المفسرين. والمؤرخون يذكرون أنهم أربعون رجلاً في تلك العير، سمّاهم ركباً. وأكثر علماء العربية يزعمون أن الركب اسم جمع، وأنه ليس بجمع؛ ولذا لم يجعل علماء العربية من جموع التكسير صيغة (فعل) فأهملوها بالكلية. والذي يظهر من استقراء القرآن العظيم واللغة العربية أن (فعل) بفتح فسكون من صيغ جموع التكسير للكثرة في (فَاعِل) إذا كان وصفاً، وإنما قلنا: إن هذا هو الأظهر لكثرة وروده باستقراء اللغة العربية — في العربية وفي القرآن — فالركب هنا على أظهر القولين — وإن لم تكد ترى أحداً يقول به من علماء الصرف — أن الركب جمع راكب، والعرب تطلق الركب تريد به جمع راكب، فقولهم: إنه اسم جمع لا دليل عليه، والأظهر أنه جمع؛ ولذا فإن العرب يكثر في كلامها إطلاق اسم الركب مراداً به الركبان، جمع راكب، كما قال<sup>(١)</sup>:  
 بزَيْنَبِ أَلَمِمْ قَبْلَ أَنْ يَظْعَنَ الرِّكْبُ      وَقُلْ إِنْ تَمَلَّيْنَا فَمَا مَلَكَ الْقَلْبُ  
 وَيُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ضَمَائِرُ الْجُمُوعِ كَمَا قَالَ غِيلَانُ ذُو الرِّمَةِ<sup>(٢)</sup>:

(١) البيت لنصيب بن رباح، وهو في تاريخ دمشق (٦٢/٦٠، ٦١، ٦٢).

(٢) البيت في ديوانه ص ٥٩.

استحدث الركب عن أشياعهم خبراً أم راجع القلب من أطرايه طرب  
ومن إتيان (فعل) جمعاً لـ (فَاعِلٌ) قولهم: «صَاحِبٌ وَصَحْبٌ». ومنه: «اللَّهُ وَصَحْبُهُ» ومنه قول امرئ القيس<sup>(١)</sup>:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم يقولون: لا تهلك أسي وتجمّل

فالصحب جمع صاحب، ومن هذا المعنى: جمع (شارب) على (شرب) بفتح فسكون، ومنه قول نابغة ذبيان<sup>(٢)</sup>:

كأنه خارجاً من جنبِ صفحته سقودُ شربِ نسوه عند مُفتادٍ

فرد عليهم ضمير الجماعة في قوله: «سقودُ شربِ نسوه عند مُفتادٍ» ومنه السّفْر جمع السّافر، وفي الحديث: «أتموا فإننا قوم سفر»<sup>(٣)</sup>، ومنه قول الشنفرى<sup>(٤)</sup>:

(١) ديوانه ص ١١١ .

(٢) ديوانه ص ١٢ .

(٣) أخرجه أحمد (٤/٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٤٠)، وابن أبي شيبة (٢/٤٥٠، ٤٥٣)، وأبو داود في الصلاة، باب متى يتم المسافر، حديث رقم: (١٢١٧)، (٤/٩٦)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في التقصير في السفر، حديث رقم: (٥٤٥)، (٢/٤٣٠)، والبيهقي (٣/١٣٥، ١٥٣)، والطيالسي ص ١١٥، والطحاوي في شرح المعاني (١/٤١٧) من حديث عمران بن حصين (رضي الله عنه) مرفوعاً.

وقد جاء نحوه موقوفاً على عمر (رضي الله عنه) عند مالك في الموطأ ص ١٠٥، وعبد الرزاق (٢/٥٤٠)، والطحاوي في شرح المعاني (١/٤١٩)، وراجع الكلام على هذا الحديث في نصب الراية (٢/١٨٧)، التلخيص (٢/٢٥٢)، إتحاف السادة المتقين (٤/٣٦٨).

(٤) البيت في ديوانه ص ٦١ .

كَأَنَّ وَغَاها حَجْرَتِيه وَجَالَه أَضاميم من سفرِ القبائل نَزَلَ  
ومنه: طائر وطيْر ﴿إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ [النحل: الآية ٧٩]  
فجعل (مسخرات) جمعاً نظراً إلى الطير. وهذا يكثر في كلام العرب،  
والأظهر أن (الفعل) هنا جمع (الفاعل) وصفاً. وعامة علماء العربية  
ممن تكلموا في جموع التكسير لم يجعلوا (فعلًا) من صيغ الجموع،  
ويزعمون أن هذه الذي ذكرنا أن الأظهر جموع أنها أسماء جموع.  
هكذا يقولون. والمراد بالركب هنا: الجماعة الذين هم في غير  
أبي سفيان.

وقوله: ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ ظرف والخبر واقع في هذا الظرف.  
وقراءة: ﴿أَسْفَلُ مِنْكُمْ﴾<sup>(١)</sup> شاذة وقراءة الجمهور: ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾  
هو في مكان، وهذا المكان أسفل، ومعنى كونه أسفل: أن وادي بدر  
ذاهب إلى جهة البحر، فكل ما قُرب من البحر منه فهو أسفل، وما  
بُعد منه فهو أعلى.

قال بعض العلماء: في هذه الآية الكريمة سؤال، وهو أن  
يُقال: ما الفائدة في تعيين أن النبي ﷺ وأصحابه في عُدوة وادي بدر  
الدنيا، وأن المشركين في عُدوة وادي بدر القصوى، وأن الركب  
أسفل من الجميع، ما الحكمة في هذا، وأي فائدة في معرفة مواضع  
القوم كلهم<sup>(٢)</sup>؟

أجاب بعض العلماء عن هذا بأن فيه سرّاً لطيفاً، قالوا: المعنى  
نصركم الله وفرق بين الحق والباطل بأن نصركم عليهم وظروفكم

(١) انظر: البحر (٤/٥٠٠).

(٢) السابق.

الراهنة تساعدهم على أن يغلبوكم؛ لأن العُدوة الدنيا كانت أرضها خباراً<sup>(١)</sup>، أرضاً رخوة تسوخ فيها الأقدام، ولا يتيسر فيها المشي، ولا ماء فيها، فمن فيها عطاش. والعُدوة القصوى كانت بخلاف ذلك سهل المشي عليها، فهم في هذا كانوا أولى بأن يسبقوكم على الماء ويمنعوكم منه فيقتلوكم، وأنه في ذلك الوقت غيرهم نجت، وتمت نعمتهم، وأموالهم متكاثرة، وهم في الموضع الذي هو أحسن من موضعكم، ومع هذا كله فقد نصركم الله عليهم؛ لأن الله لما أرسل المطر المتقدم في قوله: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنفال: الآية ١١] كانت العُدوة القصوى طيناً ووحلاً، وكانت العُدوة الدنيا رملها متلبد تمشي عليه الأقدام بخفة، فكان هذا أنسب؛ ولذا قال: ﴿أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] ثم قال في حكمته وقع هذا ونزل هذا الفرقان وأتم على هذه الحالة تكادون أن تجتمعوا على غير ميعاد؛ لأنه لو تواعدتم وضرب بعضكم لبعض أجلاً وميعاداً لاختلفتم في الميعاد لو كنتم في هذا العدد من الضعف وكان بينكم وبينهم موعد سابق لجبنتم ولفشلتم عنهم، ولما تجرأتم على الإقدام عليهم، ولو كنتم مستعدين وعندكم جمع قوي لفشلوا وجبنوا ولم يتجرؤا عليكم، فجمعكم الله بغير ميعاد لحكمته (جل وعلا)؛ لأن غزوة بدر شيء جعله الله (جل وعلا) بقدرته لم تتسن أسبابه، إلا أن الله (جل وعلا) سببها، ولذا قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أي: واعد بعضكم بعضاً في الموضع الذي تلتقون فيه والمكان الذي تلتقون فيه، ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي

(١) قال في القاموس: «والخَبَار كسحاب: ما لان من الأرض واسترخى». اهـ

أَلْمِيعَدٌ ﴿٤٦﴾ أي: لخاف بعضكم من بعض، وَجِبُنَ بعضكم عن بعض، ولما اتَّفقتُم ليحصل ما حصل، ولكن الله جمعكم على غير ميعاد بحكمته (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ﴿٤٧﴾ ولكن الله جمعكم على غير ميعاد فخرجتم أيها المسلمون إلى غير أبي سفيان، وخرج الكفار إلى إنقاذ غيرهم، وشاء الله أن تجتمعوا ويوقع الله ما أوقع. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ ﴿٤٨﴾ هو إعزاز دين الإسلام، وبيان برهانه ودليله، وفرق الحق من الباطل بإعزاز الدين، وإعلاء كلمة الله، وإذلال الكفر، وقتل رؤسائه وصناديده. كان هذا أمراً مفعولاً لا محالة، شاءه الله وقدره وهو واقع لا محالة إذا جاء وقته المحدد له في مكانه المحدد له في علمه جل وعلا. وهذا معنى قوله: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٤٩﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفَسَلْتُمْ وَلَنْ نَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥٠﴾ [الأنفال: الآيتان ٤٢، ٤٣].

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:

الآية ٤٢] قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير في رواية البزّي، وعاصم في رواية شعبة أبي بكر: ﴿ويحيى من حيي عن بيينة﴾ بفك الإدغام في (حيي) وقرأه بقية السبعة: ﴿ويحيى من حي عن بيينة﴾ بإدغام الياء في الياء<sup>(١)</sup>. وهذه الكلمة إنما كتبت في المصاحف العثمانية بحاء

(١) انظر: السبعة ص ٣٠٦، الإتحاف (٢/٨٠).

وياءٍ واحدة، ولكنه عند الضبط الذين يقرؤون (حيي) بيايين بفك الإدغام يكتبون ياءً حمراء يبينون بها أنها لم تكن في رسم المصحف العثماني. فهما قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان ﴿ويحيى من حيي عن بينة﴾ ﴿ويحيى من حي عن بينة﴾.

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ﴾ إنما أوقع الله ما أوقع في بدر من الفرق بين الحق والباطل المبين في قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الفرقان: ٤١] هذه (لام كي) المضارع بعدها منصوب بـ (أن) مضمرة. والمعنى: فرق بين الحق والباطل بإيضاح أن دين الإسلام حق، وأن عبادة الأوثان باطل؛ لأجل أن يهلك من هلك؛ لأجل أن يهلك بكفره المتماذي على الكفر بعد وضوح بطلانه عن بينة، أي: عن دليل واضح وبرهان قاطع لا يُشك في الحق معه؛ لأن البراهين المحسوسة يدركها الغبي ولا تختص بالعالم. ﴿ويحيى﴾ بدين الإسلام ﴿من حي﴾ به ﴿عن بينة﴾ أي: عن دليل واضح؛ لأن ذلك الفرقان جعله الله بوقعة بدر ليؤمن المؤمنون على برهان وبصيرة وبيان قاطع، ويكفر الكافرون على وضوح أيضاً وبيان وبرهان قاطع.

والبيّنة<sup>(١)</sup>: كل دليل لا يترك في الحق لبساً تسميه العرب (بيّنة) ومنه قيل للشهود الشاهدين على الحق: (بيّنة)؛ لأنهم يبينون ويوضحون من له الحق ومن عليه الحق. وهذا هو التحقيق في معنى قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٤٢﴾ يسمع كل ما يقوله خلقه، ويعلم كل ما يفعله خلقه.

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

وكونه (جل وعلا) سميعاً عليماً هذا هو البرهان الأكبر والزاجر الأعظم الذي لا تكاد تقلب ورقة واحدة من المصحف الكريم إلا وجدته فيه؛ لأن المصحف الكريم لا تكاد تنظر في موضع منه إلا وتجد فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٣١] ﴿خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٣] ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٤] ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: الآية ٥] لا تكاد تحصي هذا؛ لأن هذا أكبر واعظ وأعظم زاجر أنزله الله من السماء إلى الأرض، وأنه هو الذي يحصل به النجاح في محك الاختبار الإنساني بأسره.

وإيضاح هذا الكلام: أن الله (جل وعلا) بيّن في آيات من كتابه أن الحكمة التي خلق السماوات والأرض والخلائق من أجلها هي أن يتبلي خلقه في نقطة واحدة هي: إحسان العمل<sup>(١)</sup>، وليست بكثرة العمل، قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] ولم يقل: أكثر عملاً، وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٧] ولم يقل: أكثر عملاً. وقال في أول سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] ولم يقل: أكثر عملاً. فدلّت هذه الآيات على أن محك الاختبار هو إحسان العمل؛ ولذا كل الناس يقول: «ليتني أدركت ما أنجح به في هذا الاختبار، وعرفت الطريق الذي يتوصّل بها إلى أن أكون أحسن

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

عملاً». وكان جبريل (عليه الصلاة والسلام) لاحظ شدة الحاجة إلى هذه النقطة الحساسة فأراد أن يبينها لأصحاب رسول الله ﷺ ليعلمهم هذا العلم العظيم، فجاء في صورة أعرابي في حديثه الصحيح المشهور، وقال للنبي ﷺ في جملة ما سأله عنه: يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - أخبرني عن الإحسان. يعني: وهو الذي خلق الخلق للاختبار فيه، فبين له النبي ﷺ أن طريق الإحسان ووسيلته الوحيدة هي هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي هو مراقبة خالق هذا الكون (جل وعلا). فقال له: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(١)</sup>. ولأجل تأكيد هذا العلم وإحضاره في ذهن كل مسلم كنت لا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا ووجدت فيها هذا الزاجر الأكبر والواعظ الأعظم: أن ربك مطلع على كل ما تقول وكل ما تفعل. ولو علم أهل بلد أن أمير ذلك البلد يعلم كل ما يفعلونه بالليل من الخسائس لباتوا متأدبين لا يفعلون إلا ما لا يجر لهم ضرراً، وهذا خالق السماوات والأرض (جل وعلا) يعلم خطرات القلوب، ومع هذا لا يبالون بهذه الزواجر العظام والمواعظ الكبار.

وقد ضرب العلماء لهذا مثلاً<sup>(٢)</sup> قالوا: ولو فرضنا - والله المثل الأعلى - أن في هذا البراح من الأرض ملكاً عظيماً شديد البأس والبطش إذا انتهكت حرماته، وحوله نساؤه وجواريه وبناته، وحوله جلوس، هل يخطر في ذهن أحد أن أحداً من أولئك الجلوس يهتم بريبة، أو غمزة عين، أو إشارة؟ لا وكلا، كلهم خاضع خاشع

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

الجوارح، أمنيته السلامة. والله (جل وعلا) - وله المثل الأعلى في السماوات والأرض - أعظم بطشاً وأشد نكالاً، وأعظم اطلاعاً، وحمّاه في أرضه محارمه، فالمسلمون إذا ذكروا هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم حاسبوا، ولم يفعلوا ما يخجلهم أمام ربهم (جل وعلا)؛ ولذا كثر في القرآن هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم بعد كل أوامر وكل نواهي، ومنه قوله هنا: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢].

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٣] قال بعض العلماء: (إذ) بدل من الظروف قبله. وقال بعضهم: منصوب بـ (اذكر) مقدرًا<sup>(١)</sup>.

ومعنى الآية الكريمة: أن النبي ﷺ رأى على التحقيق فيما يرى النائم - ومعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي لا شك فيها - أراه الله في نومه أن المشركين قليل جداً. وبعض العلماء أنكروا معناها الواضح المتبادر للذهن؛ لأنه لم يفهم الحقيقة. قالوا: كيف يُريهم قليلاً في منامه ورؤيا الأنبياء حق، والنبي ﷺ يعلم أنهم حوالي ألف، كيف يعلم أنهم قرييون من الألف ويرى في المنام خلاف ما هو يعلم مع أن رؤيا الأنبياء حق<sup>(٢)</sup>؟ وغفل من قال هذا القول وإن قال به جماعة من أجلاء العلماء؛ لأن رؤيا النبي ﷺ حق، وتأويلها حق، كما قال يوسف: ﴿قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: الآية ١٠٠] لأن معنى رؤياه هو ما سيأتي في قوله: ﴿وَيَقُلُّكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٣]. لأن الله قلل كلاً من الطائفتين في عين الأخرى في اليقظة

(١) انظر: الدر المصون (٥/٦١٥).

(٢) انظر: البحر (٤/٥٠١).

حتى إنهم لما تصوبوا من عقنقل بدر قال ابن مسعود (رضي الله عنه): قلت لصاحبي: أتراهم يبلغون السبعين؟ قال: أظنهم يبلغون المئة<sup>(١)</sup>. من شدة تقليل الله لهم في عيون الصحابة، والله قلل الصحابة في عيون المشركين حتى قال أبو جهل: إنهم أكلة جزور. يعني: الجزور قد يأكلها ناس قليلون. فقلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء، فبعد أن التحم القتال والتقى الصفان أكثر الله المؤمنين في أعين الكافرين حتى صاروا يظنونهم ضعفيهم، كما تقدم في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ﴾ إلى قوله ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران: الآية ١٣] لأن الكفار بعيونهم يرون أن المسلمين أكثر منهم بالضعف؛ لأن الله فعل كل ذلك لحكمة قبل أن يتلاقى هؤلاء وهؤلاء، جعل هؤلاء قليلاً في أعين هؤلاء، وهؤلاء قليلاً في أعين هؤلاء، ثم لما التحم القتال والتقى الصفان أكثر المسلمين في أعين الكافرين فظنوا أنهم أكثر منهم مرتين؛ ولذا قال هنا: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٣] لأن النبي ﷺ أراه الله الكفار في النوم قليلاً وأخبر بها أصحابه ففرحوا بذلك وقويت قلوبهم وتهيؤوا للقتال، والله (جل وعلا) صدق تلك الرؤيا بأن قللهم في أعينهم يوم بدر، كما يأتي الآن، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَرَّسَكُمْ كَثِيرًا لَفِشَلْتُمْ﴾ لو أراك في النوم أنهم عدد ضخم كثير كالآلف وأخبرتهم بذلك لخافوا وقالوا: لم نستعد لهؤلاء، وإنما خرجنا للعبير!! كما تقدم في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ ﴿[الأنفال: الآيتان ٥، ٦] وهذا معنى

(١) أخرجه ابن جرير (٥٧٢/١٣)، وعزاه في الدر (١٨٩/٣) لابن أبي شيبة وابن جرير وأبي الشيخ وابن مردويه.

قوله: ﴿وَلَوْ أَرَدْنَاكُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ﴾ الفشل ضد النجاح، وهو الجبن والخور. أي: لأصابكم الخور والجبن وتنازعتم في هذا الأمر، هذا معنى قوله: ﴿لَفَشَلْتُمْ وَلَنَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ بأن قال قوم: نذهب إليهم وإن كانوا كثيراً. وقال آخرون: ما ذهبنا إلا للغير، وما ذهبنا مستعدين لنفير كثير. وحصل فيكم الفشل والتنازع في الأمر ﴿وَلَا كُنَّ اللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿سَلَّمَ﴾ من هذا الفشل ومن هذا التنازع بأن أرى رسوله ﷺ في المنام أنهم قليلون لتجرؤوا عليهم، وقللكم في أعينهم فعلاً يقظة رأي العين، وقللهم في أعينكم تصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ هذا معنى قوله: ﴿وَلَا كُنَّ اللَّهُ سَلَّمَ﴾.

﴿إِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤٣) المراد بذات الصدور: ما يصاحب الصدور ويكمن فيها من الخواطر والهواجس، وقد علم أنه لو أراه إياهم كثيراً لتنازعتم في ذلك الأمر ولفشلتهم، فهو يعلم بما يهجس في الصدور، وما يخطر فيها، وما توسوس به النفوس، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤٣) [الأنفال: الآية ٤٣].

ثم قال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِيَ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٤] فهذا رأي في العين تصديقاً لرؤياه ﷺ واذكر حين يريكموهم الله في منامك قليلاً. الصحيح أن (قليلاً) هنا و (كثيراً) أنهما حالان، وأنها (رأى) البصرية عُدت بالهمزة فتعدت إلى مفعول آخر، وأن (قليلاً) ليس مفعولاً ثالثاً، خلافاً لمن قال من بعض العلماء: إنها عُدت هنا إلى المفعول الثالث. والأصوب: أن (قليلاً) هنا حال، وأنها ليست بمفعول ثالث؛

لأن (رأى) هذه بصرية لا علمية على التحقيق<sup>(١)</sup>. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيْلًا﴾ يعني ترونهم كأنهم شيء قليل لتجروا عليهم وتشجعوا وتقوى نفوسكم عليهم، وقد جاء عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنهم لما تصوبوا من كتيب بدر قال لرجل معه: أنظنهم يبلغون سبعين - وهم ألف - فقال الرجل: أرى أنهم يبلغون المئة<sup>(٢)</sup>. هذا من شدة تقليلهم في أعينهم ليتجروا عليهم، كذلك ﴿وَيَقَلِّلُكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ﴾ لما رأوهم قالوا: هؤلاء أكلةٌ جزور ليسوا بشيء. وقال أبو جهل: لا تقتلوهم بل خذوهم واربطوهم لنذهب بهم حيث نشاء. من شدة استقلاله لهم، وظنه أنهم لا شيء!! وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيْلًا وَيَقَلِّلُكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ﴾ ليتجروا هؤلاء على هؤلاء، وهؤلاء على هؤلاء؛ لأجل أن يقضي الله أمره، وينفذ إرادته ومشيئته بتهيئته أسباب ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيْلًا وَيَقَلِّلُكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ بِذَلِكَ﴾ بذلك ﴿أَمْرًا كَانَ مَفْعُوْلًا﴾ في علمه، وأزله، منفذاً في وقته لا محالة؛ لأن الله (جل وعلا) يقضي ويقدر، فيقدر كل ما شاء ثم يقضيه منجزاً في أوقاته في أماكنه على هيئته وصوره التي سبق بها علمه (جل وعلا) ولذا قال: ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُوْلًا﴾.

﴿وَالِي اللهُ﴾ جل وعلا وحده ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٤٤﴾ قرأ هذا

(١) انظر: الدر المصون (٦١٥/٥).

(٢) مضى قريباً.

الحرف ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو<sup>(١)</sup>: ﴿وإلى الله ترجعُ الأمور﴾ ببناء الفعل للفاعل. وقرأه بقية السبعة: ﴿وإلى الله ترجعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٢١﴾ ببناء الفعل للمفعول. ف (الأمور) على الأول فاعل (ترجع) وعلى القراءة الثانية: نائب فاعل (ترجع)<sup>(٢)</sup>. و (الأمور) جمع أمر، ويعم كل الشؤون. والمعنى: مدار الأمور ومصيرها إليه (جل وعلا) كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٥٣﴾ [الشورى: الآية ٥٣] وقد صار إليه هذا الأمر وآل إليه فنفذ فيه مشيئته وقدرته، وهياً الأسباب حتى هزم الكفرة وقتل صناديدهم ورؤساءهم وكسر شوكتهم على أيدي أوليائه المسلمين، ونصر نبيه ﷺ وأصحابه وأيدهم بنصره، وهذا قضاؤه وقدره (جل وعلا)، والله يهيؤ الأسباب، ولو شاء فعل بلا سبب، إلا أنه اقتضت حكمته أن يرتب المسببات على أسباب، ويسبب للأشياء (جل وعلا) سبحانه وتعالى.

[٥/ب] / ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزَعُوا فَنفَشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَأَغْلِبَنَّ لَكُمْ يَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ

(١) قرأه بالبناء للفاعل: ابن عامر وحمزة والكسائي.

وبالبناء للمفعول: ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم.

انظر: السبعة ص ١٨١، المبسوط لابن مهران ص ١٤٥، إتحاف فضلاء البشر (٢/٨٠).

(٢) انظر: حجة القراءات ص ١٣٠ - ١٣١.

فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بريءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ  
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ [الأنفال: الآيات ٤٥ - ٤٨].

يقول الله جل وعلا: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا  
وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [الأنفال: الآية ٤٥].

هذه الآية الكريمة تضمنت تعليم الله لنبيه وأصحابه بعض  
الخطط العسكرية، قال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ناداهم باسم الإيمان  
ليكون ذلك مدعاة للقبول: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: طائفة. أي: جيشاً  
من جيوش الكفار يقاتلونكم إذا لقيتموهم في ميدان القتال والتحتم  
أنتم وهم ﴿فَاثْبُتُوا﴾ يعني: لا تنهزموا، ولا تولوهم الأدبار،  
فاصمدوا أمامهم واثبتوا، ولا تتزعزعوا، ولا تنهزموا، ولا ترجعوا  
القهقري. وهذا تعليم من خالق السماوات والأرض للمسلمين إذا  
التحم القتال أن يثبتوا ويصمدوا صمود الرجال، ولا ينهزموا  
ولا يرجعوا القهقري.

ثم إنه علمهم التعليم الأكبر الذي هو سبب للنصر والظفر في  
جميع الميادين، قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (كثيراً): نعت لمصدر  
محذوف. أي: ذكراً كثيراً ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ أي: لأجل أن  
تفلحوا<sup>(١)</sup>. وهذا هو التعليم السماوي للخطط الميدانية التي يحصل  
بها انهزام الكفر وانكسار شوكته، كأنه يقول لهم: في هذا الوقت  
الضنك الحرج الذي التحتم فيه مع جيوش الكفار في هذا الوقت  
قووا صلتكم بمن خلقكم - جل وعلا - واذكروه ذكراً كثيراً.  
والمعنى: أنكم عند هذه الشدائد، وعند التحام القتال والمفروض أن

(١) انظر: الأضواء (٢/٤١٣).

الرجال تنزل رؤسهم عن أعناقهم، في هذا الوقت الضنك الحرج وثقوا صلتكم بالله، واذكروا ربكم ذكراً كثيراً، فبذلك ينزل عليكم المدد من السماء، ويتسنى لكم النصر، وتقهرون الكفار، وتنكسر شوكة الكفر. هذه عادة التعاليم السماوية، تجمع للناس بين ما تنتعش به أرواحهم، وبين ما تتقوى به أجسامهم<sup>(١)</sup>، فالتعاليم السماوية تعطي الإنسان نصيب جزئيه، أعني: نصيب جسمه ونصيب روحه، وإذا أهمل أحد النصيين تحقق الفشل والخور والهزيمة؛ لأن هذا الإنسان هو حيوان مركب من عنصرين مختلفين اختلافاً أساسياً جوهرياً؛ أحدهما: يُسمى الجسم، والثاني: يُسمى الروح، فالإنسان جسم وروح، فأحد عنصريه اللذين هما أساساه: الروح، والثاني: الجسم. والروح والجسم مختلفان اختلافاً أساسياً جوهرياً، وبحسب اختلافهما الأساسي تختلف متطلباتهما في هذه الحياة، فللجسم متطلبات لا بد له منها، وللروح متطلبات لا بد له منها، ولا تغني متطلبات هذا عن متطلبات هذا. والقرآن العظيم يعطي كلاً من العنصرين حقه كما ينبغي. يقول: أعطوا الأجسام حقها بالثبوت والصمود، وأعطوا الأرواح حقها بتغذيتها بصلتها بخالقها وتقويتها، وانتظار المدد من السماء.

ونظير هذه الآيات: إذا قرأتم آيتين من سورة النساء فهتم هذا المعنى كما ينبغي، وهما الآيتان اللتان أنزلهما الله في صلاة الخوف، فإنه يقول لنبيه: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنُفِّخَنَّ مِنْهُمْ مَعْكَ وَيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء: الآية ١٠٢] هذا وقت التحام

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

الكفاح المسلح، فالمفروض أن الرجال تنزل رؤسهم عن أعناقهم في هذا الوقت الضنك الحرج، فالقرآن الذي هو تنزيل رب العالمين يوضح الخطة العسكرية كما ينبغي<sup>(١)</sup>، على الوجه الذي يردون فيه العدو، وليتسنى لهم في ذلك الوقت الاتصال بخالق السماوات والأرض وأداء أدب من الآداب الروحية الذي هو الصلاة في الجماعة في ذلك الوقت، فالصلاة في الجماعة وقت التحام ذلك الكفاح المسلح هي من ذكر الله المأمور به هنا في سورة الأنفال في قوله: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ﴾ فالمؤمنون إن ساروا في ضوء هذه التعاليم السماوية، وكانوا في طاعة الله، وفي ذكر الله، وتقدموا صابرين في الميدان فإنهم لا يقوم أمامهم شيء، كما هو مشاهد في التاريخ لأن هؤلاء الرجال الذين علموا هذا التعليم في آية الأنفال هذه ﴿إِذْ لَقِيتَهُمْ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وفي سورة النساء: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنُفِّخَنَّ مِنْهَا لَظْفًا مُّخْتَلِفًا فِي سَمْعِهِمْ لِيَلْجِئُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لِيَخْرِجَهُمْ مِنَ الْبَلَدِ الْمُنَافِقِ﴾ [النساء: الآية ١٠٢] ليصلوا الجماعة في ذلك الوقت الحرج، ويقوّون صلتهم بالله، هؤلاء الذين أخذوا بهذه التعاليم هم الذين أخذوا كنوز قيصر وكسرى، وحملوا نور الإسلام في مشارق الدنيا، ودان لهم جميع الأمم، ورفعوا رايات الإسلام في جميع أقطار الدنيا. أما هؤلاء الذين يبيتون يشربون الخمر، وتعزف عليهم القيان، وهم في المجالس الماجنة الخليعة، ثم بعد ذلك يصبحون في الميدان فهؤلاء ليسوا برجال ميدان، ولا يُرجى منهم تحقق شيء، ولا رد مسلوب من بلاد، ولا من مجد، ولا من شيء!! فما دام الذين يتقدمون في خطوط النار الأمامية فجرة، شربة للخمر، أصحاب معازف وغواني وملاهي، فهؤلاء من يريد النصر

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٦) من سورة الأنعام.

ويؤمّله من ورائهم فهو مغفل؛ لأن هؤلاء ليسوا برجال ميدان، فلا يمكن أن يردوا مسلوباً من مجد ولا من بلاد، ولا أن ينتصفوا من أحد كائناً ما كان؛ لأنهم تركوا التعاليم السماوية والخطط العسكرية التي هي كفيلة بقمع الكفار، وإيقافهم عند حدهم، وكسر شوكة الكفر، وإعلاء كلمة الله جل وعلا.

فالحاصل أن السلاح الأكبر في ميادين القتال هو ذكر الله - جل وعلا - وطاعته وامتثال أمره؛ لأنه هو الذي منه النصر والمدد. والله كذلك يأمر خلقه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أما الذين إذا لقوا فئة فلا يذكرون الله، وليس في قلوبهم خشية من الله، ولا عمل بدينه، فهؤلاء لا يؤمّل من ورائهم فائدة إلا مغفل مثلهم لا يفهم شيئاً. وهذا معنى قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ذكراً كثيراً؛ لأن ذكركم لله كثيراً تقوى به أرواحكم، وتتصلون به بربكم، وينزل لكم بسببه المدد من خالق السماوات والأرض.

والصحابة (رضي الله عنهم) كذلك كانوا يفعلون، يذكرون الله ويخافونه في الميدان فيأتيهم النصر؛ ولذا قهروا الدنيا بأسرها، وأخذوا كنوز قيصر وكسرى كما هو معلوم. وهذا معنى قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥) قال بعض العلماء<sup>(١)</sup>: (لعل) في القرآن كلها مشمة معنى التعليل، فهي تفيد معنى التعليل، إلا التي في الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَافِحَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: الآية ١٢٩]

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

قالوا: فهي بمعنى: كأنكم. والتحقيق أن لفظة (لعل) تأتي في اللغة العربية مُراداً بها التعليل، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر<sup>(١)</sup>:

فَقُلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الْحُرُوبَ لَعَلَّنَا      نَكُفُّ وَوَتَّقْتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقِ  
فَلَمَّا كَفَّفْنَا الْحَرْبَ كَانَتْ عُهُودِكُمْ      كَشِبِهِ سَرَابٍ بِالْفَلَا مُتَأَلِّقِ

فقوله: «كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: لأجل أن نكف عنكم.

وقوله: ﴿تُفْلِحُونَ﴾<sup>(٤٥)</sup> هو مضارع (أفلح الرجل، يُفلح، فهو مُفلح). إذا نال الفلاح. والفلاح يُطلق في لغة العرب إطلاقين معروفين مشهورين<sup>(٢)</sup>:

أحدهما: تطلق العرب الفلاح بمعنى الفوز بالمطلوب الأكبر، فكل من فاز بالمطلوب الذي كان يهتم به جداً، وهو من أكبر مطالبه، تقول العرب: أفلح هذا. أي: فاز بما كان يطلب، وهذا معنى معروف في كلامها، ومنه قول لبيد بن ربيعة<sup>(٣)</sup>:

فَاعْقِلِي إِنْ كُنْتِ لَمَّا تَعْقِلِي      وَلَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ عَقْلَ

أي: من رزقه الله العقل ففاز بالمطلوب الأكبر في الدنيا.

الإطلاق الثاني: هو إطلاق العرب الفلاح على البقاء السرمدي في النعيم، فالعرب تقول: أفلح هذا، إذا كان باقياً خالداً في نعيم سرمدي، وهذا المعنى معروف مشهور في كلام العرب أيضاً، ومنه

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف.

قول لبيد بن ربيعة أيضاً<sup>(١)</sup>:

لو أن حياً مُدرك الفلاح لَنَالَهُ مُلَاعِبُ الرِّمَاحِ  
يعني بقوله: «مدرک الفلاح»، أي: مدرک البقاء بلا موت،  
ونظيره من كلام العرب: قول كعب بن زهير، أو الأضبط بن قريع،  
كما قيل بكل منهما<sup>(٢)</sup>:

لُكُلُّ هَمٍّ مِنَ الْهُمُومِ سَعَةٌ وَالْمُسِيُّ وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهُ  
أي: لا بقاء في الدنيا مع تكرر الليل والنهار.

إذا عرفتم معنيي الفلاح فمن أطاع الله (جل وعلا) وذكره كثيراً  
نال الفلاح بمعنييه، ففاز بمطلوبه الأكبر وهو الجنة ورضا الله، ونال  
البقاء السرمدي الأبدی في نعيم الجنات.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن الذين إذا لقوا فئة من فئات  
الكفار في ميدان القتال ولم يثبتوا أو لم يذكروا الله كثيراً، أنهم  
لا يفلحون. وهو كذلك؛ لأن النصر من الله. كما قال تعالى:  
﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ١٠] قال في بدر: ﴿وَمَا  
النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ مع أنه أنزل ملائكة السماء ناصرين، يعني:  
لا تظنوا أن الملائكة ينصرونكم، الناصر هو الله وحده (جل وعلا)؛  
ولذا قال: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:  
الآية ٤٥].

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] هذه التعاليم  
السماوية الكفيلة بالنصر والظفر وقمع القرودة الكفرة وإيقافهم عند

(١) مضى عند تفسير الآية (١١١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

حدهم ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فيما يأمركم به على لسان رسوله ﷺ، وأطيعوا رسوله ﷺ فيما يبلغكم عن ربكم ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٢﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤].

والياء في قوله: ﴿أَطِيعُوا﴾ الياء التي بين الطاء والعين أصلها (واو) لأن المادة من (الطَّوع) فهو أجوف واوي العين، أصلها: «أَطَوْعُوا» من «الطَّوع» لا يائي من (الطَّيْع) (١).

ومعنى إطاعة الله: هي الانقياد لامثال أوامره، واجتناب نواهيه، في النيات والأفعال وكل شيء، وهذا معنى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

﴿وَلَا تَنَزَعُوا﴾ أصله: لا تتنازعوا، لا ينازع بعضكم بعضاً وتختلفوا؛ لأن الناس غالباً تختلف نحلهم ووجهات نظرهم. يعني: إذا اختلفت وجهات نظركم لا تتنازعوا وكل منكم ينصر ما رآه فيخالف أخاه، بل كونوا متفقين دائماً؛ لأن الله (جل وعلا) شرع لكم طريقة تتفقون عليها وهي اقتفاء نبيكم ﷺ والسير في ضوء الكتاب الذي أنزله عليه والسنة التي تركها ﷺ. وما دام هو ﷺ موجوداً بين أظهرهم فمعلوم أن المصير إلى ما يقوله ﷺ، وهذا معنى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا﴾ فإنه نهاهم عن النزاع؛ لأن النزاع أكبر أسباب الفشل.

والتنازع غالباً يكون بسبب الأغراض الشخصية، وتقديم الأغراض الشخصية الدنيوية على المصالح العامة، فهذه البلية سوسة في الدنيا، وهي أضرّ أدواء هذا العالم، وهي تقديم المصالح

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٢١، ٤٢٢.

الشخصية على المصالح العامة، وقد نزلت بسببها بليّة يتضمنها إشكال أزاله الله بفتوى سماوية من عنده؛ لأن الله (جل وعلا) ربما سلط بعض الكفار على بعض المسلمين، وهي مشكلة واقعة الآن، يقول هؤلاء الشباب - الذين هم خفافيش أعماهم نور الإسلام، فصاروا يتطلبون النور في ظلام آراء الكفرة الفجرة - يقولون: كيف نكون على الحق وديننا دين حق ونحن مستضعفون مضطهدون في أقطار الدنيا، والكفار الذين تقولون: إنهم على باطل وليسوا على حق هم الذين معهم القوة والسيطرة، يبتزون ثرواتنا، ويضطهدوننا في أقطار الدنيا؟ وهذه المشكلة إنما يسببها التنازع والفشل، والأغراض الشخصية، وتقديمها على المصالح العامة. وهذا الإشكال بعينه قد استشكله أصحاب رسول الله ﷺ والنبي ﷺ موجود بين أظهرهم، والمَلَك يروح ويغدو بالوحي، فأفتى الله فيه فتوى سماوية هي قرآن يتلى في سورة آل عمران، وذلك أن النبي ﷺ يوم أحد لما صفّ الصفوف، والتحم القتال بين المسلمين والمشركين، وكان المسلمون سبعمائة مقاتل، والمشركون ثلاثة آلاف مقاتل، أخذ عبد الله بن جبير - أختا خوات بن جبير - (رضي الله عنهم) وأمره على طائفة الرماة، وقال له: «كونوا عند سفح هذا الجبل - يعني جبل أحد - ولا تأتونا أبداً، إن غلبنا القوم فلا تأتونا، وإن غلبناهم فلا تأتونا»<sup>(١)</sup>، وأمرهم بأن يثبتوا عند سفح الجبل لئلا يأتيهم القوم من الوراء من بينهم وبين

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب،

حديث رقم: (٣٠٣٩)، (١٦٢/٦)، وأطرافه في: (٣٠٤٣)، (٣٩٨٦)، (٤٠٦٧)،

الجبل، فلما التحم القتال في المرة الأولى، وهلك حملة اللواء من بني عبد الدار، وانهزم المشركون هزيمة منكرة، ترك الرماة أمر رسول الله ﷺ لمصالحهم الشخصية، وهي الانتفاع بمال الغنيمة، فقال لهم رئيسهم عبد الله بن جبير (رضي الله عنه): أما أنا فلا أخالف قول رسول الله ﷺ. وبقي معه نفر قليل. والآخرون راحوا يطلبون الأغراض الشخصية الدنيوية، وتركوا أمر الرسول. فنظر المشركون فإذا الجبل ليس دونه رجال، فجاؤوا من سفح الجبل وأتوهم من وراء ظهورهم، ودارت عليهم رحى الحرب، وأوقع الله ما أوقع بالمسلمين، كما قصه في سورة آل عمران في يوم أحد، قُتل من خيار الأنصار سبعون رجلاً، وقُتل عم رسول الله ﷺ أسد الله حمزة بن عبد المطلب، وقُطع أنفه وأذناه، وأخذ بعض كبده لهند بنت عتبة، وقُتل ابن عمته عبد الله بن جحش، وقُتل حامل رايته مصعب بن عمير العبدري (رضي الله عنه). وشماس بن عثمان المخزومي، وأوقع الله ما أوقع بسبب تلك الأغراض الشخصية وتقديمها على أمر الرسول ﷺ، وجرح ﷺ وشقت شفته السفلى اليمنى، وكسرت ربايعيته، وشج حتى غاص في جبهته بعض حلق المغفر الذي هو على رأسه، وانتزعه أبو عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) فسقطت معه ثنيته العليان لقوته، فكان أثرم (رضي الله عنه)، أي: ساقط الثنيتين. لما وقع هذا استشكله أصحاب رسول الله ﷺ هذا الاستشكال، وقالوا: كيف يُدال منا المشركون، وتكون لهم دولة علينا، ويقتلوننا ويجرحوننا وفينا رسول الله ﷺ ومعنا الحق؟ فهذا هو وجه الإشكال. فأفتى الله بإزالة هذا الإشكال فتوى سماوية، قرآنًا يُتلى في آل عمران، قال:

﴿ أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٥] يعني بقتل السبعين الذين قُتلوا منكم يوم أحد ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا ﴾ سابقاً يوم بدر بأن قتلتم سبعين وأسرتهم سبعين على أصح التفسيرين وأكثرهما قائلاً، ﴿ قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا ﴾ وهو محل الشاهد، هذا استشكال الصحابة ﴿ قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا ﴾ من أين جاءنا هذا، وكيف يُدالون منا، ونحن على حق، وهم على باطل، وفينا رسول الله ﷺ، وعلينا ينزل القرآن؟ كيف يُدالون منا؟ هذا الاستشكال نص عليه الله في قوله: ﴿ قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا ﴾ فأجاب الله بفتواه الإلهية السماوية قال لرسوله: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ من قبلكم جاءت البلية، وأنتم الذين جنيتموها على أنفسكم، وقوله: ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ فيه إجمال أوضحه الله في آية سورة آل عمران هذه، أوضحه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعَدَّهُ ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٢] يعني: بالنصر على الأعداء ﴿ إِذْ تَحْسُونَهُمْ ﴾ يعني تقتلونهم قتلاً ذريعاً يطفأ معه الحس، ويزول الحس بعده. ﴿ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾ من هذه البلايا جاءت البلية ووقع ما وقع؛ ولذا نهى الله عن هذا قال: ﴿ وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسَلُوا ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] وأكبر أسباب النزاع: تقديم المصالح الشخصية والأغراض الدنيوية على المصالح العامة. وهذه أكبر البلايا التي يأتي من قبلها الشر للمسلمين؛ لأنه قد يخالف بعض المسلمين فتكون العقوبة عامة للجميع. وهذا معنى قوله: ﴿ وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسَلُوا ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

الفضل: ضد النجاح. قال بعض العلماء: معناه تضعفوا

ويستولي عليكم الخور<sup>(١)</sup> ﴿فَنَفْسُكُمُ وَالنَّفْسُ الْوَارِثَةُ﴾ الإنسان إذا كان في عمل يدبره ليُحصَل وراءه نتيجة فإن تم له عمله ووقع ما أراد قالت العرب: نجح في أمره. وإن كان عكس ذلك قالوا: فشل في أمره، لم ينجح. وقال بعض العلماء: ﴿فَنَفْسُكُمُ وَالنَّفْسُ الْوَارِثَةُ﴾ يستولي عليكم الضعف والخور؛ لأن النزاع من أكبر أسباب الضعف والخور وعدم انتظام الكلمة، وهذا النزاع والاختلاف هو مشكلة عظمى في أقطار الأرض؛ لأن من يتسمون باسم المسلمين ينازع بعضهم بعضاً، ويعادي بعضهم بعضاً، وقد بين تعالى في سورة الحشر أن اختلاف القلوب، والمنازعات الشديدة، وتشتت الآراء والأفكار، وعدم الاتحاد، أن سبب هذا الذي يجتلبه به إنما هو ذهاب العقل وعدم العقل؛ لأن العاقل لا يتسبب في المخالفة؛ لأنك إذا اختلفت أنت وأخوك كان تدبيره وكل ما عنده من قوة يعمل ضدك، فإذا كنت عاقلاً - ولو عقلاً دنيوياً - كان تسببك في أن يكون معك؛ لأن كون قوته وما أعطاه الله في صالحك خير لك من أن يكون في غير ذلك؛ ولذا بين تعالى أن سبب اختلاف القلوب هو ضعف العقول وعدمها، قال في قوم - وهم اليهود لعنهم الله - ﴿بِأْسِهِمْ يَلْعَنُهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: الآية ١٤] أي: مختلفة مفترقة، فرق متعادية مختلفة. ثم بين العلة التي أوجبت تشتت تلك القلوب قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨] وقد تقرر في علم الأصول أن العلل تعمم معلولاتها وتخصصها كما هو معلوم في محله<sup>(٢)</sup>. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُكُمُ وَالنَّفْسُ الْوَارِثَةُ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] الفاء

(١) انظر: ابن جرير (٥٧٥/١٣).

(٢) انظر: نشر الورود (٤٧٣/٢).

سببية. والمعنى: أن التنازع سبب للفشل، والفشل: عدم النجاح والضعف والخور وعدم التمكن. والفاء سببية، والمضارع منصوب بعدها بـ (أن) المضمرة كما هو معلوم في محله. وقوله: ﴿وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ﴾ معطوف على المنصوب بـ (أن) المضمرة قبله.

وقوله: ﴿وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ﴾ للعلماء في المراد بالريح هنا أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً<sup>(١)</sup>:

قال بعضهم: ﴿وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ﴾ معناه: تذهب قوتكم. وهذا كالتوكيد لقوله: ﴿فَنَفْسَلُوا﴾ لأن من فشلوا فقد ذهبت قوتهم، وحاصل الريح هذه في كلام العرب أنهم يريدون بها الدولة أعني: وتذهب دولتكم ويكون الأمر إلى غيركم؛ لأن العرب تقول: «هب ريح فلان». أي: دالت دولته وجاء وقته الذي يتمكن به. وهذا معنى معروف في كلام العرب وفي لغتها التي نزل بها القرآن، وهو معنى مشهور معروف. «هب ريحك فاغتنم» أي: دالت دولتك وجاء الوقت الذي أنت تتمكن فيه. هذا معنى معروف في كلام العرب، وعلى هذا المعنى ﴿وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ﴾ أي: تنعدم دولتكم وتضيع، ويصير الأمر إلى غيركم، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر<sup>(٢)</sup>:

يا صاحِبَيَّ أَلَا لَاحِيَّ بِالوَادِي      إِلا عِيِداً قَعوداً بَيْنَ أَذْوَادِ

(١) انظر: ابن جرير (٥٧٥/١٣)، القرطبي (٢٤/٨)، البحر (٥٠٣/٤)، الأضواء (٤١٤/٢).

(٢) البيتان في الأغاني (٣٩١/٢٠)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (٣٤٠/١)، والبيت الثاني في البحر (٥٠٣/٤)، الدر المصون (٦١٧/٥)، وقد ذكرهما الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٤١٥/٢).

أَنْتَظِرَانِ قَلِيلاً رَيْثَ غَفْلَتِهِمْ أَمْ تَعْدُونَ فَإِنَّ الرِّيحَ للعادي  
 فقوله: «إن الريح للعادي» أن الدولة والظفر للذي يعدو فيذهب  
 فيأخذ، هذا معنى قوله. وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه  
 قول الآخر<sup>(١)</sup>:

إِذَا هَبَّتْ رِيَاْحُكَ فَاغْتَمَّهَا فَإِنَّ لِكُلِّ عَاصِفَةٍ سُكُونٌ  
 قال بعضهم: (إن) هنا اسمها ضمير الشأن، والمبتدأ  
 وخبره خبرها، ومعنى: (هبت رياحك) أي: دالت دولتك  
 فاغتمت الفرصة (فإن لكل عاصفة سكون) أي: لكل دولة تولُّ  
 ودبور، هكذا قاله بعض العلماء. وهذا معنى قوله: ﴿وَيَذْهَبَ  
 رِيْحُكَ﴾.

﴿وَلَا تَنْزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيْحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾<sup>(١١)</sup>  
 هذه وصايا سماوية، وتعاليم من رب العالمين عظيمة، من أخذ بها  
 ظفر، ومن تركها فشل وذهبت ريحه لا شك.

وقوله: ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ الصبر في لغة العرب معناه: حبس  
 النفس<sup>(٢)</sup>. تقول العرب: فلان صبر نفسه. أي: حبسها على  
 المكروه، وشجعها على الشيء الصعب، هذا معنى الصبر في لغة  
 العرب، ومادته تتعدى وتلزم، تقول العرب: صبر فلان فهو صابر  
 أي: كان متصفاً بالصبر، وصبر نفسه أي: حبسها على المكروه.  
 متعدياً للمفعول. ومن أمثلة تعديه للمفعول قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ  
 نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية [الكهف: الآية ٢٨]. وقول

(١) البيت في القرطبي (٢٤/٨)، البحر (٥٠٣/٤)، الدر المصون (٦١٧/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

عنترة، أو غيره<sup>(١)</sup> :

فصَبَرْتُ عارفةً بِذَلِكَ حُرَّةً ترسُّو إذا نفسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ  
يعني: حبست نفساً عارفةً بذلك على القتال. هذا أصل معنى  
الصبر.

والصبر في الشرع يتناول أموراً كثيرة منها<sup>(٢)</sup>: الصبر تحت  
ظلال السيوف؛ لأن الجنة تحت ظلال السيوف. ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ أي:  
ويتناول ذلك الصبر صبركم تحت ظلال السيوف في الميدان، ويتناول  
الصبر أيضاً: الصبر عن معصية الله وإن اشتعلت نار الشهوات،  
والصبر على طاعة الله وإن كنت كالقابض على الجمر. يتناول الصبرُ  
الصبرَ على هذا كله، والصبر على المصائب عند الصدمة الأولى.  
وهذا معنى قوله: ﴿وَأَصْبِرُوا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ومعيته للصابرين معية  
نصر وتأييد وتوفيق؛ لأن الله (تبارك وتعالى) ذكر في كتابه معية خاصة  
للمتقين والصابرين والمحسنين: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ  
مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: الآية ١٢٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿لَا تَحْزَنْ  
إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠] فهذه المعية الخاصة هي بالنصر  
والتوفيق ونحو ذلك. والمعية العامة هي بالإحاطة الكاملة،  
ونفوذ العلم، وإحاطته - جل وعلا - بكل شيء معلومة، وهي  
المذكورة في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَائِعُهُمْ﴾ إلى  
قوله: ﴿وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٧]،

(١) السابق.

(٢) السابق.

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد: الآية ٤] لأن جميع الكائنات بسماواتها وأرضها في يد خالق السماوات والأرض أصغر من حبة خردل، فهو مع جميعها بالإحاطة الكاملة العظيمة وبالإحاطة العلمية ونفوذ التصرف كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

لما أمرهم جل وعلا بالأوامر النافعة الكفيلة بالنجاح والسلامة من الفشل وذهاب الريح نهامهم عن أضرارها المستوجبة الفشل وذهاب الريح والانهزام قال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] النهي معطوف على الأمر، لأن قوله: ﴿ فَأَثْبِتُوا ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] أمر. وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ نهي. والأمر والنهي كلاهما إنشاء، يُعطف كل منهما على الآخر بلا نزاع. وإنما الخلاف بين العلماء في عطف الإنشاء على الخبر، أو الخبر على الإنشاء، فمنعه جماعة من العلماء. والتحقيق الذي دل عليه القرآن العظيم واستقراء اللغة العربية: هو جواز عطف الخبر على الإنشاء، والإنشاء على الخبر<sup>(١)</sup>، وإن ظن منعه جماعة من علماء البلاغة<sup>(٢)</sup> ومن النحويين. ومن عطف الإنشاء على الخبر في القرآن العظيم قوله تعالى عن أبي إبراهيم: ﴿ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَابِرُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: الآية ٤٦] فقوله: ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَه ﴾ الآية، خبر، وقوله: ﴿ وَأَهْجُرَنِي ﴾ إنشاء؛ لأنه أمر، فهو إنشاء معطوف على خبر، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس<sup>(٣)</sup>:

(١) انظر: ضياء السالك (٣/ ٢١٤، ٢٢٠)، التوضيح والتكميل (٢/ ١٨٩).

(٢) انظر: المقتصد (٢/ ٩٥٨).

(٣) ديوانه ص ١١١.

وإن شِفائي عِبْرَةٌ إِنْ سَفَحْتُهَا      وهلْ عند رَسْمِ دَارِسٍ من معول  
لأن الشطر الأول خبر، والشطر الثاني إنشاء، وهو معطوف  
عليه. ونظيره قول الآخر<sup>(١)</sup>:

تُنَاغِي غَزَالًا عِنْدَ بَابِ ابْنِ عَامِرٍ      وَكَحَلِّ مَآقِيكَ الْحَسَانَ بِإِثْمِدِ  
وهو عطف إنشاء على خبر، وهذا هو الصواب.

﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] أيها المؤمنون كالكفرة  
الفجرة أصحاب الفخر والخيلاء والرياء، فإن الفخر والخيلاء والرياء  
أوصاف ليست بأوصاف المسلمين، وليست بأوصاف المقاتلين  
الناجحين الظافرين في الميدان ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾  
هم كفار مكة، وهم نفير الجيش الذي التقوا معه يوم بدر بإجماع  
المفسرين خرجوا من ديارهم في مكة المكرمة - حرسها الله -  
﴿ بَطْرًا وَرِيَاءَ النَّاسِ ﴾ أي: لأجل البطر ومراءات الناس، وقال  
بعضهم: هو مصدر مُنْكَرٌ بمعنى الحال. خرجوا في حال كونهم  
متصفين بالبطر والرياء. وكونه مفعولاً لأجله أظهر<sup>(٢)</sup>.

البطر في لغة العرب: هو التكبر عن قبول الحق مع غمط  
الحقوق. وتكبرهم هذا المشار إليه هنا هو الذي بينا في قصة  
أبي جهل<sup>(٣)</sup>؛ لأن الكفار لما كانوا بالعدوة القصوى من بدر،  
وأرسلوا عمير بن وهب الجمحي (رضي الله عنه) - وكان إذ ذاك  
كافراً - وقالوا له: أحزر لنا القوم. فجاء فحزبهم، فقال: القوم

(١) البيت لحسان (رضي الله عنه)، وهو في ديوانه ص ٨٣، وله روايات متعددة.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٦١٦).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة الأنفال.

ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، ولكن دعوني أنظر هل لهم كمين؟ فجال في فرسه في وادي بدر حتى أبعد، قال: ليس للقوم كمين، ولكني يا قوم رأيت البلايا تحمل المنايا، رأيت نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، والله لا يُقتل رجل منهم حتى يُقتل رجلاً منكم، وإن مات منكم أعدادهم فلا خير في الحياة بعد ذلك، فرأيت أن تنصرفوا. فأيده حكيم بن حزام (رضي الله عنه)، وذهب إلى عتبة بن ربيعة وقال له: يا أبا الوليد إن عير قريش نجت من محمد ﷺ وليس لهم لديه مطلب إلا دية ابن الحضرمي - عمرو بن الحضرمي - الذي قُتل في سرية نخلة، وهو حليفك فتحمل ديته وخل الناس يرجعون فإنه لا خير لهم في لقاء محمد ﷺ. فاجتمع عتبة وحكيم وعمير بن وهب على هذا الرأي، ولكن قال له عتبة: يا ابن حزام اذهب إلى ابن الحنظلية - يعني به أبا جهل عمرو بن هشام - قبحه الله - فقل له هذا. فلما جاءه قال له: انتفخ سحر عتبة - يعني انتفخت رثته من الخوف - فغضب عندها عتبة وقال: سيعلم مصفر أسته غداً من الجبان!! ثم إن أبا جهل - لعنه الله - قال لابن الحضرمي: أنت ترى تارك فلا يردنك هؤلاء عن تارك فتقدم واطلب ثأر أخيك، فتقدم عامر بن الحضرمي وقال: واعمرأه، واعمرأه. ينشد ثأره من أخيه عمرو الذي قتلته سرية عبد الله بن جحش (رضي الله عنه) في نخلة كما هو مشهور، فلما قالوا له: ارجع بنا. قال - وهو محل الشاهد - قال: والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر - وكان بدر موسماً من مواسم العرب، وسوقاً يبيعون فيه في السنة - ونشرب الخمر، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا!! فهذا هو فخره وخيلاؤه وبطره ورثاؤه الذي بينه بقوله:

تسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا ﴿رِقَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] هو الذي يفعل الفعل لأجل أن يراه الناس فيحمدونه عليه، ويعظمونه عليه لا لوجه الله. وهذا معنى قوله: ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا﴾ أي: لأجل البطر. أو: بطرين متكبرين عن الحق، متصفين بالفخر والخيلاء.

وقال بعض العلماء: البطر التكبر عن الحق مع غمط الناس حقوقهم.

قال بعضهم: البطر سوء احتمال النعمة، فمن أنعم الله عليه نعمة وصار يعمل فيها عمل الإسراف فيما لا يرضي فهو من البطرين. وعلى كل حال فهم بطرون لأنهم تكبروا عن قبول الحق، وغمطوا الناس حقوقهم، وجأؤوا في فخر وخيلاء. وفي قصة بدر أن النبي ﷺ لما رآهم متصوبين من كثيب بدر قال: «اللهم هذه قريش أقبلت تحادك وتكذب رسولك، هذه قريش أقبلت بفخرها وخيلائها - وهو محل الشاهد - تحادك وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة»<sup>(١)</sup> كما هو معروف في محله. وهذا معنى قوله: ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ هم أبو جهل وأصحابه من النفير الذين قُتل أشرفهم، وأسرروا على شفير بدر كما هو معروف. وكان بعض العلماء يقول<sup>(٢)</sup>: أفخر بيت قالته العرب بيت حسان بن ثابت (رضي الله عنه) في بدر حيث يقول<sup>(٣)</sup>:

(١) مضى عند تفسير الآية (٩) من هذه السورة.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/٢٧٩).

(٣) لفظ الشطر الأول في المصدر السابق:

وفي بئرِ بدرٍ إذ يصد وجوههم جبريلُ تحتَ لوائنا ومحمد ﷺ

وهذا معنى قوله: ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه (صدًّا) المتعدية<sup>(١)</sup>، والمفعول محذوف لدلالة المقام عليه، أي: يصدون الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والسبيل في لغة العرب<sup>(٢)</sup>: الطريق، وهي تُذَكَّرُ وتُؤنَّثُ. وجاء في القرآن تذكير السبيل في قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦] ولم يقل: يتخذوها. ومن تأنيثها في القرآن قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: الآية ١٠٨] ولم يقل: هذا سبيلي، وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿تَبْعُونَهَا﴾ [آل عمران: الآية ٩٩] يعني السبيل كما هو معروف. وسبيل الله: دين الإسلام، وإنما قيل له: سبيل الله لأنه الطريق التي شرعها الله، وأصل أصولها، وأمر بالسير عليها، ووعد من سار عليها الجنة، ومن تجنبها النار. فلذلك كانت سبيله؛ لأنه الذي شرعها، وأمر بسلوكها، ووعد من سلكها الخير، ومن لم يسلكها الشر؛ ولذا أُضيفت إليه فقيل لها: سبيل الله، ولذا قال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾ جل وعلا بكل ما ﴿يَعْمَلُونَ مَحِيضًا﴾؛ لأنه (جل وعلا) محيط بكل شيء. وفيه تهديد ووعد لهم، فقد أحاط بهم وبأعمالهم، ومكّن منهم نبيه ﷺ فقتل رؤساءهم وأسره كما قدمنا إيضاحه. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مَحِيضًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٧].

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآيات (٥٥، ١١٦) من سورة الأنعام.

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨].

﴿ وَإِذْ زَيْنَ ﴾ حين زين ﴿ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] وهؤلاء الذين زين لهم الشيطان أعمالهم هم الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله، هؤلاء زين لهم الشيطان أعمالهم. زينها لهم معناها: صيرها في أعينهم متصفة بالزين، والزين: ضد القبح، أي: زينها لهم، حسنها لهم حتى صارت حسنة عندهم بتزيينه ووسوسته وإن كانت أقبح شيء.

والأعمال جمع عمل، وهو ما يصدر عن الإنسان. وقد علم باستقراء الشرع أن العمل الذي يزينه الشيطان ويُعاقب عليه ويُثاب عليه أنه أربعة أقسام، دل على هذا استقراء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واللغة العربية، أن ما يصدق عليه اسم العمل الذي يزينه الشيطان ويُثاب الإنسان عليه ويُعاقب عليه أربعة أنواع لا خامس لها<sup>(١)</sup>:

الأول منها: فعل الجوارح كالسرقة والزنا.

والثاني منها: القول؛ لأن القول فعل اللسان، وقد سمي الله في سورة الأنعام القول فعلاً حيث قال جل وعلا: ﴿ زُحِرْفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام: الآية ١١٢] فسماه فعلاً.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

الثالث: العزم المصمم؛ لأن عزم الإنسان وتصميمه على الفعل بحيث لا يمنعه منه إلا العجز عنه هذا الفعل الذي صمم عليه وعزم عليه فكأنه عمله بعزمه وتصميمه، فهو عمل يزينه الشيطان ويؤخذ به فيثاب ويعاقب عليه، والدليل على أن هذا العزم المصمم أنه من جملة العمل الذي يدخل صاحبه النار مثلاً: ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما - أعني البخاري ومسلماً رحمهما الله - من حديث أبي بكر رضي الله عنه: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟! «فهؤلاء الناس سألو رسول الله ﷺ أن يُبرز لهم ويبين العمل الذي دخل بسببه المقتول النار؛ لأنه لم يقتل!! فأجابهم ﷺ في هذا الحديث الصحيح المتفق عليه: «إنه كان حريصاً على قتل أخيه»<sup>(١)</sup>. والجواب على طبق السؤال، فيبين أن عمله الذي أدخله النار حرصه على قتل أخيه، وهو عزمه المصمم وإن لم يتمكن منه.

أما العزم الغير المصمم بأن يخطر في ذهنه أنه يفعل كذا ثم يراقب الله فيتركه، فتلك السيئة التي همّ بها تكتب له حسنة؛ لأنه تركها خوفاً من الله. وهو معنى قوله ﷺ: «ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة»<sup>(٢)</sup> لأنه تركها خوفاً من ربه فكان ذلك حسنة؛ ولذلك كان جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) وهو من بني سلمة، وبنو سلمة وبنو حارثة - من الأنصار - هم الذين أنزل الله فيهم يوم أحد: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: الآية ١٢٢] قال:

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

﴿ هَمَّتْ طَّافِقَاتٍ ﴾ هذا الهمّ ليس بعزم مصمم؛ لأن الله قال بعده: ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهَا ﴾ فكان جابر يقول: مع أن الله ذكر أنا هممنا أن نفشل وهذه وصمة فينا، ولكن والله ما نحب أن الله لم ينزلها لأنه قال بعدها: ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهَا ﴾ فالتى بعدها تداويها وتزيد، هذا معنى كلامه (رضي الله عنه)<sup>(١)</sup>. فالعزم المصمم من العمل الذي يزينه الشيطان ويدخل صاحبه بسببه النار.

الرابع: الترك، والتحقيق أن التروك أفعال يزينها الشيطان، يدخل صاحبها بها النار، ويثاب بها فيدخل بسببها الجنة. هذا هو التحقيق إن شاء الله. وقد كان ابن السبكي - تاج الدين - في بعض كتبه في علم الأصول في بحث أهل الأصول في الترك هل هو فعل أو ليس بفعل؟ قال: طالعت كتاب الله فوجدت من كتاب الله آية في سورة الفرقان يفهم منها أن الترك فعل<sup>(٢)</sup>.

ونحن نقول: إن هذه الآية التي أوردها ابن السبكي لا يظهر لنا وجه الدلالة منها كل الظهور، إلا أنا اطلعنا على آيتين من سورة المائدة كلهما صريحة في أن الترك من الأفعال، وأنه من الأعمال التي يؤاخذ بها الإنسان. وإيضاح ذلك: أنك لو تركت الصلاة حتى خرج وقتها، أنت ما فعلت شيئاً إلا أنك تركت الصلاة، فهذا الترك فعل يُقتل صاحبه بسببه، ويدخل به النار، ويكفر به عند من قال ذلك. فلولا أن الترك فعل لما كان تارك الصلاة كافراً عند من يقول بذلك، ولما وجب قتله كافراً عند أحمد في مشهور مذهبه، وهداً عند مالك والشافعي في مشهوري مذهبهما، وإيضاح هذا أن ابن السبكي قال:

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يُرَبِّ إِنَّا قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: الآية ٣٠] قد فهمت من هذه الآية في سورة الفرقان أن الترك فعل؛ لأن الأخذ: هو تناول، والمهجور: المتروك، أي: تناولوه متروكاً. فدل على أن الترك فعل يُؤتى بالتناول، وهذا لا يظهر لي كل الظهور.

أما الآيتان اللتان عثرنا عليهما في سورة المائدة، الدالتان على أن الترك فعل من الأفعال:

فإحداهما قوله تعالى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ ﴾ ثم قال: ﴿ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: الآية ٦٣] وإنشاء الذم بقوله ﴿ بئس ﴾ هنا متوجه على ترك الربانيين والأحبار النهي، وقوله: ﴿ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أي: بئس ما يصنعه الربانيون والأحبار وهو تركهم. فسمي تركهم الأمر بالمعروف صنعا، والصنع أخص من مطلق الفعل، وهذا هو التحقيق في معنى الآية، وهو نص صريح في أن الترك من الأفعال.

والآية الأخرى: قوله في المائدة أيضاً: ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: الآية ٧٩] وهو عدم تناهيهم عن المنكر، فسمي تركهم التناهي عن المنكر (فعلاً) وذمه أيضاً بالفعل الجامد الذي هو لإنشاء الذم أعني: (بئس) لأن (نعم) لإنشاء المدح، و (بئس) لإنشاء الذم، كما هو معروف في محله<sup>(١)</sup>.

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠) من سورة الأنفال.

وقد أجرى العلماء على هذا الاختلاف فروعاً كثيرة في المذاهب<sup>(١)</sup>، هل الترك فعل أو لا؟

قالوا: فبناء على أن الترك فعل: إذا كان الإنسان عنده خيوط من حرير مثلاً، وشُق بطن واحد من رفاقته، وأمسك عنه خيوط الحرير تخاط بها بطنه حتى هلك. فعلى أن الترك فعل فقد أهلكه بتركه، فتلزمه ديته، وعلى أن الترك [ليس]<sup>(٢)</sup> بفعل لا غرامة عليه.

وكذلك من كان عنده ماء يفضل عن سقي زرعه، وجف زرع جاره إذا أمسك عنه الماء الفاضل عنه، فعلى أن الترك فعل يضمه؛ لأنه أفسده بفعله، وعلى أنه ليس بفعل فلا.

ومن هذا: ناظرو الأوقاف، والأوصياء على اليتامى، إذا تركوا إيجار دورهم وقت الإيجار حتى فاتت الفرصة، فعلى أن الترك فعل يضمون، وعلى أنه ليس بفعل لا يضمون، وهي قاعدة كثيرة الفروع في مذاهب الأئمة (رحمهم الله) بسطها وبسط فروعها مقرر في مذاهبهم. وأصح القولين: أن الترك فعل، وأنه عمل من الأعمال التي يزينها الشيطان، وكان ﷺ أيام بنائه لهذا المسجد الشريف - يسراً الله له العمارة بطاعة الله وعبادته - كان النبي ﷺ ممن يعمل فيه وبعض الصحابة جلوس، فقال بعضهم<sup>(٣)</sup>:

لئن قعدنا والنبيُّ يعملُ لَدَاكَ مَّا الْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها الكلام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

فسمى قعودهم وتركه العمل سماه «عملاً مضللاً» وهذا معروف، ويدل عليه قوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»<sup>(١)</sup> فسمى ترك الأذى إسلاماً، ومعلوم أن الإسلام لا يكون بالعدم إلا بأفعال، وهذا يبين أن الأعمال التي يزينها الشيطان فيؤاخذ الإنسان بها أربعة: أعمال الجوارح (وهي الأفعال)، وأعمال اللسان (وهي الأقوال)، والعزم المصمّم، والترك، كما لا يخفى، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] الله هنا في هذه الآية من سورة الأنفال صرح بأن الشيطان (قال) ولم يقل: (وسوس) فصرح بالقول ولم يذكر الوسوسة؛ لأن الشيطان تمثل لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي البكري (رضي الله عنه)؛ لأن قريشاً لما جاءهم ضمضم بن عمرو الغفاري - أرسله لهم أبو سفيان - وتأهبوا للخروج وأجمعوا عليه، وبينهم وبين بني بكر بن كنانة عداوة، فخافوا أن يأتوهم من ورائهم فيأخذوا نساءهم وذرائعهم، فجاءهم إبليس في صورة سراقه بن مالك، وكان سيد بني مدلج، وهو من سادات بني بكر بن كنانة، وقال لهم: إني جار لكم، أجيركم من كنانة فلا يصل إليكم منهم سوء، وزين لهم هذه الأعمال، وقال: أنتم على حق، هذا الرجل الذي سفه أحلامكم، وفرق كلمتكم، وعاب آلهتكم، وسفّه آباءكم، فاذهبوا إليه ولا تتركوه يأخذ غيركم، ونحو هذا من التزيين، ولا غالب لكم

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

لشرفكم وقوتكم، وأنكم قَطَان بيت الله الحرام، زين لهم هذا التزيين، وقال لهم: إنه جار لهم يجيرهم من بكر بن كنانة، وذهب معهم وهم يعتقدونه سراقه بن مالك<sup>(١)</sup>، فلما فرَّ عنهم صاروا يعيون سراقه ولم يعلموا أنه الشيطان حتى أسلموا وسمعوا القرآن يُتلى أنه الشيطان تمثل لهم في صورة سراقه، / وفيه يقول حسان:

سرنا وساروا<sup>(٢)</sup> [إلى بدر لحينهم لو يعلمون يقين الأمر ما ساروا  
دلاهم بغرور ثم أسلمهم إن الخبيث لمن والاه غرار  
وقال: إني لكم جار فأوردهم شرَّ الموارد فيه] الخزي والعار

هذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ أَيُّومَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] فلما صف معهم للقتال - وكان حاضراً إذ ذاك - رأى الملائكة تنزل، وكان إبليس اللعين لما رأى الملائكة عرفها، ولما عرف الملائكة خاف خوفاً شديداً؛ لأن الشياطين أخوف ما تخافه الملائكة (صلوات الله وسلامه عليهم)، فعند ذلك ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ﴾ أي: رجع القهقري. والعقب: مؤخر الرجل؛ لأن الراجع القهقري يمشي على عقبه، أي: منعكساً متقهقراً. ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ تبرأت منكم، كما هي عادة الشيطان، يورد الإنسان الهلاك حتى إذا أوقعه فيه تبرأ منه؛ لأنه غرار خداع كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ﴾ [الحشر: الآية ١٦]

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من هذه السورة.

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، والأبيات ذكرها الشيخ (رحمه الله) فيما مضى عند تفسير الآية (٧) من هذه السورة، فنقلتها هنا وجعلت ذلك بين معقوفين.

وقد يتبرأ منهم - لعنهم الله - كما سيأتي في خطبة الشيطان خطبته الفصيحة العظيمة الصادقة التي يخطبها في أوليائه يوم القيامة، التي نص الله عليها في سورة إبراهيم الخليل؛ لأنه إذا اجتمعت الخلائق ورأى الكفار ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: الآية ٥٣] جاؤوا لإبليس اللعين وقالوا: أنت كنت سيدنا وكنا نطيعك، فإن كان عندك شيء اليوم فأت به. قال بعض العلماء: ينصب له منبر من نار<sup>(١)</sup> - والله أعلم - بمثل هذا. ونصب المنبر له من النار شبه إسرائيليات، والخطبة صحيحة ذكرها الله في سورة إبراهيم الخليل، وهو قوله لهم: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢] وهو صادق في كلامه هذا، وقد يصدق الكذوب، فعند ذلك يمقتون أنفسهم حيث اتبعوا هذا الخائن الغدار الغرار، وعندما يمقتون أنفسهم في ذلك الوقت قال بعض العلماء: ينادون: ﴿ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ دُعِيتُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ [غافر: الآية ١٠] ولذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] تراءت: (تفاعلت) من (رأى) البصرية. أي: كان كل من الفئتين يرى الأخرى يبصره رأي العين كما تقدم في قوله: ﴿ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ﴾ [آل عمران: الآية ٣٣] ﴿ تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ ﴾ أي: فئة المسلمين وفئة الكفار، صار هؤلاء يرون هؤلاء عياناً بأعينهم، وهؤلاء كذلك. قال بعض العلماء: ونزل

(١) انظر: ابن جرير (١٦/٥٦٣).

الملائكة لنصر المسلمين، ورأى إبليس الملائكة، ويدل على هذا قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يشير إلى الملائكة؛ لأن الكفار لم يروها وهو قد رآها، وهذا معنى قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ قال بعض العلماء: هو الملائكة. وعبر عنه بـ (ما) لأنه أبهمه عليهم ولم يبين لهم أنه من العالم ولا العاقل<sup>(١)</sup>. وهذا معنى قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أن ينزل بي عقابه ونكاله، فالله (جل وعلا) شديد العقاب. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(٢)</sup> أن الخوف في لغة العرب: هو الغم من أمر مستقبل. والحزن في لغة العرب: الغم بسبب أمر فائت - أعاذنا الله منهما - وربما وضعت العرب الخوف مكان [الحزن، والحزن]<sup>(٣)</sup> مكان الخوف. وقوله: ﴿أَخَافُ﴾ الألف بعد الخاء مبدلة من واو، وأصل مادته (فَعِل) بالكسر، أصل ماضيه: (خَوْفٌ) بكسر الواو (يَخْوَفُ) بفتحها، فوقع فيه الإعلال المعروف المشهور في التصريف<sup>(٤)</sup>.

﴿أَخَافُ اللَّهَ﴾ يعني: أترقب الغم من سبب ما يصلني منه في المستقبل. ﴿وَاللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب فعقابه شديد.

والعقاب: هو التنكيل بسبب الذنب. قال بعض العلماء: سمي عقاباً لأنه يأتي عقبه من أجله. وقد قدمنا أنه (جل وعلا) هو وحده شديد العقاب؛ لأنه لا شدة عقاب يملكها غير الله (جل وعلا)؛ لأن

(١) عبر بذلك لأن الملائكة إنما يوصفون بالعلم، وعليه فالمعنى: أنه لم يبين لهم أن ما رآه من الملائكة أو من غيرهم كالإنس والجن.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) في الأصل: «الغم، والغم»، وهو سبق لسان.

(٤) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٣٦٦.

أكبر طاغية من جبابرة أهل الأرض لا يقدر على شيء من العذاب إلا قَدَرَ ما يستوجب الموت مرة واحدة، فإذا عذب المجرم بقدر ما يستوجب الموت مات. والله وحده يعذب المجرمين بالآلاف والملايين مما يستوجب الموت ومع ذلك لا يموتون ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيَّتٍ ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧] ﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْتُهُمْ جُلُودًا أُخْرَىٰ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: الآية ٥٦] فهذا هو العذاب الشديد والنكال العظيم الذي يجب الحذر منه والخوف منه ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُؤْتِيهِمْ وَثَاقًا أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفجر: الآيتان ٢٥، ٢٦].

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَالَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّابٌ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغْتِرًا تَعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُفَرِّقُوا مَا بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٌ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنفال: الآيات ٤٩ - ٥٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَالَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال: الآية ٤٩].

قوله: «إذ» ظرف بدل من «إذ» قبله، أو منصوب بـ (اذكر) مقدرًا. اذكر إذ يقول المنافقون.

المنافقون: جمع التصحيح للمنافق، وهو المتصف بالنفاق، والنفاق: هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر. والمنافق هو المعروف في اصطلاح الفقهاء بالزنديق، فالمنافقون الذين يلقون المسلمين ويقولون: إنهم مؤمنون. وهم في باطن الأمر بخلاف ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ اختلف العلماء في المراد بالذين في قلوبهم مرض على أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً<sup>(١)</sup>.

قال بعض العلماء: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ هم نفس المنافقين، وإنما كان العطف نظراً إلى مغايرة الصفات، كأنه يقول: الجامعون بين النفاق ومرض القلوب قالوا كذا وكذا، ومعلوم في اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن عطف الشيء على نفسه مذكوراً بصفات مختلفة نظراً إلى أن تغاير الصفات كتغاير الذوات أسلوب عربي معروف في كلام العرب، وهو موجود بكثرة في القرآن<sup>(٢)</sup>، كقوله في أول سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: الآيات ٢ - ٤] والمعطوفون هم الأولون، إلا أن الصفات اختلفت فجاء العطف نظراً لتغاير الصفات. ونظيره في القرآن أيضاً قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾﴾ [الأعلى: الآيات ١ - ٤] فالمتعاطفات شيء واحد عطف بعضها على بعض نظراً لتغاير

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٢)، القرطبي (٨/٢٧)، ابن كثير (٢/٣١٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

الصفات، وهذا الأسلوب معروف في كلام العرب، ومن شواهده العربية قول الشاعر<sup>(١)</sup>:

إلى المَلِكِ القَرَمِ وابنِ الهَمَامِ      وليثِ الكَتِيبَةِ في المُرْدَحَمِ  
فهو إنسان واحد، وذُكرت العطوف نظراً لتغاير الصفات. ومما  
يؤيد هذا القول: أن الله وصف المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً في  
قوله: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: الآية ١٠] وهي  
في المنافقين بلا نزاع.

ومرض القلوب جاء في القرآن على معنيين:

أحدهما: مرض القلوب بمعنى ما يداخلها من الشرك والشك  
والنفاق، كقوله: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة:  
الآية ١٠].

المعنى الثاني: إطلاق مرض القلب على القلب الذي يهوى  
الفجور والزنى ونحو ذلك، ومنه بهذا المعنى قوله في سورة الأحزاب  
مخاطباً أزواج النبي ﷺ: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾  
[الأحزاب: الآية ٣٢] أي: يطمع في نيل الريبة منكن الذي في قلبه  
مرض. ميل إلى الفجور وما لا ينبغي، والعرب تعرف هذا، الذي  
ينطوي قلبه على أمور خسيصة، تقول العرب: في قلبه مرض، ومن  
هذا المعنى قول الأعشى — ميمون بن قيس — وهو عربي فصيح  
يمدح رجلاً<sup>(٢)</sup>:

حافظ للفرج راضٍ بالتقى      ليس ممن قلبه فيه مرض

(١) السابق.

(٢) لم أقف عليه.

وقال بعض العلماء: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ المشركون، إذ لا مرض في القلوب أكبر من انطوائها على الشرك بالله.

وذهبت جماعة من العلماء إلى أن ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ في هذه الآية من سورة الأنفال خُصّ بها أناس معروفون هم الذين بسط الله قصتهم في سورة النساء، وهم قوم تكلموا بكلمة الإسلام فقالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله في مكة، ثم إنهم أبوا أن يهاجروا، وفي قلوبهم إسلام وإيمان ضعيف في قلوبهم على حرف هكذا وهكذا. وإذا قيل لهم: لِمَ لا تهاجرون وأنتم مسلمون؟ قالوا: نحن مستضعفون في الأرض. وهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الآية [النساء: الآية ٩٧].

قالوا: جاؤوا مع كفار قريش فلما رأوا قلة المسلمين - وكان الله قلل المسلمين في أعين الكفار، والكفار في أعين المسلمين كما أوضحناه قريباً في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَيْلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] لما رأوا قتلهم وقللهم الله في أعينهم جداً - قالوا: هؤلاء قوم مغرورون، غرهم دينهم!! وزعموا أنهم على دين يؤيد القليل المتمسك به على الكثير فاغتروا من هنا، وهؤلاء سيُغلبون ويقتلون قطعاً!! وهؤلاء المستضعفون الذين نزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [النساء: الآية ٩٧] نفر من قريش معروفون، آمنوا بالله إيماناً ضعيفاً ولم يهاجروا، وجاؤوا مع الكفار يوم بدر، قال بعض العلماء: وهم الذين قالوا مع المنافقين: ﴿عَرَّهٗنَّوَلَّآءُ دِينَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٩] وهم معروفون، وهم: العاص بن منبه بن الحجاج السهمي، وعلي بن

أمية بن خلف الجمحي، وأبو قيس بن الفاكه ابن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وابن عمه أبو قيس بن الوليد ابن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، هؤلاء هم النفر المعروفون الذين قالوا: إنا ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء: الآية ٩٧] وعلى كل حال فلما التقى المسلمون والمشركون يوم بدر كان الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، أو المشركين، أو هؤلاء النفر القليلين الذين آمنوا إيماناً ضعيفاً في مكة وخرجوا مع الكفار يوم بدر وقتلوا كفاراً - والعياذ بالله - قالوا: ﴿ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ الإشارة في قوله: ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ إلى النبي ﷺ وأصحابه و﴿ دِينُهُمْ ﴾ فاعل ﴿ غَرَّ ﴾. يعني: غرهم دينهم حيث اغتروا به وظنوا أن المتمسك بهذا الدين ولو كان قليلاً ضعيفاً يغلب القوي العظيم فاغتروا، وسيكون هذا الغرور سبباً لهلاكهم!! والعرب تقول: «غره يغره غروراً» على غير قياس. فالفاعل: غار، والمفعول: مغرور، إذا خدعه. وهم نسبوا هنا الغرور إلى الدين زاعمين أنهم انخدعوا في دينهم حيث يظنون أن القليل المتمسك به يغلب القوي غير المتمسك به، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، تقول: غره يغره. إذا خدعه، ومنه سُمي الشيطان غروراً لكثرة غروره للآدميين بتزيينه ووساوسه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَغُرُّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [فاطر: الآية ٥] ومن هذا المعنى قول ابن أبي ربيعة أو غيره<sup>(١)</sup>:

إِنَّ امْرَأَةً مِّنْكَ وَاحِدَةٌ  
بعدي وبعدي في الدنيا لمغرور

(١) البيت في شذور الذهب ص ١٧٤.

ثم إن الله أجاب عما قاله المنافقون والذين في قلوبهم مرض قال لهم الله: لا. كأن المعنى: لا، لم يغر هؤلاء دينهم، وهم على بصيرة من أمرهم وعلى حق، ولكنهم توكلوا على الله، ومن توكل على الله توكل على قوي الجناب عزيز منيع لا يُضام من توكل عليه؛ ولذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ التوكل معناه: الثقة الكاملة، وتفويض الأمور إليه جل وعلا. ﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يثق بالله ثقة كاملة ويسلم إليه أمره، ويفوض له تفويضاً تاماً توكلأً عليه. ﴿فَاتَّكَرَّ اللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الضمير الرابط محذوف دل المقام عليه. ومن يتوكل على الله فإنه يعزه بعزته وينصره؛ لأن الله عزيز حكيم.

والعزيز: هو الغالب الذي يقهر غيره ويغلبه فالله (جل وعلا) عزيز غالب على أمره. والعزة في لغة العرب: الغلبة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: الآية ٨] أي: والله الغلبة ولرسوله. ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخُطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٣] يعني: غلبني في المخاصمة. والعرب تقول: «من عزّ بزّ»<sup>(١)</sup> يعنون: من غلب استلب؛ لأنه كان الغالب ينهب مال المغلوب، ويقولون: «من عزّ بزّ». وقد قالت الخنساء بنت عمرو الشريد السلمية الشاعرة<sup>(٢)</sup>:

كأن لم يكونوا حمى يُختشى  
إذ الناس إذ ذاك من عزّ بزّا  
تعني: من غلب استلب. والحكيم<sup>(٣)</sup>: هو ذو الحكمة البالغة،

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

الذي لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه. فاقترضت عزته وقهره وسلطانه ألا يُضام وليه المتوكل عليه المستند إليه، وألا يُقهر. واقترضت حكمته البالغة ألا يجعل وليه كعدوه، وألا يسوي بينهما بل ينصر وليه على عدوه. والحكمة لا تتم إلا بالعلم؛ لأن تمام الحكمة بتمام العلم؛ ولذا لا تتم الحكمة تماماً كلياً إلا لله وحده (جل وعلا)؛ لأنه هو العالم بخفايا الأمور وخباياها وما تؤول إليه، فالله وحده هو الذي لا يجري عليه: لو فعلت كذا لكان خيراً. أما غيره فإنه قد يفعل الأمر يظنه صواباً، وأنه في غاية الحكمة، ثم يتبين له بعد ذلك أن غيره أصوب منه، فيقول: لو فعلت كذا لكان كذا!! وليتني لم أفعل!! وفي الحديث النهي عن (لو) لأنها تفتح باب الشيطان. لو فعلت كذا لكان كذا<sup>(١)</sup>.

ليت شعري وأين مني (ليت) إن (ليتاً) وإن (لواً) عناء<sup>(٢)</sup>

العناء: التعب وكثرة: ليتني فعلت، وليتني لم أفعل، ولو فعلت كذا لكان كذا. كل هذا يقع من عدم العلم بعواقب الأمور، والله (جل وعلا) وحده لا يجري عليه: لو فعلت كذا لكان أصوب. لعلمه بما تنكشف عنه الغيوب، وما تؤول إليه الأمور، فالحكمة الكاملة له، أما غيره (جل وعلا) فقد يفعل الأمر يظنه حكمة وصواباً ثم ينكشف الغيب عن خلاف ذلك كما قال<sup>(٣)</sup>:

ألم على (لو) ولو كنتُ عالماً بأذنب (لو) لم تفتني أوائله

(١) مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز...، حديث رقم: (٢٦٦٤)، (٤/٢٠٥٢).

(٢) مضي عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٣) مضي عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

وهذا سيد البشر محمد ﷺ علمه الله العلوم العظيمة كان يقول في آخر عمره في حجة الوداع: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها عمرة»<sup>(١)</sup> فكيف بغيره ﷺ؟! وهذا معنى قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ - جل وعلا - عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤٩].

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [٥٠] ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنفال: الآيتان ٥٠، ٥١].

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا نبي الله. (لو) حرف شرط تقلب المضارع ماضياً غالباً. ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ هنا بمعنى: لو رأيت. لأن (لو) من حروف الشروط التي تختص بالمعنى الماضي غالباً، وفي أغلب أحوالها إذا جاء بعدها مضارع تقلبه إلى معنى المضارع، وقد لا تقلبه إلى معنى المضارع فيأتي بعدها مضارع، وهو ليس بكثير، ولكنه موجود في كلام العرب، ومن إتيان المعنى بعدها مضارعاً ولو كان ماضياً: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا﴾ [النساء: الآية ٩] لأن تركهم للذرية مستقبل؛ لأنهم في ذلك الوقت أحياء. ومن إتيانه مستقبلاً غير مصروف إلى الماضي قول المجنون<sup>(٢)</sup>:

فلو تلتقي أضداؤنا بعد موتنا      ومن دون رمسينا من الأرض منكب  
لظلل صدئ صوتي وإن كنت رمة      لصوت صدئ لي لي يهش ويطرَب

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) البيتان في ديوانه ص ٢٤.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّىٰ﴾

ترى حين يتوفى الملائكة.

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير ابن عامر: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ بالياء. وقراه ابن عامر وحده: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ تَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ﴾<sup>(١)</sup>.

وتتوفاهم: أصل التوفي في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه<sup>(٢)</sup>: أخذ الشيء وافياً، تقول العرب: «توفيت دَينِي»، أي: أخذته وافياً. وكان حقيقة عرفية في أخذ الروح من البدن. فصار التوفي حقيقة عرفية في أخذ الروح وافية كاملة من البدن بحيث لم يبق فيه روح البتة.

والملائكة: جمع ملك. والتحقيق عند جماعة من العلماء: أن اشتقاق الملك من الألوكة، والألوكة: الرسالة<sup>(٣)</sup>؛ لأن لطالب العلم أن يقول: مفرد الملائكة ملك، وجمعه: الملائكة — بالهمزة — فمن أين جاءت هذه الهمزة؟ وما الجالب لها؟

والجواب عن هذا: ما قاله بعض العلماء: أن أصل الملك: (مألك) (مَفْعَل) من الألوكة. والألوكة في لغة العرب: الرسالة. وألكني إليه: احمل إليه مألكتي، أي: رسالتي، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي<sup>(٤)</sup>:

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢١.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

الِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرَ الرُّسُولِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبْرِ  
فَأَصْلُهُ: (مَالِك) لَأَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ مَالِكَ اللَّهِ، أَي: رِسَالَاتِ اللَّهِ،  
مِنْهُمْ مَنْ يُرْسَلُ لِتَسْخِيرِ الْمَطَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُرْسَلُ لِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ،  
وَمِنْهُمْ مَنْ يُرْسَلُ لَضَبْطِ الْأَعْمَالِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُرْسَلُ لِحِفْظِ بَنِي  
آدَمَ أَنْ تَتَخَفْتَهُمُ الشَّيَاطِينُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿فَالْمُدْرِيَاتِ  
أَمْرًا﴾ [النَّازِعَاتِ: الْآيَةُ ٥] فَلَمَّا كَانُوا يَحْمِلُونَ الْمَالِكَ،  
أَي: الرِّسَالَةَ مِنَ اللَّهِ فِي الشُّتُونِ الشَّتِي قِيلَ فِيهِ: (مَالِك). ثُمَّ وَقَعَ فِيهِ  
قَلْبٌ فَجُعِلَ الْفَاءُ مَكَانَ الْعَيْنِ، وَالْعَيْنُ مَكَانَ الْفَاءِ، وَهَذَا الْقَلْبُ  
مَعْرُوفٌ فِي الصَّرْفِ، فَقِيلَ فِيهِ: (مَلَأَك) عَلَيَّ وَزَنَ (مَعْفَل) ثُمَّ  
نُقِلَتْ حَرَكَةُ الْهَمْزَةِ لِلَامِ فَقِيلَ فِيهِ: (مَلِك). فَكَانَ عِنْدَ جَمْعِ  
التَّكْسِيرِ تَظْهَرُ الْهَمْزَةُ الَّتِي هِيَ فِي أَصْلِهِ فِي مَحَلِّهَا الَّذِي قُبِلَتْ  
فِيهِ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: هَذَا أَصْلُهُ <sup>(١)</sup>. وَ﴿أَلْمَلَائِكَةُ﴾ فاعِلٌ  
﴿يَتَوَفَّى﴾ أَي: تَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ كَامِلَةً. وَالْفِعْلُ  
الْمُضَارِعُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَضْرِبُونَ﴾ جَمَلَتُهُ حَالِيَةٌ. وَأَصْلُ الْفِعْلِ  
الْمُضَارِعُ الْمُثْبِتُ إِذَا كَانَتْ جَمَلَتُهُ حَالِيَةً لَا تُرْبِطُ بِالْوَاوِ بَلْ بِالضَّمِيرِ  
كَمَا هُنَا ﴿يَضْرِبُونَ﴾ أَي: الْمَلَائِكَةُ. يَعْنِي: يَتَوَفَّوْنَهُمْ يَأْخُذُونَ  
أَرْوَاحَهُمْ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ ضَارِبِينَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ. الْوَجُوهُ: جَمْعُ  
الْوَجْهِ. وَالْأَدْبَارُ: جَمْعُ الدَّبْرِ، وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ <sup>(٢)</sup>: الْمُرَادُ  
بِالْأَدْبَارِ: الْأَسْتَاهُ - أَكْرَمَكُمُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا - قَالُوا: وَلَكِنَّ اللَّهَ  
(جَلَّ وَعَلَا) حَيِّيَّ كَرِيمِي يَكْنِي، فَكُنِي عَنِ الْإِسْتِ بِالْأَدْبَارِ؛ وَلِذَا قَالَ:  
﴿يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾.

(١) السابق.

(٢) انظر: ابن جرير (١٥/١٤).

وقوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٥٠﴾ مقول قول محذوف، أي: ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

اختلف العلماء في وقت ذوقهم عذاب الحريق<sup>(١)</sup>، قال بعض العلماء: هو عند وفاتهم عندما يأخذون أرواحهم يضربونهم بسياط من نار فتشتعل ناراً فيقولون لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٥٠﴾.

وقال بعض العلماء: هي للملائكة الذين قاتلوا في بدر يضربون الكفار، ويأخذون أرواحهم، ويضربونهم بسياط النار فتشتعل في جروحهم فيقولون لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٥٠﴾.

وقالت جماعة من العلماء: هذا يوم القيامة، وممن قال به: الحسن البصري، أي: يضربون وجوههم وأدبارهم الآن عند الاحتضار، ويشرونهم يوم القيامة بما هو أدهى وأمر من ذلك، وهو عذاب الحريق. وهذا معنى قوله: توفاهم ﴿أَلْمَلَكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٥٠﴾ [الأنفال: الآية ٥٠].

والتحقيق أن هذا ليس خاصاً بالذين قُتلوا من الكفار يوم بدر، بل هو عام، وأن الملائكة تضرب الكفار عند احتضارهم على الوجوه والأدبار، كما جاء مصرحاً به في سورة القتال، وجاء مشاراً إليه في الأنعام؛ لأن الله قال في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣] باسطوها إليهم بالضرب - والعياذ بالله - وقال (جل وعلا) في سورة القتال: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ وفي

(١) انظر: القرطبي (٢٨/٨).

القراءة الأخرى<sup>(١)</sup>: ﴿إِسْرَارُهُمْ﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ  
 وُجُوهُهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا  
 رِضْوَانَهُ ﴿[محمد: الآيات ٢٥ - ٢٨] فدلّت آية القتال هذه على  
 أنها عامة في كل من كره رضوان الله وأحب سخط الله، فكل من اتبع  
 ما يسخط الله يأتيه هذا الوعيد الشديد، ومن أعظم الناس نصيباً فيه  
 هؤلاء الذين يأتون الكفرة الفجرة الذين يكرهون القرآن وما أنزل الله،  
 ويقولون لهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ [محمد: الآية ٢٦]  
 وأحرى إن أطاعوهم في كل الأمر، هؤلاء أكثر الناس نصيباً في  
 ضرب الملائكة عند الاحتضار على الوجوه والأدبار - والعياذ  
 بالله - وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ  
 يَضْرِبُونَ وُجُوهُهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٠] قال بعض العلماء:  
 الضرب على الوجوه والأدبار أشد وقعاً. وقال بعض العلماء:  
 على القول بأنها في أهل بدر أنهم يضربون وجه المشرك مقبلاً،  
 فإذا فرّ مدبراً ضربوا دبره. وقد قدمنا أن التحقيق العموم، وأنها  
 لا تختص بمن قُتل في بدر. وهذا معنى قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهُهُمْ  
 وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. قال بعض العلماء: ذوق عذاب  
 الحريق عند الاحتضار؛ لأن المقامع التي يضربونهم بها تلتهب  
 عليهم ناراً.

وقال بعض العلماء: يشرونهم بالحريق يوم القيامة. ولا مانع  
 من وقوع الكل. هذا معنى قوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وجواب (لو) في هذه الآية محذوف، وتقديره: لو ترى يا محمد حين  
 يتوفى الملائكة الكفرة في حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم

مبشرين لهم بالحريق، لو ترى ذلك الوقت لرأيت أمراً فظيماً شنيعاً يجب الحذر منه، وجواب (لو) حَذْفُهُ إذا دل المقام عليه أسلوب عربي معروف يكثر في القرآن العظيم وفي لسان العرب<sup>(١)</sup>، ومنه في القرآن العظيم: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: الآية ٥] أي: لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر، ونظيره من كلام العرب في حذف جواب (لو) قول الشاعر<sup>(٢)</sup>:

فَأَقْسِمُ لَوْ شِئْتُ أَنَا رَسُولُهُ سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا  
أي: لو شئت سواك لرددناه.

وقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ [الرعد: الآية ٣١] ولم يذكر جواب (لو) وقال بعض العلماء: جوابه: لو أن قرآناً سُيرت به الجبال لكان هذا القرآن على حد قوله<sup>(٣)</sup>:

ولو طار ذو حافر قبلها لطارت ولكنه لم يطر  
وقال بعض العلماء: جواب (لو) المحذوف في آية الرعد ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ لو سيرنا الجبال بالقرآن وقطعنا به الأرض لكفرتم بالرحمن. ويدل على هذا التقدير الأخير قوله قبله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ [الرعد: الآية ٣٠].

وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام، وما سيأتي عند تفسير الآية (٥٩) من سورة التوبة.

(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ١٠٠.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ  
أَيْدِيَكُمْ ﴿[الأنفال: الآيتان ٥٠، ٥١].

قال بعض العلماء: هذا مما يقول لهم الملائكة عند توفيتهم إياهم وضربهم وجوههم وأدبارهم، يقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق. ويقولون لهم: ذلك العذاب الفظيع الشديد بسبب ما قدمت أيديكم.

وقال بعض العلماء: هو كلام مُؤْتَنَف، أي: ذلك العذاب الكائن الواقع لكم بسبب ما قدمت أيديكم. جرت العادة في لسان العرب الذي نزل به القرآن أن يُضَاف جميع الأعمال إلى الأيدي وإن كان بعضها ليس بأيدي، فإن الشرك الذي يُعذبون عليه محله القلب واللسان واليد، والزنى محله الفرج، وأكل الربا محله البطن، ولكن كل هذا يُنسب إلى الأيدي على الأسلوب العربي المعروف؛ لأن أكثر ما يزاوِل الإنسان أعماله بيده فنسب إليه على التغليب ومراعاة الأغلب<sup>(١)</sup>.

والمراد ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ ما كسبتم من المعاصي والكفر، سواء كان الذي اجترمته القلوب، أو الألسنة، أو الأيدي، أو غير ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿[الأنفال: الآية ٥١].

قال بعض العلماء: المصدر المنسب من (أن) وصلتها في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ في محل خفض معطوف على الموصول المجرور (بما) أي: ذلك بسبب الذي قدمته أيديكم،

(١) انظر: ابن عطية (٣/٣٠٨)، القاسمي (٤/٣٠٨).

وبسبب أن الله لا يظلم، فبكفركم وبعدالة ربكم وكمال إنصافه جاءكم العذاب؛ لأن بهذين السببين يتوجه إليكم العذاب، كونكم اقترفتموه واكتسبتموه بأيديكم، وكون ربكم (جل وعلا) حَكَمًا عدلاً منصفاً، فتعذبه ومؤاخذته للعاصي، كما أنه يثيب المطيع، فظلمكم وعداوة ربكم كل ذلك اقتضى لكم ما وقع لكم من العذاب والعياذ بالله جل وعلا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيه في هذه الآية الكريمة والآيات المماثلة لها من القرآن إشكال عربي معروف يدور فيه سؤال مشهور على السنة العلماء وطلبة العلم، وهو أن يُقال: الله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة نفي المبالغة؛ لأنه قال: ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ و (ظلام) (فَعَّال) و (الفعَّال) صيغة مبالغة، والمقرر في اللغة العربية التي بها نزل القرآن أن نفي المبالغة لا يقتضي نفي أصل الفعل من حيث هو<sup>(١)</sup>، فلو قلت: زيد ليس بِقَتَّالٍ للرجال، نفيت عنه المبالغة في القتل، ولا ينافي أنه ربما قتل رجلاً أو رجلين، ولو قلت: زيد - مثلاً - ليس بضربٍ لنسائه. يدل على انتفاء كثرة الضرب عنه، ولا ينافي أنه ربما وقع منه ضرب قليل كما هو معروف، فنفي المبالغة هنا لا يقتضي نفي أصل الفعل من حيث هو، والمقام مقام تنزيه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى، فلمَ عبّر هنا بصيغة المبالغة ولم يقل: ليس بظالم. أو ليس بذي ظلم للعبيد؟!

أجاب العلماء على ذلك بأجوبة<sup>(٢)</sup>: قالوا جرت العادة في القرآن

(١) انظر: الإتقان (٣/٢٣٣)، الكليات ص ٨٨٩.

(٢) انظر: البحر المحيط (٣/١٣١)، الدر المصون (٣/٥١٥)، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ص ١٠١، الإتقان (٣/٢٣٣)، الكليات ص ٨٨٩، القاسمي (٤/٣٠٩).

أن بعض الآيات قد يكون فيها شبه إجمال وتبينه آيات أخر، وقد أوضحت آيات أخر أن الله لا يظلم شيئاً، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: الآية ٤٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: الآية ٤٤] فالآيات الواضحات بينت هذا وأوضحته غاية الإيضاح.

وقال بعض العلماء: المبالغة هنا لا يقصد بها أصل المبالغة؛ لأن التكثير نظراً إلى كثرة العبيد؛ لأن الظلم لما تعلق بالعبيد وكان العبيد في كثرة هائلة كان الظلم كثيراً جداً لكثرة من هو منفي عنهم؛ ولذا كان نفيه نفيه من أصله؛ لأن الكثرة فيه والمبالغة بحسب العبيد اللذين يقع عليهم الظلم.

وقال بعض العلماء: — وهي نكتة حسنة — أن هذا العذاب الذي يعذبهم الله به هو عذاب فظيع هائل لا يُقَادَرُ قدره ولا يُمَاتَلُ مثله، فلو وقع منه ظلماً لكان مبالغاً في غاية الظلم مبالغة عظيمة، فنفي المبالغة بهذا الاعتبار، ومعناها نفي الفعل من أصله. وهذا الوجه حسن جداً، إلا أن فيه دقة. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: الآية ٥١].

وقوله (جل وعلا) في هذه الآيات الكريمة ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢] الكاف في قوله: ﴿كَذَّابٍ﴾ في محل رفع خبر مبتدأ محذوف. أي: دأبهم دأب كفار مكة، أبي جهل وأصحابه. دأبهم: أي: عادتهم، ودينهم، وديدنهم كدأب آل فرعون؛ لأن فرعون وقومه كان دأبهم الكفر، وتكذيب الرسل، والتمرد على الله، والكفر بالآيات، وجحودها بعد الاستيقان؛ لأن

فرعون - لعنه الله - متيقن كل اليقين أن نبي الله موسى صادق، وقد أوضح الله يقينه بذلك في موضعين: أحدهما قوله فيه [في سورة النمل: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾] الثاني: قوله تعالى إخباراً عن قول موسى لفرعون في سورة الإسراء: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ ﴿١١٢﴾ وهذا كان دأب المكذبين من الأقوام الذي بُعث فيهم الرسل كقوم نوح<sup>(١)</sup>.

/ وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط، كل هؤلاء كانوا في غاية [ب/٦] التمرد والعتو وتكذيب الرسل بعد قيام المعجزات ووضوح الحق. بين الله (جل وعلا) أن كفار قريش دأبهم كدأب أولئك. والدأب في لغة العرب: العادة. فكل من يجري على سنن مطرد وعادة ووتيرة تقول العرب: هذا دأبه. أي: عادته وديدنه الذي يسير عليه دائماً. ومنه قول امرئ القيس في إحدى روايتي بيته<sup>(٢)</sup>:

كذأبك من أم الحويرث قبلها  
وجارتها أم الرباب بمأسل

وقرأ هذا الحرف عامة القراء غير أبي عمرو في رواية السوسي: ﴿كذأبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ بتحقيق الهمزة، وقرأه أبو عمرو في رواية السوسي عنه خاصة: ﴿كذأبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ بإبدال الهمزة ألفاً في الموضعين.

والمعنى: دأب هؤلاء الكفرة دأبهم وديدنهم ودينهم مثل دأب آل فرعون في تكذيب الرسل؛ لأن فرعون كلما جاءته آية يقول: ﴿لَيْنَ كَشَفْتَنَا الرَّجْزَ لِنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿١٢٣﴾ فلماً

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) ديوانه ص ١١١.

كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٥﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥] حتى صار حوه في آخر الأمر وقالوا له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٢] يعني: دأب هؤلاء الكفرة من قريش ومن سار سيرهم كدأب الكفرة العتاة المتمردين من الأمم الماضية آل فرعون والذين من قبلهم، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقد قدمنا قصصهم مفصلة في سورة الأعراف وغيرها. وهذا معنى قوله: ﴿كَذَّابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢].

ثم فسر دأب آل فرعون ومن قبلهم وبين عاداتهم، قال: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ كفروا بها: جحدوا بها. وآيات الله: ما تتلوه عليهم الرسل من آياته الشرعية الدينية، وما يعاينونه من المعجزات من آياته الكونية القدرية، وهذا معنى قوله: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢] العرب تقول: «أخذ الله» إذا عاقبه عقاباً شديداً أليماً. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما (رحمهما الله) من حديث أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم تلا ﴿قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلَمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٧] ﴿[هود: الآية ١٠٢]﴾ (١) ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكهم وعاقبهم العقاب الشديد بسبب ذنوبهم. والذنب: هو الجريمة التي يستحق صاحبها النكال. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ ﴾ القوة: ضد الضعف، وقد بين (جل وعلا) أن القوة ضد الضعف في قوله: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً . . . ﴾ الآية [الروم: الآية ٥٤]. وهذا معنى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ ﴾ لأن الله (جل وعلا) قوي، هو أقوى من كل شيء، حتى لما قال عاد ما قالوا ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ قال لهم: ﴿ أَوْلَعَرَبُوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: الآية ١٥].

﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ العقاب: النكال الشديد لأجل الذنب. قال بعض العلماء: سُمي عقاباً لأنه يأتي عقب الذنب من أجله. وقد بينا مراراً أن الله (جل وعلا) في كتابه ينوه بشدة عقابه ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ﴿ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥]، ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: الآية ١٧٤]، ﴿ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: الآية ٢] ونحو ذلك من تشنيع عذابه وفضاعته، وإن الأمر كذلك؛ لأنه ليس يوجد عذاب هو في غايته شديد فظيع إلا عذاب الله (جل وعلا) ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴾ ﴿ وَلَا يُؤْتِيهِمْ نَاقَةَ أَحَدٌ ﴾ [الفجر: الآيتان ٢٥، ٢٦] لأن الناس إذا عذبوا المجرمين، والملوك الطغاة البغاة إذا أرادوا أن يعذبوا لا يستطيعون من العذاب إلا قدر ما يستوجب الموت مرة واحدة، فإذا شددوا العذاب على المعذب بقدر ما يميته مات وانتهى الأمر، أما خالق السماوات والأرض (جل وعلا) فإنه يعذبه بالآلاف مما يستوجب الموت وهو لا يموت. ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧]، وقال جل وعلا: ﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: الآية ٥٦]، ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: الآية ٣٦]، ﴿ وَنَادَا يَمْكُرُ لِيَقْضَىٰ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ ﴾

[الزخرف: الآية ٧٧]، فهذا العذاب الذي لا يقطعه الموت ولا غيره هو الذي يُخاف منه ويُحذر منه، وهو الشديد بمعنى الكلمة، فعلى كل عاقل أن يتحفظ منه ويتحرز منه في دار الدنيا مع إمكان الفرصة قبل أن يفوت الأوان ويندم حيث لا ينفع الندم، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢].

ثم قال جل وعلا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٣] الفعل المضارع مجزوم بـ (أن) بعد (حتى)، و (حتى) حرف جر بمعنى الغاية. والأصل: إلى أن يغيروا. أي: إلى تغييرهم ما بأنفسهم. فهو غاية ذلك المذكور مما أنزل الله بهذه الأمم من المثالات، وما أنزل بكفار مكة من العذاب يوم بدر والقتل والأسر متصلاً بعذاب الآخرة الذي لا ينقطع بسبب أن الله جل وعلا ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً﴾ (يكن) مضارع كان يكون، وحذف النون في الفعل المضارع معروف بقياس مطرد نطقت به العرب كذلك، سواء كان بعده (أل) أو لم تكن بعده (أل) كما هو معروف ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ مفعول به لاسم الفاعل. والنعمة: مصدر بمعنى الإنعام، وهو ما ينعم الله ويتفضل به على خلقه. أنعم بها ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: جماعة من الناس كقريش وغيرهم من الأمم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا﴾ والمعنى: أن عدم تغييره للنعمة مغنياً بغاية، تلك الغاية هي أن يغيروا ما بأنفسهم، فإذا غيروا ما بأنفسهم بأن ارتكبوا سوءاً يستوجب العذاب والغضب غيرنا النعم بسبب تغييرهم إياهم.

وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن يجب الاعتبار بها، وأن الإنسان لا يتسبب في تغيير نعمة الله عنه بتغييره ما في نفسه، بل يدوم

على طاعة الله وتقواه؛ لأنه إذا تنكر لربه قد يغير نعمته عنه وينقله من النعمة إلى النقمة، ومن السلامة إلى العذاب.

وفي هذه الآية إشكال معروف، وسؤال مشهور، وهو أن يُقال: إن هؤلاء الكفرة كل أحوالهم خبيثة وخسيصة، فما غيروا الكفر إلا إلى كفر، فهم كانوا كفرة ولم يكونوا في حالة محمودة حتى يكونوا غيروا ما بأنفسهم، فالذي كانوا فيه خبيث خسيس، والذي غيروا به خبيث خسيس، فبأي موجب كانت تتماذى عليهم النعمة الأولى، وبأي سبب كانوا يدخلون في قوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمَّ يَكُ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وهذا الإشكال قوي، ووجهه واضح جداً، ولا يمكن أن يُخرج من الآية لأن الآية نازلة في الكفار، فرعون ومن سار على سيره، وكفار مكة الذين شُبَّ دأبهم بدأبه، والمقرر في علم الأصول: أن صورة السبب لا يمكن أن تُخرج من العام بمخصص، وهو التحقيق إن شاء الله<sup>(١)</sup>. فبان استحكام هذا الإشكال وقوته.

وأجاب بعض العلماء<sup>(٢)</sup> عن هذا بأنهم كانوا في نعمة من الله لأنهم لم يأتهم رسول، وكانوا معذورين بالفترة، فأرسل الله إليهم الرسل، وبين لهم المعجزات، وأقام عليهم الحجج، فصاروا يحادون الله، ويكذبون رسله، ويعلمون الحق ويجحدونه عناداً وطغياناً وتكبراً على ربهم، فانتقلوا من حال سيئة إلى حال أسوأ منها بأضعاف، فلما انتقلوا إلى حال أسوأ كانوا غيروا غير الله ما بهم لما غيروا ما بأنفسهم بانتقالهم من سيء إلى أسوأ. وهذا معنى قوله:

(١) انظر: نثر الورد (٣١٣/١)، المذكرة في أصول الفقه ص ٢١٠.

(٢) انظر: البحر المحيط (٥٠٧/٤).

﴿ حَتَّىٰ يَغِيرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ ﴾ يعني: ما بأنفسهم بأن ينتقلوا من خير إلى شر. ودل هذا الجواب على أنه أيضاً بأن ينتقلوا من سيء إلى أسوأ منه وأفزع كما ذكرنا. وهذا معنى قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَغِيرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ ﴾.

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٥٣﴾ عطف على ما قبله بأنه لم يك مغيراً، وبأنه سميع عليم لا يخفى عليه شيء من أقوال المغيرين المستوجبين لتغيير النعمة، ولا من أفعالهم.

وقد قدمنا مراراً<sup>(١)</sup> أن مثل هذا هو الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم، وأوضحناه مراراً كثيرة. وهذا معنى قوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٥٣﴾ [الأنفال: الآية ٥٣].

﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ۗ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۗ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿٥٤﴾ [الأنفال: الآية ٥٤]

هذا كالتوكيد لما قبله، كرره ليبين بعض ما أجمله هناك، فبين في هذه الآية الأخيرة أن من كفرهم المذكور في قوله: ﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ۗ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا ﴾ بين أن منه التكذيب بآيات الله، وبين أنه عاقبهم وأغرق منهم آل فرعون.

ومعنى قوله: كذابهم ﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ فرعون: تطلق على كل من ملك مصر. والمراد بهذه: فرعون موسى.

واختلف العلماء في لفظة (فرعون) هل هو عربي أو أعجمي<sup>(٢)</sup>؟ فقال بعضهم: أعجمي. وقال بعضهم: هو عربي مشتق من (تفرعن) الرجل إذا كان ذا دهاء ومكر، فكل من كان ذا دهاء

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

ومكر هو متفرعن، وعلى أنه عربي فوزنه بالميزان الصرفي (فَعْلُولٌ) فَعْلُولٌ بلامين لا (فعلولن) بنون<sup>(١)</sup>. وفرعون هو الوليد بن الريان أو غيره على ما شرحنا، وهذا معنى قوله: ﴿كَذَّابٌ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ معناه: أهله وجماعته. والتحقيق في ألف (الآل) أنها مبدلة من واو؛ لأن العرب تصغره على (أويل). وبعضهم يقول: هي مبدلة من هاء، أصله: (أهل)<sup>(٢)</sup> ولا يقال: (الآل) إلا لمن له شأن وخطب، وإنما قيل لفرعون: (آل فرعون) مع أنه خسيس خبيث وضع لعظمته ومكانته عند قومه أيام إرسال موسى له؛ لأنه كان يقول: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: الآية ٥٢]، ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: الآية ٥١]، ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: الآية ٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: الآية ٢٨] فهذه العظمة الزائفة والأبهة المختلفة كأنه قيل له بها (آل).

﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كذب قوم نوح بآيات الله التي أرسل بها نبيه نوحاً، وقوم هود بآيات الله التي أرسل بها نبيه صالحاً إلى آخره. وهذا معنى قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وقد قدمنا تفصيل إهلاك هؤلاء الأمم، فبين في آيات كثيرة أنه أهلك قوم نوح بالطوفان ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا

(١) السابق.

(٢) السابق.

الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴿﴾ [الفرقان: الآية ٣٧] وبين أنه أهلك قوم هود بالريح العقيم ﴿﴾ مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٧﴾ [الذاريات: الآية ٤٢] وأنه أهلك قوم صالح بصيحة صاح بهم الملك ﴿﴾ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيئِينَ ﴿٦٧﴾ [هود: الآية ٦٧] وأنه أهلك قوم شعيب تارة قال: بصيحة، وتارة قال: برجفة، وتارة بظُلَّة. والتحقيق أن قوم شعيب - أهل مدين - اجتمعت لهم الصيحة والرجفة والظلة؛ لأنه صاح بهم الملك من فوق فرجفت بهم الأرض من تحتهم، ثم إن الله أرسل عليهم ظُلَّة فأحرقتهم - على القول بأن أصحاب الظلة هم أصحاب الصيحة والرجفة، وهو أظهر الأقوال وأقربها - كما قدمنا إيضاحه في سورة الأعراف - وبيننا أن قوم لوط أخذ الملك أرضهم فرفعها وقلبها عاليها سافلها؛ ولذا كانت قرى قوم لوط تسمى (المؤتفكات) والمؤتفكات: مفتعلات من الأفك<sup>(١)</sup>، والأفك في لغة العرب هو القلب. من أفك الشيء إذا قلبه فجعل أسفله أعلاه. ومنه قيل لأسوأ الكذب (إفكاً) لأنه قلب للحقائق عن مواضعها. فقال (جل وعلا) فيهم: ﴿﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا ﴿﴾ [هود: الآية ٨٢] لأنها أفكها الملك أي: قلبها. فالمؤتفكات: المنقلبات المجعلول أسفلها عاليها، تارة عبر عنها بالمؤتفكة نظراً إلى سدوم التي هي عاصمتها، وتارة عبر عن جميع القرى، قال في موضع: ﴿﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ [النجم: الآية ٥٣] وقال في موضع: ﴿﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنْتُمْ رُسُلُهُمْ يَلْبِغُونَ ﴿﴾ [التوبة: الآية ٧٠] إلى غير ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿﴾ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴿﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] بين هنا ما فعل بال فرعون؛ لأنه أغرقهم لما أسرى موسى ببني إسرائيل

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأعراف.

وضرب بعصاه البحر فانفلق البحر وصار فيه اثني عشر طريقاً يبساً،  
وسلكها موسى وقومه، فجاء فرعون في قومه وأُبْهِتَهُ فوجدوا  
الطرق يابسة، فدخلوا فيها حتى تكامل خروج بني إسرائيل على  
الشاطئ، ودخول القبطيين في البحر، أمر الله البحر فاضطرب  
عليهم، كما جاء مبيناً في سور كثيرة من كتاب الله. وهذا معنى قوله:  
﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] وكل من آل  
فرعون ومن قبلهم من الأمم كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح،  
وقوم لوط، وقوم شعيب، والكفرة الذين كذبوا محمداً ﷺ كل هؤلاء  
الكفرة كانوا ظالمين، ظالمين بكفرهم.

وقد قدمنا مراراً<sup>(١)</sup> أن أصل الظلم في لغة العرب التي نزل بها  
القرآن: هو وضع الشيء في غير محله، فكل من وضع شيئاً في غير  
محله فهو ظالم، هذا هو لسان العرب الذي نزل به القرآن، كل من  
وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم؛ ولذا كانوا يقولون لمن يضرب  
لبنه قبل أن يروب: ظالم. ويقولون للسقاء المضروب قبل أن يروب:  
مظلوم. لأن الضرب وقع في غير موقعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب  
يذهب زبده ويضيعه، فكان في غير موضعه، وهو معنى معروف في  
كلامها، ومنه قول الشاعر<sup>(٢)</sup>:

وقائلة ظلمتُ لكم سِقَائِي      وهل يخفى على العكدي الظليم

العكد: عصب مؤخر اللسان. والظليم: اللبن المظلوم

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

المضروب قبل أن يروب. معناه: أن ذوق اللسان يفهم ما ضرب منه قبل أن يروب، وما ضرب بعد أن راب، ونظيره قول الآخر<sup>(١)</sup>:

وصاحبِ صدقٍ لم تردني شكّاتُهُ ظلمت و في ظلّمي له عامداً أجرُ

ظلمته: أي: ضربته قبل أن يروب، وهذا المعنى المعروف في كلام العرب، ومنه قيل للأرض التي ليست محلاً للحفر إذا وقع بها حفر: مظلومة، ومنه قول نابغة ذبيان<sup>(٢)</sup>:

إِلَّا الْأَوَارِيَّ لِأَيَّامَا أُبَيْنُهَا وَالنَّوِي كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلْدِ

لأن حفر النّوي الذي يحول بين خيمة البدوي وبين السيل وقع في أرض ليست محلاً للحفر، ومنه قيل للتراب المنزوع من القبر: (الظلم)، أي: مظلوم؛ لأنه محفور في غير محل حفر عادة، ومنه قول الشاعر يصف رجلاً مقبوراً<sup>(٣)</sup>:

فَأَصْبَحَ فِي غَبْرَاءَ بَعْدَ إِشَاحَةِ مِنْ الْعَيْشِ مَرْدُودٍ عَلَيْهَا ظَلِيمُهَا

هذا معنى الظلم في لغة العرب. وجاء في القرآن معنى الظلم: الظلم بمعنى النقص في موضع واحد، هو قوله: ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَانِ نَاءٌ أَنْتَ أَكَلَهَا وَلَمْ تَظَلِمِ﴾ - يعني ولم تنقص - ﴿مِنْهُ شَيْئاً﴾ [الكهف: الآية ٣٣] وهو راجع في المعنى إلى ما ذكرناه.

إذا عرفتم أن الظلم في لغة العرب: هو وضع الشيء في غير محله فاعلموا أن أعظم أنواعه وأشنعها هو وضع العبادة في غير من خلق. من خلقه الخالق ورزقه - جل وعلا - فعبد غيره فقد وضع

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

عبادته وطاعته في غير موضعها فهو ظالم الظلم بمعناه الأكبر ومعنى الكلمة تماماً؛ ولأجل هذا المعنى كثر في القرآن إطلاق الظالم على الكافر المشرك، كقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: الآية ١٠٦]، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] قال: «بشرك»، ثم تلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣]<sup>(١)</sup> وكذلك يطلق الظلم على المعصية التي لا تبلغ الكفر؛ لأن العاصي أطاع الشيطان وعصى الله، فقد وضع طاعته في غير موضعها، ووضع معصيته في غير موضعها فهو ظالم بهذا الاعتبار، فهذا معنى قوله: ﴿وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] والتنوين في قوله: ﴿وَكُلُّ﴾ تنوين عوض، عوض عن كلمة المضاف إليه، أي: وكلهم كانوا ظالمين. فعوض التنوين عن المحذوف كما هو معروف في محله.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يُتَّقُونَ﴾ [فَأَمَّا تَشَقَّقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ﴾ [وَأَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَآئِنِينَ﴾ [وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْمُونَ لَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ [الأنفال: الآيات ٥٥ - ٦١].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُبُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّمَا تَثَقَفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَبْذِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ [الأنفال: الآيات ٥٥ - ٥٨].

نزلت هذه الآيات في بني قريظة من اليهود<sup>(١)</sup>، كانوا تعاهدوا مع النبي ﷺ أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه عدواً، ثم إنهم نقضوا العهد وأعانوا كفار مكة بالسلاح، وذهب إليهم كعب بن الأشرف - قبحه الله - إلى أهل مكة يشجعهم على قتال النبي ﷺ ويكذب عليهم ويقول لهم: أنتم أهدى طريقاً من محمد ﷺ كما قدمنا الكلام عليه في تفسير قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَذَا هُوَ الَّذِي أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: الآية ٥١] نقض بنو قريظة العهد أولاً فأعانوا قريشاً بالسلاح على النبي ﷺ - والإعانة بالسلاح نقض للعهد الأول - فلما كلمهم ﷺ في نقض ذلك العهد قالوا: نسينا وأخطأنا فلا تأخذنا بها. وأكدوا معه العهد مرة أخرى، ثم نقضوا العهد ومالؤوا الأحزاب على النبي ﷺ يوم الخندق، وكانوا حرباً عليه مع المشركين؛ لأن حبي بن أخطب سيد بني النضير كان فتن سيد قريظة كعب بن أسد حتى نقضوا العهد وصاروا مع الأحزاب حرباً على النبي ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٥].

(١) انظر: ابن جرير (٢١/١٤).

الدواب: جمع دابة، وقد جرت العادة في القرآن أن الآدميين لا يعبر عنهم بالدواب، لكنه هنا عبر عن هؤلاء الكفرة باسم الدواب، ليشير إلى أنهم كالأنعام بل هم أضل، كما قال: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: الآية ٤٤] والدواب: جمع دابة. وأصل الدابة وزنه (فَاعِلَةٌ) (دَابَّةٌ) جاء فيه الإدغام. وجمع (الفَاعِلَةُ) مطلقاً على (فَوَاعِلٍ) جمع تكسير مقيس بقياس مطرد كما هو معروف في محله<sup>(١)</sup>. أي: إن شر جميع ما يدب على وجه الأرض من الدواب هم الكفار؛ لأنهم شر كل ما يدب على وجه الأرض، فقوله هنا: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ هي صيغة تفضيل، أصله: إن أشر الدواب، أي: أكثرها وأعظمها نصيباً في الشر الذين كفروا. إلا أن (خيراً) و(شراً) لكثرة الاستعمال فيهما حذفت العرب منهما همزة أفعل التفضيل، وهما صيغتا تفضيل، فقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي: أكثر الدواب التي تدب على وجه الأرض شراً وأعظمها نصيباً في الشر - وهو ضد الخير - ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كنبني قريظة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٢] لأن الكفر متغلغل في أعماقهم لا يقلعون عنه، وهم أشقياء قد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون.

ثم زادهم بياناً وإيضاحاً بقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٦] ف ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ قبله. قال بعض العلماء: قوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ إنما جيء بـ (من) لأنه مضمن معنى: أخذت منهم العهود. قال بعض العلماء: (من) تبعيضية؛ لأنهم وإن كانوا كفرة كلهم فهم كلهم شر الدواب، إلا أن العهد إنما يعقد مع رؤسائهم الذين لهم العقد والحل، وبذلك الاعتبار دخلت (من) التبعيضية.

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ المقرر في فن التصريف: أن كل فعل جاء على وزن (فَاعَل) كقوله هنا ﴿عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ أو على وزن (تَفَاعَل) إنه يقتضي اشتراك المصدر بين فاعلين<sup>(١)</sup>. فمعنى ﴿عَاهَدْتَ﴾ أخذت عليهم العهد وأخذوا عليك العهد؛ لأن (فَاعَل) تقتضي الطرفين.

والعهد: كل شيء مؤكد لا يجوز نقضه تسميه العرب عهداً. والميثاق: العهد المؤكد. ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ وهم يهود بني قريظة ألا يحاربوك وألا يعاونوا عليك محارباً آخر ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا العهد المؤكد ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ قال بعض العلماء: (ثم) هنا للاستبعاد؛ لأنه يُسْتَبَعَد من العاقل الذي عنده عقله أن يجعل على نفسه العهود والمواثيق المؤكدة ثم ينقض ذلك؛ لأن هذا الفعل خسيس قبيح يستبعد من العقلاء. وقد تقرر في كلام العرب وفي القرآن أن لفظة (ثم) التي هي للانفصال والتراخي قد تأتي للاستبعاد، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: الآية ١] لأن من خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور يستبعد كل الاستبعاد أن يُجعل له عديل ونظير، ولذا قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١] أي: يجعلون له عدلاً ونظيراً. تقول: عدلت به إذا جعلت له عدلاً ونظيراً، ومنه قول جرير<sup>(٢)</sup>:

أثعلبة الفوارس أو رياحاً      عدلت بهم طهيّة والخشابا

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

فد (ثُمَّ) للاستبعاد، ومن شواهد إتيان (ثم) للاستبعاد قول الشاعر<sup>(١)</sup>:

ولا يكشفُ الغمَاءُ إلا ابن حُرّةٍ يرى غَمَرَاتِ الموتِ ثمَّ يزورها  
لأن زيارة غمرات الموت بعد معايتها من الأمور المستبعدة.

﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ نقض العهد هو عدم الوفاء به ونكثه ﴿عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ﴾ كما نقضوا في المرة الأولى حيث أعانوا كفار مكة بالسلاح، ونقضوا في المرة الثانية حيث صاروا مع الأحزاب على النبي وأصحابه ﷺ ورضي عنهم. وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يتقون الله (جل وعلا) فيجتريئون على نقض العهود وعلى كل جريمة، ليس لهم تقوى من الله تحملهم على امتثال أمره واجتناب نهيه وهذه — والعياذ بالله — أمور قبيحة حيث كانوا شر الدواب، وكانوا كافرين، ولا يؤمنون، وينقضون العهود، ولا يتقون الله، فهذا منتهى الذم — والعياذ بالله — هذا معنى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٦].

وقوله: ﴿فَإِذَا تَثَقَفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] ﴿فَإِذَا تَثَقَفْتَهُمْ﴾ هذه (إن) هي الشرطية زيدت بعدها (ما) المزيدة لتوكيد الشرط. والأصل: فإن تثقفهم فشرد بهم. والفاء في قوله: ﴿فَشَرِدْ﴾ لأن الجملة الطلبية جزاء الشرط، والمقرر في علم العربية أن جزاء الشرط إن كان لا يصلح أن يكون فعلاً للشرط وجب اقترانه بالفاء<sup>(٢)</sup>، يعني: إن تثقفهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم، والعرب تقول:

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٤) من سورة البقرة.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٣١٦/٢).

ثقفه يثقفه في الحرب إذا كان له في الحرب ثقافة، أي: بصيرة وعلم قَدَرَ بها على أن يتمكن من قرئته ويظفر به. يعني: إن كانت ثقافتك في الحرب وبصرك به خوَل لك أن تتمكن منهم وتقدر عليهم ﴿ فَشَرِدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ ﴾ (من) مفعول (شَرِدَ) ومعنى: ﴿ فَشَرِدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ ﴾ افعَل لهم فعلاً فظيماً وعقاباً منكرًا هائلاً عظيماً يكون ذلك العقاب عظة لمن خلفهم ومن وراءهم فيتفرقوا ويتبددوا عنك ويخافوا. وكان بعض الفرسان الشجعان لما سُئِل: بأي طريق صار الفوارس يخافونك؟ قال: إذا ظفرت بفارس ضربته ضرباً فظيماً منكرًا ليخاف من وراؤه فلا يجترئوا علي!! فمعنى: ﴿ فَشَرِدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ ﴾ أي: افعَل بهم عقاباً منكرًا فظيماً يكون ذلك العقاب المنكر الفظيع سبباً لتشريد من وراءهم لتفريقهم وتبددهم عنك وخوفهم منك، وإن كان عند أحدهم عهد فإنهم يخافون من نقضه ويفون به لثلاث فعل بهم ما فعلت بهم، وهذا هو التحقيق في معنى الآية، أي: شَرِدَ من خلفهم، أي: فَرَّقَ من خلفهم وخَوَّفَهُمْ وَبَدَّدَهُمْ بسبب فعلك فيهم؛ لأنك إذا فعلت في هؤلاء الناقضين للعهد ذلك التنكيل العظيم خافك غيرهم فتفرقوا وتبددوا عنك، وخافوا منك، وحافظوا على العهود إن كانت لهم عهود لثلاث توقع بهم مثل ما أوقعت بهؤلاء. وهذا معنى قوله: ﴿ فَشَرِدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ ﴾ .

والضمير في قوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ راجع لـ ﴿ مَن خَلَفَهُمْ ﴾، ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي: من خلفهم، من وراءهم ﴿ يَذْكُرُونَ ﴾ يعتبرون ويتعظون بالفعل العظيم الذي فعلت بهؤلاء فلا يجترئوا عليك بعدها. وهذا معنى قوله: ﴿ فَشَرِدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] ولما مكن الله النبي ﷺ من بني قريظة وحكم فيهم سعد

الأوس سعد بن معاذ (رضي الله عنه)؛ لأن النبي كان ﷺ لما ظفر بيهود قينقاع جاءه عبد الله بن أبي ريس المنافقين من الخزرج، وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج، فقال للنبي ﷺ: شفني في حلفائي. فشفعه فيهم، فأجلوا إلى نواحي الشام، وطردوا من المدينة إلى نواحي الشام، فلما نزلوا<sup>(١)</sup> على حكم النبي ﷺ وأمكن منهم جاءت الأوس - كما ذكره غير واحد من أهل السير والأخبار - فقالوا للنبي ﷺ / شفعت إخواننا الخزرج في حلفائهم بني قينقاع، وهؤلاء [١/٧] بنو قريظة حلفاؤنا - لأن قريظة حلفاء الأوس - فشفعنا فيهم كما شفعت إخواننا في حلفائهم، والنبي ﷺ يكره ألا يجيب دعاءهم، ويكره ألا يُشرد بني قريظة ويفعل فيهم الأفاعيل، فتخلص من هذا وقال: «أحكّم فيهم رجلاً من خياركم هو سعد بن معاذ». فقالوا: رضينا. فحكّم فيهم سعد بن معاذ (رضي الله عنه)، وكان سعد (رضي الله عنه) جرح في غزوة الخندق، جرحه حبان بن العرقة، أصابه في أكحله - وهو العرق الذي في العنق - وكان لما سال الدم من عرقه وخاف الموت كان دعا الله وقال: اللهم إن كنت أبقيت بين نبيك وبين كفار مكة حرباً فأبقني لها لأنني لا أحب أن أقاتل قوماً مثل القوم الذي أخرجوا نبيك من بلده وفعلوا له وفعلوا، وإن كان في علمك أنه لم يبق بينه وبين قريش حرب فاجعل لي هذا الجرح شهادة، ولا تمنني حتى تقرر عيني في بني قريظة. فلما حكّمه النبي ﷺ فيهم فجاء على حمار، لما جاء للتحكيم، فقال لهم النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «قوموا لسيدكم» قال سعد (رضي الله عنه): حكمت فيهم بأن يقتل رجالهم، وتُسبى نساؤهم

(١) يعني: قريظة.

وذرا ريبهم . فأخبره ﷺ أن هذا حكم الله فيهم من فوق سبع سموات<sup>(١)</sup> . لأنهم الذين نزل فيهم ؛ ﴿ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ . وكان بعض العلماء يقول : كل هذه الآيات نازلة في كفار مكة ؛ لأن هذه السورة كلها في وقعة بدر والله تعالى أعلم . وهذا معنى قوله : ﴿ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ . [الأنفال : الآية ٥٧] .

ثم قال تعالى معلماً نبيه ﷺ ؛ لأن الله (جل وعلا) علم نبيه ﷺ في هذه السورة الكريمة تعاليم عظيمة ، وهي كلها تعاليم من أصول الجهاد ، علمه الثبات والصمود أمام العدو ، وعلمه فيها الاتصال بخالق السموات والأرض عند التحام الصفوف ، وعلمه كيف يخيف أعداءه بشدة الواقعة فيمن قدر عليهم ، وعلمه هنا كيف يصلحهم ، وكيف ينبذ صلحهم ، كل هذه تعاليم جهادية عسكرية من رب العالمين – جل وعلا – للنبي وأصحابه ؛ لأن هذا المحكم المنزل

(١) خبر حكم سعد بن معاذ في بني قريظة مخرج في الصحيحين من حديث :

١ – عائشة (رضي الله عنها) عند البخاري في الصلاة ، باب الخيمة في المسجد للمرضى وغيرهم ، حديث رقم : (٤٦٣) ، (٥٥٦/١) ، وأطرافه في : (٣٩٠١ ، ٤١١٧ ، ٤١٢٢) ، ومسلم في الجهاد والسير ، باب جواز قتال من نقض العهد . . . ، حديث رقم : (١٧٦٩) ، (١٣٨٩/٣) .

٢ – أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عند البخاري في المغازي ، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ، حديث رقم : (٤١٢١) ، (٤١١/٧) .

ومسلم في الجهاد والسير ، باب جواز قتال من نقض العهد . . . ، حديث رقم : (١٧٦٨) ، (١٣٨٨/٣) ، إلا أن الحديث الذي في الصحيحين مختصر ، وهو بسياقه الطويل مخرج في المسند (٦/١٤١ – ١٤٢) ، وذكره ابن هشام في السيرة (٣/١٠٣١) ، وابن كثير في تاريخه (٤/١٠٣) .

ينير معالم الطريق في جميع ميادين الحياة كائنة ما كانت؛ ولذا قال: ﴿وَأِمَّا مَخَافَتٌ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨] ﴿وَأِمَّا مَخَافَتٌ﴾ كقوله: ﴿فَأَمَّا لَثَقَفَنَّهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] فهي (إن) الشرطية زيدت بعدها (ما) لتوكيد الشرط. وبعض علماء العربية يقول: إن (إن) الشرطية إذا زيدت بعدها (ما) المؤكدة وجب اقتران المضارع بنون التوكيد، وهو كذلك في القرآن، ما جاء في القرآن (إما) إلا والفعل المضارع بعدها تؤكد بنون التوكيد الثقيلة<sup>(١)</sup>، إلا أن التحقيق أنها هي اللغة الفصحى ولا تتعين، فيجوز عدم توكيد الفعل بعد (إما) (...)<sup>(٢)</sup> وكقول لييد بن ربيعة<sup>(٣)</sup>:

فإما تريني اليوم أصبحت سالماً      فلستُ بأحظى من كلاب وجعفر  
وقول الحماسي<sup>(٤)</sup>:

زعمتُ ثماضر أنني إما أمت      يسُدُّ أَيْبُونُهَا الْأَصَاغِرُ خَلْتِي  
وهو كثير في كلام العرب. وزعم جماعة من علماء العربية أن حذف النون في هذه الشواهد لضرورة الشعر، وأن النون واجبة. وزعم جماعة آخرون أنها لغة فصيحة لا ضرورة شعرية.

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

(٢) في هذا الموضوع وقع مسح في التسجيل، ويظهر أن الشيخ رحمه الله ذكر بعض الشواهد الشعرية، ويمكن الوقوف على الكلام على هذه المسألة بشواهدا في كتاب شرح الكافية (٣/ ١٤٠٩ - ١٤١٠)، وفي كلام الشيخ رحمه الله فيما سبق عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

(٤) السابق.

ومعنى قوله: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنِذِ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾<sup>(١)</sup> نزلت هذه الآية الكريمة في بني قريظة، قال بعض العلماء: في هذه الآية إشكال معروف؛ لأن قوله: ﴿تَخَافَنَّ﴾ الخوف يطلق على الظن الذي لا يستلزم اليقين، والعهد شيء مؤكد متيقن، فكيف ينتقل عن حكم يقين العهد إلى ظن نقض العهد، والقاعدة المقررة في الأصول: أن اليقين لا يرتفع بالشك<sup>(٢)</sup>؟  
وأجاب العلماء عن هذا بجوابين<sup>(٣)</sup>:

أحدهما: هو — ما قدمنا مراراً — أن العرب ربما أطلقت الخوف وأرادت به العلم، كقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٩]. علمتم من قرائن أحوالهما ألا يقيما حدود الله. ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: يعلما ألا يقيما حدود الله. ولا شك أن العرب تطلق الخوف على العلم اليقين، ومن شواهد قول أبي محجن، مالك بن حبيب الثقفي<sup>(٣)</sup>:

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَىٰ جَنْبِ كَرَمَةٍ تَرْوِي عِظَامِي فِي الْمَمَاتِ عُرُوقُهَا  
وَلَا تَدْفِنْنِي بِالْفَلَاةِ فَإِنَّنِي أَخَافُ إِذَا مَاتَ أَنْ لَا أُذَوِّقُهَا

وهو يتيقن علماً يقيناً أنه إذا مات لا يذوقها، فقد أطلق (أخاف) وأراد (أعلم) وهو عربي فصيح. وعلى هذا القول فـ ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ﴾ أي: إما تعلمن من قوم خيانة. وقال أكثر العلماء: إن كان بينك وبين قوم عهود ومواثيق — كالعهود التي كانت بينه ﷺ وبين يهود بني

(١) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٥٣، القواعد الفقهية الخمس الكبرى من مجموع فتاوى ابن تيمية ص ١٨٧، شرح القواعد الفقهية للزرقا ص ٣٥.

(٢) انظر: القرطبي (٣١/٨).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

قريظة — إن تخافن من هؤلاء القوم الذين كانت بينك وبينهم عهود تخافن منهم خيانة، أي: خيانة بنقض تلك العهود بأن يخونوك وينقضوا العهود. و (ياء) الخيانة مبدلة من واو؛ لأن أصل مادة الخيانة أجوف واوي العين، من: خان يخون. أصلها: (خِوَانَةٌ) فأبدلت الواو ياء<sup>(١)</sup>، كالحيازة من الحَوَز، والصيانة من الصون، والصيام من الصوم. إن تخف يعني من قوم بينك وبينهم عهود ومواثيق تخف منهم خيانة، أي: غدراً ونقضاً للعهود ﴿فَأَيْدِيَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ يعني بأن يكون خوف الخيانة ظهرت له أمارات ومبادئ وقرائن يُستدل بها عليه، كما ظهر من بني قريظة أنهم لما عاضدوا المشركين وناصروهم ولم يصرحوا بنذ العهد كانت مناصرة المشركين ومعاضدتهم قرائن واضحة وأمارات لائحة على أنهم ناقضون للعهد.

وعلى كل حال فالذي دل عليه استقراء القرآن ودلت عليه الوقائع — وهو الصحيح إن شاء الله — أن الأمر له حالتان: تارة يكون الكفار الذين بيننا وبينهم عهد ومصالحة تصدر منهم أشياء تدل على نقض العهد، لدلالة قرائن على ذلك، أنهم صدرت منهم مبادئ نقض العهد، ففي هذه الحالة لا ينبغي للإمام أن يبقى على عهدهم وقد ظهر له منهم أمارات الخيانة لثلاثي يصيبوا المسلمين بغائلة، ففي هذه الحالة يجب على الإمام أن يصرحهم ويقول لهم: رأينا منكم ما يدل على نقضكم العهد وهو كذا وكذا وكذا، فهذا عهدنا إليكم قد طرحناه إليكم، ونبذناه إليكم، وألقيناه إليكم، وأعلمناكم أنه ليس بيننا وبينكم عهد، خَوْفَ أن تظنوا أننا نخدعكم ونكيدكم ونحاربكم

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٠٤.

غفلة منكم . وهذا معنى قوله : ﴿ فَأُنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ النبذ في لغة العرب : الطرح . ومفعول (انبذ) محذوف ، أي : فاطرح إليهم عهدهم ، وألقه إليهم في حال كونك أنت وهم ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ على استواء في العلم بأنك حرب لهم وهم حرب لك ، ليس أحد منكما يدلس للآخر . وعلى هذا فقوله : ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أي : في العلم ؛ بأنك لست على صلحك الأول لما رأيت من علامات غدركم ونقضهم له .

قال بعض العلماء : فانبذ إليهم عهدهم حال كون ذلك النبذ على سواء . أي : على عدالة وطريقة محمودة ؛ لأن العرب تسمي العدالة (سواء) ، وتسمي الطريق العدل الواضح (سواء) و (سويًا) ومن هذا قول الراجز<sup>(١)</sup> :

واضرب وجوه الغدر الأعداءِ حتى يُجيبوكِ إلى السَّوَاءِ

أي : إلى العدالة والإنصاف من غير ميل ولا جور . وهذا معنى قوله : ﴿ وَإِمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ أي : إن خفت يا نبي الله خيانة من قوم كان بينك وبينهم عهد بأن ظهرت لك أمارات الغدر وعلاماته وأوائله منهم ﴿ فَأُنْبِذَ إِلَيْهِمْ ﴾ فاطرح إليهم ، وألق إليهم العهد في حال كونك وإياهم على ﴿ سَوَاءٍ ﴾ أي : مستويين في العلم بالحالة الواقعة وأنه لا عهد بينك وبينهم . وقد جاء عن معاوية (رضي الله عنه) أنه كان بينه وبين الروم مصالحة وعهود ثم إنه (رضي الله عنه) سار إليهم وهم لا يشعرون ليقرب منهم ، فإذا انقضت مدة العهد كان قريباً منهم فحمل عليهم ، فإذا رجل على فرس له — وفي بعض روايات الحديث في السنن وغيرها — على دابة له ، ذلك الرجل يقول : الله أكبر ، الله

(١) البيت في ابن جرير (٢٧/١٤) القرطبي (٣٣/٨) .

أكبر، وفاء ولا غدر، فلما جيء معاوية به وجده عمرو بن عبسة (رضي الله عنه) فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كانت بينكم وبينهم عهود فلا تشدوا العقدة ولا تحلوها حتى تنقضي المدة أو تنبذوا إليهم على سواء». قالوا: فرجع معاوية رضي الله عنه<sup>(١)</sup>.

ومعنى الآية الكريمة: إن تخف الخيانة من قوم بينك وبينهم عهد - والخيانة هنا: الغدر ونقض العهد - ﴿فَأَيُّذُ إِلَيْهِمْ﴾ أي: فاطرح إليهم عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أنت وهم مستويان في العلم بنقض العهد، ولا تدلس لهم فيظنوا أنك على عهد حتى تمكر بهم وهم في غفلة، بل أعلمهم بنقض العهد ليستعدوا للحرب ولا تحاربهم في غفلة. وهذا من كمال إنصاف دين الإسلام؛ لأن التعاليم السماوية والكتب الإلهية هي في غاية العدالة والإنصاف، حتى مع الكفار نهى نبيه أن يحاربهم وهم في غفلة من ذلك، بل أمره أن يعلمهم وينبذ إليهم العهد علناً حتى يستوي الجميع في العلم بالحال الواقعة ليستعدوا للحرب والقتال؛ ولئلا يؤخذوا على غرة، فهذه مكارم الأخلاق والعدالة الكاملة. ولا شك أن هذا التشريع تشريع ممن هو عالم بأن أولياءه لهم النصر والظفر لا حاجة له في استعداد الكفار وعلمهم وقوتهم؛ لأنه يعلم أنهم مغلوبون مقهورون، وأن الدائرة عليهم، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَيُّذُ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفَآيِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨].

(١) أخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في الغدر، حديث رقم: (١٥٨٠)، (١٤٣/٤)، وأبو داود في الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير نحوه، حديث رقم: (٢٧٤٢)، (٤٣٩/٧)، وانظر: صحيح الترمذي، حديث رقم: (١٢٨٥)، صحيح أبي داود، حديث رقم: (٢٣٩٧).

أما إذا تُيقن نقض العدو للعهد بأن قتلوا المسلمين، وفعلوا الأفاعيل، وصرحوا بنقض العهد علناً فهؤلاء لا حاجة لإعلامهم؛ لأن أمرهم واضح وهم لا يشكون في نقضهم العهد؛ ولأجل ذلك لما عقد النبي ﷺ مع كفار قريش صلح الحديبية في ذي القعدة من عام ست من الهجرة عقده بينه وبينهم على يد سهيل بن عمرو العامري - رضي الله عنه وكان في ذلك الوقت كافراً - وانعقد هذا الصلح، ودخل خزاعة في عهد النبي ﷺ، وأعداؤهم من البكرين في عهد قريش، وكان صلح الحديبية وقع على المهادنة تسع سنين، فغدر قريش غدراً علناً، وأعانوا البكرين على خزاعة فقتلوه، لما كان هذا الغدر علناً ظاهراً لا إشكال فيه ولا لبس فيه لم ينبذ إليهم رسول الله على سواء، بل غزا قريشاً غزوة الفتح، وأهل الأخبار والسير يقولون: إنه قال: «اللهم خذ الأخبار والعيون عن قريش حتى نبغتها في ديارها»<sup>(١)</sup>، وما دروا إلا والمسلمون بمر الظهران كل رجل يوقد ناراً؛ لأن نقضهم للعهد هنا لا يتناوله ﴿وَأِمَّا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ لأنهم خانوا بالفعل وقتلوا الخزاعيين قتلاً ذريعاً، كما قال صاحبهم الذي استنجد لهم رسول الله ﷺ وهو عمرو بن سالم الخزاعي (رضي الله عنه)؛ لأن قريشاً لما نقضوا العهد وقتلوا خزاعة مع البكرين أرسل الخزاعيون عمرو بن سالم (رضي الله عنه) فجاء إلى النبي ﷺ في المدينة - هذه حرسها الله - قام عمرو بن سالم الخزاعي وذكر رجزه المشهور الذي يصرح فيه بأنهم قتلوه، وأن نقضهم للعهد كالشمس لا شك فيه حيث قال

(١) السيرة لابن هشام ص ١٢٣٨، من طريق ابن إسحاق، وكذا أورده ابن كثير في

للنبي ﷺ في رجزه المشهور:

يَارِبُّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا  
حَلَفَ أَيْنَا وَأَيْهِ الْأَتْلَدَا  
ثم قال (١):

إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا  
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا  
هَمْ يَبُيِّنُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا  
وَقَتَلُونَا رُكْعَةً وَسُجَّدَا  
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ تَدْعُوا أَحَدَا  
وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلَلُ عَدَدَا  
فَادِعُ عِبَادِ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا  
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا  
فِي فَيْلِقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مَزِيدَا  
إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهَهُ تَرِيدَا  
فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَيْدَا

إلى آخر رجزه المعروف. وذكر أصحاب السير والأخبار أنه ﷺ قال: «لا نصرني الله إن لم أنصرك» (٢). ولم ينبذ إلى قريش على سواء، بل تجهز إليهم في غزوة الفتح في رمضان من عام ثمان، وأنه

(١) نص هذه الآيات في ابن هشام ص ١٢٣٥، البداية والنهاية (٢٧٨/٤) هكذا:

يَارِبُّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا  
قَدْ كُنْتُمْ وُلْدًا وَكُنَّا وَالِدَا  
فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا  
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا  
فِي فَيْلِقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مَزِيدَا  
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا  
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُوا أَحَدَا  
هَمْ يَبُيِّنُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا  
حَلَفَ أَيْنَا وَأَيْهِ الْأَتْلَدَا  
تُمت أسلمنا فلم ننزع يدا  
وادع عباد الله يأتوا مددا  
إن سيم خسفاً وجهه تريدا  
إن قريشاً أخلفوك الموعدا  
وجعلوا لي في كداء رصدا  
وهم أذل وأقل عددا  
وقتلونا رُكْعَةً وَسُجَّدَا

(٢) الذي نقله ابن هشام ص ١٢٣٦، وابن كثير في تاريخه (٢٧٨/٤)، قوله ﷺ:

«نصرت يا عمرو بن سالم».

(صلوات الله وسلامه عليه) لم يعلموا به حتى قُرْب من ديارهم، وكان ما وقع مما هو مشهور يوم الفتح. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنذِرْ لَهُمْ عَذَابَ سَوَاءٍ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَا يُحِبُّ الْفَاحِشِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨] وكل شيء لا [يحبه] <sup>(١)</sup> الله دل على أن صاحبه مرتكب جريمة وذنباً عظيماً. والخائنون: جمع خائن، وأصل الهمزة في ﴿الْفَاحِشِينَ﴾ مبدلة من واو؛ لأن (الفاعل) من الأجوف تبدل عينه همزة، سواء كانت واواً أو ياءً، والهمزة في محل الواو؛ لأن المادة واوية العين كما بينا <sup>(٢)</sup>. فالله (جل وعلا) يبغض الفاحشين، فلا ينبغي للإنسان أن يخون، وهذا من مكارم الأخلاق، وغاية عدالة الكتب السماوية وإنصافها.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٩] في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعة <sup>(٣)</sup>: قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالتاء الفوقية وكسر السين من (تَحْسَبَنَّ). وقرأه عاصم في رواية شعبة وحده أعني أبا بكر: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء الفوقية للمخاطب وفتح سين (تَحْسَبَنَّ)، وقرأه ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بياء الغيبة التحتية وفتح سين (يَحْسَبَنَّ).

(١) في الأصل: «يبغضه»، وهو سبق لسان.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٠٣.

(٣) انظر: السبعة ص ٣٠٧.

أما على قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ﴾ وقراءة شعبة: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ فالآية الكريمة لا إشكال فيها، وكلا القراءتين واضح لا إشكال فيه ولا كلام.

أما قراءة ابن كثير<sup>(١)</sup> وحمزة وحفص عن عاصم: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، فهذه القراءة أصلها مشكلة، ومعناها مشكل<sup>(٢)</sup>. وتجراً أقوام جراءة لا تليق - وإن كان فيهم معرفة وعلم وجلالة كأبي حاتم وأبي عبيد، حتى ابن جرير رحمه الله - وأنكروا هذه القراءة، وقالوا: إنها بعيدة من كلام العرب، وأنها لا وجه لها من الفصاحة، كما أنكر ابن جرير وغيره قراءة ابن عامر: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٩] - بفتح همزة (أن) - .

والتحقيق أن قراءة ابن عامر: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، و﴿أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بفتح الهمزة، وقراءة حمزة وحفص عن عاصم: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ وقراءة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ كلها قراءات سبعيات فصيحة متواترة عن النبي ﷺ لا وجه للطعن فيها.

/ أما على قراءة من قرأ: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فاعلموا [ب/٧] أولاً أن (حَسِبَ) بكسر السين في مضارعها لغتان فصيحتان وقراءتان سبعيتان في جميع القرآن: (حَسِبَ يَحْسَبُ، وَحَسِبَتْ تَحْسَبُ). بفتح السين على القياس، و(حَسِبَ يَحْسَبُ) بكسر السين على السماع لا على القياس، وهما لغتان مستفيضتان وقراءتان سبعيتان.

(١) سبق لسان، والصواب: ابن عامر.

(٢) انظر: حجة القراءات ص ٣١٢، ابن جرير (٢٨/١٤)، القرطبي (٣٣/٨)،

الدر المصون (٦٢٣/٥).

فقراءة شعبة عن عاصم لا فرق بينها وبين قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي، وإنما الفرق بين قراءة التاء وقراءة الياء. أما على القراءة بتاء الخطاب فمعنى الآية واضح لا إشكال فيه، والحُسابان في لغة العرب: الظن. والمعنى: لا تظن يا نبي الله الذين كفروا سبقوا. ف (الذين) في محل المفعول الأول، وجملة (سبقوا) في محل المفعول الثاني، و (سبقوا) معناه: غلبوا وفاتوا، فكل شيء فاتك ولم تدركه وعجزت عنه تقول العرب: سبقك. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦١﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدَّلَ أَمْثَلَكُمْ ﴾ [الواقعة: الآيتان ٦٠، ٦١] لسنا بمغلوبين ولا معجزين عن أن نبدل أمثالكم. أي: لا تظن يا نبي الله الذين كفروا سبقوا، لا تظن الكفار فاتتين سابقين يعجز عنهم ربهم (جل وعلا)، لا وكلا ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ولا يسبقون، فهم تحت قهره وقدرته وسلطنته يفعل فيهم كيف يشاء، ولا يسبقونه ولا يفوتونه، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ [العنكبوت: الآية ٤] أي: يفوتوننا ويعجزوننا، لا ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: الآية ٤]، وكذلك قراءة شعبة عن عاصم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هي معناها وهذه القراءة واحد.

أما على القراءة الأخرى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبِقُوا ﴾ فتفسير الآية مشكل؛ لأنه لا يُدرى أين مفعولا (حَسِبَ)، ولا يُدرى الفاعل أين هو؟!

وللعلماء فيها أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً:

قال بعض العلماء: هذه الآية الكريمة حُذفت منها (أن) المصدرية، وحذف (أن) المصدرية إذا دل المقام عليها أسلوب

عربي معروف موجود في القرآن وفي كلام العرب. قالوا: من أمثله في القرآن قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ﴾ [الروم: الآية ٢٤] الأصل: ومن آياته أن يريكم البرق. ونظيره من كلام العرب قول طرفة بن العبد في معلقته<sup>(١)</sup>:

ألا أيهذا الزاجري أخضر الوغى

ويُروى:

ألا أيهذا الزاجري أخضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مُخليدي

قالوا: الأصل: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا. قالوا: والمعنى: أنهم سبقوا. فيصير المفعولان في قوله: «أن سبقوا» لا يظنوا أنفسهم سابقين، أي: فائتين معجزين ربهم. قالوا: وغاية ما في هذا حذف (أن)، وهو موجود في القرآن وفي كلام العرب.

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل يعود إلى النبي ﷺ بدلالة أن ضمير الفاعل في الخطاب واقع عليه، أي: لا تحسبن أنت يا نبي الله، ولا يحسبن هو، أي: نبي الله، لا يحسبن الذين كفروا سبقوا. ومعلوم أنه لا يحسب ذلك ولكنه يُنهي ليشرع على لسانه لغيره كما قيل له: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: الآية ٢٢] ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ [الإسراء: الآية ٢٩] ونحو ذلك من الأشياء التي هو لا يفعلها، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [٢٤] [الإنسان: الآية ٢٤] وعلى هذا القول فتكون قراءة التاء قرينة دالة على الفاعل؛ لأن الفاعل في قراءة التاء ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أنت يا نبي الله. فيكون المعنى في قراءة الياء: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ هو أي: نبي الله، لا يظنن

(١) شرح القوائد المشهورات (١/٨٠).

الذين كفروا سبقوا. أي: فاتوا وعجز عنهم ربهم سبحانه عن ذلك. وعلى هذا القول فـ (الذين) في محل المفعول الأول، و (سبقوا) في محل المفعول الثاني.

وقال بعض العلماء: (الذين) في محل رفع على الفاعل، وأحد المفعولين محذوف. قالوا: المعنى: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا. أي: لا يظنون أنفسهم سابقين، قالوا: وربما حُذِفَ المفعول كما حُذِفَ في قوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥] أصله: يخوفكم أولياءه لكن (حَسِبَ) و (خَوْفَ) ليسا من باب واحد؛ لأنه (حسب) تنصب المبتدأ والخبر، و (خوف) لا تنصب المبتدأ والخبر بل مفعولاها أصلهما ليسا بمبتدأ وخبر.

وقال بعض العلماء: لا يحسبن الكفار الذين كفروا سبقوا.

هذه الأقوال في هذه الآية الكريمة وفي نظيرتها في سورة النور<sup>(١)</sup> على قراءة الياء. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾<sup>(٥٩)</sup> قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾<sup>(٥٩)</sup> وقرأه ابن عامر ﴿أَنْهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾<sup>(٥٩)</sup> بفتح الهمزة<sup>(٢)</sup>.

وكان كبير المفسرين أبو جعفر ابن جرير الطبري (رحمه الله) يقول: إن قراءة ابن عامر هذه لا وجه لها<sup>(٣)</sup>. والكمال لله، لأن قراءة ابن عامر - رحمه الله - وجهها ظاهر جداً؛ لأنها تطابق قراءة الجمهور في المعنى، إلا أن قراءة ابن عامر أظهر في المعنى وإن

(١) وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: الآية ٥٧].

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٢.

(٣) تفسير ابن جرير (٢٨/١٤).

خفي ذلك على الإمام ابن جرير (رحمه الله)؛ لأن الكمال والعلم لله وحده.

والحاصل أنه قد تقرر في الأصول في مسلك (الإيماء والتنييه)<sup>(١)</sup> أن من الحروف الدالة على التعليل، (إِنَّ) المكسورة المشددة، تقول: اضربه إنه مسيء. أي: اضربه لعله إساءته، أكرمه إنه محسن. أي: أكرمه لعله إحسانه. ف (إِنْ) من حروف التعليل. وعلى قراءة الجمهور ف (إِنَّ) المكسورة دلت على التعليل. لا تظنهم سابقين فائتين معجزين ربهم، لا وكلا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾<sup>(٥٩)</sup> لا يعجزون ربهم البتة، فيكون النهي عن قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ لأجل أنهم لا يعجزون أبداً، فلا يخطر في قلبك ذلك الحسبان الباطل.

أما على قراءة ابن عامر: ﴿أَنْهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ف (أَنْ) قد تقرر في علم النحو أن المصدر المنسب من (أَنْ) وصلتها و (أَنْ) وصلتها يجوز جره بحرف محذوف بقياس مطرد<sup>(٢)</sup>. فالأصل: لا تحسبن الذين كفروا سبقوا؛ لأنهم لا يعجزون. غاية ما في الباب حذف حرف الجر قبل المصدر المنسب من (أَنْ) وصلتها، وهو واضح مطرد لا إشكال فيه، وقد عقد اطراده ابن مالك في خلاصته بقوله<sup>(٣)</sup>:

(١) جرى الأصوليون على اعتبار (إِنَّ) ضمن مسلك النص، وبعضهم يعتبرها من قبيل النص الصريح، ويرى آخرون أنها من قبيل النص غير الصريح (الظاهر). انظر: شرح الكوكب المنير (٤/١١٩)، نثر الورد (٢/٤٨٠)، مباحث العلة في القياس عند الأصوليين ص ٣٥٥.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

.....  
 وَإِنْ حُذِفَ فَالْتَّصِبُ لِلْمُنَجَّرِ  
 نَقْلًا وَفِي (أَنْ) وَ (أَنْ) يَطَّرِدُ  
 مَعَ أَمْنٍ لِبَسِّ كَعَجِبْتُ أَنْ يَدُو

فقراءة ابن عامر دالة على التعليل الذي دلت عليه قراءة الجمهور بقياس عربي واضح مطرد لا إشكال فيه، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (يعجزون) مضارع (أعجز)، أعجزه: إذا صيَّره عاجزاً عنه، فكل شيء غلبك ولم تقدر عليه تقول العرب: أعجزك وسبقك وفاتك. بمعنى واحد ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ربههم. أو: لأنهم لا يعجزون ربههم، بل ربههم قادر عليهم كما قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِبَرٌ مُعْجِزٌ لِلَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: الآية ٢] وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٩].

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِمْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] وَإِنْ جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: الآية ٦١].

قوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] أمر من الإعداد، والإعداد في لغة العرب التي نزل بها القرآن: معناه اتخاذ الشيء، وادخاره إلى وقت الحاجة إليه، فكل شيء اتخذته وجعلته عندك تنتظر به وقت الحاجة إليه فقد أعددته. والأمر في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ للوجوب؛ لأن المقرر في الأصول: أن

صيغة (افعل) تدل على الوجوب ما لم يصرف عن ذلك صارف<sup>(١)</sup> [من]<sup>(٢)</sup> كلام الله وكلام رسوله ﷺ. ونعني بصيغة (افعل): الصيغ الأربع الدالة على الأمر الذي هو اقتضاء طلب الفعل. والصيغ الدالة على الأمر أربعاً<sup>(٣)</sup>: فعل الأمر، كقوله هنا: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ وكقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، كقوله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوِّفُوا﴾ [الحج: الآية ٢٩] واسم فعل الأمر، نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ﴾ [النساء: الآية ١٠٥] والمصدر النائب عن فعله، نحو: ﴿فَإِذَا لَقِيتَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ضَرْبُ الرِّقَابِ﴾ [محمد: الآية ٤] أي: فاضربوا رقابهم.

ولعلماء الأصول اختلاف في صيغة (افعل) إذا جاءت في كلام الله أو كلام نبيه ﷺ وتجردت عن القرائن ماذا تفيده عند الإطلاق<sup>(٤)</sup>، هل هو الإيجاب المتحتم، أو الندب، أو الطلب؟ إلى غير ذلك من الأقوال.

والتحقيق الذي دلت عليه الأدلة: أن النصوص الشرعية واللغة العربية التي نزل بها القرآن كلها يدل على أن صيغة (افعل) تقتضي الوجوب ما لم تقترن بدليل يصرفها عن ذلك، والدليل على ذلك من القرآن: أن الله (جل وعلا) قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.

تُصِيبُهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ [النور: الآية ٦٣] فلو كانت مخالفة الأمر غير معصية، وامتنال الأمر غير واجب لما شدد عليه هذا الوعيد العظيم في قوله: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقال تعالى لإبليس: ﴿مَا مَعَكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] والأمر بصيغة (افعل) وهو قوله: ﴿أَسْجُدُوا لِأَدَمَ﴾ [الأعراف: الآية ١١] فعنفه التعنيف الشديد الذي لا يفعل إلا لتارك الواجب على مخالفته لصيغة (افعل) التي هي: ﴿أَسْجُدُوا لِأَدَمَ﴾ وقد قال نبي الله موسى لأخيه هارون: ﴿أَفَعْصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: الآية ٩٣] يعني قوله: ﴿أَخْلَفْتَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ﴾ الآية [الأعراف: الآية ١٤٢]. والمعصية لا تسمى إلا لارتكاب الحرام المستوجب للإثم، وقد وبخ الله (جل وعلا) قوماً تويخاً شديداً لمخالفتهم لصيغة (افعل) في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: الآية ٤٨] (اركعوا) صيغة (افعل) وقد وبخ من لم يمثلها وعنفه تعنيفاً شديداً في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٦] وفي القراءة الأخرى: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾<sup>(١)</sup> فجعل أمر الله وأمر الرسول موجباً للامتنال قاطعاً للاختيار. وقال في الملائكة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: الآية ٦] فدل على أنهم لو لم يمثلوا ما أمرهم لكانوا عاصين، حاشاهم من ذلك.

وأما اللغة العربية: فإنك لو قلت لعبدك: اسقني ماءً. أمرته وألزمته بصيغة (افعل) ثم ترك ولم يمثل فأدبته، فقال لك العبد:

(١) مضت عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

تأديبك لي ليس واقعاً في موقعه؛ لأن صيغة (افعل) في قولك: «اسقني» لم تلزمني ولم توجب علي!! فكل من يعرف معنى اللسان العربي يقولون له: صيغة الأمر ألزمتك وأوجبت عليك، ولكنك عصيت وخالفت.

ومرادنا بهذا: أن هذا أمر خالق السموات والأرض، أمر رب العالمين بإعداد القوة التي يمكن أن تحصل في الاستطاعة، هذا الأمر واجب، وتضييعه حرام لا شك فيه، وبذلك يُعلم أن تواكل من يسمون باسم المسلمين في أقطار الدنيا، وعدم سعيهم في إعداد القوة الكافية لقمع العدو أنه تمرد على نظام السماء، وعدم عمل بإرشادات خالق هذا الكون — جل وعلا — وامثال أوامره، فالله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن رسم الطريق وبين للنبي ﷺ وأصحابه الطريق التي إذا فعلوها وساروا عليها كانت كفيلة بنصرهم، وذل أعدائهم، وقمع كلمة الكفر وإذلاله؛ لأنه هنا أمر بإعداد القوة التي يمكن أن تدخل تحت الاستطاعة كائنة ما كانت، تطورت القوة مهما تطورت، وانتقلت من حال إلى أي حال، فالآية تساير التطور بدلالة مطابقتها مهما كان وما تحول الأمر؛ لأن لفظها الصريح موجب أمر بإيجاب سماوي من الله إعداد كل ما يمكن أن يدخل في الاستطاعة من القوة لقمع الكفرة (قبحهم الله)، فهذا أمر واجب، فلو عمل الناس بهذا الأمر، وبذلوا ما عندهم من الإمكانيات والثروات في إعداد القوة الكاملة من جميع وجوهها، حتى في تعليم الأمور التي تطورت إليها الحياة الراهنة؛ لأن كل حال له مقال، وكل حالة لها مواجهات بأمور ثلاثتها. ودين الإسلام مرن غاية المرونة، كل شيء يقابله بما يصلح له، وذلك في نور السماء الذي شرعه الله

على لسان محمد ﷺ، فإن القوة التي يقوى بها عسكر المسلمين، ويحمون حوزتهم، ويردون المسلوبات منهم إذا أعدوا القوة الكافية التي تدخل تحت الاستطاعة، ثم حول هذه القوة كانوا متكاتفين غير متنازعين غير متفرقين، كلمتهم واحدة، وذكروا الله كثيراً، وتعلقت أرواحهم بربهم، وطلبوا المدد من السماء، كانت أسباب النصر كلها متوفرة لديهم لقوتهم الكافية، ولعدم فشلهم؛ ولأنهم إذا فشلوا وتفرقوا دخل العدو بينهم، ورمى بعضهم ببعض كما قال تعالى:

﴿وَلَا تَنْزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُكْفَرُوا بِكُمْ وَلَئِن لَّمْ يَكْفُرُوا بِكُمْ لَمَّا بَدَأْتُمْ بِهِمْ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ بَعْدٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] وقال تعالى:

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣] لا تتفرقوا، هذه أوامر الله، والقرآن يوضح الطريقة التي لو سلكها الناس لكانت كفيلة لهم بالنصر والظفر؛ لأن منها إعداد القوة الكافية، وكل من عنده مال فباستطاعته كل شيء؛ لأن المال سبب لكل شيء، وهو شريان الحياة، ويسخر الله به لمن أعطاه إياه كل الإمكانيات من تعليم حتى يتعلم ما تعلمه الكفرة ويصل إلى ما وصلوا إليه، ويستعين به في جميع الميادين ليكتسب به القوة الكاملة.

ومعلوم أن هذه أوامر الله، وأنها متروكة، وأن دين الإسلام هو هو، وصلته بالله هي هي، وأن المتسمين باسم الإسلام هم الذين تنكروا للدين، وفارقوا الآلة الجبارة القاهرة التي كانوا يقهرون بها أعداء الله، وهي طاعة الله وامثال أمره واجتناب نهيه، ولا شك أنه يجب على المسلمين امتثال أوامر الله، وأن يتفطنوا ويتحرزوا، ويفرقوا بين النافع والضار؛ لأن من طبيعة أدنى العقلاء التفريق بين ما ينفع وما يضر، ولا شك أن ما يسميه الناس (الحضارة الغربية) دل الاستقراء الصحيح اليقين أن فيها ماءً زللاً نافعاً وسمّاً قاتلاً فاتكاً،

ونضرب لهذا مثلاً<sup>(١)</sup>: لأنك مثلاً أيها الإنسان إذا وجدت إناء فيه ماء زلال وإناء فيه سم قاتل وأنت خارج من العمران في فلاة بعيدة شاسعة، فحالك لا يخلو من أربعة أحوال: إما أن تشرب الماء والسم معاً، وإما أن تتركهما معاً، وإما أن تشرب السم وتترك الماء، وإما أن تشرب الماء وتترك السم. فافرض مثلاً أنك وجدت ماءً زلالاً وسمّاً فاتكاً قتالاً في موضع واحد، وأنت في فلاة معطشة بعيد جداً من العمران، فلك مع هذا أربع حالات: إما أن تشربهما معاً، وإما أن تتركهما معاً، وإما أن تشرب السم وتترك الماء، وإما أن تشرب الماء وتترك السم، ولا خامسة البتة. وهذا تقسيم صحيح، فنرجع لهذا التقسيم الصحيح بالسبر الصحيح فنقول: إذا شربتهما معاً لم ينفعك الماء؛ لأن السم الفتاك يقتلك ويقضي عليك، وإن تركتهما معاً هلكت، ولم تبلغ العمران، ولم تلتحق بالركب، وإن أخذت السم وتركت الماء فأنت مجنون أهوج أحمق حيث أخذت ما يضرك وتركت ما ينفعك!! وإن كنت عاقلاً يصدق عليك مطلق اسم العاقل أخذت الماء وتركت عنك السم. وهذا مثال لما جاءت به الحضارة الغربية، فإن ما أحدثته من القوة المادية وأنواع التنظيمات في جميع ميادين الحياة هو ماء زلال مُحتاج له جداً لا بد منه / في تطور هذه [١/٨] الحياة الراهنة حسب ما تطورت إليه من الأوضاع، وفيها سم قاتل فتاك لا شك فيه، وهو ما جنته من الكفر، والانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، ومعاداة خالق السموات والأرض. فالموقف الطبيعي للمسلمين في الأوضاع الراهنة أن يتأملوا فإذا أخذوها كلها بنافعها وضارها أهلكتهم ضارها ولم ينتفعوا بالنافع،

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

وإذا تركوها كلها - تركوا النافع منها والضار - بقوا ولم يلحقوا،  
وبقوا مستضعفين، وإذا أخذوا ضارها دون نافعها فهم قوم مجانيين،  
هم حمقى لا عقول لهم، وإن أخذوا النافع وتركوا الضار فهذا هو  
الأمر الطبيعي لكل عاقل.

والمؤسف كل الأسف أن غالب من يتسمى باسم الثقافة  
والحضارة والتمدن لا يأخذ منهم إلا القشور المهلكة، والسموم  
الفاثكة، من الانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، والتنكر  
لخالق هذا الكون، في الوقت الذي لا يستفيد فيه من مائها الزلال  
- الذي هو قوتها - شيئاً!! وهذه مسألة معكوسة جمع صاحبها بين  
الكفر والإفلاس.

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل<sup>(١)</sup>

وإذا كان ربنا يقول في هذا المحكم المنزل آخر الكتب  
الساوية عهداً برب العالمين: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾  
[الأنفال: الآية ٦٠] مهما تطوّرت القوة، ومهما بلغت كائنة ما كانت  
﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾ كان وقت نزولها أقوى القوة  
وأعظم العدة الخيل وما جرى مجراها من الرمي، وقد ثبت في  
صحيح مسلم عن عقبة بن عامر الجهني (رضي الله عنه) أنه سمع  
رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: « ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ  
قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي». كررها ثلاثاً<sup>(٢)</sup>. لأن  
الرمي في ذلك الوقت وإعداد الخيل والسيوف هذا هو أقوى القوة

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، حديث رقم:

(١٩١٧)، (١٥٢٢/٣).

وأعظمها في ذلك الوقت، والإعداد في ذلك كان يكون بمثل هذا، حتى قال الشاعر<sup>(١)</sup>:

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا      رِمَاحاً طَوَالاً وَخَيْلاً ذُكُوراً  
وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدي<sup>(٢)</sup>:

أَعْدَدْتُ لِلْحَدَثَانِ سَا      بَغَةً وَعَدَاءً عَلَنَدَى  
يعني: درعاً وفرساً ذكراً.

أما الآن فقد تطوّرت الحياة عن ذلك في ظروفها الراهنة، وصارت الخيل والدروع والرماح لا تغني شيئاً، فصار الأمر يتطلب شيئاً زائداً على ذلك يساير الأحوال، ويساير التطور في حالاته الراهنة، فعلى المسلمين أن يُعدّوا كل ما في الاستطاعة منه، ولكنهم - وإنا لله وإنا إليه راجعون - لا يُعدّون في أغلب أقطار المعمورة شيئاً، والكفار يتقوّون ويسلّطهم الله عليهم بذنوبهم. أمّا التعاليم السماوية فهي لا تشجّع على الضعف والتواكل والتسليم للأعداء، لا، إنما تأمر بالقوّة وإعداد القوة المستطاعة، والكفاح القوي، وعدم التنازع، وعدم التفرّق، والاتّصال مع هذا كله بخالق السماوات والأرض، وامتثال أوامره، واجتناب نهيه ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] إلى غير ذلك من الآيات. وهذا معنى قوله: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ إعداده ﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ الرباط: تطلقه العرب على عين الخيل المربوطة، يقولون: هذا رباط. أي:

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ٧١، تاريخ دمشق (١٤٠/٢٠).

(٢) البيت في الدر المصون (٢٠٧/١)، شواهد الكشاف ص ٣٢.

خيل مربوطة في سبيل الله. قال بعضهم: هو جمع ربيط، فرس ربيط: مربوط في سبيل الله، قالوا: كفصيل وفصال، وربيط ورباط، فالرباط اسم لذات الخيل المربوطة في سبيل الله؛ لأن الخيل كانت من أقوى القوة وأعظم العدة التي تُقهر بها الأعداء في وقتها. وهذا معنى قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ والخيل هو الحيوان المعروف. قال بعضهم: هو جمع (خايل)؛ لأن في مشيها خيلاء كمشية المتكبر المتبخر. وبعضهم يقول: هو جمع (خائل) واحده (خائل). وقد قدمنا أن التحقيق عندنا أن (الفَاعِل) يُجمع على (فَعْل) إذا كان وصفاً. وقوله: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾ الإِرهاب: التخويف، تخوفون به عدو الله. والعدو يُطلق على المفرد وعلى الجمع، معناه: أعداء الله، كقوله: ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ فَأَحْذَرْتُمْ﴾ [المنافقون: الآية ٤] ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّ لَكُمْ﴾ [النساء: الآية ٩٢] أي: أعداء. وهذا معنى قوله: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ككفار مكة وغيرهم من الكفار.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ معنى ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾ آخرين غيرهم لا تعلمونهم. كان بعض العلماء يقول: هم قريظة. وبعض العلماء يقول: هم فارس والروم. وبعض العلماء يقول: هم المنافقون<sup>(١)</sup>.

واستدل من قال: إنهم المنافقون؛ لأن الله قال فيهم: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]

(١) انظر هذه الأقوال في ابن جرير (٣٥/١٤)، القرطبي (٣٨/٨)، ابن كثير (٣٢٢/٢).

الآية ١٠١] وقال كثير من العلماء: هم مردة الجن، وزعم بعض العلماء أن الجن يخافون من الخيل، وأنهم يفرون من صهيلها!! وجاء في ذلك بعض الأحاديث.

والتحقيق أنه لم يثبت فيه شيء عن النبي ﷺ. وقال بعض العلماء: البحث عن هؤلاء الآخرين لا طائل تحته؛ لأن الله صرح بأننا لا نعلمهم فكيف نتكلم فيما قال ربنا إننا لا نعلمه، والله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: الآية ٣٦]<sup>(١)</sup> وهذا معنى قوله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

ولما أمر الله بإعداد القوة المستطاعة كائنة ما كانت، وكان إعدادها يحتاج إلى مادة رغب المؤمنين في الإنفاق في سبيل الله، لينفقوا ويعينوا على إعداد القوة، قال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ما) شرطية، و ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان لـ (ما) و ﴿تُنْفِقُوا﴾ معناه: [تبدلونه]<sup>(٢)</sup> لوجه الله وابتغاء مرضاته ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طريقه التي ترضيه، ويدخل فيها دخولاً أولياً: ما يعين على الجهاد من إعداد القوة، ومن رباط الخيل.

﴿يُؤَفَّفَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يعطكم الله ثوابه يوم القيامة وافياً غير منقوص، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله من الأضعاف.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] لا تنقصون شيئاً من حقوقكم.

(١) انظر: القرطبي (٣٨/٨)

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦١)  
 وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِضُرِّهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ  
 وَاللَّفَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ  
 وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٢﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ  
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِيضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ  
 عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٤﴾ أَلَنْ حَقَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا  
 فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ  
 بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٥﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتَخَبَّرَ فِي  
 الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾ لَوْلَا كَذَّبُ  
 مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَنْفِقُوا  
 اللَّهُ إِيَّاكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٨﴾ [الأنفال: الآيات ٦١ - ٦٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِضُرِّهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ [الأنفال: الآيات ٦١ - ٦٢].

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير عاصم في رواية شعبة  
 أبي بكر: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ ﴾ بفتح السين. وقرأه شعبة عن  
 عاصم: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ ﴾ (١).

و (السلم) بفتح السين و (السلم) بكسرها لغتان فصيحتان،  
 وقراءتان سبعيتان صحيحتان، والمراد بالسلم: الصلح. العرب تسمي  
 الصلح: سلماً، وسليماً. وربما سمّتها: (سلاًماً).

والجنوح في لغة العرب: الميل، تقول العرب: جنح فلان إلى كذا، وجنح له. أي: مال إليه، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول غيلان ذي الرمة<sup>(١)</sup>:

إِذَا مَا تَفُوقَ الرَّحْلِ أَحْيَيْتُ رُوحَهُ      بِذِكْرِكَ وَالْعَيْسُ الْمَرَّاسِيلُ جُنَّحُ  
أي مائلات الأعناق في السير.

معناها: إن مال الكفار يا نبي الله إلى السلم وودّوها وطلبوها فاجنح لها. أي: وافقهم في ذلك، ومل إلى السلم وصالحهم وسالمهم كما طلبوا ذلك منك.

و (السلم) مؤنّثة في اللغة الفصحى، كالحرب فهي مؤنّثة أيضاً، ومنه قول العباس بن مرداس<sup>(٢)</sup>:

السُّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيَتْ بِهِ      وَالْحَرْبُ تَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرْعُ  
والمعنى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا ﴾ أي: الكفار ﴿ إِلَى السَّلْمِ ﴾ إلى الصلح، أي: مالوا إلى المصالحة، وأحبوا أن تكون معهم في صلح ﴿ فَأَجْنَحْ ﴾ يا نبي الله إليها، أي: إلى الصلح، فمل إلى الصلح وسالمهم.

وكان بعض العلماء يزعم أن هذه الآية من سورة الأنفال بينها وبين آية القتال تعارض أو إشكال<sup>(٣)</sup>، والحق أنه لا تعارض بينهما؛ لأن آية الأنفال هذه قيدت أمر النبي ﷺ بجنوحه إلى السلم بأن يكون الكفار هم الذين جنحوا إليه أولاً وطلبوه ومالوا إليه. أما آية

(١) البيت في القرطبي (٣٩/٨)، الدر المصون (٦٣٠/٥).

(٢) البيت في الدر المصون (٣٥٩/٢)، (٦٣١/٥).

(٣) انظر: ابن جرير (٤١/١٤)، القرطبي (٣٩/٨).

سورة القتال - سورة محمد - فهي لا تعارض هذا؛ لأن الله نهاهم فيها عن ابتداء طلب الصلح، وذلك لا ينافي إجابة الكفار إليه بعد أن طلبوه. ونعني بالآية المذكورة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: الآية ٣٥] لأن آية القتال فيها النهي عن أن يكونوا هم البادئين بالدعاء إلى الصلح؛ لأن الداعي إلى الصلح يظهر من قرينة حاله أنه كأنه خائف، وأنه يحس بالغلبة فيريد الصلح. أما القوي الآمن الذي لا يظن أنه مغلوب فلا داعي له إلى طلب الصلح. فلا معارضة بين الآيتين. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾ أي: إن مال الكفار إلى الصلح فاجح لها.

أما قراءة: ﴿فَاجْتَحِ لَهَا﴾ فهي شاذة وليست من القراءات السبعية<sup>(١)</sup>. أي: فَمِلْ إليها ووافقهم على ذلك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني: إن صالحتهم فلا تخف مما يدبرون لك من المكر والغدر والحيل في مدة تلك المصالحة، لا تهتم بذلك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثق إليه، وفوض إليه جميع أمورك، فإنه (جل وعلا) يكفيك ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: الآية ٣] وهذا معنى قوله: ﴿فَاجْتَحِ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الله ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولونه من المنكر والغوائل التي يتربصونك بها في مدة الصلح ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل ما يبتغون ويضمرون من المكر والخديعة والحيل أثناء المدة التي صالحتهم فيها، فهو (جل وعلا) لا يفوته شيء مما قالوا ولا مما عملوا، فهو مطلع عليهم وكافيهم، لا تهتم بذلك، واجعل ثقتك بالله وتوكلتك عليه، فإنه يكفيك.

(١) انظر: المحتسب (١/٢٨٠).

واعلم أن جماعة من العلماء من الصحابة فمن بعدهم زعموا أن هذه الآية من سورة الأنفال منسوخة بآية السيف النازلة في براءة<sup>(١)</sup>؛ لأنها نازلة بعدها؛ لأن براءة نزلت في رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك، وذلك العام عام تسع بلا خلاف، لم يعش النبي ﷺ بعده إلا سنة واحدة، وسورة الأنفال هذه نزلت في وقعة بدر، وكانت في العام الثاني من الهجرة كما أوضحناه. قالوا: فهي منسوخة بآية السيف، كقوله: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: الآية ٥].

والتحقيق أن هذه الآية ليست منسوخة، وأن المصالحة والمهادنة لم تُنسخ، وأن الإمام يخيّر وينظر في مصالح المسلمين، فإن رأى المصلحة في الصلح حتى يتقوى المسلمون فيجتمع شملهم ويقدرُوا على القتال صالح، وإن رأى المصلحة في عدم الصلح لم يصلح، فالكل واسع وجائز إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنِحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: الآية ٦١].

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٢] ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ أي: الكفار الجانحون للسلام الطالبون للصلح ﴿أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بذلك الصلح ويتمكنوا في مدة المصالحة من تدبير المكر والمكائد ليضروك بها؛ لأن بعض الكفار يصلح غدرًا ومكيدة، لا محبة في المصالحة. وكان قريظة بعد أن أعانوا كفار مكة بالسلاح وصالحوه المرة الأخرى ليس في نيتهم الدوام على المصالحة، بل يتربصون به الدوائر،

(١) راجع المصادر في الحاشية قبل السابقة.

ويريدون أن يعينوا عليه الكفار. إذا كان قصدهم بالصلح الذي طلبوه وجنحوا إليه المخادعة فلا يهَمَّتْكَ ذلك، ولا تكثرث بقصدهم الخداع فإنهم لا يضرون شيئاً؛ لأن الله يكفيك ذلك كله؛ ولذا قال: ﴿وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ الخديعة: الغرور، وهو إبطان الشر ومحاولة إيصال الشر بطريق خفية لا ظاهرة واضحة.

﴿فَأَبَِّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ حَسْبُكَ: معناه كافيك الله (جل وعلا).  
العرب تقول: حَسْبُهُ كَذَا. معناه: كافيه كذا. وهذا معنى معروف في كلامها مشهور، ومنه قول جرير يهجو قوماً ممن كان يهجوهم<sup>(١)</sup>:

ولقد رأيتُ من المكارم حسبكم أن تلبسوا خَزَّ الثيابِ وتشبعوا  
فإذا تُذوكرتِ المكارم مرةً في مجلسٍ أنتم به فتقنُّعوا  
فقوله: حسبكم يعني: يكفيكم من المكارم أن تأكلوا وتشربوا،  
وهذا غاية الذم كما هجا به الحطيئةُ الزبرقان بن بدر لما قال له<sup>(٢)</sup>:

دع المكارم لا ترحل لبُعَيْتِهَا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي  
وحبسه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

﴿فَأَبَِّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ كافيك الله، يكفيك شرهم وشر خداعهم،  
فثق به وتوكل عليه ولا تكثرث بإرادتهم بالصلح الخداع. وهذا معنى  
قوله: ﴿فَأَبَِّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ ﴿هُوَ﴾ أي: الله ﴿الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ﴾  
أيدك: معناه قواك. فالعرب تقول: أيده يؤيده تأييداً. إذا  
قواه. وتقول: رجل أيّد. إذا كان قوياً. و (الأيد) و (الآد):

(١) البيت في تاريخ دمشق (١٨١/٢٩)، ونسبه لحسان (رضي الله عنه) وليس في ديوانه، ونسبه في شواهد الكشاف ص ٧٠ لجرير.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٠٨.

القوة<sup>(١)</sup>. ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهَا يَاطِرُ﴾ [الذاريات: الآية ٤٧] أي: بنيناها بقوة. وليست من (الأيدي) جمع (يد) فليست من آيات الصفات، بل معناها: القوة. هذا معنى: ﴿أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ﴾ أي: قوّك وعزّزك بنصره. وأصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم ﴿أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٢﴾ وقوّك أيضاً وأيدك بالمؤمنين، ويدخل فيهم دخولاً أولاً: الأنصار - الأوس والخزرج - الذين آووه ونصروه وأيده الله بهم. كان الأوس والخزرج وهما بطنا الأنصار أبناء قبيلة، أولاد حارثة الغطريف كانوا مكثوا سنين كثيرة بينهم حروب دامية، وقتال هلك فيها أشرفهم، وقُتل فيها ساداتهم، وبينهم عداوات وإحن وأضغان مستحكمة قديمة متوارثة لا يكاد أن تزول من صدورهم أبداً، فلما أرسل الله إليهم نبيه محمداً ﷺ وآووه ونصروه، وأيده الله بنصره وبهم، أزال تلك الأضغان والعداوات الكامنة، وجعل مكانها المحبة الصادقة والمودة والإخاء الكامل؛ ولذا امتنّ الله عليهم بذلك هنا، وقد قدمنا نحوه في سورة آل عمران؛ لأنه قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٢﴾ [الأنفال: الآيتان ٦٢، ٦٣] قال بعض العلماء: ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: الأنصار. وقال بعض العلماء: هي أعمّ من الأنصار؛ لأن العرب الذين هم أول من دخل في دينه ﷺ كانوا أمة بينها ضغائن وحروب ومقاتلات لا تكاد تجتمع على رجل واحد، فجمع الله شتاتها ولمّ شعثها وألف قلوبها على الإيمان. وأكثر المفسرين على أن المراد بهم الأنصار<sup>(٢)</sup>، كانوا في

(١) مضى عند تفسير الآية (٢٦) من هذه السورة.

(٢) انظر: ابن جرير (٤٥/١٤)، القرطبي (٤٢/٨).

العداوات الشديدة، ومكثوا سنين كثيرة في حروب دامية، واستحكمت بينهم العداوات والإحن والأضغان، فألف الله بين قلوبهم بنبيه ﷺ كما قال هنا: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ التأليف في لغة العرب معناه: الجمع. أي: جمع بين قلوبهم فصارت على قلب رجل واحد، نيتها إعلاء كلمة الله، ونصر دينه، ونصر نبيه، ومحبة كل للآخر بعد أن كانت قلوبهم غير مجتمعة ولا متألفة، بل هذا يريد قتل هذا، وهذا يريد قتل هذا، بقلوب شتى لا تتألف؛ ولذا قال: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعني: لو صرفت ما في الأرض جميعاً لتؤلف بين قلوبهم ما أمكن ذلك أبداً. ومن أعظم الأسباب الدنيوية لكل شيء: المال، فإنه يؤلف القلوب ويزيل العداوة. يعني: لو أنفقت جميع ما في الأرض ما قدرت على أن توفق بين قلوبهم ولا أن توحدّها، ولكن الله العظيم بقدرته وجلاله ألف بين قلوبهم؛ لأنه تعالى وحده هو الذي يملك القلوب ويصرفها كيف يشاء، إذ كل إنسان قلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء، كما قدمنا بسطه في تفسير قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٢٤]. الذي بيده القلوب يصرفها كيف يشاء، ويقلبها كيف يشاء هو وحده الذي يقدر على تأليف قلوبهم، وجمع كلمتهم، ولمّ شعثهم، وإزالة ما كان بينهم كما تقدم في قوله: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣] وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

وقد قدمنا مراراً أن العزيز هو الغالب الذي لا يغلبه شيء،  
والعزة: الغلبة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: الآية ٨] أي: والله  
الغلبة ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٣] غلبني في الخصام.  
ومن كلام العرب: (مَنْ عَزَّ بَزًّا)<sup>(١)</sup> يعنون: من غلب استلب، وقد  
نظمتها الخنساء السلمية الشاعرة في قولها<sup>(٢)</sup>:

كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا حَمِي يُخْتَشَى إِذْ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَزًّا

أي: من غلب استلب. والحكيم: هو الذي يضع الأمور في  
مواضعها ويوقعها في مواقعها<sup>(٣)</sup>. فاقتضت عزته وغلبته أن يقهر  
أعداءك، وأن لا يضرّوك بخداعهم ونيّتهم المكر والخداع؛ لأن ربك  
غالبٌ قاهر لا يغلبه شيء، واقتضت حكمته أن يؤلّف بين قلوب  
أنصارك الذين نصرّوك، ويوحّد كلمتهم، ويجعلهم كرجل واحد،  
هذا اقتضته عزته وحكمته، وإن كانت حكمته تقتضي العدل الكامل،  
وكمال التمام في كل ما يدبّره في شرعه وقدره وغير ذلك. وعزته  
تقتضي أنه غالبٌ لكل شيء، ويدخل في ذلك قهره للكفار الجانحين  
للسلم الذين يريدون بذلك الخداع، ويدخل في حكمته جمعه بين  
قلوب أصحابك ليجتمعوا على نصرته دين الله وإعلاء كلمته. وهذا  
معنى قوله: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

ثم قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٤] قرأ هذا الحرف عامّة القراء غير نافع:

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ . وقرأه نافع وحده من السبعة : ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ بالهمزة<sup>(١)</sup> .

أما على قراءة نافع فهو من النبأ بلا خلاف . وقد قدّمنا مراراً<sup>(٢)</sup> أن النبأ في لغة العرب : الخبر الذي له خطب وشأن ، فكل نبأ خبراً وليس كل خبر نبأً ، لأن النبأ أخص من مطلق الخبر ، إذ لا تكاد العرب تطلق النبأ إلا على الإخبار بما فيه أهمية وله خطب وشأن ، فلو قلت : جاءنا اليوم نبأ الأمير ، أو نبأ الجيوش . كان هذا من كلام العرب ؛ لأنه خبرٌ له خطبٌ وشأن ، ولو قلت : بلغني اليوم نبأ عن حمار الحجاج . لما كان هذا من كلام العرب ؛ لأن خبر حمار الحجاج لا أهمية له ولا شأن ولا خطب له .

أما على قراءة الجمهور : ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ فقال بعض العلماء : معناه كمعنى قراءة نافع ، إلا أن الهمزة أبدلت ياءً كما أبدلت همزة (النسيء) في قوله : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة : الآية ٣٧] أبدلت ياءً في قراءة سبعية صحيحة<sup>(٣)</sup> ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ وبها قرأ ورش عن نافع وغيره ، وعلى هذا القول فالقراءتان معناهما واحد .

وقال بعض العلماء : (النبي) على قراءة الجمهور ليس من النبأ الذي هو الخبر وإنما هو من (النَّبْوَة) بمعنى الارتفاع ؛ لأن النبي يوحى إليه وحيٌّ ، وهو خبرٌ له شأنٌ وخطبٌ ؛ ولأن له مكانةً رفيعةً ،

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام .

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام .

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام .

والشيء المرتفع تسميه العرب (نبياً) والنبوة: الارتفاع، ومنه قيل لكثيب الرمل: (نبي) أي: لأنه مرتفع، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر<sup>(١)</sup>:

إلى السيد الصعب لو أنه يقوم على ذروة الصاقب  
لأضبح رثماً ذقاً الحصى مكان النبي من الكائب

يعني بالنبي: كثيب رمل مرتفع. وهذا معنى قوله: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك الله من أمور الدنيا والآخرة، فإنه يكفيك أعداءك ويعينك على من ناوءك منهم.

وقوله: ﴿وَمِنَ اتَّبَعَكِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup> فيه وجهان من التفسير معروفان<sup>(٢)</sup>: قال قومٌ من علماء التفسير: إن قوله: ﴿وَمِنَ﴾ في محل رفع، وأنه معطوف على لفظ الجلالة، أي: حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين، يعينك الله ويؤيدك الله بالمؤمنين. وهذا مروى عن الحسن البصري. والذين قالوا هذا القول قالوا: هذه الآية مكية جعلت في سورة الأنفال وهي مدنية بأمرٍ من النبي ﷺ، وزعموا أنها نزلت عندما أسلم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - والنبي وأصحابه مختلفون في دار الأرقم ابن أبي الأرقم في مكة، وأن عمر أظهر إسلامه حتى صلوا في المسجد، وما كانوا يقدرون، وأن الله

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأعراف، ولفظ الشطر الأول من البيت الأول في ديوانه:

على الأروع السقب لو أنه .....

(٢) انظر: ابن جرير (٤٩/١٤)، القرطبي (٤٣/٨)، الأضواء (٤١٦/٢)، ولابن القيم رحمه الله تحقيق جيد في معنى الآية ذكره في زاد المعاد (٣٥/١).

أنزلها في مكة، وأن النبي ﷺ أمر بجعلها في هذه السورة المدنية أعني سورة الأنفال.

والتحقيق الذي دلّ عليه استقراء القرآن العظيم، وبه قال أكثر علماء التفسير المشهورين: أن قوله ﴿وَمَنْ﴾ عطفٌ على الضمير في قوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ معناه: كافيك الله وكافي معك من اتبعك من المؤمنين، فالله يكفيك المؤمن وشور الأعداء وكل بليّة، كما أنه يكفي أتباعك من الصحابة فمن بعدهم (رضي الله عنهم). وهذا القول هو التحقيق، وقد دلّ استقراء القرآن عليه؛ لأن الحسب - الذي هو الكفاية - من خصائص رب العالمين، ولم يسنده لأحد من خلقه حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: الآية ٥٩] فجعل الإيتاء لله والرسول، والحسب لله وحده. وقال تعالى: ﴿فَارَبَّ حَسْبُكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِبَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٤] فجعل الحسب له وحده، والتأييد بنصر الله وبالمؤمنين. وقد أثنى الله (جل وعلا) على قوم أفردوه بالحسب - وهو الكفاية - كما في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٣] الله وحده ولم يذكر معه غيره، فأثنى عليهم بإفراد الخالق بهذا الحسب الذي هو الكفاية. ونظيره قوله في خاتمة براءة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَكُمْ إِيمَانًا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: الآية ١٢٩] هذا هو التحقيق إن شاء الله أن المعنى: يكفيك الله ويكفي جميع أتباعك.

وفي هذين ترغيب عظيم في الإسلام؛ لأن من اتبع النبي ﷺ كفاه الله كما كفى نبيه ﷺ.

وهذا التفسير هو الذي عليه جمهور علماء المفسرين، وهو الذي دل عليه استقراء القرآن كما بيّنا، إلا أنه يردُّ عليه سؤال عربي نحوي: وهو أن يقول طالب العلم: قررتم أن التحقيق أن (من) من قوله: ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ معطوفة على الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾<sup>(١)</sup> أي: حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين. والمقرّر عند جماعة من علماء العربية أن الضمير المخفوض لا يجوز العطف عليه إلا بإعادة الخافض، وهنا لم يُعد الخافض.

وأجيب عن هذا السؤال من أربعة أوجه<sup>(٢)</sup>:

أحدها: أن هذه القضية غير مسلمة<sup>(٣)</sup>، وأن جماعة من علماء العربية أصحاب علم وتحقيق قالوا: لا مانع من العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض. وهو رأي ابن مالك - رحمه الله - لأنه لما ذكر المذهب الأول بقوله في خلاصته<sup>(٤)</sup>:

وَعَوْدُ خَافِضٍ لَدَى عَطْفِ عَلَى ضَمِيرٍ خَفِضٍ لِأَزْمًا قَدْ جُعِلَا

قال بعده:

وَلَيْسَ عِنْدِي لِأَزْمًا إِذْ قَدْ أَتَى فِي النِّظْمِ وَالنَّثْرِ الصَّحِيحِ مُثَبَّنَا

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٥١٥)، الدر المصون (٥/٦٣١)، الأضواء (٤١٧/٢).

(٣) أطال ابن مالك (رحمه الله) في إبطالها. انظر: شرح الكافية (٣/١٢٤٦ -

(١٢٥٥

(٤) الخلاصة ص ٤٨.

ومراده بالشر الصحيح : قراءة حمزة — رحمه الله — ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾  
 الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴿[النساء: الآية ١] بخفض ميم الأرحام  
 معطوفة على الضمير المجرور في قوله: (به) من غير إعادة الخافض،  
 وهي قراءة سبعية صحيحة<sup>(١)</sup>، فمعلوم أن اللغة التي جاءت بها لا بد  
 أن تكون لغة عربية صحيحة، وهو كذلك. وقد اشتهر في أشعار  
 العرب العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض،  
 وأنشد له الشيخ سيويه في كتابه<sup>(٢)</sup>:

فاليومَ قَرَّبْتَ تَهْجُونَا وَتَشْتِمُنَا فَاذْهَبْ فَمَا بِكَ وَالْأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ

فعطف الأيام على الضمير المجرور بالباء من غير إعادة  
 الخافض، وهو كثير في أشعار العرب، ومنه قول الآخر<sup>(٣)</sup>:

نُعَلِّقُ فِي مِثْلِ السَّوَارِي سِيُوفَنَا وَمَا بَيْنَهَا وَالْكَعْبِ مَهْوَى النِّفَانِ

فقوله: «والكعب» معطوف على الضمير المجرور من غير إعادة  
 الخافض. ونظيره قول الآخر<sup>(٤)</sup>:

لقد رام آفاق السماء فلم يجد له مصعداً فيها ولا الأرض مقعداً

فعطف الأرض على الضمير المخفوض من غير إعادة  
 الخافض، ونظيره قول الآخر<sup>(٥)</sup>:

أمر مع الكتيبة لا أبالي أَحْتَفِي كان فيها أم سواها

(١) انظر: الميسوط لابن مهران ص ١٧٥.

(٢) الكتاب (٣٨٣/٢)، وهو في شرح الكافية (١٢٥٠/٣).

(٣) البيت في شرح الكافية (٢١٥١/٣).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) البيت في شرح الكافية (١٢٥٢/٣)، وهو للعباس بن مرداس.

فعطف (سواها) ب (أم) على الضمير المخفوض، وهو كثير في كلام العرب.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿وَمِنْ أَتْبَعَكَ﴾ في محل نصب معطوف على المحل؛ لأن الكاف من قوله ﴿حَسْبُكَ﴾ وإن كان في محل خفض مضاف إليه ما قبله فأصله مفعول؛ لأن الحسب بمعنى الكفاية، والأصل: يكفيك. فالكاف في محل المفعول، والمعروف في علم العربية أن المخفوض بالإضافة الذي أصله النصب يجوز العطف عليه مخفوضاً، وتجاوز مراعاة محله فينصب المعطوف عليه وهو معروف في محله.

الوجه الثالث: وهو أظهرها وأبينها وأقلها تكلفاً: أن قوله: ﴿وَمِنْ أَتْبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل نصب على أنه مفعول معه، بناء على القول بأن العطف ضعيف، وهو العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض فيتعين حينئذٍ النصب على المفعول معه (حسبك الله مع من اتبعك من المؤمنين) وهذا واضح لا إشكال فيه، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر<sup>(١)</sup>:

إِذَا كَانَتْ الْهَيْجَاءُ وَأَنْشَقَّتِ الْعَصَا فَحَسْبُكَ وَالضُّحَاكُ سَيْفٌ مَهْتَدٌ

فنصب (والضحاك) مفعولاً معه. أي: حسبك مع الضحاك.

الوجه الرابع: أن قوله: ﴿وَمِنْ أَتْبَعَكَ﴾ في محل رفع على أنه مبتدأ خبره محذوف دلّ ما قبله عليه. أي: ومن اتبعك من المؤمنين

(١) البيت في القرطبي (٤٢/٨)، الدر المصون (٣٨٤/١)، ذيل الأمالي ص ١٤٠، ونسبه لجريز، وليس في ديوانه.

فحسبهم الله أيضاً. وهذا معنى قوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٤].

ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرِيضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥] التحريض: هو الحرض على الشيء والحث عليه بشدة. حرّضهم على القتال، أي: حثهم وحرّصهم عليه بشدة؛ لأن القتال فيه خير الدنيا والآخرة، ثم إنه كان في أول الأمر يجب على المسلمين لقتلهم أن يصابر الرجل الواحد منهم عشرة من الكفار، كان الرجل الواحد من المسلمين يجب عليه أن يصبر أمام عشرة مقاتلين من الكفار، فلذا قال: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥] فإذا قابلت العشرين بالمائتين كان كل رجل مقابل لعشرة كاملة ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ صابرون محتسبون لله في ميدان الحرب.

ثم قال: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر: ﴿وَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ بِالتاء الفوقية. وقرأه العراقيون أعني أبا عمرو البصري والكوفيون الثلاثة - عاصماً وحمزة والكسائي - قرؤوه كلهم: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا﴾ بالياء التحتية كما قبله<sup>(١)</sup>؛ لأن المائة إذا قابلت ألفاً فكل واحد بعشرة.

وكان قائلاً قال: لِمَ كان الواحد من المسلمين يغلب العشرة من الكفار، ويجب عليه أن يصبر لها، والله لم يوجب عليه ذلك إلا لعلمه بأنه قرن لها وكفؤ لها عند الضرورة قبل أن يكثر المسلمون،

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٢.

فما موجب هذا حيث يكون الواحد من هؤلاء يقاوم العشرة من هؤلاء؟ فبين الله (جل وعلا) الحكمة في ذلك، / وهذه الحكمة التي [٨/ب] بين الله بهذه الآية من سورة الأنفال حكمة سماوية عظيمة تحتها أسرار هائلة يجب على كل مسلم أن يتصفحها ويتعقلها ويتدبر معانيها، وخصوصاً كل الخصوص تحتها على العسكريين من المسلمين، يجب عليهم كل الوجوب أن يتأملوا هذه الآية من سورة الأنفال، وأن يتصفحوا معناها، فإن فيها سرّاً عظيماً لو تعقله المسلمون لفهموا الحقائق، ولما ساروا في الظلام؛ لأن الله لما قال: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَادِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بين علة ذلك وأوضحها فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ وهو كون الواحد يغلب عشرة منهم ويصابرهما بسبب أنهم قوم لا يفقهون. أي: لا فقه عندهم ولا فهم عن الله، والذي لا يفقه عن الله ولا يفهم ما عنده فهو كالبهيمة ليس له مبدأ يقاتل عليه، والذي يتقدم إلى الميدان في خطوط النار الأمامية ليس عنده مبدأ نبيل يقاتل عليه فهو مائع، هزيمته قريبة سريعة، لا يقاوم أبداً. فإذا التقى من لا فقه عنده بمن عنده فقه عن الله فالمسلم القائم في الميدان للعشرة يفقه عن الله ويفهم، ويقول: إن ربي اشترى مني هذه الحياة القصيرة في هذه الأيام المعدودة، وهي حياة مكدرّة بالأمراض والأسقام والمصائب والبلايا والأحزان، اشتراها مني بحياة سرمدية أبدية لا انقطاع فيها ولا كدر ولا ألم ولا حزن، وهذا المال القليل اشتراه مني بالحوار العين والولدان وغرف الجنان ومجاورة رب غير غضبان، فهو ينتظر ما عند الله، فاهم عن الله، يفقه عن الله، فهو متقدّم في الميدان، لا يُهزم أبداً، ولو قُتل

لكانت هي أمنيته، فهذا الذي يقاتل على هذا المبدأ النبيل، وهذا الغرض الصحيح، فاهماً عن الله، يفقه عن الله، هذا لا يقاومه الأهوج الجاهل الذي لا يفقه شيئاً، ولا يقاتل على مبدأ، فحياته أهمّ عنده مما يقاتل عليه، فالذين لا يفقهون عن الله من الجنود العسكريين لا يمكن أن يردّوا سلبياً، ولا أن يُعلوا كلمة الله؛ لأنهم لا مبدأ لهم، وهم قومٌ لا فقه لهم، فلا يقاتلون على شيء ترخص بسببه نفوسهم عندهم ويرغبون فيما عند الله.

وهذا سرُّ لطيف عظيم، وتعليمٌ سماوي هائل، يفهم به المسلمون أن أول شيء من الأساسيات للاستعداد للميدان هو الفقه والفهم عن الله، فيجب كل الوجوب أن يُعلّم العسكريون عن الله حتى يفقهوا؛ لأنهم إذا كانوا فاهمين عن الله، عارفين بنبل المبدأ الذي يقاتلون عليه، كانوا شجعاناً وصابرين، لا يرجعون القهقري ولا يُهزمون، كما سجّله التاريخ لأوائل هذه الأمة. وإن كانوا لا يفقهون عن الله شيئاً، جهلةٌ كالأنعام لا مبدأ لهم يقاتلون عليه، فهم ليسوا بأساس ولا معوّل عليهم، يُهزمون مع كل ناعق كما بيّنته هذه الآية العظيمة الكريمة من سورة الأنفال. وهذا معنى قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥].

الفقه في لغة العرب: معناه الفهم ﴿قَالُوا يَشْعَبٌ مَاتَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ [هود: الآية ٩١] أي: ما نفهمه؛ لأنهم لا يفهمون عن الله شيئاً. وهذا معنى قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

فلما انتشر الإسلام وكثر المسلمون خفف الله (جل وعلا) عن المؤمنين وجوب مصابرة واحد لعشرة إلى مصابرة واحد لاثنتين قال: ﴿الآن﴾ (الآن) يعبر بها عن الوقت الحاضر الذي أنت فيه،

﴿ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾ [الأنفال: الآية ٦٦] تكليفه الأول وهو مصابرة الواحد للعشرة، وجاءكم بتخفيف بدله وهو مصابرة الواحد للاثنتين.

﴿ وَعَلِمَ أَنْتَ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ قرأه جماهير القراء منهم عامة السبعة غير عاصم وحمزة: ﴿ وَعَلِمَ أَنْ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ بضم الضاد. وقرأه عاصم وحمزة: ﴿ وَعَلِمَ أَنْتَ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾<sup>(١)</sup> والضعف والضعف لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان ﴿ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾.

﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ ﴾ هذا الحرف الأخير الذي هو قوله: ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ ﴾ لم يقرأه بالياء من السبعة إلا الكوفيون الثلاثة - وهم عاصم وحمزة والكسائي - أما أبو عمرو والبصري هنا فقد وافق غيره، فصار نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو يقرؤون: ﴿ فَإِنْ يَكُنْ ﴾ بالتاء، وعاصم وحمزة والكسائي يقرأون: ﴿ فَإِنْ يَكُنْ ﴾ بالياء<sup>(٢)</sup>. وهما لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ الواحد لاثنتين ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ ﴾ الواحد لاثنتين ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ جل وعلا ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ معية نصر وتوفيق وتأيد. وهذا معنى قوله: ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾<sup>(٦٧)</sup> ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾<sup>(٦٨)</sup> ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾<sup>(٦٩)</sup> [الأنفال: الآيات ٦٧ - ٦٩].

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٢.

(٢) السابق.

الَّذِينَ وَاللَّهِ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ [الأنفال: الآية ٦٧].

لما انهزم المشركون يوم بدر كان سعد بن معاذ (رضي الله عنه) قائماً متوشحاً سيفه على العريش الذي فيه رسول الله ﷺ، رآه النبي ﷺ ينظر كأنه ينظر إلى شيء يكرهه فقال: «كأنك تنظر إلى شيء تكرهه!!» قال: نعم، رأيتهم يأسرون الكفار ورغبتني أن يُقتلوا؛ لأن قتل الكفار أقوى للإسلام وأشدّ مناعة لشوكته، ويحصل به ضعف المشركين وانكسار شوكة الكفر، فقتلهم هنا أحب إليّ<sup>(١)</sup>.

ولما اجتمع الأسارى عند رسول الله ﷺ استشار أصحابه، فجاءت روايات متعدّدة أن ممن أشار عليه أبو بكر وعمر وعبد الله بن رواحة، ومن أكثرها إشارة أبي بكر وعمر، وأن أبا بكر قال له: يا رسول الله: إنهم قومك وعشيرتك فلا تعجل عليهم وهم كفار، فاستبقهم وأمهلهم لعل الله أن يهديهم، وخذ من فدائهم ما يتقوى به المسلمون على الجهاد في سبيل الله. وقال له عمر: هؤلاء قوم كذبوك وأخرجوك وهم رؤساء الكفر فاقتلهم، فأعط عقيل بن أبي طالب لأخيه علي - وعقيل من الأسارى ذلك اليوم - يقتله، وادفع العباس لحمزة ليقته، وأعطني فلاناً - رجلٌ كان بينه وبين عمر نسب - ليعلم الله أن لا هوادة بيننا وبين الكفار، فإن قتل رؤساء الكفر هو الذي يكسر شوكة الكفر ويذلّه، ويعزّ دين الإسلام ويُعلي كلمة الله. فكان النبي ﷺ كان أميل إلى ما قاله أبو بكر (رضي الله عنه). وذكروا في هذه الروايات أنه قال لأبي بكر: «قلت كما قال عيسى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾» الآية

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

[المائدة: الآية ١١٨]. وفي رواية أنه قال له: «قلت كما قال إبراهيم: ﴿فَمَنْ يَتَّبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٣٦﴾» [إبراهيم: الآية ٣٦] وفي بعض الروايات قال لعمر: «قلت كما قال موسى: ﴿رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٨٨﴾» [يونس: الآية ٨٨] وفي بعضها أنه قال له: «قلت كما قال نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿٢٦﴾» الآيات [نوح: الآية ٢٦]. وفي بعض الروايات أن معهم عبد الله بن رواحة (رضي الله عن الجميع)، وأنه قال له: أنت في واد كثير الحطب فأضرم عليهم النار<sup>(١)</sup>. وعلى كل حال فلما أخذوا الأسارى أخذهم الذين أسروهم أولاً ولم يأمرهم رسول الله ﷺ بأسرهم، وكانوا يرغبون في الفداء ليتقوا بالمال، فلما استقروا تحت أيديهم كان ذلك الرأي ليس مستبعداً عنده ﷺ، ولم ينزل فيه وحي، فبعد أن أخذوا الأسارى جاءهم هذا اللوم من الله، وهذا الأمر العظيم، وقرب العذاب منهم لولا الكتاب السابق. ولما كان من الغد جاء عمر (رضي الله عنه) ووجد رسول الله ﷺ وأبا بكر يبكيا، فقال: ما يبكيكما، أخبراني بما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاءً بكيت معكما، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال له رسول الله ﷺ: «عرض عليّ عذاب أصحابك كهذه الشجرة - لشجرة قريبة منه<sup>(٢)</sup> ﷺ - لأن الله قال لهم: ﴿تَوَلَّأ كَلْبٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ [الأنفال: الآية ٦٨]». ثم إن الله بعد ذلك أحل لهم ذلك المغنم وطيبه

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٢) من هذه السورة.

(٢) مسلم في الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم،

حديث رقم: (١٧٦٣)، (٣/١٣٨٣).

لهم في قوله: ﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: الآية ٦٩] ويدخل فيه فداء الأسارى.

ومعنى قوله: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ [الأنفال: الآية ٦٧] أن يأسر الرجال ويستعين بالمال بفدائهم حتى يشحن في الأرض. الإثخان: معناه الإيجاع في الأرض قتلاً، حتى يوجع في الأرض قتلاً، ويقتل الصناديد الكفرة والرؤساء العظام التي تضعف بهم شوكة الكفر وأهله. والإثخان: أصل الإثخان شدة الإيجاع في الأرض بالقتل<sup>(١)</sup>. وقالوا: أئخنوهم أي: أوجعوا فيهم قتلاً شديداً ذريعاً، وأئخنته الجراحة: اشتدت عليه حتى أثبتته. وهذا الذي لامهم عليه هنا وبين لهم أنه ما كان هو الصواب، ولا هو الأولى أوضحه وشرحه في سورة القتال في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَّخْتُمُوهُمْ﴾ [محمد: الآية ٤] أي: أوجعتموهم قتلاً، قتلاً يضعف شوكة الكفر ويذل أهله، بعد ذلك ﴿فَشُدُّوا أَلْوَانَكُم﴾ وهو الأسر ﴿فَإِمَامًا بَعْدُ وَإِمَامًا فِدَاءً﴾ ولذا قال هنا: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّىٰ يُشْحَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني ما كان ينبغي لكم ولا يصح منكم أولاً أن تلتزموا أول وقعة نصركم الله فيها بالأسرى تريدون المال، لا ينبغي هذا منكم، وما كان هو الأولى لكم، كان الأولى لكم قتلهم وحصدهم حتى يذل الكفر ويستكين أهله، وتقوى شوكة الإسلام ويعز أهله. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُشْحَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يوجع فيها قتلاً؛ لأن ذلك القتل الوجيع هو الذي يذل الكفر ويكسر شوكته، ويعز الإسلام ويرفع كلمة الله (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُشْحَنَ فِي الْأَرْضِ﴾.

(١) انظر: القرطبي (٤٨/٨)، الدر المصون (٥/٦٣٧).

ثم لامهم لوماً شديداً عظيماً من الله قال: ﴿ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ يعني: حطام الدنيا الزائل. فسماه عرضاً لأنه عارض الوجود يعرفه الزوال عن قريب، كما قدمنا في قوله: ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٩] والله (جل وعلا) لا يريد عرض الدنيا بل يريد الآخرة، يريد لكم الآخرة بأن تقتلوا الكفرة، وتكسروا شوكة الكفر، وتذلوا أهله وأهلها، وتعزوا كلمة الله وتعزلوا دين الله في أرضه، وهذه هي الآخرة التي يريد لها لكم، وهذه الإرادة إرادة شرعية دينية، ولو كانت إرادة قدرية كونية لنفذت على كل حال؛ لأن الله إذا أراد بإرادته الكونية القدرية شيئاً لا بد أن ينفذ كائناً ما كان ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: الآية ٨٢] فهذه إرادته الشرعية الدينية لكم كان الأولى لكم شرعاً ودينياً أن تقتلوهم فتعلوا كلمة الله، وتذلوا كلمة الكفر، وهذا معنى قوله: ﴿ حَتَّى يَتَخَيَّرَ فِي الْأَرْضِ ﴾. ﴿ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ أي: حطامها الزائل؛ لأنه عارض ينقضي ويزول ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ أي: الدار الآخرة. ومن أعظم أسباب الخلود في جناتها إعلاء كلمة الله، وإذلال كلمة الكفر، وأكبر أسباب ذلك قتل الرؤساء قادة الكفار وساداتهم. وهذا معنى قوله: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾.

﴿ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴾ [٢٦] قدمنا الكلام عليه قريباً.

وقوله: ﴿ لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقٌ ﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] (لولا) في علم العربية هي حرف امتناع لوجود، والمعنى: امتنع أن يمسكم عذاب الله بسبب [الكتاب السابق في الأزل] (١) ﴿ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

ولو أن فرعون لما طغى      وقال على الله إفكاً وزورا  
أناب إلى الله مُسْتَغْفِراً      لما وَجَدَ اللهُ إِلاَ غَفوراً<sup>(١)</sup>(٢)

[١/٩] / قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لِّمَن فِي أَيِّدِكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُم وَيَغْفِرَ لَكُم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ لَّيْتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِ أَوْلِيَآءِ بَعْضٍ إِلَّا تَفَعَّلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٧٠ - ٧٥].

يقول الله جل وعلا: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لِّمَن فِي أَيِّدِكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُم وَيَغْفِرَ لَكُم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٠].

جرى على السنة العلماء من المفسرين والأصوليين أن هذه الآية الكريمة من أخريات سورة الأنفال نزلت في العباس بن

(١) لم أقف على البيتين.

(٢) هذا هو الدرس الأخير من دروس الشيخ رحمه الله في شهر رمضان عام

(١٣٩١هـ)، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين منه.

عبد المطلب (رضي الله عنه)<sup>(١)</sup>. والتحقيق أنها نزلت في جميع أسارى بدر، ولو فرضنا أنها نزلت في العباس فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وإنما قالوا: إنها نزلت في خصوص العباس مع أنها نازلة في جميع أسارى بدر؛ لأن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) هو أكثرهم نصيباً وأوفرهم حظاً فيها؛ لأنه أخذ منه في الفداء ما لم يؤخذ من غيره، فصار كأنه أخص منهم بهذه الآية؛ ذلك لأن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) كان من أشرف قريش الذين ضمنوا لهم الإطعام في غزوة بدر، وكان يوم بدر هو اليوم الذي عليه هو أن يطعم - كما قاله أصحاب المغازي والسير - فاشتغل الناس بالقتال عن الإطعام، وكان جعل معه عشرين أوقية من ذهب ليطعم بها الناس، فلما أسره المسلمون أخذوا العشرين معه. وذكر بعض أصحاب المغازي أنه كان رجلاً موسراً فأمرهم النبي أن يُضعفوا الفداء عليه<sup>(٢)</sup>، فأخذوا منه ثمانين أوقية، وضاعت له عشرون أوقية، فكان المجموع: مائة أوقية. وأمره النبي ﷺ أن يفدي ابني أخويه وهما عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب كانا أسيرين معه، أسرا يوم بدر. وذكر بعضهم أنه ﷺ أمر العباس أيضاً أن يفدي حليفه وهو عتبة بن عمرو (رضي الله عنه)، أخو بني الحارث بن فهر، كان حليفاً للعباس بن عبد المطلب<sup>(٣)</sup>، وكان النبي ﷺ في يوم بدر كما ذكره أصحاب المغازي قال: «إن

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: دلائل النبوة (٣/١٤١)، الدر المنثور (٣/٢٠٤)، سُبُل الهدى والرشاد (٤/٧١)، وأورده القرطبي (٨/٥٢)، وعزاه للنقَّاش.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

بعض من يلقونكم في هذا الجيش خرجوا مستكرهين فمن لقي منكم العباس فلا يقتله؛ لأنه أكرهه قومه على الخروج، ومن لقي أبا البختری فلا يقتله». وكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة (رضي الله عنه) وقعت منه زلّة يوم بدر، وكان يقول: منذ سقطت مني تلك الكلمة وأنا أخافها لا آمن منها أبداً حتى يكفرها الله عني بالشهادة. فقتل شهيداً أيام اليمامة (رضي الله عنه). وذلك أن النبي ﷺ لما قال: «من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنه خرج مُستكرهاً». قال أبو حذيفة بن عتبة (رضي الله عنه): أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرننا ونترك العباس! والله إن لقيته لألجمته السيف. فسمع بها رسول الله ﷺ، فذكروا أنه قال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «يا أبا حفص» — قال عمر: ما كناني أبا حفص قبل ذلك اليوم — «أيضرب وجه عمّ رسول الله ﷺ»؟ فقال: إنه نافق دعني أقتله<sup>(١)</sup>.

وكان أبو حذيفة (رضي الله عنه) يتخوّف من كلمته هذه حتى رزقه الله الموت شهيداً أيام اليمامة. وكذلك نهى عن أبي البختری؛ لأنه كان يُحسن إلى بني هاشم أيام كونهم في الشّعب لما قاطعهم قريش، وكان يعاملهم معاملة حسنة ولم يؤذهم، فجاءه المُجذّر بن زياد البلوي (رضي الله عنه) فقال: أما أنت فقد نهانا عنك رسول الله ﷺ. وكان له زميل، فقال له: وزميلي؟ فقال: أما زميلك فلم ينهنا عنه رسول الله ﷺ. وأراد المُجذّر أن يقتل زميله، فتعرّض دونه وقال<sup>(٢)</sup>:

(١) السابق.

(٢) السابق.

لَا يُسْلِمُ ابْنُ حُرَّةَ زَمِيلَهُ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَرَى سَبِيلَهُ  
وَلَا يَفَارِقُ جَزَعاً أَكِيلَهُ

وتراجز هو والمجدّر (رضي الله عنه) وكان ذلك يقول<sup>(١)</sup>:

أنا الذي أزعّم أصلي من بلي أضربُ بالحربة حتى تنثني  
فقتله المجدّر لما جاء دون زميله. وكان العباس (رضي الله  
عنه) أسره رجل قصير ليس بالقوي من الأنصار هو كعب بن عمرو  
(رضي الله عنه) وهو المشهور بكنيته أبي اليسر، وهو أخو بني  
سلمة. ذكر بعض أصحاب المغازي<sup>(٢)</sup> أن العباس كان يئنّ أئيناً في  
الأسر، فسمع رسول الله ﷺ أنينه فلم يستطع أن ينام حتى خففوا عليه  
الوثاق فسكت، فلما سكت نام ﷺ. وعلى كل حال فالعباس بن  
عبد المطلب (رضي الله عنه) لما أرسل قريش في فداء أسراهم كان  
الأسير يُفدى بأربعين أوقية، قال أصحاب المغازي: أمرهم النبي ﷺ  
أن يُضعفوا الفداء على العباس فأخذوا منه ثمانين أوقية، وضاعت له  
عشرون أوقية أخذوها منه لما أسروه، وفدى ابني أخويه عقيل بن  
أبي طالب بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب،  
وفدى حليفه عتبة بن عمرو أخا بني الحارث بن فهر، فصار دفع مالا  
كثيراً لم يدفعه غيره، فمن هنا قالوا: نزلت فيه هذه الآية الكريمة مع  
أنها نازلة في جميع أسرى بدر، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص  
الأسباب، فلفظ الآية عام. وهذه القاعدة قاعدة معروفة قويّة يستدل  
بها علماء الأصول على أن الآيات النازلة في أسباب خاصة أحكامها

(١) السابق.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٤١/٣) من طريق ابن إسحاق، وعنهما أورده  
ابن كثير في تاريخه (٢٩٩/٣).

عامة، ولا تخصص بأسبابها<sup>(١)</sup>، ومن المشهور في أمثلتها: المثال لها بهذه الآية من أخريات سورة الأنفال، أنها نزلت في العباس بن عبد المطلب وحكمها عام. ومن الأدلة الدالة على هذه القاعدة الأصولية المهمة المعينة في التفسير - وهي أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب - دل عليها الحديث الصحيح واللغة، أما ما دل على ذلك من الأحاديث فهو ما سيأتي في سورة هود - إن شاء الله - من أن سورة هود نزلت فيها آيات مدنية وهي سورة مكية كما قال غير واحد من العلماء أن قوله: ﴿وَأَقْرِبَ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: الآية ١١٤] نزلت في الأنصاري الذي جاءته المرأة تبتاع تمرأ فأعجب بجمالها، وكان زوجها غائباً في الجهاد، فقال لها: إن في البيت تمرأ أحسن من هذا. فلما دخلت البيت كان بينه وبينها بعض ما لا يليق من صغائر الذنوب، ثم إنه ندم وأخبر النبي ﷺ بذلك فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ تعني: فصلواتك الخمس تذهب عنك هذه السيئة التي اقترفت من هذه المرأة. فقال الرجل - كما في صحيح البخاري وغيره - ألي هذا وحدي يا رسول الله؟ وسؤال هذا الأنصاري هو سؤال عن هذه النازلة، كأنه يقول: آعبرة بي لأنني سبب النزول، أو العبرة بعموم لفظ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فأجابه ﷺ: «بل لأمتي كلهم»<sup>(٢)</sup>.

فدل على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، ومن النصوص الدالة على هذه القاعدة: هو ما ثبت عن النبي ﷺ في

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣١) من سورة الأعراف.

الصحيح أنه أيقظ فاطمة وعلياً (رضي الله عنهما) ليصليا بالليل، فقال له علي (رضي الله عنه): إن أرواحنا بيد الله إن شاء بعثنا. فولى ﷺ يضرب فخذة ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ [الكهف: الآية ٥٤] (١). مع أن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ نزلت في الكفار الذين يجادلون في كتاب الله، فاعتبر النبي عمومها حتى جعله شاملاً لخصام علي له ومجادلته له؛ بأن أرواحهم بيد الله؛ لأن الله قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ [الكهف: الآية ٥٤] الكافر مع وضوح القرآن وأدلته وتصريف أساليبه ﴿أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ وخصاماً بالباطل.

ومما يدل على هذا من اللغة: إجماع أهل اللسان العربي أن الرجل لو كان له أربع زوجات فقامت إحداهن وسبّت هذا الرجل وأغضبته فقال: أنتن كلكن طوالق. فإنهن كلهن يطلقن بحسب المدلول العربي ولا يختص بالمرأة التي أغضبته فاستوجبت الطلاق كما لا يخفى. وهذه الآية الكريمة نزلت في العباس بن عبد المطلب، وحكمها عام لمن معه، وظاهرها يشمل جميع الأسرى؛ لأنه قال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُومًا لَمِنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ [الأنفال: الآية ٧٠] قرأ هذا الحرف عامّة القراء غير نافع: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُومًا لَمِنْ فِي أَيْدِيكُمْ﴾ بالإدغام.

وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿يا أيها النبي﴾ بالهمزة من غير إدغام، ونافع قرأ لفظ النبيء والأنباء في جميع القرآن بالهمزة

(١) السابق.

المحقة في رواية ورش في جميع القرآن، وفي رواية قالون عنه في جميع القرآن إلا في حرفين من سورة الأحزاب فقط، وهما قوله: ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠] وقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣] فهذين الحرفين قرأهما عنه قالون كقراءة الجمهور، وقرأهما عنه ورش بالهمزة المحقة كغيرهما في سائر القرآن<sup>(١)</sup>.

وقوله ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ قرأه عامة السبعة غير أبي عمرو: ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ وقرأه أبو عمرو وحده من السبعة: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُوْتِكُمْ خَيْرًا﴾<sup>(٢)</sup> ومعنى الآية الكريمة: أن الله (جل وعلا) أمر نبيه أن يقول لمن في أيدي المسلمين من أسارى بدر يقول لهم هذا الكلام.

(الأسارى) جمع أسير، و (الأسرى) جمع أسير، إلا أن (الأسير) يُجمع على (أسرى) قياساً مطّرداً، وقاعدة معروفة؛ لأن (الفَعِيل) المتّصف بما يُرثى له به يطرد جمعه تكسيراً على (فَعَلَى)<sup>(٣)</sup> كمريض ومرضى، وقتيل وقتلى، وجريح وجرحى، وصرع وصرعى، وأسير وأسرى<sup>(٤)</sup>.

أما على قراءة ﴿أَسْرَى﴾ فهو جمعٌ مسموع، وإتيان الجموع على (فَعَالَى) أو (فَعَالَى) مسموع ولا يطرد منه شيء قياساً، ككسالى،

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٣.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

وأسارى، ويطامى، وحيارى، وما جرى مجرى ذلك<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ﴾ المراد بـ ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ﴾ من كانوا تحت أيديكم من الأسارى، وكل شيء كان في قبضة الإنسان وتحت قدرته وتصرفه تقول العرب: هو في يده؛ لأن اليد هي التي تزاوِل بها الأعمال وتؤخذ بها الأشياء عادة<sup>(٢)</sup>.

والأيدي جمع (يد)، واليد من الألفاظ التي حذفت العرب لامها ولم تعوّض منها شيئاً، وأعربتها على العين، فдал اليد في محل العين، وهي مُعرَبَةٌ على عينها وهو الدال، نُزِّل منزلة لامها، وحذفت لامها، وتنوسيت، وهي إحدى ألفاظ معروفة كذلك، كيدٍ، ودَمٍّ، وغدٍ، ودِدٍ، وهن، وما جرى مجرى ذلك<sup>(٣)</sup>. وأصل لامها المحذوفة ياء، أصلها (يدي) فاؤها ياء، وعينها دال، ولامها ياء. ولامها المحذوفة إنما تُرَدُّ عند التصغير وجمع التكسير، ففي تصغيرها تقول: (يُدَيْتِه) وفي جمعها تقول: فاقطعوا أيديهما. وأصله: (أيديهما) على وزن (أفعل) لأن الأيدي أصل وزنه (أفعل) (فعل) محذوف اللام مجموع على (أفعل) إلا أن ضمّة العين تُجعل كسرة لمجانسة الياء، وربما نطقت العرب باليد مثبتة لامها إثبات المقصور على الألف كالفتى. سُمع هذا عنهم قليلاً، ومنه قول الراجز<sup>(٤)</sup>:

يَارُبَّ سَارِبَاتٍ مَا تَوْسَدًا      إِلَّا ذِرَاعَ الْعَيْسِ أَوْ كَفَّ الْيَدَا

فردّ اللام كما هي في (الفتى) وهذا نادر.

(١) انظر: حجة القراءات ص ٣١٤، الدر المصون (٥/٦٣٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنفال.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٩٥) من سورة الأعراف.

(٤) السابق.

وقوله: ﴿مِنَ الْأَسْرَى﴾ الأسرى جمع أسير، والأسير (فَعِيل) بمعنى (مَفْعُول) وهو اسم المفعول من (أَسْرَهُ) العرب تقول: أسره يأسره أسراً. فالفاعل (آسر) والمفعول (مأسور) إذا شده بالوثاق. وأصل هذه المادة مأخوذة من الإيسار، والإيسار: القِد. والقِد: هو جلد البعير غير المدبوغ؛ لأن جلد البعير إذا لم يُدْبَغ تسميه العرب قِداً. وكانوا يشدون الأسير بالجلد عند سلخه طرياً، فإذا يبس اشتدت قوته ولا يقدر أحدٌ على حله ولا قطعه ولا نزعه، ومن هنا قيل لكل مشدود شداً محكماً: إنه مأسور. وأصله من (الإيسار) وهو الشد بالإسار، أعني القِد وهو جلد البعير إذا كان غير مدبوغ. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: الآية ٢٨] المراد بقوله ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أحكمتنا شد العظام بعضها إلى بعض بإحكام وإتقان شديد كما يُشد الشيء شداً قوياً بالقِد فيبس عليه فيمسكه إمساكاً قوياً<sup>(١)</sup>. وهذا صار معنىً معروفاً في كلام العرب، مشهور في كلامهم، فكل شيء شدته شداً محكماً تقول العرب: أسرته. ومنه سُمي الأسير، أي: لأنه يُشد بالإسار، وهو جلد البعير غير المدبوغ. وهذا معروف في كلامهم، ومنه: أسر مراكب النساء؛ لأن أعواده تُشد بالقِد حتى يتحكّم بعضه مع بعض، ومنه قول حميد بن ثور الهلامي<sup>(٢)</sup>:

وما دخلت في الخدب حتى تنقّضت تأسيراً على قده وتحطّما  
وهذا معنى معروف في كلام العرب. يعني: قل يا نبي الله لهؤلاء الذين أخذتموهم وكانوا في قبضتكم وتحت تصرفكم:

(١) مضى عند تفسير الآية (١١) من سورة الأعراف.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٩.

﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ العباس بن عبد المطلب قال للنبي ﷺ: يا نبي الله: احسب لي العشرين أوقية التي أخذوها مني، كانت من مالٍ معي. قال: «لا، ذلك مالٌ أعطناه الله منك فلا نحسبه لك أبداً». وضاعف عليه الفداء، وأمره بمفاداة ابني أخويه. فقال للنبي ﷺ: يا نبي الله لقد تركتني أتكفّف قريشاً إلى يوم القيامة فقيراً. فقال له النبي ﷺ: «أين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل لما أردت الخروج؟» فقال له: وما ذلك المال؟ قال له: «الذهب الذي دفنته أنت وأم الفضل، وقلت لها: ما أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث في سفري هذا فهذا المال لك ولِئني: الفضل، وعبد الله، وعبيد الله، وقثم. ودفنتم المال». فقال: أشهد أنك رسول الله، والله ما علم بهذا أحدٌ غيري وغير أم الفضل<sup>(١)</sup>. وهي لبابة الصغرى بنت الحارث، أم أولاد العباس بن عبد المطلب، وهي هلالية مشهورة. لما أخذوا منهم هذا المال وكان الأسارى يأتون النبي ﷺ ويقولون: نحن مسلمون آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أنك رسول الله، ووالله لنصحنّ لك على قومنا، ولا تأخذ منا شيئاً. فأنزل الله فيهم: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ (خيراً) هنا جاء مرتين ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ الأولى منهما ليست صيغة تفضيل، والثانية منهما صيغة تفضيل، والدليل على أنها صيغة تفضيل اقترانها بـ (من) لأن صيغة التفضيل المجردة تُقترن بـ (من) دائماً لفظاً أو تقديراً. معناه: إن يعلم الله في قلوبكم إسلاماً وإيماناً صحيحاً وتصديقاً كما تزعمون يؤتكم خيراً، أي: شيئاً أخيراً وأفضل مما أخذ منكم من الفداء.

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٢) من هذه السورة.

يعني من حطام الدنيا وعرضها، ومن نعيم الجنة، ويغفر الله لكم أيضاً.

وقوله ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يدل على أن محل نظر الله من عبده إنما هو القلوب كما جاء بذلك الحديث؛ لأن القلب هو الذي ينظر الله إليه فيعلم فيه الخير والشر؛ ولذا قال: ﴿إِن يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ والله (جل وعلا) عالمٌ بما في الضمائر وما يخطر في القلوب ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦] وقد بين القرآن العظيم في مواضع منه أن علم الله الإيمان والإخلاص في قلب الإنسان تكون له فوائد عظيمة، من تلك الفوائد: ما ذكره هنا في أخريات الأنفال في قوله: ﴿إِن يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ ومنها قوله في سورة الفتح: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٨] فكنى عما في قلوبهم بالاسم المبهم الذي هو الاسم الموصول. يعني أنه إيمان كما ينبغي وإخلاص كما ينبغي، ترتب على ذلك نتائج عظيمة كثيرة كقوله: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ﴾ [الفتح: الآية ٢٠] وكقوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: الآية ٢١] أي: فأقدركم عليها، وكقوله جل وعلا: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٢] هذا الإيمان والتسليم الذي علمه الله في قلوبهم رتب عليه نتائج عظيمة مفيدة منها قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٥] إلى آخر الآيات.

وهذه الآيات ينبغي لنا أن نعتبر بها فنظهر قلوبنا، ويكون ربنا يعلم منها الخير، ولا يعلم منها الشر؛ لأن ذلك يسبب لنا نتائج

عظيمة كصلاح الدنيا والآخرة؛ لأن هؤلاء الأسارى قال لهم: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ من المال ﴿وَمِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ ويزيدكم على ذلك المغفرة. قال العباس بن عبد المطلب: كان يقرأ: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ قال: إن العشرين أوقية الذي ضاعت لي يوم بدر أبدلني الله خيراً منها، أعطاني عشرين عبداً كلهم يتاجر بمالٍ كثير، وهم لي، وأموالهم لي<sup>(١)</sup>. ولما جاء مال البحرين - أرسله ابن الحضرمي من البحرين - ذلك المال الكثير الذي ما دخل المدينة مالاً أكثر منه في زمن النبي ﷺ، ونثره في المسجد ووزّعه، جاء العباس وقال: يا نبي الله أعطني! فاديت نفسي وعقبلاً. فقال له: «احث من هذا المال». فحثا العباس في خميسة كانت عليه، ولم يزل يحثو فيها من المال حتى أراد أن يقوم فما قدر على أن يقوم، فقال للنبي ﷺ: مُر أحداً منهم يرفع معي المال!! فتبسّم ﷺ حتى بدى ضاحكه أو نابه وقال: «لا يعينك عليه أحد». فقال له: ارفعه أنت عليّ. فقال: «لا، اردد طائفة من المال حتى تستطيع حمله». فحثا عنه حتى استطاع أن يحمله، وحمله على كاهله. قال بعضهم: لم يزل ﷺ ينظر إليه حتى اختفى، لشدة حرصه على أخذ هذا المال. وقال العباس حيثئذ: أما الأولى منهما فقد رأيناها: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ والله لقد أعطانا خيراً مما أخذ منا، وإنا لنرجوا الثانية التي هي: ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ بعلمه المحيط بكل شيء ﴿فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي إيماناً صحيحاً وتصديقاً وإخلاصاً لله ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ أي:

(١) تقدم تخريجه في الموضوع السابق.

(٢) تقدم تخريجه في الموضوع السابق.

يعطكم خيراً، أي: مالا في الدنيا، وثواباً في الآخرة خيراً ﴿خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ أي: أفضل وأعظم مما أخذ منكم. والعرب استغنت بـ (خير) و (شر) عن (أخير وأشر)، فهما صيغتا تفضيل، والآخرية منهما صيغة تفضيل، وقد قال ابن مالك في كافيته<sup>(١)</sup>:

وغالبا أغناهم خيرٌ وشر عن قولهم أخيرٌ منه وأشَرَّ

فالآخرية هنا تفضيل أي: يؤتكم أخير وأفضل، أي: أكثر خيراً وأعظم منه، وذلك كما وقع في مال البحرين أعطى العباس أكثر بأضعاف مما أخذ منه يوم بدر من الفداء، وأعطاه عشرين عبداً. وقال العباس: وأعطاني الله زمزم أيضاً ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة. فعوضه الله مئات الأضعاف على ما أخذ منه يوم بدر. وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ أي: مما أخذه المسلمون منكم كالعشرين أوقية التي أخذت من العباس، وما أخذ في فدائهم من المال. وحذف الفاعل هنا للعلم به ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم. حذف فاعل (أخذ) ومفعول (يغفر) والمعنى: يعطيكم خيراً مما أخذه منكم المسلمون يوم بدر، ويغفر لكم ذنوبكم كلها، وشرككم المتقدم وكفركم بالله. وهذا معنى قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين، ولا سيما إذا علم في قلوبهم الإيمان والإخلاص له (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ [الأنفال: الآية ٧١] ضمير واو الفاعل في قوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ راجع على الأسارى الذين في أيدي النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنهم كانوا يقولون: آمنا بك وشهدنا أنك رسول الله، والله لننصحن لك على قومك، ولنكونن معك. ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ بهذا الكلام، إن كان هذا الكلام أرادوا به الخيانة والمكر والخديعة فلا تهتم بشأنهم ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ ظرف مقطوع من الإضافة مبني على الضم. أي: قد خانوا الله من قبل يوم بدر بالكفر، وعبادة الأصنام، وتكذيب رسوله ﷺ فأمكن الله منهم. هذا الفعل الذي هو (أمكن) يتعدى إلى مفعول، ومفعوله محذوف، والمعنى: فأمكنكم الله منهم. وَحَذَفُ الْفُضْلَةِ إِذَا دَلَّ الْمَقَامُ عَلَيْهِ شَائِعٌ مَطْرَدٌ فِي الْقُرْآنِ وَفِي كَلَامِ الْعَرَبِ، والعرب تقول: «أمكنني من كذا». إذا هياه لي وجعله في قبضتي، وهو معنى معروف في كلامها، وهو متعد إلى المفعول كما هو معروف، فالمفعول هنا محذوف، وليس الفعل لازماً كما لا شك فيه، ومما يدل على ذلك من كلام العرب قول كُثِيرٍ عَزَّةً وهو عربي قح، ذكروا أنه ناداه عبد العزيز بن مروان، وأحضر عَزَّةً وجعل دونها سجفاً؛ أعني: سترأ. وقال لكُثِيرٌ: تمنن، فما تمنن فهو حاضر. فتمنى إبلاً سوداً برعائها، أو غير ذلك من الأموال. فقال للغلام: ارفع السجف يا غلام. فرفعه عن عزة فإذا هي، فقال: لو تمنيت هذه لأعطيتهاكها وزوجتك إياها. فندم كُثِيرٌ وقال — وهو محل الشاهد<sup>(١)</sup> — :

حلفتُ بربِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مَنِي      يجوب الفيافي نصها وزميلها

(١) البيتان في ديوانه ص ٢٦٧، مغني اللبيب (١٩/١) (بشرح الأمير)، والثاني في رصف المباني ص ٦٦.

لِإِنَّ عَادَ لِي عَبْدَ الْعَزِيزِ بِمِثْلِهَا وَأَمْكِنِّي مِنْهَا إِذَا لَا أُقِيلُهَا

ومحل الشاهد منه قوله: «وأمكنني منها» أي: جعلها في قبضتي وتحت تصرفي. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: أمكنك الله أنت وأصحابك منهم يا نبي الله، فلا تهتم بخيانتهم.

وقوله: ﴿خِيَانَتَكَ﴾ الياء فيه منقلبة عن الواو؛ لأن مادة (الخيانة) أصلها من أجوف واوي العين، أصلها من (خَوْن) ولذا يقال في المبالغة منها: (خَوَان). ولو كانت يائية لقليل: (خيان) ويقال في ماضيها: خان يخون. ولو كانت يائية لقليل: يخين. إلا أن القاعدة المقررة في التصريف أن الواو إذا تقدمتها كسرة وجاء بعدها ألف وجب إبدالها ياءً، كالخيانة من الخون، والحياسة من الحوز، والصيانة من الصون، والقيامة من قام يقوم<sup>(١)</sup>. قال بعض علماء العربية: على القول بجمع المصادر تُجمع الخيانة على (خيائن) اعتداداً بالياء المبدلة من الواو، والقياس أن تُجمع على (خوائن) إلا أنهم فرقوا بين جمع (خيانة) وبين جمع (خائنة) فجعلوا هذه بالياء وإن كان أصلها الواو.

﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ خيانتهم لله هي كفرهم بالله، وعبادتهم للأصنام، وتكذيبهم لنبيه ﷺ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾ (الفعيل) من صيغ المبالغة، وعلمه (جل وعلا) يستحق أن يُبالغ فيه؛ لأن علمه محيط بكل شيء، وهو (جل وعلا) يعلم الموجودات والمعدومات والواجبات والجائزات والمستحيلات، حتى إنه من إحاطة علمه ليعلم المعدوم الذي سبق

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

في علمه أنه لا يُوجد، فهو يعلم أن لو وُجد كيف يكون، وإن سبق في علمه أنه لا يكون؛ لإحاطة علمه بكل شيء، فهو يعلم أن أبا لهب لم يؤمن، ويعلم لو آمن أيكون إيمانه تاماً أو ناقصاً مثلاً، والآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً، من ذلك: أن الكفار إذا عاينوا القيامة ورُفع عنهم الغطاء، وشاهدوا الحقائق تمنوا الرد إلى الدنيا مرة أخرى ﴿فَقَالُوا يَلَيْلْنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: الآية ٢٧] وفي القراءة الأخرى<sup>(١)</sup>: ﴿وَلَا تُكذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ وهذا الرد إلى الدنيا الذي تمنوه الله عالم بعلمه الأزلي أنه لا يكون، ومع علمه بأنه لا يكون فهو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٨].

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله خَلَفَهُمْ عنها لحكمة وإرادة إلهية كما قال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَعَدَّوْا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: الآية ٤٦] ومع كون خروجهم لا يكون هو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا حَبَالًا وَلَا وُضِعُوا لِلنَّاسِ أَدْبَارًا﴾ [التوبة: الآية ٤٧]. ونظائر هذا كثيرة في القرآن، فعلم الله محيط بكل شيء. و (الفعل) صيغة مبالغة.

وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ فالعليم والحكيم من أسمائه (جل وعلا) وكلاهما تتضمن صفة من صفاته (جل وعلا)؛ لأنه حكيم عليم. قال بعض العلماء: الحكيم لأنه حكيم في أقواله وأفعاله

(١) مضى عند تفسير الآية (٢٨) من سورة الأنعام.

وتشريعاته، فلا يقول إلا ما هو في غاية الإحكام، ولا يفعل إلا ما هو في غاية الإحكام ولا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا يجازي بالشر إلا الشر، ولا بالخير إلا الخير. وكان بعض العلماء يقول: الحكمة هي العلم النافذ الذي يعصم الأقوال والأفعال أن يعتربها الخلل.

وهي في الاصطلاح: إيقاع الأمور في مواقعها ووضعها في مواضعها<sup>(١)</sup>، ولا تتم الحكمة إلا بالعلم، فلا تتم الحكمة إلا بتمام العلم، وفي قدر ما يكون في العلم من النقص يكون في الحكمة؛ لأنك ترى الحاذق القَلْبَ البصير يعمل الأمر يظن أنه في غاية الإحكام، وغاية الإتقان، وأنه وضعه في موضعه، وأوقعه في موقعه، ثم ينكشف الغيب بعد ذلك أن فيه هلاكه أو ضرراً عظيماً عليه فيندم ويقول: ليتني لم أفعل، ولو فعلت لكان كذا، كما قال<sup>(٢)</sup>:

لَيْتَ شِعْرِي وَأَيْنَ مَنِّي لَيْتُ      إِنَّ (لَوْ) وَإِنَّ (لَيْتاً) عِنَاءُ  
وفي الحديث: إن (لو) تفتح الباب للشيطان<sup>(٣)</sup>. قال الشاعر<sup>(٤)</sup>:

أَلَمْ عَلَى (لَوْ) وَلَوْ كُنْتُ عَالِماً      بِأَذْنَابِ (لَوْ) لَمْ تَفْتِنِي أَوْائِلُهُ  
والله وحده (جل وعلا) لا يجري عليه لو فعلت كذا لكان أصوب؛ لأنه عالم بخفايا الأمور، وما تنكشف عنه الغيوب،

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من هذه السورة.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

وما تجري به الأقدار، فلا يجري عليه شيء من ذلك، فلا يفعل فعلاً إلا وهو في غاية الإحكام، ولا عملاً ولا تكليفاً ولا جزاءً إلا هو في غاية الحكمة، والوضع في الموضع، والإيقاع في الموضع؛ ولذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ وهذان الوصفان من أسمائه (جل وعلا) من أعظم ما يستدعي الإنسان إلى أن يطيع ربه ولا يعصيه، وأن يذكره ولا ينساه، فلأن كونه عليمًا تعرف به أن علمه المحيط بكل شيء يقتضي أنه لا يدعوك إلا لما لك فيه الخير والعواقب الحسنة الجميلة؛ لأنه يعلم عواقب الأمور، وما تؤول إليه، وما تنكشف عنه الغيوب، وما تجري به الأقدار، فلا يأمرك إلا بما هو خير مؤكد بلا شك وبكل يقين، وكونه حكيماً يدل على أنه لا ينهاك إلا عن شر، ولا يأمرك إلا بخير، فإن كان مبالغاً في الحكمة والعلم كان ذلك مدعاة لأن يتبع في كل ما يأمر به وكل ما ينهى عنه؛ لأن علمه يعلم به أنه ما يدعو إليه خير، وما ينهى عنه شر، وحكمته يفهم منها أنه لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> أنك لا تكاد تنظر ورقة واحدة [من المصحف الكريم إلا وجدت فيها إشارة إلى هذا الواعظ الأعظم، والزاجر الأكبر مما يبعث العبد على الإحسان والمراقبة في جميع أحواله وأعماله، وقد بين الله (جل وعلا) أن الغاية والحكمة التي]<sup>(٢)</sup> / خلق الله من أجلها الخلق هي أن يتليهم، أي: يختبرهم. [ب/٩]

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ زيادة يتم بها الكلام.

أيهم أحسن عملاً، كما قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٧] وقال في أول سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] ولم يقل: أكثر عملاً، فإذا عرف العبد أنه خلق لأجل أن يُختبر في إحسان العمل كان حريصاً على الحالة التي ينجح بها في هذا الاختبار؛ لأن اختبار رب العالمين يوم القيامة من لم ينجح فيه جُرَّ إلى النار، فعدم النجاح فيه مهلكة، وقد أراد جبريل (عليه السلام) أن ينبه أصحاب رسول الله ﷺ على عظم هذه المسألة وشدة تأكدها<sup>(١)</sup> فقال للنبي ﷺ في حديثه المشهور: يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - أخبرني عن الإحسان؟ أي: وهو الذي خلق الخلق من أجل الاختبار فيه، فبين له النبي ﷺ أن طريقه الوحيدة هي هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم، الذي هو طريق المراقبة والعلم فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(٢)</sup>.

وقد قدمنا ضرب العلماء مراراً<sup>(٣)</sup> مثلاً لهذا بأن الحاضرين أمام ملك لا يُنتهك حماه، شديد العقاب لمن انتهك حرمانه، لا يقدر أحد منهم أن يفعل شيئاً يكرهه وهو ناظر إليه!! ورب السموات والأرض

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

مطلع على ما يسره خلقه، ومع هذا فإنهم لا حياء عندهم ولا ماء في وجوههم، لا يستحون ممن خلقهم (جل وعلا) وهو معهم أين ما كانوا، مراقب على خطرات قلوبهم وجميع أعمالهم. فعلى العاقل أن ينتبه لهذه الآيات، ويعلم أن ربه حكيم عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦] فيعلم أن ربه ناظر إليه مطلع عليه، فلا يفعل أمام ربه إلا ما يرضي ربه (جل وعلا)، أما أن يبارز ربه بالمعاصي بوجه لا حياء فيه ولا ماء فهذا مما لا ينبغي؛ ولذا يقول (جل وعلا) بعد كل أمر ونهي: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي بمعناها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير حمزة وحده: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِمْ﴾ بفتح الواو، وقرأه من السبعة حمزة وحده: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ بكسر الواو<sup>(١)</sup>. والتحقيق أن الولاية والولاية معنيان صحيحان، ولغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان، فما يذكر عن الأصمعي من أنه يقول: «إن قراءة حمزة خطأ». هو الذي أخطأ فيه<sup>(٢)</sup>، أما قراءة حمزة فهي قراءة صحيحة، ولغة معروفة فصيحة،

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٤.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٦٤٠).

فالولاية والولاية كالدلالة والدلالة، فهما لغتان عربيتان وقراءتان سبعيتان فصيحتان .

وكان المسلمون في أول الإسلام يتوارثون بالهجرة والمؤاخاة دون القرابات؛ لأن النبي ﷺ لما نزل المهاجرون بالأنصار والمهاجرون فقراء آخى بين المهاجرين والأنصار، فصاروا يتوارثون بتلك الأخوة دون القرابات، فإذا مات واحد منهم ورثه أخوه الذي آخى النبي ﷺ بينه وبينه دون قرابته، وكان الذين لم يهاجروا لا يرث لهم في إخوانهم الذين هاجروا؛ لأنها كانت بالهجرة والمؤاخاة، ونسخ الله - تعالى - ذلك بقوله: ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] كما سيأتي إيضاحه .

ومعنى الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ هذه أولاً في المهاجرين، الله (جل وعلا) كأنه قسم المؤمنين طوائف، طائفة هم المهاجرون ذكرهم بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا ﴾ آمنوا بالله ورسوله وهاجروا أوطانهم وديارهم وأموالهم في سبيل الله (جل وعلا) وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم؛ لأنهم جعلوا أموالهم في مؤن الجهاد من شراء السلاح، والمراكب للقتال، ومؤن القتال، وجاهدوا بأنفسهم حيث عرّضوها للموت وللخطر في الجهاد، كل هذا في سبيل الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ﴾ الهجرة كانت هجرة متعددة متنوعة أولها الهجرة إلى الحبشة - وقد هاجروا إلى الحبشة مرتين - ثم الهجرة إلى المدينة، وكانت الهجرة إلى المدينة واجبة، وكان الذي أسلم ولم يهاجر كالذي يسلم ويبقى في البوادي من الأعراب لا يرث من أخيه المسلم المهاجر شيئاً، وكان الذين أسلموا ولم يهاجروا لا نصيب لهم في الغنائم، ولا في الخمس، ولا في

شيء مما عند المسلمين، وليس لهم على المسلمين من النصر إلا إن استنصروهم على عدو في الدين خاصة كما سيأتي إيضاحه .

الطائفة الثانية: هم الأنصار، أهل المدينة، الذين كانوا قبلهم .

الطائفة الثالثة: هم الذين هاجروا بعد ذلك، فهم مهاجرون وأنصار وطائفة جاؤوا بعد ذلك كما سيأتي تفاصيله وإيضاحه؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بالله ورسوله وبكل ما يجب به الإيمان ﴿وَهَاجَرُوا﴾ هاجروا أوطانهم وأموالهم وديارهم . والمهاجرة: هجر الشيء أصله المباحة منه . وقد هاجروا أولاً إلى الحبشة، وثانياً إلى المدينة . ثم إن هذه الهجرة التي كان بها التوارث ولا يقبل من أحد إلا أن يفعلها نُسخت بفتح مكة، وقال فيه النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»<sup>(١)</sup> .

والتحقيق أن الهجرة لا تنقطع أبداً، إلا أن الهجرة المخصوصة التي كانت إلى النبي ﷺ وأصحابه بالمدينة هي التي انقطعت بفتح مكة لانتشار الإسلام في جزيرة العرب، أما الهجرة التي لا تنقطع فهي أن كل إنسان تُعْرَضُ له في دينه، وصار لا يقدر على إقامة شعائر دينه في محل فواجب عليه بإجماع العلماء أن ينتقل من هذا المحل، ويبدل في ذلك كل مجهود حتى يصل إلى محل يتمكن فيه من إقامة شعائر دينه، وهذه الهجرة التي لا تنقطع . والمهاجر الحقيقي هو من

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب المبايعه بعد فتح مكة على الإسلام، حديث رقم: (١٨٦٤)، (١٤٨٨/٣)، من حديث عائشة (رضي الله عنها) مرفوعاً، وقد أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، حديث رقم: (٣٨٩٩)، (٢٢٦/٧) موقوفاً على ابن عمر، وأطرافه: (٤٣٠٩)، (٤٣١٠)، (٤٣١١) .

هجر ما نهى الله عنه ورسوله كما هو معلوم. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] مفعول (آووا) ومفعول (نصروا) كلاهما محذوف لدلالة المقام عليه. والمعنى: آووا الذين هاجروا إليهم وهم النبي ﷺ وأصحابه ونصروهم. وهؤلاء الذين آووا ونصروا هم الأنصار أبناء قَيْلَة، الذين كانوا من سكان المدينة، الذين هاجر إليهم النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿ءَاوَأُوا﴾ العرب تقول: آواه يؤويه إيواءً إذا جعل له مأوى ينضم إليه. أي: جعل له مسكناً ومنزلاً يسكن إليه؛ لأنهم أسكنوهم في ديارهم، وشاطروهم أموالهم، وهيؤوا لهم كل أسباب الراحة، وذلك معنى إيوائهم لهم. ونصروهم، النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم. أي: أعانوهم على أعدائهم حتى تمكن الإسلام وانتشر وفتحت مكة، وفتحت جميع جزيرة العرب، وانتشر بعد ذلك الإسلام في أقطار الدنيا. ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا﴾ والمعنى: إن المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض. فعبر عن المهاجرين بلفظ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وعبر عن الأنصار بـ ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا﴾ لأنهم آووا النبي ﷺ وأصحابه ونصروهم على أعدائهم. ﴿أُولَئِكَ﴾ أصل قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ، والمبتدأ وخبره خبر المبتدأ الأول، فلما دخلت (إن) صار المبتدأ الأول اسمها، والمبتدأ الأخير وخبره خبر (إن) كما هو معروف لا يخفى. هذا معنى ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. معناه: أن المهاجرين أولياء الأنصار، والأنصار أولياء المهاجرين، فبعض المهاجرين أولياء المهاجرين والأنصار، وبعض الأنصار أولياء

المهاجرين والأنصار، فهم أولياء بعضهم على بعض. وكانت هذه الولاية يتوارثون بها دون غيرهم، وهذه الولاية ولاية نصر ومعاونة ومساعدة وميراث تعم ذلك كله. وهذا معنى قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الأولياء جمع ولي، والولي: كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك تسميه العرب ولياً<sup>(١)</sup>؛ ولذا كان الله ولي المؤمنين ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنهم يوالونه بالطاعة ويواليهم بالجزاء والمغفرة، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض. وهذا معنى قوله: ﴿أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

والأولياء جمع الولي، وقد تقرر في فن التصريف أن (الفعل) بمعنى اسم الفاعل يطرد جمعه على (فُعَلَاءَ) إلا إذا كان معتل اللام أو مُضَعَّفًا فينقاس جمع تكسيره على (أَفْعِلَاءَ)<sup>(٢)</sup> فمثاله في المعتل: ولي وأولياء، وتقي وأتقياء، وسخي وأسخياء، وشقي وأشقياء، ونبي وأنبياء. ومثاله في المُضَعَّف: شديد وأشداء، وحبيب وأحباء. وما جرى مجرى ذلك.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ التنوين في قوله ﴿بَعْضٍ﴾ تنوين عوض، عوض من الإضافة. أي: بعضهم أولياء بعضهم. فحذف المضاف إليه وعوض منه التنوين، ومعلوم أن من أقسام التنوين ما يسمى «تنوين العوض» سواء كان عوضاً عن حرف، أو عن كلمة، أو عن جملة كما هو معروف في محله. هذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا على أقسام: منهم الذين يرجعون إلى قبائلهم في البادية من الأعراب، ومنهم من يكون في أهل مكة، وهؤلاء الذين في أهل مكة منهم من يؤمن ولم ينزل بين أظهر الكفار اختياراً كالذي وقع ممن ذكرنا في سورة الأنفال، وهم العاص بن نبيه، والحارث بن زمة بن الأسود، وعلي بن أمية، وأضرابهم الذين نزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا وَبَّيْتُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١٧). ثم إن الله استثنى منهم المستضعفين الذين لا حيلة لهم فعذرهم فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (١٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (١٩). [النساء: الآيات ٩٧ - ٩٩]. كان ابن عباس يقول: أنا من المستضعفين من الولدان، وأمي من المستضعفات من النساء<sup>(١)</sup>. قبل هجرتهم، أما الذين أسلموا ورجعوا إلى ديارهم في البادية كأبي ذر وأمثاله ممن أسلموا، ثم رجعوا ولم يهاجروا، بل بقوا في البادية فهؤلاء لا يرثون إخوانهم المهاجرين، بل يرثهم قبلهم إخوانهم من الأنصار والمهاجرين، وليس لهم في غنيمة المسلمين ولا في خمس الغنائم شيء، إلا أنهم يحكم لهم بحكم الإيمان، وإذا استنصروا المسلمين استنصار دين خاصة فعليهم أن ينصروهم، إلا إذا استنصروهم على من بينهم وبينهم مهادنة وعهود كما يأتي تحريره قريباً إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَائِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾

قال بعض العلماء: الولاية المنفية هنا هي ولاية الميراث خاصة، وهو مروى عن ابن عباس<sup>(١)</sup> وجماعة من الصحابة فمن بعدهم.

وقال بعض العلماء: هي جميع الأنواع: الموالاة من الميراث والمعاناة.

والتحقيق: أنها عامة إلا ما استثني منها وهو النصر الديني خاصة؛ لأن الله استثناه بقوله: ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ هذا الذي بقي من ولايتهم مع عدم هجرتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ وقد بين عذر المستضعفين وعدم عذر الذين كانوا على قدرة وبقوا بين أظهر الكفار المحاربين للنبي ﷺ حتى يهاجروا.

ثم قال: ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾. الاستنصار طلب النصر، وقد تقرر في علم العربية: أن من معاني السين والتاء: الطلب. استغفر: طلب المغفرة، واستطعم: طلب الطعام، واستسقى: طلب السقيا، واستنصر: طلب النصر، ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ أي: طلبوا نصركم في الدين.

قوله: ﴿فِي الدِّينِ﴾ يدل على أنهم لو استنصروهم نصر قومية وعصبية أنهم ليس عليهم أن ينصروهم، وإن المناصرة إنما هي في الدين، فلا مناصرة في العصبيات، ولا في القوميات، ولا في الأغراض الفاسدة، وإنما المناصرة في الله، وفي دين الله (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿فِي الدِّينِ﴾ والمراد بالدين: دين الإسلام كما قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: الآية ١٩]،

(١) ابن جرير (٧٨/١٤) من طريق علي بن أبي طلحة.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ عِزَّ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥]. وقد بين النبي ﷺ في حديث جبريل أن الدين شامل للإيمان والإحسان والإسلام حيث سأله عن الإيمان وفسره له، والإسلام وبيّنه له، والإحسان كذلك. ثم قال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»<sup>(١)</sup>. فعلم من قوله: «يعلمكم دينكم» أن اسم الدين شامل لكل من الإحسان والإسلام والإيمان كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ أَسْتَضِرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ أي: فواجب عليكم نصرهم. أي: إعاتتهم الإعانة الدينية لا الإعانة العصبية القومية فذلك لا يكون؛ لأن الإعانات والانتصارات إنما هي في سبيل الله، وعلى كتاب الله، لا في سبيل الشيطان، ولا على سبيل العصبية وقضايا الجاهلية الأولى كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ الجار والمجرور في قوله: ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ يتعلق بمحذوف، إلا إن استنصروكم على قوم فلا تنصروهم على قوم بينكم وبينهم ميثاق.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(٢)</sup> أن لفظ القوم يختص في الوضع العربي بالذكور دون الإناث، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾ [الحجرات: الآية ١١] فعطفه النساء على القوم في آية الحجرات هذه يدل على أن القوم لا يتناول النساء وضعاً، ومثل الآية الكريمة قول زهير وهو عربي جاهلي قح<sup>(٣)</sup>:

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

فعطفت النساء على القوم فدل على عدم دخولهن فيهم، وقد دل القرآن العظيم على أن المرأة قد تدخل في اسم القوم بحكم التبع إذا اقترن المقام بما يدل على ذلك، كقوله في ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [٤٣] [النمل: الآية ٤٣] وما جرى مجرى ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾.

المراد بالميثاق: المهادنة والمعاهدة، وأصل الميثاق في لغة العرب: العهد المؤكد<sup>(١)</sup>، فكل عهد كان مؤكداً تسميه العرب ميثاقاً. وعلى هذا فكل ميثاق عهد، وليس كل عهد ميثاقاً. وياء الميثاق مبدلة من واو، ووزنه بالميزان الصرفي (مِفْعَال) وفاؤه واو، وأصله: (موثاق)<sup>(٢)</sup> كميعاد من الوعد، وميزان من الوزن، وميثاق من الوثوق؛ ولذا يُصَغَّرُ على (مُوَيْثِق) لأن التصغير يرد العين إلى أصلها. ويُجْمَع جمع التكسير على (مِثَاق) على القياس. وما سمع عن العرب من تكسيره على (مِثَاق) كقول عياض بن درة الطائي<sup>(٣)</sup>:

حِمَى لَا يُحَلِّ الدَّهْرَ إِلَّا بِأَذْنَانَا وَلَا نَسْأَلُ الْأَقْوَامَ عَقْدَ الْمِثَاقِ

فهو سماع يحفظ ولا يقاس عليه؛ لأنه اعتد بالعارض هنا على غير القياس. وهذا معنى قوله: ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾.

(١) مضى عند تفسير الآية (١٦٩) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢٧٣.

(٣) البيت في الخصائص (١٥٧/٣)، اللسان (مادة: وثق) (٣/٨٧٦).

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٧٢) يعني: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهذا هو الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي كنا نتحدث عنه الآن ونخبر بكثرتة في القرآن العظيم لشدة عظم موعظته وزجره لمن كان له قلب. وهذا معنى قوله: ﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢].

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ [الأنفال: الآيات ٧٣ - ٧٥].

يقول الله (جل وعلا): ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (٧٣). هذه الآية الكريمة من الآيات العظام التي يعتبر بها؛ لأن ما ذكره الله (جل وعلا) فيها وما حذر منه من الفتنة والفساد الكبير إن لم يوالي المسلمون بعضهم بعضاً، ويقطعوا موالاة الكفار، ويتركوا الكفار بعضهم يوالي بعضاً، ما حذر به من أنهم إن لم يحافظوا على صدق الموالاة بينهم ومقاطعة أعدائهم تقع في الأرض الفتنة والفساد الكبير، فهو واقع منتشر الآن، يدل على عظم هذا القرآن العظيم وأنه كلام رب العالمين، وأن تحذيره حق، وترغيبه حق، والله في هذه الآيات من أخريات سورة الأنفال بيّن أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قال في المهاجرين والأنصار: ﴿ أَوْلَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ وهم في ذلك الوقت سادات المسلمين جميعاً في أقطار الدنيا؛ لأنهم هم الأغلبية والكثرة التي فيها رسول الله ﷺ.

ثم أتبع ذلك بأن الكفار بعضهم أولياء بعض، ويُؤخذ من هذا — من قطع الولاية أولاً بين الكفار والمؤمنين — أنه لا يرث كافر مسلماً ولا مسلم كافراً؛ لأن الميراث لا بد له من ولاية بين الوارث والموروث، وقد قطع الله الولاية بينهما، وما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة جاء مصرحاً به في الحديث الصحيح عنه (صلوات الله وسلامه عليه) حيث يقول: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر»<sup>(١)</sup> وهذا لا نزاع فيه بين المسلمين، دل عليه عموم هذه الآيات الكريمة، وصرح به النبي ﷺ. ومن هذه الموالات قال بعض العلماء<sup>(٢)</sup>: منها ولاية النكاح، فالمرأة المؤمنة لا يلي عقدها أبوها الكافر؛ لأن الله قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين، والله يقول: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٤١] وقد قدمنا أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب<sup>(٣)</sup>.

وكذلك قال العلماء: لو كانت كافرة ذمية وأراد مسلم تزويجها ولها ولي ابن عم أو أب من المسلمين فإنه لا يتولى عقد نكاحها ولو للمسلم، لانقطاع الولاية بين الكفار والمسلمين، وإنما يزوجه أقرباؤها من أهل دينها أو أساقفتهم. وشذ في هذه المسألة أصبغ — أحد أصحاب مالك بن أنس رحمه الله — فقال: إن الكافرة إذا كان لها ولي مسلم يزوجه من مسلم، قال: فعقد المسلم لها خير للمسلم

(١) أخرجه البخاري في الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، حديث رقم: (٦٧٦٤)، (٥٠/١٢)، ومسلم في الفرائض، في فاتحته، حديث رقم: (١٦١٤)، (١٢٣٣/٣).

(٢) انظر: القرطبي (٥٧/٨).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

من عقد الكافر<sup>(١)</sup>. وهذا القول ليس بصواب؛ لأنه لا ولاية بين مسلم وكافر البتة، والكفار بينهم ولاية الكفر، ولاية الشيطان والكفر، كما قال الله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

وهذه الآية تدل على أن الكفار بعضهم ولي بعض، وظاهرها أن الكافر يرث الكافر ولو اختلفت مللها من الكفر، وبهذا الظاهر تمسك من قال يرث النصراني اليهودي واليهودي النصراني، كما يتوارث غيرهم من أهل الملل. والصواب أنه لا يتوارث أهل ملتين للحديث الوارد في ذلك عن النبي ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين»<sup>(٢)</sup> وهو الأصوب، وهو أخص؛ لأنه يبين المراد بعموم هذه الآية الكريمة.

(١) انظر: القرطبي (٥٧/٨).

(٢) روى هذا الحديث غير واحد من الصحابة (رضي الله عنهم)، ومنهم:

١ - جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما)، عند الترمذي في الفرائض، باب لا يتوارث أهل ملتين، حديث رقم: (٢١٠٨)، (٤/٤٢٤)، وهو في صحيح الترمذي (١٧١٢)، الإرواء (١٢١/٦، ١٥٥).

٢ - عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما)، عند أحمد (١٧٨/٢، ١٩٥)، وأبي داود في الفرائض، باب هل يرث المسلم الكافر، حديث رقم: (٢٨٩٤)، (٨/١٢٢)، وابن ماجه في الفرائض، باب ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك، حديث رقم: (٢٧٢٩)، (٢/٩١٢)، والدارقطني (٤/٧٢، ٧٥)، وابن الجارود (٣/٢٣٢)، وانظر: صحيح أبي داود (٢٥٢٧)، وصحيح ابن ماجه (٢٢٠٧)، الإرواء (١٢٠/٦).

٣ - أسامة بن زيد (رضي الله عنهما)، عند الحاكم (٢/٢٤٠)، وانظر: الإرواء (١٢٠/٦).

٤ - عن الشعبي مرسلًا، عند الدارمي (٢/٢٦٧).

وساق الدارمي في هذا المعنى جملة من الآثار عن بعض الصحابة (رضي الله تعالى عنهم).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مبتدأ، و ﴿بَعْضُهُمْ﴾ مبتدأ آخر، و ﴿أُولَئِكَ﴾ خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول كما هو واضح. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> أن مادة الكاف والفاء والراء (كَفَرَ) أن معناها في لغة العرب التي نزل بها القرآن: الستر والتغطية، فكل شيء غطيته وسترته فقد كفرته، وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور مبتذل في كلامهم جداً، ومنه سمت العرب الليل كافراً؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها عن العيون بظلامه، ومنه قول لبيد بن ربيعة (رضي الله عنه) في معلقته<sup>(٢)</sup>:

حتى إذا أَلَقْتُ يَدَا فِي كَافِرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الشُّغُورِ ظَلَامُهَا  
ومن هذا المعنى قول لبيد أيضاً في معلقته هذه<sup>(٣)</sup>:

يعلو طريقة متنها متواترٌ في ليلة كَفَرَ النجومَ غَمَامُهَا  
يعني: ستر النجوم وغطاها غمامها. هذا أصل المادة، وتكفير السيئات من هذه المادة؛ لأن الله يغطيها ويسترها بحلمه حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها، وإنما قيل للكافر (كافر) لأنه يغطي أدلة التوحيد بجحوده مع وضوحها، ويغطي نعمة الله ويسترها كأنه ليس عليه إنعام من الله حيث يأكل رزقه ويتقلب في نعيمه ويعبد غيره.

وقوله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ هي (إن) الشرطية أدغمت في (لا) النافية. والمقرر في علم العربية: أن

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(إن) الشرطية التي تجزم فعلين إن جاءت بعدها (لا) النافية لا تمنع عملها من الجزم، فهي (إن) الشرطية، وفعل الشرط هو قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ مجزوم بحذف النون، وجزاء الشرط هو قوله: ﴿تَكُنْ فِتْنَةً﴾ والتحقيق: أن (تكن) أنه هنا تام، وأن (فتنة) فاعله، وليس من الأفعال الناقصة الناسخة كما هو الصواب، والضمير في قوله: ﴿تَفْعَلُوهُ﴾ أما الضمير المرفوع الذي هو الواو فهو عائد إلى النبي ﷺ وأصحابه، وهو يتناول جميع المسلمين إلى يوم القيامة. وأما الضمير المنصوب فهو ضمير الواحد الغائب - أعني الهاء في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ - فلعلماء التفسير في مرجع هذا الضمير أقوال معروفة<sup>(١)</sup> سنذكر طرفاً منها ونبيّن الصواب فيها - إن شاء الله - : قال بعض العلماء: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ راجع إلى الميراث المفهوم من قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لأنه يدخل فيها ولاية الميراث، إلا تركوا الكافر يرث الكافر، والمسلم يرث المسلم دون الكافر تكن فتنة. وهذا مروى عن ابن عباس<sup>(٢)</sup> وغيره، ومعه أقوال شبهه.

والتحقيق الذي لا شك فيه - إن شاء الله - أن الضمير - الهاء - في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ عائد إلى ما ذكره الله (جل وعلا) من ولاية المسلمين بعضهم بعضاً ومقاطعتهم للكفار، وولاية الكفار بعضهم بعضاً، وقد جرت العادة في كلام العرب الذي نزل به القرآن، وفي القرآن العظيم، أنه يرجع الضمير أو ترجع الإشارة إلى أشياء متعددة ويرجع الضمير إليها بصيغة الأفراد<sup>(٣)</sup>، كأنه يعني بالضمير

(١) انظر: الدر المصون (٥/٦٤١).

(٢) أخرجه ابن جرير (٨٦/١٤) من طريق علي بن أبي طلحة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

أي: ما ذكر من الأشياء المتعددة من اثنين فصاعداً، وهذا موجود في الضمائر، وفي كلام العرب، ولما أنشد رؤبة بن العجاج في رجزه<sup>(١)</sup>:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقٌ      كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلَّيْعُ الْبَهَقِ

قال له رجل: لِمَ قلت: «كأنه» إذا كنت تعني الخطوط فالصواب أن تقول: «كأنها» وإذا كنت تعني السواد والبلق فهلا قلت: «كأنهما» فأبي وجه لقولك: «كأنه»؟ قال: كأنه أي: ما ذكر. ومن أصرح الأدلة القرآنية في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَنَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ (به) أي: بجميع ما ذكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم كما لا نزاع فيه. وهذا معنى معروف في كلام العرب، وقد قدمنا بعض شواهد في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾<sup>(٢)</sup> أي: بين ذلك المذكور من الفارض والبكر. ومن نظيره في الإشارة قول ابن الزبير السهمي<sup>(٣)</sup>:

إِن لِلْخَيْرِ وَاللِّشْرِ مَدَى      وَكِلَا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبْلُ  
أي: كلا ذلك المذكور.

والمعنى: إلا تفعلوا ذلك الذي ذكرنا من موالة بعضهم لبعض موالة صدق، ومقاطعتكم للكفار مقاطعة كاملة، وترك الكفار يوالي بعضهم بعضاً إلا تفعلوا هذا ﴿تَكُنْ﴾ أي: تقع ﴿فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) راجع الموضوع السابق، وكذا ما ذكره عند تفسيره للآية (٦٩) من سورة البقرة.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وهذا المشاهد الآن، فإن من يسمون بالمسلمين تولوا الكفار وقاطعوا المسلمين، وصار هذا الكافر وهذا المسلم يزعمان أنهما أَخَوَان، وأنهما تجمعهما العصبية الفلانية، أو القومية الفلانية، وأن هذه الدولة الكافرة صديقة، وأن هذين الشعبين شقيقان وما جرى مجرى ذلك.

فلم يفعلوا ما أمر الله بأن يفعلوه فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير. ومن عَظُم هذه الفتنة اختلاط الحابل بالنابل؛ لأن المسلمين إذا صادقوا الكفار أعانواهم على أذية المسلمين وقتلهم وكل ما يريدونه بهم، وأطلعوهم على عوراتهم، إلى غير ذلك، فانتشر في الدنيا الفساد العريض العظيم، وانتشرت الفتنة، وهذا مشاهد يجب على المؤمنين أن يعتبروا بهذا فيقطعوا ولايتهم من جميع الكفار، ويصدقوا ولاية بعضهم لبعض لئلا تتمادى بهم هذه الفتنة والفساد الكبير.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> أن الفتنة جاءت في القرآن لمعاني معروفة، أشهر معاني الفتنة: أن أصل الفتنة هي وضع الذهب في النار ليُمْتَحَن بسبكه في النار: أخالص هو أم زائف؟ تقول العرب: فتنت هذا الذهب. أي: جعلته في النار وأذبتة فيها؛ لأنه إذا ذاب تبين أخالص هو أم زائف؟ ولذا صار يأتي في القرآن وفي كلام العرب إطلاق اسم الفتنة على مطلق الوضع في النار، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ﴾ ﴿١٣﴾ [الذاريات: الآية ١٣] أي: يوضعون فيها ويحرقون. ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى:

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [البروج: الآية ١٠] يعني: أحرقوهم بنار الأخدود. هذا معنى من معاني الفتنة.

ومعناها الثاني: أن الفتنة تطلق على الاختبار، وهذا أشهر معانيها، وهو في الحقيقة راجع إلى الأول؛ لأن وضع الذهب في النار ليختبر بالنار أخالص هو أم زائف؟ وإطلاق الفتنة على الاختبار إطلاق مشهور مستفيض في القرآن العظيم وفي كلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدُ أَتَقَرُّمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لَنُفِنَنَّهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن: الآيتان ١٦، ١٧] ﴿ وَنَبَلُّوكُم بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فَتَنَّا ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥] أي: اختباراً وامتحاناً. إلى غير ذلك من الآيات.

وإطلاق الفتنة الثالث: تطلق الفتنة على نتيجة الاختبار بشرط كونها سيئة خاصة؛ لأن المختبر إذا كانت نتيجة اختباره سيئة كان ضالاً؛ ولذا تطلق الفتنة على الكفر والضلال، يقولون: فتنه عن دينه. أي: أضله. وهذا مفتون. أي: ضال في دينه. ومنه بهذا المعنى: ﴿ وَقَبَلْنَاهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] أي: لا يبقى في الدنيا شرك على أصح التفسيرين؛ لأن قوله ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ﴾ غاية غيّا فيها القتال لثلا يكون في الدنيا شرك. وهذا بينه النبي ﷺ بياناً صريحاً صحيحاً في قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»<sup>(١)</sup> ﷺ.

قال بعض العلماء: جاء للفتنة إطلاق رابع في سورة الأنعام، وهو أنها أطلقت على الحجة. قال: ومنه قوله تعالى: ﴿ تَعَرَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٢٣﴾ وفي القراءة

الأخرى<sup>(١)</sup>: ﴿ ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: الآية ٢٣] فهذه الفتنة هي في الحقيقة المعنى الثاني من هذه المعاني التي ذكرنا، وهي نتيجة الاختبار إذا كانت سيئة؛ لأنه إذا اتصل الكافر بالمسلم، والمسلم بالكافر صار الكافر صديق المسلم، وصار المسلم صديق الكافر، فكل هذا ضلال مخالف لما جاء من الله، تتسبب عنه المحن والبلايا كما هو معروف.

وقوله: ﴿ وَفَسَادٌ ﴾ الفساد في لغة العرب هو ضد الإصلاح، فكل أمر ليس على وجهه الصحيح الذي هو إصلاح تسمية العرب فاسداً. ووصف هذا الفساد بالكبير لأنه ضياع دين، وضعف إسلام، وقوة كفار، وإطلاعهم على عورات المسلمين بواسطة من يصادقهم ويواليهم من المسلمين، إلى غير ذلك من البلايا. وقد بين الله (جل وعلا) قبل هذا آيات تبين هذه الآية، فبين أن موالاته الكافر للمسلم لا يرخص منها في شيء إلا بقدر ما يدفع الضرورة عند الخوف، ويكون ذلك باللسان لتفادي الخوف فقط، كما تقدم في قوله: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَةً ﴾ [آل عمران: الآية ٢٨] أي: تخافوا منهم خوفاً كما قاله بعض العلماء. وقد قدمنا أنه (جل وعلا) بين أن الذي يتولى الكفار اختياراً رغبة فيهم وفي دينهم أنه منهم، كما تقدم في قوله: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: الآية ٥١] فهذه الآيات الكريمة في القرآن العظيم وبالأخص هذه الآية من أخريات سورة الأنفال تبين للمسلم أنه تجب عليه مقاطعة الكافر والمباعدة منه، واعتقاد أنه حرب عليه، وقد

(١) مضت عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

جاءت أحاديث كثيرة تؤيد هذا المعنى، ففي بعض الأحاديث في رجل أخذ النبي ﷺ عند إيمانه قال: «وأن لا ترى نار مشرك إلا وأنت حرب عليه»<sup>(١)</sup> وفي الحديث الآخر: «لا تتراءى نار مسلم وكافر»<sup>(٢)</sup> فالعداوة يلزم أن تكون بين المسلمين والكفار / [كما [١٠/أ]] قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ [٣] ﴿ وَيَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴾ [الممتحنة: الآية ٤] هذا الذي ينبغي أن يسير عليه المسلمون ويتجنبوا هذه الفتن والفساد الكبير والبلايا التي طبقت الدنيا بسبب موالاته المسلم للكافر ومجافة المسلم للمسلم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: الآية ٧٣] والله ما فعلوه اليوم، والله إن في الدنيا اليوم لفتنة وفساداً كبيراً منتشراً.

(١) أخرجه عبد الرزاق (١١/٣٣٠ - ٣٣١)، وابن جرير (١٤/٨٢ - ٨٣) عن الزهري مرسلًا.

(٢) لفظ الحديث: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»، قالوا: يا رسول الله لم؟! قال: «لا تراءى ناراهما». أخرجه أبو داود في الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود، حديث رقم: (٢٦٢٨)، (٧/٣٠٣)، والترمذي في السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، حديث رقم: (١٦٠٤، ١٦٠٥)، (٤/١٥٥)، والنسائي في القسامة، باب القود بغير حديدة، حديث رقم: (٤٧٨٠)، (٨/٣٦)، وانظر: الإرواء (٥/٢٩ - ٣٣)، السلسلة الصحيحة (٢/٢٣٠).

(٣) في هذا الموضوع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

وقد تكون الفتنة والفساد الكبير بأسبابٍ أُخر غير هذا، وقد تقرر في فن الأصول أن جزاء الشرط يجوز أن يكون أعم من شرطه، لا مانع من ذلك، فلا يلزم أنه لا تكون فتنة وفساد كبير إلا من هذا، فقد تكون فتنة وفساد كبير لأسبابٍ أُخر، فإنك لو قلت مثلاً: إن بليت انتقض وضوؤك. لا يلزم من هذا أنه لا ينتقض وضوؤك إلا من البول، فقد تكون نواقضٍ أُخر غير هذا؛ ولذا قد يوجد الفتنة والفساد الكبير لأسبابٍ أُخر غير هذا المذكور؛ ولذا جاء في السنن وغيرهم من حديث أبي حاتم المزني (رضي الله عنه) وحديث أبي هريرة أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» في بعض روايات الحديث: «وفساد عريض» وفي بعضها: «وفساد كبير». قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» أو «فساد كبير»<sup>(١)</sup>.

(١) حديث أبي حاتم المزني أخرجه الترمذي في النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه وفزوجه، حديث رقم: (١٠٨٥)، (٣/٣٨٦)، والبيهقي (٧/٨٢)، والدولابي في الكنى (١/٢٥)، وانظر: السلسلة الصحيحة (١٠٢٢)، الإرواء (١٨٦٨).

وحديث أبي هريرة أخرجه الترمذي (الموضع السابق)، حديث رقم: (١٠٨٤)، (٣/٣٨٥)، وابن ماجه في النكاح، باب الأكفاء، حديث رقم: (١٩٦٧)، (١/٦٣٢)، والدورني في (جزء فيه قراءات النبي ﷺ) ص ١٠٣ - ١٠٤، والحاكم (٢/١٦٤، ١٦٥)، والخطيب (١١/٦١).

وانظر: الإرواء (٦/٢٦٦).

وهذا أيضاً يدل على أن الفتنة والفساد الكبير تتعدد أسبابها وهو كذلك، فإن للافتتان والفساد الكبير المنتشر في الدنيا أسباباً كثيرة، ومن أعظم تلك الأسباب وأبرزها: مقاطعة المسلم للمسلم وموالاته للكافر، فهذا مما لا ينبغي، وهو من الأسباب العظيمة؛ لأن الله يقول لنبيه: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: الآية ٩] فاللین للكفار والمحبة والمؤاخاة لهم ليست من شأن المسلمين، ولا من خلق النبي وأصحابه، فالله (جل وعلا) أثنى على محمد ﷺ وعلى أصحابه بأنهم لا يضعون اللين إلا في موضع اللين، ولا يضعون القسوة إلا في موضع القسوة، قال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ ليسوا بأصدقاء لهم ولا محبين ولا أولياء ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] هذه عادة المسلم أن يكون شديداً عظيماً على الكافر، رحيماً رفيقاً ذليلاً على المسلم، هذه عادة المسلمين وصفات المسلمين، وقد مدح الله بها قوماً في سورة المائدة حيث قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ — يعني لا يهتم بهم المسلمون لعدم صعوبتهم وذلهم وتواضعهم للمسلمين — ﴿أَعَزَّةٌ عَلَى الْكُفْرِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] أشداء، وقد صدق من قال<sup>(١)</sup>:

فما حَمَلَتْ من ناقةٍ فوق رَحْلِها أشد على أعدائِهِ من محمدِ

(صلوات الله وسلامه عليه)، فهو لا يوالي الكفار، بل هو ولي

المسلمين ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦]

= تنبيه: ورد في هذا المعنى أيضاً حديث عن ابن عمر (رضي الله عنهما)، وهو في

الكامل (١٧٢٨/٥)، والدولابي في الكنى (٢٧/٢).

(١) مضى عند تفسير الآية (١٩٩) من سورة الأعراف.

﴿ إِنَّمَا وَابِعِكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ الآية [المائدة: الآية ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات، فيجب علينا الاقتداء بالنبي ﷺ فنوالي المؤمنين ونلين لهم، ونرفق بهم، ونعادي الكفار ونكون أشداء عليهم؛ لأن الشدة في محل اللين خرق وحمق، واللين في محل الشدة خور وضعف، والصحيح أن يكون كل شيء في محله، وهذا في موضعه، وهذا في موضعه، كما لا يخفى، وهذا معنى قوله: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: الآية ٧٣].

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: الآية ٧٤] [شرع]<sup>(١)</sup> الله (جل وعلا) وبيّن للمؤمنين أن يكونوا أولياء للمؤمنين، والكفار بيّن أنهم أولياء الكفار، وأثنى على المهاجرين والأنصار؛ لأن بعضهم أولياء بعض، مدح المهاجرين والأنصار وزكاهم وهو المطلع على ضمائرهم وخبايا ما يضمرون، بيّن أن إيمانهم أنه إيمان حق لا شك فيه لا نفاق ولا ضعف، فأثنى عليهم ومدحهم مدحاً عظيماً من رب العالمين، قال: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ - بالله ورسوله وكل ما يجب به الإيمان - ﴿ وَهَاجَرُوا ﴾ - أوطانهم وأموالهم وديارهم - ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فسرناه بالأمس.

وهذه الصفات كله يُقصد بها المهاجرون الذين هاجروا إلى المدينة هذه، وهم النبي ﷺ وأصحابه الذين هاجروا معه رضي الله عنهم.

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

﴿وَالَّذِينَ آوَأُوا﴾ يعني: آوؤهم، قد قدمنا أن العرب تقول: «آواه يؤويه إيواء» إذا ضمه إليه وجعل له مأوى يأوي إليه، والمأوى: المسكن والمنزل؛ لأن الأنصار هيؤوا للمسلمين أمكنة ينزلون فيها وهيؤوا لهم كل ما يستعينون به، وأخى النبي ﷺ بينهم، كان يقول: «فلان أخو فلان». فيتوارثان بذلك الإخاء، وكان الأنصار يشاطرونهم أموالهم، وقد أخى ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف الزهري (رضي الله عنه) وسعد بن الربيع الأنصاري (رضي الله عنه)، ذكر بعض أهل المغازي والأخبار أن النبي لما أخى بينهما جاء سعد إلى عبد الرحمن وقال: أرخص ما عندي نعلاي، فهذه إحداهما، وأعظم ما عندي زوجتاي أنزل لك عن إحداهما، فإن تمت عدتها تزوجتها!! — وقد كان عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) وأغلب المهاجرين تعففوا واتجروا — فقال له عبد الرحمن بن عوف: أقرضني درهماً. فأقرضه درهماً فاتجر به، فراح وعنده درهمان، رد إليه درهماً واتجر بالثاني، فراح وعنده درهمان، ولم يزل يتجر حتى انتشر عليه المال وكان من أغنياء الصحابة<sup>(١)</sup> (رضي الله عنهم). فهم آوؤهم حيث هيؤوا لهم المساكن والأموال، وشاطروهم أموالهم، وأحسنوا إليهم كل الإحسان، كما في قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾... رقم: (٢٠٤٨)، (٢٨٨/٤)، وطرفه في: (٣٧٨٠)، عن عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه)، وأخرجه أيضاً عن أنس (رضي الله عنه) (الموضع السابق) برقم: (٢٠٤٩)، وأطرافه في: (٢٢٩٣)، (٣٧٨١، ٣٩٣٧، ٥٠٧٢، ٥١٤٨، ٥١٥٣، ٥١٥٥، ٥١٦٧، ٦٣٨٦).

[الحشر: الآية ٩] هذا ثناء الله ومدحه للمهاجرين والأنصار، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ﴾ الإشارة في قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ شاملة للمهاجرين والأنصار معاً، فالمهاجرون هم المعبر عنهم بـ ﴿ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والأنصار هم المعبر عنهم بقوله: ﴿ءَاوُوا وَنَصَرُوا﴾ أي: آووا النبي وأصحابه ونصروهم على أعدائهم، هؤلاء جميعاً ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ حق إيمانهم حقاً؛ لأنهم صدقوا إيمانهم بهجرتهم وجهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وبإيمانهم، وأولئك حققوه بإيوائهم ونصرتهم لله؛ لأن الأنصار قامت موقفاً عظيماً حيث تحملت عداوة جميع أهل الدنيا في نصره النبي ﷺ وأصحابه؛ ولذا قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ﴾ - هؤلاء - ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ بمعنى الكلمة الإيمان التام الذي هو لا قيل فيه ولا قال، بل هو الإيمان كما ينبغي.

وهذه من الآيات الدالة على تزكية الصحابة لا سيما المهاجرين والأنصار، ووصفهم بالعدالة وصحة الإيمان، فإذا روى لنا مهاجري أو أنصاري حديثاً فلا نقول: هل هذا عدل أو غير عدل؟؟ لأنه لا مزكي أعظم تزكية من الله، ولا تزكية أعظم من قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤] والله (جل وعلا) نوره بشأن المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم، ونوره بشأن جميع الصحابة وزكاهم في غير ما آية، فمن الآيات التي أثنى بها على المهاجرين والأنصار قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْكُمْ أُولُو الْأَرْحَامِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] وفي

قراءة ابن كثير: ﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾<sup>(١)</sup>. والمصحف الذي أرسله عثمان إلى مكة فيه: ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بذكر لفظه (من) وقراءة الجمهور والمصاحف التي أرسلت إلى الشام وإلى الكوفة والبصرة فيها: ﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بغير لفظه (من). فقوله: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ - لم يشترط فيهم شيئاً بل قال: - ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] - وهذه أعظم تزكية، والذين اتبعوهم - اشترط فيهم شرطاً وهو الإحسان؛ لأن قوله: ﴿يَا حَسَنِينَ﴾ اشترطه في خصوص الذين اتبعوهم، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مَنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا﴾ [الحديد: الآية ١٠] ثم قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ كلاً من جميع الصحابة ممن أنفق وقاتل قبل الفتح وبعده وعد الله الحسنى.

ومن هذه الآية الكريمة قال ابن حزم: يجب على كل مسلم أن يعتقد أن الصحابة كلهم في الجنة؛ لأن الله صرح بذلك ولا يخلف الله الميعاد حيث قال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مَنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا﴾ - ثم صرح في الجميع بوعد الصادق الذي لا يخلفه قال: - ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾<sup>(٢)</sup>. وقال (جل وعلا) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ٨] فزكاهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ثم ذكر الأنصار قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٨.

(٢) الإحكام ص ٦٦٤.

قَبْلَهُمْ ﴿ الدار: هي المدينة ﴿ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ أي: وانتهجوا الإيمان، فهو مفعول فعل محذوف دل المقام عليه<sup>(١)</sup> ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ قال جماعة من أهل العلم: إن المهاجرين أفضل من الأنصار؛ ولذا كان الأنصار لا يكون في صدورهم شيء من فضل المهاجرين عليهم، هكذا قاله غير واحد<sup>(٢)</sup>. ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: الآية ٩] ثم ذكر من يأتي بعدهم فقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر: الآية ١٠] ومن هذه الآيات أخذ مالك بن أنس (رحمه الله) إمام دار الهجرة أن الذين يسبون بعض أصحاب النبي ﷺ لا نصيب لهم في فيء المسلمين أبداً، وقال لبعضهم: هل أنتم من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله؟ قالوا: لا، لسنا من هؤلاء. قال: هل أنتم من الذين قال فيهم: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾؟ قالوا: لا، لسنا من هؤلاء. قال: وأنا أشهد أنكم لستم من الطائفة الثالثة التي قال الله فيها: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ فأنتم تسبون الصحابة وتلعنوهم، فلستم من جملة من جعل الله لهم شيئاً من المسلمين فلا شيء لكم البتة<sup>(٣)</sup>.

وهذه الآيات وأمثالها في القرآن تدل على أن الذين يسبون

(١) انظر: القرطبي (٢٠/١٨).

(٢) انظر: ابن كثير (٤/٣٣٧).

(٣) تقدم عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

بعض أصحاب النبي ﷺ أنهم ضلّال، منابذون لهدي الله، مخالفون لكتاب الله الذي هو آخر الكتب السماوية نزولاً من عند رب العالمين (جل وعلا) وهذا معنى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: الآية ٧٤].

قال بعض العلماء: (حقاً) مصدر<sup>(١)</sup>، أي: حق ذلك حقاً، أي: لما حققوه به من الإيمان والهجرة والجهد بالنفس والمال في سبيل الله، إلى غير ذلك من الصفات.

﴿هُم مَّغْفِرَةٌ﴾ المغفرة (مَفْعَلَةٌ) من الغفران، وأصل مادة الغين والفاء والراء (غفر) أصلها معناها الستر والتغطية أيضاً كمادة (الكفر) لأن الله يستر بحلمه وفضله ذنوب التائبين إليه حتى لا يظهر لها أثر يتضررون به<sup>(٢)</sup>.

﴿وَرِزْقٌ﴾ هو ما يرزقهم الله في الجنة.

وقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ كل شيء حسن مبالغ في الحسن والجمال تسميه العرب كريماً، وإنما وصف رزقهم بأنه كريم لأن ما في الجنة من الأرزاق كله كريم ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: الآية ٢٥] وأرزاق الجنة مبيّنة في القرآن العظيم من مآكلها ومشاربها وغير ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿هُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٤].

(١) انظر: القرطبي (٨/٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ  
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٥].

للعلماء أقوال في المراد بالظرف في قوله: ﴿ مِنْ بَعْدُ ﴾ فقوله:  
﴿ مِنْ بَعْدِ ﴾ ظرف منقطع من الإضافة مبني على الضم، وتقدير  
مضاهه هذا - المحذوف - فيه للعلماء أقوال متقاربة<sup>(١)</sup>:

قال بعض المحققين: أظهر الأقوال فيه أن المراد به: من بعد  
صلح الحديبية. وهذا القول له اتجاه لمن عرف تاريخ النبي ﷺ  
وأصحابه وتاريخ الهجرة وأهميتها؛ وذلك لأن النبي ﷺ كان عنده  
التشديد العظيم في الهجرة، فلا بد لمن آمن أن يهاجر وإلا لم تكن له  
ولاية عند المسلمين كما قدمناه في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا  
لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ [الأنفال: ٧٢] لأن البلاد كلها  
كانت بلاد حرب، والإيمان في المدينة، والذي أسلم إما أن يبقى في  
دار حرب وإما أن يروح إلى النبي ﷺ والمسلمين، فلما كان صلح  
الحديبية - وقد كان صلح الحديبية وقع في ذي القعدة من عام ست  
من الهجرة بإجماع المؤرخين - خرج النبي ﷺ معتمراً، وساق معه  
بعض البدن، وذلك في ذي القعدة من عام ست، فلما بلغ الحديبية  
سمع به المشركون فتعرضوا له، وقالوا: والله لا يقتل أبناءنا ببدر  
ويدخل علينا بلدنا ويطوف ببيتنا أبداً! فوقع ما وقع مما هو مشهور.  
﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [الفتح: ٢٥]

(١) انظر: القرطبي (٨/٨).

أي: وصدوا ﴿ أَلْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ﴾، وقد نزلت في قفوله من الحديدية سورة الفتح: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: الآية ١] نزلت في رجوعه من الحديدية كما قاله غير واحد، وقد وقع ما وقع، ولم يزالوا يرأسلونه ليردوه عنهم، أرسلوا له عروة بن مسعود سيد ثقيف، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو وأضرابهم، حتى انعقد بينه وبينهم الصلح على يد سهيل بن عمرو على المهادنة عشر سنين، وأغلظوا له في الصلح بأن من جاءه من قريش مسلماً رده إليهم، والذي جاء إلى قريش مرتداً عن الإسلام لا يردونه، وهذا معروف.

وقد كان النبي ﷺ قبلَ لهم هذه الشروط، وكتب وثيقة الصلح بينه وبينهم، وعقدها معه سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) - من بني عامر بن فهر من قريش (رضي الله عنهم) - وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اغتاض من تغليظ هذه الشروط، وقال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ ألسنا نحن الذين على الحق؟ كيف نرضى لهم بهذه الدنية؟! وأبو بكر يقول له: استمسك بغرز رسول الله ﷺ فهو أعلم منك. وكان هذا الصلح أول الفتح العظيم الذي فتح الله به على المسلمين؛ لأن النبي ﷺ يعلم ما فيه من المصلحة؛ لأنه لما وقعت الهجرة والمهادنة، وأمن الناس بعضهم بعضاً صار الصحابة يرجعون إلى قبائلهم ويبثون فيهم الإسلام، فانتشر في الناس دين الإسلام، حتى إن الكفار مكثوا سنتين لم ينقضوا العهد، وقد نقضوا العهد الذي أبرمه النبي ﷺ معهم في الحديدية؛ لأن بني بكر كانت بينهم وبين خزاعة دماء وحروب، ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ، وبنو بكر في عهد قريش،

فعدت بنو بكر على خزاعة، فأعانهم قريش عليهم بالسلاح، ونقضوا العهد بعد سنتين، وكان ذلك سبب غزوة النبي ﷺ لهم غزوة الفتح، ولم يمكثوا إلا سنتين؛ لأن صلح الحديبية وقع من ذي القعدة عام ست، وغزو النبي ﷺ لهم في فتح مكة وقع في رمضان عام ثمان، وهذا كله لا خلاف فيه بين العلماء والمؤرخين، فأقاموا سنتين، ونقضوا العهود، إلا أن هذا الصلح كان فتحاً عظيماً على المسلمين؛ لأن الصحابة انتشروا في قبائلهم، ووجدت الدعوة إلى الله طريقها، فاتصل المسلم بالكافر يدعو إلى الإسلام، فكثرت الإسلام في أقطار الجزيرة العربية، ومما يوضح هذا أن أهل بيعة الرضوان التي وقعت في صلح الحديبية، الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية - لأن النبي ﷺ ذكر بعض أصحاب المغازي والمؤرخين أنه أراد أن يرسل بالهدايا إلى مكة - ، وقال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «أذهب بها إلى مكة». فقال له عمر: إن بني عدي بن كعب - يعني قبيلة عمر من قريش - لا يستطيعون أن يحموني من قريش، ولكنني أدلك على رجل عزيز في مكة لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، وهو عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وهو عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. فأرسل عثمان بالهدايا لينحرفها في الحرم، فتلقى له بنو عمه من بني سعيدي بن العاص، وقالوا له<sup>(١)</sup>:

أَقْبِلْ وَأُدْبِرْ وَلَا تَخَفْ أَحَدًا      بَنُو سَعِيدٍ أَعِزَّةَ الْحَرَمِ

وجاء، وقالوا له: إن شئت طف بالبيت. فقال: والله لا أطوف

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأنعام.

بيت مصدود عنه النبي ﷺ وهو محرم<sup>(١)</sup>، وكان هذا مما يدل على شرف عثمان (رضي الله عنه) لأنه امتنع أن يطوف لأن رسول الله ﷺ ممنوع من الطواف وهو محرم. ثم إن قائلاً قال: إن قريشاً قتلوا عثمان بن عفان - وهو كاذب - فسمع بها المسلمون فقالوا: قُتل عثمان!! قالوا: لما قتلوا عثمان ما هنالك إلا القتال والموت!! فبايعوه بيعة الرضوان تحت سمرة الحديدية، وهي الشجرة التي قال الله فيها: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨] ومحل الشاهد من هذه القصة، وأن صلح الحديدية كان أول فتح على المسلمين، وأول انتشار للإسلام، أن أهل بيعة الرضوان - كانوا ألفاً وأربعمائة تقريباً، كما ثبت ذلك صحيحاً عن بعض أصحاب النبي ﷺ، ولما غزا فتح مكة غزاه بألاف متعددة، غزاه بعشرة آلاف مقاتل، فدل هذا على أن هذه العشرة آلاف كانت من مزايا صلح الحديدية حيث وجدت الدعوة طريقها، واتصل المسلمون بالكفار فدعوهم إلى الإسلام فانتشر الإسلام في المسلمين؛ ولذا كانت الهجرة بعد صلح الحديدية أقل عظماً وأخف وقعاً مما كانت قبل ذلك؛ لأنه في ذلك الوقت جازت مخالطة المسلم لقبيلته ليدعوهم إلى الإسلام، فخف شأن الهجرة من ذلك الوقت؛ لأنها كاد الله أن يُغني عنها، فلما غزا النبي ﷺ مكة في رمضان من سنة ثمان، وفتح مكة، قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»<sup>(٢)</sup>. وهذه الهجرة انقطعت بالفتح وخفت بالحديبية؛ ولذا قال فيه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ أي: بعد أن خف

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٧٢) من هذه السورة.

شأن الهجرة بصلح الحديبية، واتصل المسلمون بالكفار، وانتشر المسلمون في أقطار الجزيرة العربية، وهذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] - قبل فتح مكة وبعد صلح الحديبية، كما قاله بعض العلماء - .

﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ معكم وينالهم الفضل العظيم، وإن كان شرف الأسبقية لا يناله من جاء بعدهم كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا﴾ [الحديد: الآية ١٠].

﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ أي: هم من جملتكم وإن كان بعضكم أفضل من بعض.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ (أولوا الأرحام) معناه: أصحاب الأرحام، وهم ذوو القربات. و (أولوا) اسم جمع لا واحد له من لفظه، هو يُعرب إعراب الجمع المذكر السالم، يُرفع بالواو وينصب ويخفض بالياء، وهو من الأسماء الملازمة للإضافة. والأرحام: جمع رحم، والرحم مؤنثة، وشذ قوم هنا وقالوا: إن المراد بها أرحام العصابات خاصة، وممن نصر هذا القول: أبو عبد الله القرطبي في تفسيره<sup>(١)</sup>. وهو ليس بصواب، وما استدلوا به في ذلك لا ينهض حجة؛ لأنهم قالوا: إن العرب كثيراً ما تُطلق الرحم على قرابة العصابات دون قربات غيرهم، قالوا: تقول العرب: وصلتك رحم. يعنون به رحم العصابات لا غيرها. وقالت قتيلة بنت الحارث، أو بنت النضر بن الحارث في رجزها المشهور لما قتل

(١) تفسير القرطبي (٨/٨).

النبي ﷺ النضر بن الحارث في رجوعه من بدر - كما أوضحنا قصته في أول هذه السورة الكريمة سورة الأنفال - قالت في شعرها، تقول<sup>(١)</sup>:

ظَلَّتْ سِيوفُ بني أبيه تَنُوشُهُ      لِّلَّهِ أَرْحَامٌ هُنَاكَ تَشَقُّقُ

فصرحت بأن مرادها بالأرحام بنو الأب، يعني من بني عمه وعصبته. وهذا يجوز، ولكنه لا ينفي غيره من إطلاق ذوي الأرحام على جميع القرابات<sup>(٢)</sup>. وهذه الآية ثبت في الصحيح وغيره - ولا يكاد يُختلف فيه بين العلماء - أنها نسخت للموارثة التي كانت تقع بالهجرة والمؤاخاة والحلف؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالهجرة والمؤاخاة ولا يرث القريب من قريبه شيئاً إذا كان لم يهاجر، كما تقدم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكَيْتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] وأن الله نسخ ذلك بالقرابات، وأن المراد: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ أي: أصحاب القرابات من قرابة الأب والأم، بعضهم أولى ببعض في الميراث. أي: من المهاجرين الذين آخى النبي ﷺ بينهم وبين الأنصار كما هو معروف، فنسخ الله ذلك الميراث أولاً بميراث القريب قريبه، والولي وليه.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي: في الميراث.

﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ قال بعض العلماء: المراد بكتاب الله أي: في حكم الله وأمره الذي كلف به خلقه وألزمهم إياه، والعرب كل شيء

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: الأضواء (٤١٨/٢).

[١٠/ب] مكتوب مؤكد تسميه كتاب الله . / وقال بعض العلماء : كتاب الله : هو اللوح المحفوظ لأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ<sup>(١)</sup> كما قال تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٦ ۞ . . . ﴾ [الأحزاب : الآية ٦] فآية الأحزاب كأنها بينت آية الأنفال هذه، وقال بعض العلماء : المراد بكتاب الله : القرآن ؛ لأن الله بين الموارد في كتاب الله في القرآن في سورة النساء بينها بآية الصيف وآية الشتاء، فآية الشتاء هي : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۝ [النساء : الآية ١١] إلى آخر الآيات، وآية الصيف هي التي في آخر السورة : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۝ [النساء : الآية ١٧٦] .

وقد قدمنا<sup>(٢)</sup> أن الكتاب بمعنى المكتوب، وأن إتيان (الفعال) بمعنى (المفعول) مسموع في كلام العرب موجود في أوزان معروفة، ككتاب بمعنى مكتوب، ولباس بمعنى ملبوس، وإله بمعنى مألوه، أي : معبود، وإمام بمعنى مؤتم به . وقد قدمنا<sup>(٣)</sup> أن مادة الكاف والتاء والباء في لغة العرب (كَتَبَ) أن معنى هذه المادة في اللغة التي نزل بها القرآن معنى (كتب) : ضم وجمع، فالكُتِبَ في لغة العرب معناه : الضم والجمع، وكل شيء ضمته وجمعت بعضه إلى بعض فقد كتبه، ومنه سميت الكتيبة من الجيش ؛ لأنها قطعة عظيمة ضم بعضها إلى بعض، وجمع بعضها مع بعض،

(١) انظر : ابن جرير (٩٠/١٤) .

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام .

(٣) السابق .

حتى صارت جملة عظيمة من الجيش، ومنه قول نابغة ذبيان<sup>(١)</sup>:

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُوِّفَهُمْ      بِهِنَّ فُلُوكُ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ

ومن هذا المعنى سميت الكتابة كتابة؛ لأنك تضم نقش حرف إلى حرف إلى حرف حتى يتألف من مجموع هذا نقوش تُقرأ بها ألفاظ؛ ولأجل هذا قيل للخياطة (كُتِبَ) فالخياط يسمى كاتباً؛ لأنه يضم أطراف الأديم بعضها إلى بعض، وأطراف الثوب بعضها إلى بعض فيخيطها، فالخياطون كُتَابٌ، وفي لُغز الحريري<sup>(٢)</sup>:

وَكَاتِبِينَ وَمَا خَطَّتْ أَنْامِلُهُمْ      حِرْفَاءُ وَلَا قَرُوءًا مَا خُطَّ فِي الْكُتُبِ

يعني: الخياطين، ومنه قيل للسير الذي تُشد به الرقعة في السقاء: كُتِبَ، وقيل لنفس الرقعة كُتِبَ؛ لأنها تضم في السقاء يُرقع بها، ومنه قول غيلان بن عقبه ذي الرمة<sup>(٣)</sup>:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ      كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ  
وَفِرَاءُ غَرْفِيَّةٍ أَثَى خَوَارِزَهَا      مُشَلَّشَلٌ ضَبِعَتْهُ بَيْنَهَا الْكُتُبُ

يعني: ماء يسيل ضيعته الرقع والسيور المشدودة بها الرقع في السقاء يسيل منها، شبه دمه به. ومن تسمية الخياطين (كُتَابِينَ) قول ابن دارة يهجو فزارة<sup>(٤)</sup>:

(١) السابق.

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٣) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.

(٤) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.

لا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيَا خَلَوْتَ بِهِ عَلَى قَلْوَصِكَ وَاكَتُبْهَا بِأَسْيَارِ  
يعني: خِط فرجها بأسيار لثلا يزني بها. هذا أصل معنى  
الكتابة.

وجمهور العلماء على أن معنى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم  
الله الذي هو حكمه الذي استقر عليه أمره، أن الميراث بالرحم  
والقربات لا بالهجرة والمؤاخاة، فهذا نسخ هذا كما هو الذي عليه  
جمهور العلماء ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:  
الآية ٧٥].

اختلف العلماء في المراد بـ ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ في هذه الآية<sup>(١)</sup>،  
فذهب جماعة من العلماء إلى أن المراد بأولي الأرحام هم  
خصوص الذين أعطاهم الله مواريث من عصبات، أو أصحاب  
فروض، وأن هذه الآية بيّنتها آيات المواريث، وأن من لم يبيّن الله  
له نصيباً في كتابه لا شيء له ولا يدخل في هذا، وهذا قال به  
جماعة من العلماء، وممن ذهب إليه: مالك والشافعي  
(رحمهم الله)، قالوا: لا ميراث إلا لمن سمّى الله له شيئاً،  
والمراد بـ (أولوا الأرحام) هذا مجمل بيّنته آيات المواريث، فلا  
ميراث لمن لم يجعل الله له سهماً. ومن أصرح أدلتهم في هذا  
حديث: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»<sup>(٢)</sup>

(١) انظر: ابن جرير (٩٠/١٤)، القرطبي (٨/٨)، المغني (٨٢/٩)، ابن كثير  
(٣٣٠/٢)، الأضواء (٤١٨/٢).

(٢) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، ومنهم:

١ - أبو أمامة (رضي الله عنه)، عند أحمد (٢٦٧/٥)، وأبي داود في  
الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث، حديث رقم: (٢٨٥٣)، (٧٢/٨)، =

.....

= والترمذي في الوصايا، باب ما جاء: «لا وصية لوارث»، حديث رقم: (٢١٢٠)، (٤/٤٣٣)، وابن ماجه في الوصايا، باب لا وصية لوارث، حديث رقم: (٢٧١٣)، (٢/٩٠٥)، والبيهقي (٦/٢٦٤)، والطيالسي (١١٢٧).

وانظر: التلخيص (٣/٩٢) وحسن الحافظ إسناده، ونصب الراية (٤/٤٠٣)، والإرواء، (٦/٨٨).

٢ — عمرو بن خارجة (رضي الله عنه)، عند أحمد (٤/١٨٦، ١٨٧، ٢٣٨ — ٢٣٩)، والدارمي (٢/٣٠٢)، والترمذي في الوصايا، باب ما جاء: «لا وصية لوارث»، حديث رقم: (٢١٢١)، (٤/٤٣٤)، وابن ماجه في الوصايا، باب لا وصية لوارث، حديث رقم: (٢٧١٢)، (٢/٩٠٥)، والبيهقي (٦/٢٦٤)، والطيالسي (١٢١٧)، والدارقطني (٤/١٥٢).

وانظر: التلخيص (٣/٩٢)، نصب الراية (٤/٤٠٣)، الإرواء (٦/٨٨).

٣ — أنس بن مالك (رضي الله عنه)، عند ابن ماجه في الوصايا، باب لا وصية لوارث، حديث رقم: (٢٧١٤)، (٢/٩٠٦)، والبيهقي (٦/٢٦٤)، وابن عدي في الكامل (٤/١٥٧٥).

وانظر: التلخيص (٣/٩٢)، نصب الراية (٤/٤٠٤)، الإرواء (٦/٨٩).

٤ — ابن عباس (رضي الله عنهما) (بلفظ مقارب) عند البيهقي (٦/٢٦٣)، الدارقطني (٤/٩٧، ٩٨، ١٥٢)، وابن عدي في الكامل (١/٣٠٧)، (٤/١٥٧٠).

وانظر: التلخيص (٣/٩٢) (وحسن إسناده)، ونصب الراية (٤/٤٠٤)، الإرواء (٦/٨٩، ٩٦).

٥ — جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما)، عند الدارقطني (٤/٩٧)، وقال: «الصواب: مرسل». اهـ، وابن عدي في الكامل (١/٢٠٢)، وانظر: التلخيص: (٣/٩٢)، نصب الراية (٤/٤٠٤)، الإرواء (٦/٩٢).

=

قالوا: هذا الحديث فيه كلام معروف، والتحقيق أنه لا يقل عن درجة الاحتجاج، بين النبي فيه أن الله أعطى كل ذي حق حقه، قالوا: نص هذا الحديث على أنه ما بقي لصاحب حق أبداً إلا أعطاه الله إياه، فالذي لم يُسم له حق فليس له شيء، وهذا معروف، وممن ذهب إلى هذا من الأئمة: مالك والشافعي.

وقالت جماعة آخرون: المراد بأولي الأرحام: من لا ميراث لهم بفرض ولا تعصيب، وأنهم يرثون من لا وارث له، واستدلوا بهذه الآية الكريمة وبأحاديث أخرى، منها ما هو ثابت في ميراث الخال، ومنها بعض جاء في ميراث العممة والخالة، والذين قالوا هذا قالوا: إن هؤلاء يصدق عليهم (أولوا الأرحام) بالوضع العربي، فلا

٦ — علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) (بلفظ مقارب) عند الدارقطني

(٩٧/٤)، والبيهقي (٢٦٧/٦)، وابن عدي (٢٥١١/٧).

وانظر: التلخيص (وضعف إسناده) (٩٢/٣)، نصب الراية (٤٠٥/٤)، الإرواء (٩٤/٦).

٧ — عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) عند الدارقطني (٩٨/٤)، وابن عدي

(٨١٧/٢)، وانظر: التلخيص (٩٢/٢)، نصب الراية (٤٠٤/٤)، الإرواء (٩٧، ٩١/٦).

٨ — معقل بن يسار (رضي الله عنه)، عند ابن عدي (١٨٥٣/٥)، وانظر:

التلخيص (٩٨/٣).

٩ — زيد بن أرقم والبراء (رضي الله عنهما)، عند ابن عدي (٢٣٤٩/٦)،

وانظر: نصب الراية (٤٠٥/٤).

١٠ — مجاهد (مرسلاً) عند البيهقي (٢٦٤/٦)، وانظر: التلخيص

(٩٢/٣).

١١ — جعفر بن محمد عن أبيه (مرسلاً) عند الدارقطني (١٥٢/٤).

يجوز إخراجهم منه، قالوا: ولأنهم من جملة المسلمين، وهم يزيدون بقراية، ولو فرضنا أنه لبيت المال كان لخصوص المسلمين، فمن أدلى بسببين وهما الإسلام والقراية أولى ممن يدلي بسبب واحد وهو الإسلام. والذين قالوا هذا قالوا: إن المراد بأولي الأرحام من لا فرض لهم في كتاب الله وليسوا بعصبة، وهم أحد عشر حيزاً معروفة عند العلماء، وممن قال بتوريث أولي الأرحام بهذا المعنى: الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - وأحمد بن حنبل - رحمهم الله - وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار.

والذين قالوا بتوريث أولي الأرحام معروف أنهم اختلفوا في كيفية توريثهم اختلافاً متشعباً يرجع إلى أمرين<sup>(١)</sup>:

أحدهما: قول من يقال لهم: أصحاب التنزيل.

والثاني: قول من يُسمون بأصحاب القرايات.

وأصحاب التنزيل: هم الذين مشى على مذهبهم أحمد بن حنبل وأصحابه. وأصحاب القرايات: هم الذين مشى عليهم أبو حنيفة وأصحابه، والذين قالوا بالتنزيل قالوا: إن كل واحد من أولي الأرحام يُنزل منزلة من يدلي به، فيعطى ميراث من يدلي به، فإذا كان واحداً أخذ جميع المال، وإذا كانوا جماعة وكانوا نازلين قُربوا درجة درجة ثم نُظر جميع من يدلون به وعُرف ميراث كل واحد منهم فأعطي كل واحد منهم نصيب من يدلي به، وهذا معروف، وهو مشهور مذهب الإمام أحمد.

(١) انظر: المغني (٩/٨٥)، الأضواء (٢/٤٢٤).

وأما أصحاب القرباب الذين ذهب إلى مذهبهم أبو حنيفة (رحمه الله) فهم يعملون بالأقرب فالأقرب، قالوا: ما دام أبو الإنسان يوجد شيء من أولاده كأولاد بناته وأبناء بناتهم ونحو ذلك لا يُعطى شيء يُدلي بجده ويعطى بنو جدِ دُنْيَه قبل الجد الذي فوقه وهكذا، ولم يزل يُعطى من يدلي بمن هو أقرب ثم من هو أقرب حتى ينتهي الأمر في ذلك. وتفاصيل مذاهبهم معروفة في فروعهم - رحم الله الجميع - .



## تفسير سورة التوبة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

/ يقول الله (جل وعلا): ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ [١/١] الْمُشْرِكِينَ ۖ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۖ﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ۖ﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِيَتِهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ [التوبة: الآيات ١ - ٤].

نزلت هذه السورة الكريمة عام تسع، رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك، وكان بعض الصحابة يقول: آخر سورة نزلت بتمامها من القرآن براءة<sup>(١)</sup>.

واعلم أن الصحابة (رضي الله عنهم) لم يكتبوا في المصاحف العثمانية سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قبل هذه السورة الكريمة، مع أنهم كتبوه في كل سورة من سور القرآن غير

(١) البخاري عن البراء (رضي الله عنه)، كتاب التفسير، باب ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾، حديث رقم: (٤٦٥٤)، (٣١٦/٨).

سورة التوبة هذه، والعلماء لهم أقوال معروفة في سبب [عدم] (١)  
كتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢).

قال بعض العلماء: كانت سورة براءة طويلة قدر سورة البقرة،  
فنسخ الله أولها، فلما سقط أولها وكانت فيه البسمة سقطت البسمة  
مع المنسوخ الساقط منها.

وقال بعض العلماء: البسمة رحمة وأمان، وبراءة نزلت  
بالسيف والقتال ونقض العهود؛ فلذا لم تكتب فيها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ﴾.

وقال بعض العلماء: لما أرادوا كتب المصاحف العثمانية  
اختلفوا في براءة، فقال بعضهم: هي والأنفال سورة واحدة، وقال  
بعضهم: كلتاها سورة مستقلة، فلما اختلفوا جعلوا بياضاً بين  
السورتين ليدل على قول من قال: إنهما سورتان، وتركوا  
سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ليدل على قول من قال: هما سورة  
واحدة، فرضي الفريقان، وقامت حجة كل منهما في المصحف  
الكريم.

وأظهر الأقوال هو ما رُوي عن عثمان بن عفان (رضي الله عنه)  
رواه بعض أصحاب السنن وغيرهم عن ابن عباس (رضي الله عنهما)  
أنه قال: سألت عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لمَ عمدتم إلى الأنفال  
وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثاني فقرنتم بينهما ولم تكتبوا  
بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وجعلتموها في السبع  
الطوال!!؟

(١) ما بين المعقوفين [ زيادة يقتضيه السياق.

(٢) انظر: القرطبي (٦١/٨)، ابن كثير (٣٣١/٢)، الأضواء (٤٢٦/٢).

فأجابه عثمان (رضي الله عنه) بما معناه: أن النبي ﷺ كان ينزل عليه القرآن، تنزل عليه السور والآيات ذوات العدد فيأمر بعض من يكتب له ويقول: ضعوا هذا في السورة التي يُذكر فيها كذا، وضعوا كذا في محل كذا، وكانت [«الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة» وبراءة من آخر القرآن، فكانت قصتها شبيهة بقصتها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، وظننت أنها منها... ]<sup>(١)</sup> كأنهما سورة واحدة، فمن ثم واليت بينهما وجعلت بينهما فصلاً، ولم أكتب بينهما ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾<sup>(٢)</sup>.

وهذه السورة الكريمة نزلت عام تسع [وكان النبي ﷺ قد بعث أبا بكر (رضي الله عنه) ليقوم للناس الحج]<sup>(٣)</sup> وأرسل في أثره علي بن

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام نقلتها من بعض روايات الحديث.

(٢) أخرجه أحمد (١/٥٧، ٦٩)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (٢/١٠٠)، وفي غريب الحديث (٣/١٤٧ - ١٤٨)، (٤/١٠٤)، وأبو داود في الصلاة، باب من جهر بها، رقم: (٧٧١)، (٢/٤٩٥)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة براءة، رقم: (٣٠٨٦)، (٥/٢٧٢)، وابن حبان (الإحسان ١/١٢٦)، والحاكم (٢/٢٢١، ٣٣٠)، والبيهقي في الكبرى (٢/٤٢)، والدلائل (٧/١٥٣)، وابن أبي داود في المصاحف ص ٣٩، وابن جرير (١/١٠٢)، والطحاوي في شرح المعاني (١/٢٠١ - ٢٠٢)، وفي مشكل الآثار (١/٣٨)، (٢/١٥١ - ١٥٦)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٢/٣٩٦)، وأورده السيوطي في الدر (٣/٢٠٧)، وعزاه لابن أبي شيبة والنسائي وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه، وضعفه أحمد شاكر في تعليقه على: المسند (١/٣٢٩)، ابن جرير (١/١٠٢).

(٣) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

أبي طالب (رضي الله عنه) على ناقته العضباء، وأمره أن يكون هو المتولي للأذان ببراءة في موسم الحج، وأن يقول للناس: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. فكان علي بن أبي طالب ذهب في أثر أبي بكر فأدركه، قال بعض العلماء: أدركه بالجحفة، فقال له: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور. وأخبره أن النبي ﷺ أرسله بصدر هذه السورة الكريمة يُنادي به في الموسم<sup>(١)</sup> - في موسم الحج - عام تسع من الهجرة، فكان أبو بكر هو أمير الحج الذي يُقيم للناس حجهم، وكان علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يؤذن في الناس بأول هذه السورة الكريمة، بعضهم يقول: بأربعين آية منها.

(١) بعث النبي ﷺ علياً (رضي الله عنه) في حجة أبي بكر (رضي الله عنه)، رواه جماعة من الصحابة منهم:

١ - أبو هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في الصلاة، باب ما يستر من العورة، حديث رقم: (٣٦٩)، (٤٧٧/١)، وأطرافه: (١٦٢٢)، (٣١٧٧)، (٤٣٦٣)، (٤٦٥٥)، (٤٦٥٦)، (٤٦٥٧)، ومسلم (من غير ذكر علي رضي الله عنه) في الحج، باب لا يحج البيت مشرك، حديث رقم: (١٣٤٧)، (٩٨٢/٢).

٢ - أنس (رضي الله عنه)، عند الترمذي في التفسير، باب ومن سورة براءة، حديث رقم: (٣٠٩٠)، (٢٧٥/٥).

٣ - ابن عباس (رضي الله عنه)، عند الترمذي في التفسير، باب (ومن سورة براءة)، حديث رقم: (٣٠٩١)، (٢٧٥/٥)، وانظر: الإرواء (٣٠٣/٤).

٤ - زيد بن أُنَيْع أنه سأل علياً (رضي الله عنه)... عند أحمد (٧٩/١)، والدارمي (٣٩٤/١)، والحميدي (٤٨)، والترمذي في التفسير، باب (ومن سورة براءة)، حديث رقم: (٣٠٩٢)، (٢٧٦/٥)، وانظر: الإرواء (٣٠١/٤).

وأخرجه أحمد (٣/١) عن زيد بن أُنَيْع عن أبي بكر (رضي الله عنه).  
٥ - جابر (رضي الله عنه)، عند النسائي في الحج، باب الخطبة يوم التروية، حديث رقم: (٢٩٩٣)، (٢٤٧/٥).

وبعضهم ينقص، وبعضهم يزيد، والروايات متفقة على أنه أرسله بهذه السورة الكريمة، بشيء منها يؤذن بها في المواسم.

ومضمون ما كان يؤذن به علي (رضي الله عنه) راجع إلى أربع جمل: إحداها: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ومن كان له عهد فعده إلى مدته.

وكان يؤذن في الناس بهذا. فعلم الكفار أنه لا عهد بينهم وبين النبي ﷺ، ومن العام القابل وهو عام عشر لم يحج البيت كافر، ولم يطف بعدها عريان، فحج النبي ﷺ.

ومعنى قوله: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ البراءة مصدر كالشئاءة والدناءة. وإعرابه<sup>(١)</sup> قال بعض العلماء: هو مبتدأ خبره محذوف، أي: هذه براءة من الله ورسوله.

وقال بعض العلماء: لا مانع من كون قوله: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة لأنها وُصفت بقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ كما قال<sup>(٢)</sup>:

..... وَرَجُلٌ مِنَ الْكِرَامِ عِنْدَنَا

وأن قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ خبر المبتدأ، والوجهان من الإعراب كلاهما صحيح، والمعنى: هذه براءة من الله. أو براءة من الله واصله إلى الذين عاهدتم من المشركين. ولفظة (من) في قوله:

(١) انظر: ابن جرير (٩٥/١٤)، الدر المصون (٥/٦).

(٢) هذا هو الشطر الثاني من أحد أبيات الخلاصة ص ١٧، وشطره الأول:

«وهل فتى فيكم فما خل لنا»

﴿مَنْ أَلَّهَ﴾ هي المعروفة بابتداء الغاية، أي: ابتداء هذه الغاية ومنشؤها كائن من الله. ومعنى براءة الله منهم: أنه (جلّ وعلا) برئت ذمته من عهودهم فلا يلتزم لهم عهداً ولا ذمة؛ لأنهم نقضوا العهود أو كادوا.

واعلم أن النبي ﷺ لما غزا غزوة تبوك كان المنافقون يرجفون أراجيف كثيرة، فسمع بها الكفار فأرادوا نقض العهود وتغيروا؛ لأن النبي ﷺ كانت بينه وبين بعض القبائل عهود ومواثيق، مصالحات ومهادنات، فلما سمع الكفار بأراجيف المنافقين نقض بعضهم، وبعضهم خيف منه النقض، فأنزل الله براءته من جميع الكفار إلا ما سيأتي استثناءؤه إن شاء الله.

واعلم أن الكفار أقسام<sup>(١)</sup>: منهم من كان له عهد مؤجل بأجل، وهؤلاء قسمان: من عهده أقل من أربعة أشهر، ومن عهده أكثر من أربعة أشهر، ومنهم من لا عهد له أصلاً، ومن له عهد مطلق لم يقيد بزمن معين، فهذه فرق الكفار. وهذه الآية تضمنت نقض العهود في هذه كلها إلا في صورة واحدة على التحقيق.

أما من كان له عهد إلى مدة أقل من أربعة أشهر فالتحقيق عند جمهور العلماء أنه يرفع عهده إلى أربعة أشهر ثم بعد الأربعة أشهر هو حرب لله ولرسوله، ومن كان له عهد مطلق فله أربعة أشهر يسبح فيها ويذهب في الأرض مقبلاً ومدبراً آمناً، ثم بعد انتهاء تلك الأربعة الأشهر هو حرب لله ولرسوله.

ومن لم يكن عنده عهد أصلاً فقال بعض العلماء: له هذه الأربعة الأشهر. وهذا أظهر القولين، بناء على أن قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ﴾

(١) انظر: ابن جرير (٩٦/١٤)، القرطبي (٦٤/٨)، الأضواء (٤٢٨/٢).

أَشْهُرُ الْحَرَمِ ﴿ [التوبة: آية ٥] أنها أشهر الإمهال هذه الأربعة،  
لا الأشهر الحرم الأربعة.

وقال بعض العلماء: هي الأشهر الحرم الأربعة، وعلى ذلك لم يبق من عهده إلا خمسون يوماً، عشرون من ذي الحجة، والشهر الذي بعده الذي هو المحرم، فتتقضي عهودهم على خمسين يوماً على هذا القول.

فقوله: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ هذه البراءة كائنة من الله ﴿ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ ﴾ يعني النبي وأصحابه. وإنما خاطبهم جميعاً وإن كان النبي ﷺ هو الذي يتولى عقد العهود لأنهم أتباعه وأعدائه، وهم معه في كل شيء من حَلٍّ وعقد، فكل حَلٍّ وعقد فعله النبي ﷺ فهم أصحابه وأعدائه وأتباعه، فهم معه فيه؛ ولذا قال: ﴿ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الكفار الذين يعبدون الأصنام ويشركون بالله (جل وعلا).

والتحقيق: أن هذه ما نزلت إلا في غزوة تبوك، وما زعمه ابن إسحاق ومقاتل وغيرهما من أن صدر هذه السورة نزل قبل عام الفتح، بعد نقض قريش وبني بكر لمعاهدة صلح الحديبية؛ فهو خلاف الظاهر، مع أنه قال به ابن إسحاق ومقاتل وغيرهما<sup>(١)</sup>. قالوا: كان أول هذه السورة نزل قبل هذا؛ لأن النبي ﷺ لما عقد صلح الحديبية بينه وبين كفار قريش بواسطة سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) كان خزاعة دخلوا في حلف النبي ﷺ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش، وكان ذلك الصلح دخلت فيه قبائل من بني

(١) انظر: القرطبي (٨/٦٤ - ٦٥).

كنانة منهم بنو الدليل ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو مدلج بن بكر بن كنانة، وبنو ضمرة بن بكر بن كنانة، فهي أربع قبائل من كنانة دخلوا في ذلك الصلح مع النبي ﷺ، وكان قبل ذلك بين كنانة وخزاعة دم، وكان الدم في خصوص بني الدليل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة من قبائل كنانة، فانتهزوا الفرصة وعدوا على خزاعة، وأعانهم قريش على خزاعة الإعانة المشهورة التي هي سبب غزوة الفتح؛ لأن بني الدليل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة لما عدوا على خزاعة ونقضوا عهد النبي ﷺ وصلحه الذي أبرمه معهم في الحديبية، وأعانتهم قريش على ذلك بالسلاح، بل بعض رجال قريش دخل معهم في قتالهم، كما قاله بعض العلماء، وأرسل خزاعة عمرو بن سالم (رضي الله عنه) إلى النبي ﷺ بالمدينة يستنصره، وجاءه هنا في المدينة - حرسها الله - وأنشده رجزه المشهور<sup>(١)</sup>:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا	حَلَفَ أَيْنَا وَأَيْبِهِ الْأَتْلَدَا
كُنْتُ لَنَا أَبَا وَكُنَّا وَلَدًا <sup>(٢)</sup>	ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
إِنْ قَرِيشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا	وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمَوْكِدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَنْجِي أَحَدًا	وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا
فَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَا تُؤَا مَدَدَا	فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا
أَبْيَضَ مِثْلَ الشَّمْسِ يَجْرِي صُعدَا	فِي فَيْلَتِي كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبَدَا

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال، ووقع فيها هنا تقديم وتأخير كما وقع في الموضع السابق، وقد أثبتنا نص الأبيات هناك في الهامش فليراجع، وانظر: القرطبي (٦٥/٨).

(٢) في ابن هشام (١٢٣٥): «قد كنتم وُلْدًا وَكُنَّا وَالِدًا».

إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدًا هَمَّ بَيْثُونًا بِالْوَتِيرِ هُجَّدًا  
 وَقَتَلُونَا رَكْعًا وَسُجَّدًا فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَيَّدَا  
 فقال ﷺ: « لا نُصِرْتِ إِنْ لَمْ أَنْصِرْكُمْ »<sup>(١)</sup>.

وكان ذلك سبب غزوة [الفتح]<sup>(٢)</sup>. هكذا قالوا إن هذا هو الذي جاءت فيه هذه الآيات، وأن قريشاً وبنو الدليل من بني بكر بن كنانة نقضوا وبقيت قبائل كنانة الآخرين، وهم: بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة، وبنو مدلج، وبنو ضمرة لم ينقضوا العهود كما سيأتي في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا شَيْئًا﴾ [التوبة: آية ٧] هكذا قالوا أنها نزلت قبل غزوة الفتح.

والتحقيق أنها ما نزلت إلا بعد غزوة تبوك، وأرسل النبي بها أبا بكر (رضي الله عنه) ينادي في الناس بها، ثم أتبعه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

ومعنى الآية الكريمة: هذه براءة من الله، أو براءة من الله إلى الذين عاهدتم من المشركين جميعاً. يعني: من كان له منهم عهد أقل من أربعة أشهر، ومن لا عهد له أصلاً، ومن كان له عهد مطلق، ومن له عهد مؤقت إلا أنه خيف منه أن ينقض؛ لأن المعاهد من المشركين إذا خيف منه النقض وظهرت منه علامات ذلك وبوادره وجب إعلامه بنبد العهد إليه ونقض عهده، كما قدمناه في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: آية ٥٨] فعرّفنا أن قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

(٢) في الأصل: «بدر»، وهو سبق لسان.

الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ [التوبة: آية ١] صادق بمن لهم عهد غير مؤقت، وعهد مؤقت بأقل من أربعة أشهر، وعهد مؤقت بأكثر منها إن خيفت منهم الخيانة، بقي قسم واحد هو الآتي استثنائه مرتين وهو من كان له عهد مؤقت معين محدد بوقت معين أكثر من أربعة أشهر، وهو ثابت على عهده لم ينقض ولم يُخف منه نقض لثبوته على عهده، فهؤلاء باقون على عهدهم على التحقيق الذي لا شك فيه. وما قاله بعض العلماء من نقض عهودهم جميعاً؛ خلاف التحقيق؛ لأن الله يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٤] ويقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٧] كما سيأتي إيضاحه؛ لأن المراد بالذين عاهدوه عند المسجد الحرام عند الحديبية وأطلق عليها: «المسجد الحرام» قال بعض العلماء: لأن بعضها الذي وقعت فيه المعاهدة كان من الحرم، والمسجد يطلق غالباً على جميع الحرم، وسيأتي هناك - إن شاء الله - أن هؤلاء الذين عاهدوا دخل فيهم قبائل من كنانة مع قريش، وأن الذي غدر: بنو الدليل من كنانة فقط وقريش، وبقية قبائل كنانة الأخرى ثابتة على عهدها. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَىٰ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: آية ١].

ثم هنا التفات من الغيبة إلى الخطاب، أي فقولوا للذين عاهدتم من المشركين: سيحوا في الأرض أربعة أشهر (سيحوا في الأرض) معناه: اذهبوا في أرض الله مقبلين ومدبرين حيث ما أردتم، وأين أحببتم أن تتوجهوا، آمنين لا خوف عليكم، لا ينالكم منا سوء؛ لأنها أشهر أمان وإمهال لا ينالكم منا فيها سوء.

والحكمة في أن الله (جل وعلا) أجّلهم هذه الأشهر الأربعة ليروا رأيهم، ويتأملوا في شأنهم لعل الله أن يهديهم إلى صوابهم. وهذا معنى قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: اذهبوا في جوانب أرض الله مقبلين ومدبرين آمنين، لا خوف عليكم في مدة هذه الأشهر الأربعة.

ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أي: أيقنوا علماً يقيناً لا يتطرق إليه الشك ﴿أَنْكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ ﴿مُعْجِزِي﴾ أصله: معجزين بالنون، فحذفت النون للإضافة. والمعجزون جمع المعجز، وهو اسم فاعل (أعجزه) العرب تقول: «أعجزه يُعجزه» إذا صار غير قادر عليه. أنكم لا تفوتونه ولا تتعذرون عليه، بل أنتم في قبضته وتحت سلطانه وقهره، هو قادر عليكم واعلموا أيضاً ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مُخْزِي الْكٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢] المخزي: اسم فاعل أخزي، ومعنى إخزائه للكافرين: أنه مذلهم ومهينهم، يذلهم في الدنيا بالقتل والأسر، ويهينهم بذلك وفي الآخرة بعذاب الله، كما سيأتي في قوله: ﴿قَتَلْتَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٤] وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ جملة معطوفة على جملة؛ لأن جملة: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ [التوبة: آية ٣] معطوفة على قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: آية ١] ويجوز في قوله: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ من

الإعراب الوجهان الجائزان في (براءة)<sup>(١)</sup> يجوز أن يكون (أذان) خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا أذان من الله. ويجوز أن يكون (أذان) مبتدأ سوغ الابتداء فيه بالنكرة كونها وُصفت بقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

والأذان معناه: الإعلام، وهو اسم مصدر (أذن) (يؤذن) (أذناً)، (وآذن) (يؤذن) (أذناً) والعرب ربما جعلت (الفعَال) قائماً مقام «التفعيل»؛ لأن العرب تقول: آذنته أعلمته، وأذنت أعلمت. ومعروف في علم التصريف أن (فعل) بالتضعيف ينقاس مصدرها على (التفعيل)، ولكنه يُسمع كثيراً إتيان المصدر منها على (الفعَال) كما قالوا: سلّم عليه سلاماً، أي: تسليماً. وكلمه كلاماً، أي: تكليماً. وطلّقها طلاقاً، وبيّنه بياناً. إلى غير ذلك من الأوزان. وكذلك ربما جاء (الفعَال) في موضع (الإفعال) كقول العرب: آمنتته أوْمِنْتُهُ إيماناً. إذا جعلته في أمان. فإنهم يقولون: آمنه أماناً، وآذنه أذناً، أي: أعلمه إعلاماً. والأذان في لغة العرب: الإعلام. قال بعض العلماء: هو الإعلام المقترن بنداء؛ لأن اشتقاقه من الأذن؛ لأن النداء يقع في الأذن فيحصل بذلك الفهم والإعلام، ومنه الأذان للصلاة؛ لأنه إعلام بها بنداء. وكون الأذان بمعنى الإعلام معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الحارث بن حلزة<sup>(٢)</sup>:

أَذَنْتَنَّا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ      رَبِّ ثَاوِيْمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

يعني أعلمتنا بينها.

(١) انظر: الدر المصون (٦/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ هذا الأذان كائن مبدؤه من الله ورسوله  
 ﴿إِلَى﴾ جميع ﴿النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: آية ٣] أصل الحج  
 في لغة العرب جرى على ألسنة العلماء أنهم يقولون: الحج في  
 اللغة القصد<sup>(١)</sup>. والحج في لغة العرب أخص من مطلق القصد؛  
 لأن الحج في اللغة لا يكاد تطلقه العرب إلا على قصد متكرر  
 لأهمية في المقصود. فكل حج قصد، وليس كل قصد حجاً؛ لأن  
 الحج هو القصد المتكرر لأجل الأهمية الكائنة في المقصود.  
 وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول المخبّل السعدي  
 حيث قال<sup>(٢)</sup>:

أَلَمْ تَعَلَّمِي يَا أُمَّ أَسْعَدٍ أَنَّمَا تَخَطَّانِي رَيْبُ الْمُنُونِ لِأَكْبَرَا  
 وَأَشْهَدُ مِنْ عَوْفٍ حُلُولًا كَثِيرَةً يَحْجُّونَ سِبَّ الزُّبْرِقَانَ الْمُزْعَفَرَا

«سِبَّ» يعني به عمامته، أي: يقصدون عمامته — عبر بها عن  
 شخصه — قصداً كثيراً متكرراً لأهمية ما يروونه عنده من النوال هذا  
 أصل الحج.

ومعروف أن الحج في اصطلاح الشرع<sup>(٣)</sup>: هو الأفعال والأقوال  
 التي تقال في المنسك المعروف.

قال بعض العلماء: وإنما قال له الأكبر؛ لأن العرب ربما كانوا

(١) انظر: القاموس (مادة: الحج) ص ٢٣٤، المفردات (مادة: حج) ص ٢١٨،

المصباح المنير (مادة: حج) ص ٤٧.

(٢) البيتان في المشوف المعلم (١/٢٣١)، ولفظ البيت الأول فيه:

أَلَمْ تَعَلَّمِي يَا أُمَّ عَمْرَةَ أَنَّنِي تَخَطَّانِي رَيْبُ الزَّمَانِ لِأَكْبَرَا

(٣) انظر: القاموس الفقهي ص ٧٦ — ٧٧.

يقولون: حج أصغر، وحج أكبر، يعنون بالأصغر: العمرة لنقصان أعمالها عن أعمال الحج<sup>(١)</sup>.

واختلف العلماء في يوم الحج الأكبر<sup>(٢)</sup> فذهبت جماعة من العلماء إلى أن المراد به يوم عرفة. وعليه فمبدأ النداء بالأربعة الأشهر كائن ابتداء تأجيله من يوم عرفة. وقالت جماعة آخرون: هو يوم النحر. وخلاف العلماء في يوم الحج الأكبر هل هو يوم عرفة أو يوم النحر مشهور معروف، وكان بعض المحققين يختار أنه يوم النحر لأمر، منها: أنه جاء بذلك روايات صحيحة، كرواية أبي هريرة في صحيح البخاري<sup>(٣)</sup>. وقالوا: ولأن أكثر أفعال الحج إنما تكون يوم النحر؛ لأنه هو اليوم الذي يطاف فيه طواف الإفاضة، وينحر فيه، ويحلق فيه، ويقضى فيه التفت، وأن يوم عرفة لا يختص

(١) انظر: التمهيد (١/١٢٥)، ابن جرير (١٤/١٢٩)، وابن أبي حاتم (٦/١٧٤٧)، والبلغوي (٢/٢٦٨)، وابن عطية (٨/١٢٨)، والمجموع (٨/٢٢٣)، وابن كثير (٢/٣٣٢)، والدر المنثور (٣/٢١١)، حصول الأجر في أحكام وفضل العمل في أيام العشر ص ١٢٢.

(٢) انظر: سنن سعيد بن منصور (٥/٢٣٦ - ٢٤١)، التمهيد (١/١٢٥)، ابن جرير (١٤/١١٣)، القرطبي (٨/٦٩)، المجموع (٨/٢٢٣)، تفسير البغوي (٢/٢٦٨)، تفسير ابن عطية (٨/١٢٧)، تهذيب السنن لابن القيم (٢/٤٠٦)، زاد المعاد (١/٥٤)، تفسير ابن كثير (٢/٣٣٢ - ٣٣٥)، فتح الباري (٨/٣٢١)، الدر المنثور (٣/٢١١)، حصول الأجر في أحكام وفضل العمل في أيام العشر ص ١١٦.

(٣) ولفظه: «بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين، بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى...» البخاري في التفسير، باب ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا...﴾، حديث رقم: (٤٦٥٥)، (٨/٣١٧).

بشيء خاص من مناسك الحج؛ لأن الوقوف وإن كان ركناً من أركان الحج فنفس اليوم لا يختص به عن الليلة لإجماع العلماء على أن من وقف بعرفة ليلة النحر أن ذلك يجزئ، بعضهم يقول: يلزمه دم لفوات النهار، وبعضهم يقول: حجه كامل - كمالك وأصحابه - ولا دم عليه. وقولهم: «الحج عرفة»، قالوا: لا يرد على هذا؛ لأن عرفة شامل لليل والنهار، فالوقوف الذي هو الركن الأعظم في الحج يكون في الليل، ولا يشترط أن يكون في النهار، والكلام في خصوص اليوم.

وقال بعض العلماء: يوم الحج الأكبر هو جميع أيام الحج؛ لأن العرب تقول: يوم صفين، ويوم الجمل، ويوم بَعَاث، وهو زمن يتناول أياماً معدودة متعددة، وأنه يشمل الجميع. وهذا أيضاً لا بأس به.

وجمهور العلماء على أن ابتداء تأجيل هذه الأشهر الأربعة هي من يوم النحر، وأن انقضاءها في العاشر من ربيع الثاني؛ لأن هذه الأشهر الأربعة عشرون منها من ذي الحجة من يوم الحج الأكبر، ثم منها المحرم كاملاً، وصفر كاملاً، وربيع الأول كاملاً، وعشر من ربيع الثاني، فتمت هنالك الأشهر الأربعة، وعلى هذا جماهير العلماء.

وقد اشتهر قول هنا عن الزهري لا شك في غلطه، وإن كان قائله جليلاً؛ لأنهم ذكروا عن الزهري (رحمه الله) أن أول هذه الأشهر الأربع أنه من ابتداء شوال، وأنها شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وتنتهي بانتهاء المحرم<sup>(١)</sup>. وهذا لا يتمشى مع أن ابتداء

(١) أخرجه ابن جرير (١٠١/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٤٧/٦)، والنحاس في =

الأذان صرح الله بأنه يوم الحج الأكبر. فالتحقيق هو ما قاله الجمهور لا ما قاله الزهري (رحمه الله)، إن صح عنه فهو غلط منه. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ عامة ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ هذا الإعلام هو إعلام بأن الله بريء من المشركين، ورسوله بريء منهم أيضاً، فالله بريء من المشركين بريء من ذمتهم وعهدهم، لا عهد لهم عليه يأمر به، ولم يلتزم لهم بشيء، وكذلك رسوله ﷺ.

ثم قال لهم: ﴿فَإِنْ تَبُتُمْ﴾ عن ذنوبكم وكفركم وشرككم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وصيغة التفضيل هنا ليست على بابها؛ لأن الكفر بالله لا خير فيه أصلاً، فلا معنى للتفضيل فيه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: تبتم على كفركم وما أنتم عليه من الشرك.  
﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ فسرناه الآن.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ اعلم أن التحقيق أن (البشارة) في لغة العرب هي الإخبار بما يسر، والإخبار بما يسوء أيضاً. فمن أخبرته بما يسره فقد بشرته، ومن أخبرته بما يسوؤه فقد بشرته<sup>(١)</sup>؛ ولذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: آية ٢١] والقرآن في غاية الفصاحة والإعجاز، وإطلاق البشارة على الإخبار بما يسر معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر<sup>(٢)</sup>:  
أبشّرني يا سعداً أن أحبتي جفوني وقالوا الودّ موعده الحشرُ

= الناسخ والمنسوخ (٤١٢/٢)، وذكره السيوطي في الدر (٢١١/٣)، وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي حاتم.

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

وقول الثاني<sup>(١)</sup>:

يُبَشِّرُنِي الْغَرَابُ بَيْنَ أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُ ثَكَلْتُكَ مِنْ بَشِيرٍ  
هذا هو التحقيق أنها أساليب عربية، وأن البشارة تغلب للإخبار  
بما يسر، وأنها تطلق على الإخبار بما يسوء، هذا هو الظاهر،  
ومعلوم أن علماء البلاغة يقولون: إن البشارة حقيقة في الإخبار بما  
يسر، وأما البشارة بما يسوء فهي مما يسمونه الاستعارة (العنادية)  
المعروفة عندهم، وهي منقسمة إلى تهكمية وتمليحية كما هو معروف  
مقرر في علم البيان عند أهله<sup>(٢)</sup>.

ونحن نقول دائماً: إن مثل هذا أساليب عربية نطقت بها  
العرب، وكلها أسلوب عربي فصيح في محله، وهذا معنى قوله:  
﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران: آية ٢١] الظاهر أن تنكير العذاب  
هنا للتفخيم والتعظيم، ومن المعاني التي يستجلب لها التنكير:  
التفخيم والتعظيم، ويدل على هذا قوله: ﴿أَلَيْمٌ﴾ والأليم: (فَعِيل)  
بمعنى (مُفْعِل) أي: مؤلم. واعلم أن إتيان (الفعل) بمعنى (المُفْعِل)  
واقع في القرآن وفي كلام العرب، فما ذكروا عن الأصمعي أن  
(الفعل) لا يكون في اللغة بمعنى (المُفْعِل) فهو خلاف التحقيق<sup>(٣)</sup>.  
فمعنى أليم: مؤلم، أي: شديد الألم، وإتيان (الفعل) بمعنى:  
(المُفْعِل) أسلوب عربي معروف يكثر في كتاب الله وفي لغة العرب،  
ومن إتيانه في القرآن قوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ  
شَدِيدٍ﴾ [سبأ: آية ٤٦] وقوله: ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: منذر فهو (فعل)

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

بمعنى (مُفْعِل) ﴿أَلِيمٍ﴾. بمعنى مؤلم. وقوله: ضرب وجيع. بمعنى: موجه، وهذا معنى معروف في كلام العرب، وله أمثلة في القرآن كقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ﴾ [البقرة: آية ١١٧] أي: مبدعهما ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: منذر، ومن نظائره من كلام العرب قول غيلان بن عقبة ذي الرمة<sup>(١)</sup>:

ويرفع من صدر شَمَرْدَلَاتٍ يَصُكُّ وجوهها وهَجُّ أَلِيمٍ  
وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي (رضي الله عنه)<sup>(٢)</sup>:

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُورِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعٌ  
فقوله: «السميع» يعني: المسمع. وقوله في قصيدته هذه<sup>(٣)</sup>:

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ تحيةً بينهم ضربٌ وجيع  
أي: ضرب موجه. وهذا معنى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: آية ٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَاهِدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤].

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ استثناء من قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَىٰ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: الآيتان ١، ٢] هذه البراءة والتأجيل بخصوص أربعة أشهر لجميع الكفار المعاهدين وغيرهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ [التوبة: آية ٤] ثم وفوا لكم بالعهود ولم

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

ينقصوكم شيئاً، وكان بعض العلماء يقولون<sup>(١)</sup>: هؤلاء أهل مكة، ومعلوم أن أهل مكة نقضوا. والتحقيق أنها في قبائل من كنانة بقوا على عهدهم ولم ينكثوا فأمر النبي ﷺ بأن يفي لهم بعهدهم حتى تنتهي مدتهم، ومعلوم أن صلح الحديبية قد عاهد النبي فيه قبائل من كنانة، ذكرنا أن منهم بني الدليل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبني ضمرة، وبني مدلج، وبني جذيمة بن عامر، وقد قدمنا في تفسير سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْخِذُوا مِنْهُمْ وَإِيَّتَا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَيَبْتَئِنُّوا مِيثَاقًا ﴿النساء: الآيتان ٨٩، ٩٠﴾ إن هؤلاء القوم الذين بينكم وبينهم ميثاق الذين شرطوا أن من وصل إليهم فحكمه حكمهم، منهم هلال بن عويمر الأسلمي، وسراقة بن مالك بن جعشم حيث عقد العهد لبني مدلج مع النبي ﷺ، وبنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، فهؤلاء القبائل كانت أربع قبائل من كنانة، وكان غيرهم عقد ذلك، كبنو أسلم عقد لهم الصلح هلال بن عويمر الأسلمي، فهؤلاء لم ينقضوا.

وجرى على السنة علماء التفسير<sup>(٢)</sup> أنه في هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِيَتِيمِهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٤] وفي الآية الآتية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٧] يقولون: هؤلاء الذين ثبتوا وأمر النبي أن يفي لهم بعهدهم حتى تنقضي مدتهم هم خصوص بني

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٣٣).

(٢) انظر: القرطبي (٨/٧١).

ضمرة من قبائل بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومنهم عمرو بن أمية الضمري المشهور. والتحقيق أن قبائل كنانة لم يُعرف أنه نقض منهم العهد إلا بنو الدليل هم وقريش، أما قبائلهم الأخرى كبنو جذيمة بن عامر وبني مدلج وبني ضمرة فلا يعلم أنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ وإن جرى على ألسنة العلماء أنها في خصوص بني ضمرة دون غيرهم من قبائل كنانة، ومعنى الآية الكريمة: هذا الحكم الذي ذكرنا من نقض العهود وتأجيلهم أربعة أشهر فقط، كل هذا في جميع المعاهدين ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ ﴿لَمْ يَنْقُصُوكُمْ﴾ من الشروط التي اشترطتم عليهم شيئاً، ولم يخسوا بشيء من عهدكم، ولم ينقصوكم مالاً ولا نفساً ولا دماً، بل ثبتوا على عهدهم ولم ينقضوا، ولم يظاهروا عليكم أحداً، ولم يعينوا عليكم أحداً كقريش الذين أعانوا بني الدليل بن بكر على خزاعة ﴿فَأْتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ ولا تعدوا عليهم حتى ينتهي عهدهم كاملاً إلى مدتهم التي اتفقتم أنتم وهم عليها أنها مدة الصلح والمهادنة بينكم حتى تنقضي.

قال بعض العلماء: كان وقت نزول هذه البراءة بقي من عهد هؤلاء تسعة أشهر فأمر النبي ﷺ أن يفى لهم بها<sup>(١)</sup>. وهذا معنى قوله: ﴿فَأْتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤] ومن المتقين الذين يوفون بعهدهم ولا ينقضونه، فدللت الآية على أن الوفاء بالعهود وعدم النكث والنقض أنه من تقوى الله (جل وعلا) وهو كذلك.

(١) انظر: البحر المحيط (٨/٥).

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> أن المتقين جمع تصحيح للمتقي، وأن أصل هذه المادة من (وقى)، ففاء هذه المادة واو، وعينها قاف، ولامها ياء. مادة التقوى فاؤها واو، وعينها قاف، ولامها ياء، فهي مما يسميه الصرفيون «اللفيف المفروق» هذا أصلها، إلا أنها دخلها تاء الافتعال كما تقول في قرب: اقترب، وفي كسب: اكتسب، وفي قطع: اقتطع، وفي «وقى» اوتقى.

والقاعدة المقررة في التصريف: أن كل فعل (مثال) - أعني معتل الفاء بالواو - إذا دخله تاء الافتعال وجب إبدال الواو تاء، وإدغام التاء في التاء، فقليل فيها: «اتقى». هكذا<sup>(٢)</sup>.

وأصل الاتقاء في لغة العرب<sup>(٣)</sup>: هو أن تتخذ وقاية تكون بينك وبين ما تكرهه فتقيه منه. تقول العرب: اتقيت الرمضاء بنعلي، واتقيت السيوف بمجني، ومنه قول نابغة ذبيان<sup>(٤)</sup>:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ      فَتَنَّاوَلْتَهُ وَأَتَقَّنَّا بِالْيَدِ

أي: جعلت يدها وقاية بيننا وبين وجهها. وتفسير من قال: اتقتنا: استقبلتنا. تفسير بالمعنى الإجمالي لا بالحقيقة. وهذا أصل معنى التقوى.

وهي في اصطلاح الشرع: أن يجعل العبد وقاية بينه وبين عذاب ربه، هذه الوقاية مركبة من شيئين هما: امثال أمر الله،

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

واجتناب نهى الله<sup>(١)</sup>، والوفاء بالعهود من ذلك؛ لأن الوفاء بالعهود امتثال لأمر الله، وترك النقض انتهاء عما نهى الله عنه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤].

قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٥] وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ [التوبة: الآيات ٥ - ٨].

يقول الله (جل وعلا): ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٥].

اختلف العلماء في المراد بهذه الأشهر الحرم<sup>(٢)</sup>: فقال بعض العلماء: المراد بها الأشهر الحرم المعروفة الآتي ذكرها في قوله في هذه السورة الكريمة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: آية ٣٦] وهذه الأشهر الأربعة الحرم ثلاثة منها سرد وواحد منها فرد،

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣٤/١٤)، القرطبي (٧٢/٨)، الأضواء (٤٣٠/٢).

فثلاثتها المتتابعة هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وآخر: رجب الفرد. هذه هي الأشهر الحرم.

وقال بعض العلماء: هذه هي المراد هنا في قوله: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ وعلى هذا القول فالباقي عن انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النداء بهذه الآيات من أول براءة في موسم الحج عام تسع، الباقي منها خمسون يوماً فقط، وهي العشرون الباقية من ذي الحجة وتمام المحرم، فبانقضاء الخمسين تنتهي على هذا القول. / وهذا [١/ب] القول قاله بعض العلماء، وهو مبني على أن تحريم الأشهر الحرم لم ينسخ، ومعلوم أن العلماء مختلفون في تحريم الأشهر الأربعة المذكورة هل هو باق إلى الآن أو نسخ<sup>(١)</sup>؟ فكانت جماعة كثيرة من العلماء يقولون: إنه منسوخ. واستدلوا على ذلك بأن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً في غزوة الطائف في ذي القعدة من عام ثمان، وهذا ثابت أن النبي ﷺ بعض الزمن الذي حاصر فيه ثقيفاً في غزوة الطائف كان من ذي القعدة<sup>(٢)</sup>. قالوا: فلو لم ينسخ تحريم الأشهر الحرم لكف وانصرف عنهم بإهلال ذي القعدة. وكنا نرى هذا القول أصوب، مكثنا كثيراً من الزمن ونحن ننصر هذا القول ونقرر أنه

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد ص ٢٠٦، الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/٥٣٥)، ابن جرير (٤/٣١٣)، القرطبي (٣/٤٣)، (٨/١٣٤)، ابن كثير (٢/٣٥٥).

(٢) البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف في شوال، حديث رقم: (٤٣٢٥)، (٨/٤٤)، ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة الطائف، حديث رقم: (١٧٧٨)، (٣/١٤٠٢)، وليس في رواية الصحيحين ما يدل على أن بعض الحصار وقع في ذي القعدة، ولكن أشار إلى ذلك الحافظ في الفتح (٨/٤٤).

الأصوب، ثم ظهر لنا بعد ذلك أن أصوب القولين وأولاهما بالصواب أن تحريم الأشهر الحرم باقٍ لم ينسخ. ومن أصرح الأدلة في ذلك: أنه دلت عليه الأحاديث الصحاح في حجة الوداع في آخر حياة النبي ﷺ؛ لأن قوله (صلوات الله وسلامه عليه) في حجة الوداع قبل موته بنحو ثمانين يوماً قوله: «إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»<sup>(١)</sup> نص دال على أن تحريم الأشهر الحرم باقٍ لم ينسخ، وهذا هو الأظهر، والله أعلم.

(١) رواه عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:

١ - ابن عباس، عند البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم: (١٧٣٩)، (٥٧٣/٣)، وطرفه: (٧٠٧٩).

٢ - أبو بكر (رضي الله عنه)، عند البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم: (١٧٤١)، (٥٧٣/٣)، وأطرافه: (٦٧)، (١٠٥)، (٣١٩٧)، (٤٤٠٦)، (٥٥٥٠)، (٧٠٧٨)، (٧٤٤٧)، ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، حديث رقم: (١٦٧٩)، (١٣٠٥/٣).

٣ - عبد الله بن عمرو، عند البخاري في الحدود، باب ظهر المؤمن حمى إلا في حد أو حق، حديث رقم: (٦٧٨٥)، (٨٥/١٢)، وأطرافه: (١٧٤٢)، (٤٤٠٣)، (٦٠٤٣)، (٦١٦٦)، (٦٨٦٨)، (٧٠٧٧)، ومسلم في الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً...»، حديث رقم: (٦٦)، (٨٢/١).

٤ - سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه، عند الترمذي في التفسير، باب ومن سورة التوبة، حديث رقم: (٣٠٨٧)، (٢٧٣/٥)، وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٢١٥٩)، وقال: وفي الباب عن أبي بكر وابن عباس وجابر وحذيم بن عمرو السعدي.

القول الثاني في هذه الآية الكريمة: أن المراد بقوله: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ أنها أشهر الإمهال الأربعة التي قدمنا بالأمس أن التحقيق أن أولها من يوم النحر من ذي الحجة عام تسع، وأنها تنقضي بالعشر من ربيع الثاني من ذلك العام، وإنما قيل لها «حُرْمٌ» لأن الله حرّم فيها قتال المشركين، وقال لهم فيها: سيحوا في الأرض أربعة أشهر، أي: آمين مدبرين ومقبلين، قتالكم والتعرض لكم حرام. وهذا أظهر القولين هنا؛ لأن اللام في قوله: ﴿الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ [التوبة: آية ٥] الألف واللام فيها للعهد، والأشهر الحرم المذكورة لم تكن معهودة هنا، والمعهود هنا هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: آية ٢] وعلى هذا فانسلاخها هو ما قدمنا بعد انتهاء العشر الأول من ربيع الثاني كما لا يخفى. وقد بينا أن قول الزهري (رحمه الله) أن ابتداء أشهر الإمهال من شوال<sup>(١)</sup> [أنه إن صح عنه فهو غلط منه. والصحيح قول الجمهور، وهو أن ابتداء تأجيل هذه الأشهر الأربعة من يوم النحر، وتنقضي في اليوم العاشر من ربيع الثاني].

وانسلاخ الأشهر: معناه انقضاء مدتها، يقول العرب: انسلاخ الشهر، وانسلاخ العام إذا مضى زمانه، وسلخته: إذا كنت في آخر يوم من أيامه وقد مضى علي. وهذا معروف في كلام العرب<sup>(٢)</sup>، ومنه قول لبيد في معلقته<sup>(٣)</sup>:

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ : ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣٣/١٤ - ١٣٤)، القرطبي (٧٣/٨)، الدر المصون (١١/٦).

(٣) شرح القوائد المشهورات (١٤٤/١).

حَتَّى إِذَا سَلَخَا جُمَادَى سِتَّةً جُزْءًا أَفْطَالَ صِيَامُهُ وَصِيَامُهَا  
وَالْأَشْهُرُ: جمع شهر. و «الأفْعَل» جمع قَلَّة؛ لأنها أربعة.  
وَالْحُرْمُ: جمع حرام، وهو الصفة المشبهة من حَرَمَ الشَّيْءَ فهو  
حرام.

وإنما قيل للواحد منها «حرام» لأن الله حَرَمَ فيه القتال<sup>(١)</sup>. وهذا  
معنى قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ على القولين المذكورين  
﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يشركون بالله (جلّ وعلا)، اقتلوهم كلهم  
﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (حيث): كلمة تدل على المكان، كما تدل  
(حين) على الزمان، وربما ضمنت معنى الشرط، ويجوز فيها لغة  
لا قراءة إبدال يائها واواً وتثليث نائها<sup>(٢)</sup>.

ومعنى ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾: في أي مكان من أمكنة الأرض  
وجدتموهم فاقتلوهم. وقال بعض العلماء: هذا ما لم يكونوا في  
الحرم<sup>(٣)</sup>. وقال: عموم هذه الآية يخصه عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا  
تُقْبَلُ لَهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ  
الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: آية ١٩١]. وعلى هذا القول يكون القتال  
لا يجوز في الحرم إلا إذا بدؤوا بالقتال. بهذا قال جماعة من  
العلماء. وقال جماهير من أهل العلم: إنهم يقتلون في كل مكان،  
كما دلّ عليه عموم (حيث) هنا، وإن كانوا في الحرم. قالوا: أمّا آية:  
﴿وَلَا تُقْبَلُ لَهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ﴾ [البقرة: آية ١٩١] فإنها

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٣٦)، القرطبي (٨/٧٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: القرطبي (٢/٣٥١، ٨/٧٣).

كانت من مراحل تشريع القتال. وإيضاح هذا المعنى: أنه جرت العادة في كتاب الله أن الله (تبارك وتعالى) إذا أراد أن يُشرِّع أمراً عظيماً شاقاً تشريعه على النفوس إنما يُشرِّعه على سبيل التدرج لا مرة واحدة؛ لأنه حكيم عليم. وهذا أمثله كثيرة: فمنها: أنه لما أراد تحريم الخمر وكانت - قبَّحها الله - تصعب مفارقتها على من ألفها وتعهدها حرِّمها تدرجاً، ذمَّها أولاً فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: آية ٢١٩] فبدأ بعيبها، وأن فيها الإثم الكبير، وقال: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ لتبتدىء نفس المؤمن تشمئز منها، ثم بعد ذلك حرِّمها في أوقات الصلاة، يعني أنها حُرِّمت عليهم في بعض الأوقات دون بعض، فحرِّم عليهم شربها في الوقت التي تقرب فيه أوقات الصلاة، وكانوا إذا لا يشربونها إلا من بعد صلاة الصبح؛ لأن من شربها بعد صلاة الصبح يصحو قبل صلاة الظهر، وكذلك بعد صلاة العشاء؛ لأن من شربها بعد صلاة العشاء يصحو عادة قبل صلاة الصبح، أمَّا غير هذا من الأوقات فحرِّم عليهم شربها، كما قال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: آية ٤٣]. ثم لما أنست نفوسهم بتحريمها في الجملة، وعيبها أولاً، حرِّمها تحريماً باتاً في سورة المائدة بقوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: آية ٩٠] وعلق الفلاح على اجتنابه، فكان هذا أسهل للتدرج الذي وقع في تحريمها.

وكذلك لما أراد تشريع الصوم - والصوم عبادة شاقَّة على النفوس؛ لأن فيها منع البطون والفروج عن شهواتهما - شرَّعها تدرجاً: كان أول ما بُدئ به: وجوب الصوم بثلاثة أيام من كل شهر

مثلاً، ثم لما فُرِضَ رمضان فُرِضَ أولاً على سبيل الخيار بين الصوم وبين الإطعام كما تقدّم في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ [البقرة: آية ١٨٤] فلما أنست النفوس بالصوم في الجملة وتمرنّت عليه أوجب الصوم إيجاباً تاماً بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: آية ١٨٥].

وكذلك القتال – وهو محل الشاهد – لما كان عظيماً شاقاً على النفوس؛ لما فيه من تعريض المُهْج والأموال للتلف أذن فيه أولاً من غير أمر به في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: آية ٣٩]. أذن فيه أولاً ثم بعد ذلك أوجبه في حال دون حال، فأوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم – وهو محل الشاهد – في قوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَتَّلُوا فِيهِ﴾ [البقرة: آية ١٩١] ثم لما استأنست النفوس بالقتال وتمرنّت عليه أوجبه إيجاباً باتاً عاماً بقوله هنا: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

فهذه الآية الكريمة قوله: ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ هو صيغة عموم، فالألف واللام فيه تدل على العموم؛ لأن (المشركين): جمع (المشرك)، وهو اسم فاعل، والألف واللام الداخلتان على اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة – على أحد القولين – يقول علماء العربية: إنها موصولة، والموصولات من صيغ العموم كما تقرر في الأصول<sup>(١)</sup>. وعلى القول بأن هذا اللفظ قد تناسى وصفيته فتكون الصفة غير صريحة فيؤول إلى الأسماء – أسماء الأجناس الجامدة –

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

فيكون عموماً. فهو لفظ عام على كلا التقديرين يصدق بكل مشرك، إلا أن النبي ﷺ يبين تخصيص هذا العموم بنهيه عن بعض من يتصف بالشرك، من ذلك: النساء والصبيان من الكفار فإنهم من المشركين، وقد نهى ﷺ عن قتلهم، وكذلك الرهبان في الصوامع نهى عن قتلهم، وكذلك الشيوخ الفانية نهى عن قتلهم، إلا إذا كان الشيخ الفاني يُستعان برأيه فإنه يُقتل؛ لأن رأيه عظيم على المسلمين؛ ولأجل ذلك قتل الصحابة دُرَيْد بن الصمة يوم حنين، وكان ذا شيبة أعمى للاستعانة برأيه؛ لأنه وضع لهم الرأي الحكيم السديد، وخالفه مالك بن عوف النصري كما سيأتي إيضاحه في غزوة حنين في هذه السورة الكريمة. وكذلك المُعاهدون.

وهذه الآية الكريمة قال بعض العلماء<sup>(١)</sup>: قد لا تتناول أهل الكتاب؛ لأن آيتهم مذكورة في هذه السورة؛ لأن الله يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] فالكتابي إذا أعطى الجزية يخرج من عموم هذه الآية.

واعلم أن بعض العلماء<sup>(٢)</sup> قالوا: إن الكتابي لا يدخل في اسم المشركين. قالوا: لأن الله غاير بينهما في آيات كثيرة كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ١] فعطف المشركين على أهل الكتاب، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

(١) انظر: القرطبي (٧٢/٨).

(٢) السابق.

وَالْمُشْرِكِينَ ﴿ [البينة: آية ٦] وقال: ﴿ وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [آل عمران: آية ١٨٦]. وقال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ ﴾ الآية [المائدة: آية ٨٢] فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى الْمَغَايِرَةِ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْكِتَابِيِّينَ نَوْعٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ أَوْضَحَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ قَالَ فِيهِمْ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ الْأَوْسُطِ حَكَمُهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ [التوبة: آية ٣١] فَصَرَّحَ تَعَالَى بِأَنَّهِمْ مُشْرِكُونَ إِلَّا أَنَّهُمْ نَوْعٌ خَاصٌّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، رُبَّمَا أُدْخِلَ فِي عَمُومِهِمْ، وَرُبَّمَا أُفْرِدَ مِنْهُمْ، كَأَنَّهُ غَيْرُ دَاخِلٍ فِيهِمْ؛ لِلْفَوَارِقِ الَّتِي بَيْنَ الْكِتَابِيِّينَ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ [التوبة: آية ٥].

قال بعض العلماء: يؤخذ من عموم هذه الآية أن المسلم لو قدر على اغتيال الحربي لجاز له أن يغتاله.

وأخذ بعض العلماء من هذا قالوا: إذا لم يُقدر عليهم إلا بالقتل بالنار كالضرب بمنجنيق من بعيد ونحو ذلك، أن هذا يتناوله العموم<sup>(١)</sup>. وبعض العلماء يقول: هذا مثله، وقد نهى ﷺ عن المثلة<sup>(٢)</sup>. وهذا معنى قوله: ﴿ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾

(١) انظر: السابق (٧٢/٨).

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمُجْتَمَّة، حديث رقم: (٥٥١٦)، (٦٤٣/٩) من حديث عبد الله بن يزيد (رضي الله عنه).

أي: في أي مكانٍ من أمكنة الأرض وجدتموهم.

وقوله: ﴿وَحَذُّوهُمْ﴾ يعني: بالأسر، فمعنى ﴿وَحَذُّوهُمْ﴾: أو سروهم.

وهذه الآية الكريمة من براءة — وهي من آخر ما نزل من القرآن — تدل على أنه يجوز قتل المشركين وأخذهم بالأسر. وقال بعض العلماء: هذه الآية من سورة براءة نسخت قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فَدَاءُ﴾ [محمد: آية ٤] فليس هناك إلا القتل<sup>(١)</sup>. وقال بعض العلماء: بل آية القتال هي التي نسخت آية براءة، فلا يقتل الأسير، إما أن يُمنَّ عليه وإما أن يُفدى<sup>(٢)</sup>.

والتحقيق: أن كل هذه الآيات محكم، وأنها لا ينسخ بعضها بعضاً؛ لأن النبي ﷺ منذ قاتل الكفار، ربما قتل الأسير، وربما فدى الأسير، وربما منَّ على الأسير، كل هذا يفعله ﷺ، فمعلوم أنه قتل بعض الأسارى يوم بدر، قتل النضر بن الحارث يوم بدر أسيراً<sup>(٣)</sup>،

وأخرجه في المغازي (باب قصة عكل وعرينة) عن قتادة — بلاغاً — «بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة»، وقد وصله الحافظ (رحمه الله) في الفتح (٤٥٩/٧).

وفي الباب أحاديث كثيرة رواها جماعة من الصحابة منهم: يعلى بن مرة، والمغيرة بن شعبة، وعمران بن حصين، والحكم بن عمير، وعابد بن قرط، وعلي بن أبي طالب، وأبو أيوب الأنصاري، وابن عمر، وزيد بن خالد، وأسماء بنت أبي بكر، وعمر بن الخطاب، وغيرهم (رضي الله عنهم أجمعين).

(١) انظر: القرطبي (٧٢/٨).

(٢) انظر: القرطبي (٧٢/٨).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

وقتل عقبة بن أبي معيط يوم بدرٍ أسيراً<sup>(١)</sup>، وقد دلت القصة التي ذكرناها في غزاة بدر في سورة الأنفال على أن قتله للنضر بن الحارث لم يكن عن وحي<sup>(٢)</sup>، ولذا لما جاءه شعر أخته - أو ابنته - قتيلة بنت الحارث - أو قتيلة بنت النضر بن الحارث - لما أرسلت شعرها المشهور إلى النبي ﷺ الذي أبكاه حتى أخضل الدمع لحيته، وقال فيه: «لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوتُ عنه»<sup>(٣)</sup> فدلَّ على أنه لم يقتله بوحي من الله. وشعرها مشهورٌ قدمناه برمته في سورة الأنفال<sup>(٤)</sup>، تقول فيه:

يا راجباً إن الأئيل مَظِنَّةٌ	من صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقٌ
أَبْلَغُ بِهَامَيْتَابَانَ تَحِيَّةٌ	مَا إِنْ تَزَالَ بِهَا النِّجَابُ تَخْفِقُ
مَنِي إِلَيْكَ وَعَبْرَةٌ مَسْفُوحَةٌ	جَادَتْ بِوَاقِفِهَا وَأُخْرَى تَخْنُقُ
هَلْ يَسْمَعَنَّ نَضْرُ إِنْ نَادَيْتُهُ	أَمْ كَيْفَ يَسْمَعُ مَيْتٌ لَا يَنْطِقُ
أَمَحْمَدٌ يَا خَيْرَ ضِرْنٍ كَرِيمَةٍ	فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا	مَنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُحْنَقُ
فَالنُّضْرُ أَقْرَبُ مِنْ أَسْرَتِ قَرَابَةٍ	وَأَحَقُّهُمْ إِنْ كَانَ عَتَقٌ يُعْتَقُ
ظَلَّتْ سِيوفُ بَنِي أَبِيهِ تَنْوِشُهُ	لِللَّهِ أَرْحَامٌ هُنَاكَ تُشَقَّقُ
صَبْرًا يُقَادُ إِلَى الْمَنِيَةِ مُتَعَبًا	رَسْفُ الْمَقْيَدِ وَهُوَ عَانٍ مُوَثَّقُ

فهذا يدل على أن الأمر في ذلك إلى الإمام، إن رأى المصلحة

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق، وقد سقط بعد البيت الخامس بيت من القصيدة، وهو قولها:

أَوْ كُنْتَ قَابِلَ فَدِيَةٍ فَلْيُنْفَقَنَّ بِأَعَزِّ مَا يَغْلُوبُهُ مَا يُنْفَقُ

للمسلمين القتل قتل، وإن رأى أنها الفداء فدى، وإن رأى أنها المنُّ مَنْ، وهذا هو التحقيق - إن شاء الله - وأن الآيات كلها محكمة لم ينسخ بعضها بعضاً، والنبى ﷺ قد فعل كل ذلك، أطلق أبا عزة في غزاة بدر لما قال له: إنه ذو بنات. ولما أمسكه بحمراء الأسد من صبيحة أحد بعد أن اشترط عليه ألا يعين عليه المشركين وقال له: يا محمد، عفوك مرة أخرى. فقال له: لا والله، لا تحك عارضيك بين نساء مكة وتقول: غررت محمداً مرتين!! فقتله (صلوات الله وسلامه عليه)<sup>(١)</sup>. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥] بالأسر ﴿وَأَحْضَرُوهُمْ﴾ معناه: ضيقوا عليهم واحصروهم في معاقلم حتى لا يستطيعوا أن يخرجوا وينتشروا في الأرض، فضلاً عن أن يصلوا إليكم، فالمراد بالحصر هنا: حصرهم في أماكنهم وفي معاقلم، والتضييق عليهم ومنعهم من الانتشار في الأرض. هذا معنى قوله: ﴿وَأَحْضَرُوهُمْ﴾.

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾: المراد بالمرصد هنا: اسم مكان، وقد تقرر في فن التصريف: أن جميع المصادر الميمية، وأسماء الأمكنة، وأسماء الأزمنة إذا لم تكن تعني: من واوي الفاء كانت كلها على (مَفْعَل)، إلا اسمُ الزمان والمكان خاصة إذا كان من (فَعَلَ) بالفتح (يَفْعَلُ) بالكسر<sup>(٢)</sup>. والمرصد هنا: القياس فيه:

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٦/٣٢٠)، (٩/٦٥)، وأورده الشافعي في الأم (٤/٢٣٨)، وابن سعد في الطبقات (٢/٣٠)، والطبري في تاريخه (٣/١٠)، وابن هشام في سياقه لغزوة أحد.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٨٣ - ٨٤).

(المَفْعَل) وهو اسم مكان. معناه: مكان الرصد. والرصد: هو مراقبة الشيء ليتمكن منه في حالة غرته.

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي: في كل مكانٍ ترصدونهم وترقبونهم فيه، حتى يمروا عليكم فتأخذوهم، فكل شيء هو في طريق شيءٍ مختفياً عنه لتمكنه غرته فهو رصد له. وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عامر بن الطفيل<sup>(١)</sup>:

ولقد علمت وما إخالك ناسياً أن المنيّة للفتى بالمرصد  
ومن هذا قول الآخر، وهو عدي بن زيد حيث قال<sup>(٢)</sup>:

أَعَاذَلْ إِنْ الْجَهْلَ مِنْ لَذَّةِ الْفَتَى وَإِنَّ الْمَنَايَا لِلنَّفُوسِ بِمَرْصِدِ

ومن هذا معنى قوله: ﴿يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: آية ٩] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمَرْصَادِ﴾ [الفجر: آية ١٤] فمعنى: ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾: اقعدوا لهم في جميع الطرق التي ترصدونهم فيها ليمروا عليكم في حال غرتهم فتتمكنوا منهم. والعرب تقول للإنسان الذي يختفي عند الماء لترد عليه الوحش في الليل فيرميها: هذا راصد لها، ومكانه الذي هو فيه: مرصد لها، وهذا معنى معروف.

وقوله: ﴿كُلَّ مَرْصِدٍ﴾: قال بعض العلماء: هو منصوبٌ على أنه ظرف، ولما قاله الزجاج<sup>(٣)</sup> غَلَطَهُ فِيهِ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ<sup>(٤)</sup> وقال: إنَّ مثل هذا لا ينصب على الظرف؛ لأنَّ الطريق مكانٌ محصور

(١) البيت في القرطبي (٧٣/٨).

(٢) السابق.

(٣) معاني القرآن (٤٣١/٢).

(٤) انظر: الدر المصون (١١/٦).

كالمسجد والبيت، فلا يكون ظرفاً، وإنما هو منصوبٌ بنزع الخافض، ويدل على أنه منصوبٌ بنزع الخافض: هو ما قدمنا في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَلَا نَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] فعدها بالباء التي هي حرفُ الجر، ومعلومٌ عند علماء العربية أنَّ النصب بنزع الخافض لا يكون على المشهور قياساً مطرداً، يُحفظ ما سُمع منه ولا يقاس عليه، خلافاً للأخفش الصغير، وهو علي بن سليمان؛ لأنه يقول: إنَّ النزع بالخافض مطردٌ في كل ما أُمنَ فيه اللبس، وقد عقد مذهبه ابن مالك في الكافية فقال (١):

وابنُ سليمانَ اطرادَه رأى إن لم يُخَفْ لَبَسٌ ك (مَنْ زَيْدًا نَأَى)

وعلى هذا فمعنى ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: اقعِدوا لهم في كل طريق ترقبونهم وترصدونهم فيها حتى تأخذوهم في غرتهم، وعلى هذا فهو منصوبٌ بنزع الخافض. ونظيره من كلام العرب - في نصب الطريق، المرصد: هو الطريق، في نصبه وتقدير حرف الجر الذي هو منصوبٌ بنزعه - قول ساعدة بن جُوَيَّة الهذلي في بيته المشهور الذي هو من شواهد سيبويه في كتابه (٢):

لَدُنْ بِهِزِّ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّلْبُ

يعني: كما عسل - أي: جرى العسلان - الثلْبُ في الطريق.

وقال بعضُ العلماء: اختار بعض المتأخرين أنه ظرف، وإن كان محصوراً (٣)، وبذلك أعرب قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ

(١) شرح الكافية (٢/٦٣٣).

(٢) الكتاب (١/٣٦، ٢١٤).

(٣) انظر: البحر (٥/١٠)، الدر المصون (٦/١٢).

الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٦﴾ [الأعراف: آية ١٦] وهذا معنى: ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: اقتلوهم أولاً، وأسروهم، وحاصروهم في معاقلمهم وأماكنهم، وخذوا عليهم الطرق، وارصدوا لهم فيها لتأخذوهم.

وهذه أوامر من الله بأنه يُنذِل في التضييق على المشركين وقتلهم وأخذهم كل غاية المجهود. وهذا معنى قوله: ﴿وَاخْذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من كفرهم ورجعوا عن شركهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أقاموا صلاة المسلمين ﴿وَأَتَوُا الزَّكَاةَ﴾ وهي الحقوق الواجبة عليهم في الأموال، فالصلاة والزكاة معروفتان، وإقامة الصلاة: هي الإتيان بها على وجهها الأكمل من مراعاة أركانها، وشروطها، وسننها، وصلاتها في الجماعات، وأوقاتها، إلى غير ذلك. وإقامة الزكاة: هي إعطاء الواجب من الأنصبة التي بينها النبي ﷺ. إذا فعلوا هذا كله، بأن تابوا عن شركهم، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ السبيل<sup>(١)</sup> في اللغة: الطريق. والتخلية: معناه الترك. فمعنى ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ اتركوا طريقهم لا تقعدوا عليها، والعرب تقول: خَلَّ سبيل فلان. أي: اترك له الطريق، ولا تقعد له في طريقه، ولا تتعرض له. فإذا خَلَّيت له طريقه يمر ويذهب بها كيف شاء، معناه: أنك لم تتعرض له، وهذا معروف في كلام العرب كثيرٌ مبتذل، يقولون: خَلَّ سبيله، أي: اتركه ولا تتعرض له؛ لأن سبيله: طريقه الذي يمشي بها، فإذا لم تقعد له فيها ولم تتعرض له فقد تركته يذهب ويقبل ويدبر من غير أن تتعرض له،

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

وهو المعروف، ومن هذا المعنى قول ربيعة بن مكرم في رجزه المشهور في قصته مع دريد بن الصمة وأصحابه<sup>(١)</sup>:

خَلَّ سَبِيلَ الْحَرَّةِ الْمَنِيعَةِ      إِنَّكَ لَأَقِ دُونَهَا رِبِيعَهُ  
فِي كَفِّهِ خَطِيئَةَ مَطِيعَةٍ      أَوْ لَا فَخَذَهَا طَعْنَةَ سَرِيعَهُ

والطعن مني في الورى شريعة

معنى: «خَلَّ سَبِيلَهَا» لا تتعرض لها واترك طريقها تذهب فيها وتتوجه كيف شئت. ومن هذا المعنى قول كعب بن زهير<sup>(٢)</sup>:

فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ      فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ

وقوله: (خَلَّ سَبِيلَهَا) من كنايات الطلاق المعروفة عند الفقهاء في المذاهب. هذا معروف في كلام العرب، فكلُّ من تركته، وتركت له طريقه يذهب معها ويمر مقبلاً ومدبراً حيث شاء، فقد خليت سبيله، أي: تركته ولم تتعرض له، ومن هذا قول جرير يهجو عمر بن لحيء التميمي<sup>(٣)</sup>:

خَلَّ السَّبِيلَ لِمَنْ يَبْنِي الْمَنَارَ بِهِ      وَابْرَزَ بَبْرَزَةً حَيْثُ اضْطَرَّكَ الْقَدْرُ  
قَدْ خَفْتُ يَا ابْنَ ابْنِ التِّي مَاتَتْ مَنَافِقُهُ      مِنْ خَبْثِ بَبْرَزَةٍ أَنْ لَا يَنْزِلَ الْمَطْرُ

وهذا معنى: ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾.

(١) هذا الرجز في الأمالي (٢/٢٧١).

(٢) شرح قصيدة بانة سعاد للتبريزي ص ٣١.

(٣) البيتان في ديوانه ص ٢١١، شواهد الكشاف ص ٤٧، وبين البيتين سبعة عشر

بيتاً، ولفظ الشطر الأول من البيت الأول:

(خل الطريق...)

وهذه الآيةُ وأمثالها في القرآن هي التي تمسك بها الصديق أبو بكر (رضي الله عنه) في قتال أهل الردة، لما منعوا الزكاة، فإن الصحابة أولاً قالوا: كيف نقاتلهم وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟! ومن مثل هذه الآية استدلل أبو بكر (رضي الله عنه) لأن الله قال: ﴿فَحَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ بعد ثلاثة شروط، وهي: توبتهم من الشرك، وإقامتهم الصلاة، وإيتائهم الزكاة. وقد تقرر في علم الأصول، أن الشرط المشروط بشروطٍ متعدّدة لا يحصل المشروط إلا بجمعها. فلو قلت لعبدك: إن صام زيد، وصلى، وقام وقعد فأعطه ديناراً، فإنه لا يستحق الدينار إلا إذا فعل جميع الشروط كلها، ولذا تخلية سبيلهم مشروطةٌ بهذه الشروط كلها؛ لأن ما عُلق على شرطين أو شروط لا يتحصل إلا بجمع تلك الشروط، كما هو مقرر في الأصول. وأخت هذه الآية آتية قريباً في قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: آية ١١] مفهومه: أنهم إن لم يتوبوا، أو لم يقيموا الصلاة، أو لم يؤتوا الزكاة فلا تخلوا سبيلهم، وليسوا إخوانكم في الدين، أي: وهو كذلك.

وهذه الآية الكريمة قال بعض العلماء: يؤخذ منها أن من قال: «تُبْتُ» فقط لا يجتريء بذلك حتى يفعل أفعالاً تدل على صحة ما يقول؛ لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة براهين وأدلة على صدقه في توبته التي قال. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٥] كثير المغفرة والرحمة، ومن رحمته ومغفرته الكثيرة توبته ورحمته للذين تابوا من شركهم، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فهو كثير المغفرة والرحمة، يرحم هؤلاء ويغفر لهم؛ لأن من تاب تاب الله

عليه ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: آية ٣٨].

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: آية ٦].

(إِنْ) هي الشرطية. وقوله: ﴿ أَحَدٌ ﴾: يقول علماء العربية: إنَّه مرفوعٌ بفعلٍ محذوفٍ يفسره ما بعده. أي: وإن استجارك أحدٌ من المشركين؛ لأن ﴿ إِنْ ﴾ أداة شرط لا تتولى إلا الجمل الفعلية، فلا تتولى الجمل الاسمية؛ ولذا يقدر فعل بعدها. فـ ﴿ أَحَدٌ ﴾ عند علماء العربية فاعلٌ فعلٍ محذوفٍ يفسره ما بعده<sup>(١)</sup>.

والأحد معناه: الواحد، وأصل همزته مبدلة من واو، أصل الأحد: (وَحَد) بواو؛ لأنَّ هذه المادَّة أصلها واوية الفاء، وكثيراً ما تقول العرب في الوَحْدِ: الأحد، وربما نطقت بلفظ الوَحْدِ على أصله<sup>(٢)</sup>. ومن ذلك قول نابغة ذبيان<sup>(٣)</sup>:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا      بذى الجليل على مُسْتَأْنَسٍ وَحِدٍ  
وقوله: ﴿ اسْتَجَارَكَ ﴾ قد قَدَّمْنَا أَنَّ السَّيْنَ والتَّاءَ لِلطَّلَبِ فَمِنْ  
معاني (استفعل) أَنَّ السَّيْنَ والتَّاءَ لِلطَّلَبِ، كقولهم: «استغفر ربه»  
أي: طلبه المغفرة. و«استطعم» طلب الطعام، و«استسقى» طلب  
السقيا، و«استنجد» طلب النجدة. وهكذا. فقوله: ﴿ اسْتَجَارَكَ ﴾  
طلب الإجارة منك. والإجارة: هي الأمان. أن تجيره وتؤمنه من أذى

(١) انظر: القرطبي (٧٧/٨).

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢٧٥.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧١) من سورة البقرة.

قومك حتى يسمع ما أنزل إليك. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ قال بعض العلماء: لما نادى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في الموسم بهذه الآية من سورة براءة، أتاه قوم فقالوا: إن انتهت هذه الأشهر الأربعة وانقضت أشهر الإمهال، وكان الواحد منا يريد أن يسمع من محمد ما يقول لينظر هل يتبعه أو لا، يُقتل؟! فقال لهم علي: لا يُقتل؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾<sup>(١)</sup>.

معنى هذه الآية الكريمة بإيضاح: أنَّ بعض المشركين إذا أراد أن يسمع ما يقوله رسول الله ﷺ ليفهم معنى ما ينزل عليه ويعرف الأوامر التي يأمر بها، والنواهي التي ينهى عنها، والأشياء التي يدعو إليها، ليستيقن في قرارة نفسه أهو حقٌ فيتبعه أو يعلم أنه ليس بحق فيصد عنه، وطلب أن يجار، أن يُؤمَّن، وألا يصل إليه أذى حتى يسمع القرآن، ويفهم ما أنزل على النبي؛ ليكون على بصيرة من أمره في الأخذ والترك، فإنه يجب أن يعطى ذلك الأمان حتى يسمع ويُتلى عليه القرآن، ويُفهم بما فيه من الزواجر والمواعظ، ثم بعد ذلك إن أسلم فيها ونعمت، وإن أصرَّ على كفره وجب أن يرد إلى مأمنه وهو محل داره التي يأمن فيها. هذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ طلبك أن تجيره وتؤمنه.

﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ هو هذا القرآن العظيم. وهذه الآية الكريمة من سورة براءة نص صريح في أن هذا الذي نقرؤه وتتلوه هو

(١) هذا الأثر ذكره القرطبي في التفسير عن سعيد بن جبير مرسلًا (٧٦/٨)، وأبو السعود (٤/٤٤)، والألوسي (١٠/٥٣).

بعينه كلامُ الله، فالصوت صوت القارئ، والكلام كلام الباري؛ لأنَّ الله صرَّحَ بأنَّ هذا المشرك المستجير يسمع كلام الله يتلوه عليه نبي الله ﷺ. فهذا المحفوظ في الصدور، المقروء في الألسنة، المكتوب في المصاحف، هو كلام الله (جَلَّ وعلا) بمعانيه وألفاظه. ولا شكَّ أنَّ أصل الكلام صفة الله (جَلَّ وعلا).

ونحن لا نحب إكثار الخوض فيه؛ لأنَّ هذه الصفة هي منشأ البلايا والمحن<sup>(١)</sup>، ولكن نقول: إنَّ الكلام صفة الله التي لم يزل متصفاً بها، فلم يتجرد يوماً عن كونه متكلماً، فالكلام صفته المتصف بها أولاً لم يتجرد، ومع كونه متكلماً فهو في كل وقت يتكلم بما شاء كيف شاء، على الوجه اللائق بكماله وجلاله، فكلامه صفته ليس بمخلوق.

وقد أشرنا - مراراً - إلى المحنة التي ابتلى الله بها المسلمين في أيام الدولة العباسية بالامتحان بالقول بخلق القرآن؛ لأنَّ محنة القول بخلق القرآن نشأت في أيام المأمون، ولم تزل في أيام المأمون حتى مات، واستفحلت في أيام المعتصم واستحكمت، وفي أيامه ضرب سيد المسلمين في زمانه أحمد بن حنبل (رضي الله عنه وأرضاه)، يُضرب حتى يُرفع من محل الضرب لا يعرف ليلاً من نهار، وإذا أفاق قالوا له: قل: القرآن مخلوق. فيقول: لا، القرآن كلام الله، منه بدأ وإليه يعود. وكذلك مضى زمن الواثق والمحنة قائمة على ساق وقدم، وقد أزالها الله على يد المتوكل غفر الله له وعفا عنه؛ لأنَّ محنة القول بخلق القرآن أزالها المتوكل على الله بعد

(١) يريد (رحمه الله) ما نشأ بسبب الاختلاف في هذه الصفة، وإلا فهي صفة كمال من كل وجه.

أن مضت في زمن المأمون والمعتمد والواثق. وكان بعض المؤرخين يقولون: إنها في أخريات أيام الواثق أنها بردت وانكسرت شوكتها وضعف شرها. وقد قدمنا في هذه الدروس السابقة<sup>(١)</sup> أن ذلك على يد ذلك الشيخ الشامي، صاحب القصة المشهورة، وأنه شيخ جيء به من الشام أيام الواثق بالله، جيء به مكبلاً بالحديد ليمتحن ويقتل في محنة القول بخلق القرآن، وجيء به، وجلس الواثق يوماً – والرواية رواها الخطيب البغدادي عن ابن الواثق محمد من طرق أسانيدھا فيها ما يُنكر، ولكنها قصةٌ معناها صحيح، تلقاها العلماء بالقبول – وذلك أن الواثق لما أراد قتل ذلك الشيخ الشامي (رحمه الله) كان إذا أراد قتل أحد أحضر ولده محمداً – وهو الذي روى الخطيب هذه القصة من طريقه – فجيء بالرجل مقيداً بالحديد، فقال للواثق: السلام عليك يا أمير المؤمنين!! قال: لا سلّمك الله. فقال الشيخ: بئس ما أدّبك مؤدّبك يا أمير المؤمنين!! الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَحَيَّوْا بِأَحْسَنِ مَنَآ أَوْ رُدُّوهُآ﴾ [النساء: آية ٨٦] والله ما حييت بأحسن منها ولا رددتها. فقال الواثق: ائذنوا لأبي عبد الله – يعني الخبيث أحمد بن أبي دؤاد، عامله الله بما هو أهله؛ لأنه سبب هذه البلايا والمحن – وأحضره، فقال له ابن أبي دؤاد: الرجل متكلم!! فقال الواثق لابن أبي دؤاد: ناظر هذا الرجل. فقال الشيخ الشامي: ابن أبي دؤاد أحقر من أن يناظرني – كما جاء في بعض روايات قصته – فقال له ابن أبي دؤاد: ما تقول في القرآن؟ فقال الشيخ: يا ابن أبي دؤاد: ما أنصفتني. يعني: أن الذي يراد أن يقدم للقتل أحق بأن يكون هو السائل. فقال له: سل. فقال: ما تقول يا ابن أبي دؤاد

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٤) من سورة الأنعام.

في القرآن؟ قال: أقول إنه مخلوق. قال: مقاتلك هذه التي تدعو الناس إليها، وتأمروهم بها، ويفتن الخلفاء فيها يمتحنون فيها الناس بفتياك ورأيك، هل كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون — أبو بكر وعمر وعثمان وعلي — هل كانوا عالمين بها أو لا؟ فقال ابن أبي دؤاد: ما كانوا عالمين بها. فقال الشيخ الشامي: ما شاء الله!! ما شاء الله!! جهلها رسول الله وخلفاؤه الراشدون وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعلمها ابن أبي دؤاد!!، فقال ابن أبي دؤاد: أقلني، والمناظرة على بابها. فقال له: ذلك لك. ثم قال له: ما تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. قال: مقاتلك هذه التي تدعو الناس إليها هل كان رسول الله وخلفاؤه الراشدون عالمين بها أو لا؟ قال: كانوا عالمين بها، ولكنهم لم يدعوا الناس إليها. فقال له الشيخ الشامي: يا ابن أبي دؤاد: ألم يسعك في أمة محمد ﷺ ما وسع رسول الله في أمته، ووسع خلفاء الراشدين في رعاياهم؟! فألقمه حجراً وسكت، وقام الواثق وجلس في محل خلوته واضطجع، وجعل رجله على ركبته وقال: جهلها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعلمها ابن أبي دؤاد؟ ما شاء الله!! ما شاء الله!! ثم قال: علمها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون ولم يدعوا الناس إليها، ألم يسعك يا ابن أبي دؤاد ما وسع رسول الله وخلفاء الراشدين في أمة محمد ﷺ؟ ثم دعا بالحداد وقال له: اذهب وفكّ قيد هذا الشيخ الشامي. وأعطاه أربعمئة دينار، وقال له: انصرف راشداً إلى أهلك. وذكر الخطيب في بعض روايات هذه القصة بأسانيد ليست قائمة أنه بعد ذلك لم يمتحن أحداً. بل روى — أيضاً — عنه أن الواثق رجع عنها في أخريات حياته.

وعلى كل حال فالقرآن كلام الله وصفته الأزلية، ليس بمخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو صفته الأزلية لم يتجرد عن كونه متكلماً يوماً ما، وهو في كل يوم يتكلم بما شاء، كيف شاء، على الوجه اللائق بكماله وجلاله (جَلَّ وَعَلَا) من غير مشابهة للخلق، ومن غير تعطيل له من صفته (جَلَّ وَعَلَا). وهذا معنى قوله: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾.

﴿ثُمَّ أبلغَهُ مَأْمَتَهُ﴾ [التوبة: آية ٦] أبلغه إياه: أوصله إليه. والمأمن هنا: اسم مكان - أيضاً - كالمرصد، فالمأمن والمرصد كلاهما اسم مكان، فالمرصد مكان الرصد، والمأمن: مكان الأمن، أي: أبلغه مكان أمنه، وهو داره الذي جاء منها، وأهله الذي جاء من قبلهم. وهذا معنى قوله: ﴿أبلغَهُ مَأْمَتَهُ﴾ ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الأمر بإجارة المشرك المستجير حتى يسمع كلام الله ويتفهمه واقع بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون الوحي، ولا يفهمون عن الله، فإذا طلبوا أن يعلموا ويتعلموا ويسمعوا ما جاء عن الله فلا تمنعوه من ذلك، فأمنوهم حتى يسمعوا ويتفهموا ويعرفوا الحق لعل الله يهديهم، وهذا معنى قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا

الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾  
[التوبة: الآيات ٧ - ١١].

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٧].

لما أنزل الله أول هذه السورة ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: آية ١] فنذ العهد إلى كل المعاهدين، وأعلمهم بأنهم حرب بعد مضي أربعة أشهر، ولم يستثن من ذلك إلا القوم الذين ثبتوا على عهدهم ولم ينقضوه، ولم يظاهروا أحداً على المؤمنين، بيّن في هذه الآية الكريمة أنّ ذلك الحكم المذكور في أول هذه السورة أنّه حكم واقع في محله، وأنّ نذ العهود إلى المشركين أمرٌ في غاية الإحكام والصواب؛ لأنه قال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (كيف) هنا حرف يدل على الاستبعاد، يُستبعد جداً أن يكون للمشركين عهد يُحفظون به ويأمنون به على أنفسهم وأموالهم، مع خبث ما يبطنونه من العداوة للمسلمين.

/ والمعنى: أنّ نذ عهودهم إليهم حكم في غاية الصواب واقع [١/٢] في موقعه، موضوع في موضعه؛ لأنهم أهل خبثٍ وأهل عداوةٍ ومكرٍ للإسلام، يستحقون بنذ عهودهم إليهم، وأن يكونوا حرباً، إلا الطائفة الذين ثبتوا. وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ يأمنون به على أنفسهم وأموالهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ يأمر نبيه بالوفاء به ﴿وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ ﷺ يعمل لهم بمقتضاه ﴿إِلَّا﴾ الطائفة الثابتة التي لم يوجد منها غدر ولا مكر فهؤلاء مستثنون كما تقدم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٧] لأن صلح الحديبية الذي عقده النبي ﷺ مع قريش بواسطة سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) دخل في حلف قريش ودخل في صلحهم معهم قبائل من كنانة بن مدركة، منهم: بنو الدليل، وبنو ضمرة، وبنو مدلج أولاد بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو جذيمة بن عامر، عامر هو ابن عبد مناة بن كنانة أخو بكر. فهم أربع قبائل من كنانة، هؤلاء القبائل الأربع من كنانة بن مدركة كانوا أهل عهد مع النبي ﷺ مع قريش، ثم نقض العهد منهم بنو الدليل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بأن عدوا على خزاعة، ونقض معهم قريش حيث أعانوهم على الخزاعيين، وبقي بنو ضمرة وبنو جذيمة بن عامر وبنو مدلج على عهدهم لم ينقضوا، وهم الذين استثناهم الله<sup>(٢)</sup>.

وهذه المعاهدة وقع عهدها في الحديبية كما عليه جميع المؤرخين. والله (جلَّ وعلا) ذكر أنها في المسجد الحرام، والتحقيق أن الحديبية بعضها في الحلّ وبعضها في الحرم. وهذه الآية تدل على أن معاهدة الحديبية وقعت في الطرف منها الذي هو من الحرم؛ لأنه جرت العادة أن الله ربِّما أطلق المسجد الحرام وأراد به جميع الحرم، فالمراد به هنا: إلا الذين عاهدتم في حرم الله عند الحديبية.

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وقد أكملت بقية الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

وأطلق على اسم الحرم «المسجد الحرام» لأنه من أهم أجزائه، وهو أسلوبٌ عربي معروف<sup>(١)</sup>، ومن إطلاق المسجد الحرام على جميع الحرم: ﴿وَلَا تُقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُفْتَلُوا فِيهِ﴾ [البقرة: آية ١٩١] أي: لا تقبلوهم في جميع الحرم؛ ولأجل هذه الإطلاقات سيأتيكم أن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: آية ٢٨] أن المراد به لا يقربوا الحرم كله بعد هذا العام. وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ في صلح الحديبية ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ﴾ (ما) مصدرية ظرفية، وهي منصوبة بـ «استقيموا»<sup>(٢)</sup>، أي: استقيموا لهم وأوفوا لهم بالعهد إلى تمام مدتهم في جميع المدة التي استقاموا فيها لكم، ولا تبدؤوهم بنقض العهد. وهذا معنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ كما تقدم في قوله: ﴿فَأْتُوا إِلَيْهِمْ عَاهِدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٤] هذا معنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾. والذين قالوا: إنها نزلت في قريش<sup>(٣)</sup>. يظهر أن قولهم خلاف التحقيق؛ لأن قريشاً نقضوا العهد وحاربهم النبي ﷺ في فتح مكة قبل نزول هذه الآيات من براءة؛ لأنها نزلت عام تسع، وأرسل النبي بها علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بعد أبي بكر ينادي بها في الموسم عام تسع. وفي ذلك الوقت أهل مكة قد نقضوا قبل هذا بزمان، وغزاهم النبي ﷺ

(١) سيأتي عند تفسير الآية (٢٨) من هذه السورة.

(٢) انظر: الدر المصون (١٥/٦).

(٣) انظر: ابن جرير (١٤٣/١٤).

وفتح مكة عنوة على التحقيق، وظفر بهم، وسُموا الطلقاء، وأعطى عهداً لمن أراد منهم أن يتربص كصفوان بن أمية ومن في معناه. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ويدخل في المتقين دخولاً أولياً: الذين لا ينقضون العهود ويوفون بالعهود؛ لأن الوفاء بالعهد وعدم نقضه ونكته من تقوى الله (جلّ وعلا)، والمتصف بالتقوى يحبه الله. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: آية ٨].

هذا تأكيد بعد تأكيد؛ لأن حكم الله بنذ العهود إلى الكفار أمرٌ في غاية الإحكام والصواب، واقعٌ في موقعه، موضوعٌ في موضعه، والفعل هنا محذوف دلّ ما قبله عليه<sup>(١)</sup>. أي: كيف يكون لهم عهدٌ عند الله وعند رسوله وحالهم أنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: إن يغلبوكم ويقهروكم ويجدوا فرصة يهينونكم بها لا يراعون فيكم العهود ولا الذمم، ولا يراعون شيئاً، بل يقتلونكم، فمن كانوا بهذه المثابة من الغدر والمكر والخيانة وسوء الطوايا والنيات، نذ عهودهم إليهم هو أمرٌ في غاية الحكمة والإصابة. وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا﴾ كيف يكون لهم – للمشركين – عهد والحال أنهم إن يظهروا، وقد علّم من اللغة العربية أن العرب ربّما تحذف الفعل بعد (كيف) إذا تقدم ما يدلّ عليه؛ لأن (كيف) هنا حُذف بعدها

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٤٥)، القرطبي (٧٨/٨).

قوله: ﴿كَيْفَ﴾ يكون لهم عهدٌ عند الله وعند رسوله والحال أنهم  
وغيره صدورهم، حرب أصدقاء ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا  
وَلَا ذِمَّةً﴾ ونظير هذا من كلام العرب في حذف الفعل بعد كيف إذا دلّ  
المقام عليه قول الشاعر<sup>(١)</sup>:

وَخَبَّرْتُ مَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَى  
فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةٌ وَقَلْبُ

ويروى: «فكيف وهاتا هضبة وكثيب»، هذا قاله بدويّ أعرابي  
قال له قوم: إن القرى والمدن والحضر فيها الوباء، يموت الناس فيها  
غالباً. والصحة أجود في الصحاري؛ لأن أهلها أقلّ موتاً!! فخرج  
إلى الصحراء، فلما خرج إلى الصحراء فإذا قبر في الصحراء بجانب  
كثيب وهضبة فقال:

وَخَبَّرْتُ مَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَى  
فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةٌ وَقَلْبُ

أي: فكيف مات هذا وهو في البادية وليس في القرى؟ وهذا  
معنى قوله: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ ﴿يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾  
معناه: يغلبوك وينتصروا عليكم، تقول العرب: ظهروا عليهم: إذا  
غلبوهم وانتصروا عليهم. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ  
فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: آية ١٤] أي غالبين منتصرين؛ لأن أصل  
(ظَهَرَ): علاه فطلع على ظهره، والغالب كأنه يعلو المغلوب حتى  
يقف على ظهره، ومنه قوله: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوا  
ظهره<sup>(٢)</sup> ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقْبًا﴾ [الكهف: آية ٩٧]. كيف يكون

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو في ابن جرير (١٤٥/١٤)، القرطبي  
(٧٨/٨).

(٢) انظر: القرطبي (٧٨/٨).

لهم عهد وهم بهذه المثابة من خبث النيات والطويات، وشدة العداوة، وغرّة صدورهم، والحال ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يغلبوكم ويقهروكم وينتصروا عليكم ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ أي: لا يراعوا فيكم.

﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾ ولا يحفظوا لكم ﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾ اعلموا أن المراد بـ (الإلّ) هنا فيه لعلماء التفسير أقوالٌ متقاربة<sup>(١)</sup>:

قال بعض العلماء: (الإلّ) اسم الله بالعبرانية. واستأنسوا لهذا ببعض القراءات الشاذة: (لا يرقبوا فيكم إيلًا ولا ذمة)<sup>(٢)</sup> والإيل من أسماء الله بالعبرية. فجبرائيل معناه: عبد الله، وإسرافيل: عبد الله، وإسراييل: عبد الله. وهذا القول قال به جماعة من العلماء، أن (الإيل) (والإلّ) تطلق على الله، ومعروفٌ في قصة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) أنه لما جاءه قوم من أصحاب مسيلمة الكذاب وقال لهم: اقرؤوا علي مما يدعي أنه ينزل عليه. فقرؤوا عليه شيئاً من ترّهات مسيلمة الكذاب، فقال: أنتم تعلمون أن هذا لم يخرج من إلّ؛ أن هذا كلام لم يصدر من الله. وعلى هذا القول فالمراد: إن يظهروا عليكم ويغلبوكم لا يراقبوا فيكم الله، ولا يراعوا فيكم الله، ولا العهود. هذا قال به قوم.

وقالت جماعات من العلماء: (الإلّ) هنا المراد به القرابة، أي: لا يراعون فيكم قرابة، بل يقتلونكم وإن كنتم من قراباتهم. وبهذا قال جماعات من علماء التفسير، وإطلاق الإلّ على القرابة

(١) انظر: ابن جرير (١٤٦/١٤ - ١٤٩)، القرطبي (٧٩/٨)، الدر المصون (٢٠ - ١٧/٦).

(٢) انظر: المحتسب (٢٨٣/١).

معنى معروف في كلام العرب مشهور، ومنه قول تميم بن مقبل<sup>(١)</sup> :  
 أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا      قَطَّعُوا الْإِلَّاءَ وَأَعْرَاقَ الرَّحِمِ  
 أي: قطعوا القرباب ولم يصلوها، ومنه بهذا المعنى قول  
 حسان بن ثابت رضي الله عنه<sup>(٢)</sup> :

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِيَّكَ فِي قُرَيْشٍ      كَيْلَ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ  
 يعني: إن قرابتك في قريش كذب كقراية السقب الذي هو  
 الحوار - أعني ولد الناقة - من رأل النعام، ولا قرابة بين أولاد الإبل  
 وأولاد النعام، ومن هذا المعنى قول يزيد بن مفرغ الحميري في شعره  
 الذي ينفي به نسب زياد بن أبيه عن قريش، ويعاتب معاوية في  
 استلحاقه له؛ لما كان بينه وبين عبّاد بن زياد من العداوة، وما أهانه  
 به عبّاد بن زياد كما هو معروف، قال يزيد بن مفرغ الحميري في ذلك  
 أبياته المشهورة التي يقول فيها<sup>(٣)</sup> :

أَلَا أُبْلِغُ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ      مَغْلَغَلَةً مِنَ الرَّجْلِ الْيَمَانِي  
 أَتَغْضَبُ أَنْ يُقَالَ أَبُوكَ عَطْفٌ      وَتَرْضَى أَنْ يُقَالَ أَبُوكَ زَانِي  
 إلى أن قال في ابن زياد:

فَأَشْهَدُ أَنْ إِيَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ      كَيْلَ الْجِلِّ مِنَ وَلَدِ الْأَتَانِ  
 أي: إن قرابتك في قريش، وهذا معنى معروف في كلام  
 العرب، وعلى هذا القول ﴿لَا يُرْفِقُونَ﴾ أي: لا يراعون ولا يحفظون

(١) البيت في ابن جرير (١٤٨/١٤).

(٢) ديوانه ص ٢٤٢، والسقب: ولد الناقة، والرأل: ولد النعام.

(٣) الأبيات في تاريخ دمشق (٦٥/١٨٠ - ١٨١) ولفظ البيت الثالث فيه:

فَأَشْهَدُ أَنْ رَحِمَكَ مِنْ زِيَادٍ      كَرَحِمِ الْفَيْلِ مِنْ وَلَدِ الْأَتَانِ

فيكم ﴿إِلَّا﴾ أي: قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةٌ﴾ أي: لا قرابة ولا عهداً، وقال بعض العلماء: الإلّ هو الحلف، فالعرب تقول: بيني وبين فلان إلّ. إذا كان بينكما حلف. قالوا: واشتقاق (الإلّ) أنهم كانوا إذا تحالفوا وتماسحوا بالأيدي عند الحلف رفعوا أصواتهم، والعرب تقول: «ألّ، يؤلّ» إذا صرخ ورفع صوته، ومنه: «أليل المريض» أي: أنين المريض المرتفع، والعرب تقول: «دعت الجارية أَلَّيْهَا» إذا ولولت؛ لأن الأليل صراخٌ وصوت. ومن قولهم: «دعت الجارية أَلَّيْهَا» إذا ولولت قول الكميّ<sup>(١)</sup>:

وَأَنْتَ مَا أَنْتَ فِي غَبْرَاءَ مُظْلَمَةٍ إِذَا دَعَتْ أَلَّيْهَا الْكَاعِبُ الْفُضْلُ

وقال قومٌ آخرون: إن (الإلّ) معناه العهد. وعلى هذا القول فهو شيءٌ معطوفٌ على نفسه باختلاف اللفظين، وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(٢)</sup> أن عطف الشيء على نفسه بلفظين مختلفين أنه أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ؛ لأن المغايرة في اللفظ ربما نزلتها العرب كمغايرة المعنى. وهذا الأسلوب في اللغة العربية وفي القرآن، فمن أشهر أمثله في القرآن قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [١] الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ [الأعلى: الآيات ١ - ٤] لأن (الذي) و (الذي) كلها واقعة على شيء واحد هو الله (جلّ وعلا)، إلا أنه لما اختلفت الألفاظ صار العطف بسبب اختلافها، وهو أسلوب معروف في العربية، ومن شواهد المشهورة قول الشاعر<sup>(٣)</sup>:

(١) البيت في اللسان (مادة: أَلّ) (١/٨٦)، الدر المصون (٦/٢٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم  
وهو كثير في كلام العرب، ومما أنشده له صاحب اللسان قول  
الشاعر<sup>(١)</sup>:

إني لأعظم في صدر الكمي على ما كان في زمن التجدير والقصر  
وقول عنزة في معلقته<sup>(٢)</sup>:

حييت من طلل تقادم عهدُه أقوى وأقفر بعد أم الهيثم  
لأن الإقواء) و (الإقفار) معناهما واحد. و (التجدير)  
و (القصر) معناهما واحد.

واختار كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري  
— رحمه الله — أن هذه المعاني كلها يجب حمل (الإل) عليها؛ لأنه  
شامل للعهد والقراية، والحلف<sup>(٣)</sup>، أي: لا يراعون فيكم عهداً،  
ولا قراية، ولا حلفاً، ولا يراعون الله فيكم. وهذا الذي ذهب إليه هو  
من حمل المشترك على معانيه، وحمل المشترك على معانيه أو معانيه  
مما اختلف فيه علماء الأصول، والذي حرره المحققون من أصولي  
أصحاب المذاهب الأربعة هو جواز حمل المشترك على معانيه  
أو على معانيه<sup>(٤)</sup>، فيجوز أن تقول مثلاً: عدا اللصوص البارحة على

(١) البيت في اللسان (مادة: جدر) (٤١٧/١).

(٢) البيت في ديوانه ص ١١٨.

(٣) تفسير ابن جرير (١٤٨/١٤).

(٤) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/١٨٩ - ١٩٥)، البحر المحيط في أصول الفقه

(٢/١٢٦ - ١٤٨، ٣/١٦٦ - ٤٧٢)، مجموع الفتاوى (١٣/٣٤٠ - ٣٤١)،

زاد المعاد (٥/٦٠٦)، قواعد التفسير (٢/٨١٩).

عين زيد. تعني: أنه عَوَّرُوا عينه الباصرة، وِغَوَّرُوا عينه الجارية، وسرقوا عينه التي هي ذهبه وفضته فتحمله على الجميع إذا قصدت ذلك وكان في كلامك ما يدل عليه، وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

﴿يَرْقُبُوا﴾ معناه: يحفظوا ويراقبوا ويراعوا. والذمة: معناه العهد، وكل ما تجب المحافظة عليه ويؤاخذ بنكته تسميه العرب (ذمة). وهو هنا: العهد، وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني: يبذلون لكم الكلام الطيب الحلو باللسان دون ما في القلوب؛ لأن ما في قلوبهم من البغض وإضرار العداوة والشحناء لا يساعد وما تجري به ألسنتهم، فالألسنة تقول شيئاً وما تنطوي عليه الصدور شيءٌ آخر. وهذا معنى قوله: ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ أن توافق ما ينطقون به بأفواههم لما هي منطوية عليه من الكفر والبغض وشدة العداوة لكم. وهذا معنى قوله: ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٨﴾ والقلوب هنا جمع قلب. وهذه الآيات وأمثالها تدلُّ على أن الذي يدرك ويقع فيه الإباء والانقياد وجميع أنواع الإدراك كله القلب<sup>(١)</sup>. وذلك أمرٌ لا شك فيه؛ لأن الذي خلق العقل ومنّ بالعقل أعلم حيث وضع العقل، فالله (جلّ وعلا) في آيات كتابه يبيّن دائماً أنه جعله في القلب كقوله: ﴿قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٧٩] وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿٤٦﴾ [الحج: آية ٤٦] ولم يقل الله يوماً ما: «ولكن تعمي الأدمغة التي في

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

الرؤوس». ولم يقل: «فإنها لا تعمي الأدمغة» أبداً؛ لأن العقل محلُّ القلب هذا جاء به الوحي الصحيح وكلام من خلق القلب وتفضّل بالقلب، فلم يأت في آية واحدة ولا في حديث واحد أن مركز العقل في الدماغ أبداً، لم يقل الله: «لهم أدمغة يفقهون بها» أبداً، ولكن يقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾، و﴿وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ﴾ ولم يقل: «وتأبى أدمغتهم» أبداً، والذي خلق القلب ومن به ووضعه لا شك أنه أعلم بالمحل الذي وضع به من فلسفات الكفرة الفجرة الجهلة وأذنانهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨) الفسق: الخروج عن طاعة الله، فكل خارج عن طاعة الله فهو فاسق، ومنه قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: آية ٥٠] أي خرج عن طاعة ربه، والعرب تقول: «فسق عن الطريق» إذا خرج منها. ومنه قول الراجز<sup>(١)</sup>:

يَهْوِينَ فِي نَجْدٍ وَغَوْرًا غَائِرًا      فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا  
فَوَاسِقًا: أي: خارجات عن طريقهن.

والمراد بالفسق شرعاً: هو الخروج عن طاعة الله. والخروج عن طاعة الله قد يعظم، وقد يكون بعضه أعظم من بعض، فالخروج الأكبر هو الكفر بالله، والمعاصي والكبائر خروج دون خروج؛ ولذا سُمِّي الكافر فاسقاً؛ لأنه خارج عن طاعة الله الخروج الأعظم، كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٦٦) [البقرة: آية ٢٦] وقد يطلق الفسق على خروج دون خروج، كالمرتكب لبعض الذنوب، كقوله: ﴿إِنْ جَاءَكَ كُفْرٌ فَاسِقٌ يُنْبَأُ﴾ [الحجرات: آية ٦].

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يُقال: لِمَ قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٨﴾ وهم جميعهم فاسقون، أكثرهم وأقلهم، كلهم فاسقون، فما وجه التعبير بقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؟.

أجاب جماعة من العلماء عن هذا السؤال بأن المراد بالفسق هنا فسق خاص، وهو فسق نقض العهود وعدم الوفاء بها<sup>(١)</sup>، أي: وأكثرهم ناكثون، ناقضون للعهود، فاسقون هذا النوع الخاص من الفسق. وإن كان الجميع مشتركين في أنواع الفسق والكفر. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٨﴾.

﴿أَشْتَرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنْتَهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩﴾ [التوبة: آية ٩].

﴿أَشْتَرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الاشتراء في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه: الاستبدال، فكل أحد استبدل شيئاً من شيء تقول العرب: اشتراه، فالاشتراء في لسانها يتناول كل استبدال كائناً ما كان، ومن هذا المعنى قول الراجز<sup>(٢)</sup>:

بُدِّلْتُ بِالْجُمَّةِ رَأْسًا أَزْعَرَا      وَبِالْثَنَائِيَا الْوَاضِحَاتِ الدَّرْدَرَا  
كما اشترى المسلمُ إذ تنصَّراً

أي: كما تبديل المسلم، إذا أخذ النصرانية بدل الدين.

والثمن في لغة العرب: تطلقه على كل عوض كائناً ما كان، تسميه العرب ثمناً. أما إطلاق (الشراء) على الثمن والمثمن، وتسمية المبيع (مُثْمَنًا)، والمدفوع فيه (ثمناً) فهو اصطلاح خاص للفقهاء في

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٥٠)، البغوي (٢/٢٧١)، القرطبي (٨/٨٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

البيوع. ومن إطلاق (الشراء) على الاستبدال و(الثمن) على كل عوض في اللغة العربية قول علقمة بن عبدة التميمي<sup>(١)</sup>:  
والْحَمْدُ لَا يُشْتَرَى إِلَّا لَهُ ثَمَنٌ      مِمَّا تَضِنُّ بِهِ النَّفْسُ مَعْلُومٌ  
ومن هذا المعنى قول ابن أبي ربيعة المخزومي<sup>(٢)</sup>:

إِنْ كُنْتَ حَاوَلْتَ دُنْيَا أَوْ أَقَمْتَ لَهَا      مَاذَا أَخَذْتَ بِتَرْكِ الْحَجِّ مِنْ ثَمَنٍ  
أي: من عوض يخلفه لك. وهذا معنى ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾  
استبدلوا بآيات الله الشرعية - التي هي هذا القرآن العظيم - تركوها  
وتعوضوا منها ثمناً قليلاً. واختلف العلماء بالمراد بهذا الثمن  
القليل<sup>(٣)</sup>، فقال جماعة من العلماء: هي نزلت في قوم من الأعراب  
الذين كانوا عاهدوا النبي ﷺ فدعاهم أبو سفيان بن حرب،  
وأطعمهم أكلةً، ونقضوا العهود بسبب ذلك. وهذا قاله جماعة كثيرة  
من المفسرين في هذه الآية. وهو مستبعد جداً؛ لأن هذه الآية من  
براءة نزلت بعد إسلام أبي سفيان؛ لأن أبا سفيان أسلم عام الفتح عام  
ثمان، وهذه نزلت عام تسع.

وقال بعض العلماء: هي في اليهود؛ لأنهم هم الذين تبدلوا  
الرُّشَا من بيان الحق، وهو ضعيف أيضاً.

والتحقيق - إن شاء الله - أن المعنى: أن الكفار تبدلوا من  
آيات الله والعمل بما جاء عن الله ثمناً قليلاً من متاع الحياة الدنيا،  
وهو - مثلاً - عدم التقيد بالشرع، وبقاؤهم على ما كانوا عليه،

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٤/١٥٠)، البغوي (٢/٢٧١)، القرطبي (٨/٨٠).

وَاتَّبَعَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ، كما قال (جل وعلا): ﴿يَشْتَرُوا بِهٖٓ أَنْفُسَهُمْ  
 أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [البقرة: آية ٩٠] فتعوضوا من هذا  
 اتباعهم هواهم، وبقاءهم على ما كانوا عليه؛ لأنه أحب إليهم. وهذا  
 شيء تافه تعوضوا منه سعادة الدنيا والآخرة. وهذا معنى قوله:  
 ﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الظاهر أن (صد)<sup>(١)</sup> هنا هي المتعدية،  
 والمفعول محذوف. أي: فصدوا الناس عن سبيله؛ لأن صدودهم  
 في أنفسهم معلوم من قوله: ﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لأن من  
 اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً فهو صاد عن سبيل الله، فبين أنهم  
 ضلّال بقوله: ﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا﴾ وبين أنهم مضلون بقوله:  
 ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: صدوا غيرهم عن سبيل الله (جل وعلا).

والسبيل: معناه الطريق. وسبيل الله: دين الإسلام؛ لأنه طريق  
 الله التي أمر بها ووعده الجزاء الحسن لمن اتبعها؛ ولذا سُميت:  
 (سبيل الله) أي: طريقه التي يدعو إليها، والتي توصل إلى رضاه،  
 وإلى نيل ما عنده من الكرامة.

وقد قدمنا أن (السبيل) تُذَكَّرُ وتؤنث<sup>(٢)</sup>، فمن تذكيرها في  
 القرآن: قوله تعالى: ﴿وَلِإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا  
 سَبِيلَ اللَّغْيِ يَتَّخِذُوهُ﴾ [الأعراف: آية ١٤٦] برجوع الضمير مذكراً على  
 السبيل. ومن تأنيث السبيل: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف:  
 آية ١٠٨] ولم يقل: «هذا سبيلي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ».

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥، ١١٦) من سورة الأنعام.

وهذا معنى قوله: ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ [التوبة: آية ٩].

﴿ سَاءَ ﴾: فعل جامد لإنشاء الذم. هو بمعنى (بئس)؛ لأن (ساء) بمعنى (بئس) وتعمل عمل (بئس) (...).<sup>(١)</sup>

و (ما) إذا جاءت بعد (بئس) أو (نعم) قال بعض العلماء: يجوز أن تكون نكرة مميزة للفاعل الذي هو الضمير المحذوف، ويجوز أن تكون هي فاعل (بئس) و (ساء) و (نعم)<sup>(٢)</sup>. وهذا معنى قوله: ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ ﴾ فعلى أنها مميزة بالتقدير: (ساء هو) أي: بئس هو شيئاً كانوا يعملونه. وعلى أنه فاعل فالأمر واضح. وهذا معنى قوله: ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ ﴾ [التوبة: آية ١٠] كائناً من كان ﴿ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ أي: قرابة ولا عهداً. أو: لا يرقبون في مؤمن الله، لا يرقبون الله ولا يخافونه في المؤمنين فيتقون الله فيهم.

ثم قال: ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ المعتدي: (مُفْتَعِل) من العدوان، والعدوان: مجاوزة الحد. والمراد بالمعتدين: الذين يجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم. وهذا معنى قوله: ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

ثم قال: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ [التوبة: آية ١١] فسرناها بالأمس.

﴿ فَأِيخْوَانِكُمْ ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين. مفهومه: أنهم إن

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (١١٧/٢).

لم يتوبوا من الشرك، أو لم يقيموا الصلاة، أو لم يؤتوا الزكاة لا يكونون إخواننا في الدين. وهذا معنى قوله: ﴿فإخوانكم في الدين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَفُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ آيات هذا القرآن العظيم، نفلها معناه: نبينها ونوضحها، ولا نترك بها إجمالاً.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١١) إنما خص القوم الذين يعلمون لأنهم هم المنتفعون بها؛ لأن من لم يرزقهم الله علماً لا ينتفعون بها. وجرت العادة في القرآن أنه يخص بالشيء العام المنتفعين به دون غيرهم، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ (٤٥) [النازعات: آية ٤٥] لأنه المنتفع بالإندار، وإن كان منذراً للأسود والأحمر ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: آية ١١] لأنه المنتفع مع أنه منذر للأسود والأحمر ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٤٥) [ق: آية ٤٥] لأنه هو المنتفع، وإن كان يُذَكِّرُ جميع الخلق بالقرآن<sup>(١)</sup>. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى. ونرجو الله (جلّ وعلا) أن نكون ممن يفهم عن الله تفصيله لآياته؛ لأن هذا القرآن العظيم فصل الله فيه كل شيء، وأوضح فيه كل شيء ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكُتُبٍ فَصَلَّتْهُمْ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ الآية [الأعراف: آية ٥٢].

﴿وَأَن تَكُونُوا أَتَمَنَّا مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَالُوا أَبِئِمَّةٍ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهِمْ يَتْتَهَوْنَ﴾ (١٢) ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَّكَرُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَرَّتْ لَكُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣) ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾  
 وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ  
 حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا  
 رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [التوبة: الآيات  
 ١٢ - ١٦].

[هذه] <sup>(١)</sup> الآيات من سورة براءة يكاد المفسرون من الصحابة  
 فمن بعدهم يُجمعون على أنها نازلة في نقض أهل مكة للعهد الذين  
 عقده مع النبي ﷺ بالحديبية <sup>(٢)</sup>، وذلك يدل على أن بعض هذه  
 الآيات من سورة براءة نزلت قبل التاريخ الذي كنا نقول؛ لأن هذا  
 نازل قبل عام تسع على القول بأنها في أهل مكة، وعامة المفسرين  
 يقولون: إنها فيهم، ولا نعلم أحداً ممن اشتهر عنهم أخذ العلم يقول  
 في غيرهم إلا القول المروي عن حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) أن  
 هذه في قوم لم يقاتلوا بعد وقت نزولها <sup>(٣)</sup>. وعلى هذا القول فلا  
 تُحفظ تفاصيل لهذا النكت والنقض، بل الظاهر والسياق يقتضي أنها  
 في أهل مكة؛ لأن قوله: ﴿وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة:  
 آية ١٣] الذين هموا بإخراجه هم أهل مكة، وعلى هذا عامة  
 المفسرين.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا أَتَمْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾

(١) في هذا الموضوع وُجد انقطاع يسير في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة  
 يتم بها الكلام.

(٢) انظر: ابن جرير (١٥٤/١٤)، القرطبي (٨٤/٨).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٥٦/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٦١/٦)، وأورد البغوي

(٢٧٢/٢) عن مجاهد قوله: «هم أهل فارس والروم».

[التوبة: آية ١٢] النكث في لغة العرب: هو تفكيك طاقات الشيء المفتول، فالحبل المفتول - مثلاً - إذا فككت طاقاته، وجعلت كل واحدة منها على حدة فقد نكثته، وقد نقضته، كما في قوله: ﴿كَأَلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل: آية ٩٢] جمع نكث. وعلماء البلاغة يقولون: إن النكث والنقض حقيقة في الحسيات، كل مفتول فككت بين طاقاته فقد نقضته وقد نكثته، وأنها في المعنويات كالعهود مستعارة<sup>(١)</sup>. ونحن دائماً نقول: إنها أساليب عربية نطق بها العرب منذ تكلمت بلغتها، ونزل بها القرآن، يطلق النكث على تفكيك طاقات الحبل، ويطلقه أيضاً على الإخلال بالعهود ونقضها وإبطالها.

﴿وَإِنْ تَكُونُوا آيْمَنَهُمْ﴾ الأيمان: جمع يمين. قال بعض العلماء: هي العهود<sup>(٢)</sup>. وقال بعض العلماء: هي الأيمان التي تؤكد بها العهود؛ لأنهم إذا أخذت عليهم العهود أكدوها بالأيمان. وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ﴾ أي: من بعد العهد الذي عقده مع النبي ﷺ.

﴿وَإِنْ تَكُونُوا آيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الطعن في الدين معناه: استنقاصه وثلبه بالمعائب. يقولون: إن دين الإسلام ليس بشيء، وأنهم يعيبونه إذا نقضوا العهد وعابوا الدين وثلبوه.

(١) انظر: المفردات (مادة: نكث) (٨٢٢)، القرطبي (٨١/٨)، فتح القدير

(٢/٣٤١)، التحرير والتنوير (٧٣/٩).

(٢) انظر: ابن جرير (١٥٦/١٤).

﴿فَقَبِلُوا أَيِّمَّةَ الْكُفْرِ﴾ الأصل: فقاتلوهم، إلا أن هؤلاء الذين ينقضون العهود ويسبون الدين أجرى الله العادة أنهم الرؤساء المتبوعون؛ لأن الله أجرى عادته بأن الذين يناصرون الرسل بالعداوة هم القادة المتبوعون المترفون، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ [الزخرف: آية ٢٣] المتنعمون الكبار منها. وهذه سنة الله في خلقه؛ ولذلك لما سأل هرقل أبا سفيان في حديثه الصحيح المشهور: أشرف الناس يتبعونه أم ضعافهم؟ فقال: بل ضعافهم. قال: أولئك أتباع الأنبياء<sup>(١)</sup>. وهذه سنة الله في كونه؛ ولذا قال: ﴿فَقَبِلُوا أَيِّمَّةَ الْكُفْرِ﴾.

قرأ هذا الحرف من السبعة نافع وابن كثير وابن عامر: ﴿أَيِّمَّةَ الْكُفْرِ﴾ بجعل الهمزة الأخيرة بين بين<sup>(٢)</sup>، وقرأه عامة الباقين من السبعة: ﴿أَيِّمَّةَ﴾ بتحقيق الهمزتين.

والأئمة جمع إمام، وأصله: أئمة وزنه: (أفعللة) جمع (فعال) كمثل وأمثلة. توصل فيه إلى الإدغام بتسكين الميم الأولى، ونقلت حركتها إلى الهمزة فقبل فيه: (أئمة)<sup>(٣)</sup> والأئمة جمع الإمام، والإمام

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٣) من سورة الأنعام.

(٢) قال ابن مجاهد في كتاب السبعة ص ٣١٢: «قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: (أئمة) بهمز الألف وبعدها ياء ساكنة، غير أن نافعاً يُختلف عنه في ذلك... وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: (أئمة) بهمزتين». اهـ، وانظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٥، النشر (١/٣٧٨ - ٣٧٩)، وقد فصل في كيفية تسهيل الهمزة الثانية، ونقل مذاهب القراء في ذلك.

(٣) انظر: القرطبي (٨/٨٤)، حجة القراءات ص ٣١٥، الدر المصون (٦/٢٥)،

معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢٧.

هو: المقتدى به. وللكفر أئمة يقتدى بهم فيه - والعياذ بالله - كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾ الآية [القصص: آية ٤١].

﴿فَقَاتِلُوا آيَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: رؤساء الكفر وعظماءه الذين عابوا دينكم ونقضوا عهودكم. والعادة أن الذي يتصدى لتكذيب الرسل وعنادهم وعداوتهم الرؤساء المتبوعون، شياطين الإنس. وما جرى على السنة كثير من العلماء هنا أنهم: أبو جهل وأمّية بن خلف وسهيل بن عمرو إلى أشرف المذكورين في غزوة بدر، فهو خلاف الظاهر<sup>(١)</sup> للإجماع على تأخر هذه الآيات كثيراً إلى عام تسع، أو إلى أنها نزلت قبل الفتح عام ثمان، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾.

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ بفتح الهمزة. وهو جمع يمين، وقرأه ابن عامر من السبعة: ﴿إِنَّهُمْ لَا إِيْمَانَ لَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

فعلى قراءة الجمهور<sup>(٣)</sup>: ﴿لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ جمع يمين، التحقيق فيها: أن نفي أيمانهم على قراءة الجمهور إنما يراد به أنهم لا يوفون بها وهي عندهم كلاً أيمان؛ لأنهم ينقضونها، وهذا أسلوب عربي معروف؛ تقول العرب لمن يكذب وينقض العهود: لا تغتر بيمين هذا

(١) انظر: ابن جرير (١٥٤/١٤)، ابن عطية (١٤١/٨)، القرطبي (٨٤/٨)، فتح القدير (٣٤١/٢).

(٢) انظر: السبعة ص ٣١٢، المبسوط لابن مهران ص ٢٢٥.

(٣) في توجيه القراءتين انظر: ابن جرير (١٥٧/١٤)، القرطبي (٨٥/٨)، حجة القراءات ص ٣١٥، الدر المصون (٢٥/٦).

فلا يمين له، يعني: لا يفي بها ولا يبرّها ولا يوفي بعهد، وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، ومنه قول الحماسي<sup>(١)</sup>:

وإن حَلَفْتَ لَا يَنْقُضُ الْبَيْنَ عَهْدَهَا  
فليسَ لِمَخْضُوبِ الْبَنَانِ يَمِينُ  
يعني ليس للنساء أيمان؛ لأنهن ينقضنها غالباً. هذا مراده.

وقد تمسك الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - بظاهر هذه الآية فقال: لا تقبل يمين من كافر، ويمين الكافر كلا شيء، فلا يمين له، لأن الله يقول: ﴿إِنَّهُمْ لَا آيْمَانَ لَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

وعلى قراءة ابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ لَا إِيمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ ففي معنى الآية الكريمة وجهان واضحا معروفاً من التفسير:

أحدهما: أن المراد بالإيمان المنفي عنهم هو الإيمان الذي هو دين الإسلام، يعني: لا إسلام لهم ولا دين.

القول الثاني: - وهو أظهرهما - أنه مصدر: (آمَنَهُ يَوْمِنُهُ إِيْمَانًا) إذا آمَنَهُ وجعله في مأمن. فالعرب تقول: «آمَنت فلاناً أو منهُ» معناه: آمَنته وجعلت له الأمان، وهو معنى مشهور في كلام العرب؛ منه قول الشاعر<sup>(٣)</sup>:

أَيَّانَ نُؤْمِنُكَ تُؤَمِّنُ غَيْرِنَا وَإِذَا  
لَمْ تُدْرِكِ الْأَمْنَ مَنَّا لَمْ تَزَلْ حَذِرَا

وهذا أظهر القولين؛ لأن نفي الإيمان عن أئمة الكفر معروف واضح. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا آيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) البيت في القرطبي (٨/٨١)، الدر المصون (٦/٢٦) وفي القرطبي: «لَا يَنْقُضُ النَّائِي» وفي الدر المصون: «لَا تَنْقُضُ الدَّهْرَ».

(٢) انظر: المبسوط للسرخسي (٨/١٤٧).

(٣) البيت في البحر المحيط (٤/٤١٩)، الدر المصون (٥/٥٢٩).

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ متعلق بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَيَّةَ الْكُفْرِ﴾ فقاتلوهم لأجل أن يكون قتالكم لهم رادعاً وسبباً لانتهائهم.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> أن من أشهر معاني (لعل) في القرآن معنيان:

أحدهما: أنها على معناها الظاهر من الترجي، والمعنى: قاتلوهم على رجائكم أن ذلك القتال يكون موجباً لانتهائهم عن الكفر والطعن في الدين، وهذا بحسب ما يظهر للناس الذين يجهلون العواقب، أما الله (جلّ وعلا) فهو عالم بما كان وما يكون، وعلى هذا المعنى فقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: آية ٤٤] أي: على رجائكما بقدر علمكما أن يكون ذلك سبباً لأن يتذكر أو يخشى.

الوجه الثاني: هو ما قاله بعض علماء التفسير من أن كل (لعل) في القرآن فهي بمعنى: التعليل، إلا التي في الشعراء ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَافِحَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] قالوا: هي بمعنى كأنكم تخلدون. وإتيان «لعل» بمعنى التعليل معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر<sup>(٢)</sup>:

فَقُلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الْحُرُوبَ لَعَلَّنَا نَكْفُ وَوَقَّعْتُمْ لَنَا كَلَّ مَوْثِقِ  
فقوله: «كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: كفوا لأجل أن نكف عنكم.

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

وقوله: ﴿يَنْتَهُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أي: يرتدعون ويكفون وينزجرون عما هم عليه من الكفر والطعن في الدين.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة من سورة براءة: أن الذي يطعن في دين الإسلام بلسانه ويستخف به أنه يُقتل<sup>(١)</sup>، أما إذا كان ذمياً عُقِدَتْ له ذمة المسلمين فطعن في الإسلام أو سب النبي ﷺ فالجمهور على أنه يُقتل<sup>(٢)</sup>؛ لأن ذلك ينتقض به عهده ويبطل به عهده. وقال بعض العلماء: إنه لا يقتل ولكنه يُؤدَّب ويُعزَّر؛ لأنه أُعطي له الأمان وهو على كفره. والأول أظهر. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أي: قاتلوهم لعلهم ينتهون عن كفرهم.

/ قال تعالى: ﴿أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُواكُمْ أَوْلَىٰ مَرَّةً أَخَشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَهَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾ [التوبة: آية ١٣].

(ألا) هنا حرف تحضيض، والتحضيض معناه الطلب بِحَثِّ وشدة. والمعنى: إن الله هنا طلب منهم بِحَثِّ وشدة أن يقاتلوا هؤلاء الكفرة أئمة الكفر، ويبيِّن لهم أن قتالهم إياهم الذي حَضَّض عليهم فيه أن له أسباباً متعددة، كل واحد منها يستوجهه بانفراده فكيف بها مجموعة؟

الأول منها: أنهم نكثوا أيمانهم.

الثاني: أنهم هموا بإخراج الرسول (صلوات الله وسلامه عليه).

(١) انظر: القرطبي (٨٢/٨).

(٢) السابق (٨٣/٨).

الثالث: أنهم بدؤوكم بالقتال .

فهذه الأسباب حرية بأن يُقاتل الذين اقترفوها وجأؤوا بها .  
وهذا معنى قوله: ﴿ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا ﴾ .

قد قدمنا مراراً<sup>(١)</sup> أن (القوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه،  
وأنه في الوضع العربي يختص بالذكور دون الإناث، بدليل قوله:  
﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ ثم قال: ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ﴾ [الحجرات:  
آية ١١] وأن المرأة ربما دخلت في اسم (القوم) بحكم التبعية إذا اقترن  
بما يدل عليه، كقوله: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِّن قَوْمٍ  
كَافِرِينَ ﴾ [النمل: آية ٤٣] .

قال بعض العلماء: سمي قوم الرجل قوماً لأنه لا قوام للإنسان  
إلا بجماعة ينضم إليها ويدخل في جملتها . وهذا معنى قوله: ﴿ قَوْمًا  
نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ أي: نقضوا عهودهم، أو نقضوا العهود وأخلوا  
بالأيمان التي حلفوها توكيداً للعهود .

﴿ نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ [التوبة: آية ١٣]  
الجماهير على أن هؤلاء الذين هموا بإخراج الرسول هم كفار مكة<sup>(٢)</sup>  
حين دبروا له المكيدة التي قدمناها موضحة في سورة الأنفال<sup>(٣)</sup> في  
قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال:  
آية ٣٠] والله (جل وعلا) نص في بعض الآيات أنهم أخرجوه بالفعل؛  
لأنهم في الحقيقة اضطروه وألجؤوه (صلوات الله وسلامه عليه) إلى

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام .

(٢) انظر: القرطبي (٨٦/٨)، الأضواء (٤٣٠/٢) .

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال .

الخروج؛ لأن عمه أبا طالب ما دام حياً كان يكفهم عنه، ويردعهم عنه، ولا يقدرون أن يبلغوا منه المبلغ الذي بلغوا بعد أن مات، وكان يقول له<sup>(١)</sup>:

وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ  
اصدع بأمرِكَ ما عليك غضاضةً  
حتى أوسد في التراب دفيناً .....

فلما توفي أبو طالب ضيقوا عليه حتى خرج (صلوات الله وسلامه عليه) ودخل هو وصاحبه الصديق في الغار كما ستأتي قصة ذلك مفصلة في هذه السورة الكريمة - سورة براءة - حيث نصّ الله عليه فيها. وقد قال جل وعلا: ﴿وَكَايِنَ مِنْ قَرِيْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْبِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ﴾ [محمد: آية ١٣] فصرّح بأنهم أخرجوه. وقال (جل وعلا): ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: آية ١] وقال: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: آية ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية [الإسراء: آية ٧٦] إلى غير ذلك من الآيات.

والرسول هو سيدنا محمد (صلوات الله وسلامه عليه). وأصل الرسول (فَعُول) بمعنى (مُفْعَل) رسول بمعنى مُرْسَل. وأصل الرسول مصدر، وإتيان المصادر على وزن (الفعول) مسموع بقلّة، كرسول بمعنى الرسالة، وقبول، وولوع، في أوزان قليلة<sup>(٢)</sup>. والتحقق أن أصل الرسول مصدر، ومن إطلاقه مصدراً قول الشاعر<sup>(٣)</sup>:

(١) الأبيات في البداية والنهاية (٤٢/٣)، ولفظ البيت الثاني هناك:

فامض لأمرِكَ ما عليك غضاضةً  
أئشِرْ وقرِّ بذاك منك عيونا

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

لقد كَذَبَ الوائِشُونَ مَا فَهْتُ عَنْهُمْ بِقَوْلٍ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ

يعني: ما أرسلتهم برسالة. ومن فوائد كون أصل الرسول مصدراً؛ لأن هذا الأصل يُحل به بعض الإشكالات في القرآن؛ لأن من المقرر في علم العربية أن المصدر إذا نُعت به ألزم الأفراد والتذكير، وربما تنوسي كونه مصدراً فُجِّع<sup>(١)</sup>، وقد جاء (الرسول) مجموعاً بلفظ المفرد، وقد جاء مثني بلفظ المفرد؛ لأن الله قال في سورة طه: ﴿إِنَّا رَسُوْلًا رَّبِّكَ فَارْسِلْ مَعَنَا﴾ [طه: آية ٤٧] فثنى، وقال في سورة الشعراء: ﴿إِنَّا رَسُوْلٌ رَّبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾<sup>(١٦)</sup> بالأفراد. ووجه الأفراد في آية الشعراء: أن أصل الرسول مصدر، والمصادر إذا نُزِلت منزلة الأوصاف أُفردت وذكَّرت، ويدل لهذا أنه سُمع في لغة العرب إطلاق الرسول مراداً به الجمع؛ لأن أصله مصدر، ومنه بذلك المعنى قول أبي ذؤيب الهذلي<sup>(٢)</sup>:

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرُّسُولِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرِ

يعني: وخير الرسل. وهذا معنى قوله: ﴿وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾.

ثم قال: ﴿وَهُمْ بِكَذِّوْكُمْ أَوْلَك مَرَّةً﴾ [التوبة: آية ١٣] حذف المتعلق لقوله: ﴿بِكَذِّوْكُمْ﴾ والظاهر أن المعنى: بدؤوكم بالقتال والعدوان عليكم أول مرة، واختلف العلماء في وجه ذلك على قولين<sup>(٣)</sup>:

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: القرطبي (٨/٨٦).

أحدهما: أن ابتداءهم للقتال هو ما قدمناه مفصلاً في سورة الأنفال في غزاة بدر؛ لأن النبي ﷺ خرج فيها للغير خاصة ولم يخرج للقتال، فلما سآحل أبو سفيان بالغير، ونجت العير، واستنفر النفير، وجاءهم الخبر أن عيرهم قد سلمت، كان من حقهم في ذلك الوقت أن يرجعوا، كما أشار عليهم به عمير بن وهب وعتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام، ولكن الخبيث أبا جهل قال: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا - وكانت من مواسم العرب - وتعزف علينا الغواني، ونشرب الخمر. وفي بعض الروايات أنه قال: لا نرجع حتى نستأصل محمداً وأصحابه<sup>(١)</sup>. فلما نجت عيرهم وجاؤوا بعد ذلك إلى بدر معناه أنهم يريدون الشر، فكان هذا ابتداءهم بالشر.

وقال بعض العلماء: - وهو أظهرهما - أن معنى: ﴿وَهُمْ بَدَأُوكُمْ﴾ أي: بدؤوكم بنقض العهود وقتل من كان داخلاً في حلفكم كما وقع من قريش في إعتاقهم لبني الدليل بن بكر على خزاعة فقتلوهم، كما قال راجزهم<sup>(٢)</sup>:

هَمْ بَيَّنُّونَا بِالْوَيْتِ هُجَّةً      وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسُجَّةً

فابتداء هذا القتل كأنهم بدؤوا بالقتل ونقض العهود، وخرافة في ذلك الوقت لهم حكم أصحاب النبي ﷺ لدخولهم في عهده. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوْلَٰك مَرَّةً﴾ كان في المرة الأولى ابتداء السوء حاصلًا منهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوْلَٰك مَرَّةً﴾ [التوبة: آية ١٣].

(١) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة الأنفال.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

ثم إن الله لما أمر النبي ﷺ وأصحابه بقتال الكفار أنكر عليهم أن يخافوا الكفار، قال: ﴿أَخْشَوْهُمْ﴾ بهمزة الإنكار. يعني: لا تخشوا هؤلاء أبداً فإنهم كفرَ فجرة، والله (جل وعلا) أحق أن تخشوه فتمثلوا أمره، وتقاتلوا أئمة الكفر الذين هموا بإخراج الرسول، وبدؤوا بالشر أول مرة. وهذا معنى قوله: ﴿أَخْشَوْهُمْ﴾.

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣) (إن) في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تشكل دائماً على المتعلمين وبعض العلماء<sup>(١)</sup>، و«إن» هذه هي التي اختلف فيها البصريون والكوفيون، وهي كثيرة في القرآن، فالبصريون يقولون: إن (إن) هذه أنها صيغة شرط جيء بها مراداً بها التهيج وقوة الحمل على الامتثال، وهو أسلوب عربي معروف، أن العرب تنطق بأداة الشرط ولا تريد به حقيقة تعليق جزاء على شرط، وإنما تريد به التهيج والدعوة الصارمة إلى الامتثال، كما تقول للرجل: «إن كنت ابن فلان فافعل لي كذا» وأنت تعلم أنه ابن فلان، إلا أنك تستنفضه وتستحثه، ومن هذا المعنى قول واحد من أولاد الخنساء لما أوصتهم بالجهاد في سبيل الله<sup>(٢)</sup>:

لَسْتُ لَخْنَسَاءٍ وَلَا لَلْأَخْزَمِ وَلَا لَعَمْرُو ذِي السَّنَاءِ الْأَقْدَمِ  
إِنْ لَمْ أَرِدْ فِي الْجَيْشِ جَيْشَ الْأَعْجَمِيِّ ماضٍ على الهولِ خِضَمِّ خِضْرِمِ  
يعني: إن لم أرد في الجيش فلست ابناً لأبي ولا لأمي.

لا يقصد التعليق وإنما يقصد تحريض نفسه على هذا. هذا معناها عند البصريين فيما يصح فيه هذا وفيما لا يصح فيه هذا كقوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: آية ٢٧] وهم داخلوه قطعاً.

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

(٢) هذان البيتان سبق ذكرهما عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

وقوله ﷺ في أحاديث الزيارة: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»<sup>(١)</sup> وهم لاحقون بهم قطعاً، قالوا: السر في هذا التعليق ليعلم الله خلقه أنهم لا يتكلمون عن مستقبل إلا بتعليقه على مشيئة من له المشيئة، ولو كان أمراً واقعاً لا محالة فكيف بغيره.

أما الكوفيون فإنهم يقولون: إن (إن) هذه بمعنى (إذ) وأنها تعليلية، ويقولون: «فالله أحق أن تخشوه إذ كنتم مؤمنين» أي: لأجل كونكم كنتم مؤمنين فذلك يستوجب منكم الخشية، وإطلاق (إن) بمعنى (إذ) ربما سمع في كلام العرب، وأنشد له بعض علماء العربية قول الفرزدق<sup>(٢)</sup>:

أَتَغَضِبُ إِنْ أَدْنَا قُتَيْبَةَ حُرَّتَا      جِهَاراً وَلَمْ تَغَضِبْ لِقَتْلِ ابْنِ خَازِمِ

يعني: أتغضب لأجل «إذ حُرَّتْ أَدْنَا قُتَيْبَةَ؛ لأجل أن حُرَّتَا» وهذان الوجهان في قوله: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١٣)</sup> [التوبة: آية ١٣].

قال تعالى: ﴿قَتَلْتَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١٤)</sup> وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(١٥)</sup> [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥].

[﴿قَتَلْتَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ﴾<sup>(٣)</sup> وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١٦)</sup>].

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) أول الآية ذهب من التسجيل، وقد أثبت أولها وجعلته بين معقوفين.

لما أمر الله النبي ﷺ وأصحابه بمقاتلة أئمة الكفر وعدمه وعدة الجميل - وهو لا يخلف الميعاد - ليستنشط همهم بهذا الوعد على امثال الأمر ﴿قَتَلُوهُمْ﴾ أي: قاتلوا الكفرة وأئمة الكفر ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ «يعذب» فعل مضارع مجزوم بجزاء الطلب، وجماهير من علماء العربية يقولون: إن جزم المضارع في جزاء الطلب أن أصله مجزوم بشرط مقدر دل الأمر عليه، وتقديره: إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم. وهو جائز<sup>(١)</sup>، فالجزم يجوز، ولو لم يجزم لكان جائزاً؛ لأن الجزم في جزاء الطلب لم يتعين. ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ هذا التعذيب الذي يعذبهم الله بأيديهم هو القتل بالضرب الوجيع الذي يصل به صاحبه إلى النار.

﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ أي: يذلهم ويهينهم بالأسر، فإن القتل تعذيب، والأسر خزي وإهانة وإذلال، وهذا معنى قوله: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ﴾.

﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويعنكم عليهم حتى تقتلوا منهم وتأسروا.

﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:

آية ١٤] (يشف) معناه: يداوي داء قلوبهم؛ لأن المؤمن يكون وغير الصدر حانقه على الكافر، كأن قلبه مريض لما فيه من شدة الغضب، وكون صدره وغراً على الكفار لكفرهم بالله وقتلهم للمسلمين فإذا أمكنه الله منهم وقتلهم وأسره شفى ذلك صدره لأن الغيظ كأنه داء

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٩) من سورة البقرة.

كامن في صدره، والتمكن من الأعداء والتسليط عليهم وقتلهم وأسرهم يشفي ذلك الداء الكامن في الصدر، فيشرح الصدر، ويحول ما كان فيه من كامن المرض الدفين والحقد على الكفار. وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور مبتذل جداً، ومنه قول مهلهل بن ربعة<sup>(١)</sup>:

وكنّا قد نهكنا القومَ ضرباً  
على الأثباج منهم والنحورِ  
هتكتُ به بيوتَ بني عبّادٍ  
وبعضُ القتلِ أشفى للصدورِ

لأن طالب الثأر كأنه وغر الضمير حران فإذا قتل صاحبه بردت غلته وشفي ما في صدره. وهذا كثير معروف في كلام العرب مشهور. وهذا معنى قوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ [التوبة: آية ١٤] قال جماهير من أهل التفسير: إن المراد بالقوم المؤمنين أنهم خزاعة<sup>(٢)</sup> حيث تمالأ عليهم البكريون وقريش وقتلواهم في الحرم، واستنجدوا بالنبي ﷺ لما أرسلوا عمرو بن سالم في قوم منهم بديل بن ورقاء، وقال عمرو رجزه الذي ذكرنا قبل هذا. وعن النبي ﷺ أنه قال: «لا نصرت إن لم أنصر بني كعب»<sup>(٣)</sup> يعني من خزاعة، وقد كان ذلك سبباً لغزاة الفتح، وقد قتل جماعة من المشركين يوم الفتح، قال بعض المؤرخين: قتل منهم اثنا عشر رجلاً يوم فتح مكة، والأظهر كما قدمنا مراراً أن أهل مكة قُتلت منهم جماعات. وقد جاء في صحيح مسلم ما يدل على ذلك<sup>(٤)</sup>، ويدل

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/١٦٠)، القرطبي (٨/٨٧).

(٣) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

(٤) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

على ذلك رجز حماس بن قيس المشهور الذي هو مشهور عند العلماء؛ لأن حماس بن قيس كان في مكة، وكان يقول لامرأته: لأخدمك نساء محمد ﷺ، ولأجعلهن لك خدماً. وكان يقول لها: إذا جئتك منهزماً فأغلقني الباب دوني. فكان في ذلك اليوم في الطائفة التي وقع فيها القتل والقتال فجاءها مدعوراً منهزماً، وكان يقول قبل يوم الفتح<sup>(١)</sup>:

إِنْ يُقْبَلُوا الْيَوْمَ فَمَا لِي عِلَّةٌ هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ وَأَلَّةٌ  
وَذُو غِرَارَيْنِ سَرِيْعُ السَّلَّةِ

فلما جاء زوجته ووجهه كأنه زعفران من الخوف، وقال لها تفتح له الباب، فقالت له: أين الذي كنت تقول؟ فقال<sup>(٢)</sup>:

إِنَّكَ لَوْ شِهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَرَّ عِكْرَمَةٌ  
وَاسْتَقْبَلْتَنَا بِالسِّيْفِ الْمُسْلِمَةِ لَهُمْ نَهْيَةٌ خَلَفْنَا وَهَمَّهُمْ  
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمُجْمَةٍ ضَرْبًا فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَةً  
لَمْ تَنْطَقِي بِاللُّومِ أَدْنَى كَلِمَةٍ

وهذا صريح في أنهم قاتلوا وقتلوا. وفي صحيح مسلم: أنهم لم يتعرض لهم ذلك اليوم أحد إلا أناموه<sup>(٣)</sup> كما هو معروف. وقد ذكرناه مفصلاً في سورة الأنفال<sup>(٤)</sup>. فهذا القتل قتل قريش وإذلالهم

(١) تقدمت هذه الآيات عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال، وقد أثبتنا نصها هناك من بعض المصادر.

(٢) تقدمت هذه الآيات عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام، وقد أثبتنا نصها هناك من بعض المصادر.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٤) السابق.

وقهرهم، شفى صدور الخزاعيين حيث أخذوا بثأرهم وأذل الله عدوهم. وهذا معنى قوله: ﴿ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۗ ﴾ (١٥) وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴿ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥] لِمَا نَالُوا مِنْ شِفَاءِ غَلِيلِ صُدُورِهِمْ مِنْ قَهْرِ أَعْدَائِهِمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ (١):

تَعَلَّمَ شِفَاءَ النَّفْسِ قَهْرَ عَدُوِّهَا      فَبَالَغَ بِلَطْفٍ فِي التَّحْيِيلِ وَالْمَكْرِ  
وهذا معنى ﴿ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ قراءة الجمهور: ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ لأنها ليست معطوفاً على الجزاء، والأفعال المعطوفة على الجزاء جُزمت، والقراءة هنا هي الجزم.

أما اللغة فيجوز في الأفعال المعطوفة على الشرط والجزاء معاً بعد أن تستكمل أداة الشرط شرطها وجزاءها، فالأفعال المعطوفة عليها معلوم أنها يجوز فيها ثلاث لغات: الجزم كما في قراءة هذه الآيات، والرفع، والنصب، وهو معنى معروف في كلامهم، وفي أوجه العربية الثلاثة يروى قول نابغة ذبيان (٢):

فَإِنْ يَهْلِكُ أَبُو قَابُوسَ يَهْلِكُ      ربيعُ النَّاسِ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ  
وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ      أَجَبَ الظَّهْرَ لَيْسَ لَهُ سَنَامُ

فيه: «ونأخذ»، «ونأخذ»، «ونأخذ» بالجزم، والنصب، والفتح. وهذا معنى قوله: ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ بعد ذلك يتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه، قد يوفق بعض المشركين فيتوبون

(١) البيت في أوضح المسالك (١/٢٩٥)، شذور الذهب ص ٣٦٢.

(٢) ديوان نابغة ص ١٥٧.

إلى الله ويتوب عليهم . وتوبة الله على عبده هي أن يقبل عثرته ، ويقبل منه رجوعه حتى يكون الذي صدر منه كأنه لم يكن .

﴿ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يتوب عليه ، فمفعول المشيئة محذوف .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كثير العلم يبالغ في علم نفسه لإحاطة علمه بكل شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لأنه حكيم في شرعه وفي أقواله وأفعاله وتدبيره وجزائه ، فهو حكيم في كل شيء ، وله الحكمة البالغة (جلّ وعلا) .

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَالْحَامَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [التوبة : الآيات ١٦ - ١٩] .

يقول الله (جلّ وعلا) : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التوبة : آية ١٦] .

(أم) هنا هي المنقطعة . ومعنى (أم) المنقطعة عند علماء العربية : أنها تأتي بمعنى استفهام الإنكار ، وبمعنى (بل) الإضرابية ، وتأتي بمعناها معاً ، وهو أجودها<sup>(١)</sup> .

(١) انظر : الكلبيات ص ١٨٢ ، معجم الإعراب والإملاء ص ٧٨ .

و (حسبتهم) معناه ظننتهم. والإنكار الذي في قوله: «أم» يتوجه إلى من ظن أنه يدخل الجنة من غير ابتلاء ولا امتحان. والمعنى: أحسبتهم، أي: أظننتهم أن الله يترككم من غير أن يختبركم بالمشاق التي يظهر بالاختبار بها المطيع من العصي، والمحقق من المبطل، والصادق من الكاذب؟ والمعنى: لا بد أن يتليكم الله ويمتحنكم بأنواع الابتلاء، ومن أعظمها: الأمر بالجهاد في سبيل الله الذي فيه تعريض المهج والأموال للتلف والضياع؛ لأن ذلك يظهر به الزائف من الخالص، ويتبين به الصادق من الكاذب، وهذا معنى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ يعني أظننتهم؟ الحسبان معناه الظن ﴿أَنْ تَتْرَكُوا﴾ أن يترككم الله من غير اختبار ولا امتحان ولا ابتلاء؟ لا. لا يكون ذلك أبداً ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ هي (لم) النافية دخلت عليها (ما) المزيدة لتوكيد النفي، وهي تدل على توقع حصول الأمر ولم يحصل بالفعل. وقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ أي: يترككم الله ولم يختبركم اختباراً يُعلم به من هو الصادق منكم ومن هو الكاذب، ومن هو المخلص وغيره.

وهذه الآيات وأمثالها في القرآن التي ربما يفهم الجاهل منها أن الله يختبرهم ليظراً له علم بذلك الاختبار، هذا لا يُراد؛ لأن عالم الغيب والشهادة، عالم بما كان، وما سيكون، وما يقع، وعالم بالمعدومات والموجودات، والجائزات والمستحيلات، حتى إنه من إحاطة علمه ليعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد وأنه لا يكون يعلم أن لو كان كيف يكون، كما أوضحناه مراراً<sup>(١)</sup>.

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

وجرت العادة في القرآن أن الله تبارك وتعالى إذا جاء عنه بعض الآيات التي فيها شبه خفاء لا بد أن يبيّنه ويوضحه في بعض المواضع، وقد أوضح هذا في آية من سورة آل عمران قدمناها مراراً، أوضح فيها أنه يختبر ويبتلي ليُظهر للناس حقيقة الناس، ويعلموا المخلص من الزائف، والصادق من الكاذب، وتلك الآية هي قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: آية ١٥٤] بين أن ما أوقع بهم يوم أحد من تسليط المشركين عليهم وقتل سبعين منهم أنه فعل ذلك لأجل أن يبتليهم ويختبرهم ويمحص ما في قلوبهم، فظهر المنافقون من الصادقين، ومع هذا قال بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: آية ١٥٤] ومن هو عالم بما يخطر في الضمائر لا يستفيد بالاختبار علماً سبحانه (جلّ وعلا) عن ذلك. فالمراد بـ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ هنا إظهار معلومه للناس، أو العلم الذي يترتب عليه الثواب والجزاء؛ لأن الله عالم بأفعالهم قبل أن يفعلوها، وعلمه بها أولاً لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وعالم أيضاً بها وقت فعلها وذلك العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب. وقال البغوي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ يعني: أحسبتم أن يترككم الله ولم ير الله عملكم حتى يتبين للناس المخلص من غيره<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا التفسير الذي فسرها به فالمعنى يشبه قوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: آية ١٠٥] وعلى كل حال فيجب على كل مسلم أن يعتقد أن علم الله محيط بكل شيء،

(١) تفسير البغوي (٢/٢٧٣).

لا يخفى عليه شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، وما سبق في علمه أنه لا يكون يعلم أن لو كان كيف يكون. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> الآيات الكثيرة الدالة على إحاطة علمه حتى بالمعدومات الذي سبق في علمه أنها لا توجد، وأنه عالم بأنها لو وجدت أنها لا تكون، وأنها لو كانت يعلم كيف تكون، دلت على هذا آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله في سورة الأنعام: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٧] إذا رأى الكفار الحقائق يوم القيامة ندموا على تكذيب الرسل وتمنوا أن يُردوا إلى الدنيا مرة أخرى ليؤمنوا ويصدقوا الرسل، وهذا الرد الذي تمنوه الله عالم بأنه لا يكون، ومع ذلك فقد صرح بأن هذا الرد الذي لا يكون هو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله ثبّطهم عنها لحكمة وإرادة كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أَنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٤٦] وخروجهم هذا الذي لا يكون صرح بعلمه أن لو كان كيف يكون حيث قال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ...﴾ الآية [التوبة: آية ٤٧].

ونظائر هذا كثيرة في كتاب الله (جلّ وعلا) وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: آية ١٦] يعني: يعلمهم علماً يظهرهم به للناس حتى يتميزوا به، أما هو فهو عالم بكل ما يصنعون وما يؤولون إليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

لَهَا عَمَلُونَ ﴿٦٣﴾ [المؤمنون: آية ٦٣] يعلمها قبل أن يعملوها. وهذه الآية نص الله على ما دلت عليه هنا في آيات كثيرة كقوله: ﴿الْمَرْءُ إِذَا حَسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: الآيتان ١، ٢] لا يكون ذلك ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢﴾﴾ ومن نظائرها قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: آية ١٤٢] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا ﴿١٦٧﴾﴾ الآية [البقرة: آية ٢١٤]. وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ لِلَّهِ وَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٦٦، ١٦٧] أي: يميز بينهم بما يعمله من الاختبار ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: آية ١٧٩]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهَدِينَ مِنْكُمْ وَالصّٰدِقِينَ وَنَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: آية ٣١] إلى غير ذلك من الآيات القرآنية المصرحة بأنه قد اقتضت حكمة الله أن لا يترك خلقه من غير ابتلاء وامتحان بل لا بد أن يمتحنهم ويبتليهم بالشدائد والعظائم ليظهر الذي هو على الحق من الذي هو على الباطل، ويتبين الصادق من الكاذب. وهذا معنى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: آية ١٦].

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ معطوف على فعل الصلوة، والمعنى: ولما يعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الذين لم يتخذوا من دون الله وليجة. والمعنى: لا بد أن يمتحنكم حتى يُعلم المجاهد في سبيل الله

والمخلص الذي لم يتخذ وليجة من دون الله ولا رسوله؛ لأن بعض الناس ظهر نفاقهم وبعضهم ظهر اتخاذهم الوليجة من دون الله.

واعلم أن الوليجة في لغة العرب: كل شيء أدخلته في شيء فهو وليجة<sup>(١)</sup>. والمراد بها هنا: بطانة السوء؛ لأنهم يدخلون في المسلمين وليسوا منهم؛ لأن كثيراً من غير المخلصين يتخذون أعداء الله أولياء، ويفشون إليهم أسرار المسلمين، ويطلعونهم على حقائقهم، وهم أعداء للمسلمين، كما كان عبد الله بن أبي وأصحابه يفعلون، هم مع الكفار واليهود، والمعنى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولم يتخذوا من دون رسول الله، ولم يتخذوا من دون المؤمنين وليجة، أي: أولياء وبنات سوء يوالونهم دون المسلمين؛ لأن الأعداء خارجون عن المسلمين، فإدخالهم فيهم كأنه وليجة لهم وإدخال لمن ليس منهم فيهم.

فالوليجة هنا: بطانة السوء، وأولياء السوء، يتخذهم بعض غير الصادقين في إيمانهم أولياء، كما تقدم في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: آية ٢٨] فاتخاذ هذه الأولياء هو الوليجة؛ لأن العدو الموالي من المسلمين المُدخل فيهم وليجة فيهم وليس منهم، والعرب تقول للرجل في القوم ليس منهم: هو وليجة. يعني داخل فيهم وليس منهم. ووليجة الأمر: دخيلته، وهؤلاء وليجة فلان، معناه: أصحاب سره وداخله، وتطلق على المفرد والجمع. وهذا معنى ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً﴾ [التوبة: آية ١٦] أي: دخيلة من الأعداء يتخذونهم

(١) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الواو، باب الواو واللام وما يثلثهما، (مادة:

أولياء، ويوالونهم، ويفشون إليهم أسرار المسلمين، كما كان يفعله المنافقون، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول أبان بن تغلب:

فبئس الوليجة للهاريين والمعتمدين وأهل الرِّيب<sup>(١)</sup>

وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً﴾ أي: بطانة سوء وأولياء يدخلونهم ويولجونهم في المسلمين وليسوا من المسلمين، بل هم أعداء المسلمين، يفشون إليهم أسرار المسلمين، كما قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتُونَكُمْ حَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨].

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: الخبير أخص من العالم، والخبرة أخص من العلم؛ لأن العلم يطلق على كل علم، والخبرة لا تطلق في اللغة إلا على علم خاص، وهو علم الشيء الذي من شأنه أن يخفى، فالعرب تقول في الشيء الذي شأنه أن يخفى: على الخبير سقط، وأنا خبير بهذا. فلو قلت مثلاً: أنا عالم بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الكل أكبر من الجزء، كان هذا كلاماً عربياً، ولو قلت: أنا خبير بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الكل أكبر من الجزء، لما كان هذا كما ينبغي؛ لأن العرب لا تكاد تطلق الخبرة إلا على المعرفة بما من شأنه أن يخفى، كما قال الشاعر في العياقة<sup>(٢)</sup>:

خبير بنو لهبٍ فلا تكُ مُلغياً      مَقَالَةٌ لَهْبِي إِذَا الطيرُ مَرَّتِ

(١) البيت في القرطبي (٨٨/٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنعام.

ومعنى خبرته (جلّ وعلا): أنه يعلم الخفايا والخبايا كما يعلم الظاهر، فلا تخفى عليه خافية. وهذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي نوهنا عنه مراراً كثيرة ولا نزال ننوه عنه. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦).

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧) [التوبة: آية ١٧] ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ مساجد هنا ذكرت مرتين: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ والثانية في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾. أما الأولى منهما وهي قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾، فقد قرأه عامة السبعة غير ابن كثير وأبي عمرو: ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ بصيغة جمع التكسير. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ (١).

أما مساجد الثانية وهي قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ فقد أجمع جميع القراء على قراءتها بصيغة الجمع ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ ولم يقرأها أحد بالإفراد كما هو معروف.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ سبب نزولها أن كفار قريش صدوا النبي ﷺ عن البيت الحرام، وقالوا: هو بيتنا ونحن أولياؤه، وافتحروا بعمارة المسجد الحرام، كما يأتي. يفتخرون دائماً ببيت الله الحرام وأنهم عمّاره وأهله، كما سيأتي في قوله: ﴿فَكَتَمْنَا عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ نَكِصُونَ﴾ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجِرُونَ ﴿٦٧﴾ [المؤمنون: الآيتان ٦٦،

[٦٧] وفي القراءة الأخرى: ﴿ تَهْجُرُونَ ﴾ (١). ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾ أي: بالبيت، على أظهر التفسيرين؛ لأنهم يتكبرون به بأنهم قطانه وعمّاره وأولياؤه، فردّ الله عليهم في هذه الآية الكريمة. وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة الأنفال في قوله: ﴿ وَمَالَهُمْ أَلَّا يَعْذِبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصَدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: آية ٣٤]. وقال هنا: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ما يصح ولا ينبغي ولا يمكن هذا التناقض؛ لأن المساجد بيوت الله، أُسِّسَتْ على طاعته والتقرب إليه بما يرضيه، والمشركون كفرّة فجرّة، أعمالهم في المساجد كلها كفر وتمرد على الله وعدوان، كيف يكون هذا يجتمع مع هذا؟! لأن المساجد إنما بُنيت لطاعة الله، وتؤسس على ما يرضي الله (جلّ وعلا) وهؤلاء كفرّة أعمالهم كلها كفر وصد عن سبيل الله، فهذا من الشيء الذي لا يمكن أن يجتمع؛ لأن فيه اجتماع التقيضين. وهذا معنى قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: آية ١٧] وفي قراءة ابن كثير وأبي عمرو: ﴿ يعمروا مسجد الله ﴾ هو المسجد الحرام، مسجد مكة حرسها الله.

وقوله: ﴿ شَهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ ﴾ هذا محل التناقض؛ لأن عمارة المسجد الحرام فعل المطيعين والمتقربين إلى الله، كيف يفعلون هذا في وقت الحال التي هم شاهدون فيها على أنفسهم بالكفر؟

وقوله: ﴿ شَهِدِينَ ﴾ حال من واو الفاعل في قوله: ﴿ يَعْمُرُوا ﴾ أي: يعمروها في حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر.

قال بعض العلماء<sup>(١)</sup>: شهادتهم على أنفسهم بالكفر إنما هي بأفعالهم؛ لأن من سجد ووضع جبهته للصنم فقد شهد على نفسه ونادى بأعظم الكفر وأفظعه. وعلى هذا فهي شهادة حال.

/وقال بعض العلماء: هي شهادة مقال أيضاً، فهم شاهدون [١/٣] بالحال والمقال. قالوا: يُراد بذلك أنهم في تلبيتهم وطوافهم بالبيت في المسجد الحرام يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك [وقال بعض العلماء: شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن الكافر إذا قلت له: ما دينك؟ فيقول: [٢] النصراني نصراني، والصابيء صابيء، والمشرك يقول: مشرك؛ لأنه يعبد مع الله غيره. والله (جلّ وعلا) ذكر مثل هذا من شهادتهم على أنفسهم في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [٦] وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ [العاديات: الآيتان ٦، ٧] أي: الإنسان، وفيه الأقوال المذكورة هنا. وهذا معنى قوله: ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ لأن عمارة مساجد الله هي من القربة والطاعة لله لا تمكن من أحد هو في حال وقت فعله إيّاها شاهد على نفسه بأنه كافر.

وعمارة المسجد الحرام تشمل أمرين:

أحدهما: العمارة الحسية، وهي مَرَمَّتُهُ وبنائُهُ وتزيين بنائه.

(١) في معنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر. انظر: ابن جرير (١٤/١٦٥)، القرطبي (٨/٨٩)، ابن كثير (٢/٣٤٠).

(٢) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

انظر: ابن جرير (١٤/١٦٥)، ابن أبي حاتم (٦/١٧٦٥)، القرطبي (٨/٩٠).

والثانية: عمارته المعنوية، وهي عبادة الله وطاعته فيه، واللائق بالكفار هنا هو الأول؛ لأنهم كانوا يسدون البيت وقد بنوه، كما قال زهير<sup>(١)</sup>:

وَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ  
رِجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قَرِيشٍ وَجُرْهُمِ

وبناء قريش له معروف، حضره النبي ﷺ في صغره كما هو معروف. وهذا معنى قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ ﴾ [التوبة: آية ١٧].

﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الكفرة الشاهدون على أنفسهم بالكفر ﴿ حَاطَتْ أَعْمَلُهُمْ ﴾ ومنها عمارتهم للبيت الحرام؛ لأن الكفر يحبط جميع الأعمال. ومعنى ﴿ حَاطَتْ أَعْمَلُهُمْ ﴾ اضمحلت وكانت لا فائدة فيها؛ لأن أفعال الكفار تضحل ولا تنفعهم يوم القيامة؛ لأن الله يقول: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، ويقول تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ [هود: الآيتان ١٥، ١٦] أما أفعال الكافر من قُربِه فإنها تنفعه في الدنيا؛ لأن الكافر إذا أطاع الله في الدنيا مخلصاً في طاعته لوجه الله كأن يبر والديه، ويصل الرحم، ويقري الضيف، وينفس عن المكروب، ويعين [المظلوم]<sup>(٢)</sup>، فإذا فعل الكافر هذه القرب يقصد بها وجه الله فإن الله يعاوضه في الدنيا ويعطيه ثوابه في الدنيا من الصحة والرزق

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة الأعراف.

(٢) في الأصل: «الظالم»، وهو سبق لسان.

والمال، ولا شيء له يوم القيامة، كما دلت على هذا آيات من كتاب الله، كقوله: ﴿ تُوْفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ ﴾ (١٥)، ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (٢١) [الشورى: آية ٢٠]. وثبت معناه في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه<sup>(١)</sup>. وهذا معنى قوله: ﴿ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [التوبة: آية ١٧] النار - والعياذ بالله - هي دار الخزي التي أعد الله لأعدائه يوم القيامة. والألف التي بين النون والراء منقلبة عن واو، فأصلها من مادة الأجوف واوي العين، أصلها (نَوَزَ) ولذا يقولون في النظر من بعيد إلى النار: تنورتها. فلو كانت يائية العين لقالوا: تنيرتها. قالوا واشتقاقها من: نارت الظبية. إذا ارتفعت جافلة؛ لأن طبيعة النار الارتفاع<sup>(٢)</sup>.

﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ خلود الكفار في النار خلود أبدي سرمدي لا انقطاع له، كما قال تعالى: ﴿ كَلِمًا خَبِتَ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: آية ٩٧]، ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبا: آية ٣٠]، ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة: آية ١٦٢].

ومعروف في هذا إيراد يورده الكفرة الملاحدة وأذناهم ومن تعلق بهم يقولون: إن الله (جلّ وعلا) في غاية الحكمة والعدالة، وهو العدل الحكيم (جلّ وعلا) والكافر إنما عصى في الدنيا أياماً معدودة، قالوا: فكيف يكون العمل في أيام معدودة محدودة والجزاء دائم لا ينقطع أبداً؟ وأين الحكمة والإنصاف في هذا؟ قبح الله من يقول

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

هذا!! وهذا يتمسك به الملاحدة وأذئاب الكفرة<sup>(١)</sup>.

والجواب عن هذا أن الكافر — قبّحه الله — خبثه الذي ينطوي عليه الذي هو سبب كل ما جاءه من البلياء هو دائم أبداً لا يزول ولا ينقطع، فكان جزاؤه دائماً لا يزول ولا ينقطع، والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: آية ٢١] (خيراً) نكرة في سياق الشرط فهي تعم، فلا يكون في قلوبهم خير أبداً في وقت ما كائناً ما كان. ومما يوضح ذلك: أنهم لما عاينوا النار، وشاهدوا الحقائق، وكشف الله غطاءهم عنهم، وعاينوا كل شيء، وتمنوا الرد إلى الدنيا مرة أخرى، صرح الله بأن ما طُبعوا عليه وما جُبلوا عليه من الكفر لا يزول أبداً، وأنه لو ردهم إلى الدنيا لرجعوا إلى كفرهم؛ لأنهم منطوون عليه لا يفارقهم أبداً، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] فهذا يدل على أنهم لا ينفكون عن كفرهم، وأنهم دائمون عليه أبداً، فكان جزاؤه دائماً عليهم أبداً، جزاءً وفاقاً، والله (جلّ وعلا) الحكمة في كل ما يفعله، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير. وهذا معنى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: آية ١٨].

[المقرر]<sup>(٢)</sup> عند علماء العربية أن (إنما) أداة حصر وإثبات.

(١) راجع هذه الشبهة والجواب عنها، عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.  
 (٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

يعني: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ العمارة المعنوية بالعبادات وذكر اسم الله فيها، والعمارة الحسية، من بنائها وترميمها، هذا كله من شأن المؤمنين، لا من شأن الكفار، وهذا قوله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾. (من) فاعل قوله ﴿ يَعْمُرُ ﴾ الذي آمن بالله هو الذي يعمر مساجد الله، لا الكافر الذي عمله ضد لما بنيت له المساجد، فهذا تناقض لا يمكن أن يكون عامراً للمساجد، وعمله ضد ما بُنيت له المساجد، وهذا معنى قوله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ أي: صدق به (جلّ وعلا) وبكل ما يجب التصديق به.

﴿ وَأَيُّومٍ آخِرٍ ﴾ هو يوم القيامة. وجرت العادة أن الله يذكر الإيمان باليوم الآخر مع الإيمان به؛ لأن الكفر باليوم الآخر سبب لكل البلايا وأنواع الكفر والجحود؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين: هما: جلب النفع، ودفع الضرر، والذي لا يصدق بيوم القيامة لا يرغب في خير في ذلك اليوم، ولا يخاف من شر في ذلك اليوم، فلا ينزجر عن شيء، ولا يرعوي عن شيء؛ ولذا كان التكذيب بالبعث من أشنع أنواع الكفر بالله (جلّ وعلا) وقد صرح الله بأن المكذبين بالبعث والشاكين فيه من حطب جهنم في آيات كثيرة كقوله: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ ﴾ [الفرقان: آية ١١] وقوله في المنكرين للبعث: ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ۚ إِذْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ۚ ﴾ [الفرقان: آية ١١] وقوله في الخلق الجديد بعد الموتة الأولى، قال الله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْنُقِ ۚ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٥ ﴾ [الرعد: آية ٥]. وهذا معنى قوله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ يعني: الصلوات المكتوبات الخمس. ﴿ وَعَاتَىٰ الزَّكَاةَ ﴾

الحقوق الواجبة في الأموال كما بيّناه مراراً.

﴿فَعَسَىٰ أَوْلَاتِكَ﴾ جماهير العلماء يقولون: (عسى) من الله واجبة<sup>(١)</sup> لأن الله كريم لا يُطمع في شيء إلا هو فاعله لشدة كرمه (جلّ وعلا) وفضله.

﴿أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٨﴾ أي: السالكين طريق النجاة والصواب الموصلة إلى الجنة، وقد جاء عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان»<sup>(٢)</sup> لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: آية ١٨] وقال أبو بكر بن العربي في الكلام على هذا الحديث في قوله: «فاشهدوا له بالإيمان» اشهدوا له شهادة ظاهرة؛ لأن فعله يدل عليها، وتعاهد المساجد يدل على إيمانه ظاهراً كما دل عليه قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ أما حقيقة الباطن فهي عند الله جلّ وعلا. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾.

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه أحمد (٦٨/٣، ٧٦)، والدارمي (٢٢٢/١)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة التوبة، حديث رقم: (٣٠٩٣)، (٢٧٧/٥)، وابن ماجه في المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، حديث رقم: (٨٠٢)، (٢٦٣/١)، والبيهقي (٦٦/٣)، والحاكم (٢١٢/١، ٣٣٢/٢)، وابن حبان (الإحسان ٣/١١٠)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٧٦٦/٦)، وانظر: ضعيف ابن ماجه ص ٦٢، المشكاة ص ٧٢٣، ضعيف الجامع (١٨٤/١).

وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ لم يخف أحداً إلا الله. وفي هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن سؤال معروف، وهو أن يقال: لا يوجد أحد إلا هو يخشى من غير الله، ويخاف من غير الله؛ لأن كل المخاوف والمحاذير جُبلت طبائع البشر على الخوف والخشية منها، والذي لم يخش شيئاً من المخاوف والمحاذير هذا أمر صعب.

والعلماء يجيبون عن هذا بجوابين<sup>(١)</sup>:

بعضهم يقول: الخشية التي هي شرك بالله التي يحذر الله منها هي خشية الأصنام، والخوف من المعبودات من دون الله، وهذا النوع دلت عليه آيات كثيرة؛ لأن عبدة الأصنام يخوفون من يسب الأصنام بأن الأصنام ستفعل له وتفعل، كما قالوا لنبي الله هود: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبَكَ بَعْضُ الْهَتَنِاسِمْ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ وَأَنْتَ بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ [٥٤] من دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي فَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ﴿٥٦﴾ الآية [هود: الآيات ٥٤ - ٥٦] وكذلك لما خوفوا منها نبي الله إبراهيم (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) وقالوا له: سوف تفعل بك أصنامنا وتفعل، قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: آية ٨١] وخوفوا بها نبي الله (صلوات الله وسلامه عليه)، كما نصر الله عليه في سورة الزمر في قوله: ﴿وَيَخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ثم قال رداً عليهم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: آية ٣٦] وفي القراءة الأخرى<sup>(٢)</sup>: ﴿بكاف عباده﴾ وهذا كثير في

(١) انظر: القرطبي (٨/ ٩٠).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٨٤.

القرآن، فهذه الخشية التي يخاف صاحبها من عاقبة الأصنام هذا كفر بالله وشرك به.

وقال بعض العلماء: هي الخشية الدنيوية من الناس إذا كانت تحمل الإنسان على أن يعصي الله، كالذي يخشى من الكفار ويحجن عن الجهاد في سبيل الله، كما تقدم في قوله: ﴿أَتَخَشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٧] ﴿التوبة: آية ١٣﴾ أما ما يعرض للإنسان من الخوف من الأشياء والمحاذير بجلته فهذا أمر لا مؤاخذة به؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها كما هو معلوم، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: آية ١٨].

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: آية ١٩].

قال بعض العلماء: نزلت هذه الآية الكريمة في العباس بن عبد المطلب، ذلك أنه لما أُسر يوم بدر كان علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يلومه ويشدد عليه في قتاله للنبي ﷺ، وكان الصحابة يعيرونه وأصحابه بالشرك بالله، فقال لهم: تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا!! فقال له علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم، نحن نعمر بيت الله الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، ونفعل ونفعل<sup>(١)</sup>.

(١) أخرج نحوه ابن جرير (١٧٠/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٦٨/٦) وإسناده صحيح، والواحد في أسباب النزول ص ٢٤٤، وأورده السيوطي في الدر =

وقال بعض العلماء: نزلت في عثمان بن طلحة، أو شيبة بن طلحة، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب. قال العباس: أنا صاحب السقاية. وقال صاحب بني عبد الدار: أنا سادن البيت، عندي مفتاح الكعبة، لو أشاء لبت فيها. وقال علي بن أبي طالب: صليت إلى القبلة قبل أن يصلي الناس إليها، وذكر الجهاد ونحو ذلك، فأنزل الله: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾<sup>(١)</sup>.

= (٢١٨/٣)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، كما أورده عنه مختصراً وعزاه لابن مردويه. وقد جاء في هذا المعنى جملة من الآثار منها:

- ١ - الشعبي: أخرجه ابن جرير (١٧١/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٦٨/٦)، وأورده السيوطي في الدر (٢١٨/٣)، وعزاه لابن مردويه وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
- ٢ - عبد الله بن عبيدة: أورده السيوطي في الدر (٢١٨/٣)، وعزاه لابن أبي شيبة وابن مردويه وأبي الشيخ.
- ٣ - ابن سيرين: أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٢٤٤، وعزاه في الدر (٢١٨/٣) للفرابي.
- ٤ - الضحاك: أخرجه ابن جرير (١٧٢/١٤).
- (١) أخرجه ابن جرير (١٧١/١٤)، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٤٤، عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا، وقد جاء بمعناه عدة آثار منها:
  - ١ - عن الحسن البصري: أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٢٤٤، وعزاه في الدر (٢١٩/٣) لعبد الرزاق.
  - ٢ - أنس بن مالك (رضي الله عنه): أورده السيوطي في الدر (٢١٩/٣)، وعزاه لأبي نعيم في فضائل الصحابة، وابن عساكر.
  - ٣ - السدي: أخرجه ابن جرير (١٧٢/١٤).
  - ٤ - الشعبي: أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٦٧/٦).

وأكثر المفسرين أن سبب نزولها هو افتخار الكفار بسقايتهم الحاج، وعمارتهم المسجد الحرام، وجعلهم ذلك مثل إيمان المؤمنين، وأن لهم من الأجر مثل ما للمؤمنين، فأنكر الله عليهم.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة حديث مشكل، لأنه خرّج جماعة عن النعمان بن بشير (رضي الله عنه)، ومن جملة من خرّج حديثه مسلم بن الحجاج (رحمه الله) في صحيحه، أن سبب نزولها أن النبي ﷺ كان يوم الجمعة وعند منبر النبي ﷺ رجال، فقال واحد منهم: لا أبالي أن أفعل شيئاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال الثاني: لا أبالي أن أفعل شيئاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال الثالث: الجهاد في سبيل الله أفضل من هذا كله. فزجرهما عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ. وكان هذا يوم الجمعة. فإذا صلى الجمعة استفتيت رسول الله فيم اختلفتم فيه. وأنه استفتى النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ سبب نزول هذه الآية على هذا السياق أخرجه مسلم في صحيحه وجماعة<sup>(١)</sup>، وهو مشكل جداً؛ لأننا لو فرضنا أن نزولها في المؤمنين لا يناسب قوله في آخرها: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: آية ١٩] فدل على أن الصحيح أنها في الكفار، وهذا الحديث أصله فيه إشكال معروف في سبب نزول هذه الآية الكريمة، وقد أورد أبو عبد الله القرطبي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية إزالة هذا الإشكال<sup>(٢)</sup>،

(١) مسلم في الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم:

(١٨٧٩)، (٣/١٤٩٩).

(٢) تفسير القرطبي (٩٢/٨).

وكلامه فيه أجود ما وقفت عليه في إزالة إشكاله، قال: إنهم لما اختلفوا وذكر واحد منهم عمارة المسجد، وذكر الثاني سقاية الحاج، وذكر الثالث الجهاد، وسأل عمر بن الخطاب النبي ﷺ، أن النبي إنما قرأ الآية - وكانت نازلة قبل - مستدلاً بها لحكم ما اختلفوا فيه، وهي قوله: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ فظن الراوي أن قراءة النبي لها أن ذلك وقت نزولها، وذلك ليس بوقت نزولها، فهي نازلة قبل ولكنه ذكرها استشهاداً واستدلالاً لما اختلفوا فيه. وهذا هو الأظهر والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ الظاهر أن (جعل) هنا هي التي بمعنى اعتقد، وأنه أنكر عليهم اعتقادهم تساوي هذين الأمرين وهما بعيد من المساواة، بينهما بون عظيم، ويون شاسع.  
وكان بعضهم يقول: لا يبعد أن تكون هي التي بمعنى (صير) أي: صيرتم هذا كهذا وادعيتم أنه مثله.

وقد ذكرنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> أن لفظة (جعل) تأتي في اللغة العربية لأربعة معان، ثلاثة منها موجودة في كتاب الله، ورابعها موجود في اللغة العربية ولم يوجد في كتاب الله، من هذه المعاني الأربعة: كون (جعل) بمعنى (اعتقد) وجعل التي بمعنى اعتقد أصلها تنصب المبتدأ والخبر مفعولين، ومنها قوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً ﴾ [الزخرف: آية ١٩] وفي القراءة الأخرى<sup>(٢)</sup>: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً ﴾ والمعنى جعلوا الملائكة إنثاءً، أي:

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٠، ١١٢) من سورة الأنعام والآية (١٨٩) من سورة الأعراف.

(٢) مضت عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

اعتقدوهم إنائاً؛ لأنهم لم يصيروهم إنائاً ولا يقدررون، فهي (جعل) بمعنى (اعتقد).

والثانية (جعل) بمعنى (صير) ومنه قوله: ﴿جَعَلْنَهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ [الأنبياء: آية ١٥] أي: صيرناهم. وهذه أيضاً تنصب المبتدأ والخبر مفعولين.

والثالثة (جعل) بمعنى (خلق) وهي تتعدى إلى مفعول واحد، ومن هذا قوله في أول سورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: آية ١] أي: خلق الظلمات والنور، بدليل عطفه على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

هذه ثلاثة معاني كلها في القرآن: (جعل) بمعنى (اعتقد)، (جعل) بمعنى (صير)، (جعل) بمعنى (خلق).

الرابع منها: (جعل) بمعنى (شرع) جعل يفعل كذا إذا شرع فيه. وهذه ليست موجودة في كتاب الله، وهي موجودة في كلام العرب بكثرة، ومنه قول الشاعر<sup>(١)</sup>:

وقد جعلتُ إذا ما قمتُ يُثِقِلُنِي ثوبي فأنهضُ نهضَ الشَّاربِ السِّكْرِ

وهذا معنى قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ [التوبة: آية ١٩].

السقاية هي إحدى الوظائف؛ لأن قصي بن كلاب - وهو مُجَمِّع - لما جمَّع قريشاً وأخذ سدانة الكعبة من خزاعة، وجمَّع قريشاً وكان يُسمى مُجَمِّعاً؛ لأنه جمع قبائل قريش بمكة، وهو الذي يقول فيه ابن حذافة<sup>(٢)</sup>:

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم هذا البيت في سبل الهدى والرشاد (١/٢٧٥).

أبوكم قُصِيٌّ كَانَ يُدْعَى مُجْمَعًا      بِهِ جَمَعَ اللَّئَةُ الْقَبَائِلَ مِنْ فَهْرٍ  
 جعل الوظائف وهي السقاية والرفادة والندوة واللواء وحجابه  
 البيت هذه الوظائف كلها جعلها لعبد الدار بن قصي؛ لأن أولاد قصي  
 أربعة: عبد بن قصي، وعبد الدار بن قصي، وعبد العزى بن قصي،  
 وعبد مناف بن قصي. وكان عبد الدار أقل أولاده شرفاً وأكثرهم  
 خمولاً، فأعطاه جميع الوظائف. وجعل إلى عبد الدار السقاية،  
 والرفادة، والحجابه، ودار الندوة، واللواء.

اللواء هو حمل اللواء في الميدان عند التحام الحرب.

ودار الندوة: هي الدار التي كانوا لا يعقدون ولا يحلون إلا  
 بها، اشتراها بعد ذلك حكيم بن حزام وباعها وتصدق بثمانها<sup>(١)</sup>. ولما  
 قالوا له: يا أبا خالد: بعت مائة قريش!! قال لهم: الشرف بالدين  
 لا بالديار.

والسقاية: كان قصي يجمع أموالاً على قريش يجعل منها  
 الرفادة والسقاية.

الرفادة: مال يكون عندهم يكون رفاً لمن تعطل، إذا مات  
 بغير حاج اشتروا له بغيراً، وإذا افتقر أحد أو انقطعت به النفقة زدوه  
 منه حتى يصل إلى أهله. كل هذا يفعله قصي ويأخذ هذا المال على  
 قريش.

والسقاية: كانوا يأخذون النبيذ والشراب الطيب ويجعلونه في  
 الموسم في الأماكن التي تغشاها الناس، فيأتي الناس فيشربون

(١) أخرجه الطبراني من طريقين (٣/١٨٦ - ١٨٧)، وقال في المجمع (٩/٣٨٤):

«رواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن». اهـ.

مجاناً. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن أعرابياً جاء واستسقاها من سقايتهم فسقوه نبیذاً، فقال الأعرابي: سبحان الله إن الناس يسقون في سقايتهم اللبن والعسل وأنتم تسقون النبيذاً!! يعيبهم بأن سقايتهم نبیذ. فأخبره ابن عباس أن النبي ﷺ مرّ بهم وسقوه من نبیذها، وأمرهم أن يسقوا الناس منه. قال: لا أزيد على ما أمرنا به رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>. ومعلوم أن هذا النبيذ الذي أمر النبي بسقيه على تقدير صحة هذا أنه نبیذ لا يسكر كثيره؛ لأن النبيذ الذي يسكر كثيره لا ينبغي أن يقدم على شربه؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»<sup>(٢)</sup> كما هو معروف. فهذه هي سقاية الحاج.

والرفادة والحجابه التي هي سدانة البيت كانت كلها لعبدالدار، ولما شبّ أولاد عبد مناف أرادوا نزع هذه الأشياء من بني عبد الدار، ووقعت المخالفة بين قريش، وتحالفوا للقتال الحلف الذي يقال فيه «حلف المطيبين» و«حلف لَعَقَةِ الدَّم» كما هو معروف، ثم اصطلحوا على أن تبقى السقاية والرفادة أن ترد لبني عبد مناف، ويبقى للعبدريين اللواء والندوة وحجابه البيت، أي: سدانة الكعبة حرسها الله. فهذه السقاية كانوا يفتخرون بها ويقولون: نحن نسقي الحاج ونعمر بيت الله!! ويجعلون هذا أفضل ممن يؤمن بالله. فأنكر الله عليهم فقال: ﴿أَجْمَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ [التوبة: آية ١٩] الحجاج يقدمون عليكم فتسقونهم ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كترميمه وبنائه.

(١) أخرجه ابن سعد (١٣١/٢)، وأورده السيوطي في الدر (٢١٩/٣)، وعزاه لابن سعد.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

﴿ كَمَنَّ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ لا بد أن يقدر مضاف في أحد الأمرين<sup>(١)</sup>. قال بعض العلماء: يقدر في الأول، والمعنى: أ جعلتكم أصحاب سقاية الحاج، أو أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن، أي: كالذين آمنوا بالله؟

وقال بعض العلماء: يقدر المضاف في الثاني ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ ﴾ كعمل من آمن بالله. والأمران جائزان، وأظهرهما: تقديره في الأول، والمعنى: أ جعلتكم أهل سقاية الحاج وأصحاب عمارة المسجد كالذين آمنوا بالله، لا يكونوا مثلهم أبداً. ويُستأنس لهذا بالقراءة الشاذة المروية عن ابن الزبير وأبي بن كعب وأبي وجزة وغيرهم في قوله: «أ جعلتكم سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام»<sup>(٢)</sup> السقاة: جمع الساقى، كقاضي وقضاة. والعمرة: جمع عامر، ككاتب وكتبة، وظالم وظلمة. فهي قراءة شاذة إلا أنها يُستأنس بها للمعنى.

والحاج: اسم جنس لكل من يحج بيت الله الحرام، وسقائتهم: كما كانوا يسقون النبيذ والشراب الحلو في المواسم أيام الحج.

﴿ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ كما بناه قريش في صغر النبي ﷺ. جعلتكم واعتقدتم هذا ﴿ كَمَنَّ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ لا يكون مثله.

ثم قال: ﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ لا يستوي هؤلاء وهؤلاء؛ لأن

(١) انظر: القرطبي (٩١/٨)، الدر المصون (٣١/٦).

(٢) ذكرها ابن جني في المحتسب (٢٨٥/١)، والقرطبي (٩١/٨)، وأبو حيان في البحر (٢٠/٥)، ولم أجد من عزاها لأبي بن كعب.

عمل هؤلاء باطل للكفر؛ لأن الله قال: ﴿وَيَطَّلِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣٩﴾ [هود: آية ١٦] وقال (جلّ وعلا): ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ ﴿٢٣﴾ [الفرقان: آية ٢٣] وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٥٨﴾ [التوبة: آية ١٩] أي: ومنهم الكفرة الذين يفتخرون بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، فهم قوم ظالمون لا يهديهم الله (جلّ وعلا).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ [التوبة: الآيات ٢٠ - ٢٤].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ [التوبة: الآيات ٢٠ - ٢٢].

لما قال أهل مكة مفتخرين بأنهم يسقون الحاج، ويعمرون المسجد الحرام، ويفكون العاني - أي: الأسير - وافتخروا بمثل هذه الخصال، وأنكر الله عليهم تسويتهم بين ذلك وبين الجهاد والإيمان في قوله الذي ذكرنا أمس ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴿ الآية [التوبة: آية ١٩] صرح هنا بأن الإيمان بالله والهجرة والجهاد في سبيل الله أعظم درجة وأفضل مما يفتخر به أهل مكة. والظاهر أن صيغة التفضيل هنا لمطلق الوصف؛ لأن كفار أهل مكة لا درجة لهم في سقاية الحاج ولا عمارة المسجد؛ لأن الله يقول: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: آية ١٧] ومعنى الآية الكريمة: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بالله وبكل ما يجب به الإيمان ﴿ وَهَاجَرُوا ﴾ وأطانهم وديارهم وأموالهم ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ولإعلاء كلمة الله هؤلاء ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (درجة): تمييز محول عن الفاعل، أي: أرفع رتبة ومكانة ﴿ وَأَوْلَاتِكَ ﴾ المذكورون ﴿ هُمُ الْفَاقِرُونَ ﴾ ﴿ الظافرون بالحظ الأكبر؛ لأن العرب تقول: «فاز فلان». إذا ظفر بما كان يتمنى، وظفر بأكثر مطلوب، يقولون: «فاز»: نال الفوز، ومنه: ﴿ فَمَنْ رُحِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: آية ١٨٥]. والأتیان بضمير الفصل بين المسند والمسند إليه في قوله: ﴿ وَأَوْلَاتِكَ هُمُ الْفَاقِرُونَ ﴾ يدل على اختصاصهم بالفوز دون الذين قالوا: نحن نسقي الحاج ونعمر المسجد الحرام. وهذا معنى قوله: ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَاتِكَ هُمُ الْفَاقِرُونَ ﴾ .

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ [التوبة: آية ٢١] قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة ﴿ يُبَشِّرُهُمْ ﴾ مضارع بشره يُبَشِّرُهُ. وقرأه حمزة من السبعة<sup>(١)</sup>: ﴿ يَبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ الآية، فعلى قراءة حمزة: ﴿ يَبَشِّرُهُمْ ﴾ مضارع (بَشَّرَهُ) ثلاثياً مجرداً (يَبَشِّرُهُ) بالضم. وعلى قراءة الجمهور: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ ﴾ مضارع (بَشَّرَهُ) بالتضعيف (يُبَشِّرُهُ، تبشيراً).

(١) انظر: الإتحاف (٢/٨٩).

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> أن البشارة في لغة العرب هي الإخبار بما يسر، فكل من أخبرك بما يسرك فقد بَشَّرَكَ، وبَشَّرَكَ على اللغة الأخرى، وأنه يطلق أيضاً على البشارة بما يسوء، فالعرب أيضاً تسمي الإخبار بما يسوء (بشارة) إذا اقترن بما يدل على ذلك، وهو كثير في القرآن، كقوله: ﴿فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: آية ٣٤] وقد ذكرنا أنه أسلوب عربي معروف. تقول العرب: «بَشَّرَهُ بكذا». إذا أخبره بما يسوؤه، ومنه قول الشاعر<sup>(٢)</sup>:

يُبَشِّرُنِي الْغُرَابُ بِبَيْنِ أَهْلِي      فقلتُ له ثَكِلْتُكَ مِنْ بَشِيرُ  
وَبَيْنُ أَهْلِهِ مِمَّا يَسُوؤُهُ الْإِخْبَارُ بِهِ. وقول الآخر<sup>(٣)</sup>:

وَبَشَّرْتَنِي يَا سَعْدُ أَنْ أَحِبَّتِي جَفُونِي      وقالوا الوُدُّ موعده الحشْرُ

فجفاء الأجابة إخبار بما يسوء. ومعلوم أن الذين تكلموا في البلاغة والذين كانوا يقسمون الكلام إلى حقيقة ومجاز يقولون: إن البشارة حقيقة في الإخبار بما يسر، وهي في الإخبار بما يسوء استعارة عندهم، ويجعلونها من الاستعارة المسماة في اصطلاح البيانين بالاستعارة العنادية، ويقسمونها إلى تهكمية وتمليحية كما هو معروف في محله<sup>(٤)</sup>. ونحن نقرر دائماً أنها أساليب عربية، كلها حقيقة في محله، وقد وضعنا في ذلك رسالة تُسمى (منع جواز المجاز في المنزّل للتعبد والإعجاز) وهذا معنى قوله:

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: آية ٢١] الرحمة: مصدر رَحِمَهُ، والرحمة من صفات الله (جلّ وعلا)، ونحن معاشر المسلمين نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، ونثبت له ما أثبت لنفسه، منزهين خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق، فلا نميل إلى التعطيل، ولا إلى التمثيل، بل نقر بصفات الله ونؤمن بها على سبيل المخالفة لصفات الخلق، كما علمنا الله في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] ومراراً نوضح مذهب السلف في آيات الصفات عند كل المناسبات.

ومعنى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: آية ٢١] قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير شعبة - أبي بكر - عن عاصم: ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بكسر الراء. وقرأه شعبة عن عاصم ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بضم الراء<sup>(١)</sup> وهما لغتان فصيحتان، وقرأتان صحيحتان؛ لأن العرب تقول في مصدر رضي تقول: رضي يرضى رضاً ورضواناً. وتزيد فيه الألف والنون، والألف والنون تزدان في بعض المصادر كثيراً كالكفران والرجحان والغفران والرضوان. والكسر والضم لغتان فيه، ورضوان الله: رضاه (جلّ وعلا)، والرضا أيضاً صفة من صفات الله (جلّ وعلا) أثبت لنفسه الاتصاف بها إذا أمثلت أو امره واجتنبت نواهيها، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: آية ٨] ونحن دائماً نوصي أنفسنا وإخواننا وعامة المسلمين أن يعتقدوا في مذهب السلف المعتقد الواضح الذي هو في ضوء القرآن العظيم، الذي لا إشكال فيه ولا قيل ولا قال، وصاحبه يلقي الله

(١) انظر: الإتحاف (٢/٨٩).

سالماً من البلايا التي وقع فيها الناس الذين أكثروا الخوض في ذلك بقليل وقال .

وإيضاح مذهب السلف في آيات الصفات كما بيّنه القرآن وأوضحه هذا المحكم المنزل أنه يتأسس على ثلاثة أصول من جاء بها كاملة لقي الله سالماً، ومن أخلّ بواحد منها أوقع نفسه في بلية فلا يدري هل يتخرج منها أو لا<sup>(١)</sup>؟ .

أول هذه الأسس: هو الأساس الأعظم للتوحيد، والحجر الأساسي لمعرفة الله على طريق صحيح، هذا الأساس الأعظم هو: أن يعتقد الإنسان أن خالق السماوات والأرض منزّه عن مشابهة جميع خلقه في جميع صفاتهم وأفعالهم وذواتهم، فالخلق صنعة، والخالق (جلّ وعلا) صانع ﴿صَنَّعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: آية ٨٨] والصنعة لا تشبه صانعها، فمن رزقه الله فهم هذا الأساس عن الله وعلم أن الخلائق صنعة، وأن خالقهم هو صانعهم ومدبرهم ومنشئهم علم أنه لا مناسبة بين صفاته وصفاتهم، وأنه منزّه كل التنزيه، مقدس كل التقديس عن مشابهة خلقه، لا في ذواتهم، ولا في صفاتهم، ولا في أفعالهم. هذا الأساس الأعظم، فمن رزقه الله هذا الأساس، وفهمه عن الله، وطهر قلبه من أدران التشبيه، وأقذار التمثيل، كان يهون عليه بعد ذلك أن يصدق الله فيما وصف به نفسه، ويؤمن بصفات الله على الوجه اللائق بكماله وجلاله<sup>(٢)</sup> .

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

(٢) وهذا هو الأساس، والأصل الثاني من الأصول الثلاثة المُشار إليها.

وهذا الذي أقوله لكم ليس من تلقاء نفسي بل هو من تعليم خالق السماوات والأرض في المحكم المنزل الذي هو أعظم كتاب أنزله الله على أشرف رسول، لأن الله يقول فيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ [الشورى: آية ١١] فوضع الأساس الأول الذي هو أساس التنزيه ومخالفة الخلق في ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ثم وضع بعده الأساس الثاني وهو الإيمان بصفات الله على أساس ذلك التنزيه، لا إيماناً دنساً وسخاً ذاهباً إلى صفات الخلق، لا.. لا.. بل هو إيمان منزّه مبني على أساس التنزيه. وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيه سر أعظم، ومغزى أكبر، وتعليم عظيم من رب العالمين، كأنه يقول لك: تَعَقَّلْ يا عبدي وتفهم، ولا تنفي عني سمعي وبصري بدعوى أن المخلوقات تسمع وتبصر، وأن إثبات ذلك فيه تشبيه، لا.. لا.. راع في إثبات السمع والبصر أول الآية، وابنه على نفي المماثلة والمخالفة، واربط أول الآية بآخرها، فأولها تنزيه، وآخرها إيمان بالصفات على أساس ذلك التنزيه، فلا تقطع أول الآية من آخرها، ولا آخرها من أولها، بل اربط بينهما، ولا تقل: المخلوقات تسمع وتبصر، وإثبات السمع والبصر لله تشبيه. لا، أثبت السمع والبصر، ولكن إثباتاً مبنياً على ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا إثباتاً وسخاً نجساً قدراً ذاهباً إلى صفات الخلق، لا.. لا، فأول الآية تنزيه بلا تعطيل، وآخرها إيمان بالصفات وإثبات لها بلا تمثيل.

الأصل [الثالث]<sup>(١)</sup> من هذه الأصول الثلاثة: هي أن يعلم الإنسان قدره، ويقف عند حده؛ لأن خالق السماوات والأرض أعظم وأجلّ وأكبر من أن تحيط به العقول المخلوقة المسكينة، والله يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۗ عَلَّمَ ۝١١٠﴾ [طه: آية ١١٠] فنفى الإحاطة للعلم البشري عن خالق السماوات والأرض نفيًا باتًا.

فمن لقي الله وهو متمسك بهذه الأسس الثلاثة في ضوء كتاب الله لقيه في سلامة وفي غير ندامة. ونحن الآن في طريقنا في إسراع وحث إلى الوقوف بين يدي الله (جلّ وعلا)؛ لأن هذه اللحظات والدقائق والثواني يظن الجاهل أنها هادئة، وأنها واقفة، وهي تقطع بنا آلاف الأميال إلى المحشر، فعن قريب ونحن قائمون بين يدي الله في صعيد واحد، ينفذنا البصر ويسمعنا الداعي، ويسألنا الله، والله يقول: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: آية ٦] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣] فيوشك أن يقول لنا: ماذا كان موقفكم من صفاتي التي كنت أثني بها على نفسي في كتابي، ويشني بها عليّ رسولي ﷺ؟

[ولا يقول لك الله: لِمَ نزهتني عن مشابهة خلقي؟ لا والله، [٣/ب] لا يقول لك ذلك]<sup>(٢)</sup> / أبدأ بل تنزيه رب السماوات عن مشابهة خلقه في ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم طريق سلامة محققة لا شك فيه، ولا

(١) في الأصل: «الثاني»، وهو سبق لسان.

(٢) في هذا الموضع، وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

يقول لك الله: لِمَ صدقتني فيما مدحت به نفسي، وأثنت به على نفسي، وأنزلته في كتابي معلماً خلقي أن يمدحوني به؟! لا يقول لك: هذا أبداً، ولا يقول لك: لِمَ تقف عند حدك، وتقر بما لا تعلم؟ لأن الله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ﴿١١٦﴾ بل هي كلها طرق سلامة محققة.

واعلموا أيها الإخوان أن أول البلايا ومنشأ الرزايا كله من أنجاس القلوب بسبب التشبيه، كل البلايا منشؤها الوحيد بسبب أنجاس القلوب من أقدار التشبيه. هذا أصل البلاء والمحن والفتن الذي طبقت وجللت هذه المعمورة؛ لأن السلفي — مثلاً — العامل بضوء القرآن، إذا سمع الله يثني على نفسه بصفة من الصفات التي أثبتها لنفسه، سواء كانت صفة ذات أو صفة فعل، كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثِ﴾ [الفرقان: آية ٥٩] امتلاً قلبه إجلالاً وتعظيماً وإكباراً، وعلم أن هذا الاستواء الذي أثنى الله به على نفسه في سبع آيات من كتابه أنه بالغ من غايات الكمال والجلال والتنزيه والتقديس والمباعدة عن صفات المخلوقين ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين. أما إذا كان قلب الإنسان فيه بعض أقدار التشبيه فأول ما يسبق إلى ذهنه أن هذا الاستواء ظاهره استواء المخلوقات — سبحانه الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً — فيخطر في ذهنه أنه انتصاب كانتصاب هذا، فيتقدر القلب من أقدار التنجيس والتشبيه، فعند ذلك تأتي البلايا، وبعد ذلك إذا قال: ظاهر هذا هو مشابهة صفات المخلوقين جاءت البلايا من هنا، ثم إنه دعاه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي هذه الصفة عن الله، ومن ينفي عن الله وصفاً أثبته لنفسه فهو «أجراً من خاصي

الأسد»<sup>(١)</sup>. ثم إذا نفى هذه الصفة عنه ذهب يتلمس إلى وصف في زعمه ملائم، ثم يبدل الاستواء بالاستيلاء فيقول: استوى معناه استولى!! ويضرب لهذا مثلاً بقول الراجز في بشر بن مروان<sup>(٢)</sup>:

قد استوى بشرٌ على العراقِ  
من غير سيفٍ ودمٍ مهراقِ  
فهذا غلط شديد كبير أيها الإخوان!! ونحن نرجو الله أن الذين وقعوا فيه من العلماء أن يعفو الله عنهم ويغفر لهم لحسن نياتهم، فهم كما قال الشافعي رحمه الله<sup>(٣)</sup>:

رَامَ نَفْعاً فَضَرَ من غير قَصْدٍ  
ومن البرِّ ما يكونُ عُقُوقاً  
ونرجو الله ألا يكونوا كالذين قال الله فيهم: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: آية ٥٩]. وهذا الذي ذهبوا إليه أعظم وأشر وأضر من الذي فروا منه؛ لأننا نقول: أيها الإنسان الذي ضربت مثلاً لاستيلاء الله على عرشه الذي فسرت به الاستواء من تلقاء نفسك باستيلاء بشر بن مروان على العراق وضربت له المثل بيت الراجز المذكور:

قد استوى بشرٌ على العراقِ  
من غير سيفٍ ودمٍ مهراقِ  
أما تستحي من الله؟ أما تخاف الله؟ وبأي مبرر سوغت لنفسك أن تشبه استيلاء الله على عرشه الذي زعمت باستيلاء بشر بن مروان على العراق؟ وهل يوجد في الدنيا تشبيه أنتن وأخس وأقبح من

(١) انظر: الأمثال لأبي عبيد ص ٣٧٥.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من سورة الأنعام.

هذا؟! شبهت العرش بالعراق، ورب السماوات والأرض ببشر بن مروان، وهذا يفتح باباً إلى بحور من أنواع التشبيه لا ساحل لها أبداً؛ لأنه فيه تشبيه استيلاء الله على عرشه المزعوم بكل مخلوق قهر مخلوقاً فغلبه فاستولى عليه!! فمن هنا يضطر هذا القائل أن يقول: الاستيلاء الذي فسرت به الاستواء استيلاء منزّه عن استيلاء المخلوقين. ونحن نقول: كيف تنزهه وأنت تضرب له المثل باستيلاء بشر بن مروان؟ ثم نقول: إذا لزمنا أن ننزه أحد الكلمتين: إما الاستواء الذي نصّ الله عليه في كتابه وأنزله في سبع آيات من القرآن كتاباً يتلى أو الاستيلاء الذي جئت به، أيهما أحق بالتنزيه؟ الجواب: ولا شك أن كلام رب العالمين الذي أنزله وحياً يُتلى من فوق سبع سماوات أحق بالتنزيه من غيره. فمقصودنا أن نبيّن لإخواننا أن المدار على حفظ القلب والمحافظة عليه من أقدار التشبيه، وأن يعلم الإنسان أن كل وصف وصف الله به نفسه فهو بالغ من غاية الجلال والكمال والإعظام والإكبار والتقديس ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيحمل على أظهر المعاني وأعظمها وأقدسها وأليقها بالله (جلّ وعلا) وأبعدها عن مشابهة صفات المخلوقين.

ولو قال قائل: نحن لا نعقل استواءً تدركه عقولنا إلا مثل استواء المخلوقين. فنقول له: وهل عقلت كيفية الذات المقدسة المتصفة بهذا الاستواء؟ فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات، والله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: آية ١١٠] والأشياء تختلف بإضافاتها، فالصفة المضافة والمسندة إلى الله تخالف المضافة والمسندة إلى غيره

كمخالفة ذات الله لذوات خلقه، فصفات الخلق حق، وصفات الله حق، إلا أن صفات الله لائقة بذات الله، منافية لصفات المخلوقين كمنافاة [ذات الخالق لذوات] (١) الخلق، والإضافات تتغير بها المخلوقات فكيف بما بين الخالق والمخلوق؟ فمثلاً - والله المثل الأعلى - كلمة (رأس) أعني: كلمة (الراء والهمزة والسين) (رأس) هذه الكلمة إذا أضفتها إلى الإنسان وقلت: رأس الإنسان. وأضفتها إلى الوادي فقلت: رأس الوادي. وأضفتها إلى المال فقلت: رأس المال. وأضفتها إلى الجبل فقلت: رأس الجبل، أليست هذه الإضافات مختلفة في حقائقها، متباينة كل التباين؟ مع أنها مخلوقات حقيرة ضعيفة تباينت وتخالفت لاختلاف إضافاتها، فما بالك بالاختلاف الواقع بين الخالق والمخلوق؟ لا مشابهة هناك ولا مناسبة بين خالق ومخلوق. فعلياً أن نمشي على هذا النمط، وإذا سمعنا الله يثني على نفسه بصفة أن نعتقد أنها صفة بالغة من غايات التنزيه والكمال والإجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينها وبين صفات المخلوقين، ونؤمن بها على خصوص هذا الأساس من التنزيه، ولا نؤمن بها إيماناً وسخاً قدرأ ذاهباً إلى المشابهة بصفات الخلق، لا.. لا، ثم نقطع الطمع عن إدراك الكيفيات والإحاطة العلمية؛ لأن الله نفاها نفيأ باتأ في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: آية ١١٠] فإننا إذاً نكون منزّهين ربنا، مصدقين لربنا، واقفين عند حدنا، وتنزيه الله طريق مأمونة، وتصديق الله ورسوله طريق مأمونة، والوقوف عند الحد طريق مأمونة. وسنسط على هذا الكلام - إن شاء الله - في بعض المناسبات الآتية. وهذا

(١) في الأصل: «صفة الخالق لصفات»، وهو سبق لسان.

معنى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٢١].

الجنات: جمع تصحيح للجنة، والجنة في لغة العرب<sup>(١)</sup>: البستان، فإن العرب تسمي كل بستان جنة، وسيأتي قوله: ﴿كَمَا بَلَّوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: آية ١٧] والبستان صاحب القصة المعروفة. وإطلاق الجنة على البستان إطلاق معروف مشهور، ومنه قول زهير بن أبي سلمى<sup>(٢)</sup>:

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقْتَلَةٌ  
مِنَ التَّوَاضِيحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحْقًا

هذا أصل الجنة في لغة العرب، وهي في اصطلاح الشرع: دار الكرامة التي أعد الله لأولياته يوم القيامة، فهي شجرة مثمرة، ونخلة مضطردة، وغرفة عالية، وزوجة حسناء، نرجو الله أن يرزقنا الجنة وما قرب إليها من قول وعمل نحن وإخواننا المسلمين. وهذا معنى قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

النعيم: خفض العيش ولينه، وهو ضد البؤس كما هو معروف.

وقوله: ﴿مُقِيمٌ﴾ أي دائم أبداً لا يزول، وهذا كمال النعمة؛ لأن كمال النعمة الإقامة فيها وعدم الانتقال عنها؛ لأن أعظم ما يكدر النعم والمسار هو أن يفكر الإنسان في أنه يفارقها. فترى الإنسان في لذاته وفي نعمه وترفه، إذا فكر في أنه غداً يموت عنها، وتنكح نساؤه، وتقسم أمواله، ويذهب عنه كل شيء فزع من ذلك،

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

وأظلمت الدنيا في عينيه، ولم يتلذذ بما هو فيه، وقد صدق أبو الطيب حيث يقول<sup>(١)</sup>:

أشدُّ الغم عندي في سُرورٍ      تيقنَ عنه صاحبُه انتقالاً

وهذا معروف عندهم، فكمال اللذة والنعمة إنما هو بالإقامة أبداً، والله (جلّ وعلا) نص في آيات من كتابه على أن نعيم الجنة لا ينقطع ولا يزول، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعُدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ [هود: آية ١٠٨] فقلوه: ﴿غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ ﴿١٠٨﴾ أي: غير مقطوع أبداً، وكذلك قوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: آية ٩٦] أي: باق لا نفاذ له أبداً، والآيات الدالة على هذا متعددة في كتاب الله، وهذا معنى قوله: ﴿وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التوبة: الآية ٢٢] على الدوام لا يزولون، كما قال جلّ وعلا: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ ﴿١١٨﴾ [الكهف: آية ١٠٨] لا يتحولون عنها إلى غيرها.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ (جلّ وعلا) ﴿عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٢﴾ الأجر في لغة العرب: جزاء العمل. ومعنى ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٢﴾ أي: جزاء عملهم وهو الجنة، ووصفه بالعظم لِمَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ عَظِيمِ الشَّانِ؛ لأن الله يقول فيها: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [السجدة: آية ١٧] ولأجل هذا وصف هذا الجزاء بالعظم. وقد جاء مفصلاً في القرآن جميع ملاذه، كالمناكح في النساء التي هن في غاية الجمال، والملابس التي هي في غاية الجمال،

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأعراف.

والمشارب، والأواني، والحلي، والولدان، والغلمان إلى غير ذلك من نعيم الجنة المفصل في آيات هذا القرآن العظيم، وهذا معنى قوله: ﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: آية ٢٢].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة: آية ٢٣].

سبب نزول هذه الآية الكريمة أنه كان رجال من المسلمين يؤمنون بالله ويريدون الهجرة، فإذا أراد الواحد منهم أن يهاجر إلى رسول الله ليشارك المسلمين فيما هم فيه من الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله جاءت امرأته وأولاده وأبوه وأخوه يناشدونه بالله ألا يذهب عنهم، ويقولون له: إلى من تكلنا؟ ويثبطونه، فبعضهم يمكث من أجل هذا. فنهاهم الله عن هذا، وسيأتي في سورة التغابن آية التغابن النازلة في عوف بن مالك الأشجعي، وهي قوله: ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: آية ١٤] لأنها نزلت في عوف بن مالك، كان كلما أراد الهجرة جاءت امرأته وأولاده وناشدوه بالله، وقالوا: إلى من تكلنا؟ فيتشبث، فلما هاجر بعد ذلك وجد المسلمين سبقوه بكل خير، فندم وأراد أن يضرب امرأته وأولاده بسبب تشبيطهم إياه. فأمر الله المسلمين أن يتحفظوا من الأولاد والأزواج لئلا يثبطوهم عن الجهاد في سبيل الله، وأنهم إن وقع منهم شيء أن لا يؤاخذوهم، بل يعفوا عنهم

ويصفحوا<sup>(١)</sup>، كما قال في آية التغابن: ﴿إِن مِّنْ أَرْوَجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ  
عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] ثم قال: ﴿وإِن تَعَفَّوْا  
وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ أي: اصفحوا عنهم  
واغفروا لهم ولا تؤاخذوهم. وهذا معنى قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٣] قالوا: لم يذكر الأولاد  
هنا وذكرها في غير هذا الموضع، لا تتخذوهم أولياء توالونهم إذا  
كانوا يريدون أن يقطعوكم عن الهجرة.

﴿إِن أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ قرأ الهمزة الثانية من قوله:  
﴿أَوْلِيَاءَ إِن أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ نافع وابن كثير وأبو عمرو  
مسهلة بين بين، والباقون بتحقيقها كما هو معلوم<sup>(٢)</sup>.

ومعنى ﴿أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾ معناه: اختاروه وآثروه على  
الإيمان، إن آثروا الكفر واختاروه على الإيمان لا تتخذوهم أولياء،  
بل قاطعوهم وهاجروا ولا تركنوا إليهم. ويتعدد في القرآن إطلاق  
(استحب) بمعنى: (اختار) و (آثر) ومنه قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ  
فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: آية ١٧] أي: فاختراروه وآثروه  
عليه. ومنه قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾  
[إبراهيم: آية ٣] أي: يؤثرونها ويقدمونها عليها. وهذا معنى قوله:  
﴿إِن أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَمِنْكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٣]  
فيكون معهم فيما هم فيه ويترك الهجرة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

(١) الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة التغابن، حديث رقم: (٣٣١٧)،

(٤/٤١٩)، والحاكم (٢/٤٩٠)، وابن جرير (٢٨/١٢٥)، وانظر: صحيح

الترمذي (٣/١٢١).

(٢) انظر: الإتحاف (٢/٨٩).

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> أن أصل مادة (الظلم) مادة الظاء واللام والميم، (ظَلَمَ) أنها في لغة العرب التي نزل بها القرآن أصلها في الوضع العربي: هو وضع الشيء في غير محله. فمن وضع شيئاً في غير محله تقول العرب: إنه ظلم؛ لأنه وضع الشيء في غير محله. ومنه قالوا للذي يضرب لبنه قبل أن يروب: «ظالم»؛ لأنه وضع الضرب في غير محله؛ لأنه يفسد زبده، ومنه قول الشاعر<sup>(٢)</sup>:

وقائلة ظلمتُ لكم سِقَائِي      وهل يخفى على العكِدِ الظَّلِيمِ  
وقول الآخر<sup>(٣)</sup>:

وصاحب صدق لم تَرِدْني شَكَاتُهُ      ظلمتُ وفي ظَلَمِي لَهُ عامداً أَجْرُ

أصل الظلم هو وضع الشيء في غير محله، وجاء في القرآن في موضع واحد بمعنى النقص، وهو: ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ إِذِ انْتَأَتْ أُكُلَهُمَا وَلَمَّ تَظَلِيمَ رَبَّنَا شَيْئاً﴾ [الكهف: آية ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً. وأصل الظلم وضع الشيء في غير محله، وأعظم أنواع وضع الشيء في غير محله: الكفر بالله؛ لأنه وضع للعبادة في غير من خَلَقَ، فالذي يأكل رزق الله، ويتقلب في نعيمه، ويعبد غيره قد وضع عبادته في غير موضعها، فهو ظالم، وهذا أكبر أنواع الظلم؛ ولأجل هذا يكثر في القرآن العظيم إطلاق الظلم على الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ [يونس: ١٠٦]،  
﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣﴾ [لقمان: آية ١٣] وقد ثبت في صحيح  
البخاري<sup>(١)</sup> أن النبي ﷺ فسّر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا  
إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] قال: بشرك. ثم تلا آية لقمان:  
﴿يَبْنِي لَكَ شِرْكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣﴾ هذا أصل الظلم. وقد  
يكون ظلم دون ظلم؛ لأن من أطاع الشيطان وعصى ربه بغير ما يكفر  
به قد وضع الطاعة في غير موضعها، ووضع المعصية في غير  
موضعها حيث عصى ربه وأطاع عدوه. ومن كفر بالله وضع العبادة في  
غير موضعها؛ ولذلك هنالك ظلم هو كفر، وهنالك ظلم دون ظلم  
هو خروج عن طاعة الله لا يبلغ بصاحبه الكفر، وهذا معنى قوله:  
﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ لأنهم وضعوا الأمر في غير موضعه  
فاتخذوا من يضرهم أولياء، وتركوا ما ينفعهم من الهجرة والجهاد في  
سبيل الله. وهذا معنى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ  
اقتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ  
اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لَا يَهْدِي  
الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ [التوبة: آية ٢٤].

سبب نزولها هو ما أشرنا له آنفاً؛ لأن بعض الناس كان إذا  
أسلم عاقته هذه العوائق عن الهجرة والجهاد في سبيل الله (جلّ وعلا)  
بأن تعطله عن ذلك الأبناء والآباء والإخوان والعشائر والزوجات  
والأموال المكتسبة والتجارات التي يُخاف أن تضيع بالكساد ويضيع

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

ربحها، إن كان هذا كله أحب إليكم من الله ومن رسوله ومن الجهاد في سبيله ﴿فَرَبِّصُوا﴾ هو أمر تهديد كما يأتي.

وقوله: ﴿ءَابَاؤُكُمْ﴾ اسم كان. و ﴿أَحَبَّ﴾ خيرها.

ومعنى الآية الكريمة: قل يا نبي الله لهؤلاء المتخلفين عن الهجرة في سبيل الله بسبب هذه العوائق الآتية، قل لهم: إن كانت هذه الأمور التي عاقتكم أحب إليكم من الله ومن رسوله ومن جهاد في سبيله فانتظروا أمراً يأتيكم من الله. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ﴾.

الآباء جمع الأب، والعرب تقول: «أبٌ» إذا نكرتها تعربها على العين وتحذف لامها ولا تعوض منه شيئاً، وهي من الأسماء التي تعرب على العين عند التنكير والتعريف. أما إذا أُضيفت فإن لامها ترجع لها<sup>(١)</sup>، وأصل لام (الأب) واو، أصله (أبو) فلام الكلمة واو، فإنها إذا أُضيفت – مثلاً – أُعربت بالواو والألف والياء، فرجعت لها لامها كما هو معروف. وإذا نُكِّرت أو عُرِّفت أسقطت لامها وأُعربت على العين<sup>(٢)</sup>.

والإخوان جمع أخ. وأصل (أخ) أيضاً لامه المحذوفة واو؛ ولهذا رجعت في جمع التكسير في قوله: ﴿وَإِخْوَانَكُمْ﴾ فالأخ أصله (أخو) بالواو، فلامه المحذوفة واو<sup>(٣)</sup>، وهو كالأب في جميع ما كنا نذكر. هذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾. الآباء جمع الابن وهو معروف.

(١) انظر: شرح قطر الندى ص ٤٦.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٧.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ١٧.

﴿وَأَزْوَاجَكُمْ﴾ الأزواج جمع زوج، وزوج الرجل امرأته، ومفرده (زوج) بلا هاء، وهذه هي اللغة الفصيحة. العرب تقول: هذه زوجة، أي: امرأته، وزعم بعض علماء العربية أن قولهم (زوجته) بالياء أنها من لحن الفقهاء، وأنها لا أساس لها في العربية. والتحقق أن اللغة الفصحى في امرأة الرجل أنها (زوجه) بلا تاء، وأن التاء لغة فيها مسموعة وليست لحناً كما يقوله بعضهم<sup>(١)</sup>. ومن إطلاق الزوجة بالياء على امرأة الرجل قول الفرزدق، همام بن غالب، وهو عربي قح<sup>(٢)</sup>:

وإنَّ الذي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي      كساع إلى أسد الشرى يستيلها  
ومنه قول الحماسي<sup>(٣)</sup>:

فشكا بناتي شجوهن وزوجتي      والظاعنون إليَّ ثم تصدَّعوا

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال في صفة: إنها زوجتي<sup>(٤)</sup>. فالتحقق أن الزوجة بالياء لغة لا لحن، وأن اللغة الفصحى في امرأة الرجل أن يقال فيها: (زَوْجُهُ) بلا هاء. وهذا معنى ﴿وَأَزْوَاجَكُمْ﴾ أي: نساؤكم.

﴿وَعَشِيرَتَكُمْ﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة - غير أبي بكر عن عاصم - (أعني بأبي بكر: شعبة) قرؤوه كلهم ﴿وَعَشِيرَتَكُمْ﴾ بالإفراد.

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٨٩) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

وقرأه شعبة عن عاصم: ﴿وَعَشِيرَاتِكُمْ﴾<sup>(١)</sup> بجمع التصحيح، جمع عشيرة، وعشيرة الرجل ثبت في صحيح البخاري وغيره ما يدل على أنها تشمل إلى الجد العاشر؛ لأنه ثبت في الصحيح<sup>(٢)</sup> أن النبي ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: آية ٢١٤] أنه امتثلها فنأدى بني فهر، وفهر هو جده العاشر ﷺ، فدلّ هذا الحديث الصحيح على أن العشائر تشمل إلى الجد العاشر من الرجل، وهذا معنى ﴿وَعَشِيرَتِكُمْ﴾.

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ الاقتراف في لغة العرب معناه الاكتساب، أموال اكتسبتموها تخافون إن سافرتم عنها أن تضيع ﴿وَتَجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ تخافون إذا هاجرتم عنها أن تكسد ولا تجد رواجاً وربحاً، وكان بعض العلماء يقول: إن التجارة التي يخاف كسادها من عنده بنات — مثلاً — إذا خرج كسدن ولم يجدن أزواجاً يتزوجونهن<sup>(٣)</sup>. والأول هو ظاهر القرآن، وهو ظاهر اللغة، وإن كان الثاني قال به جماعة.

﴿وَمَسْكَنٌ﴾ جمع المسكن وهي الديار والقصور ﴿تَرْضَوْنَهَا﴾ يعني ترضونها سكناً وتحبون الإقامة والسكنى فيها، إن كان هذا كله

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٦.

(٢) البخاري في التفسير، باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، حديث رقم: (٤٧٧٠)، (٥٠١/٨)، وأخرجه في موضع آخر. انظر: حديث رقم: (٤٩٧١)، ومسلم في الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، حديث رقم: (٢٠٨)، (١٩٣/١)، من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، وقد جاء نحوه عن أبي هريرة وعائشة وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين.

(٣) انظر: القرطبي (٩٥/٨).

أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ قد ثبت في الصحيح<sup>(١)</sup> عن النبي ﷺ أنه لا يؤمن أحد حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من أهله وولده بل ومن نفسه التي بين جنبيه، فلا يؤمن أحد حتى يكون ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه ومن كل شيء كائناً ما كان. وكذلك محبة الله (جلّ وعلا)، فالمسلم يحب الله (جلّ وعلا) ويحب رسوله ﷺ. واعلموا أيها الإخوان أن العلامة الواضحة لمحبة الله ورسوله هي امتثال أمر الله واجتناب نهى الله فيما بلغه عنه رسوله محمد ﷺ. هذا هو علامة المحبة. واعلموا أن كل من يدعي محبة رسول الله ﷺ وهو يخالفه أنه كذاب، كذاب، لا يحب الله ولا رسوله، ومن يخالف الله فالحب منتقص بقدر المخالفة، والمحب جداً لا يخالف محبوبه، فعلاقة حب الله وحب رسوله الواضحة والشهادة به القاطعة هي اتباع ما جاء عن الله على لسان رسوله محمد ﷺ، ومصداق هذا في كتاب الله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فمحبة الله ومحبة رسول الله علامتها القاطعة اتباع رسول الله، فكل من يدعي أنه يحب الله ويحب رسول الله ويرتكب الأمور المخالفة لما جاء به رسول الله عن الله فهو كذاب، كذاب، كذاب في دعواه المحبة. وهذا أمر معروف عند

(١) البخاري في الإيمان، باب حب رسول الله ﷺ من الإيمان، حديث رقم: (١٥)، (٥٨/١)، ومسلم في الإيمان، باب وجوب محبة الرسول ﷺ، حديث رقم: (٤٤)، (٦٧/١)، من حديث أنس (رضي الله عنه)، وأخرجه البخاري في الموضوع السابق (١٤)، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، وقد ذكره الشيخ بمعناه، ولفظه: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»، وفي بعض الألفاظ: «من أهله وماله والناس أجمعين».

الناس؛ لأنه من الجبله المعروفة عند العامة أن المحبة تقتضي  
الاتباع:

لو كان حبك صادقاً لأطعته  
و قد صدق من قال (٢):  
إن المحب لمن يحب مطيع (١)

قالت وقد سألت عن حال عاشيقها  
فقلت لو كان رهن الموت من ظماً  
بالله صفة ولا تنقص ولا تزيد  
وقلت قف عن ورود الماء لم يرد

هذا في محبة مخلوق على وجه غير لائق فكيف بمحبة الله  
ورسوله؟ فالمحب لله هو مطيع الله، والمحب لرسول الله ﷺ هو متبع  
رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ التربص في لغة العرب: الانتظار، ومنه:  
﴿يَتَرَبَّصَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: آية ٢٢٨].

تَرَبَّصْ بِهَا رَيْبَ الْمَنُونِ لَعَلَّهَا تُطَلَّقَ يَوْمًا أَوْ يَمُوتَ حَلِيلُهَا (٣)

(١) البيت في تاريخ دمشق (٣٧٩/١٣)، ونسبه للحسن بن محمد بن الحنفية.  
(٢) البيتان في ديوان يزيد ص ٨٣، وهي أيضاً في (قرى الضيف) ص ١١٨،  
بالإسناد إلى أبي المطاع ذي القرنين بن ناصر الدولة أبي محمد من شعره،  
وذكرهما الأبشيهي في المستطرف (٣٨٥/٢)، وابن الجوزي في المدش  
ص ٣١٤، بدائع الفوائد (٢١٦/٣) ولفظهما هناك:

قالت لطيف خيال زارها ومضى  
فقال: خلفته لو مات من ظماً  
بالله صفة ولا تنقص ولا تزيد  
وقلت: قف عن ورود الماء لم يرد  
قالت: صدقت الوفا في الحب شيمته  
يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

(٣) البيت في القرطبي (١٠٨/٣)، واللسان (مادة: ربص) (١١٠٦/١)، والدر  
المنثور (١٢٠/٦)، وعزاه لابن الأنباري في الوقف والابتداء، وهو أيضاً في فتح  
القدير (٢٣٢/١)، (٩٩/٥).

قال بعض العلماء: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ الظاهر أنه واحد الأمور، ولا شك أن في هذه الآية تهديداً وتخويفاً لمن دام على إثارة هذه الأشياء على الله وعلى رسوله ﷺ ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ وَاللَّهُ ﴿جَلَّ وَعَلَا﴾ ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

مثل هذه الآيات فيه سؤال معروف للعلماء، كقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فالله (جلّ وعلا) نفى هدايته للفساقين، ونفى هدايته للظالمين، مع أننا نشاهد بعض الفاسقين الظالمين يهديه الله، وكم من كافر شديد في الكفر، ظالم فاسق يهديه الله. هذا وجه الإشكال.

وأجاب العلماء عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن قوله: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ من العام المخصوص، وأن المراد بها الذين سبق في علم الله أنهم لا يهتدون من الفسقة والظلمة الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿الآية [يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧].

وقال بعض العلماء: لا يهديهم ما زالوا متصفين بالظلم والفسق، فإذا نزعوا عن ذلك برحمة الله وهدايته زال عنهم اسم الفسق والظلم، فلا مانع إذاً من هداهم. هكذا قاله بعض العلماء والله تعالى أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ [التوبة: آية ٢٤].

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْيَنَ﴾ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ

جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ  
 اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ [التوبة: الآيات  
 ٢٥ - ٢٧].

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ اللام جواب قَسَمَ محذوف، والله لقد  
 نصركم الله. أي: أعانكم على أعدائكم ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: في  
 مشاهد ومواضع كثيرة، كما نصركم يوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم  
 فتح مكة، إلى غير ذلك ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾  
 [التوبة: آية ٢٥] بين الله في هذه الآية الكريمة أن النصر من عند الله  
 وحده، لا بكثرة العدد ولا بكثرة العدد، ﴿كَمْ مِّن فِئْتَةٍ قَلِيلَةٍ  
 غَلَبَتْ فِئْتَةً كَثِيرَةً يَا ذَنُ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٤٩]  
 لأن أكثر غزاة قبل تبوك غزاها النبي ﷺ غزوة حنين، كانوا اثني عشر  
 ألفاً، عشرة آلاف مقاتل فتح بهم مكة، وألفان من مسلمة الفتح من  
 قريش ومن معهم وهم الطلقاء. وكان بعض العلماء يقول: إنه دخل  
 مكة وفتحها باثني عشر ألفاً. فيكون المجموع: أربعة عشر ألفاً.  
 ذكروا أن الصحابة قالوا: لن نُغلب اليوم من قلة. بعضهم يقول: إن  
 هذه قالها أبو بكر (رضي الله عنه)، وقيل: قالها رجل آخر. فلما  
 أعجبتهم الكثرة وأنهم كانوا اثني عشر ألفاً، أو أربعة عشر ألفاً،  
 وقيل: ستة عشر ألفاً. وأكثر الروايات أنهم كانوا اثني عشر ألفاً،  
 عشرة آلاف فتح بهم مكة، وألفان من أهل مكة أسلموا وغزوا معه.  
 ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ هذه الكثرة ﴿شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ  
 بِمَا رَحَبْتُمْ وَلَيْسَتْ مُدِيرِينَ﴾ وهذا نص الله فيه على ما وقع  
 بالمسلمين أول وقعة حنين، يبين لهم أن النصر من عنده (جلّ وعلا)  
 وحده لا من كثرة العدد والعدد.

ونحن دائماً في هذه الدروس إذا جاءت غزوة من مغازي رسول الله ﷺ في الآيات القرآنية نفصلها ونذكر تفاصيلها لتمام الفائدة كما أوضحنا فيما مضى غزوة أحد في سورة آل عمران، وغزوة [بدر]<sup>(١)</sup> في سورة [الأنفال]<sup>(٢)</sup>، وسيأتي في سور القرآن العظيم أكثر مغازيه ﷺ.

وهذه الغزوة التي أشار لها الله هنا وبين أن الصحابة أعجبتهم كثرتهم فيها، وأن كثرتهم لم تغن عنهم شيئاً، وأنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين، هي غزوة حنين، وسنشير الآن إلى هذه الغزوة ونذكر تفاصيلها.

أما حنين فهو وادٍ من أودية تهامة بين مكة والطائف غير بعيد من ذي المجاز، وأما الذين غزاهم فهم هوازن، وهوازن قبيلة من قبائل قيس عيلان بن مضر؛ لأن هوازن هو ابن منصور بن خصفة بن عكرمة<sup>(٣)</sup> بن قيس عيلان بن مضر.

قال بعض أصحاب المغازي والسير<sup>(٤)</sup>: لما سمع هوازن بخروج النبي ﷺ من [المدينة]<sup>(٥)</sup> ظنوا أنه يقصدهم في غزاة الفتح فتجمعوا، جمعهم رئيسهم في ذلك الوقت، ورئيسهم في ذلك الوقت مالك بن عوف النصرى من بني نصر بن بكر بن هوازن. ثم لما بلغهم أن النبي ﷺ فتح مكة جمعهم مالك بن عوف وعزموا على مقاتلة

(١) في الأصل: «الأنفال»، وهو سبق لسان.

(٢) في الأصل: «بدر»، وهو سبق لسان.

(٣) في ابن هشام (١٧٦/١) ابن عكرمة بن خصفة.

(٤) السابق ص ١٢٨٣.

(٥) في الأصل: «مكة»، وهو سبق لسان.

النبي ﷺ، فسمع النبي ﷺ بأخبارهم فأرسل إليهم عبد الله بن أبي حردد الأسلمي (رضي الله عنه) عيناً يعرف له أخبارهم، فدخل في القوم مخفياً وسمع أخبارهم، وعرف أنهم عازمون على حرب النبي ﷺ. وكان النبي ﷺ قد فتح مكة في رمضان من سنة ثمان.

قال بعض أصحاب المغازي<sup>(١)</sup>: فتحتها لعشرين خلت من رمضان وعشر بقيت، وأنه أقام العشر الأواخر من رمضان بمكة بعد أن فتح مكة وخمس ليال من شوال، ثم غزا بعد خمس عشرة ليلة من فتحه مكة غزا هوازن باثني عشر ألفاً من أصحابه، عشرة آلاف الذين فتح بهم مكة، والألفان الذين أسلموا وخرجوا غازين معه من الطلقاء أهل مكة، ثم إن النبي ﷺ سمع بأن هوازن تجمعوا له في وادي حنين فقصدهم (صلوات الله وسلامه عليه) وقد صلى (صلوات الله وسلامه عليه) الصبح، وفي مخرجه هذا من مكة إلى حنين. مرّ بذات أنواط، وهي سدرة خضراء كبيرة كان المشركون يأتونها يوماً من السنة يذبحون عندها، ويعكفون عندها، ويعلقون عليها سلاحهم تسمى «ذات أنواط» وكان كثير ممن معه حديث عهد بالإسلام، فقالوا له: يا نبي الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال (صلوات الله وسلامه عليه): الله أكبر قلتُم والذي نفسي بيده ما قال قوم موسى لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٨]<sup>(٢)</sup> وكان العباس بن مرداس السلمى

(١) السابق ص ١٢٨٢.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٨/٥)، وعبد الرزاق (٢٠٧٦٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٧٦)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء «لتركين سنن من كان قبلكم»، حديث رقم: (٢١٨٠)، (٤/٤٧٥)، والحميدي (٨٤٨)، والطيالسي (١٣٤٦)، =

قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قاصداً هوازن قال قصيدة يصف فيها جيش رسول الله ﷺ وما يعزم عليه من غزو هوازن منها أنه يقول<sup>(١)</sup>:

أَبْلُغْ هَوَازِنَ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلَهَا      عَنِي رِسَالَةٌ نُضِجَ فِيهِ تَبْيَانُ  
إِنِّي أَظُنُّ رَسُولَ اللَّهِ صَابِحَكُمْ      جَيْشًا لَهُ فِي فِضَاءِ الْأَرْضِ أَرْكَانُ  
فِيهِمْ سُلَيْمٌ أَخُوكُمْ غَيْرَ تَارِكِكُمْ      وَالْمُسْلِمُونَ عِبَادُ اللَّهِ غَسَّانُ  
وَفِي عِضَادَتِهِ الْيَمْنَى بَنُو أَسَدٍ      وَالْأَجْرِبَانُ بَنُو عَبْسٍ وَذُبْيَانُ  
تَكَادُ تَرْجُفُ مِنْهُ الْأَرْضُ رَهْبَتَهُ      وَفِي مَقْدَمِهِ أَوْسٌ وَعَثْمَانُ

يعني بـ (أوس وعثمان) قبيلتي مزينة من قبائل أد بن طابخة بن إلياس، ومزينة أهمهم. فتوجه إليهم رسول الله ﷺ، فلما كان قريباً منهم كان مالك بن عوف جمع جميع من طاعوه من هوازن، وكانت خرجت معه بنو نصر كلها (بنو نصر بن بكر بن هوازن)، وبنو جشم كلها، (جشم بن بكر بن هوازن) وبنو سعد كلهم، سعد بن بكر بن هوازن، ولم يخرج معه كثير من بني عامر بن صعصعة من قبائل هوازن، تخلف عنه بنو ربيعة، وبنو كلاب، وجاء معه أوزاع قليلة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وجماعة من بني عمرو بن عامر بن صعصعة، وبني عوف بن عامر بن صعصعة، وجاء معه ثقيف كلها - وكانت ثقيف كلها ترجع إلى قبيلتين، وثقيف أهل الطائف، هم من قبائل هوازن، وإن كان كثير من الناس يظن أنهم مع هوازن؛ لأن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن - وكان

= والطبراني في الكبير (٣٢٩٠، ٣٢٩٤)، وابن حبان (الإحسان ٨/٢٤٨)،

وابن نصر في السنة ص ١٦، ١٧، وابن جرير (١٣/٨١، ٨٢).

(١) القصيدة في سيرة ابن هشام ص ١٢٨٧.

رئيس الجميع مالك بن عوف النصرى، وكان في ثقيف أهل الطائف رئيسان، رئيس الأحلاف، ورئيس بني مالك؛ أما رئيس الأحلاف ذلك اليوم فهو قارب بن الأسود بن مسعود بن المُعْتَب، ورئيس بني مالك هو ذو الخمار، وهو سبيع بن الحارث، وأخوه أحمر بن الحارث. وجاء دريد بن الصمة من بني جشم بن بكر، وكان سيداً عظيماً من سادات هوازن، مُجَرَّباً في الحروب، وكان في ذلك الوقت شيخاً فانياً يرتعش، لا فائدة فيه إلا التيمن برأيه، جاء راكباً في شَجَار<sup>(١)</sup> له، وكان جماع الناس إلى مالك بن عوف النصرى، فقال دريد: هذا المحل الذي أنتم فيه أي وادٍ أنتم فيه؟ قالوا: نحن الآن بوادي أوطاس. قال: نعم مجال الخيل، لا حزنٌ ضرُس ولا سهل دهنس. ثم إنه قال: ما لي أسمع بكاء الصغير، ونهاق الحمير، ورغاء البعير، ويعار الشاء؟ قالوا له: جمع مالك بن عوف مع هوازن مواشيهم وأموالهم ونساءهم وذرائعهم!! فقال: أين مالك؟ فدُعي له مالك بن عوف، فقال: يا مالك!! لقد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم له ما بعده، فما لي أسمع رغاء البعير، وبكاء الصغير، ونهاق الحمير، ويعار الشاء؟ قال: سُقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأولادهم. قال: ولم؟ قال: أريد أن يكون عند ظهر كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ولا يفر. فقال دريد يهزأ بمالك (أنقَض به) — أي أخرج من فمه صوتاً استهزاءً به — وقال: راعي ضأن والله، هل يرد المنهزم شيء؟! هذا ليس برأي؛ لأنها إن كانت عليك فُضحت في أهلِكَ ومالك، فكان الأولى أن تردهم إلى متمنِّع بلادهم وعُليا قومهم، فإن كانت لك فإنه لا ينفَعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن

(١) الشجار: يشبه الهودج لكنه غير مُغطى من الأعلى.

كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. فقال مالك: والله لا أفعل غير هذا. ثم قال: يا معشر هوازن والله لتطيعنني أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري!! فقالوا: أطعناك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني. ثم قال: هل حضر أحد من بني كعب أو كلاب؟ قالوا: ما حضرها أحد من بني كعب ولا كلاب. يعني كعباً وكلاباً أولاد عامر بن صعصعة. قال: غاب الجد والحد<sup>(١)</sup> لو كان يوم رفعة وعلاء لم يغب عنه كعب وكلاب. قال: من حضرها من عامر؟ قالوا: بنو عوف بن عامر، وبنو عمرو بن عامر. قال: ذاك الجدعان من عامر لا ينفعان ولا يضران. ثم قال دريد<sup>(٢)</sup>:

[١/٤] يا ليتني فيها جَذَعٌ / أَخْبُتُ فِيهَا وَأَضَعُ  
أُقودُ وُطْفَاءَ الزَّمْعِ<sup>(٣)</sup> / كأنها شاةٌ صَدَعُ<sup>(٤)</sup>

ثم إن مالك بن عوف أمرهم فكمنوا للنبي ﷺ وأصحابه في مضايق وادي حنين وأحنائه، كانوا في مضايق الوادي بجنتي الوادي كامنين له.

وقال لهم ملكهم - مالك بن عوف النصرى - : إذا أقبل عليكم القوم فشدوا عليهم شدة رجل واحد. فصلّى النبي ﷺ الصبح وسار بأصحابه في الغلس - يعني: بقية ظلام الليل مختلطة بضياء

(١) الحد: يعني الحدة والشجاعة.

(٢) ذكرهما ابن هشام في السيرة ص ١٢٨٥، مرويات غزوة حنين (١/٢٣٤).

(٣) الوطفاء: طويلة الشعر.

الزعم: الشعر الذي فوق مربوط قيد الدابة، فهو يذكر صفة فرس.

(٤) الشاة هنا: الوعل.

والصدع: الفتى القوي الشاب من الأوعال ونحوها.

الصبح — فأنحدروا في وادي حنين يمشون، فلم يشعروا بشيء إلا وقد دخلوا في مكمن القوم، فشدوا عليهم شدة رجل واحد، وصارت الرماح والسهام كأنها رجل جراد منتشر عليهم، فوقع ما وقع، وزلّ المسلمون، ووقع ما قال الله: ﴿فَلَمْ تَعْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَتْ مَدِيرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ فثبت رسول الله ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وبعضهم يقول: الشهباء؛ لأن لونها بياض فيه شُهبة. والعباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) أخذ بزمامها. وبعضهم يقول: أخذ بركابها الأيمن، أو حَكَمَتِهَا، وأخذ بركابها الثاني أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فكان مع النبي جماعة من آل بيته، منهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، والعباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث، والفضل بن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنهم)، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد، وأيمن بن أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ. وثبت رسول الله ﷺ ذلك الثبات العظيم، وكان يركض البغلة في نحر العدو يسرع إليهم ويقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وهذا من الشجاعة منقطع النظير<sup>(١)</sup>؛ لأنه على بغلة لا تحسن الكرّ ولا الفرّ، لا تصلح لكرّ ولا لفرّ، وقد انكشف عنه أصحابه (صلوات الله وسلامه عليه)، وليس معه إلا قوم قليل، ومع هذا يركض في وجه العدو وينوه باسمه ليعرفه من لم يكن يعرفه!! وقال للعباس بن عبد المطلب — وكان رجلاً ضخماً قوياً جهير الصوت جداً — ناد: يا أصحاب السُّمرة. فنادى العباس بأعلى صوته: يا

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

أصحاب السَّمرة. والسَّمرة هي شجرة الحديدية التي وقعت تحتها بيعة الرضوان، وقد بايعوه فيها على أن لا يفروا عنه. وفي بعض المرات يقول: يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة. يدعوهم. فسمعوا نداءه فقالوا: يا لبيك. وتراجع إليه المسلمون من كل فج، وقد أعجزهم أن يردوا الأباغر التي يركبونها؛ لأنها ألمها وقع السهام، فلم يقدرُوا على ردها ولا عطفها.

قال العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه): فوالله لَمَّا ناديتهم فسمعوا صوتي فكأنما عطفوا عليه عطفة البقر على أولادها. وكان (صلوات الله وسلامه عليه) أخذ قبضة من تراب فرمى بها في أوجه القوم وقال: شامت الوجوه. وذكر ابن عبد البر وغير واحد أنه روى من طرق كثيرة عن أولاد أولئك الجيش الذين أسلموا بعد ذلك أنهم قالوا: لقينا أصحاب محمد ﷺ فما لبثنا أن هزمناهم واتبعناهم حتى أتينا على صاحب البغلة الشهباء فزجرنا زجراً قوياً، وأخذ قبضة من تراب وحصى فرمى بها في أوجهنا فلم تبق عين ولا فم إلا امتلأت من ذلك الحصى. ورجعوا منهزمين، فمن ذلك الوقت الذي رمى تلك القبضة في أوجههم وكان حدهم قليلاً وأمرهم مدبراً. ثم إنه (صلوات الله وسلامه عليه) وكان العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) في ذلك اليوم شديد الشجاعة يُنَوِّه بالنفر الذين بقوا معه، والذي يقوله العباس في شعره أنهم عشرة فقط حيث يقول<sup>(١)</sup>:

(١) البيت الأول أورده ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٦/٢٩٩)، ويلي بيتان غير المذكورين هنا، والبيتان الأخيران ذكرهما ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/٩٦) (مع بعض الاختلافات)، والقرطبي (٨/٩٨)، والحافظ في الفتح (٨/٣٠) دون الأول، وهما في مرويات غزوة حنين (١/١٨٣).

ألاهل أتى عرسي مُكري ومقدمي  
بوادي حنين والأسنة تشرع  
إلى أن قال:

نصّرنا رسول الله في الحرب تسعة  
وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا  
وعاشرنا لاقى الحِمَامَ بنفسه  
لما مسّه في اللّه لا يتوجّع

يعني بعاشرهم الذي لاقى الحِمَامَ أي: الموت: أيمن بن أم  
أيمن (رضي الله عنه)، أمه أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ، فرجع  
المسلمون لما سمعوا نداء العباس، فاجتمع عليه من أوائلهم مئة  
رجل، فأمرهم النبي ﷺ أن يصدقوا الحملة على القوم، فاجتلد  
الناس اجتلاداً شديداً، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فإذا هم يجتلدون  
ويتقاتلون قتالاً شديداً، فقال (صلوات الله وسلامه عليه): «الآن حمي  
الوطيس»<sup>(١)</sup>. وكانت من الكلمات التي لم يُسبق قبلها، قال بعض من  
روى قصة حنين هذه: فوالله ما تراجع المسلمون إلا والأسرى بجانب  
رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>. وكان ممن ثبت ذلك اليوم ثباتاً عظيماً أم سليم  
امرأة أبي طلحة، وهي حامل في ذلك الوقت بعبد الله بن  
أبي طلحة، كانت تشدّ وسطها ببرد وفي يدها خنجر، وهي ممسكة  
بغير أبي طلحة، ولما سألوها عن الخنجر قالت: إذا قرب مني بعض  
المشركين بعجت به بطنه<sup>(٣)</sup>. فهي عظيمة في الشجاعة والثبات،  
فرجع أصحاب رسول الله ﷺ وركبوا أكتاف العدو يقتلونهم

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، حديث رقم: (١٧٧٥)،

(١٣٩٨/٣ - ١٣٩٩) بلفظ: «هذا حين حمي الوطيس».

(٢) السيرة لابن هشام ص ١٢٩٢.

(٣) مسلم في الجهاد، باب غزوة النساء مع الرجال، حديث رقم: (١٨٠٩)،

(١٤٤٢/٣).

ويأسرونهم، ثم إنهم فروا وانهزموا، طائفة منهم فيها سيدهم مالك بن عوف انهزموا ورجعوا إلى حصن الطائف فتحصنوا به، وطائفة عسكروا في أوطاس. وأوطاس محل هو وحنين يجمعهم واد واحد، إلا أنهم عسكروا في محل بعيد منه، فأرسل النبي ﷺ في أثرهم سرية أمر عليها أبا عامر الأشعري (رضي الله عنه)، ومعه في تلك السرية ابن عمه أبو موسى الأشعري، فأدرك أبو عامر فلهم، وأخذ ما عندهم من السبايا أيضاً، واستشهد أبو عامر، أصابه سهم في ركبته فمات، واستحَرَ القتل ذلك اليوم في ثقيف خاصة، ثم في بني مالك فقتل منهم سبعون رجلاً، أو أكثر، وقتل قوم من أصحاب رسول الله ﷺ، وكثير من هوازن، فهزمهم الله تبارك وتعالى، وفي ذلك اليوم قال رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»<sup>(١)</sup>.

وكان أبو قتادة (رضي الله عنه) كما ثبت عنه رأى رجلاً عليه رجل من المشركين يريد أن يقتله، فجاء فضرب المشرك من ورائه على حبل عاتقه فقطع درعه وقطع حبل عاتقه، قال: فرجع إليّ فضمني ضمة شممت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني. ثم إنه بعد ذلك سأل عن درع ذلك الرجل ليأخذها؛ لأنه قاتله، والنبي ﷺ قال: «من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه» فنادى أبو قتادة: من يشهد لي؟ فلم يجد أحداً يشهد له، فأخبر رسول الله ﷺ، فقال رجل من القوم: هو عندي يا رسول الله، فأرضه منه. قال له أبو بكر: لاها الله لا يعمد إلى أسد من أسود الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه!! قال له ﷺ: «صدق أبو بكر»<sup>(٢)</sup>.

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٢) السابق.

فهذه القصة أولاً انهزم فيها المسلمون، وقد ثبت في الصحيح<sup>(١)</sup> عن البراء بن عازب (رضي الله عنه) أنه سأله رجل: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر (صلوات الله وسلامه عليه)، وكان يقول: «أقبلوا إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله».

### أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم إن النبي ﷺ جمع جميع سبي هوازن، وكان فيه آلاف عديدة من السبايا من النساء والذراري، ومن الأموال ما لا يحصيه إلا الله، من الإبل والشاء وجميع الأموال، وكان قد نَقَلَ بعض أصحابه، فأعطى علي بن أبي طالب جارية تسمى ربيعة بنت هلال، وأعطى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) جارية تسمى زينب بنت حيان، في أشياء كثيرة<sup>(٢)</sup>. ثم إن النبي ﷺ رجع بنفسه يتبع فلهم إلى الطائف، فحاصر أهل الطائف؛ لأن أهل الطائف - ثقيفاً - لما مات منهم ما مات في غزوة حنين ورجعوا تحصنوا بحصن الطائف، وصاروا يُخرجون السهام من كوى الحائط يُرامون بها أصحاب رسول الله ﷺ، فمكث رسول الله ﷺ زمناً يحاصره، ومات في حصارهم جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم متحصنون لم يؤذن له في فتحهم، فسأل عنهم معاوية بن نوفل الديلي: ماذا ترى؟ قال: أرى أن هؤلاء القوم كالثعلب في جحره، إن أطلت المقام على جحره أخذته، وإن

(١) البخاري في المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾، حديث رقم:

(٤٣١٧ - ٤٣١٨)، (٢٧/٨ - ٢٨).

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة ص ١٣٤٢.

ذهبت عنه لا يضررك بشيء<sup>(١)</sup>، فسألوا رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم فأبى أن يدعو عليهم، وقال: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم»<sup>(٢)</sup> ثم بعد ذلك أسلموا، وجاؤوا وافدين إلى رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ أمر بالسبايا والمغانم فذهب بها رجل أمره عليها إلى الجعرانة وكانت هناك حتى رجع رسول الله ﷺ من حصاره إلى الطائف، فلما رجع جاءه وفد هوازن مسلمين، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صرد أمام النبي ﷺ وقال له: يا نبي الله إنا أصل وعشيرة، وإنه قد وقع بنا ما ترى، وإنا تبنا إلى الله ورجعنا مسلمين. ولو وقع ما وقع بنا وجئنا الحارث بن أبي شمر الغساني أو النعمان بن المنذر لرجونا عائدته بالخير وعطفه علينا، وأنت خير مكفول، وكذا وكذا، فرُد علينا أموالنا ونساءنا. قال لهم ﷺ: «اختاروا أيهما أحب إليكم: أسبيكم أم أموالكم؟» فقالوا: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا فنختار نساءنا وأولادنا. فقال لهم النبي ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فقال المهاجرون: ما كان لنا منها فهو لرسول الله. وقال الأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله. وقال الأقرع بن حابس التميمي: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن الفزاري: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس السلمى: أما أنا وبنو سليم

(١) ذكره ابن كثير في تاريخه (٤/٣٥٠) وعزاه للواقدي.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٤٣)، والترمذي في المناقب، باب مناقب ثقيف وبنى حنيفة، حديث رقم: (٣٩٤٢)، (٤/٧٢٩)، والواقدي في المغازي (٣/٩٣٦ - ٩٣٧)، وابن سعد في الطبقات (٢/١١٤)، والطبري في التاريخ (٣/١٣٣)، وذكره ابن القيم في الهدي (٣/٤٩٧)، وابن كثير في التاريخ (٤/٣٥٠)، والحافظ في الفتح (٨/٤٥).

وانظر: ضعيف الترمذي ص ٥٢٧، مرويات غزوة حنين (١/٣٣٦ - ٣٣٧).

فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال لهم العباس: وهنتموني حيث لم تجيزوا ما قلت عليكم. ثم إن النبي ﷺ ردّ لوفد هوازن جميع سباياهم، جميع نساءهم وأولادهم<sup>(١)</sup>.

واختلفت عبارات المؤرخين وأصحاب المغازي هل كان ردهم لهم قبل أن تقسم الغنائم، أو بعد قسمها<sup>(٢)</sup>؟ وظاهر كلام ابن إسحاق ومن وافقه أنه كان قبل قسم الغنائم، وموسى بن عقبة وغيره من أئمة المغازي يقولون: إنه كان بعد أن قسمت غنائمهم. قال ابن عمر (رضي الله عنه): كانت الجارية التي أعطاني عمر بن الخطاب أرسلتها إلى أخوالي من بني جُمح يصلحونها ويزينونها لي حتى أطوف بالبيت وأرجع فأدخل بها، فلما رجعت أنوي الدخول بها إذا أصلحها لي أخوالي فإذا الناس يشتدون، قلت: ما بالكم؟ قالوا: رد إلينا رسول الله ﷺ نساءنا وأولادنا، فقال: اذهبوا إلى صاحبكم في بني جُمح فخذوها<sup>(٣)</sup>. ثم إن زهير بن صُرد خطيب هوازن الذي خطب لهم رسول الله ﷺ استعطفه بخطبة نثرية، وبشعر أيضاً، فمن شعره الذي يستعطفه به<sup>(٤)</sup>:

- (١) أخرجه الطبري في تاريخه (١٣٥/٣) من طريق ابن إسحاق، وذكره ابن هشام في السيرة ص ١٣٤٠، وابن كثير في تاريخه (٣٥٢/٤)، وأصل قدمهم على النبي ﷺ وتخيره لهم بين الأموال والذراري في البخاري، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾، حديث رقم: (٤٣١٨)، (٣٢/٨).
- (٢) انظر: البداية والنهاية (٣٥٤/٤).
- (٣) أخرجه أحمد (٦٩/٢)، وابن جرير في تاريخه (١٣٥/٣)، وذكره ابن هشام في السيرة (١٣٤٢)، وابن كثير في تاريخه (٣٥٤/٤).
- (٤) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٩٤/٥)، والطبراني في الكبير (٢٧٠/٥، ٢٧١)، والأوسط (٤٥/٥)، والصغير (٢٣٦/١)، والخطيب في تاريخه (١٠٦/٧)، =

امُنَّ علينا رسول الله في كَرَمِ  
 امُنَّ على بيضةٍ قد عاقها قَدْرٌ  
 امُنَّ على نسوةٍ قد كنتَ تَرَضَعُها  
 امُنَّ على نسوةٍ قد كنتَ تَرَضَعُها  
 فإنك المرءُ نرجوهُ ومنتظرُ  
 ممزقٌ شملها في دهرها غيرُ  
 إذ فوكَ تملؤه من محضها الدررُ  
 وإذ يزيناك ما تأتي وما تذرُ

وقد كان قال له في خطبته: إنما وراء هذه الحضرة من نساء هوازن خالاتك وحواضنك<sup>(١)</sup>. ثم إن النبي ﷺ ردّ عليهم جميع نسائهم وأولادهم، وكان عيينة بن حصن قد أخذ عجوزاً وقال: هذه العجوز لها حسب ونسب في قومها، فيكون فداؤها شيئاً كثيراً غالياً. فالنبي ﷺ خير: من أراد أن يعطي شيئاً من سبايا هوازن ليُرد إلى أهله مجاناً فعل، ومن أراد العوض عنه قال له رسول الله ﷺ: «سنعوضك عنه من أول ما فتح الله علينا، ومن أول ما أفاء الله علينا ست فرائض».

والظاهر أن مراده بالفرائض رؤوس من الإبل؛ لأن حِقَّةَ الزكاة تسمى (فريضة) ثم إن عيينة بن حصن قيل له: خذ عن هذه ستاً. فقال: لا. فامتنع وقال: لا آخذ عنها شيئاً. يطمع في فداء كثير!!

= والطبري في تاريخه (١٣٤/٣)، وابن عبد البر في الاستيعاب (٥٧٦/١)، وذكرها الذهبي في الميزان، وابن كثير في تاريخه (٣٥٣/٤)، وقد سقط هنا بعد البيت الثاني بيتان، وفي بعض الروايات ثلاثة أبيات، وأما البيت الثالث والرابع هنا فهما بيت واحد ورد في بعض الروايات باللفظ الأول وفي بعضها باللفظ الثاني، وانظر: مرويّات غزوة حنين (٤٥٦/٢ - ٤٦٠)، وقد حسنه الحافظ في اللسان (٩٩/٤ - ١٠٤)، والفتح (٣٤/٨)، وانظر: الإصابة (٥٥٣/١).

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١٣٤/٣)، وذكره ابن هشام ص ١٣٤٠، وابن كثير في تاريخه (٣٥٢/٤)، وانظر المصادر في الهامش السابق.

فقال له زهير بن سرد: والله ما فوها ببارد، ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا زوجها بواحد. فلما قال له هذا الكلام قَبِلَ معاوضتها بما عوض به بقايا السبي<sup>(١)</sup>، ثم إن أهل الغزاة الذين حضروها من الأعراب وغيرهم خافوا أن يرد النبي ﷺ على هوازن الأموال أيضاً، فضيقوا عليه فقالوا: يا نبي الله اقسم علينا فيتنا، حتى ألجؤوه إلى سمرة فخطفت رداءه فقال: «ردوا عليّ ردائي، فوالله لو كان لكم من الفيء مثل شجر تهامة لقسمته كله عليكم، ولا تجدوني جباناً ولا كذاباً ولا بخيلاً»<sup>(٢)</sup>. (صلوات الله وسلامه عليه)، فأعطى ذلك اليوم المؤلفه قلوبهم، أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وعيينة بن حصن مائة من الإبل، وأعطى أبا سفيان مائة من الإبل، وابنه معاوية مائة من الإبل، وصفوان بن أمية مائة من الإبل؛ لأن النبي ﷺ لما عزم على غزاة حنين استعار من صفوان بن أمية الجمحي أدرعاً كانت له وسلاحاً، فقال له: أغصباً يا محمد؟ قال: «بل عارية مضمونة»<sup>(٣)</sup> وكانت تلك الأدرع قد فقد منها شيء في

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٣/١٣٥)، وذكره ابن هشام (١٣٤٢). وابن كثير في تاريخه (٤/٣٥٥).

(٢) البخاري في الجهاد، باب الشجاعة في الحرب والجبن، حديث رقم: (٢٨٢١)، (٣٥/٦)، وأخرجه في موضع آخر. انظر: حديث رقم: (٣١٤٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣/٤٠١)، (٦/٣٦٥)، وأبو داود في البيوع، باب في تضمين العارية، حديث رقم: (٣٥٤٥ - ٣٥٤٧)، (٩/٤٧٦ - ٤٧٨)، والحاكم (٢/٤٧)، والبيهقي (٦/٨٩) من حديث أمية بن صفوان عن أبيه، وبعضهم يرويه عن أناس من آل عبد الله بن صفوان، وبعضهم: عن ناس من آل صفوان، وللحديث شاهد من حديث جابر (رضي الله عنه) عند الحاكم (٣/٤٨ - ٤٩)، وانظر: الإرواء (٥/٣٤٤).

القتال، فلما أراد النبي ﷺ أن يعوضه قال له: إن في قلبي اليوم ما لم يك في قلبي بالأمس، إني صرت أرغب في الإيمان. ولم يأخذ عوض أدراعه، قال بعض العلماء: لما أراد الخروج استسلف من ربيعة المخزومي آفاً كثيرة يستعين بها، وأعطى المؤلف قلوبهم.

ولما وقع بالمسلمين ما وقع أولاً وولّوا مدبرين كان بعض قريش إيمانهم في ذلك الوقت لم يكن قوياً حتى ذكروا مثله عن أبي سفيان بن حرب (رضي الله عنه) قالوا: كان في ذلك الوقت إيمانه مدخولاً، فقال: هزيمتهم لا يردها البحر<sup>(١)</sup>. وكان مع صفوان بن أمية أخوه لأمه – وصفوان بن أمية في ذلك الوقت على شركه، ومعه أخوه لأمه – بعضهم يقول: اسمه كلدة بن الحنبل. فلما وقع بالمسلمين ما وقع أولاً وولّوا مدبرين قال: الآن بطل سحر محمد. فقال له صفوان بن أمية وهو مشرك: اسكت فضّ الله فاك، والله لأن يربني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن<sup>(٢)</sup>.

وكان شيبه بن عثمان بن أبي طلحة قُتل أبوه عثمان بن أبي طلحة يوم أحد في حَمَلَة اللواء من بني عبد الدار، وعمه طلحة بن أبي طلحة وغيره من أعمامه، وكان حنقاً على النبي ﷺ، فخرج في غزاة حنين وهو على كفره يريد أن يصادف غرة من رسول الله ﷺ ليقنته ويأخذ بثأره، فلما انكشف المسلمون ووقع ما

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٢٨/٥)، والطبري في تاريخه (١٢٨/٣)، وذكره ابن هشام ص ١٢٩٠، وابن كثير في تاريخه (٣٢٧/٤)، وانظر: مرويات غزوة حنين (١/١٦٣).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

وقع قال شيبة: جئت من طرف بغلته الأيمن فإذا عمه ممسك بركاب بغلته، قلت: هذا عمه ولن يخذله، فجئت من الطرف الثاني فإذا أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ممسك ركابه من الجنب الآخر، فقلت: وهذا ابن عمه لن يخذله، فجئت من ورائه فلما قربت منه وأردت أن أساوره بالسيف وقلت: الآن آخذ ثأري فأقتل محمداً ﷺ، في بعض الروايات أنه قال: جاءني عنق من نار كأنه برق خاطف فصرت أرجع القهقري خوفاً منه، فالتفت إليّ رسول الله ﷺ فقال: «ادن يا شيب!!» فمسح صدره ودعا له الله. قال: والله ما رفع يده عني حتى صار أحب إليّ من كل شيء. وفي بعض روايات هذه القصة عن شيبة بن عثمان بن أبي طلحة (رضي الله عنه)، قال: لما أردت أن أضربه وأقتله جعل في فؤادي شيء لا أدري ما هو منعني منه، فتيقنت أنه ممنوع مني، ثم دعا لي فصار أحب الناس إليّ<sup>(١)</sup>. فصار شيبة بعد أن كان يريد قتل النبي ﷺ يقاتل معه في إخلاص ونصح.

ثم إن النبي ﷺ لما قسم غنائم حنين أعطى المؤلف قلوبهم،

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١٢٨/٣)، والطبراني في الكبير (٢٩٩/٧)، والبيهقي في الدلائل (١٢٨/٥، ١٤٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (مختصر ابن منظور ٩/١١ - ١٠)، وساق ابن هشام بعضه ص ١٢٩٠، كما ساق ابن كثير في تاريخه (٣٣٣/٤)، رواية البيهقي وابن إسحاق، وكذا في التفسير (٣٤٥/٢)، وابن القيم في زاد المعاد (٤٧٠/٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٨٤/٦)، والحافظ في الإصابة (١٦١/٢)، والسيوطي في الخصائص (٩٤/٢ - ٩٥)، وعزاه لأبي القاسم البغوي وأبي نعيم وابن عساكر، وانظر: مرويات غزوة حنين (١٦٧/١ - ١٦٩)، ولا يصح في سبب إسلامه شيء من الروايات.

فأعطى مائة من الإبل، مائة من الإبل، وأعطى ما ملأ بين جبلين غنماً لرجل، وكان أعطى عيينة بن حصن مائة من الإبل، والأقرع بن حابس مائة من الإبل، ولم يعطِ العباس بن مرداس السلمي. فغار العباس بن مرداس السلمي وعاتب رسول الله ﷺ في شعره المشهور وقال له<sup>(١)</sup>:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ  
بَيْنَ عَيْنَانِي وَالْأَقْرَعِ  
وَالْعُبَيْدِ: فرسه. قال:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ  
فَمَا كَانَ حَصْنٌ وَلَا حَابِسٌ  
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرٍ مِنْهُمَا  
وَكَانَتْ نَهَابَاتِ تَلَفِئَتِهَا  
وَإِقَاطِي الْحَيِّ أَنْ يَرْقُدُوا  
وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَاتُ دَرٍ  
إِلَّا أَفَائِلَ أُعْطِيَتْهَا  
بَيْنَ عَيْنَانِي وَالْأَقْرَعِ  
يَفُوقَانِ مَرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ  
وَمَنْ تَضَعُ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ  
بِكِرِّي عَلَى الْمُهْرِ فِي الْأَجْرِعِ  
إِذَا هَجَعَ النَّاسُ لَمْ أَهْجِعِ  
فَلَمْ أُعْطَ شَيْئاً وَلَمْ أُمْنَعِ  
عَدِيدَ قَوَائِمِهَا الْأَرْبَعِ

فقال ﷺ: «اقطعوا عني لسانه فكملاوا له مائة من الإبل»<sup>(٢)</sup>.

ولما أعطى قريشاً ورؤساء قبائل العرب ولم يعطِ الأنصار شيئاً

(١) تقدمت هذه الآيات عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال، وقد وقع فيها شيء من التقديم والتأخير.

(٢) هذا الحديث أصله في صحيح مسلم من غير قوله: (اقطعوا عني لسانه)، مسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفلة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، حديث رقم: (١٠٦٠)، (٧٣٧/٢)، وهو بالسياق الذي ذكره الشيخ (رحمه الله) في سيرة ابن هشام ص ١٣٤٦، وقد ذكره ابن كثير في تاريخه (٣٥٩/٤)، من طريق موسى بن عقبة وعروة بن الزبير وابن إسحاق.

وجد الأنصار في أنفسهم موجدة، وقالوا: يعطي قريشاً الغنائم وسيوفنا تقطر من دمائهم!! فسمع رسول الله ﷺ بمقاتلتهم، فأرسل سعد بن عبادَةَ (رضي الله عنه) يجمع له الأنصار، فجمع له جميع الأنصار، فأخبره أن القوم اجتمعوا، فجاءهم، قال: «ما شيء سمعته عنكم يا معشر الأنصار؟» قالوا: وما هو؟ قال: «سمعت أنكم تقولون: يعطي قريشاً ولا يعطينا وسيوفنا تقطر من دمائهم، أو كلام نحو هذا» فقالوا: قد قال هذا بعض سفهائنا، وأما أهل الحلم منا فلم يقولوه. فقال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم بي؟» قالوا له: لله المنة ولرسوله ﷺ. قال: «أو لا تجيبونني يا معشر الأنصار؟» قالوا: ماذا نقول؟ قال: «لو شئتم لقلتم: ألم تأتينا مُكذِّباً فصدقناك؟ وطريداً فأويناك؟ ومخذولاً فنصرناك؟» ثم قال: «يا معشر الأنصار ألا يرضيكم أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟ لو سلكت الناس وادياً والأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعب الأنصار» فبكى القوم حتى أخضل الدمع لحاهم، وقالوا: رضينا يا رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

وكانت قيلت في حنين أشعار، ونحن لا نريد الإكثار من إيراد الأشعار فيها، ولكن نذكر طرفاً منها، ومن أشهر ما قيل في غزوة حنين: شعر العباس بن مرداس السلمي (رضي الله عنه)، يفخر بقومه

(١) البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف، حديث رقم: (٤٣٣٠)، (٤٧/٨)، وأخرجه في موضع آخر. انظر: حديث رقم: (٧٢٤٥)، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفلة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، حديث رقم: (١٠٦١)، (٧٣٨/٢).

بني سليم، ويذكر الفتح وحنين في قصائده، ومن ذلك قوله في رائيته المشهورة<sup>(١)</sup>:

ما بَالُ عَيْنِكَ فِيهَا عَائِرٌ سَهْرٌ  
 عَيْن تَأْوِيهَا مِنْ شَجْوِهَا أَرْقٌ  
 كَأَنَّهُ نَظْمٌ دُرٌّ عِنْدَ نَاطِمَةٍ  
 يَا بُعْدَ مَنْزِلِ مَنْ تَرَجُّو مَوَدَّتَهُ  
 دَعُ مَا تَقْدَمُ مِنْ عَهْدِ الشَّبَابِ فَقَدْ  
 وَادَّكَرَ بِلَاءِ سُلَيْمٍ فِي مَوَاطِنِهَا  
 قَوْمٌ هُمْ نَصَرُوا الرَّحْمَنَ وَاتَّبَعُوا  
 لَا يَغْرَسُونَ فَسِيلَ النَّخْلِ وَسَطَهُمْ  
 إِلَّا سَوَابِحَ كَالْعِقْبَانِ مُقْرَبَةً  
 تُدْعَى خُفَافٌ وَعَوْفٌ فِي جَوَانِبِهَا  
 الضَّارِبُونَ جُنُودَ الْكُفْرِ ضَاحِيَةً  
 حَتَّى رَفَعْنَا وَقَتْلَاهُمْ كَأَنَّهُمْ  
 وَنَحْنُ يَوْمَ حَنِينٍ كَانَ مَشْهُدَنَا  
 إِذْ نَرَكِبُ الْمَوْتَ مُخْضَرًا بَطَائِنُهُ  
 تَحْتَ اللَّوَامِعِ وَالضُّحَاكِ يَقْدُمْنَا  
 فِي مَازِقٍ مِنْ مَجَرِّ الْحَرْبِ كُلِّكُلْهَا  
 وَقَدْ صَبَرْنَا بِأَوْطَاسِ اسْتِنْنَا  
 فَمَا تَرَى مَعْشَرًا قَلُّوا وَلَا كَثُرُوا

مِثْلُ الْحَمَاطَةِ أَغْضَى فَوْقَهَا الشُّفْرُ  
 فَالْمَاءُ يَغْمَرُهَا طَوْرًا وَيَنْحَدِرُ  
 تَقَطَّعَ السَّلْكَ مِنْهُ فَهُوَ مُنْتَشِرٌ  
 وَقَدْ أَتَى دُونَهُ الصَّمَّانُ فَالْحَفْرُ  
 وَلَى الشَّبَابِ وَزَارَ الشَّيْبُ وَالزَّرْعُ  
 وَفِي سُلَيْمٍ لِأَهْلِ الْفَخْرِ مُفْتَخِرُ  
 دِينَ الرَّسُولِ وَأَمْرُ النَّاسِ مُسْتَجِرُ  
 وَلَا تَخَاوِرُ فِي مَشْتَاهُمُ الْبَقْرُ  
 فِي دَارَةٍ حَوْلَهَا الْأَخْطَارُ وَالْعَكْرُ  
 وَحَيٌّ ذِكْوَانٌ لَا مِيلٌ وَلَا ضَجْرُ  
 بِيْطْنِ مَكَّةَ وَالْأَرْوَاحُ تُبْتَدِرُ  
 نَخْلٌ بِظَاهِرَةِ الْبَطْحَاءِ مُنْقَعِرُ  
 لِلدِّينِ عِزًّا وَعِنْدَ اللَّهِ مُدْخَرُ  
 وَالخَيْلُ يَنْجَابُ عَنْهَا سَاطِعٌ كَدِرُ  
 كَمَا مَشَى اللَّيْثُ فِي غَابَاتِهِ الْخَدِرُ  
 تَكَادُ تَأْفُلُ مِنْهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ  
 اللَّهُ نَنْصُرُ مِنْ شِئْنَا وَنَنْتَصِرُ  
 إِلَّا وَأَصْبَحَ مِنْافِيهِمْ أَثْرُ

(١) الأبيات في ابن هشام ص ١٣١٧ - ١٣١٨، والبداية والنهاية (٤/٣٤٢ -

وهو في شعره دائماً ينوّه بالضحاك بن سفيان (رضي الله عنه)، قالوا: لأن النبي ﷺ جعله بمائة رجل، وكان عليه لواء سليم، وكانت سليم ألف مقاتل، كما بيّنه العباس بن مرداس في شعره حيث يقول في عينيته المشهورة<sup>(١)</sup>:

عَفَا مِجْدَلٌ مِنْ أَهْلِهِ فَمَتَالِعُ	فَمَطَلَى أُرَيْكَ قَدْ خَلَا فَاَلْمَصَانِعُ
دِيَارُنَا يَا جُمْلُ إِذْ جُلَّ عَيْشُنَا	رَخِيٌّ وَصَرْفُ الدَّارِ لِلْحَيِّ جَامِعُ
حُبِيْبَةٌ أَلُوْتُ بِهَا غُرْبَةُ النَّوَى	لِيَبِيْنٍ فَهَلْ مَاضٍ مِنَ الْعَيْشِ رَاجِعُ
فَإِنْ تَبْتَغِي الْكُفَّارَ غَيْرَ مَلُومَةٍ	فَإِنِّي وَزِيرٌ لِلنَّبِيِّ وَتَابِعُ
دَعَانَا إِلَيْهِمْ خَيْرٌ وَفَدِ عِلْمَتُهُمْ	خَزِيمَةٌ وَالْمَرَارُ مِنْهُمْ وَوَاسِعُ
فَجِئْنَا بِالْفِ مِنْ سُلَيْمٍ عَلَيْهِمْ	لَبُوسٌ لَهُمْ مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ رَائِعُ
فَجُسْنَا مَعَ الْمَهْدِيِّ مَكَّةَ عَنُودَةٍ	بِأَسْيَافِنَا وَالنَّقْعِ كَابٍ وَسَاطِعُ
عَلَانِيَةٌ وَالْخَيْلُ يَغْشَى مُتُونَهَا	حَمِيمٌ وَأَنْ مِنْ دَمِ الْجَوْفِ نَاقِعُ
وَيَوْمَ حَنِينٍ حِينَ سَارَتْ هَوَازُنٌ	إِلَيْنَا وَضَاقَتْ بِالنَّفُوسِ الْأَضَالِعُ
صَبْرُنَا مَعَ الضَّحَاكِ لَا يَسْتَفْرِزُنَا	قِرَاعُ الْأَعَادِي مِنْهُمْ وَالْوَقَائِعُ
أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ يَخْفِقُ فَوْقَنَا	لِوَاءٌ كَخُذْرُوفِ السَّحَابَةِ لَامِعُ

ولم نرد الإكثار من إيراد من تكلم فيها والذين قالوا شعراً في حنين غير كثير.

ولما قسم ﷺ غنائم حنين، وأعطى هذا العطاء العظيم، وأرضى الأنصار بما أَرْضَاهُمْ بِهِ كَانَ (صلوات الله وسلامه عليه) خلف

(١) هذه القصيدة ذكرها ابن هشام ص ١٣١٣ - ١٣١٤، ابن كثير في تاريخه (٤/ ٣٤١)، وقد أسقط الشيخ منها هنا - بعد البيت السادس - بيتاً نظراً لما في معناه من الإيهام، والله أعلم.

على مكة عتَّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية (رضي الله عنه) (١)، وكان إذ ذاك ابن عشرين سنة.

هذا طرف أشرنا له من هذه الواقعة التي نوَّه الله (جلّ وعلا) بها في كتابه، ولم نرد الإطالة فيها كثيراً، وسنرجع — إن شاء الله — في اليوم الآتي إلى معنى الآية ونفسرها؛ لأننا الآن ما ذكرنا إلا بسط سبب نزولها الذي نزلت فيه. وكان بعض العلماء يقول: هذه أول آية نزلت من سورة براءة. فهذه الآية نزلت قبل أولها.

يقول الله جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

اللام توطئة قسم محذوف، أي: والله ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: أعانكم على أعدائكم ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ المواطن: جمع موطن، وموطن الحرب معناه مشهده وموقفه، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر (٢):

وكم موطن لولاي طحت كما أرى بأجرامه من قلة النّيقِ مُنْهوي

(١) أورده ابن هشام ص ١٢٨٦، وابن كثير في تاريخه (٤/٣٢٥).

(٢) البيت ليزيد بن أم الحكم، وهو في الكتاب (٢/٣٧٤)، البحر المحيط (٥/٢٣)، الدر المصون (٦/٣٧)، وقوله: «طحت» أي: هلكت، والأجرام: جمع جِرم وهو الجسد. والقلة: ما استدار من رأس الجبل. والنّيق: أعلى الجبل.

أي: كم مشهد حرب، لقد أعانكم الله على أعدائكم في مواقف ومشاهد عديدة، كما نصركم يوم بدر، ويوم الخندق، ويوم قريظة، ويوم النضير، ويوم الحديبية، ويوم فتح مكة، إلى غير ذلك من المواقف التي تخرجون منها وأنتم ظاهرون منصورون.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ قيل التقدير: في أيام مواطن، ويوم حنين أيضاً، أي: ولقد نصركم يوم حنين ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ يوم حنين حين التقوا بهوازن، وكانوا كمنوا لهم في مضايق وادي حنين ومخارمه وأحنائه، ثم شدوا عليهم شدة رجل واحد، وكانوا في هذه الواقعة قبل ملاقات العدو كأن الصحابة أعجبوا بكثرتهم لأنهم اجتمع منهم ذلك اليوم شيء لم يجتمع مثله قط فيما مضى، وقالوا: لن نُغلب اليوم من قلة. فبين لهم الله أن النصر من عنده وحده، لا بالعدد ولا بالعدد ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: آية ١٢٦] ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أعجبتكم بكثرة عددكم وقتلتم: لن نُغلب اليوم من قلة ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ هي، أي: الكثرة التي أعجبتكم لم تغن ﴿عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ لم تُفدكم ولم تُجدكم قبل أن يُنزل الله عليكم سكينته وينصركم. وهذا امتحان من الله وابتلاء وبيان لخلقه أن النصر بيده وحده لا بكثرة العدد ولا بكثرة العدد؛ ولذا لما أمدهم بالملائكة بين لهم مع ذلك أن النصر به وحده، قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: آية ١٢٦] ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: آية ٢٥] فلم تنفعكم ولم تُجدِ عنكم شيئاً. والعرب تقول: هذا لا يغني شيئاً، وما أغنى عني هذا شيئاً. يعنون: ما نفعتني وما أجداني.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> أن أصله من الغنَاء بالفتح والمد، فالغنَاء في لغة العرب: - كسحاب - معناه: النفع. ومعنى (لا يغني عنه) أي: لا يحصل له به غنَاء. أي: نفع. وقد قدمنا لغات هذه المادة مراراً في هذه الدروس، وبيّنا أن الغنَاء بالفتح والمد - غنَاءٌ كسحاب - أن معناه: النفع. ومنه قول بعض شعراء بني أسد بن خزيمة<sup>(٢)</sup>:

وقلّ غناء عنك مال جمعته إذا صار ميراثاً وواراك لاحد  
«قل غناء» أي: قلّ نفعاً لك. تمييزٌ مَحَوَّلٌ عن الفاعل.

وأن (الغنَى) بالمد والقصر أنه الإقامة في الموضع، فالعرب تقول: غَنِيََ بالمكان يغنيُ به غَنَى - على القياس - أي: أقام به. ومنه في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: آية ٢٤].

والغنَاء - بكسر الغين والمد إلى الهمزة، غِنَاءٌ ككتاب - معناه: الألحان المطربة - قَبَّحَهَا اللهُ - .

والغنَى بالكسر والقصر هو ضد الفقر، والغنى بالضم والقصر جمع غنية وهو المال الذي يقتنيه الإنسان فيغتنى به في حياته. والغنَاء بضم فمد لا أعرفه في لغة العرب. وهذا معنى قوله: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ﴾ الباء بمعنى (مع)، و(ما) مصدرية. والمعنى: ضاقت عليكم الأرض مع سعتها ورُحْبِها،

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨)، والآية (٩٢) من سورة الأعراف.

(٢) البيت في ديوان الحماسة (٥١/٢)، المزهري (٣٠٦/٢).

والرُّحْبُ بالضم: هو الاتساع، والرَّحْبُ: وصف، تقول: مكان رَحْب، يعني: وسيع، وصدر رَحْب أي: وسيع. والرُّحْبُ: معناه السعة، والرَّحْبُ بالفتح المصدر فـ (الباء) بمعنى (مع) و (ما) مصدرية. والمعنى: ضاقت عليكم الأرض في حال كون ذلك مع سعتها ورُحْبها متلبسة بسعتها ورُحْبها. والجار والمجرور في موضع الحال، كقولك: زرته بشيabi. أي مع ثيابي. أي: في حال كوني متلبساً بها. والخائف يضيق عليه فضاء الأرض الواسع؛ لأن من اشتد خوفه ضاقت الأرض في عينه وإن كانت طويلة عريضة واسعة، كما قال الشاعر<sup>(١)</sup>:

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةَ حَابِلٍ  
وهذا معنى ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ﴾.

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ مولين الأدبار منهزمين؛ لأنهم أول المرة في ذلك اليوم انهزموا. وعن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) أنه انهزم فيمن انهزم، وكان لابساً بردين متزراً بأحدهما متردياً بالآخر، فلما اشتد منهزماً هارباً انحل الإزار الذي يتزر به وعجل عن أن يشده فصار جامعاً له بيديه، ومرّ على النبي ﷺ في هذه الحالة والنبي (صلوات الله وسلامه عليه) في غاية الثبات والطمأنينة، فالتفت إليه وقال: «رأى ابن الأكوع فزعاً»<sup>(٢)</sup> وهو هارب، فرجعوا مدبرين. هذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٥] ﴿مُدْبِرِينَ﴾ معناه: مولين عدوكم بأدباركم، فارين منه.

(١) البيت في القرطبي (١٠٠/٨).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب في غزوة حنين، حديث رقم: (١٧٧٧)،

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ السكينة: فعيلةٌ من السكون، ومعناها: الطمأنينة والأمنة المستوجبان لأكمل الثبات ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ [التوبة: آية ٢٦] أي: أمنته من الخوف، وطمأنينته في القلوب المستوجبة لأكمل الثبات على رسوله محمد ﷺ حيث كان على بغلته الشهباء (دُذُلٌ) يركضها إلى نحور العدو ويقول: «أقبلوا إلي عباد الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب<sup>(١)</sup>

﴿ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: وأنزل سكينته أيضاً على المؤمنين. قال بعض العلماء: المراد بالمؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم: من ثبتوا معه ﷺ. وقال بعض العلماء: يدخل فيهم الذين رجعوا بعد الفرار والهزيمة وقاتلوا معه عدوه. والتحقيق: أن الله أنزل سكينته على الجميع، الذين بقوا معه ولم يفرّوا والذين رجعوا إليه.

واختلف العلماء فيمن بقي معه ولم ينهزم<sup>(٢)</sup>، وكان بعض العلماء يقول: عشرة رجال أو أحد عشر رجلاً، وقد ذكرناهم بالأمس، ومن جملتهم: شيبه بن عثمان بن أبي طلحة كان يريد الغدر بالنبي ﷺ فآمن في ذلك الوقت، وكان من الثابتين المقاتلين مع رسول الله ﷺ. وكثير من أصحاب المغازي يقولون: ثبت معه

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن هشام ص ١٢٨٩، البداية والنهاية (٤/٣٢٦، ٣٣٠)، فتح الباري

(٢٩/٨)، مرويات غزوة حنين (١/١٦٩ - ١٨٤).

نحو من مائة رجل أو ثمانين. وبعض العلماء يوفق بين القولين يقول: أما العشرة أو الأحد عشر فلم يتحركوا، وأما المائة أو الثمانون فهم الذين رجعوا بسرعة وحملوا على عدو النبي ﷺ، ذكروا أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قتل ذلك اليوم أربعين رجلاً بيده، وذكروا عن أبي طلحة أنه لما قال النبي ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً لَهُ عَلَيْهِ بَيْنَةٌ فَلَهُ سَلْبُهُ»<sup>(١)</sup> أنه قتل عشرين رجلاً فأخذ أسلابهم، وكان علي (رضي الله عنه) ذلك اليوم هو الذي أسقط الجمل الذي عليه راية هوازن؛ لأن رايتهم كانت عند رجل على رمح طويل راكب على جمل أحمر، يتقدم أمام الناس، فإذا أدرك الناس طعنهم بالرمح، وإذا فاتوه رفع لواءه على الرمح ليراه مَنْ بَعْدَهُ!! فابتدره علي (رضي الله عنه) ورجل من الأنصار فضرب عليّ الجمل على عرقوبه فسقط على عجزه، فابتدر الأنصاري الرجل فأطنّ رجله بنصف ساقه وانجفع عن رحله<sup>(٢)</sup>.

ثم إن الله قال: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ هذه الجنود هي الملائكة لم يرها المؤمنون ولكن الكفار رأوها، فذكر ابن عبد البر أنه روى من طرق كثيرة عن أولاد أولئك الذين كانوا من الكفار شهدوا حيناً عن آبائهم أنهم قالوا: لقينا أصحاب محمد ﷺ فما وقفوا لنا حلب شاة، فهزمناهم واتبعناهم، حتى إذا انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء أو البغلة

(١) مضى قريباً عند تفسير الآية (٢٥) من هذه السورة.

(٢) أخرجه الواقدي (٩٠٢/٣)، والبيهقي في الدلائل (١٢٧/٥)، والطبري في التاريخ (١٢٨/٣)، وذكره ابن هشام ص ١٢٨٩، وابن كثير في تاريخه (٣٢٦/٤)، وانظر: مرويات غزوة حنين (١٦٤/١).

الشهباء رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق وقالوا لنا: «ارجعوا، شامت الوجوه»<sup>(١)</sup>، وقد كان النبي قال أيضاً هذه الكلمة «شامت الوجوه انهزموا». وجاء من روايات أخر أن مالك بن عوف النصري سيد هوازن أرسل عيوناً يتجسسون له أخبار النبي ﷺ، فجاؤوه وقد انخلعت أوصالهم. أي: كأن ما بين عظامهم متفكك. فقالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق فما تمالكننا أن وقع بنا ما ترى<sup>(٢)</sup>.

والله (جلّ وعلا) في هذا القرآن العظيم ذكر التأييد بجنود الملائكة في أربع سور من كتابه، في ثلاثة منها يقول: ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ وفي الرابعة لم يقل: ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾.

[٤/ب] / أما الثلاث التي قال فيها: ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ فمنها: الملائكة الذين نزلوا في غزوة الخندق - غزوة الأحزاب - الآتي ذكرهم في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: آية ٩].

الثانية: الملائكة المنزلون في غزوة حنين هذه، المذكورون في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: آية ٢٦].

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٨٦/١٤، ١٨٨)، وذكره ابن عبد البر في الدرر في اختصار المغازي والسير ص ١٦٨، وانظر: مرويات غزوة حنين (١/٢٠٨ - ٢٠٩).

(٢) أخرجه الواقدي في المغازي (٨٩٢/٣)، وابن سعد في الطبقات (١٠٨/٢)، والطبري في التاريخ (١٢٧/٣)، وذكره ابن هشام في السيرة، وابن القيم في الهدي (٤٦٧/٣)، وابن كثير في تاريخه (٣٢٣/٤)، وابن الأثير في الكامل (١٧٨/٢).

الثالثة: الملائكة الذين نزلوا بنبينا ﷺ يوم دخل في الغار هو وصاحبه، وسيأتي بسط قصتهم - إن شاء الله - في هذه السورة الكريمة سورة براءة، وذلك في قوله: ﴿إِلَّا نُنصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: آية ٤٠] ففي هذه المواضع الثلاثة كلها يقيد بـ (لم تروها) (لم تروها) لأنه ينزل ملائكة لا يراهم بنو آدم؛ لأنهم ليسوا من شكلهم ولا من جنسهم حتى يروهم. وفي الموضع الرابع لم يقيد بقوله: (لم تروهم) وهو الملائكة النازلون يوم بدر، المذكورون في الأنفال وآل عمران، حيث قال الله في الأنفال: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ الآية [الأنفال: آية ١٢]. وذكرهم أيضاً في سورة آل عمران في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ...﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ﴾ [آل عمران: الآيتان ١٢٣، ١٢٤] وقد قدمنا في سورة الأنفال<sup>(١)</sup> أن أظهر الأقوال أن الملائكة قاتلت يوم بدر، وأنها لم تقاتل في غيرها بل تأتي لتجيب الكفار وتقوية قلوب المؤمنين ونصرتهم، هذا هو الظاهر، وقد ذكر (جلّ وعلا) فرقاً شاسعاً بين من يفر في غزوة بدر ومن فرّ في غيرها؛ لأنه شدّد غاية التشديد فيمن يفر في غزوة بدر كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مَتَحَرِّفًا إِلَيَّ فَفِتْنَةٌ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الأنفال: آية ١٦] بهذا التشديد العظيم، ولم يقل مثل هذا فيمن انهزم من الصحابة يوم

(١) مضى عند تفسير الآية (٩) من سورة الأنفال.

أحد، ولا فيمن انهزم منهم يوم حنين؛ لأن بعض الصحابة انهزموا يوم أحد، وبعضهم لم يرجعوا إلى النبي ﷺ، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آية ١٥٥].

ثم قال هنا: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: آية ٢٧] فأشار إلى أنه تاب عليهم من هزيمتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم هوازن، عذبهم بأيدي المؤمنين حيث قتلوهم قتلاً وجيعاً وأسروهم وأخذوا أولادهم ونساءهم وأموالهم مصداقاً لقوله: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٤] ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذين كانوا يقاتلون النبي وأصحابه كهوازن ﴿وَذَلِكَ﴾ العذاب ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٦] ثم إن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: آية ٢٧] قال بعض العلماء: ﴿يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ يدخل فيه المنهزمون الذين انهزموا عن رسول الله ﷺ، من رجع منهم وكرّ ومن لم يرجع. قالوا: ويدخل فيه الكافرون الذين قال الله: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: آية ٢٦] لأن كثيراً منهم تابوا فتاب الله عليهم. وقد كان رئيس هوازن مالك بن عوف (رضي الله عنه)، أسلم وكان من أصحاب رسول الله ﷺ؛ لأنه لما انهزمت هوازن راح مع فلّ الطائف – والفلّ هو بقية المنهزمين – وتحصّن بحصن الطائف، فأرسل إليه النبي ﷺ سراً: أنه إن قدم إليه رد إليه أهله وولده وأعطاه. فخاف إن أعلم ثقيفاً بذلك أن يمنعه، فأمر أن يُرحل جملة في محلّ عينه لهم،

ثم جاءه مختفياً، وسار إلى رسول الله ﷺ، وجاء إلى النبي ﷺ مسلماً فأكرمه رسول الله ﷺ، وردّ إليه أهله وولده، وأعطاه مائة من الإبل كما أعطى المؤلفين. وقد كان مالك بن عوف سيد هوازن مدح النبي ﷺ ببعض أشعاره، ومن ذلك قوله لما رد له رسول الله ﷺ ما رد له وأعطاه مائة من الإبل (١):

ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثله في الناسِ كلهم بمثلِ محمدٍ  
هذا يمدحه به رئيس الذين كانوا أعداءه بالأمس يقاتلونهُ، رجع في هذا الزمن القريب إلى مدحه والثناء عليه هذا الثناء الجميل:

مَا إِنْ رَأَيْتَ وَلَا سَمِعْتَ بِمِثْلِهِ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ  
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَدِي وَمَتَى تَشَأُ يُخْبِرُكَ عَمَّا فِي غَدٍ (٢)  
وَإِذَا الْكُتَيْبَةُ عَرَدَتْ أَنْيَابُهَا بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرَبَ كُلُّ مُهَنْدٍ  
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ وَسَطَ الْهَبَاءَةِ خَادِرٌ فِي مَرَصِدٍ

وهذا معنى قوله: ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: آية ٢٦] فقسم النبي ﷺ غنائم هوازن بعد أن رد إليهم أولادهم ونساءهم، قسم غنائمهم بالجعرانة في ذي القعدة عام ثمان - ثم إنه أحرم بعد أن قسمها بعمره (٣) - من الهجرة.

(١) هذا الخبر مع الأبيات أخرجه البيهقي في الدلائل (١٩٨/٥)، وأورده ابن هشام ص ١٣٤٣، وابن كثير في تاريخه (٣٦١/٤)، وانظر: مرويات غزوة حنين (٤٦٩/٢).

(٢) معلوم أنه لا يعلم ما في غد إلا الله تعالى.

(٣) عمرته ﷺ بعد قسم غنائم حنين خرّج حديثها البخاري في صحيحه، كتاب العمرة، باب كم اعتمر النبي ﷺ؟ حديث رقم: (١٧٧٨)، (٦٠٠/٣)، وأخرجه في مواضع أخرى. انظر: الأحاديث رقم: (١٧٧٩، ١٧٨٠، ٣٠٦٦) =

وكانت في السبايا التي جيء بها رسول الله ﷺ: الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، أمها حليلة السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، كانت تقول لهم: مهلاً عليّ لا تزعجوني فإنني أخت صاحبكم من الرضاعة، فلما جاءت أخبرت النبي ﷺ فسألها عن العلامة فقالت له: عضة عضضتنيها في كتفي وأنا متوركتك. فعرف ﷺ العلامة فبسط لها رداءه وأجلسها عليه وأكرمها غاية الإكرام، وخيرها أن تبقى معه محبة مكرمة أو أن يردها إلى أهلها ويمتعها. فاختارت الرد إلى أهلها فمتعها. كانوا يقولون: من جملة ما أعطها جارية وغلماً، زوّجت الغلام من الجارية، وقالوا: وكان عقبهما فيهم لا يكاد ينقطع<sup>(١)</sup>. وهذا من كرمه ووفائه (صلوات الله وسلامه عليه)، فإن الإنسان إذا استعرض شيئاً من سيرته (صلوات الله وسلامه عليه) رأى العظمة الهائلة من الشجاعة الكاملة، والحلم الكامل، والكرم الكامل، والوفاء الكامل (صلوات الله وسلامه عليه). وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: آية ٢٧] على من يشاء أن يتوب عليه، وهذه يفهم منها أنه تعالى تاب على الذين انهزموا وإن لم يصرح بها. أما الذين انهزموا

= (٤١٤٨)، ومسلم في الحج، باب بيان عدد عمر النبي ﷺ وزمانهن، حديث رقم: (١٢٥٣)، (٩١٦/٢)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) أخرجه الواقدي (٩١٣/٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٩٩/٥، ٢٠٠)، والطبري في تاريخه (١٣١/٣)، وابن عبد البر في الاستيعاب (٣٤٤/٤)، وأورده ابن حزم في جوامع السيرة ص ٢٤٥، وابن هشام ص ١٣٠٦، وابن كثير في تاريخه (٣٦٣/٤)، وابن الأثير في أسد الغابة (٢٥٧/٥)، (١٦٧/٧)، والكامل (١٨٠/٢)، والحافظ في الإصابة (٤٥٦/٣)، (٣٤٤/٤)، وانظر: مرويات غزوة حنين (٢٦٥/١).

يوم أحد فقد صرح بأنه تاب عليهم في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ  
الَّتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ [آل عمران:  
آية ١٥٥].

وقوله هنا: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ التوبة  
تطلق من الله على عبده، ومن العبد إلى ربه، فإذا أطلقت التوبة من  
العبد إلى ربه عُذِّيت بـ (إلى) ولم تُعَدَّ بـ (على) تقول: تبت إلى الله.  
ولا تقول: تبت على الله. وإذا توجهت من الرب إلى عبده عُذِّيت  
بـ (على) تقول: تاب الله عليه. ولم تقل: تاب إليه. أما التوبة الواقعة  
من المخلوقين فإن الوصف منها يطلق على (تائب) وعلى (تَوَّاب)  
بصيغة المبالغة. أما توبة الله على عبده فلم يأت الوصف منها إلا على  
(تَوَّاب).

وقد قدمنا مراراً<sup>(١)</sup> أن توبة العبد إلى ربه المستوجبة لتوبة الله  
على عبده أنها واجبة فوراً من كل ذنب، وأن من أخَّرَهَا كان ذلك ذنباً  
تجب منه التوبة.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(٢)</sup> أن في التوبة إلى الله (جلّ  
وعلا) إشكاليين معروفين عند العلماء:

أحدهما: إطباق العلماء على أن توبة العبد إلى ربه هي مركبة  
من ثلاثة أركان، وهي: إقلاعه عن الذنب إن كان متلبساً به، وندمه  
على ما صدر منه، ونيته أن لا يعود. فهذه هي الأركان التي تتألف  
منها توبة العبد النصوح إلى ربه، الذي إذا فعلها جاءت توبة الله؛ لأن

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

الله يتوب على من تاب عليه، كما قال (جلّ وعلا): ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [التحریم: آية ٨] وهم يقولون: «عسى من الله واجبة»<sup>(١)</sup>. هذا فيه إشكالان معروفان:

أحدهما: أن التوبة واجبة بإجماع العلماء فوراً من كل ذنب يُجترم. فعلينا جميعاً إذا صدر من الواحد منا ذنب أن يرجع إلى الله ويتوب إليه فوراً ولا يؤخر التوبة من ذلك، فإن أخرها كان تأخيرها ذنباً يحتاج إلى توبة أخرى. والندم من أركانها بالإجماع، وركن الواجب واجب إجماعاً، فالندم على الذنب واجب؛ لأنه من أركان التوبة، وركن الواجب واجب، والإشكال هنا في الندم؛ لأن المعروف أن الندم من الانفعالات النفسية والتأثرات، لا من الأفعال الاختيارية كما هو مشاهد، والعلماء مجمعون على أنه لا تكليف إلا بفعل اختياري، وأن الانفعالات والتأثرات النفسانية لا يملكها أحد، فكيف يكلف بالندم ويوجب عليه وهو انفعال وتأثر نفساني ليس تحت طاقته، وأنت تشاهد الإنسان يجاهد نفسه ليترد عنها الندم، كالبائع المغبون يتجلد ويتقوى ويريد أن لا يندم وهو يندم غضب أنفه؛ لأنه انفعال وتأثر، كما أن بعض الناس يريد أن يندم ولا يندم إذا كان الذنب الذي وقع فيه – والعياذ بالله – مما كان يشتهيه جداً، كالذي يظفر بقبلة من امرأة يعشقها، إذا أخطر ذلك على قلبه يصعب عليه أن يندم عليه؛ لأنها أمنيته التي كان يرجوها فإذا كان الندم قد يريده الإنسان ولا يجده، وقد يدفعه عنه ولا يندفع، وهو انفعال وتأثر نفساني فكيف يكون ركناً من أركان التوبة، ويكون واجباً، ومعلوم إجماع العلماء على أن الله لا يكلف إلا بفعل؟

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة الأنعام.

هذا الإشكال أجاب عنه العلماء بأن المراد بإيجاب الندم هو إيجاب الأخذ في أسبابه؛ وأن الإنسان إذا أخذ بأسباب الندم أخذاً صحيحاً ولم يحاب نفسه لا بد أن يندم، ومن كانت أسبابه الموصلة إليه متيسرة في طوع المكلف فكأنه متيسر في طاقة المكلف؛ لأن الإنسان إذا أخذ نفسه أخذاً حقيقياً وعرفها في داخل قرارة نفسه أنه لا يوجد في الدنيا إنسان يبلغ من البله والتغفيل ما يستلذ به طعاماً أو شراباً حلواً وفيه سم قاتل؛ لأن عامة العقلاء لا يحبون الطعام الحلو ولا الشراب الحلو ولو كان في غاية اللذابة والحلاوة إذا كان في داخله سم فتاك قاتل، هذا يعافه جميع الناس ويكرهونه، ولا شك أن حلاوات المعاصي ولذاداتها عند الجهلة، وإنما هي منطوية عليه من السم القاتل الفتاك، وهو سخط خالق السماوات والأرض وغضبه، أن العاقل إذا تأمل في هذا تأملاً حقيقياً ولم يحاب نفسه وأخذها بالتحقيق لا بد أن يندم؛ لأن الإنسان لو نال ما نال من حلاوة الذنب فهو يعلم أن تلك الحلاوة منطوية على أشد السموم وأفتكها وهو سخط خالق السماوات والأرض وغضبه؛ لأنه قد يستوجب هلاكه في الدنيا وعذابه السرمدي في الآخرة، وهذا معروف؛ لأنه لا يأخذ الإنسان في أسباب الندم أخذاً صحيحاً حقيقياً ويعرف عواقب الذنب وسرعة انقضاء حلاوته.

فلا تقرب الأمر الحرامَ فإنَّما حلاوته تفنى ويبقى مريرها<sup>(١)</sup>

\* \* \*

تفنى اللذابةُ ممن نال صفوتها من المعاصي ويبقى الإثمُ والعارُ  
تبقى عواقبُ سوءٍ في مغبتها لا خير في لذةٍ من بعدها النار<sup>(٢)</sup>

(١) البيت في تاريخ دمشق (١٤/٣٣٤)، ونسبه للحسين بن مطير.

(٢) البيتان في الآداب الشرعية (٢/٢٣٨)، شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة =

فمن عرف حقارة لذة المعصية وشدة السموم الفتاكة المنطوية عليها، وأعمل عقله تعميلاً صحيحاً لا بد أن يندم، فلما كانت الأسباب الموصلة إلى الندم متيسرة ولا يعجز عنها إلا من حابى نفسه ولم يستعمل أسباب الندم صار الندم كأنه في طوق الإنسان.

**الإشكال الثاني:** هو ما ذكره العلماء في الإقلاع؛ لأن الإقلاع عن الذنب والكف عن شر الذنب، وعدم التمادي فيه، هذا ركن من أركان التوبة، فلا توبة مع عدم الإقلاع؛ لأن المتلبس بالذنب الذي لم يقلع عنه لا توبة له بإجماع العلماء، والإشكال في هذا أن بعض الناس يتوب مع تعذر الإقلاع عليه، كالذي كان ينشر بدعة من البدع حتى طارت في أقطار الدنيا، وصار يُعمل بها في مشارق الأرض ومغاربها، ومعلوم أن من سنّ سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً. ثم إنه ندم على بدعته وأراد الإقلاع والرجوع عنها، لكن شره منتشر مستطير في أقطار الدنيا؛ لأن البدعة التي بثت وهي إلى الآن في أقطار الدنيا يتناقلها الناس بعضهم عن بعض، ويضلون بها بعضهم عن بعض، فهل نقول: هذا مقلع؛ لأنه فعل غاية ما يستطيع، أو نقول: ليس بمقلع؛ لأن فساده لم يزل فهو منتشر في أقطار الدنيا إلى الآن؟

ومن هذا القبيل: من غصب أرضاً، كأن غصب أرضاً مثلاً عشرين ميلاً في عشرين ميلاً وهو جالس في وسطها، ثم إنه ندم على

= والخلفاء الراشدين ص ٥١٦، وقد نسبها بعضهم لعثمان بن عفان (رضي الله عنه).

الغضب وأراد أن يخرج من الأرض المغصوبة نادماً، الزمن الذي يمكنه قبل أن يخرج منها لو أدركه الموت وهو فيها هل هذا تائب؛ لأنه فعل غاية ما يستطيع؟ أو نقول: لم يقلع؛ لأنه إلى الآن لم يتخل عن الشيء الذي غضبه، بل هو في حوزته إلى الآن، وهو يشغله بجسمه؟ ومن هذا المعنى: من رمى إنساناً من بعيد بسهم ثم لما فارق السهم ندم والسهم في الهواء فتاب إلى الله (جلّ وعلا) والسهم في الهواء، ثم بعد أن تاب أصاب السهم في الرمية فقتله، هل نقول: هو تائب؛ لأنه فعل في ذلك الوقت ما يستطيع، أو نقول: ليس بتائب؛ لأن فساده منتشر، وأثر جريمته باق لم ينقطع؟ هذه مسائل اختلف فيها علماء الأصول حول الإقلاع عن الذنب في التوبة<sup>(١)</sup>.

والمحققون من علماء الأصول أن الإنسان إذا فعل غاية ما في وسعه وندم على ما صدر منه أن الله يغفر له بذلك ويتوب عليه؛ لأن الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦] وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ مفعول المشيئة محذوف، أي: ويتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه ﴿وَاللَّهُ﴾ (جلّ وعلا) ﴿عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كثير المغفرة والرحمة لعباده؛ لأن الله غفور رحيم، فقد جاء في غزوة حنين هذه أن النبي ﷺ رأى امرأة من السبي تصيح تطلب ولدها وهي في غاية التشويش إليه حتى وجدته فجعلت تقبله وتضمه إليها من شدة شفقتها عليه، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أترون هذه طارحة ولدها هذا في النار؟» قالوا: لا. قال: «ولم؟» قالوا: لشفقتها عليه. قال: «الله أرحم بكم من هذه

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

بولدها<sup>(١)</sup>». فالله (جلّ وعلا) أرحم من كل شيء.

فلو أن فرعون لما طغى وقال على الله إفكاً وزوراً  
أَنَابَ إِلَى اللَّهِ مُسْتَغْفِرًا لِمَا وَجَدَ اللَّهُ إِلَّا غُفُورًا<sup>(٢)</sup>

الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة فجاؤوا بأشنع كفر كيف  
يستعطفهم الله ويقول لهم: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ  
عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: آية ٧٤] هذا الاستعطاف والكلام  
اللين العظيم في الاستعطاف والوعد بالمغفرة للذين قالوا: إن الله  
ثالث ثلاثة يدل على عظمة رحمة الله وسعة مغفرته (جلّ وعلا) ﴿ قُلْ  
لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: آية ٣٨]  
كائناً ما كان من شدة رحمة الله ومغفرته.

قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا  
يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ  
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [٢٨] قَنِلُوا الَّذِينَ لَا  
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ  
دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ  
صَبْرُونَ ﴾ [التوبة: الآيتان ٢٨، ٢٩].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ  
فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ  
يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:

(١) البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانفته، حديث رقم: (٥٩٩٩)،

(١٠/٤٢٦)، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت

غضبه، حديث رقم: (٢٧٥٤)، (٤/٢١٠٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة الأنفال.

آية [٢٨] هذه مما كان ينادي به علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في مواسم عام تسع، ولم يحج بعدها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، خاطب الله عباده في هذه الآية الكريمة باسم الإيمان ليكون ذلك أدعى وأبعث على الامتثال، أمراً لهم أن يبعدوا الكفار عن مسجده ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ صرح في هذه الآية الكريمة بأن المشركين نجس، والنجس أصله مصدر نجس الشيء ينجس نجساً فهو نجس بفتح فكسر، أصله مصدر. وهذا من النعت بالمصدر، والمصدر إذا نُعت به أفرد وذكّر، تقول: مشرك نجس، ومشركة نجس، ومشركان نجس، ومشركات نجس، ومشركون نجس. تطلقه بالإفراد على الواحد والاثنين والجمع من الذكور والإناث.

قال بعض العلماء: هي نجاسة كالنجاسة الحسية؛ ولذا قال بعض العلماء: ذات المشرك نجس كالكلب والخنزير. وعن الحسن البصري رحمه الله: مَنْ صافح مشركاً فليتوضأ<sup>(١)</sup>.

وجماهير العلماء - وهو الصواب إن شاء الله - على أن النجاسة في هذه الآية الكريمة معنوية، فهو نجس معنى، والمعنى أعظم من الحس؛ لأن شركه بالله أنتن شيء وأقذره وأنجسه، وكان بعض العلماء يقول: نجاسته أيضاً لأنه لم يتطهر من جنابة، ولم يتوضأ ولم يجتنب شيئاً من القاذورات والأنجاس، فهو ملازم للنجاسة. وأكثر العلماء على أن الكافر الذي لم يتلبس بدنه بنجاسة أن نجاسته معنوية لا حسية، وأنه لأجل هذه النجاسة المعنوية أمر الله أن يُبعد عن المسجد الحرام ولا يقرب منه.

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/١٩٢).

قال عطاء (رحمه الله) وغير واحد من العلماء: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾  
 الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴿ [التوبة: آية ٢٨] المراد بالمسجد الحرام: الحرم  
 كله<sup>(١)</sup>، أي: لا يقرب المشركون حرم الله كله، بل يجب إبعادهم عن  
 الحرم وعدم قربانهم إياه. وهذا القول هو الحق والصواب  
 — إن شاء الله — لأنه دلّ استقراء القرآن العظيم على أن الله يطلق  
 المسجد الحرام على جميع الحرم، وهذه الآية من جملة الآيات التي  
 أُطلق فيها المسجد الحرام وأراد الحرم كله، كقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي  
 أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: آية ١] والصحيح أن  
 الإسراء وقع به من بيت أم هانئ بنت أبي طالب في مكة في الحرم  
 لا في نفس المسجد، وقد قدمنا في الآيات الماضية قوله: ﴿إِلَّا  
 الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [التوبة: آية ٧] والمعاهدة في  
 طرف الحرم من الحديدية، فهذه الآيات دلت على أن منع الكفار  
 المشركين من القربان عام لجميع الحرم لا لخصوص المسجد وحده،  
 خلافاً لمن قام مع اللفظ.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ دل مسلك  
 الإيماء والتنبيه من مسالك العلة في الأصول على أنها أداة تعليل،  
 وكذلك قُرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل<sup>(٢)</sup>، كقولهم:  
 سهى فسجد. أي: لعله سهوه. وسرق فقطع يده. أي: لعله  
 سرقته. وأساء فأذّب. أي: لعله إساءته. ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا  
 يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: آية ٢٨] لعله نجاستهم التي يجب أن  
 تبعد من المسجد وَيُتَوَقَّى إياها. والحاصل أن الصحيح — إن شاء

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

الله - أنه لا يجوز أن يدخل جميع حرم مكة مشرك<sup>(١)</sup>. والصواب - إن شاء الله - أنها لا يدخلها الكتابيون من يهود ولا نصارى<sup>(٢)</sup>، خلافاً لما ذهب إليه جماعة من العلماء، وهو مروى عن أبي حنيفة (رحمه الله) أنه لا مانع من دخول اليهودي والنصراني الذمي - مثلاً - الحرم، بل المسجد. قالوا: لأن الله إنما منع منه خصوص المشركين. قالوا: وأهل الكتاب ليسوا من المشركين<sup>(٣)</sup>. واستدلوا بآيات من كتاب الله ظاهرها المغايرة بين أهل الكتاب والمشركين، كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ١] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ٦] وقوله: ﴿وَلَسْتُمْ عَنْ مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [آل عمران: آية ١٨٦] وقوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: آية ١٠٥] وقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: آية ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات التي عطف الله فيها أهل الكتاب على المشركين، قالوا: والعطف يقتضي المغايرة، فدل أنهم ليسوا من المشركين، والتحقيق الذي لا شك فيه - إن شاء الله - أن أهل الكتاب من المشركين، وقد نصّ الله على أنهم من المشركين في هذه الآية الكريمة من سورة براءة؛ لأنه لما ذكر أهل الكتاب وقال: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

(١) في هذه المسألة انظر: ابن جرير (١٤/١٩١)، القرطبي (٨/١٠٤)، إعلام

الساجد للزرکشي ص ١٧٣.

(٢) انظر: المغني (١٣/٢٤٥).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥) من هذه السورة.

وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴿ [التوبة: آية ٢٩] ثم صرح بأن أهل الكتابين من المشركين في قوله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَهُمْ اللَّهُ أَفَّ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ [التوبة: الآيتان ٣٠، ٣١] فصرح بأنهم مشركون بعد أن صرح بمنع المشركين من المسجد الحرام أتبعه بأن الكتابيين من نفس المشركين، وهذا برهان واضح.

وقال: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا... ﴾ [التوبة: آية ٣١] ومعلوم أن الذي اتخذ الأحرار والرهبان أرباباً من المشركين شرك ربوبية كما لا يخفى. وسيأتي في هذه الآيات الكريمة من سورة براءة بيان أن كل من اتبع تشريع أحد ونظامه واتبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الله كل متبع لتشريع الشيطان الذي يشرعه على ألسنة أوليائه تاركاً تشريع الله الذي شرعه على ألسنة رسله كافرٌ مشرك بالله<sup>(١)</sup>، كما سنوضحه في هذه الآيات الآتية. ومن أصرح الأدلة عليه أنه لما وقعت تلك المناظرة المشهورة بين حزب الرحمن وحزب الشيطان في حكم من أحكام الحلال والحرام، وحزب الشيطان يقولون: إن ذلك الحكم حلال، ويستدلون بوحى شيطاني، وحزب الرحمن يقولون: إن ذلك الحكم حرام. ويستدلون بوحى قرآني، لما اختصموا وأدلى كل بحجته تولى الله الفصل بينهم فأفتى بينهم فتوى سماوية تتلى قرآناً في سورة الأنعام في قوله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ يعني الميتة؛ لأن الكفار أوحى إليهم الشيطان: أن سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فقال لهم:

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

الله قتلها. فقالوا: إذن ما ذكيتموه وذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة حرام، فأنتم أحسن من الله. فهؤلاء استدلوا بوحى إبليس!! ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!! والمسلمون استدلوا بوحى قرآني، وهو ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾. فلما أدلى كل بحجته فصل الله بينهم فأفتى في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ منه الميتة، أي: وإن زعموا أنها ذبيحة الله. ثم قال: ﴿وَأِنَّهُمْ لَفِسَّاقٌ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] أي: الأكل منها فسق. ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلِيَ آيَاتٍ لَهُمْ لِيُجْدِلُوهُمْ﴾ يعني قولهم: ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذن أحسن من الله. ثم قال، وهو محل الفتيا السماوية من رب العالمين: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فصرح بأن من أطاع تشريع الشيطان في حل الميتة أنه مشرك برب العالمين، ولا شك أن اليهود والنصارى أطاعوا الشيطان فيما هو أعظم من إباحة الميتة كما لا يخفى، والشيطان عالم بأن الذين يتبعون نظامه وقانونه أنهم مشركون به، عالم هذا في قرارة نفسه، ولكنه في الدنيا يدلس لهم ويجحد، فإذا كان يوم القيامة الذي تظهر فيه الدفائن، وتبرز فيه الحقائق أوضح لهم تبرؤه من شركهم به كما سيأتي في سورة إبراهيم الخليل في الخطبة العظيمة التي ذكرها الله عن الشيطان، وهي قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: آية ٢٢] فصرح بأنهم كانوا مشركين به من قبل، ولا شك أن اليهود والنصارى داخلون في

هذا دخولاً أولياً، وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: آية ١٠٠] واليهود والنصارى داخلون فيهم بلا شك، وهذا الشرك الشيطاني في اتباع نظامه وشرعه هو الذي وَبَّخَ اللهُ مَرْتَكِبَهُ فِي سُورَةِ (يَس)، وَبَيَّنَّ مَصِيرَهُ النَّهَائِي فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكُمْ الَّذِي سَمِعْتُمْ مِنْ آبَائِكُمْ وَمِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ وَجَدُوا مُلْحِقِينَ بِالَّذِينَ آمَنُوا لَأُولَئِكَ جَزَاءُ اللَّهِ الَّذِي يَبْتَغِي الْعِزَّ وَالْجَلَالَ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ عَلَيْهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: آية ١٠٠] وَأَنَّ أَعْبُدُونِي﴾ [يس: الآيتان ٦٠، ٦١] إِلَى أَنْ قَالَ مُوْبِحاً لَهُمْ نَاعِيَاً عَقُولَهُمْ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: آية ٦٢] ثُمَّ بَيَّنَّ مَصِيرَهُمُ النَّهَائِي الْأَخِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [يس: الآيتان ٦٣، ٦٤] وَهَذَا الشَّرْكَ الشَّيْطَانِي بِالِاتِّبَاعِ هُوَ الَّذِي نَهَى إِبْرَاهِيمَ عَنْهُ أَبَاهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَّبِعْتَنِي أَتَعْبُدُ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: آية ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: الآية ٤١] وَسَيَأْتِي لِهَذَا الْمَبْحَثِ زِيَادَةٌ إِضْحَاحٌ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ قَرِيباً فِي الْآيَاتِ الْآتِيَّةِ - إِنْ شَاءَ اللهُ - . فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] فَهَذِهِ النُّصُوصُ وَلَا سِيَّمَا آيَةُ بَرَاءَةِ هَذِهِ الَّتِي صَرَّحَتْ أَنَّ خُصُوصَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تَدُلُّ عَلَى مَنْعِهِمْ مِنْ دُخُولِ الْحَرَمِ، وَمَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ وَرُويَ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ مِنْ أَنَّهُمْ لَا مَانِعَ مِنْ دُخُولِهِمُ الْحَرَمِ، فِيهِ نَظَرٌ، وَالْأَصُوبُ وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُمْ يَمْنَعُونَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهِمْ نَجَسٌ؛ وَلِأَنَّ اللَّهَ صَرَّحَ بِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ. وَالتَّحْقِيقُ - إِنْ شَاءَ اللهُ - أَنَّ الْمُرَادَ بِالمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِيهَا الْحَرَمُ كُلَّهُ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَ حَرَمُ مَكَّةَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ وَلَا كَافِرٌ، كِتَابِيًّا أَوْ غَيْرَهُ، وَمَا رُويَ عَنِ جَابِرِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) مِنْ أَنَّهُ خَصَّصَ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ وَقَالَ: لَا يَدْخُلُ فِيهَا الْعَبْدُ وَالْأَمَةُ، إِذَا كَانَ لِلْمُسْلِمِ عَبْدٌ ذَمِي أَوْ أُمَّةٌ ذَمِيَّةٌ

مملوكان فلا مانع من دخولهما المسجد<sup>(١)</sup>. وروى فيه حديث مرفوع، والتحقيق عند المحدثين أن الموقوف على جابر هو الأثبت الصحيح والمرفوع ليس بصحيح<sup>(٢)</sup>. وقولُ قاله جابر لا يمكن أن يُخصص به النص الصريح، ولا سيما النص المبني حكمه على العلة؛ لأنه صرح بأنهم نجس، وأشار بالفاء إلى أن تلك النجاسة هي سبب منعهم من قربان المسجد.

وعلى كل حال فالمشركون كعبدة الأوثان أجمع جميع العلماء على منعهم من دخول المسجد، واختلفوا في الكتابي وفي غير المسجد من سائر الحرم، وقد بينا أن الصواب — إن شاء الله — منعهم من ذلك كله.

ولو جاءت من المشركين رسالة إلى سلطان المسلمين — وهو بمكة — لا يُدخل الرسول، بل يخرج إليه خارج الحرم حتى يسمع منه ما يقول، ويعطيه الرد خارج الحرم، أو يرسل إليه من ينوب عنه في ذلك<sup>(٣)</sup>.

قال بعض العلماء<sup>(٤)</sup> — وبه قال جماعة من المالكية — إن الواحد منهم إن دخل مختفياً ومات ودفن في الحرم وأُطلع عليه أنه ينش قبره، وتخرج عظامه من الحرم، ولا يترك في حرم الله؛ لأنه نجس قدر — قبّحه الله — فالتحقيق أنه لا يجوز أن يدخل حرم الله

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/١٩٦) من طريق عبد الرزاق.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٣٩، ٣٩٢) وقال عنه ابن كثير: «تفرد به الإمام أحمد مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً». اهـ. تفسير ابن كثير (٢/٣٤٦).

(٣) انظر: القرطبي (٨/١٠٤).

(٤) السابق، وانظر: إعلام الساجد للزرکشي ص ١٧٥.

كافر، وأن الله نهى عن قربانهم إياها، لا يقربوه فضلاً عن أن يدخلوه.

واختلف العلماء في غير المسجد الحرام من المساجد هل يدخل الكفار المساجد غير المسجد الحرام<sup>(١)</sup>؟ اختلف العلماء في ذلك، فذهب مالك (رحمه الله) وأكثر أصحابه في طائفة من العلماء إلى أنه لا يجوز أن يدخل كافر مسجداً من مساجد الله كائناً من كان [١/٥] في أي قطر من أقطار الأرض في حرم أو حل. / واستدل مالك لهذا الحكم بأدلة، قالوا: من تلك الأدلة أن الله (جلّ وعلا) صرح بالعلة فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ وقد تقرر في علم الأصول أن العلة تارة تعمم معلولها وتارة تخصصه<sup>(٢)</sup>، وقد جاءت مواضع من كتاب الله وستة رسوله لا خلاف فيها بين العلماء أن العلة تعمم معلولها، قالوا: ومن أمثلة ما تعمم فيه العلة معلولها قوله (صلوات الله وسلامه عليه) في حديث أبي بكرة الثابت في الصحيح: «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان»<sup>(٣)</sup> نص<sup>(٤)</sup> النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح على علة منع الحاكم الغضبان من الحكم؛ لأن الغضب يشوش فكره، فيمنعه من تقصي فهم أقوال الخصوم، وفهم ما يحكم عليهم به. قالوا: إذا كان الحاكم في غاية الجوع والعطش المفرطين، أو في غاية الحزن والسرور المفرطين، أو في غاية الحزن والحقن المفرطين – والحقن: مدافعة البول. والحقن: مدافعة الغائط – إذا

(١) انظر: القرطبي (١٠٤/٨)، إعلام الساجد ص ٣١٨.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنفال.

(٣) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

(٤) في الأصل: «هذه الآية الكريمة نص فيها النبي...»، وهو سبق لسان.

كان في أمر من هذه الأمور يشوش الفكر تشويشاً عظيماً مثل تشويش [الغضب]<sup>(١)</sup> أو أشد لا يجوز له أن يحكم، فتعليقه بالغضب المستلزم لتشويش الفكر علة عممت هذا الحكم وعدته إلى كل شيء يشوش فكر الإنسان. قالوا: فكذلك قوله: ﴿بَجَسٌ﴾ قدر، ومعلوم أن المساجد بيوت الله، وأن الله قال: ﴿فِي بُيُوتِ الَّذِينَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [النور: آية ٣٦] وأن شيئاً صرح الله بأنه نجس، ومعلوم قذارة النجس، لا ينبغي أن يدخل في بيوت الله التي أسست لعبادة الله وعلى الطهارة وعلى تجنب الأقدار. هذا من أدلة مالك، واستدل الإمام مالك أيضاً بما قدمنا من آية سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِينَ﴾ [البقرة: آية ١١٤] قال: معناه لا يدخلونها أبداً إلا خائفين من المسلمين أن يطلعوا عليهم فينكلوا بهم. فسر الآية هذا التفسير، واستدل بعمومها.

وذهب آخرون من العلماء، منهم الأئمة الثلاثة، إلى أن دخول الكافر لمسجد غير المسجد الحرام قالوا: لا مانع منه ولا يُمنع، وبعضهم يقيد بقوله: إن دعت إلى ذلك حاجة، وبعضهم يُطلق. واستدلوا على ذلك بأدلة، منها: أن النبي ﷺ ربط ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة — لما أخذ أسيراً — ربطه وهو كافر في سارية من سواري مسجده هذا<sup>(٢)</sup>. قالوا: وأنزل وفد نجران في المسجد وهم

(١) في الأصل: «الفكر»، وهو سبق لسان.

(٢) البخاري في المساجد، باب الاغتسال إذا أسلم، وربط الأسير أيضاً في المسجد، حديث رقم: (٤٦٢)، (٥٥٥/١)، وأطرافه: (٤٦٩)، (٢٤٢٢)،

كفار<sup>(١)</sup>، ومعلوم أن في هذا البحث مناقشة، وأن من قال: يمنع دخول الكفار المساجد، أجابوا عن كل بجواب، فقالوا في حديث ثمامة: إنه وقع قبل تحريم دخول المساجد. وجاءوا بأدلة احتجوا بها، وحاصل ما للعلماء فيها هو ما ذكرنا.

وكان بعض العلماء يقول<sup>(٢)</sup>: إذا أسلم الكافر لزمه أن يتطهر؛ لأنه نَجَس، وقال بعضهم: يجب على الكافر الطهارة إذا أسلم، قالوا: لأنه لا بد أن تكون كانت عليه جنابة. وهذا قال به جماعة من العلماء، ويدل له: أمره ﷺ ثمامة بن أثال الحنفي لما أسلم أن يغتسل<sup>(٣)</sup>. قالوا: ذهب إلى حائط أبي طلحة واغتسل فيه. وقالوا أيضاً: أمر قيس بن عاصم لما أسلم أن يغتسل بماء وسدر<sup>(٤)</sup>. وكان

(١) خبر قدوم وفد نجران على النبي ﷺ، أورده ابن سعد في الطبقات (١/٢/٨٤)، وابن هشام في السيرة ص ٦١٠، وابن كثير في التفسير (١/٣٦٨)، وابن القيم في الزاد (٣/٦٢٩)، وليس في الخبر أنه أنزلهم المسجد، وإنما دخلوا عليه في المسجد، وأنهم صلوا فيه إلى المشرق.

(٢) انظر: المغني (١/٢٧٤ - ٢٧٦)، القرطبي (٨/١٠٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٣٠٤، ٤٨٣)، وعبد الرزاق (٦/٩)، وابن خزيمة (١/١٢٥)، وابن جبان (٢/٢٦٩)، والبيهقي (١/١٧١)، وابن الجارود (١/٢٤)، وأصله في الصحيحين كما في الحديث المتقدم قريباً وفيه: أنه ربطه بسارية من سواري المسجد، وليس فيه أنه أمره بالاعتسال، وانظر: الإرواء (١/١٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (٥/٦١)، وعبد الرزاق (٦/٩)، وأبو داود في الطهارة، باب الرجل يسلم فيؤمر بالغسل، حديث رقم: (٣٥١)، (٢/١٩)، والترمذي في الصلاة، باب ما ذكر في الاعتسال عندما يسلم الرجل، حديث رقم: (٦٠٥)، (٢/٥٠٢)، والنسائي في الطهارة، باب غُسل الكافر إذا أسلم، حديث رقم: =

ابن وهب من أصحاب مالك يقول: لا يجب عليه إذا أسلم غسل؛ لأن الإسلام يَجِبُ كل شيء قبله، وَيَجِبُ الجنابات، وَيَجِبُ كل شر وسوء كان قبله. هذا معنى قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾.

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَكَذَا﴾، وعامهم هذا هو عام تسع على التحقيق، وخالف قوم منهم قتادة<sup>(١)</sup> وأبو بكر بن العربي<sup>(٢)</sup>، قالوا: هو عام عشر. وقال أبو بكر بن العربي المالكي: عجباً لعائل يقول: إن هذا العام عام تسع!! ونحن نقول: العجب كل العجب من كلام ابن العربي هذا!! والعام بلا شك أنه عام تسع، والإشارة بقوله: ﴿هَذَا﴾ إلى العام الذي هم فيه في ذلك الوقت الراهن، وهو عام تسع بلا نزاع، والذي غلط في هذا من العلماء وقال: هو عام عشر. التبس عليه ما بين المضاف والمضاف إليه؛ لأن المضاف هو لفظة (بعد)، والباء والعين والذال ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَكَذَا﴾ البعدية المضافة إلى عامهم هذا، فعامهم هذا هو عام تسع يقيناً لا شك فيه، وما بعد عام تسع أوله عام عشر؛ لأن الشيء إذا انتهى عام تسع فالزمن الذي بعد انتهائه يسمى أنه بعده. فالبعدية واقعة بعام عشر، أما العام المذكور في قوله: ﴿عَامِهِمْ هَكَذَا﴾ المضاف إليه البعدية، فهو عام تسع بلا نزاع كما لا يخفى.

= (١٨٨)، (١٠٩/١)، وابن الجارود (٢٥/١)، وابن خزيمة (١٢٦/١)،

وابن حبان (٢٧٠/٢)، والبيهقي (١٧١/١)، وانظر: الإرواء (١٦٣/١).

(١) الرواية التي نقلها ابن جرير (١٩٢/١٤) عن قتادة (رحمه الله) مصرحة بأنه عام

تسع، ولعل الشيخ (رحمه الله) عزا ذلك لقتادة متابعة للقرطبي (١٠٦/٨)،

وابن العربي في أحكام القرآن (٩١٥/٢).

(٢) أحكام القرآن (٩١٥/٢).

ثم قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهذه الآية تدل على أن الكفار يُمنعون من الإتيان إلى الحرم لأن أهل مكة كانوا في الموسم تحج إليهم قبائل العرب من أقطار الدنيا فيأتون بالأموال والطعام يبيعونها، فلما مُنعوا من أن يحجوا، وأمر المشركون بتجنب الحرم، قالوا: من أين نعيش؟ كنا نعيش مما يأتي به هؤلاء في مواسمهم فإننا سنفتقر، ولن يبقى لنا شيء نعيش به إن مُنع هؤلاء من القدوم علينا؛ لأننا كنا نعيش بما يوردونه من الأطعمة والأموال ونحو ذلك. فقال لهم الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ ﴿خِفْتُمْ﴾ من الخوف. أصل ﴿خِفْتُمْ﴾ من خاف يخاف.

هذه المادة فاؤها خاء، وعينها واو، ولامها فاء، وقد يُشكل على طالب العلم من أين جاءت هذه الكسرة التي كُسر بها الخاء في قوله: ﴿خِفْتُمْ﴾ مع أن المادة من الأجوف الواوي العين. فسبب كسر الخاء من قوله: ﴿خِفْتُمْ﴾ أن ماضي (خاف) أصله (خَوْف) بكسر الواو، فُلبت الواو ألفاً فقليل فيه: (خاف) والواو المبدلة من الألف أصلها مكسورة، فإذا بُني الفعل إلى ضمير الرفع كالتاء هنا سقطت العين بالاعتلال وجُعلت كسرة الواو الساقطة بالاعتلال نقلت إلى الفاء ليدل على أن العين كانت مكسورة كما هو مقرر معلوم في فن التصريف<sup>(١)</sup>.

وقد ذكرنا<sup>(٢)</sup> أن الخوف في لغة العرب هو الغم من أمر مستقبل. وأن الحزن هو الغم من أمر فائت. وربما أطلقت العرب أحدهما في موضع الآخر كما هو معروف.

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنفال.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿عَيْلَةً﴾ العيلة في لغة العرب: معناها الفقر. تقول العرب: عال الرجل يعيل عيلة. إذا افتقر فقراً. فـ (العيلة) من أجوف يائي العين عال يعيل عيلة إذا افتقر. وعال يعول بالواو إذا جار وعدل عن الحق. وذكر بعضهم أنه مسموع عن العرب أيضاً: عال يعول – بالواو – إذا افتقر<sup>(١)</sup>. وهو غريب!!

أما (عيلة) فمعناه فقراً. وعال يعيل بمعنى افتقر، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول أحيحة بن الجلاح الأنصاري<sup>(٢)</sup>:  
وما يدري الفقيرُ متى غِنَاهُ      وما يدري الغنيُّ متى يَعِيلُ  
أي: لا يدري الغني متى يفتقر، ومنه بهذا المعنى قول جرير<sup>(٣)</sup>:

واللَّهُ نزل في الكتابِ فريضةً      لابن السبيلِ وللفقيرِ العائلِ  
وصفه بنفسه توكيداً لاختلاف اللفظين. فالمعنى: إن خفتم فقراً فسوف يغنيكم الله من فضله، ولا شك أن الله أغناهم من فضله. قال بعض العلماء: أغناهم من فضله بما فتح من باب الجزية. قالوا: والدليل عليه أن الآية التي بعدها آية الجزية، فأخذ المسلمون الجزية من الكفار واستغنى بها المسلمون. وقال بعض العلماء: أغناهم بإنزال المطر، وأخصبت الأرض، فأخصبت بلاد اليمن، وأخصبت تباله وجرش، وجلبوا لهم من الطعام والودك، وأسلم قبائل العرب في اليمن وفي نجد وفي غيره، فكانوا يحجون كل سنة ويأتونهم بمثل

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٩٣).

(٢) البيت في ابن جرير (١٤/١٩٢).

(٣) البيت في ديوانه ص ٣١٣.

ما كانوا يأتونهم به من الطعام والأموال فأغناهم الله بذلك<sup>(١)</sup>. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

قال بعض العلماء<sup>(٢)</sup>: يؤخذ من هذه الآية الكريمة حكم، وهو أن تعلق القلب بأسباب الرزق والمعيشة لا ينافي التوكل ولا يقدح في توكل الإنسان؛ لأن هؤلاء القوم لما تخيل لهم أن الطريق التي كانوا يعيشون منها أنها انقطعت بمنع المشركين من الحج، وخافوا الفقر من هذا الطريق ما عنف الله عليهم ولا عابهم بل قررههم على ذلك، فقال لهم: إن خفتم الفقر من هذا الطريق، ومن أن السبب الذي كنتم تعيشون به أنه انقطع فسوف يغنيكم الله بأسباب آخر. وهذا معنى معروف، أن الأسباب لا تنافي التوكل، فالمسلم الذي يعلم ما جاء عن الله يتسبب ويتعاطى جميع الأسباب لحياته، ويتسبب في أسباب الرزق والمعيشة على الوجوه الشرعية غير المزرية، ومع ذلك فهو متوكل على الله، والذي يترك جميع الأسباب ويقول: توكلت على الله!! هذا مخالف للشرع، مخالف لما جاء عن الله، والذي يعتمد في كل شيء على الأسباب ولا ينظر إلى ربه هذا أيضاً ضال مضل، والذي يستعمل الأسباب كما شرعها له ربه، ويكون اعتماده في الحقيقة على ربه فهذا هو المؤمن. ألا ترون أن نبي الله يعقوب، وقد قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] عَلَّمَ أولاده السبب في التحرز عن العين فقال لهم: ﴿يَنْبَغِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ فهذا تسبب في التحرز عن العين؛ لأنها تضر، ثم صرح مع ذلك بتوكله الكامل على

(١) هذه المعاني ذكرها القرطبي (١٠٦/٨).

(٢) السابق (١٠٧/٨).

الله حيث قال: ﴿ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۗ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ [يوسف: الآية ٦٧] فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل كما هو معروف، فقد قال الله لمريم: ﴿ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ جِذْعَ النَّخْلَةِ ﴾ [مريم: آية ٢٥] ولا شك أنه لو أراد أن يتساقط عليها رطبها من غير سبب لتساقط من غير سبب، ولكنه أجرى العادة بأن جعل للأرزاق والمعاش والأشياء أسباباً، ربط بين الأسباب ومسبباتها بما شاء بقدرته وحكمته:

ألم تر أن الله قال لمريم      وهزئي إليك الجذع يساقط الرطب  
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه      جنته ولكن كل شيء له سبب<sup>(١)</sup>

فالأخذ في الأسباب مع مراعاة الشرع، وتعلق القلب بالله، وتوكله على الله، هذه طريقة الأنبياء، والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿ فَمَن أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴾ [المائدة: آية ٣] يعني: أن من اضطر إلى أكل الميتة أكل الميتة وتسبب في إمساك رmqه بأكل الميتة، ولم يقل له فانتظر وتوكل على الله حتى ينزل لك رزق من السماء!! لم يقل هذا تعليماً للناس بالأخذ بالأسباب، وتعلق قلوبهم بربهم، وتوكلهم عليه. وهذا معنى قوله: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِن شَاءَ ۗ ۙ إِن شَاءَ أَن يَغْنِيَكُمْ ۗ فَعَلِقَ الْغَنَىٰ بِمَشِيئَتِهِ، فلا يكون شيء إلا بمشيئته (جلّ وعلا)؛ لأن الأرزاق مقسومة بمشيئته (جلّ وعلا)، فهو الذي تولى قسمها بنفسه ولم يكله إلى أحد، كما سيأتي في سورة الزخرف في الكلام على قوله: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(١) تقدم ذكرهما في الحاشية عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف، والبيتان في المستطرف (٢/ ١٢٨، ٥٤٨)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (١/ ٥٩٠).

وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿ [الزخرف: آية ٣٢] ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ  
بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴿ [النحل: آية ٧١]. هذا معنى قوله:  
﴿ فَسَوْفَ يُعْطِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ ﴿ [إِنِ اللَّهُ ﴿ (جلّ وعلا)  
﴿ عَلِيمٌ ﴾ محيط علمه بكل شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴿ ﴿ ٢٨ ﴾ في كل ما يفعل،  
وكل ما يقول، وكل ما يشرع، فأفعاله كلها في غاية الحكمة، وأقواله  
وتشريعه وجزاؤه كله في غاية الحكمة، هذا معنى قوله: ﴿ إِنِ اللَّهُ  
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ ﴿ [التوبة: آية ٢٨].

قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا  
يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا  
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿ ﴿ ٢٩ ﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ  
ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ  
يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنْفَ  
يُؤَفِّكُوهُمْ ﴿ ﴿ ٣٠ ﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ  
وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ  
إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ ﴿ ٣١ ﴾ [التوبة: الآيات ٢٩ -  
٣١].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا  
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿ ﴿ ٢٩ ﴾ [التوبة:  
آية ٢٩].

كان الصحابة (رضي الله عنهم) ينتظرون نزول هذه الآية  
الكريمة بسبب آية نزلت على النبي ﷺ هي من المُنْسَأ الذي قدمناه  
في قوله: ﴿ ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴿ [البقرة: آية ١٠٦] على

قراءة: ﴿نَسَّأَهَا﴾<sup>(١)</sup> يعني: نؤخرها؛ لأن الله يؤخر بعض الآيات إلى أمد معلوم، ثم يأتي ببدلها، تارةً يأتي ببدلها ناسخاً، وتارةً تكون مُنْسَأَةً لا منسوخة؛ لأنها كانت معلوماً أنها مغيية بغاية. وإيضاح هذا: أن الله أنزل آيات في أهل الكتاب تدل على عدم قتالهم، كقوله في سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: آية ١٠٩]. ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ أي: عن أهل الكتاب ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾. أي: حتى يأتيكم الأمر الأخير من الله.

وكانت هذه الآية من سورة براءة فيها الأمر الذي كانوا ينتظرونه في آية البقرة، فأنزل الله: ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: آية ٢٩]. لأن أهل الكتاب من يهود ونصارى وإن قالوا لا إله إلا الله وأقروا بالقيامة فهم كمن أنكر وجود الله وأنكر وجود القيامة؛ لأنهم لما اتخذوا الأرباب معه وأشركوا به في الأرباب وقالوا: إن عُزيراً ابنه، وإن المسيح ابنه!! هذا قول من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر؛ لأن الكافر إذا كفر بالله من وجه لا ينفعه الإيمان به من وجه آخر، فمن قال: لا إله إلا الله، وادعى الله ولداً، أو شريكاً، أو رباً معه، فهذا لا يؤمن بالله ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وهو يوم القيامة، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بل يحلون ما حرّم الله ويحرمون ما أحلّ الله، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾، الذي هو دين الإسلام.

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٣٤.

وفي قوله: ﴿ دِينَ الْحَقِّ ﴾ وجهان من التفسير<sup>(١)</sup>:

أحدهما: أن (الحق) هو ضد الباطل، وأن دين الحق من إضافة الموصوف إلى صفته. أي: الدين الذي هو الحق الذي هو دين الإسلام. ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: آية ٨٥]. ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: آية ١٩].

الوجه الثاني: أن الحق هو الله، فالحق من أسماء الله. ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ أي: دين الله الذي شرعه على لسان نبيه محمد ﷺ.

وقوله: ﴿ مَنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ بيان للذين أمروا بقتالهم الموصوفون بأنهم لا يؤمنون بالله إلى آخر ما ذكر.

﴿ مَنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ من يهود ونصارى.

وعندما نزلت تجهز ﷺ لقتال النصارى في غزوة تبوك كما ستأتي تفاصيله في هذه السورة الكريمة.

﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ﴾: (حتى) حرف غاية، والمغنيًا هنا ﴿ فَنِلُوا ﴾ أي: قاتلوهم وأمد ذلك القتال إلى غاية هي أن ﴿ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ﴾ إذا لم يؤمنوا بالله، فإن آمنوا بالله فذلك، وإلا فلا بد أن يعطوا الجزية.

الجزية: (فِعْلَةٌ) وقد تقرر في علم العربية أن (الفِعْلَةُ) بكسر الفاء تأتي لبيان الهيئات، من هيئات المصدر. وأصلها من جزي يجزي؛ لأن الكفار - أهل الكتاب - ينعم عليهم المسلمون بحقن

(١) انظر: البحر المحيط (٢٩/٥).

دمائهم وعدم قتلهم. والمدافعة عنهم، ومنع كل من أراد أن يظلمهم، فهذا الإحسان يجازونه نوعاً من الجزاء عُبِّرَ عنه بالجزية من (جزى يجزي) إذا كافأ ما أسدي إليه، تقول العرب: أحسن إلي فجزيته، أي: كافأته بما أسدي، ومنه قول الشاعر<sup>(١)</sup>:

يجزيك أو يثني عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ فيه أوجه من التفسير معروفة عند العلماء لا يكذب بعضها بعضاً<sup>(٢)</sup>: قال بعض العلماء: ﴿يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾: أي: عن قهر وتحت ذل وكل ما أعطاه الإنسان مقهوراً ذليلاً تقول العرب: أعطاه عن يد. وقال بعض العلماء: يعطيه عن يد معناه يسلمه بيده ولا يرسل به غيره، فالدافع واقف والآخذ جالس. وقال بعض العلماء: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي: نقداً متسلماً باليد لا نسيئة. وقال بعض العلماء: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي: عن اعترافهم بنعمة المسلمين عليهم حيث قبلوا منهم العوض ولم يقتلوهم. والحال في هذا ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> الصاغرون: المتصفون بالصغار. والصغار في لغة العرب معناه: الذل والحقارة والهوان ومعنى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾<sup>(٤)</sup> أي: حقيرون ذليلون. وسنين هنا - إن شاء الله - بعض أحكام الجزية:

اعلموا أولاً أن النبي ﷺ نزل عليه القرآن بجواز أخذ الجزية من أهل الكتاب، ولكنه (صلوات الله وسلامه عليه) بين أنهم وإن أخذت منهم الجزية فلا يجوز بحال من الأحوال ولا بوجه من الوجوه

(١) البيت في القرطبي (٨/١١٤)، البحر المحيط (٥/٣٠).

(٢) انظر: القرطبي (٨/١١٥)، البحر المحيط (٥/٣٠).

أن يُتركوا يسكنون في جزيرة العرب، فإقامة الكفار وسكناهم في جزيرة العرب ممنوع لا يجوز بحال، فيجب على المسلمين أن يخرجوهم من جزيرة العرب جميعها ولا يتركوا فيها كافراً. وهذا من آخر ما أوصى به محمد ﷺ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس، وأوصى عند موته بثلاث، قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم» قال الراوي: ونسيت الثالثة<sup>(١)</sup>. فهذا حديث صحيح أوصى به النبي عند موته. وقد أخرج مسلم وغيره أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً»<sup>(٢)</sup>. وروى الإمام أحمد وغيره عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: «لا يترك بجزيرة العرب دينان»<sup>(٣)</sup>. وروى أحمد وغيره عن أبي عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) قال: آخر ما قاله رسول الله ﷺ: «أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة

(١) البخاري في الجزية والموادعة، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب، حديث رقم: (٣١٦٨)، (٢٧٠/٦)، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، حديث رقم: (١٦٣٧)، (١٢٥٧/٣).

(٢) مسلم في الجهاد والسير، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حديث رقم: (١٧٦٧)، (١٣٨٨/٣)، من حديث عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٥/٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٣٢٥/٥): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع». اهـ.

العرب<sup>(١)</sup>.

فهذه الأحاديث وأمثالها تدل على أنه لا يجوز أن يسكن كافر بجزيرة العرب كائناً ما كان، وأن على المسلمين إخراج الكفار من جزيرة العرب، ولكنهم لا يمنعون من الإتيان إليها لتجارة أو نحوه من غير إقامة بها، وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إذا أراد بعض اليهود دخول الحجاز لتجارة أذن له وأجل لهم ثلاثة أيام يبيعون فيها ويشترون ثم يذهبون<sup>(٢)</sup>.

واعلموا أن الجزية إذا أسلم الكافر اختلف العلماء هل تسقط عنه الجزية<sup>(٣)</sup>؟ وأظهر القولين: أنه تسقط عنه الجزية لما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «لا جزية على مسلم»<sup>(٤)</sup> ولأنه لا تؤخذ منه وهو صاغر؛ لأن المسلم لا يُحقر ولا يُهان.

وقال الشافعي في طائفة من العلماء: إذا أسلم لم تسقط عنه

(١) أخرجه أحمد (١٩٥/١، ١٩٦)، وأبو يعلى (٨٧٢/١)، والحميدي (٨٥)، والدارمي (١٥١/٢ - ١٥٢)، والطيالسي (٢٢٩)، والبيهقي (٢٠٨/٩)، وانظر: السلسلة الصحيحة (١١٣٢).

(٢) أخرجه البيهقي (٢٠٩/٩).

(٣) انظر: بدائع الصنائع (١١٢/٧)، المغني (٢٢١/١٣ - ٢٢٢)، القرطبي (١١٣/٨ - ١١٤).

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٣/١، ٢٨٥)، وأبو عبيد في الأموال ص ٤٩، وأبو داود في الخراج والفيء، باب الذمي الذي يسلم في بعض السنة، حديث رقم: (٣٠٣٧)، (٣٠٥/٨)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء: ليس على المسلم جزية، حديث رقم: (٦٣٣)، (١٨/٣)، والبيهقي (١٩٩/٩)، والدارقطني (١٥٦/٤، ١٥٧)، وابن عدي (١٨٤٥/٥)، (٢٠٧٢/٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٢/٩)، وانظر: الإرواء (٩٩/٥).

الجزية؛ لأنها بقيت ديناً فيه، فهي كسائر الديون، إلا أنه عند أدائها يؤديها غير صاغر ولا مهان؛ لأجل إسلامه، ولكنها تقرر في ذمته.

واختلف العلماء: في القدر الذي يؤخذ من أهل الجزية<sup>(١)</sup>، وممن تؤخذ الجزية<sup>(٢)</sup>؟ فقال جماعة من العلماء: تؤخذ الجزية من كل كتابي عجمياً كان أو عربياً، والجزية بالأديان لا بالأنساب. وهذا القول هو الصحيح والأظهر.

وقال بعض العلماء: تؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب. وهو قول أبي حنيفة رحمه الله<sup>(٣)</sup>.

والحق أن الجزية تؤخذ من كل كتابي عربياً كان أو غيره، وقد أمر النبي ﷺ معاذاً لما أرسله إلى اليمن أن يأخذ من كل حالم من كفار أهل اليمن - أهل الكتاب - الذين لم يسلموا أن يأخذ من كل حالم ديناراً منهم<sup>(٤)</sup>. وبعث خالد بن الوليد إلى أكيدر فأخذ من أكيدر

(١) انظر: بدائع الصنائع (١١١/٧ - ١١٢)، المغني (٢١١/١٣ - ٢١٢)،

القرطبي (١١١/٨)، أحكام أهل الذمة (٢٦/١).

(٢) انظر: الأم (٢٤٠/٤، ٢٨١)، القرطبي (١١٠/٨)، المغني (٢٠٢/١٣) فما بعدها، أحكام أهل الذمة (١/١) فما بعدها.

(٣) انظر: المدونة (٤٦/٢ - ٤٧)، بدائع الصنائع (١١٠/٧ - ١١١)، المغني (٢٠٦/١٣ - ٢٠٧، ٢٠٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٠/٥، ٢٣٣، ٢٤٠، ٢٤٧)، وعبد الرزاق (٢١/٤)، وابن أبي شيبة (١٢٦/٣ - ١٢٧)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة البقر، حديث رقم: (٦٢٣)، (١١/٣)، وقال: «هذا حديث حسن، وروى بعضهم هذا الحديث عن سفیان عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق أن النبي . . . وهذا أصح». اهـ، وأبو داود في الزكاة، باب في زكاة السائمة، حديث رقم: =

الجزية<sup>(١)</sup>. وأكيدر دومة معلوم أنه عربي، أصله من كندة، كما قاله غير واحد.

وأخذ الجزية من أهل نجران<sup>(٢)</sup>. وأكثر أهل نجران نصارى عرب. وهذا هو التحقيق، فالحق الذي لا شك فيه أن الكتابي الذي كان على دين أهل الكتاب قبل أن يُبعث محمد ﷺ تؤخذ منهم الجزية بنص هذه الآية؛ ولأنها لم تُفصل.

وأما المجوس فقد ثبت عن النبي ﷺ أنهم تؤخذ منهم الجزية، فقد روى البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر<sup>(٣)</sup>. وقد

= (١٥٦٢ - ١٥٦٢)، (٤/٤٥٧)، وفي الإمارة، باب في أخذ الجزية، حديث رقم: (٣٠٢٢، ٣٠٢٣)، (٨/٢٨٧)، وابن ماجه في الزكاة، باب صدقة البقر، حديث رقم: (١٨٠٣)، (١/٥٧٦)، والنسائي في الزكاة، باب زكاة البقر، حديث رقم: (٢٤٥٠ - ٢٤٥٢)، (٥/٢٥ - ٢٦)، والحاكم (١/٣٩٨)، والبيهقي (٤/٩٨)، (٩/١٩٣)، وابن خزيمة (٤/١٩)، وابن حبان (الإحسان ٧/١٩٥)، وقال ابن عبد البر في التمهيد (٢/٢٧٥): «إسناده متصل صحيح ثابت». اهـ.

وانظر: التلخيص (٢/١٥٢)، الإرواء (٧٩٥)، صحيح أبي داود (٢/٥٨٩)، صحيح ابن ماجه (١/٣٠٢).

(١) أخرجه أبو داود في الخراج والإمارة والفيء، باب في أخذ الجزية، حديث رقم: (٣٠٢١)، (٨/٢٨٦)، والبيهقي (٩/١٨٦، ١٨٧)، وانظر: صحيح أبي داود (٢/٥٨٩).

(٢) أخرجه أبو داود في الإمارة، باب في أخذ الجزية، حديث رقم: (٣٠٢٥)، (٨/٢٩١)، والبيهقي (٩/١٨٧).

(٣) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، حديث رقم: (٣١٥٧)، (٦/٢٥٧).

أخذ الجزية من أهل البحرين<sup>(١)</sup> وأكثرهم في ذلك الوقت كانوا مجوساً .

فالحق الذي لا شك فيه أنها تؤخذ من المجوس لما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «سُنُوا بِهِمْ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»<sup>(٢)</sup> وثبت عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: أشهد فقد أخذ رسول الله الجزية من مجوس هجر. وكان عمر بن الخطاب توقف في أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه)<sup>(٣)</sup>. والشافعي (رحمه الله) يقول: لا تؤخذ إلا من الكتابي عربياً كان أو عجمياً، أو من المجوسي بالسنة. أما المشركون من عبدة الأوثان وما جرى مجراهم<sup>(٤)</sup> قال الشافعي: لا تؤخذ منهم جزية. وقال به

(١) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، حديث رقم: (٣١٥٨)، (٢٥٧/٦)، وطرفه (٤٠١٥)، (٦٤٢٥)، ومسلم في الزهد والرفائق، حديث رقم: (٢٩٦١)، (٢٢٧٣/٤)، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري (رضي الله عنه).

وقد أخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في أخذ الجزية من المجوس، حديث رقم: (١٥٨٨)، (١٤٧/٤)، من حديث السائب بن يزيد، وعقبه بقوله: «وسألت محمداً عن هذا فقال: هو مالك عن الزهري عن النبي ﷺ». اهـ. وقد أخرجه مالك ص ١٨٧ عن الزهري بلاغاً.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ص ١٨٨، والبيهقي (١٨٩/٩)، من حديث عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه)، وقال ابن البرقي التمهيد (١١٤/٢): «هذا حديث منقطع». اهـ، وله شاهد من حديث السائب بن يزيد (رضي الله عنه)، قال في المجمع (١٣/٦): «رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه». اهـ، وانظر: الإرواء (٨٨/٥).

(٣) مضى تخريجه قريباً.

(٤) انظر: المدونة (٤٦/٢)، الأم (١٧٢/٤ - ١٧٤)، المغني (٢٠٣/١٣ - ٢٠٤،

جماعة من العلماء. قالوا ووجهه: أن الله في المشركين ما نص إلا على القتل ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥] وفي أهل الكتاب قال: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] وفي المجوس ثبت أخذ الجزية منهم بالسنة. فالمشركون لهم السيف، وأهل الكتاب لهم الجزية بالقرآن، والمجوس لهم الجزية بالسنة، وبهذا قال جماعة من العلماء منهم الشافعي.

وقال مالك بن أنس (رحمه الله) في جماعة من العلماء: إنها تؤخذ من كل كافر وثنياً كان يعبد الأصنام أو مجوسياً، أو كتابياً، فتؤخذ من جميع الكفار. هذا قول مالك في طائفة من العلماء.

وأقل ما جاء في قدر الجزية على الرجل من أهل الكتاب دينار<sup>(١)</sup>. قال جمهور العلماء: لا تنقص الجزية عن دينار. وبعضهم يقول: لا حد لها، فما صالح عليه الإمام هو الذي يؤخذ.

وكان عمر بن الخطاب أخذ الجزية من أهل الشام<sup>(٢)</sup>، وأخذها من أهل السواد<sup>(٣)</sup>. وكان النبي ﷺ أمر معاذاً أن يأخذ الجزية من أهل اليمن من كل حالمة ديناراً<sup>(٤)</sup>.

والتحقيق أنها لا تؤخذ من الصبيان والنساء، بل من الرجال المقاتلين، كما دلّ عليه حديث معاذ: «خذ من كل حالمة ديناراً»<sup>(٥)</sup>.

(١) كما جاء في حديث معاذ (رضي الله عنه) لما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن، وأمره أن يأخذ من كل حالمة ديناراً، وقد مضى تخريجه قريباً.

(٢) سيأتي تخريجه قريباً.

(٣) سيأتي تخريجه قريباً.

(٤) مضى تخريجه قريباً.

(٥) مضى تخريجه قريباً.

يعني: لا صبياء، ولا امرأة؛ ولأن الصبيان والنساء ليسوا من المقاتلين ولا يجوز قتلهم. والله يقول في المقاتلين: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾. فدل أن الذي يعطي الجزية هم المقاتلون لا غيرهم. كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أخذ الجزية من أهل الشام على الواحد أربعة دنانير<sup>(١)</sup>.

وعن ابن أبي نجيح أنه سأل مجاهداً (رحمه الله): ما بال أهل اليمن أخذ منهم في الجزية دينار، وأهل الشام أربعة دنانير؟ قال: ذلك باعتبار الفقر واليسار، وهؤلاء فقراء أخذ منهم دينار، وهؤلاء موسرون أخذ منهم أربعة دنانير<sup>(٢)</sup>. وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أخذ الجزية من أهل السواد، فأخذ من الفقير والمراد به الفقير الذي له حرفة وتَسَبَّبَ اثني عشر درهماً، ومن المتوسط أربعة وعشرين درهماً، ومن الغني ثمانية وأربعين درهماً<sup>(٣)</sup>.

وبعض العلماء يقول هذا، وبعضهم يقول: أربعة دنانير، وبعضهم يقول: دينار. وقد أمر النبي بدينار، وأخذ عمر من أهل الشام أربعة دنانير، ومن أهل السواد اثني عشر [درهماً]<sup>(٤)</sup> للفقير، وأربعة وعشرين للمتوسط، وثمانية وأربعين للغني.

(١) أخرجه البيهقي (١٩٥/٩).

(٢) البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٢٥٧/٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٤١/١٢)، والبيهقي (١٩٦/٩).

(٤) في الأصل: «ديناراً»، وهو سبق لسان.

والتحقيق — إن شاء الله — أن كل هذا واسع بحسب ما يراه الإمام، إلا أنه لا ينبغي أن ينقص الجزية عن دينار. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] لأن الله تبارك وتعالى ما أذن في تركهم إلا بهذا.

واختلف العلماء في العوض الذي أُعطيت عنه الجزية<sup>(١)</sup>: قال بعض العلماء: عوضها حقن دمائهم. وعلى هذا القول إذا أسلم سقطت عنه الجزية؛ لأن دمه حقنه الإسلام. وقال بعضهم: عوضها حقن دمائهم، والمدافعة عنهم، ومنع من أراد أن يظلمهم. وعلى هذا تبقى الجزية فيه ولو أسلم. هكذا قاله بعض العلماء.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يَكُونُوا يَأْتِخُدُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: الآيتان ٣٠، ٣١].

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يَكُونُوا﴾ [التوبة: آية ٣٠] قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير عاصم والكسائي: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ بلا تنوين على الراء. وقرأه عاصم والكسائي: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ بتنوين الراء<sup>(٢)</sup>. وقرأ عامة السبعة غير عاصم: ﴿يَضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بضم الهاء ليس بعدها همزة.

(١) انظر: المغني (٢٠٢/١٣)، القرطبي (١١٣/٨)، أحكام أهل الذمة (٢٥/١).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٦.

وقرأ من السبعة عاصم وحده: ﴿يُضَكِّهُنَّ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾  
بكسر الهاء وهمزة بعده<sup>(١)</sup>.

وفي الآية التي قبل هذا أمر الله (جلّ وعلا) بعقوبة أهل الكتاب بقوله: ﴿فَنِلُّوا﴾ ثم بيّن موجب تلك العقوبة بقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثم أكد موجب عقوبتهم بقوله هنا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّ بْنُ أَبِي اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ يعني: هؤلاء الذين أمرتكم بقتالهم مرتكبون من الجرائم ما يستوجب قتالهم ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] فأوجب على أهل الكتاب عقوبات شديدة، منها: قتالهم حتى يدفعوا الجزية ﴿عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [٥/ب] أحسأء أذلاء. وكذلك لحقارتهم على الله / بيّن أن النبي ﷺ أوصى بإخراجهم من جزيرة العرب [وتطهيرها منهم]<sup>(٢)</sup>. ومن آخر ما أوصى به النبي ﷺ تطهير جزيرة العرب من اليهود والنصارى وسائر المشركين<sup>(٣)</sup>. ولا شك أن هذا أمر مهم، لو لم يكن مهماً لما أوصى به النبي عند موته (صلوات الله وسلامه عليه)، ولكنه (صلوات الله وسلامه عليه) علّمنا في هذا الدين العظيم أن له عزائم ورخصاً، فهذا الدين العظيم أنزله الله منقسماً إلى عزائم ورخص، فعزائمه: تستعمل عند الأوقات المناسبة لها، ورخصه: تستعمل عند الأوقات المناسبة لها؛ لأن الدين السماوي لا بد أن يكون مشتملاً على مواجهة التطورات والأحداث حيث ما كانت وأياً ما كانت، ففي كل حال له فيها مواجهة.

ونريد هنا أن نبيّن بعض الأشياء التي يجوز أخذها من الكفار

(١) السابق ص ٢٢٦.

(٢) في الأصل: «وتطهيرهم منها»، وهو سبق لسان.

(٣) مضى تخريجه قريباً.

والتي لا يجوز أخذها؛ ليكون المسلم على بصيرة من ذلك، ويعلم ما ينبغي وما لا ينبغي، ويفرق بين ما يضر وما لا يضر. لا شك أنه إن كانت القوة كاملة للمسلمين من غير حاجة للكفار في شيء أنهم يقومون بأنفسهم ويقيمون عزائم الله في المشركين من قتل حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وتطهير جزيرة العرب منهم إلى غير ذلك مما قدمنا أنه لا بد منه في كل الأحوال وفي كل الظروف، أي: إذا كان محل العزائم والمسلمون في قوتهم كما ينبغي، أما إذا كان المسلمون في ضعف عن ذلك، أو في حاجة ماسة ضرورية إلى الكفار فلكل حال مقال، وقد علمنا النبي ﷺ المخرج في جميع هذه الأشياء، فهو (صلوات الله وسلامه عليه) لما أمكنه أن يجلي بني قينقاع من غير حاجة المسلمين ولا ضرورة عليهم أجلاهم من المدينة إلى الشام، ولما أمكنه بعد ذلك أن يجلي بني النضير أجلاهم من المدينة إلى أطراف الشام كما سيأتي في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا...﴾ إلى آخر الآيات [الحشر: آية ٢]. ولما كانت حاجة المسلمين ماسة إلى عدم إجلاء خبير لم يجلبهم بل عاملهم ليتولوا القيام على نخل خبير وأرضها، وأعطاهم شطر ثمار نخل خبير وما يخرج من أرضها، وهو ﷺ عازم على إخراجهم عندما أمكنت الفرصة، وصار وقت العزيمة، وانتهى وقت الرخصة؛ ولذا ثبت في بعض الروايات الصحيحة أنهم لما قالوا له: أقرنا على الأرض نقوم على نخلها وزرعها بشرها. قال لهم ﷺ: «نقيمكم على ذلك ما شئنا، وإن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم»<sup>(١)</sup> لأنه عازم على إخراجهم

(١) البخاري في الحث والمزارعة، باب إذا قال رب الأرض: أقرك ما أقرك الله، حديث رقم: (٢٣٣٨)، (٥/٢١)، ومسلم في المساقاة، باب المساقاة =

(صلوات الله وسلامه عليه)، عندما تسنح الفرصة المواتية لذلك، فالعزيمة لها وقتها، وإذا كان الوقت للعزيمة لا يجوز أن تهمل بحال من الأحوال، فإذا كان الظرف مناسباً للرخص أعملت الرخص؛ لأن دين الإسلام دين مرن صالح لمواجهة جميع التيارات والأحداث والتطورات، وقد قدمنا في سورة [آل عمران] (١) طرفاً جيداً من هذا في الكلام على قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾ [آل عمران: آية ٢٨] أي: إلا أن تخافوا منهم خوفاً فلذلك حال وحكم آخر.

واعلموا — أيها الإخوان — أن المؤسف كل المؤسف هو أن الذي يجوز لنا أن نأخذه من الكفار والذي يمتنع علينا أن نأخذه منهم معكوس في أقطار المعمورة الآن!! يأخذون منهم ما لا يحل أخذه، ويتركون ما لا ينبغي تركه، فيعكسون القضية عكساً تاماً!! وإيضاح هذا المعنى أنه يجوز للمسلمين أن ينتفعوا بأعمال الكفار التي هي أمور دنيوية بحته ويحذروا كل الحذر من أن يقلدوهم في شيء من أوامر الدين. وسنذكر لكم أمثلة من هذا يتضح بها المقام (٢): هذا سيد الخلق محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — لما تواطأت عليه قوى الشر واضطروه أن يخرج من مسقط رأسه — كما قدمنا في سورة الأنفال في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: آية ٣٠] ودخل هو وصاحبه في غار كما سيأتي تفصيله في هذه السورة الكريمة إن شاء الله — وجد في ذلك الوقت

= والمعاملة بجزء من الثمر والزرع، حديث رقم: (١٥٥١)، (٣/١١٨٧).

(١) في الأصل: «النساء»، وهو سبق لسان.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

كافراً من بني دؤل بن كنانة يسمى عبد الله بن الأريقط، وكان في ذلك الوقت كافراً من عبدة الأوثان، إلا أن عنده خبرة دنيوية بالطرق من مكة إلى المدينة؛ لأنه (صلوات الله وسلامه عليه) في ذلك الوقت محتاج إلى خبير بالطرق؛ لأن الطرق المعهودة السابلة أمسكها الكفار وجعلوا جعائل لكل من أتى بمحمد ﷺ أن يعطوه الأموال الكثيرة، فصار لا يمكن أن يسير في الطرق المعهودة والسبل السابلة، بل لا بد أن يذهب من بُنَيَات طرق ليست هي المعهودة، وهذه تحتاج إلى خبرة خاصة، ووجد هذه الخبرة عند كافر من بني دؤل بن كنانة يسمى عبد الله بن الأريقط، فأودعه رواحله وأعطاه الموعد، وكان ذلك الكافر أميناً معه، فجاءه في الموعد وذهب به وجاء به من طرق غير معهودة حتى أوصله المدينة بسلام<sup>(١)</sup>. فالنبي ﷺ عند الحاجة انتفع بخبرة هذا الكافر ولم يقل: هذه خبرة نجسةٌ قذرةٌ لأنها من كافر، بل انتفع بها على حد قولهم «اجتنِ الثمار وألقِ الخشبة في النار». وكذلك لما سمع بالكفار في غزوة الأحزاب قال له سلمان الفارسي - كما هو مذكور في الأخبار والسير - : كنا إذا خفنا خندقنا<sup>(٢)</sup>. فأشار إليه بالخندق، وهو خطة حربية عسكرية، فقام النبي ﷺ وانتفع بهذه الخطة الحربية العسكرية وإن كانت ابتدعتها أذهان فارس الذين هم كفرّة يعبدون النار، ولم يقل: هذه خطة نجسةٌ قذرةٌ؛ لأن أصلها من الكفار!! بل انتفع بما ينفعه في دنياه وهو محافظ على دينه. وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ همّ أن يمنع الرجال من أن يطؤوا نساءهم في حالة إرضاعهن؛ لأن العرب كانوا يظنون أن الرجل إذا أتى أبوه أمه وهي

(١) السابق.

(٢) السابق.

ترضعه أن ذلك يضعف عظمه ويترك فيه ضعفاً طبيعياً!! كانوا إذا ضرب الرجل ونبا سيفه عن الضريبة قالوا: هذا من آثار الغيلة، وهي وطء المرضع!! وكان شاعرهم يقول<sup>(١)</sup>:

فوارسٌ لم يُعَالُوا في رضاعٍ فتنبؤوا في أكفهم السيوفُ  
فأخبر النبي ﷺ عن فارسَ والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر  
أولادهم<sup>(٢)</sup>، فأخذ هذه الخطة الطيبة من فارس والروم ولم يمنعه  
خبث من جاء بها عن أن يأخذها. فهذا تعليم الصادق المصدوق  
(صلوات الله وسلامه عليه).

ومما هو واضح أن ما جاء به الكفرة الفجرة الخنازير الذين يسمون أنفسهم (أهل الحضارة) أنهم جاؤوا بماء زلال، وجاؤوا بسم فتاك قتال؛ لأن ما في الحضارة الغربية من المنافع الدنيوية لا يحتاج أن يُنَوَّه عنه، فهم خدموا الإنسان - من حيث إنه جسم - خدمة هائلة ما كانت تخطر على البال. ولا يحتاج أن يُنَوَّه عنها، ولكنهم بالنسبة إلى الروح وإلى عنصر الإنسان من حيث كونه روحاً مفلسون كل الإفلاس. فعلى المسلمين أن يميزوا بين ما يضر وما لا يضر، فيأخذوا منهم الأمور الدنيوية فينتفعوا بخبرتهم في الأمور كما انتفع ﷺ في الأمور الدنيوية من الكفار، أما أنهم يأخذون عنهم كفرهم وتمردهم على الله وإفلاسهم الروحي النهائي فهذا مما لا يجوز ولا كان ينبغي لعاقل أن يفعله.

ونحن دائماً نبين الموقف السليم في الأوضاع الراهنة للإسلام والمسلمين، ونعرضه على الدليل العظيم المعروف عند علماء

(١) السابق.

(٢) السابق.

الأصول بـ (السبر والتقسيم)، وعند علماء المنطق. بـ (الشَّرْطِي المُنْفَصِل)، وعند علماء الجدل بـ (الترديد والتقسيم)<sup>(١)</sup>، فنقول: إن موقف المسلمين مما أحدثته الحضارة الغربية التي صارت سبب ضلال ودمار مع ما أدخل في الثقافات من البلايا والويلات، نقول: وهو بالتقسيم الصحيح منحصر في أربعة أقسام حصراً استقرائياً<sup>(٢)</sup>، وقد تقرر في علم البحث والمناظرة، وعلم الأصول أن للحصر طريقين: إما عقل، وإما استقراء، فهو محصور في أربعة طرق بطريق الاستقراء: أولها: أن نقول: يجب علينا أن نأخذ جميع ما أنتجته الحضارة الغربية من مائها الزلال وسمها الفتك القتال، فهذا قسم واحد، أو نقول: نتركهما معاً، أو نأخذ نافعها ونترك ضارها، أو نأخذ ضارها ونترك نافعها، فهي أربعة أقسام بالحصر الاستقرائي، فإذا رجعنا لهذه الأقسام الأربعة بالسبر الصحيح نجد ثلاثة منها باطلة، وواحدةً صحيحاً، وهذه فائدة السبر والتقسيم، التقسيم: يحصر الأوصاف، والسبر: يميز بين خبيثها وطيبها وصالحها وطالحها. فلو قلنا: نأخذ جميع ما أنتجته الحضارة الغربية، فإن من أراد أن يأخذ الماء الزلال ممزوجاً بالسم الفتك القتال لا ينتفع بالماء، ومن أراد تقدماً من الأمور الدنيوية التي عندهم مع ما فيها من الانحلال، وضياع الأخلاق، والتمرد على نظام السماء، والإلحاد والكفر بخالق السماوات والأرض، فهذا لا ينفع معه شيء، إذا الدين لم يكن فلا كانت الدنيا. فهذا قسم باطل يقيناً، ولو قلنا: نتركهما جميعاً، فهذا القسم باطل أيضاً؛ لأن ترك الأخذ بالقوة تواكل وعجز

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٤) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

وتمرد على نظام السماء؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦٠]. فترك القوة والاستعداد للعدو مخالف للشرع الكريم، ومخالف للفطر السليمة، فالحياة بتطوراتها الراهنة لا يجوز للمسلمين أن يتركوا استعمال القوة وجميع أنواع الوسائل لتكون عندهم قوة يدافعون بها عن أنفسهم ودينهم، فهذا القسم باطل أيضاً.

القسم الثالث: وهو أن يؤخذ سمها فقط، ويترك زلالها، فمن وجد ماء زلالاً وسمّاً فاتكاً قتالاً، واختار السم على الماء فهذا مجنون أهوج!!

أما أن نأخذ نافعها ونترك ضارها، فهذا هو اللائق بكل عاقل أن يأخذ ما ينفعه ويترك ما يضره.

والمؤسف كل المؤسف أن الذين تأثروا بهذه الحضارة من الناس الذين أصلهم مسلمون لم يأخذوا من هذه الحضارة إلا سمها الفتاك القتال، ولم ينتفعوا بمائها الزلال، فتراهم يقلدونهم في الإلحاد والكفر بالله والمسخرة من الدين، والاستهزاء بآيات الله، في الوقت الذي لم يأخذوا عنهم شيئاً مما أنتجوه من الأمور النافعة في الدنيا.

ما أحسن الدينَ والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكُفْرَ والإفلاسَ بالرجل<sup>(١)</sup>

فهم يجمعون بين الكفر والإفلاس — والعياذ بالله — وهذا الشيء الذي طبق المعمورة وانتشر في أقطار الدنيا فإننا لله وإنا إليه راجعون.

(١) تقدم هذا البيت عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأنعام.

وعلى كل حال فدين الإسلام هو هو، وصلته بالله هي هي، دين عريق عظيم أُسُّهُ قويمَةٌ عظيمة، لو لم يكن مبنياً على أُسس عظيمة وكتابه محفوظ لطمسوا أثره في قرون!! ولكنه دين عريق ثابت الجذور لا يتغير ولا يتزعزع، وإنما تنكّر له المنتسبون إليه فصاروا خفافيش تقودهم الكفار إلى ما يشاؤون، فيقلدونهم في كل كفر وكل إلحاد، وكل انحطاط خلقي، وكل تمرد على نظام السماء، وكفر بخالق السماوات والأرض، في الوقت الذي لا ينتفعون بالأمور [الدينية]<sup>(١)</sup>. وإنما حكينا هذا أسفاً من واقع نرجو الله أن يزيل هذا عن المسلمين.

ولما كان جزاء الكفار وعقوبتهم عظيمة بيّن بعض أسباب ذلك فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣٠] قال بعض العلماء<sup>(٢)</sup>: قالته جماعة من اليهود، منهم: سَلَامُ بن مشكم، وشَأْسُ بن قيس، ونعمان بن أوفى، ومالك بن الصيف من اليهود — قَبَحَهُمُ اللهُ — زعموا أن عُزَيْراً ابن الله.

وقال بعضهم: قاله القدماء من اليهود فاتبعهم الآخرون.

وقال بعضهم: إن الذي قاله قبل اليهود في زمن محمد ﷺ، وأن سبب ذلك أنهم قتلوا الأنبياء فرفع الله التوراة ومسحه من قلوبهم، أو أن بختنصر قتل علماءهم، وضاعت عليهم التوراة، وكان بعضهم دفنها في محل، وكان عُزَيْرٌ قد قدمنا قضيته أن الله أماته مائة عام ثم بعثه، وجاء وقد ضاعت التوراة عليهم، بقوا لم يحفظوا منها شيئاً، فعلمه الله إياها فقرأها عليهم لم يخرم منها حرفاً، فقالوا: ما

(١) في الأصل: «الدينية»، وهو سبق لسان.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٠٢/١٤).

علمه الله إياها إلا لأنه ابنه!! ومما يدل على أن هذه المقالة صدرت من اليهود أن هذا القرآن يتلى من قديم الزمان من نزول هذه الآية ولم يُعلم أن يهودياً في زمانها كذب بذلك وقال: ما قلنا هذا!! مع مسارعتهم إلى التكذيب.

﴿ وَقَالَتِ الْتَصْرَى الْمَسِيحُ ﴾ [التوبة: آية ٣٠] يعني عيسى ابن مريم قالوا إنه ابن الله . - قَبَّحَهُمُ اللَّهُ - فأشركوا.

وقوله: ﴿ يُضْهِوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [التوبة: آية ٣٠] على قراءة الجمهور، وهو مضارع: (ضاهاه يضاهيه) إذا حاكاه وشابهه. وعلى قراءة عاصم: ﴿ يُضْهِوْتِ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فهو بمعناه؛ لأن (ضاهأ) يقال فيها: (ضَاهَا) بلا همز، ويقال فيها: (ضَاهَاً) بالهمز، وهما لغتان صحيحتان وقراءتان سبعيتان صحيحتان<sup>(١)</sup>.

ومعنى المضاهاة والمضاهأة معناها: المحاكاة والمشابهة. يعني: يحاكون ويشابهون قول الذين كفروا<sup>(٢)</sup> من كفار مكة الذين قالوا: الملائكة بنات الله. وقال بعض العلماء: قالها المتأخرون من اليهود يحاكون المتقدمين منهم. وقال بعض العلماء: قال النصارى: ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ يحاكون اليهود في قولهم: ﴿ عَزَّزْتُ ابْنَ اللَّهِ ﴾ وهذا كله لا يكذب بعضه بعضاً، وهذا معنى قوله: ﴿ يُضْهِوْتِ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ وفي الكلام حذف مضاف دلّ المقام عليه، أي: يحاكي قولهم قول الذين كفروا من قبل.

﴿ فَتَلَّهْمُ اللَّهُ ﴾ قال بعض العلماء<sup>(٣)</sup> معناه: لعنهم الله.

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٦.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٠٥/١٤)، القرطبي (١١٨/٨).

(٣) انظر: ابن جرير (٢٠٧/١٤)، القرطبي (١١٩/٨).

وقال بعض العلماء: (قاتله الله) كلمة تعجب تقولها العرب إذا تعجبت من شيء يقولون: قاتل الله فلاناً ما أفعله لكذا. أو ما أشد استحقاؤه لأن يُقتل، أو نحو ذلك.

قوله: ﴿ أَنْفٌ يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿ يُوْفَكُونَ ﴾ (يُفعلون) من الإفك، والإفك: أسوأ الكذب؛ لأن أصل مادة (أفكته) إذا قلبه. كل شيء قلبته فقد (أفكته) ومنه قيل لقري قوم لوط: (المؤتفكات) لأن جبريل أفكها، أي: قلبها فجعل عاليها سافلها. وإنما سُمي أسوأ الكذب (إفكاً) لأنه صرف للكلام عن معناه الصحيح إلى معاني أخر كاذبة<sup>(١)</sup>. وهذا معنى قوله: ﴿ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْفٌ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: آية ٣٠].

قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: الآيات ٣١ - ٣٣].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: آية ٣١].

ذكر الله (جلّ وعلا) في هذه الآيات الكريمات من سورة براءة

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأعراف.

جرائم اليهود والنصارى فعد منها أنهم نسبوا له الأولاد، وأتبع ذلك بقوله: ﴿قَالَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ [التوبة: آية ٣٠] كيف يُصرفون عن الحق مع وضوحه، ويدَّعون للواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، يدَّعون له الأولاد فيقولون: عُزير ابن الله، والمسيح ابن الله؟ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم ذكر من معائبهم وإجرامهم بلايا أخر فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: آية ٣١] أي: واتخذوا المسيح ابن مريم رباً من دون الله أيضاً. وهذه الآية جاء عن النبي ﷺ أنه فسرها لعدي بن حاتم (رضي الله عنه) لما سأله عنها، فقد أخرج الترمذي وغيره عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه أتى النبي ﷺ وفي عنقه صليب من ذهب، فقال له ﷺ: «اطرح هذا الوثن من عنقك» وسمعه يقرأ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ - وكان عدي في الجاهلية نصرانياً - فقال عدي: ما كنا نعبدهم من دون الله. فقال له النبي ﷺ: «ألم يُحلوا لكم ما حرّم الله، ويحرموا عليكم ما أحلّ الله فتتبعوهم؟» قال: بلى. قال: «ذلك عبادتهم»<sup>(١)</sup>. وهو معنى اتخاذهم أرباباً. وهذا التفسير النبوي المقتضي أن كل من يتبع مُشرِّعاً فيما أحلّ وحرّم مخالفاً لتشريع الله أنه عابد له، متخذة رباً، مشركاً به، كافر بالله هو تفسير صحيح لا شك في صحته، والآيات القرآنية الشاهدة لصحته لا تكاد تحصيها في المصحف الكريم، وسنين - إن شاء الله - طرفاً من ذلك:

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

اعلموا أيها الإخوان أن الإِشْرَاقَ بالله في حكمه والإِشْرَاقَ به في عبادته كلاهما بمعنى واحد، لا فرق بينهما البتة، فالذي يتبع نظاماً غير نظام الله، وتشريعاً غير ما شرّعه الله، وقانوناً مخالفاً لشرع الله من وضع البشر، معرضاً عن نور السماء الذي أنزله الله على لسان رسوله، من كان يفعل هذا هو ومن يعبد الصنم ويسجد للوثن لا فرق بينهما البتة بوجه من الوجوه، فهما واحد، فكلاهما مشرك بالله، هذا أشرك به في عبادته، وهذا أشرك به في حكمه، والإِشْرَاقَ به في عبادته، والإِشْرَاقَ به في حكمه كلاهما سواء، وقد قال الله (جَلَّ وَعَلَا) في الإِشْرَاقَ به في عبادته: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ١١٠].

وقال في الإِشْرَاقَ به في حكمه أيضاً: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ، وَأَسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٢٦]. وفي قراءة ابن عامر من السبعة: ﴿ولا تشرك في حكمه أحدا﴾<sup>(١)</sup> بصيغة النهي المطابقة لقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ١١٠] فكلاهما إِشْرَاقَ بالله؛ ولذا بيّن النبي لعدي بن حاتم أنهم لما اتبعوا نظامهم في التحليل والتحرير وشرعهم المخالف لشرع الله كانوا عبدة لهم، متخذيهم أرباباً، والآيات القرآنية في المصحف الكريم المُصَرَّحة بهذا المعنى لا تكاد تحصيها، ومن أصرحها: المناظرة التي أشرنا لها في الأيام الماضية، ووعدنا بإيضاح مبحثها هنا، وهي المناظرة التي وقعت بين حزب الرحمن وحزب الشيطان في حكم تحليل لحم الميتة وتحريمه، فعزب الشيطان يقولون: إن الميتة حلال، ويستدلون

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

بوحى من وحي الشيطان، وهو أن الشيطان أوحى إلى أصحابه وتلامذته في مكة أن اسألوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ فلما قال: الله قتلها. احتجوا على النبي وأصحابه في تحريمهم الميتة بفلسفة من وحي الشيطان وقالوا: ما ذبحتموه وذكيتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة بسكين من ذهب تقولون حرام!! فأنتم أحسن من الله إذاً!! فهذا فلسفة الشيطان ووحى إبليس استدل بها كفار مكة على اتباع نظام الشيطان وتشريعه وقانونه بدعوى أن ما ذبحه الله أحلّ مما ذبحه الناس، وأن تذكية الله أطهر من تذكية الخلق، واستدل أصحاب النبي والنبي ﷺ على تحريم الميتة بوحى الرحمن في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: آية ٣] ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] فأدلى هؤلاء بنص من نصوص السماء، وأدلى هؤلاء بفلسفة من وحي الشيطان، ووقع بينهم جدال وخصام، فتولى رب السماوات والأرض الفتيا في ذلك بنفسه فأنزلها قرآناً يتلى في سورة الأنعام معلماً بها خلقه، أن كل من يتبع نظاماً وتشريعاً وقانوناً مخالفاً لما شرعه الله على لسان رسول الله ﷺ فهو مشرك بالله كافر متخذ ذلك المتبوع رباً، فأنزل الله ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ منه الميتة. أي: وإن قالوا: إنها ذكاة الله، وأنها أطهر. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفَسْقٌ﴾ أي: إن الأكل من الميتة لفسق. أي: لخروج عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ من الكفرة ككفار مكة ﴿لِيُجَدِّدُواكُمْ﴾ لأجل أن يجادلوكم بوحى الشيطان، ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم أحسن من الله. ثم قال - وهو محل الشاهد - : ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي:

اتبعتموهم في ذلك النظام الذي وضعه الشيطان لأتباعه وأقام دليلاً من وحيه عليه ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [٢٧] بالله، متخذون من اتباعكم تشريعه رباً غير الله. وهذا الشرك في قوله: ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [٢٧] هو الشرك الأكبر المخرج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، وهو الذي أشار الله إليه في قوله: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَنُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: آية ١٠٠] وهو الذي صرح به الشيطان في خطبته يوم القيامة المذكورة في قوله: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: آية ٢٢] وهو المراد على أصح التفسيرين في قوله: ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ [سبأ: آية ٤١] يعبدون الشياطين باتباعهم أنظمتهم وتشريعاتهم على أسنة الكفار، وهو الذي نهى عنه إبراهيم أباه: ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ [مريم: آية ٤٤] أي: باتباع ما يقرر لك من نظام الكفر والمعاصي مخالفاً لشرع الله الذي أنزله على رسله، وهذه العبادة بعينها هي التي وبخ الله مرتكبها وبين مصيره الأخير في سورة يس في قوله: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يس: آية ٦٠] ما عبدوه بسجود ولا ركوع وإنما عبدوه باتباع نظام وتشريع وقانون شرع لهم أموراً غير ما شرعه الله فاتبعوه وتركوا ما شرع الله فعبدوه بذلك واتخذوه رباً كما بيته النبي ﷺ لعدي بن حاتم (رضي الله عنه)، فهذا أمر لا شك فيه، وهو المراد بقوله: ﴿ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: ما يعبدون إلا شيطاناً مريداً، أي: عبادة اتباع نظام وتشريع. واعلم أن قوماً زعموا أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى شرع الشيطان والذي وضعه، وادّعوا مع ذلك أنهم

مؤمنون فَعَجَّبَ اللهُ نبيه من دعواهم الكاذبة الفاجرة التي لا يمكن أن تصدق في سورة النساء في قوله (جلّ وعلا): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: آية ٦٠]. كل من تحاكم إلى غير ما أنزل الله فهو متحاكم إلى الطاغوت، وهؤلاء قوم أرادوا التحاكم إلى الطاغوت وزعموا أنهم مؤمنون بالله فعجب الله نبيه من كذب هؤلاء وعدم حياتهم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ يُعَجِّبُهُ مِنْهُمْ ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِء وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ الذي شرع لهم تلك النظم والأوضاع التي يسرون عليها ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿٦١﴾ وأقسم الله (جلّ وعلا) إقساماً سماوياً من رب العالمين على أنه لا إيمان لمن لم يُحْكَمْ رسول الله فيما جاء به عن الله خالصاً من قلبه في باطنه وسره في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ [النساء: آية ٦٥] وبين الله (جلّ وعلا) في آيات كثيرة من كتابه أن الحكم له وحده لا شريك له في حكمه، وكلما ذكر اختصاصه بالحكم أوضح العلامات التي يعرف بها بين من يستحق أن يحكم ويأمر وينهى ويشرع ويحلل ويحرم، وبين من ليس له شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: آية ٤٠] ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ [القصص: آية ٧٠] وسنين لكم أمثلة من ذلك، من ذلك قوله في سورة الشورى: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: آية ١٠] ثم إن الله كأنه قال: هذا الذي يكون المرجع إليه،



ويحرم؟! ومن ذلك قوله تعالى في أخريات القصص: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٨٨]. [القصص: آية ٨٨].

[١/٦] / والآيات القرآنية في مثل هذا كثيرة جداً. والحاصل أن التشريع لا يكون إلا للأعلى الذي لا يمكن أن يكون فوقه أمرٌ ولا ناهٍ ولا متصرف، فهو للسلطة العليا، أما المخلوق الجاهل الكافر المسكين فليس له أن يُحلل ويحرّم، والعجب كل العجب من قوم كان عندهم كتاب الله ورثوا الإسلام عن آبائهم، وعندهم هذا القرآن العظيم، والنور المبين، وستة خير الخلق ﷺ، يبين الله ورسوله كل شيء، ومع ذلك يعرضون عن هذا زاعمين أنه لا يحسن القيام بشؤون الدنيا بعد تطوراتها الراهنة، يطلبون الصواب في زبالات أذهان كفرة خنازير، لا يعلمون شيئاً!! هذا من طمس البصائر — والعياذ بالله — لا يصدق به إلا من رآه، ولكن الخفافيش يعميها نور القرآن العظيم، فالقرآن العظيم نورٌ عظيم، والخفافش لا يكاد أن يرى النور:

خَفَافِشُ أَعْمَاهَا النَّهَارُ بِضَوْوِهِ فَوَافَقَهَا قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمٌ (٢)

فهذا القرآن العظيم ينصرفون عنه، وترى الواحد الذي هو مسؤول عنهم يعلن في غير حياء من الله ولا حياء من الناس بوجه لا ماء فيه، بكل وقاحة أنه يحكم في نفسه وفي الناس الذين هم رعيته الذين هو مسؤول عنهم يحكم في أديانهم، وفي أنفسهم، وفي عقولهم، وفي أنسابهم، وفي أموالهم، وفي أعراضهم، قانوناً أرضياً

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وقد أكملت الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

وضعه خنازير كفره جهلة أنتن من الكلاب والخنازير، وأجهل خلق الله، معرضاً عن نور السماء الذي وضعه الله (جلّ وعلا) على لسان خلقه، فهذا من طمس البصائر لا يصدّق به إلا من رآه - والعياذ بالله - اللّهم لا تظمس بصائرنا ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

واعلموا أيها الإخوان أن كل من يتعالم أمام الخالق (جلّ وعلا) بلا حياء في وجهه أنه يعرض عمّا أنزل الله على محمد ﷺ مدعياً أنه لا يقدر أن يقوم بتنظيم علاقات الدنيا يطلب النور والهدى في زبالات أذهان خنازير كفره فجرة جهلة في غاية الجهل أنه هو وفرعون وهامان وقارون في الكفر سواء؛ لأنه لا يعرض عن الله، وعن تشريع الله، ويفضّل عليه تشريع الشيطان، ونظام إبليس الذي شرعه على السنة أوليائه إلا من لا نصيب له في الإيمان بوجه من الوجوه، كما رأيت الآيات الكثيرة الدالة على ذلك، وتعجب الله نبيه من ادعاء مثله الإيمان. فعلى المسلمين جميعاً أن يعلموا ويعتقدوا - ونحن نقول: لا شك يجب على كل مسلم كائناً من كان أن يعلم - أنه لا حلال إلا ما أحلّه الله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله، ولا دين إلا ما شرّعه الله، فمن سوى الله لا تحليل له ولا تحريم؛ لأنه عبد مسكين ضعيف مربوب، عليه أن يعمل بما يأمر به ربه، فيتبع ما يشرعه ربه. وهذا معنى قوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الأخبار: جمع خبر بفتح الحاء وكسرهما. والتحقيق أنهما لغتان. والأخبار: العلماء. والرهبان: المتعبدون المنقطعون في الصوامع، وهو جمع راهب، وشذّ قوم فقالوا: إن الواحد منهم يقال له (رهبان) واستدلوا

بقول الراجز<sup>(١)</sup>:

لو كَلَّمْتُ رُهْبَانَ دَيْرٍ فِي الْجَبَلِ لأقبل الرهبان يَهْوِي وَنَزَلَ  
أنه واحد. والتحقيق: أنه جمع راهب.

﴿أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الأرباب: جمع رب؛ لأنهم عبدوهم،  
والعبادة من صفات الرب (جلّ وعلا) وحده لا يُعبد سواه.

﴿وَمَا أُمْرُوا﴾ بما أمروا به من الدين ﴿إِلَّا﴾ لأجل أن يعبدوا  
الله وحده ﴿إِلَهًا وَحِدًا﴾ أي: معبوداً واحداً ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود  
بحق إلا هو وحده (جلّ وعلا) ﴿سُبْحٰنَهُ﴾ أي: تنزيهاً له أتم تنزيهه  
عما يشركونه به شرك ربوبية وشرك طاعة وشرك عبادة.

وهذه الآية من سورة براءة بيّن الله فيها أن النصارى واليهود  
مشركون كما أشرنا إليه سابقاً. وهذا معنى قوله: ﴿سُبْحٰنَهُ عَمَّا  
يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣١].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٣٢] قال  
بعض العلماء: نور الله هو هذا القرآن العظيم، وقد سمي الله هذا  
القرآن نوراً في آيات كثيرة كقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ  
وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: آية ١٥] ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بَرَهَنٌ  
مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا﴾ [النساء: آية ١٧٤] ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي  
بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ [الشورى: آية ٥٢] ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾  
[الأعراف: آية ١٥٧] ﴿وَالنُّورَ الَّذِي أُنزِلْنَا﴾ [التغابن: آية ٨] هو نور

(١) البيت لعروة بن حزام، وهو في ديوانه ص ٣١، فتح القدير (٢/٦٨)، ولفظ  
الشطرنج الثاني:

«لرحف الرهبان يمشي وزحل»

أضاء الله به كل شيء، وكل من لا يعلم أنه نور وأنه حق فإن ذلك إنما جاءه من قبل عماه؛ لأنه خفّاش أعمى، والأعمى لا يرى الشمس، وقد بين الله هذا في سورة الرعد في قوله: ﴿وَأَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَا هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: آية ١٩] فصرّح بأن الذي يمنعه من أن يعلم أنه الحق إنما هو عماه.

إذا لم يكن للمرء عينٌ بصيرة

فلا غرّوا أن يرتابَ والصبحُ مُسْفِرٌ<sup>(١)</sup>

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ يعني يذهبوا أدلة هذا القرآن العظيم ويبطلوها ويمنعوا إقامة أدلته وإظهاره للحق والدين.

﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ في قوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وجهان<sup>(٢)</sup>:

أحدهما: أن المراد أن إطفاءه بأفواههم هو تكذيبهم به وقولهم: إنه شعر أو سحر أو كهانة أو أساطير الأولين أو مكذوب على الله. فهذا إرادتهم تكذيبه وإبطاله بأفواههم بالقول الكاذب.

وقال بعضهم: شبه فعلهم بمن رأى نوراً مستضيئاً ملاً أقطار الدنيا وأراد أن ينفخه ليطفئه بنفخة؛ لأن النفخ يطفىء النور الضعيف، ولا يقدر على النور العظيم القوي. كأنه شبه إرادتهم لإطفائه بمن يريد أن ينفخ في نور عظيم ملاً الأرض ليطفئه بالنفخ،

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (٢١٣/١٤ - ٢١٤)، ابن كثير (٣٤٩/٢)، البحر المحيط

وهذا لا يمكن أبداً ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ ﴾ (جلّ وعلا) ﴿ إِلَّا أَنْ يُنْمِرَ نُورَهُ ﴾ .

للعلماء بحث لغوي في قوله: ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا ﴾ <sup>(١)</sup> قالوا: لأن الاستثناء يكون من نفي قبله، وهنا ليس فيه نفي، والإثبات لا يُستثنى منه، فلا تقول: ضربت إلا زيداً، وأكرمت إلا عمراً.

وأجاب بعض العلماء عن هذا بأن الإباء فيه معنى الامتناع، والامتناع مضمن معنى الجحد، هم يريدون كذا ولم يرد الله إلا أن يتم نوره. فهو في معنى النفي.

وقال بعض العلماء: هو متعلق بمحذوف: ويأبى الله كل شيء إلا إتمام نوره، فهذا وحده لا بد أن يقع.

ثم قال: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ <sup>(٣٣)</sup> فلو كره الكافرون إتمامه فهو متممه مهما كان.

﴿ هُوَ ﴾ أي: الله ﴿ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ [التوبة: ٣٣] هو محمد ﷺ .

﴿ بِالْهُدَى ﴾ قال بعض العلماء: الهدى أيضاً هو هذا القرآن؛ لأن الله يقول: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: آية ١٨٥] قالوا: ﴿ بِالْهُدَى ﴾ أي: بالقرآن الفارق بين الحق والباطل ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ هو دين الإسلام؛ الذي لا يقبل الله غيره ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: آية ١٩] ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: آية ٨٥] وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: آية ٣].

(١) انظر: الدر المصون (٦/٤٠).

﴿ لِيُظْهِرُوا عَلَى الدِّينِ كَلِمَةً ﴾ الضمير في قوله: ﴿ لِيُظْهِرُوا ﴾ فيه وجهان للعلماء<sup>(١)</sup>: قال بعضهم وهو مروى عن ابن عباس<sup>(٢)</sup>: الضمير عائد إلى النبي ﷺ. أي: أرسله بهذا الهدى ﴿ لِيُظْهِرُوا ﴾ ليطلعه على جميع الأديان فيبين لأهلها حقيقتها من باطلها، كما قدمناه في قوله: ﴿ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: آية ٤٨] ﴿ يُمَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [المائدة: آية ١٥] ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: آية ٩٣] وغير ذلك من الآيات أن النبي ﷺ علم من كتاب الله ما جاء في جميع الكتب المتقدمة.

القول الثاني: - وعليه الأكثر - أن الضمير للدين ﴿ لِيُظْهِرُوا ﴾ أي: ليظهر دين الإسلام، أي: يعليه على جميع الأديان كلها. وهذا الإعلاء يدخل فيه إظهاره بالحجة والبرهان، فبراهينه قاطعة، وحججه ساطعة لا شك فيه، وكتابه محفوظ، فلا شيء يوازيه ولا يشابهه.

قال بعض العلماء: ﴿ لِيُظْهِرُوا ﴾ أي: ينصره ويغلبه على جميع الأديان، وقد وفى الله بهذا فيما مضى، وسيفي به - أيضاً - في المستقبل؛ لأن الدين فيما مضى ظهر على جميع الأديان، وأدّل الدول الكبار العظيمة المعروفة، كالدولة الكسروية، والدولة القيصرية، لم يبق منهم إلا من هو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر، أو مسلم، وانتشر في أقطار الدنيا من شرقها وغربها، وظهر على كل الأديان، وأدّل أهلها، وسيأتي ذلك في آخر هذا الزمان أيضاً كما جاء في أحاديث صحيحة كثيرة أنه لا يبقى في آخر الزمان أحدٌ إلا كان

(١) انظر: ابن جرير (٢١٥/١٤)، القرطبي (١٢١/٨)، ابن كثير (٣٤٩/٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢١٥/١٤) من طريق علي بن أبي طلحة.

مسلماً<sup>(١)</sup>، ولم يكن في المعمورة غير دين الإسلام. وهذا معنى قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٣] إظهاره على الدين كله.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُفُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْزِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٣٥] يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْتُمْ تَكْزِبُونَ﴾ [٣٥] إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: الآيات ٣٤ - ٣٦].

قال الله (جلّ وعلا): ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُفُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْزِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٣٤] يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْتُمْ تَكْزِبُونَ﴾ [التوبة: الآيات ٣٤، ٣٥] لَمَا ذَكَرَ اللَّهُ (جلّ وعلا) أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا بَيْنَ أَنْ الرَّهْبَانِ وَالْأَحْبَارِ لَا يَنْبَغِي اتِّخَاذَهُمْ أَرْبَابًا؛ لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ فَجْرَةٌ غَيْرَ مُسْتَقِيمِينَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُفُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ

(١) ساق ابن كثير في تفسيره (٣٤٩/٢) كثيراً من هذه الأحاديث المشار إليها.

يَأْبَسِطِلُ ﴿٨٠﴾ أي: فكيف تتخذون هؤلاء أرباباً مع أن الإنسان لو اتخذ أشرف الأنبياء رباً أو أعظم الملائكة رباً لكان من كبار المشركين، أخرى من يتخذ الفجرة أرباباً ﴿٨١﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٢﴾ [آل عمران: الآية ٨٠] ﴿٨٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ... ﴿٨٤﴾ العلماء ﴿٨٥﴾ وَالرُّهْبَانَ ﴿٨٦﴾: المتعبدين في صوامعهم.

﴿٨٧﴾ لِيَأْكُلُونَ ﴿٨٨﴾ هذه أصلها لام الابتداء التي تزحلقها (إن) المكسورة عن المبتدأ إلى الخبر ﴿٨٩﴾ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ ﴿٩٠﴾ قال بعض العلماء: يأخذون الرُّشًا. وقال بعض العلماء: يأخذون من أتباعهم أموالاً باسم الدين ثم يأكلونها، قال بعضهم: يأخذون أموالاً باسم الكنيسة والبيعة ونحو ذلك مما يخيلون لأتباعهم أن أخذه من الدين ومرادهم الغرض الدنيوي<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿٩١﴾ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٩٢﴾ لأن من استشار الرهبان والأحبار من أتباعهم هل يأخذ دين الإسلام يمنعونهم من ذلك، ويصدونهم عن سبيل الله التي هي دين الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿٩٣﴾ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ... ﴿٩٤﴾ العرب تقول: «كنت الشيء» إذا جمعته وجعلت بعضه إلى بعض. وكثيراً ما يطلق على المال المجموع بعضه إلى بعض المدفون في الأرض، والكنز في اللغة يطلق على كل مجموع مضموم بعضه إلى بعض، ومنه: ناقة مكتنزة اللحم؛ لأن لحمها بعضه منضم إلى بعض. سواء كان في باطن الأرض أو على ظهرها<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: القرطبي (١٢٢/٨).

(٢) انظر: القرطبي (١٢٣/٨)، الدر المصون (٤٢/٦).

قال بعض العلماء: هذه في أهل الكتاب. قاله معاوية، واختلف معه أبو ذر (رحمه الله). كان أبو ذر في الشام فشكاه معاوية إلى عثمان فأشخصه عثمان إلى المدينة، وكان أبو ذر (رضي الله عنه) عنده مذهب معروف مخالف لجميع أقوال الصحابة يضيق في اقتناء المال، وكان (رضي الله عنه) يقول: إن الإنسان إذا ادخر شيئاً زائداً عن خَلَّتِهِ الضرورية فهو كثر يكوى به وجهه وظهره وجنبه، وكان يذكر هذا للناس، ومن أجل هذا أمره عثمان (رضي الله عنه) أيام خلافته أن يخرج إلى الربذة وتوفي بها (رضي الله عنه وأرضاه)<sup>(١)</sup>، وأبو ذر معذور؛ لأنه جاء النبي في أول الإسلام، وكان المسلمون في أول الإسلام فقراء ليس عندهم شيء، وكان التشديد في إمساك الذهب والفضة في ذلك الوقت عظيماً، فسمع من النبي شيئاً ورجع إلى أهله بالبادية، ثم أنزل الله فريضة الزكاة، وكثر المال واتسع الأمر، وزال التشديد، ولم يعلم (رضي الله عنه) بشيء من ذلك، فصار على التشديد الأول؛ لأنه سمعه من رسول الله ولم يسمع ما طرأ بعد ذلك. هذا قاله بعض الصحابة وهو الظاهر أنه الحق<sup>(٢)</sup>.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ رد الضمير هنا على الفضة ولم يقل: «ولا ينفقونها» وللعلماء في توجيهه في اللغة العربية أقوال<sup>(٣)</sup>، والتحقيق أن من أساليب اللغة

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب ما أدي زكاته فليس بكثر، حديث رقم:

(١٤٠٦)، (٢٧١/٣)، وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٤٦٦٠).

(٢) انظر: الأضواء (٤٣٤/٢).

(٣) انظر: الدر المصون (٤٢/٦).

العربية التي نزل بها القرآن رجوع الضمير على أحد المتعاطفين بـ (الواو) أو (الفاء) أو (أو)، وهو في (أو) أظهر اكتفاء ببعضهما؛ لأن الآخر مفهوم منه، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب<sup>(١)</sup>، فمن أمثله في القرآن: ﴿يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا...﴾ ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥] ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عُنُقَهُ﴾ [الأنفال: الآية ٢٠] ومن أمثله بـ (أو): ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا فِي يَدَيْهِ﴾ [النساء: آية ١١٢] ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: آية ١١] ومن رجوع الضمير إلى المتعاطفين بـ (أو) معاً قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: آية ١٣٥] ومثال إفراده في المتعاطفين بـ (الفاء): قول امرئ القيس<sup>(٢)</sup>:

فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمُها  
.....

فرده على أحدهما. وهو في العطف بـ (الواو) كالأية كثير جداً في كلام العرب، منه قول نابغة ذبيان<sup>(٣)</sup>:

وقد أراني ونُعماً لاهيين بها      والدهرُ والعيشُ لم يههم بإمرارٍ  
ولم يقل: «ولم يههما». ومنه قول حسان رضي الله عنه<sup>(٤)</sup>:

إن شَرخَ الشبابِ والشَّعرِ الأ      سَوَدَ ما لم يُعاصِ كان جُنُونًا  
وهو كثير في كلام العرب.

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٤) السابق.

وقوله: ﴿يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ التحقيق — إن شاء الله — الذي هو الصواب: أن كنز الفضة والذهب الذي يكوى به صاحبه هو ما منع فيه حق الله من الزكاة<sup>(١)</sup>، أما ما أدت زكاته، وأخرج حق الله الواجب فيه، فالباقي بعد هذا لا يُسمى كنزاً، وإن كان تحت الأرض، ولا يُكوى به صاحبه، هذا هو المذهب الحق — إن شاء الله — وأدلتها واضحة، وبراهينه ساطعة لا شك فيها؛ لأن الله أوجب في مال الإنسان من ذهبه أو فضته أو ماشيته أو ثماره وزروعه وكل ذلك أوجب فيه حقاً معيناً في أقدار معينة بينها رسول الله ﷺ، بين أنها هي الحق في مال الإنسان، وأن أخذها يطهر الإنسان ويطهر له ماله، فإذا أدى ما أوجبه الله عليه وأمره به فقد طهر هو وطهر ماله، ولم يبق فيه شيءٌ عليه تبعه؛ لأن الله لو كان يكوي به جنبه ووجهه وظهره فلا فائدة في دفع الزكاة إذا كان المال يلزم أن ينفقه كله، فلا وجه للزكاة ولا محل للموارث؛ لأن الفرائض والموارث التي نزل بها كتاب الله إنما هي في أموال تبقى بعد صاحبها، فالتحقيق الذي لا شك فيه — إن شاء الله — أن الكنز الذي يكوى به صاحبه هو ما منع فيه حق الله ولم يؤدّ زكاته، أما ما أدى زكاته وأعطى حق الله فيه فليس بكنز ولا يكوى به، فإن شاء أكثر من التطوع، وإن شاء أمسك لنفسه، والقدر الواجب أوجب الله أخذه معيناً بتحديد من رسوله ﷺ، ومما يوضح هذا قوله [لرسوله] <sup>(٢)</sup> ﷺ: ﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: آية ١٠٣] وهي الزكاة، فعرفنا أن أخذها يطهرهم ويزكيهم. وفي حديث ضمام بن ثعلبة لما أمره النبي بدعائم

(١) انظر: الأضواء (٢/٤٣١ — ٤٣٤).

(٢) ما بين المعقوفين [ زيادة يقتضيها السياق.

الإسلام، وذكر له فرض الزكاة، قال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا إلا أن تتطوع»<sup>(١)</sup>. فهذا هو الحق — إن شاء الله — أن ما أُديت زكاته ليس بكنز ولو تحت الأرض، وما لم تؤد زكاته فهو كنز يَكُوى به صاحبه وإن كان ظاهراً على وجه الأرض.

قال: ابن خويز منداد من المالكية: هذه الآية من سورة براءة تضمنت زكاة العين<sup>(٢)</sup>. يعني بالعين: النقدين، الذهب والفضة.

ونحن عادة في هذه الدروس إذا مررنا بآية من كتاب الله هي أصل باب من أبواب الفقه نتعرض إلى مسائله الكبار، ونبين عيونها ومسائلها التي لها أهمية، وهذه الآية الكريمة على التحقيق فيها كأنها تشير إلى الزكاة، وأن من لم يؤدها أنه يُكُوى بذلك المال الذي لم يؤد زكاته كما سيأتي في حديث مسلم.

اعلموا أن المسلمين أجمعوا على وجوب زكاة الفضة والذهب، وأن النبي ﷺ — لا خلاف بين العلماء من كافة المسلمين أنه — بين قدر نصاب الفضة وقدر الواجب فيها، فبين أن نصاب الفضة مئتا درهم شرعي، وأنها خمسة أواق، والأوقية: أربعون درهماً، وأن قدر الواجب منها: ربع العشر<sup>(٣)</sup>، هذا أمر لا شك فيه، أن مائتي درهم فيها زكاة يخرج منها ربع عشرها، وليس في أقل من مائتي درهم شرعي زكاة. والدرهم الشرعي: قال علماء المالكية بالتحديد: ينبغي أن يكون بوزن أهل مكة الأول المتعارف؛ لما ثبت

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأعراف.

(٢) نقله القرطبي (١٢٤/٨)، والشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٤٣٤/٢).

(٣) انظر: المدونة (١/٢٤٢ - ٢٤٤)، بدائع الصنائع (٢/١٦ - ١٨)، المغني

(٤/٢٠٩ - ٢١٣)، الأضواء (٢/٤٣٤ - ٤٣٥).

عن ابن عمر عند النسائي وأبي داود أن النبي ﷺ قال: «المكيال مكيال أهل المدينة، والوزن وزن أهل مكة»<sup>(١)</sup> فالخمسة الأوسق تعرف بصاع النبي ﷺ في المدينة، ومائتا درهم — نصاب الفضة — تعرف بالوزن الذي كان معروفاً عند أهل مكة.

وقد حرر علماء المالكية الأمرين<sup>(٢)</sup> وقالوا: إن الدرهم المكي الشرعي وزنه خمسون وخمسا حبة من مطلق الشعير. هكذا الذي يقولون، وزاد بعضهم: سُبُع الحبة. والتحقيق عندهم هو هذا، فإذا كان عند الإنسان مائتا درهم شرعية فإنه يجب عليه زكاتها وإخراج ربع عشرها كما هو معلوم، وهذا لا نزاع فيه بين العلماء. وكل درهم ستة دوانق، وكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل، وأربعون درهماً هي الأوقية. وهذا معروف لا نزاع فيه.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب البيوع، باب قول النبي ﷺ: «المكيال مكيال أهل المدينة»، رقم: (٣٣٢٤)، (١٨٨/٩)، والنسائي في كتاب الزكاة، باب كم الصاع، رقم: (٢٥٢٠)، (٥٤/٥)، في كتاب البيوع، باب الرجحان في الوزن، رقم: (٤٥٩٤)، (٢٨٤/٧)، والطبراني في الكبير (١٣٤٤٩)، والبيهقي (٣١/٦)، كلهم من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين، عن سفيان عن حنظلة عن طاووس عن ابن عمر.

وأخرجه أبو عبيد في الأموال (١٦٠٧)، ومن طريقه البغوي (٢٠٦٣) عن أبي المنذر إسماعيل بن عمر عن سفيان به، وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٩٩/٢) من طريق الفريابي عن سفيان به.

وأخرجه ابن حبان (٣٢٨٣) من طريق أبي أحمد الزبيري عن سفيان فخالف من تقدم في متن الحديث وإسناده. انظر: الإرواء (١٣٤٢)، (١٩١/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الأنعام.

وأكثر العلماء على أن الفضة لا وقص فيها<sup>(١)</sup>، فإذا كانت عنده مائتا درهم أخرج ربع عشرها، وكل ما زاد فبحسابه. وقال بعض العلماء: إذا زاد عن مائتي درهم لم يكن عليه شيء حتى يبلغ الأربعين درهماً.

أما الذهب فقد ذكر بعض العلماء أنه لم يثبت فيه تحديد من النبي ﷺ لا في نصابه ولا في المُخرج منه<sup>(٢)</sup>، وهذا مروى عن الشافعي، وقاله ابن عبد البر، وبالغ ابن حزم في نصره، أن النبي لم يثبت عنه شيء في تحديد نصاب الذهب ولا في قدر المخرج منه. والتحقيق أن النبي ﷺ ثبت عنه قدر نصاب الذهب وقدر المخرج منه، وأن نصاب الذهب عشرون ديناراً ليس فيما دونها صدقة، وأن في الذهب مثل ما في الفضة ربع العشر.

اعلموا أولاً أن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين كل واحد منها قد دلّ على أن الزكاة تجب في الذهب، وقد دلّ عليه القرآن في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾ الآية [التوبة: آية ٣٤]. ودلت عليه السنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يخرج منهما حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفحت له صفائح من نار فأحمي عليها فيكوى بها جنبه وظهره ووجهه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، كلما بردت أُعيدت فأحمي عليها حتى يقضي الله بين العباد فيرى سبيله إمّا

(١) انظر: الأضواء (٢/٤٣٦).

(٢) انظر: الأم للشافعي (٤/٤٠)، الاستذكار لابن عبد البر (٩/٣٤)، المحلى

(٦/٦٦)، الأضواء (٢/٤٣٨).

إلى الجنة وإما إلى النار»<sup>(١)</sup> فهذا نص صحيح ثابت في صحيح مسلم أن الذهب تجب فيه الزكاة، وأن من لم يؤد زكاته يكوى به يوم القيامة، ويُصفح له صفائح من نار. إذا عرفتم أن أصل زكاة الذهب واجبة بالكتاب والسنة والإجماع، فبيان تحديد النصاب وقدر المخرج منه كأنه بيان لإجمال من كتاب الله، وقد جاء عن النبي ﷺ ما يبين هذا الإجمال ويوضحه، ويُعيّن قدر نصاب الذهب، وقدر الواجب إخراجه فيه، وهو ما رواه أبو داود في سننه من طريق أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة السلولي والحارث الأعور الهمداني عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال ما معناه: «إن في عشرين ديناراً من الذهب نصف دينار»<sup>(٢)</sup>. وهذا بعينه تحديد النصاب بعشرين ديناراً، وتحديد الواجب فيه بربع العشر، هذا الحديث رواه أبو داود وسكت عنه. ومعروف أن كثيراً من العلماء ناقشوا في هذا الحديث وضعفوه بالحارث الأعور، وقالوا: وعاصم بن ضمرة السلولي ضعيف أيضاً، فضعفوا هذا الحديث. ونحن نقول<sup>(٣)</sup>: إن هذا الحديث عند المناقشة الصادقة ليس بضعيف، وأن الحارث الأعور وإن كان ضعيفاً عند قوم — وإن وثقه

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٨٩/٤)، وأبو داود في الزكاة، باب في زكاة السائمة، حديث رقم: (١٥٥٧، ١٥٥٨)، (٤/٤٤٤، ٤٤٧)، مع تردد بعض رواه — عند أبي داود — في رفعه.

وأخرجه ابن أبي شيبة (١١٩/٣)، وأبو عبيد في الأموال ص ٣٦٩ موقوفاً على علي (رضي الله عنه).

وانظر: الاستذكار (٢١/٩، ٣٤)، التلخيص (١٧٣/٢)، الإرواء (٢٩١/٣).

(٣) انظر: الأضواء (٤٣٨/٢ — ٤٤٢).

ابن المديني وغيره<sup>(١)</sup> - فقد ضعفه أكثر العلماء. أما عاصم بن ضمرة فالتحقيق أنه صدوق أثني عليه غير واحد، وهو لا بأس به، فروايته

(١) العبارة غير منضبطة من حيث المعنى كما ترى، ولعل الشيخ أراد أن يقول: «وإن كذبه ابن المديني وغيره...» فسبق لسانه إلى ذلك، لأن ابن المديني كذب الحارث الأعور كما نقل ذلك الذهبي في الميزان (١/٤٣٥)، ويدل على ذلك ما ذكره الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٢/٤٣٩)، والحارث الأعور كذبه كذلك: الشعبي وأبو إسحاق السبيعي، وأبو خثيمة وذكر إبراهيم النخعي أنه أثمهم، وقال أبو بكر بن عياش: «لم يكن الحارث بأرضاهم، كان غيره أَرْضَى منه، قال: وكانوا يقولون: إنه صاحب كتب كذاب». اهـ، وقال جرير: «كان الحارث الأعور زيفاً». اهـ، وعن مغيرة: «لم يكن الحارث يصدق عن علي في الحديث». اهـ، وقال ابن حبان: «كان الحارث غالباً في التشيع واهياً في الحديث». اهـ، وضعفه الدارقطني، وقال ابن عدي: «عامه ما يرويه غير محفوظ». اهـ، وترك الاحتجاج به أبو زرعة وأبو حاتم وابن مهدي، وابن معين ضعفه، ومرة قال: «ليس به بأس». اهـ، وقال مرة: «ما زال المحدثون يقبلون حديثه». اهـ، وقال مرة: «ثقة»، وتعقبه عثمان الدارمي بقوله: «ليس يتابع يحيى على هذا». اهـ، وكذا النسائي قال مرة: «ليس بالقوي»، وقال مرة: «ليس به بأس»، وقال ابن سيرين: «أدركت الكوفة وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث الأعور نثي بعبدة، ومن بدأ بعبدة نثي بالحارث». اهـ، وقال: «كان أصحاب ابن مسعود خمسة يُؤخذ عنهم، أدركت منهم أربعة وفاتني الحارث فلم أراه وكان يُفضل عليهم». اهـ، وعن سفيان: «كنا نعرف فضل حديث عاصم بن ضمرة على حديث الحارث». اهـ، وقال فيه الذهبي: «من كبار علماء التابعين على ضعف فيه». اهـ، وقال: «والجمهور على توهين أمره مع روايتهم لحديثه في الأبواب». اهـ، وقد نقل الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٢/٥٦) قول بعض من رماه بالكذب ولم ينقل عن أحد توثيقه، فقول الشيخ (رحمه الله) هنا: «فقد ضعفه أكثر العلماء». اهـ، في محله، وإنما توسعت في هذا التعليق لأن عبارة الشيخ هذه أيضاً لربما توهم القارئ أنها من سبق اللسان وليست كذلك.

محتج بها وهي معتضة بأشياء عديدة تقوم بها الرواية الضعيفة أخرى التي هي غير ضعيفة؛ لأن روايته معتضة برواية الحارث الأعور، وهو يُقبل في المتابعات والشواهد، ومعتضة بإجماع المسلمين على مقتضاه؛ لأن هذا الحديث أجمع على مقتضاه عامة المسلمين ولم يخالف منهم أحد إلا شيء يروى عن داود الظاهري وبعض أتباعه، أما فقهاء الأمصار والصحابة والأئمة الأربعة وأصحابهم وكافة العلماء المعروفين لم يخالف أحد منهم في أن نصاب الذهب عشرون ديناراً، وأن الواجب فيه ربع العُشر كالفضة، ورُوي عن الحسن البصري أن نصابه أربعون<sup>(١)</sup>، وعن طاووس أنه يقاس بالفضة، فما بلغ من الذهب قيمة مائتي درهم كانت فيه الزكاة، وما دون ذلك فلا<sup>(٢)</sup>. وهذا لا يكاد يلتفت إليه لكثرة من خالفه من أجلاء العلماء من الصحابة فمن بعدهم. فحديث عاصم بن ضمرة حجة، وهو معتضد برواية الحارث الأعور، وإجماع المسلمين، وهذا إنما هو بيان لأمر ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنه واجب، ومعلوم أن البيان إرشاد

(١) أخرج عبد الرزاق في المصنف (٤/٨٩)، وابن أبي شيبة (٣/١١٨)، وابن عبد البر في الاستذكار (٩/٢٥) عن الحسن: «ما زاد على المائتين فلا يؤخذ منه شيء حتى يبلغ أربعين»، وجاء عنه رواية ثانية نقلها النووي في المجموع (٦/١٧) أنه لا زكاة فيما هو دون أربعين مثقالاً لا تساوي مائتي درهم.

(٢) أخرج عبد الرزاق (٤/٩٢)، وابن عبد البر في الاستذكار (٩/٢٤) عن طاووس قال: «إذا زادت الدراهم على مائتي درهم فلا شيء فيها حتى تبلغ أربعمائة درهم»، قال في المغني (٤/٢١٢ - ٢١٣): «وقال عامة الفقهاء: نصاب الذهب عشرون مثقالاً من غير اعتبار حقيقتها، إلا ما حُكي عن عطاء وطاووس والزهري... أنهم قالوا: هو معتبر بالفضة، فما كان قيمته مائتي درهم ففيه الزكاة وإلا فلا؛ لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ تقدير في نصابه». اهـ.

ودلالة، وهو يصح في كل شيء يجلو الجهالة والإجمال.

وهذا هو التحقيق - إن شاء الله - أن نصاب الذهب عشرون مثقالاً، وأن الواجب فيها ربع العشر، وأنه لا وقص فيه فما زاد فبحسابه.

فإن كان عنده بعض النصاب من الذهب وبعضه من الفضة فهل يضم الفضة للذهب<sup>(١)</sup>؟ ليس في ذلك نص عن رسول الله ﷺ، وأنظار العلماء اختلفت فيه، فذهب بعض العلماء إلى أنه لا يضم الذهب إلى الفضة ولا الفضة إلى الذهب في الزكاة، وتوقف في هذا الإمام أحمد بن حنبل في رواية الأثرم، وقطع في رواية حنبل أنه لا يضم أحدهما إلى الآخر<sup>(٢)</sup>. فمن كانت عنده عشرة مثاقيل ومائة درهم لا زكاة عليه على هذا، وبهذا قال الإمام الشافعي وأكثر أصحابه في طائفة كثيرة من العلماء. وقال مالك بن أنس وأصحابه: يضم الذهب إلى الفضة فيكون النصاب منهما معاً. وهو مروى عن أبي حنيفة (رحمة الله) على الجميع. وعلى هذا فلو كان عنده مائة درهم وعشرة دنانير وجبت عليه الزكاة، فأخرج من الدنانير ربع عشرها، ومن الدراهم ربع عشرها وهكذا.

واعلموا أن من توابع هذه المسألة أشياء اختلف فيها العلماء سنذكر طرفاً منها، من ذلك: إذا كان الذهب والفضة حلياً مصوغاً مباحاً تترين به النساء، هل تجب فيه الزكاة أو لا<sup>(٣)</sup>؟ اختلف فيه

(١) انظر: الاستذكار (٤٠/٩)، المبسوط (١٩٢/٢)، المجموع (١٨/٦)، المغني (٢١٠/٤)، الأضواء (٤٤٤/٢).

(٢) انظر: المغني (٢١٠/٤).

(٣) انظر: الاستذكار (٦٦/٩)، المبسوط (١٩٢/٢)، المجموع (٣٢/٦)، المغني (٢٢٠/٤)، الأضواء (٤٤٥/٢).

العلماء وفقهاء الأمصار والصحابة فمن بعدهم، فذهب كثير من العلماء إلى أنه لا زكاة في الحلبي المباح، منهم مالك والشافعي وأحمد وأصحابهما وخلق لا يحصى من الصحابة فمن بعدهم. وذهب آخرون إلى أن الحلبي المباح تجب فيه الزكاة، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وخلق من الصحابة فمن بعدهم. واحتج كل بحجج، أما الذين قالوا: لا تجب فيه الزكاة فإنما احتجوا بحديث جاء في ذلك وآثار عن الصحابة، واحتجوا بوضع اللغة، أما الحديث الذي جاء في ذلك هو حديث رواه البيهقي في كتاب معرفة السنن والآثار، رواه من طريق عافية بن أيوب عن الليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أن النبي ﷺ قال: «لا زكاة في حلبي»<sup>(١)</sup>.

هذا الحديث قال الآخرون: لا يجوز الاحتجاج به؛ لأن عافية بن أيوب مجهول وغالى البيهقي (رحمه الله) فقال: إن العمل بحديث عافية هذا من جنس العمل بأحاديث الكذابين.

ونحن نقول: إن هذه مغالاة منه (رحمه الله)؛ لأن عافية بن أيوب لم يقل فيه أحد إنه كذاب، وغاية ما في الباب أن البيهقي ظن أنه مجهول، وقد وثقه غير البيهقي، فقد نقل ابن أبي حاتم في كتاب

(١) البيهقي في المعرفة (٢٩٨/٣)، وقال: «لا أصل له مرفوعاً، إنما يُروى عن جابر من قوله غير مرفوع». اهـ، وقد رواه الشافعي في الأم (٤١/٢)، وعبد الرزاق (٨٢/٤)، وأبو عبيد في الأموال ص ٣٩٩، والدارقطني (١٠٧/٢)، والبيهقي في السنن (١٣٨/٤) موقوفاً على جابر (رضي الله عنه)، وانظر: تنقيح التحقيق (١٤٢٠/٢)، نصب الراية (٣٧٤/٢)، الإرواء (٢٩٤/٣)، الأضواء (٤٤٦/٢).

الجرح والتعديل عن أبي زرعة أنه وثق عافية بن أيوب هذا وقال: لا بأس به<sup>(١)</sup>. وقال ابن الجوزي في جرحه وتعديله: لا أعلم فيه قادحاً ولا جرحاً<sup>(٢)</sup>. فدعوى أنه من الكذابين ليس بصحيح.

واحتجوا بأثار من الصحابة كثيرة؛ لأنه جاءت آثار عن الصحابة أنهم لا يخرجون زكاة الحلبي، وهو ثابت عن عائشة<sup>(٣)</sup> وابن عمر<sup>(٤)</sup> وجماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) واحتجوا بالقياس، ومعلوم أن القياس يستعمل مع النص إذا كان لتعضيد النص لا ليخالفه؛ لأن النصوص لا مانع من اعتضاد بعضها بعضاً، وقد تقرر في الأصول<sup>(٥)</sup> أن النص الذي يوافق<sup>(٦)</sup> [القياس مقدم في حال الترجيح].

النوع الثاني من القياس: وهو المعروف عندهم بـ (قياس العكس)، وقياس العكس قال جماعة من الأصوليين: يُحتج به،

(١) الجرح والتعديل (٤٤/٧).

(٢) قال ابن الجوزي في كتاب التحقيق (٤٣/٢)، وهو في «تنقيح التحقيق» (١٤٢١): «ما عرفنا أحداً طعن فيه». اهـ.

(٣) أخرجه البيهقي في المعرفة (٢٩٣/٣)، وفي السنن الكبرى (١٣٨/٤).

(٤) أخرجه البيهقي في المعرفة (٢٩٣/٣)، وفي السنن الكبرى (١٣٨/٤).

(٥) انظر: شرح الكوكب المنير (٦٩٥/٤)، الأضواء (٤٥٠/٢).

(٦) في هذا الموضوع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام. قال في الأضواء (٤٤٨/٢): «وأما القياس فمن وجهين: الأول: أن الحلبي لما كان لمجرد الاستعمال لا للتجارة والتنمية ألحق بغيره من الأحجار النفيسة كاللؤلؤ والمرجان، بجامع أن كلاً مُعَدَّ للاستعمال لا للتنمية، وقد أشار إلى هذا الإلحاق مالك - رحمه الله - في [الموطأ] بقوله: فأما التبر والحلي المكسور الذي يريد أهله إصلاحه ولبسه فإنما هو بمنزلة المتاع الذي يكون عند أهله، فليس على أهله فيه زكاة، قال مالك: ليس في اللؤلؤ ولا في المسك والعنبر زكاة».

وأبى الاحتجاج به جماعة آخرون<sup>(١)</sup>. وقياس العكس قد نبه عليه النبي ﷺ في الحديث الثابت في صحيح مسلم؛ لأنه ﷺ لما قال: «وفي بضع أحدكم أجر» قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟»<sup>(٢)</sup> فهذا قياس عكس، وهو إعطاء حكم عكس حكم لتعاكسهما في العلة<sup>(٣)</sup>.

قالوا: وكذلك هنا في الحلبي المباح، فإن العروض لا تجب الزكاة في عينها، فإذا كانت للتجارة وجبت الزكاة في عينها، عكس الذهب والفضة، فإن الزكاة في عينها، فإذا انقطع عنها اسم النماء والتجارة صارت لا زكاة فيها، من قياس العكس.

ومن أمثلة قياس العكس عند المالكية مما اختلفوا مع غيرهم في القيء هل ينقض الوضوء أو لا؟ قالوا: لا ينقض الوضوء كثير القيء، قياساً على قليل القيء، عكس البول، فإنه لما انتقض الوضوء بقليله انتقض بكثيره. ومن أمثلة قياس العكس عند الحنفية قولهم: لا قصاص في القتل بكبير المثل، كعمود الحديد والصخرة، قياساً على صغير المثل، كالقضيبي الذي لا قصاص في الضرب به، عكس المحدد، فإنه لما وجب القصاص في قليله وجب في كثيره. هذا هو غالب حجة أهل هذا القول الذين قالوا: لا زكاة في الحلبي.

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٤/٢١٩)، وانظر الكلام على هذا القياس مع الأمثلة والتطبيقات المذكورة في: الأضواء (٢/٤٤٩ - ٤٥٠).

(٢) مسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع معروف، حديث رقم: (١٠٠٦)، (٢/٦٩٧)، من حديث أبي ذر (رضي الله عنه).

(٣) انظر: الأضواء (٢/٤٤٩).

أما الذين قالوا: تجب في الحلبي المباح زكاة فاحتجوا أيضاً بأحاديث جاءت عن النبي ﷺ، وبآثار عن السلف، وبوضع اللغة، وبالقياس أيضاً<sup>(١)</sup>.

أما وضع اللغة من حجة الأولين فقولهم: إنه ﷺ قال: «وفي الرقة<sup>(٢)</sup> ربع العشر»<sup>(٣)</sup> وقال: «ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة»<sup>(٤)</sup>. قالوا: والورق لا تطلق إلا على الدراهم المنقوشة، ولا تطلق على الحلبي. هذا من حجة الأولين بالوضع اللغوي.

وأما الذين قالوا: تجب الزكاة فيه فاحتجوا أيضاً بأحاديث جاءت عن النبي ﷺ، وآثار عن السلف، وبالقياس، وبوضع اللغة أيضاً.

(١) انظر: الأضواء (٢/٤٥١).

(٢) قال في الأضواء (٢/٤٥٠): «قال أبو عبيد: الرقة عند العرب: الورق المنقوشة ذات السكة السائرة بين الناس، ولا تطلقها العرب على المصوغ، وكذلك قيل في الأوقية، قال مقيده - عفا الله عنه - : ما قاله أبو عبيد هو المعروف في كلام العرب، قال الجوهري في صحاحه: الورق: الدراهم المضروبة، وكذلك الرقة، والهاء عوض عن الواو، وفي القاموس: الورق - مثلثة، وككتف - : الدراهم المضروبة، وجمعه أوراق ووراق كالرقة». اهـ.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة، باب زكاة الغنم، حديث رقم: (١٤٥٤)، (٣/٣١٧ - ٣١٨).

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة، باب ليس فيما دون خمس ذود صدقة، حديث رقم: (١٤٥٩)، (٣/٣٢٢)، وأخرجه في موضع آخر. انظر رقم: (١٤٨٤)، ومسلم في الزكاة، حديث رقم: (٩٧٩)، (٢/٦٧٣)، من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)، وأخرجه مسلم أيضاً من حديث جابر (رضي الله عنه) في الزكاة، حديث رقم: (٩٨٠)، (٢/٦٧٥).

ومن الأحاديث الدالة على ذلك: ما رواه أبو داود والنسائي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - وجده: هو عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) - أن النبي ﷺ دخلت عليه امرأة ومعها ابنتها، وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب - يعني سوارين من ذهب - فقال لها: «أتؤدين زكاة هذا؟» فقالت: لا. فقال: «أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟!» فخلعتهما فقالت: هما لله ولرسوله<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٥٣/٣)، وعبد الرزاق (٨٥/٤ - ٨٦)، وأحمد (١٧٨/٢)، وأبو عبيد في الأموال ص ٣٩٧، وابن زنجويه في الأموال (٩٧٣/٣)، وأبو داود في الزكاة، باب الكنز ما هو؟ وزكاة الحلبي، حديث رقم: (١٥٤٨)، (٤٢٥/٤)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة الحلبي، حديث رقم: (٦٣٧)، (٢٠/٣ - ٢١)، وعقبه بقوله: «وهذا حديث قد رواه المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب نحو هذا، والمثنى بن الصباح وابن لهيعة يضعفان في الحديث، ولا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء». اهـ، وقال ص ٢٠: «وقد روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه رأى في الحلبي زكاة، وفي هذا الحديث مقال». اهـ، والنسائي في الصغرى، في الزكاة، باب زكاة الحلبي، حديث رقم: (٢٤٧٩، ٢٤٨٠)، (٣٨/٥) وفي الكبرى، في الزكاة، باب زكاة الحلبي، حديث رقم: (٢٢٥٨، ٢٢٥٩)، (١٩/٢)، والبيهقي في الكبرى (١٤٠/٤)، وابن حزم في المحلى (٧٨/٦) وأشار لضعفه، (بعضهم يرويه مرسلاً وبعضهم موصولاً)، وقد ذكر له ابن الجوزي في التحقيق أربع طرق، وقد أعلها ابن عبد الهادي في التنقيح (١٤٢٥/٢) جميعاً، وقال الحافظ في الدراية (٢٥٨/١): «صححه ابن القطان، وقال المنذري: لا علة له، قلت: أبدى له النسائي علة غير قادحة». اهـ، إلى أن قال: «وروى أحمد وابن أبي شيبة والترمذي من طريق المثنى بن الصباح وابن لهيعة وهما ضعيفان...». اهـ، وانظر: نصب الراية (٣٧٠/٢ - ٣٧١)، =

هذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . والتحقيق أن رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - مع ما فيها من الكلام - أنها يصح الاحتجاج بها، وأنها ليست بضعيفة . وقال الترمذي في هذا الحديث: لم يرد من طريق صحيحة<sup>(١)</sup> وذكره من طرق كلها ضعيفة، ولم يطلع على رواية حسين المعلم له .

والتحقيق أنه جاء من رواية أقل درجاتها الحسن، فلا شك في الاحتجاج بهذا الحديث من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وهذا روي أيضاً عن غيرها . وقد أخرج أبو داود في سننه أيضاً عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها كانت تلبس أوصاحاً من ذهب، فسألت رسول الله فقالت: أكنز هو يا رسول الله؟ قال: «ما بلغ أن تُؤدى زكاته فأديت زكاته ليس بكنز»<sup>(٢)</sup> فهذا يدل على أن الأوصاح التي تتزين بها

= وقال في الإرواء (٢٩٦/٣): «وإسناده إلى عمرو عند أبي داود والنسائي وأبي عبيد جيد». اهـ، وانظر: آداب الزفاف ص ٢٥٦، صحيح أبي داود (٢٩١/١)، صحيح النسائي (٥٢٣/٢).

(١) سنن الترمذي (٢٠/٣، ٢١).

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب الكنز ما هو؟ وزكاة الحلبي، حديث رقم:

(١٥٤٩)، (٤٢٦/٤)، والدارقطني (١٠٥/٢)، والبيهقي في الكبرى

(١٤٠/٤)، وعقبه بقوله: «وهذا يتفرد به ثابت بن عجلان». اهـ، وفي الصغرى

(٣٢٥/١ - ٣٢٦)، والحاكم (٣٩٠/١)، وقال: «صحيح على شرط

البخاري». اهـ، ووافقه الذهبي، وأخرجه الطوسي في مستخرجه على الترمذي

(٢٢٨/٣) وقال: «هذا حديث حسن». اهـ، وذكره ابن حزم في المحلى

(٧٩/٦) وعقبه بقوله: «عتاب مجهول». اهـ، وانظر: تنقيح التحقيق

(١٤٢٣/٢، ١٤٢٦)، نصب الراية (٣٧١/٢)، وقد حسن الألباني أحد طرقه

في التعليق على المشكاة (٥٦٨/١)، وصحيح أبي داود (٢٩١/١).

من حليها أن فيها الزكاة. ويعتضد هذا بحديث عائشة (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ دخل عليها وفي يدها فتحات من فضة – والفتحات: نوع من الخواتم لا فصوص له، وقد يكون في أصابع اليد، وقد يُجعل في أصابع الرجل – فقال: «ما هذه؟» قالت: فقلت: شيء صنعته لأتزين لك به! فقال: «أتؤدين زكاتها؟» قالت: لا، قال: «هو حسبك من النار»<sup>(١)</sup>.

واستدلوا أيضاً بحديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: دخلت على رسول الله ﷺ أنا وخالتي، وعلينا أساور من ذهب، فقال: «أتؤديان زكاة هذا؟» فقلنا: لا. فقال: «أديا زكاته، أيسر كما أن تسوّرا بهما سوارين من نار يوم القيامة؟»<sup>(٢)</sup>. فهذه أربعة من

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي، حديث رقم: (١٥٥٠، ١٥٥١)، والدارقطني (١٠٥/٢) وقال: «محمد بن عطاء مجهول». اهـ، والبيهقي في الكبرى (٤/١٣٩ - ١٤٠)، وفي الصغرى (١/٣٢٦)، وعقبه بقوله: «وهذا إسناد حسن». اهـ، والحاكم (١/٣٨٩)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». اهـ، وابن زنجويه في الأموال (٣/٩٧٣ - ٩٧٤)، وذكره ابن حزم في المحلى (٦/٧٩)، وقال: «يحيى بن أيوب ضعيف». اهـ.

وقال الحافظ في التلخيص (٢/١٧٨): «وإسناده على شرط الصحيح». اهـ، وصححه الألباني في الإرواء (٣/٢٩٧)، صحيح أبي داود (١/٢٩١). وانظر الكلام على الحديث في: تنقيح التحقيق (٢/١٤٢٣، ١٤٢٧)، نصب الراية (٢/٣٧١).

(٢) أخرجه أحمد (٦/٤٦١)، والبيهقي (٤/١٤١)، وقد أعله ابن عبد الهادي في التنقيح (٢/١٤٢٣، ١٤٢٦) بشهر بن حوشب، وعبد الله بن عثمان بن خثيم، وعلي بن عاصم، وقال الحافظ في الدراية (١/٢٥٩): «وفي إسناده مقال». اهـ، وانظر: نصب الراية (٢/٣٧٢).

أصحاب رسول الله يروون عنه وجوب الزكاة في الحلبي: ابن عمرو بن العاص، وأم سلمة، وعائشة، وأسماء بنت يزيد، وعضدوا هذا أيضاً بالقياس. وورد فيه آثار عن الصحابة أيضاً، كان عبد الله بن عمرو بن العاص يأمر خازنه أن يُخرج زكاة حلبي بناته<sup>(١)</sup>.

واستدلوا بالقياس، قالوا: تجب الزكاة في الذهب والفضة في المصوغ منهما كما جازت في المسكوك والمسبوك، بجامع أن الكل أصله من ذهب وفضة، أصله من عين وجبت فيها الزكاة.

واحتجوا بوضع اللغة، قالوا: إن أصل الحلبي المصوغ أصله يقال له ذهب وفضة، والصنعة لا تُذهب حكم الأصل، ولا تنقل اسمه من كل الوجوه.

هذا حاصل ما احتج به هؤلاء، وما احتج به هؤلاء، ومعلوم أن العقول إذا ازدحمت في مثل هذا وتشابهت الأدلة أن النبي ﷺ ألقى على مثل هذا أنواراً نبوية وأضواء عظيمة من ضوء النبوة تبين المخرج الصحيح منه، وهو قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»<sup>(٢)</sup>،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣/١٥٤)، وعبد الرزاق (٤/٨٤)، وأبو عبيد في الأموال ص ٣٩٨، ٤٤٥، والدارقطني (٢/١٠٧)، والبيهقي في الكبرى (٤/١٣٩)، وابن زنجويه في الأموال (٣/٩٧٥)، وانظر: نصب الراية (٢/٣٧٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٣/١١٧ - ١١٨)، والطيالسي ص ١٦٣، والدارمي (٢/١٦١)، وأحمد (١/٢٠٠)، والترمذي في أبواب صفة القيامة، باب (٦٠)، حديث رقم: (٢٥١٨)، (٤/٦٦٨)، والنسائي في الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات، حديث رقم: (٥٧١١)، (٨/٣٢٧)، والحاكم (٢/١٣)، (٤/٩٩)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». اهـ، وابن حبان (الإحسان ٢/٥٢)، والطبراني (٣/٧٥ - ٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٢٦٤)، =

«فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»<sup>(١)</sup> فلا ينبغي للإنسان إلا أن يزكي حلي امرأته وبناته للخروج من عهدة التكليف؛ لأن من زكاه لقي الله سالماً منه بلا نزاع، ومن [لم يزكه]<sup>(٢)</sup> كان في قيل وقال، جماعة يقولون: لا عليك، وجماعة يقولون: إن زكاة الحلي واجب.

ومما يدخل تحت هذه المسألة: زكاة العروض المعدة للبيع والشراء<sup>(٣)</sup>. أجمع عامة علماء المسلمين على أن عروض التجارة

= وأبو يعلى (١٢/١٣٢)، من حديث الحسن بن علي (رضي الله عنهما)، وصححه الألباني في الإرواء (٧/١٥٥)، غاية المرام ص ١٣٠ - ١٣١، المشكاة (٢/٨٤٥)، صحيح الترمذي (٢/٣٠٩)، ظلال الجنة ص ١٧٩. وللحديث شاهد من حديث وائلة بن الأسقع (رضي الله عنه) عند أبي يعلى (١٣/٤٧٦)، والطبراني (٢٢/٧٨)، وقال في المجمع (١٠/٢٩٤): «وفيه عبيد بن القاسم وهو متروك». اهـ.

ومن حديث أنس (رضي الله عنه) (موقوفاً) عند أحمد (٣/١١٢، ١٥٣). ومن حديث ابن عمر عند الطبراني في الصغير (١/١٠٢) وعقبه بقوله: «تفرد به عبد الله بن أبي رومان». اهـ، قال الألباني في الإرواء (٧/١٥٦) وهو ضعيف، «وبقية رجاله ثقات». اهـ، وذكره الخطيب في التاريخ (٢/٢٢٠)، (٦/٣٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/٣٥٢)، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٤/٢٩٧٤): موضوع.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم: (٥٢)، (١/١٢٦)، وأخرجه في موضع آخر برقم: (٢٠٥١)، ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم: (١٥٩٩)، (٣/١٢١٩).

(٢) في الأصل: «زكاه»، وهو سبق لسان.

(٣) انظر: المبسوط (٢/١٩٠)، المحلى (٦/١١٤)، المجموع (٦/٤٧)، المغني (٤/٢٤٩ - ٢٦٢)، الموسوعة الفقهية (٢٣/٢٦٨)، الأضواء (٢/٤٥٧).

تجب فيها الزكاة، وأنها تُزكى مثل زكاة العين، تُقَوَّم عند الحول، ما يُشترى منها بالذهب يُقَوَّم بالذهب، وما يُشترى بالفضة يُقَوَّم بالفضة. قال هذا بعض العلماء، ثم يخرج ربع عشرها، وهذا لا نعلم خلافاً فيه إلا شيء يُروى عن داود الظاهري وبعض أتباعه<sup>(١)</sup>. وأما عامة الصحابة، وفقهاء الأمصار، ومنهم الأئمة الأربعة، وأتباعهم، على وجوب الزكاة في عروض التجارة، واستدلوا لذلك بأدلة منها أحاديث جاءت بذلك عن النبي ﷺ منها: ما أخرجه الحاكم بإسنادين وقال: «كلاهما صحيح على شرط الشيخين» وأخرجه الدارقطني والبيهقي أن النبي ﷺ قال: «في الإبل صدقتها، وفي الغنم صدقتها، وفي البقر صدقتها، وفي البزِّ صدقتها»<sup>(٢)</sup> والبز: يشمل جميع ما يُلبس وهذه من

(١) انظر: المحلى (١١٤/٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢١٣/٣)، وأحمد (١٧٩/٥)، والترمذي في العلل الكبرى (٣٠٧/١)، وعقبه بقوله: «سألت محمداً عن هذا الحديث فقال: ابن جريج لم يسمع من عمران بن أبي أنس، يقول: حَدَّثْتُ عن عمران بن أبي أنس». اهـ، وابن زنجويه في الأموال (٧٨٣/٢)، والبزار (٣٤٠/٩)، والبيهقي (١٤٧/٤)، والحاكم (٣٨٨/١)، وقال: «على شرط الشيخين ولم يخرجاه». اهـ، وتعقبه ابن عبد الهادي في التنقيح (١٤٣٨/٢) بقوله: «وفيه نظر». اهـ، وأخرجه الدارقطني (١٠١/٢ - ١٠٢)، (بألفاظ متقاربة).

والحديث ضعفه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٣٨٨/٢)، (٥٥/٥) - (٥٦)، وذكر له الحافظ في التلخيص (١٧٩/٢) أربعة طرق - وهي عند الدارقطني - فضعف - الحافظ - ثلاثة منها وقال عن الرابع: «وهذا إسناد لا بأس به». اهـ.

وقال عن الحديث في الدراية (٢٦٠/١): «وإسناده حسن». اهـ.

وانظر في الكلام عليه في: تنقيح التحقيق (١٤٣٦/٢ - ١٤٣٧)، إتحاف المهرة (١٨١/١٤)، نصب الراية (٣٧٦/٢)، أضواء البيان (٤٥٨/٢).

عروض التجارة. وهذا الحديث فيه مناقشات طويلة عريضة معروفة يطول ذكرها. وجميع هذه المسائل قد بينا مناقشات العلماء فيها في الذهب والفضة، والتجارات، والمعادن، والديون في كتابنا أضواء البيان في الكلام على هذه الآية الكريمة من سورة براءة<sup>(١)</sup>.

والحاصل: أنه جاء عن أبي ذر وعن سمرة بن جندب الفزاري (رضي الله عنه) كلاهما جاء عنه حديث يدل على زكاة عروض التجارة، أما حديث أبي ذر فقد ذكرناه. وأما حديث سمرة بن جندب الذي رواه عنه أبو داود أن النبي ﷺ كان يأمرنا أن نخرج الزكاة مما نعد للبيع<sup>(٢)</sup>. وفي مناقشات طويلة عريضة، فمن مضعّف

(١) الأضواء (٤٣٤/٢) فما بعدها.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب العروض إذا كانت للتجارة هل فيها من زكاة؟ حديث رقم: (١٥٤٧)، (٤٢٤/٤)، والدارقطني (١٢٧/٢)، والبيهقي في الكبرى (١٤٦/٤ - ١٤٧)، والصغرى (٣٢٧/١)، والطبراني في الكبير (٢٥٣/٧، ٢٥٧)، وذكره ابن حزم في المحلى (٢٣٤/٥)، وقال: «أما حديث سمرة فساقط؛ لأن جميع رواته ما بين سليمان بن موسى وسمرة (رضي الله عنه) مجهولون لا يُعرف من هم». اهـ، وقال الهيثمي في المجمع (٦٩/٣): «في إسناده ضعف». اهـ، وقال الذهبي في الميزان (٤٠٨/١) عن سلسلة هذا الإسناد: «وبكل حال هذا إسناد مظلم لا ينهض بحكم». اهـ.

وقال ابن عبد الهادي في التنقيح (١٤٣٥/٢): «انفرد أبو داود بإخراج هذا الحديث وإسناده حسن غريب». اهـ، والحديث سكت عنه أبو داود والمنذري، وحسنه ابن عبد البر، وضعفه الحافظ في التلخيص (١٧٩/٢)، والدرية (٢٦٠/١)، والألباني في التعليق على المشكاة (٥٦٨/١)، ضعيف أبي داود ص ١٥٤.

وانظر: بيان الوهم والإيهام (١٣٩/٥)، إتحاف المهرة (٣٠/٦)، تنقيح التحقيق (١٤٣٥/٢)، التعليق المغني على الدارقطني (١٢٧/٢ - ١٢٨)، أضواء البيان =

ومصحح، وجماعة صححوا حديث الحاكم، وصححه الحاكم، وانتصر كثير لتصحيحه، ولا شك أنه معتضد بإجماع المسلمين في عهد الصحابة فمن بعدهم على أن عروض التجارة تجب فيها الزكاة. وقد ثبت عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه أخذ زكاة الجلود من حمّاس، فعن أبي عمرو بن حمّاس أن أباه مرّ بعمر بن الخطاب يحمل جلوداً فقال: هل أديت زكاة هذا؟ - في جلود يتجر بها - فقال: لا، قال: هذا مال، فحسبوه فوجدوا الزكاة قد وجبت فيه، فأخذ منه زكاة الجلود<sup>(١)</sup>. فهذا ثابت عن عمر بن الخطاب ولم يخالفه أحد من الصحابة فالتحقيق الذي لا شك فيه وجوب الزكاة في عروض التجارة.

أما زكاة الديون، وهل تمنع الديون الزكاة من المال أو لا<sup>(٢)</sup>؟ فليس في ذلك شيء عن النبي ﷺ؛ لأنه لم يرد عن رسول الله شيء في زكاة الدين، ولا هل هو مسقط للزكاة أو لا؟ والعلماء مختلفون فيه، فاختلّفوا في زكاة الدين، فكان مالك بن أنس - رحمه الله -

= (٢/٤٥٩ - ٤٦٠).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/١٨٣)، والشافعي (شفاء العي بتخريج وتحقيق مسند الشافعي (١/٤١٤)، وفي الأم (٢/٤٦)، وأبو عبيد في الأموال ص ٣٨٤، وعبد الرزاق (٤/٩٦)، والبيهقي (١/٣٢٧)، وابن زنجويه في الأموال (٣/٩٤١ - ٩٤٢)، وذكره ابن حزم في المحلى (٥/٢٣٤ - ٢٣٥)، وقال: «وأما حديث عمر فلا يصح؛ لأنه عن أبي عمرو بن حمّاس عن أبيه، وهما مجهولان». اهـ، وانظر: تلخيص الحبير (٢/١٨٠).

(٢) انظر: المبسوط (٢/١٩٤)، المحلى (٦/١٠٣)، المجموع (٦/٢٠)، المغني (٤/٢٦٩)، الموسوعة الفقهية (٢٣/٢٣٨).

يرى على التاجر المدير<sup>(١)</sup> أن يزكي دينه، يزكي الحالّ منه على الموسرين بالعدد، والمؤجل يزكيه بالقيمة؛ لأنه يزكي الدين مع عروض التجارة. وإذا كان الدين على حال مليء موسر مقر وعليه بينة فمالك يقول: إن مثل هذا كمثل الشيء الذي في صندوقه؛ لأن القدرة على التحصيل حصول، فيزكيه بالعدد، وهذا مذهب الشافعي. وقال آخرون: لا يزكيه إلا إذا قبضه. في تشايع وأقوال معروفة.

وهل يُسقط الدينُ الزكاة أو لا<sup>(٢)</sup>؟ لا نص فيه عن رسول الله ﷺ، والعلماء مختلفون فيه، وأقوالهم مع كثرتها متشابهة ترجع إلى ثلاثة مذاهب: - قوم قالوا: إن الدين لا يسقط شيئاً من الزكاة، وقوم قالوا: يسقطها كلها. وقوم فرقوا بين الأموال الظاهرة والباطنة، قالوا: يُسقط الدين الزكاة في الأموال الباطنة. والأموال الباطنة: هي الذهب، والفضة، وعروض التجارة، فهذه يسقطها الدين. والأموال الظاهرة: هي المواشي، والثمار، والحبوب، والمعادن، قالوا: زكاة هذه لا يسقطها الدين؛ لأنها ظاهرة، والزكاة واجبة في عينها في أقوال معروفة.

ومن المسائل التي اختلفوا فيها: زكاة المعادن<sup>(٣)</sup>، وقدر

(١) قال في الأضواء (٢/٤٥٧): «فالمدير: هو الذي يبيع ويشترى دائماً، والمحتكر: هو الذي يشتري السلع ويتربص بها حتى يرتفع سعرها، وإن لم يرتفع سعرها لم يبيعها ولو مكثت سنين». اهـ.

(٢) انظر: المبسوط (٢/١٩٧)، المحلى (٦/٩٩، ١٠١)، المغني (٤/٢٦٣)، الموسوعة الفقهية (٢٣/٢٤٥)، أضواء البيان (٢/٤٦٢).

(٣) انظر: المحلى (٦/١٠٨)، المجموع (٦/٧٥)، القرطبي (٣/٣٢٣ - ٣٢٤)، =

الواجب فيها، فذهب مالك والشافعي أنه: لا يجب في زكاة المعادن إلا في معدن الذهب والفضة خاصة؛ لأن الذهب والفضة من الذين فيهما الزكاة، وجمهور العلماء منهم مالك والشافعي وأحمد على أن زكاة المعدن ربع العشر، وفي مذهب مالك والشافعي: أن المعدن إذا كان معدن ذهب أو فضة كل ما يخرج منه من ذهب وفضة أُدبت منه زكاته حالاً ولم يُتَظَر به الحول، وهي ربع العشر، ولا زكاة عندهما في معدن إلا إذا كان ذهباً أو فضة. وكان الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله) يقول: تجب الزكاة في جميع المعادن، سواء كانت من الذهب والفضة، أو من الحديد، والنحاس، والرصاص، أو الزجاج، والزرنيخ، وسائر المعادن، حتى المعادن السائلة كالقار، والنفط، فإنها تجب فيها الزكاة عنده، فزكاتها عنده ربع العشر.

أما الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) فإن الواجب عنده من المعادن الخمس؛ لأنه يرى الخمس من الركاز، وقد جاء في ذلك حديث أنه ﷺ سئل عن الركاز؟ / وأنه قال: «الذهب والفضة المخلوقان في الأرض يوم خلق الله السماوات والأرض»<sup>(١)</sup>، وهذا الحديث لا يصح.

= المغني (٤/٢٣٨)، الموسوعة الفقهية (٣٨/١٩٧)، أضواء البيان (٤٦٦/٢).

(١) أصل الحديث (وهو قوله ﷺ: «في الركاز الخمس») متفق عليه، والزيادة المذكورة عند البيهقي في الكبرى (٤/١٥٢)، وعقبه بقوله: «تفرد به عبد الله بن سعيد المقبري وهو ضعيف جداً جرحه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وجماعة من أئمة الحديث، وقال الشافعي: في رواية أبي عبد الرحمن الشافعي البغدادي عنه: قد روى أبو سلمة وسعيد وابن سيرين ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبي هريرة حديثه عن النبي ﷺ: «في الركاز الخمس» ولم يذكر أحد منهم شيئاً من الذي ذكر المقبري في حديثه، والذي روى ذلك شيخ ضعيف إنما رواه =

ولا تجب الزكاة في المعادن عند أبي حنيفة إلا فيما ينطبع منها كالذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، والرصاص، وما جرى مجرى ذلك. ومن ذلك قول له وجه من النظر قالت به جماعات من العلماء: أن المعدن إذا كان في استخراجه كلفة ونفقات أن زكاته ربع العشر، وإذا كان يخرج بلا كلفة ولا مشقة أن زكاته الخمس.

وأجمع المسلمون على أن الركاز فيه الخمس<sup>(١)</sup>، واشترط الشافعي أن يكون الركاز من ذهب أو فضة، وعامة العلماء على خلافه، والركاز عند غير أبي حنيفة: دفن جاهلي، وعند أبي حنيفة يشمل جميع المعادن. هذه أقوال العلماء ذكرناها مختصرة، وقد أوضحناها في كتابنا الذي أشرنا إليه.

عبد الله بن سعيد المقبري، وعبد الله قد اتقى الناس حديثه فلا يُجعل خبر رجل قد اتقى الناس حديثه حجة». اهـ، وأخرجه أبو يعلى (٦٦٠٩) بنحوه، وذكره الهيثمي في المجمع (٧٨/٣)، وقال: «فيه عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد وهو ضعيف». اهـ، وذكره ابن عدي في الكامل (٨٣٣/٢)، وقال: «هذا الحديث أخطأ إبراهيم بن راشد على الدولابي... والبلاء في هذا الحديث من إبراهيم بن راشد لا من الدولابي ولا من ابن حبان». اهـ، وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٩/٢)، بلفظ أبي يعلى وقال: «قال الدارقطني: هذا وهم؛ لأن هذا ليس من حديث الأعمش ولا من حديث أبي صالح، إنما يرويه رجل مجهول عن آخر عن أبي هريرة». اهـ، وانظر: تلخيص الحبير (١٨٢/٢)، نصب الراية (٣٨٠/٢).

(١) انظر: المجموع (٧٥/٦)، القرطبي (٣/٣٢٢ - ٣٢٤)، المغني (٤/٢٣١ - ٢٣٨)، الموسوعة الفقهية (٩٨/٢٣)، أضواء البيان (٤٦٩/٢).

(... )<sup>(١)</sup> بهمزة محققة، وقرأه ورش وحده عن نافع: ﴿إنما النسيّ زيادة في الكفر﴾ [التوبة: آية ٣٧] بياء مشددة، وما زعمه بعضهم — وقال به ابن جرير — من أن قراءة ورش هذه عن نافع غلط<sup>(٢)</sup>. خلاف التحقيق، بل هي قراءة سبعية صحيحة لا كلام فيها، قرأ بها ورش عن نافع ﴿إنما النسيّ زيادة في الكفر﴾ أبدلت الهمزة ياء، ثم أدغمت الياء في الياء كما يقرأ بعض القراء: ﴿النبيء﴾ بالهمزة وبعضهم يقرأ ﴿النبي﴾<sup>(٣)</sup> بتشديد الياء<sup>(٤)</sup>.

وقرأ قوله: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بفتح الياء وكسر الضاد، مضارع (ضَلَّ يُضَلُّ) مجرداً لازماً، وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بضم

(١) ذهب جزء من التسجيل في هذا الموضوع، ويمكن أن نستدرك بعض النقص فننقل القراءات الواردة في ﴿النسيء﴾ عن كتاب «السبعة» لابن مجاهد ص ٣١٤، حيث يقول: «اتفقوا على همز ﴿النسيء﴾ ومده وكسر سينه، إلا ما حدثني به محمد بن أحمد بن واصل، عن محمد بن سعدان، عن عبيد بن عقيل، عن شبل، عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿إنما النسيء زيادة﴾ في وزن (النسْعُ)، وحدثني ابن أبي خيثمة، وإدريس، عن خلف، عن عبيد، عن شبل، عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿إنما النسيء﴾ مشددة الياء غير مهموزة، وقد روي عن ابن كثير: ﴿النسيء﴾ بفتح النون وسكون السين وضم الياء مخففة، والذي قرأت به على قنبل: ﴿النسيء﴾ بالمد والهمز مثل أبي عمرو، والذي عليه الناس بمكة: ﴿النسيء﴾ ممدودة». اهـ.

(٢) تفسير ابن جرير (٢٤٤/١٤).

(٣) تقدمت عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٤) انظر: البحر المحيط (٣٩/٥)، الدر المصون (٤٦/٦).

الياء وفتح الضاد مبنياً للمفعول<sup>(١)</sup>.

أما قراءة ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فليستا سبعيتين<sup>(٢)</sup>.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءٌ وَعَمَلُهُمْ﴾  
بإبدال الهمزة الثانية واواً. وقرأه غيرهم من السبعة: ﴿سُوءٌ أَعْمَلِيَهُمْ﴾  
بتحقيق الهمزة الثانية<sup>(٣)</sup>. هذه هي القراءات السبعية في الآية.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة هو ما أشرنا إليه بالأمس أن الكفار كانوا يتلاعبون في الأشهر الحرم<sup>(٤)</sup>، وبعضهم يقول: في أشهر الحج، فيحرمون منها ما لم يحرمه الله، ويحلون ما لم يحلله الله<sup>(٥)</sup>. فبيّن (جلّ وعلا) في هذه الآية أن ذلك كفر على كفر، أنه كفر ازدادوا به كفراً على كفرهم الأول.

والعلماء مختلفون في أول من سنّ هذه السنة السيئة الخبيثة، وهي سنة النسيء. فكان بعض العلماء يقول: أول من أحدثه الملعون عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس بن مضر، وهو الخبيث الذي هو أول من جاء بالأصنام إلى جزيرة العرب، وهو أول من بخر البحائر فيها، وسيب السوائب، وغير معالم دين إبراهيم التي كانت في جزيرة

(١) انظر: السبعة ص ٣١٤.

(٢) انظر: المحتسب (١/٢٨٨ - ٢٨٩).

(٣) انظر: الإتحاف (٢/٩١).

(٤) كما أخرج ذلك ابن جرير (١٤/٢٤٥)، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرج ذلك ابن جرير (١٤/٢٤٨) عن مجاهد.

العرب عليه لعائن الله<sup>(١)</sup>.

وأكثر المؤرخين يقولون: إن أول من سنّ هذه السنّة القبيحة قوم من بطن من بني كنانة يسمى بني فقيم، وهم من أولاد مالك بن كنانة، يزعم العرب أنهم كانوا متمسكين بدين إبراهيم، وكانوا يشرعون لهم ما شاؤوا، ويتبعونهم فيما شاؤوا، يقال: إن أول من فعل ذلك منهم رجل يسمى نعيم بن ثعلبة<sup>(٢)</sup>.

والذي قاله غير واحد من المؤرخين وأوضحه ابن إسحاق في سيرته أن أول من فعل هذا منهم رجل يُسمى القَلَمَس. والدليل على ذلك موجود في أشعارهم. واسم القَلَمَس هذا حذيفة بن عبيد بن فقيم، وبنو فقيم بطن من بني مالك بن كنانة. كان هذا الرجل الذي هو حذيفة المعروف بالقَلَمَس يقول لهم: سأؤخر عنكم تحريم المحرّم وأنسوّه إلى صفر، فاذهبوا فقاتلوا في المحرّم فإني حولت حرمة إلى صفر. فهم يتبعونه، ثم لما مات القَلَمَس قام بهذا الأمر بعده ابنه عباد بن القَلَمَس، فكان يحل لهم هذا التحليل وهذا التحريم، ثم لما مات عباد قام به بعده ابنه قَلَع بن عباد، ثم لما مات قام به بعده ابنه أمية بن قَلَع بن عباد، ثم لما مات قام به بعده ابنه عوف بن أمية، ثم لما مات قام به بعده ابنه جنادة بن عوف المعروف بأبي ثمامة، كنيته ككنية مسيلمة الكذاب، وهو الذي قام عليه الإسلام وهو بهذه السنّة السيئة الخبيثة. كانوا إذا انتهت أيام حجهم وانقضت أيام منى ذهبوا إلى هذا الرجل الذي هو أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية الكناني فيقول: أنا الذي لا يُعاب ولا يُجاب،

(١) انظر: القرطبي (١٣٨/٨).

(٢) السابق.

ولا مرد لما أقول، أخّرت عنكم تحريم المحرم إلى صفر<sup>(١)</sup>.  
فيتبعونه، فجاء الإسلام بتغيير هذا ورد كل شيء إلى محله.

وقد ذكرنا بالأمس أن العلماء اختلفوا في الأشهر الحرم هل  
حرمتها باقية إلى الآن؟ ويكون من نساء النسبي الآن ازداد كفراً وفعل  
كفراً. أو هي منسوخة ولا تحريم في الأشهر الحرم، وأن قتال العدو  
يجوز في جميع الأشهر<sup>(٢)</sup>؟ وذكرنا بالأمس أن المشهور عند العلماء  
الذي عليه الأكثر أنه قد نُسخ تحريم الأشهر الحرم، واستدلوا على  
ذلك بظواهر آيات ليست صريحة في ذلك، ومن أصرح ما استدلوا به  
هو ما ذكرنا من أنه ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً في  
غزوة الطائف بعضاً من ذي القعدة<sup>(٣)</sup>. وهذا ثابت في الصحيحين  
ثبوتاً لا مطعن فيه. قالوا: لو لم تنسخ لما حاصر النبي ﷺ ثقيفاً في  
ذي القعدة وهو شهر حرام. وقد ذكرنا بالأمس أن الذي كان يظهر لنا  
وننصره أن تحريم الأشهر الحرم قد نُسخ، وأن الذي تحققناه بعد  
ذلك وصرنا نجزم به أنها باقية التحريم إلى الآن، ولم يُنسخ  
تحريمها، كما كان يقسم عليه عطاء بن أبي رباح (رحمه الله)، كان  
يحلف أن حرمتها باقية<sup>(٤)</sup>. ومن أصرح الأدلة في ذلك هو الحديث  
الذي أشرنا إليه أمس؛ لأن النبي ﷺ خطب به يوم النحر في حجة

(١) أخرجه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (٢٤٥/١٤)،  
وذكره ابن هشام في السيرة ص ٥٦.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة التوبة.

(٣) السابق.

(٤) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ ص ٢٠٧، والنحاس في الناسخ  
والمنسوخ (٥٣٥/١)، وابن جرير (٣١٤/٤).

الوداع عام عشر، ولم يعيش بعد ذلك إلا نحو ثمانين يوماً، وقد صرح فيه بأن ذلك الشهر حرام، وذلك اليوم حرام، وذلك البلد حرام<sup>(١)</sup>، ولم يأت بعد ذلك شيء ينسخ هذا التحريم الثابت عنه (صلوات الله وسلامه عليه).

وهذه الآية الكريمة قبل أن نشرع في تفسيرها نشير إلى أن فيها حكماً يجب على كل مسلم أن يعتبر به وينظره؛ لأن هؤلاء القوم كفار، كانوا يسجدون للأصنام، فلما أحلّ لهم رجل شيئاً حرّمه الله، وحرّم عليهم شيئاً أحلّه الله، وهم يعلمون أن الله حرّم تلك الأشهر الحرم، ولا يشكون في ذلك، وأن هذا الرجل الكناني أحلّ لهم ما حرّمه الله، وحرّم عليهم ما أحلّه الله، فاتبعوا تحريم هذا الإنسان، فصرح الله بأن هذا كفر جديد ازدادوه إلى كفرهم الأول. فهذه الآية الكريمة من سورة براءة من أصرح النصوص القرآنية في أن كل من اتبع نظاماً غير نظام الله، وتشريعاً غير تشريع الله، وقانوناً غير قانون الله، أنه كافر بالله، إن كان يزعم الإيمان فقد كفر، وإن كان كافراً فقد ازداد كفرًا جديدًا إلى كفره الأول. والآيات الدالة على هذا المعنى لا تكاد تحصيها بهذا المصحف الكريم، الذي هو أعظم كتاب أنزله الله من السماء إلى الأرض، وهو آخر كتاب أنزله الله على أكرم نبي، وآخر نبي جمع فيه له علوم الأولين والآخرين. وسنذكر لكم طرفاً من ذلك كما ذكرناه قبل هذا مراراً<sup>(٢)</sup> نبين به أن الحلال هو ما أحلّه الله، والحرام هو ما حرّمه الله، والدين هو ما شرعه الله، وأن كل من اتبع نظاماً وتشريعاً وقانوناً — ولو سماه ما سماه — غير ما أنزله الله

(١) مضى عند تفسير الآية (٥) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

في وحيه على نبيه ﷺ أنه كافر بذلك، فإن كان كافراً قبله ازداد كفراً جديداً إلى كفره الأول، وإن كان يزعم الإيمان فقد جاء بما يكفر به. ومن أصرح الأدلة في هذا: المناظرة العظيمة المشهورة التي وقعت بين الكفار والمسلمين في حكم من أحكام الحلال والحرام، فالمسلمون يقولون: إن هذا الأمر حرام. ويستدلون بنص من نصوص الوحي. وحزب الشيطان وتلامذته وأتباعه يقولون: إن هذا الحكم حلال. ويستدلون على ذلك بفلسفة من وحي الشيطان. ويأتي كل منهم بدليله، فلما تحاجوا وتخاصموا وحصل الجدل بينهم في ذلك أفتى الله تعالى بنفسه فتوى سماوية تُلَى علينا قرآناً في سورة الأنعام، وإيضاح هذا: أن الشيطان – لعنه الله – جاء كفار قريش وقال لهم: سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فأجابهم: الله قتلها. فقالوا: إذن ما ذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة بسكين من ذهب تقولون: هو حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!! فأنزل الله في ذلك بإجماع العلماء في سورة الأنعام هذه الفتوى السماوية بعد أن بين الله خصام المتخاصمين فيها فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الميتة. وإن زعم حزب الشيطان أنها ذبيحة الله، وأن ما قتله الله أحلّ مما قتله الناس. ثم قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَفِسْقٌ﴾ الضمير في قوله: ﴿إِنَّكُمْ﴾ راجع إلى المصدر الكامن في جوف الفعل الصناعي في قوله: ﴿تَأْكُلُوا﴾ أي: وإنه أي: الأكل من الميتة ﴿لَفِسْقٌ﴾ أي: خروج عن طاعة الله، وإن زعم حزب الشيطان أنها ذبيحة الله، وأن ما قتله الله أحلّ وأطهر مما قتله الناس. ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ﴾ ﴿لِيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ وحي الشيطان ﴿لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ﴾ بالوحي

الشيطاني، وهو قولهم: ما ذبحتموه حلال، وما قتله الله حرام، فأنتم إذاً أحسن من الله!! ثم أفتى الله الفتوى السماوية التي تتردد في آذان الخلق مساءً وصباحاً بقوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١٢١) ﴿[الأنعام: آية ١٢١] وَإِنْ أَطَعْتُمْ أَتْبَاعَ الشَّيْطَانِ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١٢٢) ﴿بِاللَّهِ شُرَكَاءَ أَكْبَرُ، كَمَا قَالَ فِي هَؤُلَاءِ﴾ ﴿إِنَّمَا السَّيِّئَةُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] وهذا الشرك شرك أكبر مخرج عن الملة؛ لأنه شرك طاعة، وشرك الطاعة شرك في الحكم، والشرك في الحكم كالشرك في العبادة لا فرق بينهما البتة؛ لأن الله هو الملك الجبار العظيم الأعظم لا يرضى أن يكون معه شريك في عبادته ولا أن يكون معه شريك في حكمه سبحانه (جلّ وعلا) أن يكون له شريك في عبادته أو شريك في حكمه، وقد بيّن هذين الأمرين في سورة واحدة من كتابه وهي سورة الكهف، فقال في الإِشْرَاقِ بِهِ فِي عِبَادَتِهِ: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠) [الكهف: آية ١١٠] وقال في الإِشْرَاقِ بِهِ فِي حُكْمِهِ: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٢١) [الكهف: آية ٢٦] فمن اتخذ تشريعاً غير تشريع الله، واتبع نظاماً غير نظام الله، وقانوناً غير ما شرعه الله — سواءً سماه نظاماً أو دستوراً، أو سماه ما سماه — هو كافر بالله؛ لأنه يقدم ما شرعه الشيطان على السنة أوليائه مما جُمع من زبالات أذهان الكفرة على نور السماء الذي أنزله الله (جلّ وعلا) على رسله ليُستضاء به في أرضه، وتُنشر به عدالته وطمأنينته ورخاؤه في الأرض.

وهذا مما لا نزاع فيه، وهذا الشرك الذي هو شرك اتباع، اتباع

قانونٍ ونظامٍ وتشريع هو الذي يوبخ الله مرتكبه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد في سورة يَس في قوله تعالى: ﴿ أَأَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَكُنِّيْءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ . . . ﴾ [يس: آية ٦٠] ما عبدوا الشيطان بأن سجدوا للشيطان، ولا ركعوا للشيطان، ولا صاموا له، ولا صلوا، وإنما عبادتهم للشيطان هي اتباع ما سنّ لهم من النظم والقوانين من الكفر بالله ومعاصي الله. ثم قال: ﴿ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [١١] وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴿ [يس: الآيتان ٦١، ٦٢] أي: خلائق كثيرة لا تحصى.

ثم وبخ عقولهم فقال: ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: آية ٦٢] ثم ذكر المصير النهائي للذي كان يتبع نظام إبليس، وقانون الشيطان في دار الدنيا ذكر مصيره النهائي في قوله: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [١٢] أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿ [١٣] الآيات [يس: الآيتان ٦٣، ٦٤]. وهذا هو معنى قول إبراهيم: ﴿ يَتَأْتِيَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ [مريم: آية ٤٤] أي: لا تتبع ما شرع لك الشيطان وسنه من الكفر بالله، ومعاصي الله، وهو معنى قوله: ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْشَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا ﴾ [النساء: آية ١١٧] أي: ما يدعون إلا الشيطان، وهو دعاء عبادة باتباع نظامه وتشريعه. وهو أصح الوجهين في قوله (جلّ وعلا) في الملائكة: ﴿ أَهْوَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ: آية ٤٠] لأن الملائكة قالوا: ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ [سبأ: آية ٤١] أي: يتبعون الشياطين ويعبدونهم باقتفاء ما يسنون لهم من القوانين والنظم، وهذا أمرٌ لا نزاع فيه، فكل من يتبع نظام أحد وتشريع أحد وقانونه فهو متخذه ربا؛ ولذا جاء في الحديث المشهور عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه لما جاء النبي ﷺ وكان في

عق عدي صليب فقال له النبي: «يا عديّ ألق هذا الوثن من عنقك» وصادفه يقرأ سورة براءة هذه، سمعه يقول: ﴿أَخْذُوا أَسْبَابَ رُءُوسِهِمْ مِنْ تَحْتِهَا يَوْمَ نَبُذَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَدْرًا لِيَوْمِ أُولَئِكَ لَأَسْفَرُنَّهُمْ مَسَافِرَ بَعِيدٍ لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٣١] وكان عدي نصرانياً في الجاهلية فقال: ما كنا نتخذهم أرباباً. فأجابه النبي بما معناه: ألم يحلوا لكم ما حرّم الله ويحرّموا عليكم ما أحلّ الله فتتبعوهم؟ قال: بلى. قال: تلك عبادتهم، وبذلك اتخذتموهم أرباباً<sup>(١)</sup>.

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن كل من يتبع نظاماً غير نظام الله وإن سماه قانوناً أو دستوراً أو سماه ما سماه فهو كافرٌ بالله، ولو كان كافراً قبل ذلك وارتكب شيئاً يعلم أن الله حرّمه فحلّل ما يعلم أن الله حرّمه، أو حرّم ما يعلم أن الله حلّله، فإنه ولو كان كافراً قبل هذا يزداد بذلك كفراً جديداً إلى كفره الأول، كما قال هنا: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] وهذا معروف لا نزاع فيه بين العلماء، فالحلال هو ما أحلّه الله، والحرام هو ما حرّمه الله، والدين هو ما شرعه الله، ولا تشريع إلا لله؛ لأن التشريع والأمر والنهي لا يكون إلا للسلطة التي ليس فوقها شيء، والله (جلّ وعلا) هو خالق هذا الخلق، وخالق النعم التي أنعم بها عليه، فهو الملك فلا يرضى أن يأمر فيه غيره وينهى، بل الأمر له وحده، والنهي له وحده، والتشريع له وحده، فكل مشروع دونه ضال، وكل متبع تشريعاً غير تشريعه فهو كافر به - جلّ وعلا - وقد بيّن الله (جلّ وعلا) في آيات كثيرة هذا المعنى، فكان قوم في زمن النبي ﷺ أرادوا أن يتحاكموا إلى غير شرع الله، وادّعوا أنهم مؤمنون فعجّب الله نبيه من كذب دعواهم، وأن دعواهم الإيمان لا تصحّ بوجه من الوجوه مع إرادتهم

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

التحاكم لغير الله، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ  
ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ  
أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِءَ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء:  
آية ٦٠] فعجبه من دعواهم الإيمان وهم يريدون التحاكم إلى غير ما  
شرعه الله، وهذا لا يخفى، وأقسم الله (جل وعلا) في آية من كتابه  
أنه لا يؤمن أحدٌ حتى يكون متبعاً في قرارة نفسه لما جاء به سيّد  
الرسل محمد (صلوات الله وسلامه عليه) وذلك بقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا  
يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا  
مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: آية ٦٥] هذا قسم من الله  
أقسم به ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فما  
ظنكم بالذين يحكمون فيما شجر بينهم قانون نابليون وما جرى بعده  
من زبالات أذهان الكفرة؟ ألا ترون أن الله أقسم في هذه الآية من  
سورة النساء أنهم لا يؤمنون؟ ومن أصدق من الله قيلاً ومن أصدق من  
الله حديثاً؟ فعلى كل مسلم أن يعلم أن الحاكم هو الله، وأن  
الحكم لله وحده، وأنه لا يُحلّ إلا الله، ولا يُحرم إلا الله، فلا حلال  
إلا ما أحلّه الله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله على لسان رسوله ﷺ،  
ولا دين إلا ما شرعه الله. فما عمّت به البلوى من انصراف جلّ من  
في المعمورة عن نور السماء الذي أنزله الله على سيّد خلقه وأعظم  
رسله، موضحاً له في أعظم كتاب أنزله من سمائه إلى أرضه،  
منصرفين عن هذا مع وضوح أدلته وقيام براهينه وصيانتهم لمقومات  
الناس؛ لأن القرآن العظيم والسنة النبوية المبيّنة له جاء فيهما غاية  
الحفاظ على جميع مقومات الإنسان في دار الدنيا والآخرة، ولا سيّما  
الجواهر الستة التي يدور عليها نظام العالم في الدنيا ونظام العدالة

والجور فيه، وهذه الأمور الستة لا يوجد شيء أشد محافظة عليها مما جاء به سيد الخلق محمد (صلوات الله وسلامه عليه)، ونعني بهذه الستة التي أشرنا إليها: المحافظة على الدين السماوي الذي هو الصلة بين السماء والأرض وبين الله وخلقه، ثم المحافظة على الأنفس من القتل والإزهاق، ثم المحافظة على الأنساب من الضياع والاختلاط وتقدير الفرش، ثم المحافظة على العقول من الضياع؛ لأن العقول إذا ضاعت صار المجتمع حيوانات يضرب بعضه بعضاً، ثم المحافظة على الأموال، ثم المحافظة على الأعراض. فدين الإسلام جاء بأعظم حياة وصيانة للدين، وحياة وصيانة للنفس، وحياة وصيانة للعقل، وحياة وصيانة للنسب، وحياة وصيانة للمال، وحياة وصيانة للعرض، وستأتي هذه الأشياء في هذه الدروس كلٌّ في محله، وقد قدمنا ما جاء منها.

فهذا دين الإسلام الذي بيّن الله فيه كل شيء، وحافظ فيه على جميع المقومات، وأعطى فيه الأجسام حقوقها، والأرواح حقوقها، وأرشد الإنسان إلى عمل مزدوج يقوم به الإنسان معاوناً جسمه روحه، وروحه جسمه؛ لأن من أخلّ بناحية الجسم أهمل، ومن أخلّ بناحية الروح فهو أضيع وأضيع. فعلينا جميعاً أن نعلم أنه لا بدّ من اتباع شرع الله ودين الله، وأن من طلب تشريعاً وتحليلاً وتحريماً في غير ما شرعه الله فهو ليس على دين الإسلام، أحرى أن يكون من المؤمنين الذين يقولون: إن الله ينصرهم وأنه معهم وهم أعداؤه، وقد بيّن الله في القرآن أن الذي له التحريم والتحليل، والأمر والنهي لا يكون إلا له صفات ليست كصفات خلقه، بل صفاته مميزة عظيمة لا تائقه به دالة على أنه هو الذي يأمر وينهى ويحلل ويحرّم، كقوله

تعالى: ﴿ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ وكأنه قال: أتريدون أن تعرفوا صفات من يكون له الحكم في الأشياء ولا يُصدَر في حكم إلا عنه ما هي؟ ثم بيّنها في قوله: ﴿ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى: آية ١٠] ثم بيّن صفات من له الحكم ﴿ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ فاطرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴿ [الشورى: الآيات ١٠ - ١٢] هذه صفات من له الحكم، أما الكفرة الفجرة الخنازير أبناء الكلاب فليس لهم أن يحكموا في بلاد الله، ولا في عباد الله، ويحرموا ما شاؤوا ويحللوا ما شاؤوا، فمتبعهم هو أعمى الناس بصيرة وأضلهم سبيلاً.

خفافيشُ أعماها النهارُ بضوئه فَوَافَقَهَا قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلَمٌ<sup>(١)</sup>

والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر: آية ١٢] الذي له الحكم هو العلي الكبير الذي علوّه وعظّمته فوق كل شيء، وهو أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء. ويقول (جلّ وعلا): ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: آية ٨٨] فلا يكون الحكم إلا لمن لا يهلك، ولمن كل شيء هالك إلا وجهه، هذه صفات من له الحكم، ويقول (جلّ وعلا): ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: الآيات ٧٠-٧١] ثم بيّن صفات من له الحكم فقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ إلى آخر الآيات [القصص: آية ٧١]. فالحكم لا يكون إلا للعظيم الأعظم الذي هو الخالق لكل شيء، الرازق لكل شيء، الفاعل ما يشاء في كل شيء، هذا الذي يُتبع تشريعه ويُحل ما أحل، ويحرّم ما حرّم، أما القوانين والنظم الملتقطة من زبالات أذهان الكفرة الفجرة فلا يتبعها ويعتقدها ويحكمها في أموال المجتمع وعقوله وأنسابه وأديانه وأعراضه إلا من أعمى الله بصائرهم، ومن أعمى الله بصيرته فلا حيلة له ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤١﴾﴾ [النور: آية ٤٠] ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى . . . ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: آية ١٩] لا ليس كمثلها.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] اختلف العلماء في تحقيق كلمة (النسيء) هنا<sup>(١)</sup> فقال بعضهم: هو من (نساء) الثلاثية وهو (فَعِيلٌ) بمعنى مفعول، فالعرب تقول: نسأه ينسؤه نَسْأً، إذا أخره. والعرب تأتي بـ (الفعل) مكان (المفعول) كما يقولون: قَتِيل مكان مقتول، وجريح مكان مجروح، ونسيء مكان منسوء، أي: مؤخر. فعلى هذا القول فالنسيء (فَعِيل) بمعنى (مفعول) كقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح. وعلى هذا فهو من (نَسَأَ) الثلاثية.

والقول الثاني: أن النسيء اسم مصدر (أنسأ) الرباعية على وزن (أَفْعَل) لأن العرب تقول: أنسأ الأمر يُنْسِئُه إنسَاءً ونسيئَةً. فالإنسَاء مصدر قياسي، والنسيء مصدر (أَنَسَأَ) مصدرًا سماعياً، كما جاء

(١) انظر: ابن جرير (٢٤٣/١٤)، القرطبي (١٣٦/٨)، الدر المصون (٤٦/٦).

النذير مصدراً لأنذر، والنكير مصدراً لأنكر، والنسيء مصدراً لأنساء،  
بمعنى: آخر.

فعلى أن النسيء اسم مصدر بمعنى الإنساء فلا إشكال؛ لأن  
الإنساء فعل الفاعل، وعلى هذا فلا إشكال في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾ أي:  
لأن تأخير الشهر الحرام وإنساءه من نقله من المحرم وتأخيره منه إلى  
صفر. هذا التأخير والإنساء زيادة في الكفر؛ لأنه أحل ما حرم الله  
وهو المحرم، وحرم ما أحله الله وهو صفر.

أما على القول بأن (النسيء) (فعليل) بمعنى (مفعول) وأنه من  
(نساء) الثلاثية، وأن النسيء بمعنى الزمان المنسوء، فيكون في قوله:  
﴿زِيَادَةٌ﴾ إشكال؛ لأن نفس الشهر المنسوء المؤخر ليس هو عين  
الزيادة؛ ولذا لا بدّ في هذا المعنى من تقدير مضاف، أي: إنما نسءُ  
النسيء زيادة في الكفر. أو إنما النسيء ذو زيادة، أي صاحب زيادة  
في الكفر حاصلة فيه. فاتضح من هذا أنه على أن النسيء اسم مصدر  
من (أنساء) فلا تقدير في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾. وعلى أنه (فعليل) بمعنى  
(مفعول) من (نساء) الثلاثية فلا بدّ من تقدير مضاف إما قبل الزيادة  
أو قبل النسيء، فتقول: نسءُ المنسوء زيادة، أي: تأخير الشهر زيادة  
في الكفر. أو تقول: المنسوء ذو زيادة، أي: صاحب زيادة في الكفر  
لوقوعها بسببه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾  
لأنهم كانوا كفاراً، فلما أحلوا محرماً وهم يعلمون أن الله حرّمه،  
وحرّموا صفرًا وهم يعلمون أن الله ما حرّمه، صاروا بهذا التشريع  
مرتكبين كفرةً جديداً كما بيّنا، ازدادوا بهذا الكفر كفرةً جديداً إلى  
كفرهم الأول.

﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معناه:

يضلهم الشيطان كما يأتي في قوله: ﴿رُبِّنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ .  
 ﴿يُجِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَكِّمُونَهُ عَامًا﴾ قد أشرنا بالأمس أن هذه الآية  
 الكريمة من سورة براءة والحديث الذي جاء في مضمونها أن الزمان  
 قد استدار كهيئته . . الحديث<sup>(١)</sup> . غلط فيه خلق من كبار المفسرين ،  
 ومن تكلموا على الحديث ، وأن الصورة الحقيقية التي قالت بها  
 جماعة من السلف<sup>(٢)</sup> - والقرآن يشهد لصحة قولهم - أنها التي كان  
 يعملها الكنانيون القلَمَس ومن بعده ، وكان شاعرهم يفتخر بذلك  
 ويقول شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بـ (جذل الطعان)<sup>(٣)</sup> :

لقد علمت مَعَدُّ أن قومي      كرامُ الناس أن لهم كرامًا  
 ألسنا الناسين على مَعَدُّ      شُهُورَ الحَلِّ نجعلها حرامًا  
 وأيُّ الناسٍ لم يدرك بوثرٍ      وأي الناسٍ لم يعلك لجامًا

أنهم كانوا يأتون جنادة بن عوف إذا صدروا من منى ، فيقوم  
 ويقول: أنا الذي لا أجاب ولا أعاب ، ولا مردّ لما أقول هذا العام قد

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب ما جاء في سبع أرضين . . . رقم:  
 (٣١٩٧) ، (٢٩٣/٦) ، وانظر الأحاديث: (٦٧) ، (١٠٥) ، (١٧٤١) ، (٤٤٠٦) ،  
 (٤٦٦٢) ، (٥٥٥٠) ، (٧٠٧٨) ، (٧٤٤٧) ، وأخرجه مسلم في كتاب القسامة  
 والمحاريب والقصاص والديات ، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض  
 والأموال ، رقم: (١٦٧٩) ، (١٣٠٥/٣) ، وهو جزء من حديث خطبة  
 حجة الوداع .

(٢) انظر: ابن جرير (٢٤٥/١٤) ، القرطبي (١٣٧/٨) ، ابن كثير (٣٥٤/٢) .

(٣) الأبيات ذكرها ابن هشام ص ٥٦ ، والبيت الثالث عند الشيخ جعله ابن هشام  
 ثانيًا ، ولفظه عنده :

فأي الناس فاتونا بوثر      وأي الناس لم نعلك لجاما  
 وقد مضى البيت الثاني منها عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف .

أخرت عنكم حرمة المحرم إلى صفر فقاتلوا في المحرم، ثم حرّموا مكانه صفرًا. ويأتي في العام القابل ويقول مثل مقالته: أنا الذي لا أجاب ولا أعاب، ولا مردّ لما أقول، قد حرّمت هذا العام محرماً وأبحت صفرًا. كما هي العادة، فيحلّ لهم المحرّم عاماً ويحرّم مكانه صفرًا، ويحرّم المحرّم عاماً ويترك الأشهر على حالها<sup>(١)</sup>. وهذا موافق لقوله: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ وموافق لقوله: ﴿لِيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: آية ٣٧] أما الصور الأخرى فلا تتفق مع الآية.

أما الذين زعموا أنه يقول لهم في بعض السنين: حللت لكم المحرم وصفر معاً فهما صفران، لا محرم في هذه السنة، وإنما فيها صفران. فيحلّ لهم المحرم ويترك صفرًا على حلاله الأصلي، وفي السنة القابلة يقول: هما محرمان، المحرم الذي كان حراماً، وصفر بدل المحرم الذي حرّمناه في السنة القابلة. فهذا وإن قال به جماعة كبيرة من العلماء<sup>(٢)</sup> فهو لا يصح؛ لأنهم على هذا القول في إحدى السنتين ما حرّموا إلا ثلاثة أشهر، والأشهر الحرم أربعة، وفي السنة الثانية حرّموا خمسة أشهر، فلم يواطئوا ما حرّم الله لا في السنة الأولى ولا في السنة الثانية. وكذلك قول من قال: إنهم كانوا يسمون صفرًا محرماً، ويسمون ما بعد صفر صفرًا، وكل شهر يسمونه باسم ما بعده، ويحججون في كل شهر عامين، وأن حجة أبي بكر عام تسع وافقت ذا القعدة، وأن أبا بكر حجّ بالناس عام ذي القعدة، وإن النبي ﷺ حجّ بالناس حجة موافقة ذا الحجة، وأن هذا معنى

(١) تقدم عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٤٩/١٤)، القرطبي (١٣٩/٨)، ابن كثير (٣٥٦/٢).

استدارة الزمان كهيئته يوم خلق السماوات والأرض<sup>(١)</sup>. فهذا لا شك في أنه فاسدٌ باطل؛ لأن الله صرح في كتابه بقوله في حجة أبي بكر بالناس عام تسع: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: آية ٣] وقد أذن ببراءة علي (رضي الله عنه) ومن معه يوم الحج الأكبر، ومعلوم أن الله لا ينزل في كتابه يوم الحج الأكبر يريد أنه من ذي القعدة! فهذا من الباطل الذي لا شك فيه، فهذا كله لا يصح، فالتحقيق أن هذه الصورة التي نزل بها القرآن التي كان يفعل لهم الكنانيون أنهم سنة يحرمون صفرًا ويحلون المحرم مكانه، وفي سنة يُيقون الأمر على حاله فيحلون المحرم سنة ويحرمونه سنة ويواطئوا بذلك - يوافقوا - عدة ما حرم الله، وهي أربعة أشهر من السنة. وهذا معنى قوله: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾.

العام: السنة، والألف التي في مكان عينه منقلبة عن واو، فيكسر على (أعوام) فعينه واو.

﴿لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: آية ٣٧] المواطأة: الموافقة، أي ليوافقوا عدة ما حرم الله؛ لأن الله حرم أربعة أشهر من السنة فهم يحرمون قدر ما حرم الله إلا أنهم يعصون الله بتغييره عن محله، فالعدة هي العدة ولكن عين الزمان ليست هي عين الزمان، فهم يصيبون في العدة ويخطئون في تعيين المعدود، ومن هنا كانوا عصاة بذلك. هذا هو الصحيح في معنى الآية الذي لا إشكال فيه، والصور الأخر فيها نظر، ليست بصواب، وإن قال بها من قال بها من

(١) انظر: ابن جرير (٢٤٨/١٤)، القرطبي (١٣٧/٨)، ابن كثير (٣٥٦/٢) -

العلماء. هذا معنى قوله: ﴿لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوُّهُ أَعْمَلِيهِمْ﴾ زين لهم الشيطان سوء أعمالهم الخبيثة. وهذا يدل على أن من أسوأ الأعمال وأخبثها تحليل ما حرّمه الله وتحريم ما أحلّ الله ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوُّهُ أَعْمَلِيهِمْ﴾.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٣٧] هذه الآية وأمثالها بالقرآن فيها سؤال معروف، وإشكال مشهور، وهو أن يقول طالب العلم: هذه الآية وأمثالها صرّح الله فيها بأنه لا يهدي الكافرين، مع أننا نشاهد الله يهدي كثيراً من الكافرين، فالله يهدي من يشاء من الكفار، ويضل من يشاء، فما وجه تعميمه في قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هذا وجه السؤال.

وللعلماء عنه جوابان معروفان:

أحدهما: أن هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن من العام المخصوص، أي: لا يهدي القوم الكافرين الذين سبق في علمه عدم هدايتهم وشقاؤهم شقاءً أزلياً، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧] وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: آية ٧] ونحو ذلك من الآيات. وعلى أن هذه الآية الكريمة من العام المخصوص بآياتٍ آخر فلا إشكال.

وقال بعض العلماء: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ما دام الله (جلّ وعلا) مريداً منهم أن يكونوا كافرين، فإذا شاء الله أن يهديهم

هداهم. وقال بعض العلماء: لا يهديهم ما داموا مصرين على كفرهم<sup>(١)</sup>.

/ نقول<sup>(٢)</sup>: إن من عادتنا التي نجري عليها في هذه الدروس، [١/٧] أن نتعرض لما نظن أنه يسأل عنه طلبة العلم، وقد مرّ في الآية الماضية أمس، سؤال معروف يتساءل عنه طلبة أهل العلم، ونسينا أن نتكلم عليه، فأحببنا أن نستدركه الآن تمييزاً للفائدة، ونعني بذلك: أنا ذكرنا في اليومين الماضيين، أن العلماء اختلفوا في نسخ الأربعة الحرم، وأن قوماً قالوا: نسخت، فجاز للمسلمين الجهاد في كل السنة، وأن جماعة من العلماء قالوا: إن تحريمها باق لم يُنسخ، وذكرنا أننا كنا أولاً نعتقد صحة نسخها، وأنا عرفنا بعد ذلك أن الصحيح عدم نسخها، وذكرنا أن من أصرح الأدلة على نسخها ما ثبت أن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً بالطائف في بعض ذي القعدة وهو شهر حرام، ولو لم يكن القتال فيها حلالاً لما حاصرهم فيها، فعلمنا من هنا أن طالب العلم يقول: إذا قررتم أن التحقيق عدم نسخها فما وجه حصار النبي ﷺ لثقيف في الشهر الحرام؟! وجه حصار النبي ﷺ لثقيف في الشهر الحرام؟! وجه حصار النبي ﷺ لثقيف في الشهر الحرام!؟

هذا هو السؤال الذي كنا نود أن نتعرض للإجابة عنه، وهذا

(١) انقطاع في التسجيل، ويمكن مراجعة جواب الشيخ (رحمه الله) على هذا الإشكال عند تفسير الآية (١٤٥) من سورة الأنعام، وما بين المعقوفين [ زيادة يتم بها الكلام.

(٢) تنبيه: في تفسير الشيخ (رحمه الله) لهذه الآية بقي الجواب عن إشكال معروف وهو توجيه حصار النبي ﷺ لثقيف في الشهر الحرام، وقد استدرك الشيخ (رحمه الله) هذه المسألة والجواب عنها في بداية الكلام على الآية التي بعدها، فألحقته في موضعه هنا، وجعلت الآيات (٣٨، ٣٩)، بعد جواب الشيخ عن هذا الإشكال.

السؤال أجاب عنه جماعة من العلماء بما ملخصه في نقطتين وهما<sup>(١)</sup>:

أن حصار النبي ﷺ لثقيف كان ابتداءه في شهر حلال، والدوام قد يغتفر فيه ما لا يغتفر في الابتداء؛ لأن من المسائل ما يحرم فيها الابتداء ولا يحرم فيها الدوام، ألا ترؤن أن الرجل المحرم لا يجوز له أن يبتدىء تزويجاً، ولو تزوج قبل إحرامه ثم أحرم لم يفسخ تزويجه بهذا الإحرام الطارىء على تزويجه، وكذلك الإحرام يمنع ابتداء الطيب فيه، فلو كان متطيباً قبله، لا يمنع الدوام على الطيب الأول الإحرام عند جماهير العلماء، فالشاهد أن الدوام في بعض الصور قد يُغتفر فيه ما لا يُغتفر في الابتداء، وفي هذه الصورة يتأكد بشيء آخر وهو ما قدمنا في العام الماضي في كلامنا على غزوة حنين<sup>(٢)</sup> في تفسير آية: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرَتْكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٥] أن النبي ﷺ لما فتح مكة في رمضان عام ثمان، ولم يكن يريد أن يغزو هوازن، سمع أن مالك بن عوف النصري، سيد هوازن جمع من أطاعه من هوازن وفيهم ثقيف؛ لأن ثقيفاً من هوازن؛ لأن ثقيفاً بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور، وأنهم تجمعوا له يريدون حربه، فهم الذين بدؤوا بإرادة الحرب، ولم يكن النبي ﷺ قاصداً حربهم في ذلك الوقت قبل ذلك، فلما هزمهم النبي ﷺ يوم حنين واستفاء أموالهم، رجع فلهم (والفلُّ بقية المنهزمين) فتحصنوا بحصن الطائف. فحصاره ﷺ للطائف ليستنزل الذين كانوا يقاتلونه في غزوة حنين من تمام غزوة حنين، وكانوا هم

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٥٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

البادون بالقتال، والأشهر الحرم إذا بُدِء المسلمون فيها بالقتال قاتلوا، كما تقدم في قوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩٤] وكما قدمناه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ﴾ [البقرة: آية ١٩١] فهذا هو الذي أجاب به العلماء عن حصار النبي ﷺ لثقيف على القول ببقاء حرمة الأشهر الحرم.

يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [التوبة: الآيتان ٣٨، ٣٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: آية ٣٨].

أجمع كافة العلماء، أن هذه الآية الكريمة من سورة براءة نزلت لما استنفر النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم<sup>(١)</sup>، وفي غزوة تبوك، كان ذلك في ساعة العسرة، كما يأتي منصوصاً في هذه السورة الكريمة، وكان وقت شدة الحر، والأرض في غاية الجذب، وكان في المدينة النخيل حين أزهرت ثمرته، وطابت الظلال والمياه الباردة، فركنوا إلى الدعة، وإلى نعيم الدنيا في

(١) انظر: ابن جرير (٢٥١/١٤)، القرطبي (١٤٠/٨)، ابن كثير (٣٥٧/٢).

الظل والثمار والمياه والظلال الباردة، فركنوا إلى هذا؛ لأن العدو قوي وكثير العدد جداً، والشقة بعيدة، والزمان حار؛ ولذا من تكاسلوا منهم وبخهم الله هذا التوبيخ العظيم في هذه الآية الكريمة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ﴾ أي شيء ثبت لكم يقتضي نكولكم عن الغزو واختياركم للدعة والراحة على مرضاة الله وإعلاء كلمة الله؟ ﴿مَا لَكُمْ﴾ أي شيء ثبت لكم. ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ أي: إذا قال لكم رسول الله ﷺ وأصحابه: ﴿أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ انفروا معناه: تهيؤوا خارجين متحركين لحرب الروم. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن القتال والجهاد في سبيل الله هو أعظم أنواع سبيل الله (جلّ وعلا).

﴿أَنفَقْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أصله: (تشافلتم) والمقرر في علم العربية: أن كل ماض على وزن (تفاعل) أو على وزن (تفعل) إذا تقاربت حروفه الأولى، يكثر في اللغة العربية إدغام بعضها في بعض واجتلاب همزة الوصل لإمكان النطق بالسكان<sup>(١)</sup>، وهذا يكثر في القرآن في (تفاعل) و(تفعل)، كقوله هنا في (تفاعل): ﴿أَنفَقْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أصله: (تشافلتم)، ﴿فَأَذَرْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: آية ٧٢] أصله: (تدارأتم)، ﴿حَقَّ إِذَا أَدَارَكُوا﴾ [الأعراف: آية ٣٨] أصله: (تداركوا)، ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ﴾ [النمل: آية ٦٦] أصله: (تدارك علمهم). وكذلك هو في (فعل) كقوله (جلّ وعلا): ﴿وَأَزَيَّنْتَ﴾ [يونس: آية ٢٤] أصله: (تزينت) من (تفعل)، ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا﴾ [النمل: آية ٤٧] أصله: (تطيننا). وهذا أسلوب عربي معروف،

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة، وانظر: ابن جرير (٢٥٢/١٤)،

ومن شواهد العربية المشهورة ما أنشده الفراء من قول الشاعر<sup>(١)</sup>:  
 تُولِي الضَّجِيعَ إِذَا مَا اسْتَفَاهَا حَصِيراً      عَذَبَ الْمَذَاقِ إِذَا مَا اتَّبَعَ الْقَبْلُ  
 يعني بقوله «ما أتابع»: تتابع.

ومعنى ﴿أَتَاَقَلْتُمْ﴾ تناقلتم، أي: تكاسلتم وتباطأتم وتفاعستم  
 عن الخروج في سبيل الله لغزو الكفار.

ثم إن الله أنكر عليهم إنكاراً قوياً بأداة الإنكار التي هي الهمزة  
 في قوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ قد تقرر في علم  
 العربية أن لفظه (مِنْ) تأتي بمعنى البدل<sup>(٢)</sup>، كقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا  
 مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [الزخرف: آية ٦٠] أي: لجعلنا بدلکم ملائكة  
 في الأرض ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: بدل  
 الآخرة، وإتيان (مِنْ) بمعنى البدل، أسلوب عربي معروف، ومنه  
 قول الشاعر<sup>(٣)</sup>:

فليت لنا من ماءٍ زمزم شربةٌ      مُبرِّدةٌ باتت على طهيانٍ  
 يعني ليس لنا شربة باردة مكان زمزم؛ لأنه يؤخذ حاراً، ويروى:

فليت لنا من ماءٍ حَمَّانٍ شربةٌ      مُبرِّدةٌ باتت على طهيانٍ  
 والطَّهْيَانُ: عود كانوا يجعلونه مرتفعاً في جانب البيت متلقياً  
 للهواء يعلقون عليه الماء ليبرد<sup>(٤)</sup>.

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٥٢/١٤)، القرطبي (١٤١/٨)، الدر المصون (٥٠/٦).

(٣) البيت ليعلى بن مسلم اليشكري، أو الأحول الكندي، وهو في القرطبي  
 (١٤١/٨)، الدر المصون (٥٠/٦).

(٤) انظر: القرطبي (١٤١/٨).

وقوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ الهمة همزة إنكار؛ لأن أسفه الناس وأقلهم عقلاً هو من يرضى بالدنيا بدلاً من الآخرة؛ لأنه يعتاض القليل التافه من الكثير الذي لا يقدر قدره إلا الله، وفي هذا وبخهم؛ لأنه نقض ضمنى للعقد الذي عقده معهم؛ لأن الله (جلّ وعلا) عقد عُقْدَةً بينه وبين عباده المؤمنين وأبرمها، وهو أنه اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالجهاد، يشتري من المؤمن حياته الدنيوية وهي حياة قصيرة مُنْغَصَّة مشوشة بالأمراض والمصائب والبلايا والمشاق، يشتريها منه بحياة أبدية سرمدية، لا شيب فيها ولا هرم ولا مرض ولا غضب ولا ألم ولا تشویش، ويشتري منه مالاً قليلاً وعرضاً زائلاً من الدنيا بالحدود العيون والولدان وغُرْف الجنة وأنهاؤها وثمارها، والنظر إلى وجه الله الكريم. فهذا هو البيع الرابع، والله يقول في هذه السورة الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: آية ١١١]. هذا هو البيع الرابع والمعاملة الراجحة، أما الذي ينقضها وينكثها ويقدم للدنيا على الآخرة فهذا سفیه يستحق أشد الانكار؛ ولذا أنكر الله عليه بقوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ فإنه لا يقنع بالدون إلا من هو في غاية الدون، وقد صدق من قال<sup>(١)</sup>:

إذا ما عَلَا المرءُ رَامَ العُلَاً      ويقنعُ بالدُونِ من كانَ دُونَاً  
فلا يقنع بالدون إلا من هو دون كما لا يخفى، وهذا معنى

(١) مضى عند تفسير الآية (١٦٨) من سورة الأعراف.

قوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾. قد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن تسمية الله (جلّ وعلا) في كتابه للدار الذي نؤول إليها تسميته إياها (الآخرة) ينبغي للمسلم أن ينظر فيه ويعتبر فيه، وقد أوجب الله على كل إنسان أن ينظر في مبدئه، وإذا نظر في مبدئه دعاه ذلك إلى النظر في انتهاء أمره الذي يؤول به إلى مسمى الآخرة، وإيضاح ذلك أن الله قال بصيغة أمر سماوي من الله ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: آية ٥] لام الأمر في قوله: ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ لام أمر صادرة من خالق السماوات والأرض، متوجهة إلى مسمى الإنسان، يأمره الله أن ينظر إلى الشيء الذي خُلق منه ليعلم مبدأ أمره ومن أين جاء؟ وما سبب وجوده؟ وعلى أي طريق جاء؟ ثم لينظر بعد ذلك في مصيره، وإلى أين يُذهب به، وإلى أين يصير، وإلى أين يكون آخر أمره؟ وقد بيّن لنا هذا المحكم المنزل الذي جمع الله به علوم الأولين والآخرين، مبدأ هذا الإنسان الضعيف ومنتهاه، ومصيره النهائي الذي لا يحيد عنه إلى شيء آخر، فبيّن أن أول الإنسان تراب بلّه الله بماء، وهو قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾ [الحج: آية ٥] فمبدأ رحلة الإنسان ومنشؤه من التراب، بلّه الله بالماء، فصار طيناً، وهو قوله تعالى: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَن خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: آية ٦١] ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: آية ١١] ثم جعل نسله من سلالة من طين، ثم إن الله خمر ذلك الطين حتى صار حمماً مسنوناً، ثم أبيضه حتى صار صلصالاً كالفخار، ثم خلق منه آدم وجعله لحماً ودماً، ثم خلق منه زوجه، كما قال: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ [النساء: آية ١] هي آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء. وذكر ذلك في الأعراف وفي الزمر كما

هو معروف، ثم بعد أن حصل رجل وامرأة صار طريقة وجود الإنسان على طريق التناسل المعروفة، يكون أولاً من نطفة أمشاج من ماء الرجل وماء المرأة، ثم يخلق الله تلك النطفة علقة وهي الدم الجامد الذي إذا صُبَّ عليه الماء الحار لم يذب، ثم يجعل الله تلك العلقة مضغعة، ثم المضغعة عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ويخلق هذا البشر السوي الذي تنظرون إليه، الذي كل موضع إبرة منه فيها من غرائب صنع الله وعجائبه ما يبهر العقول، وقد ذكرنا مراراً أن أعظم ما فُتِنَ به ضعاف العقول من المسلمين حَذَقُ الإفرنج، في حالة الدنيا، ومن أبرع ما برعوا فيه الطب، وأنا أقول لكم: إنه لو اجتمع اليوم جميع من في المعمورة من مهرة الأطباء يريدون أن يعملوا عملية في جنين في رحم أمه فإنهم لا يقدرّون أن يعملوا العملية حتى يشقوا بطنها ورحمها والمشيمة التي على الولد، ثم يأتوا بالأشعة الكهربائية ليتمكنهم أن يروا، ثم يعملوا، فقد تموت وهو الأغلب!! وهذا خالق السماوات والأرض (جلّ وعلا)، ليس فينا ولا فيهم ولا في غيرنا أحد إلا وهو يعمل فيه آلاف العمليات الهائلة وهو في بطن أمه، من غير أن يحتاج إلى شق بطنها، ولا إلى شق رحمها، ولا إلى شق المشيمة التي على الولد ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمَلَكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآئِنِّي تُصَرِّفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: الآية ٦].

هذه الأعين قد فتحها الله (جلّ وعلا) وأنتم في بطون أمهاتكم، وصبغ بعضها بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، وأنبت عليها هذا الشعر، وجعل لها هذا الوعاء من الجفون، وهذا الدماغ خلقه وجعله في هذا الوعاء، وخاط عليه هذه العظام هذه الخيطة الهائلة، وهذا

الأنف خلقه وثقبه، وهذا الفم خلقه وثقبه، وجعل اللسان، وأجرى في الفم عيناً باردة هي الريق، يبتلع بها الطعام، لو أمسك عنه الريق لما ابتلع الزبد الذائب، وشقّ له مجاري البول، ومجاري الغائط، ومجاري العروق والشرايين للدورة الدموية، ولو نُظِرَ إلى موضع عضو واحد من الإنسان لوجد فيه من غرائب صنع الله وعجائبه ما يبهر العقول، ومع هذا كله فخالق السماوات والأرض يجعل هذه العمليات الهائلة فيكم وأنتم في بطون أمهاتكم، من غير أن يحتاج إلى بنج، بل بنج القدرة وعظمة الخالق، يُفعل للمرأة جميع هذا وهي تضحك وتفرح وتمرح وتعصي خالق السماوات والأرض، لا تشعر بشيء، لعظمة وقدرة هذا الإله الخالق العظيم (جلّ وعلا)، ثم إن الله (جلّ وعلا) يخلق هذا الإنسان بما فيه من الغرائب والعجائب الذي كل موضع إبرة منه يبهر العقول بما أودع فيه الله من بارع صنعه وغرائب عجائبه، ثم يخرج من بطن أمه ويسهل له طريق الخروج من ذلك المكان الضيق كما يأتي في قوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرُهُ﴾ [عبس: آية ٢٠] ثم يلهمه أخذ الثدي وهو في ذلك الصغر، ويلطف به حتى يكبر ويعظم ويكون قوياً يجادل في ربه، وتلك المحطة هي التي نحن فيها الآن، فقد جاوزنا ما قبلها من المحطات، وهي التي نحن فيها الآن، وهذه المحطة التي نحن فيها هي المحطة التي يؤخذ منها الزاد، والسفر أمامها طويل، والشقة هائلة، فكأن الإنسان يُقال له: يا مسكين أنت في رحلة عظيمة، وآخرها أعظم من أولها، أشد مسافة وأكبر خطراً وأعظم غرراً، فخذ أهبتك في وقت الإمكان، وليس موضع يمكنك به أخذها إلا في هذا الزمن، الذي لا تدري في أي وقت يقطعك الموت فيه ويخترمك، فعلى الإنسان أن يبادر بأعظم ما

يكون من السرعة ليأخذ زاده ويستعد عدته لبقية هذا السفر العظيم الهائل الشاق، ثم بعد هذه المرحلة تنتقل جميعاً إلى مرحلة تسمى مرحلة القبور، نصير جميعاً إلى القبور كما صار إليها من قبلنا. وذكروا أن أعرابياً بدوياً سمع قارئاً يقرأ ﴿الْهَكْمُ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② [التكاثر: الآيتان ١، ٢]. قال: انصرفوا والله من المقابر إلى دار أخرى<sup>(١)</sup>. لأن الزائر منصرف لا محالة، ثم إنهم يوم القيامة يُخرجون من القبور إلى محطة أخرى وهي محطة عرصات الحشر، يجتمعون فيها جميعاً في صعيد واحد ينفذهم البصر ويُسمعهم الداعي، ثم يقضي الله بين خلقه بالشفاعة الكبرى، شفاعه سيد الأنبياء محمد (صلوات الله وسلامه عليه)، فإذا انقضى حسابهم وتمت مجازاتهم، عند ذلك صدروا أشتاتاً ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَانًا﴾ [الزلزلة: آية ٦] فمذهوب به ذات اليمين إلى الجنة، ومذهوب به ذات الشمال إلى النار، ولا يجتمعون بعد ذلك، وهذا هو قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَانًا﴾، وهذه الأشتات قد أوضح الله معناها في سورة الروم، في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِذٍ يَنْفِرُ قَوْمٌ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: الآيات ١٤ - ١٦]. فإذا دخلوا أماكنهم دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وفي ذلك الوقت يُدعى بالموت في صورة كبش أملح، في مرأى كل منهم ثم يُذبح، ويُقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، وذلك هو معنى قوله: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ③

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٤/٥٤٥).

[مريم: آية ٣٩] إذ قُضي الأمر وذبح الموت واستقر كل في منزله استقراراً أبدياً، فهذا الاستقرار الذي لا تحوّل بعده، من أجله قيل للدار (الآخرة) لأنها ليس بعدها محطة أخرى ينتقل إليها، فهي آخر المحطات التي ينتقل إليها، لا يبغون عنها حولاً في الجنة، ولا خروج لهم من النار، وهذا هو معنى قوله: (الآخرة).

قوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في جنبها وبالنسبة والإضافة إليها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ جداً، قد جاء عن النبي ﷺ أنه ضرب لذلك مثلاً بمن وضع إصبعه في البحر، فليُنظر بماذا يخرج به أصبعه من البحر<sup>(١)</sup>، فذلك بمثابة قلة الدنيا بجنب الآخرة، وهذا معنى قوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لأن الدنيا دار قليل ما فيها، وأهلها الذين كانوا يتمتعون بها إذا بُعثوا يحلفون أنهم ما مكثوا فيها إلا ساعة كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: آية ٥٥] وبين أن أقواهم عقلاً وأثبتهم نظراً يدعي أنهم مكثوا يوماً أو بعض يوم، وهو قوله في طه: ﴿إِذ يَقُولُ آمَنَّا لَهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: آية ١٠٤] وهذا معنى قوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (الدنيا) تأنيث الأدنى، وهي في غاية الدناءة والدنو؛ لأنها قيل من الدنو بأنها عرض عاجل الآن، وقيل من الدناءة بالنسبة إلى الآخرة<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا، حديث رقم: (٢٨٥٨)، (٤/٢١٩٣).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأعراف.

﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: آية ٣٩].

قوله: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا﴾ هي (إن) الشرطية أدغمت في (لا) يعني: إلا تنفروا، إن لم تمتثلوا أمر الله وتنفروا لجهاد أعداء الله وإعلاء كلمته فإن ذلك ضرره عليكم لا على الله ولا على رسوله.

وهذه الآية فيها سر عظيم يعلم به الإنسان أن كل ما يفعله إنما أثره راجع إلى نفسه، فإن كان شراً فهو يجني شراً على نفسه، وإن كان خيراً فهو يجلب الخير لنفسه ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: آية ٧]. فعلى كل عاقل في دار الدنيا أن يعتبر بمعنى هذه الآية وما في معناها من الآيات، وهو أن ما يفعله الإنسان لا يجنيه إلا هو، وأن حركات الإنسان في دار الدنيا يبني بها مسكنه الذي يصل إليه ويخلد فيه خلوداً أبدياً يوم القيامة، فهذه الحركات والسكنات في دار الدنيا يظن الجاهل أنها أمور لا طائل تحتها، ولا يلزم الاحتياط والنظر الدقيق فيها، وهذا من أشنع الغلط؛ لأن حركات الإنسان في دار الدنيا مقبلاً ومدبراً، ذاهباً وجائئاً، متصرفاً هنا وهنا، كله يبني منزله ومقره النهائي، إما أن يبني بذلك غرفة من غرف الجنة يخلد فيها، أو يبني به سجناً من سجون جهنم، هذا هو الواقع، فعلى كل مسلم أن ينظر في أقواله وأفعاله، فيعلم أنه ينفع بالطيب منها نفسه، ويضر بالخبيث منها نفسه، ليحاسب فيجتنب الخبيث ويجتلب الطيب، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا﴾ إلا تمتثلوا أمر الله ورسوله بالنفر إلى الأعداء لجهاد أعداء الله، وإعلاء كلمة الله، ونصر دين الله ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أنتم الذين تنالون الضر من ذلك ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الظاهر أن هذا العذاب شامل لعذاب

الدنيا وعذاب الآخرة، لأن التكاسل عن مقاومة الأعداء في دار الدنيا من أسباب عذاب الدنيا؛ لأنه يضعف المسلمين ويقوي أعداءهم فيُهينونهم في قعر بيوتهم كما هو واقع الآن، لأن المسلمين، أو من يتسمون باسم المسلمين معذبون في أقطار الدنيا من جهة الكفرة، يضطهدونهم، ويظلمونهم، ويقتلونهم، ويتحكمون في خيرات بلادهم، وهذا كله من أنواع عذاب الدنيا لتركهم الجهاد وإعلاء كلمة الله (جلّ وعلا)، وما ذكره غير واحد عن ابن عباس من أنه قال: إن هذه الآية نزلت في بعض قبائل العرب، استنفرهم النبي ﷺ إلى الغزو فامتنعوا، فمنع الله عنهم المطر، وأضرهم بالقحط<sup>(١)</sup>. هذا قد يدخل في الآية في الجملة، ولا يمكن أن يكون معناها؛ لأن الله يقول: ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾. فهذا يدل على أن المراد به ليس حبس المطر، وإن كان حبس المطر من أنواع العذاب التي تسببها مخالفة الله (جلّ وعلا)؛ لأن مخالفة الله وعدم القيام بأمره ونهيه هي سبب كل البلايا كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: آية ٣٠].

﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الأليم: معناه الموجه الذي يجد صاحبه شدة ألمه ووجعه، والتحقيق هو ما قدمناه مراراً<sup>(٢)</sup>: أن الأليم بمعنى المؤلم، وأن (الفعيل) يأتي في لغة العرب بمعنى (المُفَعَّل).

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب: كراهية ترك الغزو، حديث رقم: (٢٤٨٩)،

(١٨٣/٧)، والبيهقي (٤٨/٩)، والحاكم (١١٨/٢)، وابن جرير (٢٥٤/١٤)،

وهو في ضعيف أبي داود ص ٢٤٦.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

فما ذكره بعضهم عن الأصمعي من أن (الفعيل) لا يكون بمعنى (المُفعل) وعليه أراد بعضهم أن يفسر الأليم بأنه يُؤلم به أو يحصل بسببه ألم، فكله خلاف التحقيق، والتحقيق أن من أساليب اللغة العربية إطلاقهم (الفعيل) وإرادة (المُفعل) وهذا معروف في كلامهم، ومنه ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ﴾ [الأنعام: آية ١٠١] أي: مبدعها، ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ [هود: آية ٢٥] أي: منذر لكم، ونظيره من كلام العرب قول غيلان بن عقبة المعروف بذي الرّثمة<sup>(١)</sup>:

ويرفَعُ من صدورِ شَمَرِ دَلَاتٍ يَصُكُّ وِجْوهَهَا وَهَجُّ أَلِيمٍ  
أي: مؤلم، وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي<sup>(٢)</sup>:

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُورِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ  
فقوله: «الداعي السميع» يعني: الداعي المسمع، وقول عمرو بن معد يكرب أيضاً<sup>(٣)</sup>:

وَخَيْلٌ قَدْ دَلَّقَتْ لَهَا بِخَيْلٍ تَحِيَّةَ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ  
أي: موجه. وهذا هو الصحيح.

﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أكثر الله (جلّ وعلا) في القرآن من ذكره أن الموجودين إذا لم يطيعوه ويمثلوا أمره فهو غني عنهم قادر على إزهابهم وإزالتهم بالكلية والإتيان بمن يخلفهم، بل من يكون خيراً منهم، وقد قدمنا هذا مراراً وسيأتي أيضاً، فمن الآيات التي بين بها هذا قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

وَيَأْتِ بِآخِرِينَ<sup>١</sup> وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ [النساء: آية ١٣٣] وقوله في الأنعام: ﴿ وَرَبُّكَ الْعَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ [الأنعام: آية ١٣٣] وقوله تعالى: ﴿ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٥﴾ [إبراهيم: الآيتان ١٩، ٢٥]. وقوله في سورة القتال: ﴿ وَاللَّهُ الْعَفِيُّ وَأَنَّهُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾ [محمد: آية ٣٨] ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ ﴿٥٤﴾ [المائدة: آية ٥٤] أي: بدلاً من هؤلاء المرتدين، وهذا معنى قوله: ﴿ وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴿ [التوبة: آية ٣٩] أي: يأتي بقوم يجعلهم بدلکم خيراً منكم، إذا استنفرُوا نفرُوا، ولا يؤثرُون الحياة الدنيا على الآخرة، كما دلت عليه هذه الآيات المذكورة، وهذا معنى قوله: ﴿ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾.

وقد ذكرنا مراراً<sup>(١)</sup>، أن لفظة (القوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه، يطلق في اللغة العربية الإطلاق الأول على الذكور خاصة دون النساء؛ لأنه وُضع للذكور خاصة، وربما دخلت فيه النساء بحكم التبع إذا دلّ على ذلك قرينة، أما الدليل على أن القوم اسم جمع خاص بالرجال، في أصل وضعه: فقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ [الحجرات: آية ١١] ثم قال: ﴿ وَلَا يُسَاءُ مِنْ نِسَاءٍ ﴾ فعطفه النساء على القوم يدل على عدم دخولهن في اسم القوم، ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى<sup>(٢)</sup>:

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

فعطف النساء على القوم، وربما دخلت النساء في اسم القوم بحكم التبع إذا دلت على ذلك قرينة خارجية، ومنه قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: آية ٤٣].

وقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ قال بعض العلماء: الضمير المنصوب في «تضروه» عائد إلى الله، أي: لا تضروا الله شيئاً بعدم امتثالكم أمره ولا سعيكم في إعلاء كلمته<sup>(١)</sup>. وهذا الوجه هو الذي يشهد له القرآن كقوله (جلّ وعلا): ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [محمد: آية ٣٢] وتدل على هذا الآيات القرآنية الكثيرة أن الله غني عن خلقه الذين يدعوهم لطاعته، فإنما يدعوهم لنفعهم، فامثالهم نفعه لهم، وتمردهم ضرره عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَقَوْلُوا وَاسْتَعْنَىٰ اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: آية ٦]، ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: آية ٨]، ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: آية ٧] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: الضمير المنصوب عائد إلى النبي ﷺ<sup>(٢)</sup>، أي: لا تضروا النبي ﷺ بذلك؛ لأن الله تكفل له بنصره، كما يأتي في قوله: ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ...﴾ الآية [التوبة: آية ٤٠]

(١) انظر: القرطبي (١٤٢/٨)، ابن كثير (٣٥٨/٢).

(٢) انظر: القرطبي (١٤٢/٨).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: آية ٣٩] معناه: أنه (جلّ وعلا) قادر على كل شيء، فهو قادر على ما شاء، وقادر أيضاً على ما لم يشأ، فهو (جلّ وعلا) قادر على هداية أبي بكر الصديق، وقادر على هداية أبي لهب، لا شك أنه قادر على الأمرين، وقد أراد أحد المقدورين، وهو هداية أبي بكر، ولم يرد المقدور الثاني وهو هداية أبي لهب، فهو (جلّ وعلا) قادر على كل شيء، لا يتعاصى عليه شيء، يقول للشيء كن فيكون، خلقه لجميع البشر كخلق له نفس واحدة ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: آية ٢٨] لأنه (جلّ وعلا) لا يتعاصى على قدرته شيء سبحانه (جلّ وعلا).

/ يقول الله جلّ وعلا: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٤٠].

هذه الآية يقول الله (جلّ وعلا) فيها للذين تكاسلوا عن غزوة تبوك وتثاقلوا وتباطؤوا أن يغزوا الروم مع النبي ﷺ: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ﴾ (إن) هي الشرطية مدغمة في (لا) والضمير المنصوب في (تنصروه) عائد إلى النبي ﷺ، يعني: إن تتعاسوا وتثاقلوا عن نصرته نبيه ﷺ في غزوة تبوك فإن الله ناصره لا محالة، سواء تثاقلتم أم لم تثاقلوا. وقد بين (جلّ وعلا) أنه نصره في حالة الضعف والقلّة، في حالة كان هو وصاحبه داخلين في غار مختلفين عن المشركين، فلما نصره الله في حالة الضعف والقلّة فكيف لا ينصره في حالة الكثرة والقوة؟ وهذا

معنى قوله: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ﴾ فالله ناصره على كل حال، ثم بين نصره له السابق في حالة الضعف والقلّة ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ على أعدائه حيث أنجاه الله منهم، وخبّيب مكرهم وأبطله، ثم أظهره عليهم بعد ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾.

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين أخرجه الذين كفروا وهم كفار مكة، ومعنى إخراجهم له أنهم اضطروه وألجؤوه إلى أن يخرج؛ لأن النبي ﷺ كان في حياة عمه أبي طالب يدفع عنه مكر قريش، ويحميه منهم، ويقول له<sup>(١)</sup>:

وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ  
حَتَّى أَوْسَدَ فِي التُّرَابِ دَفِينًا

فلما مات أبو طالب وجاء الأنصار وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة خاف قريش من النبي ﷺ، وعظم عليهم أمره، وهالهم شأنه، فقالوا: هذا الرجل صار له أتباع في القبائل الأخرى، فما نأمن أن يغزونا بأتباعه فيحتلنا. واعتزموا على أن يقتلوه، وقد قدمنا السبب الذي ألجأ النبي ﷺ إلى الهجرة في سورة الأنفال، في الكلام عليّ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> [الأنفال: آية ٣٠]. وذلك أن قريشاً لما هالهم أمر النبي ﷺ وعظم عليهم شأنه، وخافوا أن تتبعه قبائل العرب فيغزوهم بهم حاولوا أن يقتلوه، فاجتمعوا في دار الندوة، واجتمع جميع سادات قبائل قريش في ذلك الاجتماع، وجاءهم إبليس - عليه لعائن الله - في صورة شيخ جليل جائياً من

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣) من سورة التوبة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

بلاد نجد، وقال لهم: قد علمت بما اعتزمتم عليه. وأراد أن يجلس معهم ليتبادل معهم الرأي، فأدخلوه معهم، فتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، فقال قائل منهم، يقال هو أبو البختری: احبسوه ونترکه محبوساً حتى يموت. فقال ذلك الشيخ الذي هو إبليس في صورة ذلك الشيخ: ليس هذا لكم برأي؛ لأنكم إن حبستموه جاء بنو عمه وأتباعه فانترعوه منكم، وغلبوكم عليه. فقال آخر: نرى أن نخرجه من بلادنا وأرضنا ونصلح شأننا بعده إذا أخرجناه. فقال لهم إبليس اللعين في صورة ذلك الشيخ: ليس هذا والله برأي؛ لأنكم إن أخرجتموه فقد عرفتم حلاوة منطقته، وعذوبة لسانه، فقد يتبعه الناس فيغزوكم في دياركم فيغلبكم على أمركم. فقال أبو جهل لعنه الله: إن عندي لرأياً ما أراكم ذكرتموه، خذوا من كل قبيلة من قبائل قريش شاباً حدثاً قوياً وأعطوه سيفاً وأمرؤهم يضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في قبائل قريش، فلن يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا جميع قريش، فيقبلوا منا عقله، فنعقله ونعطيهم دينه، ونستريح من شأنه. فقال لهم إبليس اللعين: هذا والله هو الرأي. فأجمعوا رأيهم على هذا وأنهم يقتلونهم، واجتمعوا لتنفيذ ذلك عند باب الدار التي ينام فيها رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر (رضي الله عنه) قبل ذلك هاجر إلى الحبشة فيمن هاجر، فلقية عمرو بن الدغنة سيد بني القارة، وهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس، فقال لأبي بكر: أنت لا تذهب، وأنت في ذمتي. فرجع به في ذمته، وأعطاه قريش ذمة ابن الدغنة على أن لا يظهر قراءته ولا دينه، وأن يجعل دينه سراً في بيته، فلما طال ذلك على أبي بكر (رضي الله عنه) صار يُظهر صلاته وقراءته، فأرسلت قريش إلى عمرو بن الدغنة، الذي كان في ذمته

أبو بكر (رضي الله عنه)، فقالوا: نحن لا نحب أن نخفر ذمتك، وإن صاحبك صار يفعل ما لم يحصل عليه الاتفاق، فكلم ابن الدغنة أبا بكر (رضي الله عنه) فقال: إما أن تفي بالشرط الذي توافقنا عليه، وإما أن ترد إلي ذمتي. فقال له أبو بكر (رضي الله عنه): رددت إليك ذمتك، وأنا في ذمة الله تعالى. وكان أبو بكر لما أراد أن يهاجر أشار له النبي ﷺ أنه يطمع أن يؤذن له في الهجرة، فقعد أبو بكر (رضي الله عنه) طمعاً في أن يؤذن لرسول الله ﷺ في الهجرة فيكون رفيقه، واشترى راحلتين، وكان يعلفهما الخَبَط، وهو ورق السمرة، شجر معروف، علفهما إياه أشهراً عديدة، أربعة، أو ستة، أو غير ذلك. فلما اجتمعت قريش لقتل النبي ﷺ وكان النبي ﷺ يأتي بيت أبي بكر كل يوم إما أول النهار أو آخره، فبينما هم ذات يوم إذ قدم عليهم رسول الله ﷺ في حر الظهيرة، فقال أبو بكر: هذا وقت ما جاءنا به رسول الله، والله ما جاء إلا لأمر حدث. ثم لما دخل عليه رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: أقم من عندك. فقال: هم أهلك يا رسول الله، هم ابنتاي - يعني عائشة وأسماء (رضي الله عنهما) - فأخبر النبي أبا بكر (رضي الله عنه) أن الله أذن له في الهجرة، فقال: الصحبة يا رسول الله. فقال: الصحبة. قالت أسماء (رضي الله عنها): ما رأيت أحداً يبكي من الفرح قبل ذلك اليوم، فأبو بكر يبكي من الفرح. كذا قاله غير واحد من أهل الأخبار والسير، ثم إن قريشاً اجتمعوا لتنفيذ الخطة وقتل رسول الله ﷺ، فجاء جبريل فأخبر النبي ﷺ وأمره بالخروج، فنادى النبي ﷺ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأمره أن يضطجع في مكانه، وأن ينام في البُرد الذي كان ينام فيه رسول الله ﷺ، ثم إن الله أخذ بأعينهم فمر بهم النبي ﷺ

وقرأ عليهم آيات من أول سورة يس حتى بلغ ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: آية ٩] ووضع على رأس كل واحد منهم التراب. ثم خرج هو وأبو بكر (رضي الله عنه). قال بعضهم: خرج من خوخة في قفى دار أبي بكر التي في بني جُمَح، وذهب هو وأبو بكر إلى الغار، وهو غار في جبل من جبال مكة يُسمى ثوراً، فدخل فيه هو والنبي ﷺ، وجاءه ليلاً، ومكثوا فيه ثلاث ليال بأيامها حتى يرجع الطلب، وآجروا رجلاً من بني دؤل بن كنانة يُسمى عبد الله بن الأريقط على دين كفار قريش، يُقال: إن له خوؤلة في بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، فأمنه واستأجره على راحلتيهما وواعده بعد ثلاث ليالٍ أن يأتيهم بالراحتين في غار ثور، وكان كافراً أميناً، كتم سرهما وحفظ عليهما أمرهما، وجاءهما في الموعد، وكان عبد الله بن أبي بكر (رضي الله عنهما) غلاماً ثَقِفاً شاباً عاقلاً، كان يأتيهم بأخبار قريش وكل ما قالوا وتحديثوا به في شأنهم في النهار يأتيهم به في الليل في الغار، وكانت أسماء (رضي الله عنها) تأتيهم بالطعام، وكان عامر بن فهيرة الطائي (رضي الله عنه) مولى أبي بكر الصديق كان عبداً مملوكاً لأولاد أم رومان، وهي أم عائشة، كانت لها أولاد قبل أبي بكر، وكان عامر بن فهيرة هذا عبداً لهم، فاشتراه أبو بكر (رضي الله عنه) فأعتقه، فكان مولى لأبي بكر، كان يريح على النبي وأبي بكر غنماً لأبي بكر (رضي الله عنه) فيحلب لهم منها فيشربون بالليل، ثم إذا كان في آخر الليل صاح بها فأصبح مع رعاء قريش، ولا يدرون أنه كان معهم. فمكثوا فيها ثلاث ليال، فجاءهم عبد الله بن الأريقط الدؤلي - رفيقهم - وركبا، وكان خريّتا ماهراً، سار بهم في طرق غير معهودة؛ لأن الطرق المعهودة عليها

الرصد والعيون، وكانت قريش أخذوا قائفاً خبيراً بقص الأثر يقال هو سراقه بن مالك بن جعشم، ويقال هو غيره، فاقتص بهم الأثر حتى بلغ الغار، وقال: من هاهنا ضاع الأثر. ويقول أصحاب الأخبار والسير: إن الله قيّض العنكبوت فنسجت على الغار<sup>(١)</sup>، وقيّض حمامتين وحشيتين فباضتا على فم الغار<sup>(٢)</sup>، فلما جاء كفار مكة ووصلوا فم الغار، قال أبو بكر لرسول الله ﷺ: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا. فقال له رسول الله ﷺ: «ما بالك بائنين الله ثالثهما؟»<sup>(٣)</sup> فرجعوا خائبين. فلما كان بعد ثلاث ليال ورجع الطلب جاءهم عبد الله بن الأريقط براحتيهما وركبا ومعهما عامر بن فهيرة. وكان عامر بن فهيرة رديف أبي بكر والنبي ﷺ على إحدى الناقتين اللتين اشتراهما أبو بكر لهذا الغرض، وهي ناقته العضباء المشهورة، ولما عرضها عليه أبو بكر (رضي الله عنه) أبى أن يقبلها إلا بالثمن (صلوات الله وسلامه عليه)، فخرج بهما في طريق يُسمى طريق الساحل، وجاء إلى طرق غير معهودة، وابن إسحاق ذكر المَحَالّ التي جاء منها<sup>(٤)</sup>، تارة يصلون إلى الطريق المعهودة، وتارة يخرجون عنها

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه ابن سعد (١/١٥٤)، والبخاري (كشف الأستار ٢/٢٩٩)، ولا يصح في

بيض الحمامتين شيء، وانظر: أحاديث الهجرة ص ١٣٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم،

منهم أبو بكر رقم (٣٦٥٣)، (٨/٧)، وانظر: الأحاديث رقم (٣٩٢٢)،

(٤٦٦٣).

وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر الصديق، رقم:

(٢٣٨١)، (٤/١٨٥٤).

(٤) نقله عنه ابن هشام ص ٥١٤ - ٥١٦، وابن كثير في البداية والنهاية (٣/١٨٩)، =

حتى وصلوا المدينة. ومن أشهر ما حصل في طريقهم إلى المدينة قصة أم معبد، وقصة سراقه بن مالك بن جعشم. ومما نزل من القرآن في هذا السفر، نزلت فيه آيات من القرآن منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلَدِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدِكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: آية ٨٥] قال بعض العلماء: نزلت في الجحفة في سفر الهجرة هذا، وفي هذا السفر مرّ على ديار بني مدلج، يقول بعضهم: هي قريب من قديد فقال رجل: رأيت أشخاصاً كأنهم القوم الذين يطلبهم قريش. فعلم سراقه بن مالك أنهم هم، ولكنه طمع بأن يأخذهم أو يقتلهم فينال الجعائل التي جعلتها قريش. فقال: لا، أولئك قوم خرجوا للكلا. ثم بعد هنيهة خرج وأمر جاريته أن تسرح فرسه من وراء أكّمه، ثم خرج مختفياً فركب على فرسه، فلما قاربهما ساخت به قوائم فرسه في الأرض، في القصة المشهورة، فطلب الأمان من رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>، قال بعض أهل السير والأخبار: إن النبي ﷺ كتب له رقعة، وصار يثبط الناس ويردهم عن رسول الله ﷺ، فسمع بذلك الخبيث أبو جهل، وأرسل إلى بني مدلج يحذرهم من نصر سراقه لنبي الله ﷺ، ويقول أبو جهل لعنه الله في ذلك أشعاراً في غاية الكفر، ويعيب على سراقه نصره لنبي الله ﷺ، ومما يقول في ذلك<sup>(٢)</sup>:

بني مُدْلِجِ إِنْني أَخَافُ سَفِيهِكُمْ  
سُرَاقَةَ مُسْتَعْوٍ لِنَصْرِ مُحَمَّدٍ

= وقد جاء ذلك في بعض الروايات عند الحاكم (٨/٣)، وابن سعد (١٥٧/١/١)، وانظر: مجمع الزوائد (٥٥/٦).

(١) خبر سراقه وما قبله مما يتعلق بالهجرة من روايات كل ذلك تقدم تخريجه في مواضع سابقة، منها عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٢) البيتان في البداية والنهاية (١٨٦/٣).

عليكم به ألا يُفَرِّقَ شَمْلَكُمْ فيصبحَ شَتَّى بعد عزِّ وسُوْدَدِ  
فسمع بشعره سراقه بن مالك وأرسل إليه بأبياته المشهورة التي  
ذكرها غير واحد من المؤرخين وأصحاب السير وهو قوله (وكان  
أبو جهل يكنى أبا الحكم)<sup>(١)</sup>:

أبا حكم واللَّه لو كنتَ شاهداً لأمرِ جَوَادِي إذ تسوخ قوائمه  
علمتَ ولم تَشْكُكْ بأن محمداً رسولٌ ببرهان فمن ذا يقاومه  
عليك بكفِّ القوم عنه فإنني أرى أمره يوماً ستبدو معالمه  
بأمر يود الناس فيه بأسرهم بأن جميع الناس طراً يسالمه

ومر في هذه الطريق بعاتكة بنت خالد الخزاعية المعروفة بأمر  
معبد (رضي الله عنها)؛ لأنها أسلمت وقد رويت قصتها عنها وعن  
أخيها حُبَيْش بن خالد ويقال خُنَيْس بن خالد وغيرهما<sup>(٢)</sup> أنهم كانوا

(١) الأبيات في دلائل النبوة للبيهقي (٤٨٩/٢)، البداية والنهاية (١٨٦/٣) مع  
اختلافات يسيرة في الأبيات الثلاثة الأولى، أما البيت الأخير فنصه في البداية  
والنهاية:

بأمرٍ توذُ النصرَ فيه فإنهم وإنَّ جميعَ الناسِ طُراً مُسَالِمْهُ  
وفي الدلائل:

بأمر يود النصر فيه بِإِلْبِهَا لو أن جميع الناس طُراً تسالمه  
(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٧٦/١)، (٤٩١/٢)، والحاكم (٩/٣)،  
وابن سعد (١٥٥/١/١)، وابن عساكر. انظر: (تهذيب تاريخ دمشق ٣٢٦/١)،  
والآجري في الشريعة ص ٤٦٥.

وذكره الهيثمي في المجمع (٥٥/٦) من حديث جابر (رضي الله عنه) مختصراً،  
وعزاه للبخاري، وقال: «وفيه من لم أعرفه». اهـ، وأورده من حديث حبش بن  
خالد (رضي الله عنه) (٥٥/٦)، وقال (٥٨/٦): «رواه الطبراني في إسناده  
جماعة لم أعرفهم». اهـ.

في شدة، وكانت أغنامهم عازبة، فمرّ بها رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة وعبد الله بن الأريقط، فسألوها هل عندها لحم أو تمر يباع؟ فقالت: لا شيء عندها. وقالت: لو كان عندنا القرى ما أعوزكم. لأن الحي في شدة، والأغنام عازبة، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر خيمتها فقال: «ما بال هذه الشاة؟» قالت: خلّفها الجهد. قال: «أتأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: إن وجدت فيها حليباً فاحلبها. فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح ضرعها وسمى الله، فتفاجت واجترت، ودعا بإناء عظيم فحلب فيه حتى امتلأ، فسقاها هي ومن معها، ثم سقى قومه، وشرب ﷺ وقال فيما يقول أهل الأخبار: «ساقى القوم آخرهم شرباً»<sup>(١)</sup> ثم أخذ الإناء وملاه مرة أخرى وتركه عندها وخرج. فلم تمكث إلا قليلاً أن جاء زوجها أبو معبد فوجد الإناء مملوءاً من اللبن، فعجب منه وقال: كيف هذا اللبن؟ ولا حلوبة في البيت؟ فقالت: جاءنا رجل مبارك من صفته كيت وكيت، فقال: صفيه لي يا أم معبد. فوصفته وصفها المشهور، فقالت له: رأيت رجلاً ظاهر الوضأة، حسن الخلق، مليح الوجه، لم تعبهُ نُجْلَةٌ<sup>(٢)</sup>، ولم تُزر به صُعْلَةٌ، قسيم وسيم، في عينيه دَعَجٌ، وفي

= كما أورده من حديث قيس بن النعمان (٥٨/٦) وقال: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح». اهـ.

(١) أخرجه ابن سعد (١٥٥/١/١) في خبر الهجرة، وهذه الجملة «ساقى القوم آخرهم شرباً» وردت أيضاً في مناسبة غير سفر الهجرة، كما في حديث أبي قتادة (رضي الله عنه) عند مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفاتئة رقم (٦٨١)، (٤٧٢/١).

(٢) المثبت في أكثر الروايات (نُجْلَةٌ)، وفي بعضها: (نُحْلَةٌ). والنُجْلَةُ: عظم البطن، والنحلة: الدقة والنحول.

أشفاره حَوْر، وفي صوته صَحْل، أكحل أقرن أزج، في عنقه سَطَع، وفي لحيته كثافة. إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعليه البهاء، حلو المنطق، فَصْلٌ ليس بنزر ولا هَذْر، كأن منطقَه خَرَزَاتِ نظم يتحدَّرْنَ أو ينحدرن، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم من قريب، رَبْعَةٌ لا تَسْوُهُ عَيْنٌ لَطولُه، ولا تَقْتَحِمُه عَيْنٌ لِقَصْرِهِ، إلى آخر ما ذكرت من أوصافه الكريمة الجليلة صلوات الله وسلامه عليه<sup>(١)</sup>.

وهذه المعاني الجليلة قد لا يفهمها كل الناس، سنشير إلى ما لا يفهم منها:

فقولها: (لم تعبهُ التُّجْلَةُ)<sup>(٢)</sup>: بضم التاء والجيم معناه عِظْمُ البطن وكبرها. وقيل: ارتفاع الخاصرتين وتوؤهما.

(ولم تُزْرِ به صُعْلَةٌ): الصُعْلَةُ: صغر الرأس صغراً مفرطاً. يعني: ليس ضخم البطن، ولا صغير الرأس جداً، بل هو ضامر البطن، رأسه ليس بصغير صغراً مزرياً.

وقولها: (في عينيه دَعَج): الدَّعَج: سواد العين مع سعتها.

وقولها: (في أشفاره وَطَف): الوَطَف: هو كثرة شعر الجفن.

وقولها (أزج) تعني: قليل شعر الحاجب.

وقولها: (أقرن): تعني أن شعر حاجبيه يمتد طرف هذا حتى

يقرب من هذا مع الرَّجَج فيه.

(١) هذه الأوصاف وردت في بعض الروايات عند الحاكم (٩/٣)، والبيهقي في

الدلائل (١/٢٧٨ - ٢٧٩)، وابن سعد (١/١٠٦)، وابن عساكر (تهذيب

تاريخ دمشق ١/٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢) راجع الحاشية قبل السابقة.

وقولها: (في عنقه سَطَع): أي طول؛ لأنه ليس قصير العنق.  
إلى آخر ما ذكرته من أوصافه الجميلة.

فلما جاء زوجها قال: هذا والله صاحب قريش الذي يطلبونه  
ولأجهدن في أن أصحابه. وذكر غير واحد أنه أسلم بعد ذلك وهاجر  
إلى النبي ﷺ.

وفي صبيحة ذلك اليوم سمع قريش هاتفاً من الجن يسمعون  
صوته مرتفعاً، ولا يرون شخصه، يُنشد ذلك الشعر المشهور الذي  
يقول فيه<sup>(١)</sup>:

جَزَى اللّهُ رَبَّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ	رَفِيقَيْنِ حَلًّا حَيْمَتِي أُمَّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلَا بِالْبِرِّ وَارْتَحَلَا بِهِ	فَأُصْلِحَ مِنْ أُمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
فَيَا لَقْصِيٍّ مَا زَوَى اللّهُ عَنْكُمْ	بِهِ مِنْ فَعَالِ اللّهِ جَاهًا وَسُودِدِ
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانَ فَتَاتِهِمْ	وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ
سَلُّوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِيهَا وَإِنَائِيهَا	فَإِنْكُمْ إِنْ تَسَأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ

ولم يدرِ قريش أين ذهب النبي ﷺ حتى سمعوا هاتفاً من الجن  
على أبي قُبَيْسٍ ينشد هذا الشعر، يسمعون أيضاً صوته ولا يرون  
شخصه:

فإن يُسَلِّمِ السَّعْدَانُ يُصْبِحُ مُحَمَّدٌ  
بِمَكَّةَ لَا يَخْشَى خِلَافَ الْمُخَالِفِ

فقال أبو جهل: ما هذان السعدان، سعد كذا أو سعد كذا<sup>(٢)</sup>.

(١) هذه الآيات ضمن الرواية المفصلة في قصة أم معبد، وقد سبق تخريجها قريباً.  
(٢) القائل هو أبو سفيان، ومقالته: «من السعدان: أسعد بن بكر، أم سعد بن  
هذيم؟» وهما قبيلتان.

فسمع بعد ذلك الهاتف يقول<sup>(١)</sup>:

أَيَا سَعْدُ سَعْدَ الْأَوْسِ كُنْ أَنْتَ نَاصِرًا      وَيَا سَعْدُ سَعْدَ الْخَزْرَجِينَ الْغَطَارِفِ  
أَجِيئَا إِلَى دَاعِي الْهَدَى وَتَمَنِّيَا      عَلَى اللَّهِ بِالْفَرْدَوْسِ مُنِيَّةَ عَارِفِ  
فَإِنْ جَزَاءَ اللَّهِ لِلطَّالِبِ الْهَدَى      جَنَّانٌ مِنَ الْفَرْدَوْسِ ذَاتِ رِفَارِفِ

ثم إن النبي ﷺ استمر في طريقه ذاهباً إلى هذه المدينة - حرسها الله - وكان الأنصار (رضي الله عنهم) سمعوا بخروج النبي ﷺ، وكان النبي في طريقه، لقي الزبير بن العوام كما ذكره البخاري<sup>(٢)</sup> في قوم مسلمين جاؤوا تجاراً من الشام، فكساهم ثياباً بيضاً وجاؤوا يلبسون ثياباً بيضاً، وكان الأنصار كلما صلوا الصبح خرجوا إلى حرتهم ينتظرون رسول الله ﷺ فرحاً بقدومه، فلم يزالوا ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال، والزمن زمن حر في ذلك الوقت، ولم يزالوا كذلك حتى رجعوا إلى بيوتهم وقت شدة الحر بعد أن غلبتهم الشمس على الظلال، فصعد رجل من يهود على أطم من أطامهم فأبصر برسول الله ﷺ والذين معه في ثياب بيض يزول بهم السراب، فلم يتمالك أن نادى بأعلى صوته: يا بني قَيْلَةَ هذا جدُّكم الذي تنتظرون، فثار الأنصار في السلاح وتلقوه (صلوات الله وسلامه عليه)<sup>(٣)</sup>. وفي بعض الروايات الثابتة<sup>(٤)</sup> أنه لما قرب من المدينة

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/٤٢٨ - ٤٢٩)، ونقله عنه ابن كثير في البداية والنهاية (٣/١٦٥).

(٢) مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم: (٣٩٠٦)، (٧/٢٣٨ - ٢٣٩).

(٣) الكلام إلى هذا الموضوع تابع لرواية البخاري.

(٤) أوردها ابن هشام (٥١٧ - ٥١٨)، وابن كثير في تاريخه (٣/١٩٦).

جلس في ظل نخلة، وأن الأنصار جاؤوه في السلاح، وكان كثير منهم لم يرَ النبي ﷺ ولم يعرف هو أو أبو بكر جلس تحت ظل تلك الشجرة حتى تحول الظل عن النبي ﷺ فقام أبو بكر فظلّ عليه بردائه، فعلموا أنه هو. وجاء في بعض الروايات أنه جاء المدينة في حرّ الظهيرة<sup>(١)</sup>. وفي بعضها<sup>(٢)</sup> أنه دخلها في الليل. وقد وفق بينهما بعض العلماء<sup>(٣)</sup> بأن أصل قدومه وقت الظهيرة، وأنه جلس تحت تلك النخلة حتى صار آخر النهار. فجاء بني عمرو بن عوف في قباء، وقدم أولاً على بني عمرو بن عوف من الأوس في قباء ومكث فيهم مدة. واختلف العلماء في قدر المدة التي مكث فيهم<sup>(٤)</sup>، فثبت في صحيح البخاري وغيره أنه مكث فيهم بضع عشرة يوماً<sup>(٥)</sup>، وجاء علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأدرك النبي ﷺ وهو في بني عمرو بن عوف بقباء؛ لأن النبي ﷺ كانت تدعوه قريش (الأمين) وكان عنده كثير من الودائع يحفظها لأمانته عندهم، فخلف علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بعد أن هاجر هو وأبو بكر حتى يرد على الناس ودائعهم، ثم يتبعه ﷺ، فلحق به وهو في بني عمرو بن عوف بقباء. كان ابن إسحاق يقول: قدم النبي ﷺ على بني عمرو بن عوف بقباء يوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول، ومكث فيهم

(١) كما في رواية البخاري السابقة عن عروة.

(٢) كما في رواية مسلم من حديث الهجرة المخرج في الصحيحين من حديث البراء عن أبي بكر (رضي الله عنهما)، وقد تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/١٩٦)، فتح الباري (٧/٢٤٤).

(٤) انظر: تاريخ ابن كثير (٣/١٩٨)، فتح الباري (٧/٢٤٤).

(٥) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

يوم الاثنين ويوم الثلاثاء والأربعاء والخميس<sup>(١)</sup>، ثم سار يوم الجمعة إلى المدينة. وهذا قول ابن إسحاق. وروى البخاري عن طريق الزهري ما يقتضي أنه مكث في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة<sup>(٢)</sup>. فلما خرج من بني عمرو بن عوف ذاهباً إلى المدينة، قال ابن إسحاق وغيره<sup>(٣)</sup>: وافته الجمعة حذاء مسجد بني سالم بن عوف، المسجد الذي في الوادي بين قباء والمدينة، فصلى فيه الجمعة. قالوا: وهي أول جمعة صلاها بالمدينة، فجاءه عتبان بن مالك (رضي الله عنه) وعباس بن عباد بن نضلة في رجال من بني سالم بن عوف، وقالوا: يا نبي الله: أقم عندنا في العزة والعدد والمنعة. فقال يعني ناقته: «خلوا سبيلها إنها مأمورة» فخرجت ذاهبة إلى المدينة، فلما وازى دور بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة فقالوا: يا نبي الله هلم إلينا في العدة والعدد والمنعة. قال: «خلوا سبيلها إنها مأمورة» فلما مرت بديار بني ساعدة من الخزرج تلقاه سعد بن عباد (رضي الله عنه) والمنذر بن عمرو (رضي الله عنهم) وقالوا: يا نبي الله هلم إلينا في العدة والعدد والمنعة. قال: «خلوا سبيلها إنها مأمورة» فلما مرت ببني عدي بن النجار وهم أخواله الأقربون ﷺ؛ لأن جده عبد المطلب أمه سلمى بنت عمرو بن زيد من بني عدي بن النجار، تلقاه منهم رجال منهم سليط بن قيس وأبو سليط. فقالوا: يا نبي الله هلم إلى أخوالك في العدة والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها إنها مأمورة» فلما مرت

(١) نقله ابن هشام ص ٥٢٠.

(٢) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٣) نقله ابن هشام ص ٥٢٠.

بديار بني الحارث بن الخزرج<sup>(١)</sup> تلقاه جماعة منهم، منهم سعد بن الربيع، وعبدالله بن رواحة، وخارجة بن زيد (رضي الله عنهم)، في رجال من بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا في العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها إنها مأمورة» حتى بلغت ديار بني مالك بن النجار فبركت بجانب هذا المسجد. وكان إذ ذلك الوقت مربدأ، والمربد موضع إصلاح التمر، وكان ليتيمين من بني مالك بن النجار هما سهل وسهيل ابنا عمرو، وابن إسحاق يقول<sup>(٢)</sup>:  
 إنهما في حجر معاذ بن عفراء. وجاء في صحيح البخاري من طريق الزهري ما يقتضي أنهما في حجر أسعد بن زرارة (رضي الله عنه)<sup>(٣)</sup>.  
 فبركت الناقة، فلما بركت قال ابن إسحاق<sup>(٤)</sup>: لم ينزل عنها رسول الله ﷺ حتى قامت ومشت قليلاً ثم التفتت ورجعت إلى مبركها الأول. وتحلحلت فيه ووضعت جرانها في الأرض. والجران: باطن عنق البعير، وكان أقرب بيت لذلك بيت أبي أيوب الأنصاري — خالد بن زيد (رضي الله عنه) — فأخذ رحل رسول الله ﷺ إلى بيته، ولم يزل ﷺ في بيت أبي أيوب حتى بنى هذا المسجد، وبنى مساكنه وحجره التي بجانبه فانتقل إليها.

هذا ملخص عما جاء في هذا السفر المبارك، سفر الهجرة، فيه بعض روايات ثابتة في الصحيح، وفيه كثير منه في السيرة والأخبار،

(١) كان مروره ﷺ بديار بني الحارث بن الخزرج قبل مروره ببني عدي بن النجار كما في رواية ابن إسحاق.

(٢) نقله ابن هشام ص ٥٢١.

(٣) تقدم تخريجها قريباً.

(٤) وعنه ابن هشام ص ٥٢١.

والسير والأخبار تُحكى، وإنما يُحتاج إلى التصحيح فيها لما يتوقف عليه بعض الأحكام الشرعية، وهذه القصة ذكر بعض العلماء فيها أحكاماً مفيدة كثيرة منها:

أن النبي ﷺ استأمن كافراً على سره وأمنه، وانتفع بخبرة كافر، ومثل هذا يحتاج إلى التنبيه عليه اليوم؛ لأن الناس اليوم بين مُفْرِطٍ ومُفْرِطٍ في الانتفاع من الكفار، فبين مُفْرِطٍ يزعم أن تقليد الكفار يلزم في كل شيء، حتى ولو كان الانسلاخ من دين الله، ومنهم مُفْرِطون يقولون: لا تأخذوا عنهم شيئاً ولو من أمور الدنيا البحتة. والتحقيق أنه يؤخذ عنهم ما يجوز أخذه، ولا يؤخذ عنهم ما لا يجوز أخذه. والنبي ﷺ علّم أمته ذلك في وقائع كثيرة، من ذلك أنه لما لم يجد إلا أميناً كافراً اتّمن هذا الأمين الكافر وعامله وانتفع بخبرته العظيمة في الطرق على حد قولهم: «اجتن الثمار وألق الخشبة في النار»<sup>(١)</sup> ولم يكن جامداً، ولم يقل: هذا كافر، والكافر خبيث، والانتفاع بالخبيث خبيث. بل تبرأ منه. لا، بل انتفع بخبرته واستأجره؛ ولهذا نظائر كثيرة، من ذلك: أن النبي ﷺ لما سمع بقدوم الأحزاب مع كثرتهم وقلة المؤمنين قال له سلمان الفارسي: كنا إذا خفنا خندقنا<sup>(٢)</sup>. فالخندق خطة عسكرية ابتدعتها أذهان فارس، وهم كفار يعبدون النار، فلم يقل النبي ﷺ: هذه خطة نجسة؛ لأن الكفار ابتدعوها. بل أخذ بها وانتفع بها وهو متمسك بدينه، وقد ثبت في صحيح مسلم ما يقتضي أن النبي ﷺ همّ بمنع الغيلة، وهي وطأ المرضع؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن المرأة إذا

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

كانت ترضع ولدها إذا جامعها زوجها وهي ترضع ولدها أن ذلك يضعف ولدها ويضعف عظمه ويضره، وكانوا إذا ضرب الرجل فبنا سيفه عن الضريبة، قالوا: هذا من آثار الغيلة عليه، وُطئت أمه وهو يرضعها حتى كان شاعرهم يقول<sup>(١)</sup>:

فوارسٌ لم يُغَالُوا في رَضَاعٍ فَتَنَّبُوا في أَكْفُهُم السِّيفُ

فسمع ﷺ عن الروم وفارس أنهم يفعلون هذا ولا يضر أولادهم فأخذ هذه الخطة الطيبة عن الروم وفارس<sup>(٢)</sup>. وهذه الخطة العسكرية عن فارس والانتفاع بهذه الخبرة عن هذا الرجل الكافر الذي يعبد الوثن ليعلم أمته أنهم يأخذوا من الكفار أمورهم الدنيوية البحتة، ولا يقلدهم في كفرهم وضلالهم، وهذا واضح لا إشكال فيه.

ومعنى الآية الكريمة: أن الله (جلّ وعلا) يقول: إلا تنصروا نبي الله وتتقاعسوا وتتباطؤوا عنه في غزوة تبوك فالله يكفيه ولا يحتاج إليكم وقد نصره في مواضع أعسر وأشد من هذا، فقد نصره الله حين أخرجهم الذين كفروا بما ذكرنا من تواطئهم عليه وإلجائهم إلى الخروج. كان بعض العلماء يقول<sup>(٣)</sup>: يؤخذ من هذه الآية من سورة براءة بعض الأحكام الفقهية، وأن الإنسان إذا أكره إنساناً على الاعتداء، كأن أكرهه على أن يقتل أو يتلف مالا، أن المكره (بكسر الراء) أعني باسم الفاعل، يلزمه غرم ذلك والقصاص فيه، لأن [الله]<sup>(٤)</sup> نسب الإخراج إليهم؛ لأنهم ألجؤوا النبي ﷺ إليه. فسمى

(١) السابق.

(٢) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: القرطبي (٨/١٤٣).

(٤) في الأصل: «النبي»، وهو سبق لسان.

المُكْرَه فاعلاً، فهذا له وجه من النظر ظاهر. وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: آية ٤٠] كقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرِيْبِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: آية ١٣] ﴿وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: آية ١٣] ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: آية ١].

وقوله: ﴿ثَافٍ أَثْنَيْنِ﴾ حال ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في حاله ﴿ثَافٍ أَثْنَيْنِ﴾ أي: واحداً من اثنين ليس معه إلا رجل واحد ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ف (إذ) الثانية بدل من (إذ) الأولى، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ الغار هو الثقب في الجبل، والمراد به الغار المذكور في جبل ثور من جبال مكة ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ وقد أجمع جميع المسلمين أنه أبو بكر (رضي الله عنه). وفي هذه الآية من سورة براءة أعظم منقبة لأبي بكر (رضي الله عنه)، فما يحاول به الإمامية وغيرهم من الشيعة من الكلام في أبي بكر (رضي الله عنه) وتفنيده ما دلت عليه هذه الآية من فضله وعظمته، كله باطل لا يلتفت إليه، وقد قال بعض العلماء<sup>(١)</sup>: من أنكر أن أبا بكر صاحب رسول الله كفر لتكذيبه بهذه الآية الكريمة.

﴿لَا تَحْزَنْ﴾ الحزن في لغة العرب<sup>(٢)</sup> هو الغم من أمر فائت، وربما تُطلقه العرب على الغم من أمر مستقبل نادراً، كما هنا. والخوف: الغم من أمر مستقبل، وربما أطلقت العرب على الغم من أمر فائت، أي: لا يداخلك حزن من الخوف.

(١) انظر: القرطبي (١٤٦/٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: آية ٤٠] وقد قال أبو بكر في قصة الغار قصيدته الرائية المشهورة التي يبين فيها قول النبي ﷺ هذا له حيث يقول (١):

قال الرسولُ ولم يجزِعْ يُوقِرُنِي      ونحنُ في سُدفِ من ظُلمةِ الغارِ  
لا تخشَ شيئاً فإنَّ اللهَ ثالِثُنا      وقد تكفَّلَ لي منه بإظهارِ

إلى آخر القصيدة المشهورة، وهذا معنى قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴿العرب تقول: (حَزَن) بكسر الزاء (يحزَن) بفتحها (حَزَنًا) على القياس و(حُزَنًا) إذا أصابه الحَزَن، وأكثر ما يستعمل الحزن في الغم من أمر فائت، وقد يُطلق على الغم من أمر مستقبل كما هنا.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ هذه معية خاصة، والله (جلّ وعلا) بيّن في كتابه أن له مع خلقه معية خاصة ومعية عامة. أما المعية الخاصة كقوله هنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ﴿الشعراء: آية ٦٢﴾، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ﴿طه: آية ٤٦﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، فمعنى هذه المعية: أن الله ناصرهم وحافظهم وكالئهم ومعينهم، هذه هي المعية المذكورة هنا.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ السكينة: (فعيلة) من السكون، وهي الطمأنينة وثبوت الجأش حتى لا يكون فيه خوف ولا حزن. ﴿عَلَيْهِ﴾ التحقيق أن الضمير عائد إلى النبي ﷺ، وقال

(١) البيتان ذكرهما ابن كثير في تاريخه (١٨٣/٣) ولفظهما هناك:

قال النبي - ولم أجزع - يوقرني      ونحن في سُدف من ظلمة الغار  
لا تخش شيئاً فإن الله ثالثنا      وقد توكل لي منه بإظهار

بعضهم: هو إلى أبي بكر<sup>(١)</sup>؛ لأنه هو الحزين الذي يتشوش ضميره ﴿وَأَيْتَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٤٠] أي: أيّد نبي الله ﷺ أي: قواه ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ظاهر هذه الآية الكريمة أن وقت إتيان الكفار إلى الغار أن الله (جلّ وعلا) جعل عند النبي في ذلك الوقت جنوداً من الملائكة لم يرها الناس، لو أراد الكفار أن يفعلوا به شيئاً لأهلكوهم، وهذا هو ظاهر الآية، وأكثر المفسرين يقولون: إن معنى ﴿وَأَيْتَكُمْ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: ما وقع من نزول الملائكة يوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم حنين كما تقدم إيضاحه. وظاهر القرآن أن جنود الملائكة تحيط به في ذلك الوقت، والله الذي هو أعظم معه بنصره وعزه وقوته في ذلك الوقت لا يخاف شيئاً، ولكن الله (جلّ وعلا) يشرع بأفعال رسله وأقوالهم لخلقه، فالله (جلّ وعلا) مع عظمته وجلاله وتصريح النبي بأنه معه، وأن الله أيده بجنود الملائكة، مع هذا يدخل في غار في ظلمة الليل، والغار فيه الحيات وخشاش الأرض؛ ليسن للناس ويشرع لهم حمل أعباء تبليغ الرسالة والدعوة، وأن يتحملوا في شأن الدعوة إلى الله كل البلايا والمشاق، ويستهيئوا فيها بكل عظيم، هذا هو السر في ذلك، / وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْتَهُمْ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ السفلى: تأنيث الأسفل، وهو الذي يفضّل غيره في السفالة والخساسة والانحطاط، كلمة الكفار جعلها الله هي السفلى، وكلمة الكفار هي كلمة الكفر، وعبادة الأصنام، وعبادة غير الله (جلّ وعلا). ومعنى كونها هي السفلى: اندحار أهلها وقمعهم وإظهار كلمة الله.

(١) انظر هذه الأقوال في: ابن جرير (٢٦١/١٤)، القرطبي (١٤٨/٨).

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ كلمة الله: لا إله إلا الله وما تضمنته، صارت هي العليا، وصار الحكم لها، وصار صناديد الكفرة بين مقتول ومأسور ومسلم، وصارت أحكام الله هي التي تنفذ، وكلمته هي التي يُعمل بها في أرضه، ودحض الله الكفار وأهلكهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ العزيز: الغالب الذي لا يغلبه شيء. والعزة؛ الغلبة، ومنه: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: آية ٨] أي: الله الغلبة ولسوله وللمؤمنين، ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخُطَابِ﴾ [ص: آية ٢٣] أي: غلبني في الخصام. ومن أمثال العرب: «من عزَّ بز»<sup>(١)</sup> يعنون من غلب استلب. ومنه قول الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة<sup>(٢)</sup>:

كَأَن لَّمْ يَكُونُوا حِمِيَّ يُخْتَشَى إِذِ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مَنَّ عَزَّ بَزًّا

والحكيم<sup>(٣)</sup>: هو من يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها. وهذان الاسمان من أسماء الله (العزيز الحكيم) المتضمنان هاتين الصفتين من صفات الله، وهي عزه وحكمته وحكمه هما أبلغ شيء في امتثال أمره وطاعته (جلّ وعلا)؛ لأن عزته أي غلبته وقوته وقهره وسلطانه يجعلك أيها المسكين العظيم تخافه وتخضع لأمره ونهيه، وكونه (جلّ وعلا) حكيماً لا يأمرك إلا بما فيه لك الخير، ولا ينهالك إلا عما فيه لك الشر، ذلك يقتضي أيضاً أن تطيعه وتخضع

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

لأمره ونهييه. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٤٠].

قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣) [التوبة: الآيات ٤١ - ٤٣].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١).

قال جماعة من العلماء: هذه الآية الكريمة هي أول آية نزلت من سورة براءة. قالوا: أول ما نزل منها: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية، ثم بعد ذلك نزل أولها وآخرها<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿انْفِرُوا﴾ أمرٌ بالنفر، والنفر المراد به هنا: التهيؤ والحركة للجهاد في سبيل الله، وكل متحرك بسرعة لأمر من الأمور تقول العرب: نفر له، كقولهم: النَّفْرُ غداة كذا. يعنون: تفرق الناس من منى ذاهبين إلى أوطانهم؛ لأنهم تنقضي مهمة حجهم فيسرعون الحركة متفرقين إلى أوطانهم. كما قال ابن أبي ربيعة<sup>(٢)</sup>:

لَانلقتني إلاثلاث منى حتى يفرق بيننا النَّفْرُ

(١) ذكره ابن جرير بسنده عن أبي الضحى (٢٦٩/١٤، ٢٧٠)، وعزاه القرطبي (١٤٩/٨) لأبي مالك الغفاري.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٩٠.

فمعنى قوله: ﴿أَنْفِرُوا﴾ تحركوا مسرعين للجهاد في سبيل الله .  
 وقوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ حالان، والخِفاف جمع خفيف .  
 والثقال: جمع ثقيل . و «الْفَعِيلُ» إذا كان وصفاً يكثر جمعه على  
 (الْفِعَال) جمع كثرة كما هو معروف في محله .

والمراد بقوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ جاء فيه لأهل العلم ما يقرب  
 من خمسة عشر قولاً أو أكثر<sup>(١)</sup>، والمراد بها كلها: إنما هو تمثيل  
 الخفة والثقل . والمعنى الجامع لذلك كله: ﴿أَنْفِرُوا﴾ تحركوا  
 مسرعين إلى جهاد الروم إلى تبوك في حال كونكم خفافاً أو ثقلاً .

والمراد بالخفاف: الذين تخف عليهم الحركة لتهيؤ أسباب  
 القوة والحركة عندهم .

والثقال: الذين يثقل عليهم ذلك لسبب من الأسباب . وأقوال  
 العلماء في هذا كالأمثلة لذلك، كقول من قال: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا  
 وَثِقَالًا﴾ شباباً وشيوخاً . وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ مرضاً  
 وصحاحاً . وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ نشاطاً وغير نشاط .  
 وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أصحاب عيال وغير أصحاب عيال .  
 وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: أصحاب ضياع وبساتين أو غير  
 أصحابها . فهذه أقوال كثيرة . كقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾  
 مشاغيل وغير مشاغيل . إلى ذلك (...)(٢) .

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
 الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٢٦٢ - ٢٦٩)، القرطبي (٨/١٥٠) .

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل .

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَّاتَبَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ  
يَتَرَدَّدُونَ ﴿٥٥﴾ [التوبة: الآيتان ٤٤، ٤٥].

لما دعا النبي ﷺ المسلمين إلى النفر في غزوة تبوك جاء رؤساء المنافقين كعبد الله بن أبي ابن سلول، والجد بن قيس، وهؤلاء أعظم المنافقين، ومن سار في ركابهم، جاؤوا إلى النبي ﷺ يستأذنونهم في الجلوس والتخلف عن غزوة تبوك؛ لأنهم أعداء للإسلام في باطن أمرهم، فبين الله أن ذلك الاستئذان رغبة في التخلف ليس من فعال المسلمين، وأنه من فعال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. قال: ﴿لَا يَسْتَعِدُّنَا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ...﴾. الجمهور يقرؤون: ﴿يَسْتَعِدُّنَا﴾ وورش والسوسي: ﴿يستأذنا﴾ بإبدال الهمزة<sup>(١)</sup>.

﴿لَا يَسْتَعِدُّنَا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يصدقون بالله (جلّ وعلا)، وإيمانهم بالله الإيمان بالله إذا أطلق شمل الإيمان من الجهات الثلاث، وهو تصديق القلب بالاعتقاد، واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل. فالمؤمن بمعنى الإيمان الصحيح هو من آمن قلبه ولسانه وجوارحه. وهذا الاستئذان ليس من أفعال المسلمين ﴿لَا يَسْتَعِدُّنَا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الإيمان باليوم الآخر كثيراً ما يجعله الله مذكوراً مع الإيمان به؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر لا يخاف بأساً يوم القيامة ولا يطمع في خير، فهو يفعل ما يشاء، فالكفر باليوم الآخر رأس كل شر، والإيمان به رأس كل خير.

(١) انظر: الإقناع لابن البادش (١/٤١٢)، النشر لابن الجزري (١/٣٩٠).

﴿ أَنْ يُجَاهِدُوا ﴾ (أَنْ) هذه كلام العلماء فيها راجع إلى قولين<sup>(١)</sup>:

أحدهما: أنها هذه التي يُحذف قبلها حرف الجر. والمعنى على هذا: «لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله في أن يجاهدوا» أي في الجهاد وترك الجهاد؛ لأن المؤمنين بالله مسارعون إلى مرضاة الله، منقادون إلى الجهاد، سائرون مع النبي ﷺ.

لا يستأذنون لأجل أن يؤذن لهم في التخلف، وقد تقرر في علم العربية أن حذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها و(أَنْ) وصلتها مطرد لا نزاع في اطراده<sup>(٢)</sup>، ومحل المصدر بعد حذف حرف الجر أكثر علماء العربية يقولون منصوب، وهو الذي عليه كبارؤهم. وقال قوم: هو مخفوض. واستدلوا على خفضه بقول الشاعر<sup>(٣)</sup>:

فما زُرْتُ لِيَلَى أَنْ تَكُونَ حَبِيبَةً      إِلَيَّ وَلَا دَيْنٍ بِهَا أَنَا طَالِبُهُ

قالوا: خفض «ولا دين» عطفاً على المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها بعد حذف حرف الجر. قالوا: والأصل: «وما زرت ليلي لكونها حبيبة، ولا لدين» والمحققون منهم يقولون: محله نصب. وهذا الذي عليه جمهورهم، قالوا: ولا شاهد في البيت لأنه مما يُسمى عند النحويين عطف التوهم. وحاصل عطف التوهم عند النحويين أنه تكون الكلمة يجوز فيها الخفض وليست بمخفوضة،

(١) انظر: الدر المصون (٥٧/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

فيعطفون عليها المخفوض نظراً إلى جواز خفضها، وإن كانت غير مخفوضة في الواقع<sup>(١)</sup>. ومن شواهد المشهورة قول زهير بن أبي سلمى<sup>(٢)</sup>:

بَدَا لِي أَنِّي لَسْتُ مُدْرِكَ مَا مَضَى      وَلَا سَابِقِ شَيْئاً إِذَا كَانَ جَائِياً

فقوله: (ولا سابق) بالخفض في رواية بيت زهير عطفاً على «مدرک» وهو منصوب، إلا أنه يجوز جره بالباء، فيجوز: لست بمدرک ولا سابق. ونظيره قول الآخر<sup>(٣)</sup>:

مَشَائِمُ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً      وَلَا نَاعِبٍ إِلَّا بَيِّنٍ غُرَابُهَا

كما هو معلوم في محله. ونحن نذكر هذه الأشياء العربية وإن كان أكثر المستمعين لا يفهمونها لأننا نريد أن تكون هذه الدروس القرآنية يستفيد منها كل الحاضرين على قدر استعداداتهم، والله يوفق الجميع للخير.

الوجه الثاني: أن (أن) هذه هي التي تُحذف قبلها (لا) أو مضاف كقوله: ﴿يَبِّئُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: آية ١٧٦] ففي قوله: ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ ونحوه وجهان. أي: يبين الله لكم لثلاثاً، أو كراهة أن تضلوا. هذان الوجهان في (أن) في القرآن فيما يماثل هذا كقوله: ﴿يَبِّئُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا﴾ [الحجرات: آية ٦] أي: لثلاثاً تصيبوا، أو كراهة أن تصيبوا. وهذان الوجهان في قوله: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٢) تقدم هذا الشاهد في الموضوع السابق.

(٣) تقدم هذا الشاهد في الموضوع السابق.

الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ [التوبة: الآية ٤٤] بل إذا أمرت بالجهاد قاموا مسرعين ممثلين أمر الله، راغبين في غزو الكفرة لأن تكون كلمة الله هي العليا. وهذه الآية تدل على أن المؤمن بمعنى المؤمن الصحيح من صفاته الكاشفة أن يكون مبادراً للجهاد في سبيل الله مضحياً بالنفيس والغالي من نفسه وماله للجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله (جلّ وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَسْتَفْزِئُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [التوبة: آية ٤٤] التقوى في قلوب الناس لا تخفى على الله، فالله يعلم ما في قلوب الناس، لا يخفى عليه برّ من فاجر، ولا متيّ من عاصٍ.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: آية ٢٣٥] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسَهُ وَحَنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: آية ١٦]. ﴿عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ لا يخفى عليه المتقي من العصي، فمن زعم للنبي أنه معه، وأنه يحب الإسلام والجهاد، إلا أنه معذور بكذا وكذا لأعذار كاذبة فالله عالم بكذبه، عالم بالمتقي حقاً وبغيره، لا يخفى عليه شيء من ذلك. وفي هذا تهديد للمنافقين الذين يدعون التقوى ويضمرون غيرها، ووعده عظيم للمؤمنين الذين تنطوي قلوبهم على تقوى الله حقاً. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٤].

﴿إِنَّمَا يَسْتَفْزِئُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٤٥] قد تقرر عند جماهير العلماء أن (إنما) أداة حصر، والصحيح أن (إنما) أداة حصر كما حرره علماء الأصول في مبحث (دليل الخطاب) أعني (مفهوم المخالفة) والبلاغيون في مبحث

(القصر)<sup>(١)</sup> ف (إنما) أداة حصر. يعني: لا يستثذنك هذا الاستثذان الذي يُراد به التخلف عن الجهاد والعودة لأعداء كاذبة.

﴿ إِنَّمَا يَسْتَثْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ الذين لا يصدقون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر فلا يرغبون فيما عند الله، ولا يخافون عذاب الله.

وقوله: ﴿ وَأَزْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ شكَّت قلوبهم. ف ﴿ وَأَزْتَابَتْ ﴾ معناه: شكَّت. والتاء فيه تاء الافتعال. وأصل حروفه الأصلية: الراء في محل الفاء، والياء في محل العين، والباء في محل اللام، أصل المادة (رَيْبَ) بـ (راءٍ) فـ (ياء) فـ (باء) والتاء تاء الافتعال، وأصلها (ارتببت قلوبهم)<sup>(٢)</sup> أي: داخلها الريب. أصل الريب في لغة العرب معناه الإزعاج والإقلاق. هذا أصل معناه الأصلي، تقول العرب: رابه الأمر. إذا أزعجه وأقلقه. وهذا هو معناه الحقيقي، ومنه قول توبة بن الحُمَيْرِ الخفاجي<sup>(٣)</sup>:

وكنْتُ إذا ما زُرْتُ لَيْلَى تَبَرَّقَعَتْ      وقد رَابَنِي مِنْهَا الْغَدَاةَ سُفُورُهَا

أي: أزعجني وأقلقني، وكلما جاء الريب في القرآن والارتباب فمعناه الشك على كل حال. وإنما سُمِّي الشاك مرتاباً وأُطلق اسم الريب على الشك لأن الشاك لا تطمئن نفسه إلى طرف الإيجاب، ولا إلى طرف السلب، فهو تارة يميل إلى الإيجاب، وتارة يميل إلى السلب، فنفسه منزعة قلقة ليست مطمئنة إلى الثبوت ولا إلى

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٣٣، ٣٩١، ٣٩٣.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٢) من سورة الأعراف.

النفي . ومعنى ﴿وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكّت قلوبهم والعياذ بالله . وأسند الارتياب إلى القلوب لأن القلب هو محل الإدراك الذي يكون فيه الشك ، ويكون فيه اليقين ، ويكون فيه العلم والإدراك . وهذا الارتياب سيبيته لهم المؤمنون يوم القيامة كما يأتي بيانه في سورة الحديد؛ لأنه سيأتي في سورة الحديد - إن شاء الله - أن كل من كان يقول: لا إله إلا الله في دار الدنيا يعطيه الله نوراً ، فيكون عند المنافقين نور ، وعند المؤمنين نور ، فإذا - مثلاً - اشتد الأمر وصار الناس في فصل الخطاب انطفاً نور المنافقين وبقوا في ظلام دامس ، وعند ذلك يقول المؤمنون: ﴿رَبَّنَا أَتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: آية ٨] ويقول المنافقون للمؤمنين: ﴿أَنْظِرُونَا نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: آية ١٣] فإذا ضُربَ ذلك السور بين المنافقين والمؤمنين قال المنافقون للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: آية ١٤] ألم نكن معكم في دار الدنيا؟ وكنا نحضر معكم المساجد والغزوات ، ونأتي معكم المواطن؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ كنتم معنا ﴿وَلَكِن كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ تَرِيقْتُمْ وَأَزَيْبْتُمْ﴾ وهذا محل الشاهد . ذلك الارتياب الذي قال عنهم هنا: ﴿وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: آية ٤٥] هو من الأسباب التي تجعلهم يوم القيامة وراء السور - والعياذ بالله - .

وقوله: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ أي: فهم في شكهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يذهبون حائرين تارة يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى ، يذهبون ويرجعون ، يتوجهون إلى الإيمان مرة ويكفرون مرة (والعياذ بالله جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ .

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا لِلدِّينِ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة: الآيتان ٤٦، ٤٧].

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ هؤلاء المنافقون الذين جاؤوا يستأذنون النبي ﷺ في القعود كعبد الله بن أبي، والجد بن قيس، وأضرابهم، قال الله لنبيه إنهم يستأذنون ويعتذرون الأعذار الكاذبة وهم في باطن أمرهم مصرّون على القعود وعدم الخروج، ويبيّن دليل ذلك في قوله: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ ﴾ لو أراد هؤلاء المنافقون المستأذنون الخروج معك إلى غزاة تبوك ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ ﴾ معك ﴿ لَأَعَدُّوا لَهُ ﴾ أي: للخروج ﴿ عِدَّة ﴾ أي: لتأهبوا للخروج وتهيؤوا له؛ لأن من يعزم على الخروج إلى قتال العدو يتهيأ قبل ذلك ويستعد لذلك بإحضار العدة اللازمة لذلك، ولكن هؤلاء لم يعدوا شيئاً، ولم يُبالوا بشيء، فدل على أنهم مصرّون عازمون على التخلف. وهذا معنى قوله: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ ﴾ [التوبة: آية ٤٦] أي: للخروج ﴿ عِدَّة ﴾ أي: لتأهبوا له أهبطه وتهيؤوا له بإعداد ما يلزمه.

﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ كره الله انبعاثهم كوناً وقدرأ؛ لأن الله يعلم أنهم لو خرجوا مع رسوله ما كان في خروجهم له إلا الشر، فلا يجد منهم إلا الضرر والشر، فثبطهم عنه بحكمته لطفاً برسوله ﷺ ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ الانبعاث مصدر انبعث ينبعث إذا ذهب إلى الشيء. ومنه: ﴿ إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١١٧﴾ ﴾ [الشمس: آية ١٢] ومعنى ﴿ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ أي: خروجهم غازين معك إلى تبوك،

كره الله خروجهم معك لضرر ذلك عليك، ﴿فَثَبَطَهُمْ﴾ عن ذلك الخروج مراعاة لمصلحتك. والتثييط: التبطئة والتعويق وعدم الخروج، فثبطهم عنك مراعاة لمصلحتك ومصلحة من معك من المسلمين، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦).

﴿قِيلَ﴾ هنا مبني للمفعول حذف فاعله، واختلف العلماء في فاعله المحذوف<sup>(١)</sup>، فقال بعض العلماء: قال بعضهم لبعض في سرهم وباطن أمرهم: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦) واستأذنوه لتقعوا. وقال بعضهم: أذن لهم النبي ﷺ فقال: «﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾» وعلى هذا القول ف (اقعدوا) هو الإذن. وبعضهم يقول: قوله: ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦) أذن لهم إذناً صاحبه لا يرضى عنهم. والمراد بالقاعدين: الذين ليس من شأنهم الحضور، كالصبيان والزمنى والنساء، ونحو ذلك ممن ليس من شأنه الخروج للقتال.

وقال بعض العلماء: هو كوني قدرى، الله يقول للشيء: «كن فيكون»، فقال: «اقعدوا». فكان قعودهم، واختار هذا بعض العلماء.

ثم إن الله قال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: آية ٤٧] لو خرج فيكم رؤساء هؤلاء المنافقين الذين يحركونهم ويرأسونهم في الشر كابن أبي سلول والجد بن قيس - قبحهما الله - وأمثالهم ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾ غازين إلى تبوك ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ما حصلت منكم على فائدة ولم يزيدوكم إلا خبالاً. والخبال معناه: الفساد. أي: ما زادوكم إلا فساداً؛ لأنهم يفسدون عليكم.

(١) انظر: القرطبي (١٥٦/٨)، البحر المحيط (٤٨/٥).

وقوله: ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ العرب تقول: أوضع يوضع  
إيضاعاً. إذا أسرع في سيره. فالإيضاع: الإسراع في السير. واسم  
فاعله (موضع) ومنه قول امرئ القيس<sup>(١)</sup>:

أَرَانَا مُوَضِّعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ      وَنُسَحَّرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

و ﴿خِلَالَكُمْ﴾ معناه: بينكم، يعني: لا يزيدونكم إلا فساداً على  
فساد، ولأسرعوا فيما بينكم بالمشي بالنميمة وإلقاء المخالقات  
والأراجيف والأكاذيب التي تضر المسلمين ولا تنفعهم. وهذا معنى  
قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ لأن العدو إذا كان في  
ثياب صديق يفعل كل شرٍ ويضر كل مضرة من حيث لا يشعر به، فهم  
لا يزيدونكم إلا الفساد. أي: لا يزيدونكم شيئاً كائناً ما كان إلا  
الفساد والخبال، فإنهم يفسدون عليكم وكأنهم يفسدون وهم في  
المدينة، فإذا سافروا كان خبالهم وفسادهم أكثر؛ لأنهم يلقون بينهم  
بالمائم ويلقون الأراجيف والتخويف من المشركين وإلقاء التشاويش  
ليخاف المسلمون، ولتفسد ذات بينهم، وهم أعداء - قبحهم الله -  
وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾  
﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ معناه يطلبون لكم الفتنة. ﴿الْفِتْنَةَ﴾ هي ما يوقعون  
بكم من الشر، من المعاداة بينكم بإلقاء النميمة والخوف من الأعداء  
بالقاء الأراجيف الكاذبة ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ في هذا الحرف وجهان من  
التفسير للعلماء<sup>(٢)</sup>:

(١) ديوانه ص ٤٣.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٨١/١٤)، القرطبي (١٥٧/٨)، ابن كثير (٣٦١/٢).

قال بعض العلماء: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: عيون يسمعون الأخبار ويأتونهم بها ليقدرُوا بذلك على ما شاءُوا من الفساد والخبال.

وقال بعض العلماء: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ هم سادات وأشراف في قومهم، وفيكم من يسمع لهم لمكانتهم وشرفهم في قبيلته كابن أبيّ والجد بن قيس ومن يكون له شرف وسيادة في قومه يسمعون منه وتؤثر دعايته السيئة عليهم بالقاء الفتن والأراجيف. وهذا معنى قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ وهذه الآية الكريمة نصّ الله (جلّ وعلا) فيها على إحاطة علمه، وأنه (جلّ وعلا) من شدة إحاطة علمه بالأشياء يعلم الأشياء الذي سبق في علمه أنها لا تكون<sup>(١)</sup>، هو يعلم أن لو كانت كيف تكون؛ لأن هؤلاء المتخلفين عن غزوة تبوك كالجد بن قيس وعبدالله بن أبي ابن سلول لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله كره انبعاثهم فنبطهم عنها لحكمة إلهية، ومصلحة للمسلمين، فهم لا يحضرونها أبداً، وقد سبق في علم الله الأزلي أنهم لا يحضرونها أبداً، وأنهم لا يخرجون معه أبداً، وخروجهم هذا الذي سبق في سابق علمه أنه لا يكون صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، فعرفنا من هذا أنه (جلّ وعلا) يعلم الموجودات والمستحيلات والمعدومات والجائزات، حتى إنه من إحاطة علمه ليعلم المعدوم الذي سبق في سابق علمه أنه لا يوجد يعلم أن لو وُجد كيف يكون لشدة إحاطة علمه بالأشياء، فخرج هؤلاء لا يكون، وهو عالم ذلك الخروج الذي لا يكون أن لو كان كيف يكون، كما قال هنا: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا...﴾ الآية [التوبة: آية ٤٧] والآيات الدالة على

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

هذا المعنى كثيرة جداً، من ذلك ما قدمنا في سورة الأنعام من أن الكفار يوم القيامة إذا رأوا القيامة وعانوا الحقيقة تمنوا أن يردوا إلى الدنيا مرة أخرى ليصدقوا الرسل ويؤمنوا بالله، وهذا الرد الذي تمنوه علم الله أنه لا يكون، وقد صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٧] هذا الرد الذي تمنوه هو عالم أنه لا يكون، وقد صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون حيث قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والآيات بمثل هذا كثيرة في كتاب الله كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: آية ٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبِنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ . . .﴾ [النساء: آية ٦٦].

فهذه الآيات من كتاب الله دلت على إحاطة علم الله (جلّ وعلا) بكل شيء، حتى بالمعدومات التي سبق في علمه أنها لا توجد، فهو عالم أن لو وجدت كيف يكون، فهو عالم بأن أبو لهب لن يؤمن، وهو يعلم لو آمن أبو لهب أيكون إيمانه تاماً أو ناقصاً، وهكذا. وهذا يدل على أن المحيط بالعلم هو الله (جلّ وعلا) وحده، وخلق الله لا يعلمون من العلم إلا ما علمهم العليم الخبير الأعظم كما دلّ عليه هذا القرآن في آيات كثيرة، وإيضاح ذلك أن أعلم المخلوقين الملائكة والرسل — على جميعهم صلوات الله وسلامه — فالملائكة لما قال لهم الله: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢١] قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا ﴿البقرة: الآيتان ٣١، ٣٢﴾ قالوا: قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ (لا) فيه، هي (لا) التي لنفي

الجنس، فنفوا جنس العلم من أصله عن أنفسهم إلا شيئاً علمهم الله إياه ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ .

وكذلك الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) مع علمهم وفضلهم وجلالتهم لا يعلمون من أمر الله إلا شيئاً علمهم الله إياه ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: آية ٨٥].

هذا سيد الرسل وأكمل الخلق نبينا محمد (صلوات الله وسلامه عليه) - وهو هو - رُميت أحب أزواجه إليه بفرية وإفك، حيث رُميت بصفوان بن المعطل السلمي في غزوة المريسيع، وهو لا يدري ما قيل عنها أحق أو كذب، وكان يقول لها: يا عائشة إن كنت ألممت بذنب فتوبي، فإن الله يتوب عليك<sup>(١)</sup>. ولم يدري هل ما قيل عنها حق أو كذب حتى أخبره العليم الخبير (جلّ وعلا) قال: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: آية ٢٦].

وهذا نبي الله إبراهيم إمام الأنبياء (صلوات الله عليهم جميعاً) ذبح عجله وتعب هو وامراته في إنضاج العجل يظن أن الملائكة يأكلون، لا يدري من هم، حتى إنه لما رآهم لم يأكلوا خاف منهم كما في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: آية ٧٠] وصرح لهم بأنه خائف منهم حيث قال: ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ﴾ [الحجر: آية ٥٢] حتى ضحكت امرأته، ولما ارتحلوا عنه ونزلوا بنبي الله لوط - وهو هو - ضاق بهم ذرعاً وقال: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: آية ٧٧] ولم يدري أنهم ملائكة حتى قال كلامه المحزن: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: آية ٨٠]

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

وما علم أنهم ملائكة حتى قالوا له: ﴿يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ...﴾ الآية [هود: آية ٨١].

وهذا نبي الله نوح - وهو هو - يقول لربه: ﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: آية ٤٥] ولا يدري أن ذلك الولد الذي يطلب ربه أن ينجيه أنه كافر ليس من أهله الموعود بنجاتهم حتى قال له العليم الخبير: ﴿يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْطَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: آية ٤٦] فما قال نوح إلا أن قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: آية ٤٧].

وهذا نبي الله يعقوب - وهو هو - قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، وولده في مصر بينه وبينه مراحل لا يدري ما شأنه ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّبُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ الآية [يوسف: آية ٨٧].

وهذا نبي الله سليمان - وهو هو - أعطاه الله الرياح غدوها شهر ورواحها شهر، وسخر له مردة الشياطين والجن، ما كان يدري عن مأرب وجماعة بلقيس حتى ذهب إليهم الضعيف المسكين الهدهد، ولما توعد الهدهد، وكان الهدهد حصل منهم بعض علم الجغرافيا والتاريخ، وهذا العلم لم يكن عند سليمان في ذلك الوقت، وكان سليمان يهدد الهدهد ويقول: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأَذِّبَنَّكَ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ سُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: آية ٢١] فجاء الهدهد لما عرف بعض علم جغرافية اليمن وتأريخها، وسليمان لا يدري عنه، أفاده هذا العلم قوة ووقف أمام سليمان وقفة الرجل الصامد،

ونسب الإحاطة لنفسه ونفاها عن سليمان وقال: ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ (٢٢) إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ﴿٢٣﴾ ووجدتها وقومها . . . ﴿ الآيات [النمل: الآيات ٢٢ - ٢٤] الآيات. فسليمان ما كان يدري عن هذا، ولم يقل له إلا أن قال: ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٧) أذهب بكتبي هكذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴿٢٨﴾ وأمثال هذا كثير. فالله (جلّ وعلا) هو العليم الأعظم، والملائكة والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) يعلمون من علم الله ما علمهم الله من غيبه وما لم يعلمهم لم يعلموه، وهو (جلّ وعلا) وحده هو المحيط علمه بكل شيء، العالم بما كان وما يكون، وبالمعدوم والموجود، والمعدوم الذي لا يوجد أن لو وجد كيف يكون ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (١٥) [النمل: آية ٦٥] وهذا معنى قوله: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَبْعُونَكُمْ أَلْفِينَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: آية ٤٧].

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ كقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: آية ٤٤] فقال في الأولى: إن تقوى المتقين لا تخفى عليه، وأن ظلم الظالمين لا يخفى عليه.

وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> أن أصل معنى الظلم في لغة العرب هو: وضع الشيء في غير محله، مادة الظاء واللام والميم (ظَلَمَ) معناها وضع الشيء في غير محله. هذا هو أصل معنى هذه المادة، وأعظم أنواعها هو الشرك بالله؛ لأن الشرك بالله وضع للعبادة

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

في غير موضعها؛ لأن من يأكل نعم الله ويتقلب في رزقه وعافيته إذا كان يعبد غيره فقد ظلم، أي: وضع العبادة في غير موضعها، كما قال تعالى عن لقمان: ﴿يَبْنِي لَكَ شُرَكَاءَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [١٣] [لقمان: آية ١٣] وقال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٢٥٩] [البقرة: آية ٢٥٤] ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [١٠٦] [يونس: آية ١٠٦] ولأجل هذا كان الظلم في القرآن يطلق على الشرك وعلى غيره من المعاصي والمخالفات، وثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أن قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] قال: ولم يلبسوا إيمانهم بشرك<sup>(١)</sup>. هذا أصل الظلم في لغة العرب.

وهو في الشرع على نوعين: ظلم أكبر، وظلم دون ظلم، فالظلم الأكبر هو وضع العبادة في غير موضعها، وهو الشرك بالله. وظلم دون ظلم وهو أن يطيع عدوه إبليس ويعصي ربه، فالذي أطاع الشيطان وعصى الله قد ظلم نفسه؛ لأنه عرضها لسخط الله ووضع الطاعة في غير موضعها، والمعصية في غير موضعها. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٧] وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، أن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، ومنه قد تقول العرب للذي يضرب لبنه قبل أن يروب: هو ظالم؛ لأنه وضع الضرب في غير موضعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يُضيع زبده، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر<sup>(٢)</sup>:

وقائلة ظلمت لكم سقائي وهل يخفى على العكدِ الظَّليمِ

(١) السابق.

(٢) السابق.

«ظلمتُ لكم سقائي» تعني: ضربته لكم قبل أن يروب .  
والعكَدُ: عصب اللسان. يعني: أن اللسان لا يخفى عليه الظليم وغير  
الظليم، أي الذي ضُرب قبل أن يروب وغيره، ومن هذا المعنى قول  
الآخر<sup>(١)</sup>:

وصاحبِ صِدْقٍ لَمْ تَرِدْني شَكَاتُهُ      ظَلَمْتُ وفي ظَلَمِني لَهُ عَامِداً أَجْرُ  
ومن هنا قالت العرب للأرض الذي حُفِرَ فيها وليست محلاً  
للحفر: «مظلومة» ومنه قول نابغة ذبيان<sup>(٢)</sup>:

إِلَّا الْأَوَارِيَّ لَأَيَّاماً أَبْيَتْهَا      والنَّوِي كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَدِّ  
وقالوا للتراب المتزوع من القبر «ظليم» لأن أصل القبر يُحفر  
في محل لم يحفر قبل ذلك عادة، فهو حفر في محل ليس موضعاً  
للحفر، ومنه قول الشاعر<sup>(٣)</sup>:

فَأَصْبَحَ في غَبْرَاءَ بعدِ إِشاحَةٍ      من العَيْشِ مردودٌ عليها ظَلِيمُهَا  
وجاء الظلم في القرآن الكريم بمعنى النقص في آية واحدة في  
سورة الكهف، وهي قوله: ﴿ كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْطَفَهَا وَلَمْ تُظَلِمْنَ مِنْهُ شَيْئاً ﴾  
[الكهف: آية ٣٣] أي: لم تنقص منه شيئاً. هذه وحدها في القرآن  
جاء فيها الظلم بمعنى النقص. والعلماء يقولون: إن أصلها من المادة  
التي ذكرنا؛ لأن صاحب البستان ينفق ويصرف عليه المال، فإذا جاء  
بِغَلَّةٍ وثمره طيبة فكانه جاء بشيء في موضعه حيث ردّ لصاحبه المال  
ووجد منه ربحاً، أما إذا صرف فيه المال ولم يأتِ بشيء فقد ضاع

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

المال المصروف فيه، ولم يأتِ شيء بخلفٍ منه، فكأن هذا وضعٌ للشيء في غير موضعه للضياح والرزية. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٧].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنٰ لِي وَلَا نَفْتِنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَكَتُولُوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ [التوبة: الآيات ٤٨ - ٥٢].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨) [التوبة: آية ٤٨].

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ (جلّ وعلا) للنبي والمسلمين أنه ثبط عنهم عظماء المنافقين للمصلحة، وأنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خيالاً، أي: فساداً ومشياً بالنميمة وتثبيطاً وإلقاءً للأراجيف، بين أن هذا الذي ينطوي عليه المنافقون من الشر كان موجوداً فيهم قبل ذلك، قبل أن يُنزل القرآن في شأنهم وأن تطلّعوا عليهم؛ لأن عظماء المنافقين بالمدينة كعبد الله بن أبي ابن سلول، والجد بن قيس أخي بني سلمة، عندما جاء رسول الله ﷺ المدينة وآمن الأنصار شق ذلك عليهم وعظم، وأبوا أن يؤمنوا، وصاروا يفكرون في الحالة التي

يبتلون بها دعوة دين الإسلام ويخرجوا النبي ﷺ ويمنعون الناس من الإيمان، فلما جاءت غزوة بدر عرفوا قوة المسلمين. قال لهم ابن أبي: هذا أمر مُسْتَقْبَل فآمنوا ظاهراً<sup>(١)</sup>. وهم في الباطن يتربصون بهم الدوائر، يجيلون أفكارهم في الحالة التي يضررونهم بها.

﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا﴾ أي: طلبوا الفتنة، طلبوا لكم الفتنة قبل هذا من رد الناس عن الدين، وإبطال الدين، وعدم اتباع النبي ﷺ، والإفساد بين المسلمين.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ العرب تقول: قلب الأمور، وقلب الأمر. معناه: أن يتفكر بدقة ويدبر في الأمور ويقلبها وجهاً إلى ظهر، وظهراً إلى وجه ليتأمل في الحالة التي يحصل بها مقصوده. فمعنى قلبوا الأمور: أجالوا الأفكار ونظروا في الدهر جنباً إلى جنب من هذا الأمر إلى هذا، واحتمال هذا وهذا ليصلوا بذلك إلى رد الناس عن النبي ﷺ، والقعود في وجه الدعوة إلى الله (جلّ وعلا)، وهذا معنى معروف في كلام العرب، تقول العرب: قلبت أمري، وقلبت أموري، إذا أجلت فكري في المسائل ونظرت فيها وفي احتمالاتها لنعلم أي الأمور هو الذي يعينني على قصدي. وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور نزل به القرآن العظيم، منه قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أم هانئ بنت أبي طالب (رضي الله عنها)، فإن زوجها هبيرة لما فتح النبي ﷺ مكة فرّ كافراً إلى نجران، ولم يزل بها حتى مات - والعياذ بالله - وقد أرسل إلى

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦١).

أم هانئ من هناك من نجران هذه الأبيات — وفيها محل الشاهد — وهو قوله لها<sup>(١)</sup>:

لَعَمْرُكَ مَا وَكَيْتُ ظَهْرِي مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ جَفَلًا وَلَا خِيْفَةَ الْقَتْلِ  
ولكنني قلبت أمري فلم أجد لسيفي غنَاءً إن ضربتُ ولا نبلي  
وقفتُ فلما خفتُ ضيعة موقفي رجعتُ لعودِ كالهزبر أبي السبلِ

ومحل الشاهد منه قوله «قلبُ أمري» أي: أجلت فكري ونظرت وتأملت في الأمور فوجدت ثباتي وعدم فراري يؤدي إلى قتلي ولا نتيجة بعده. وهذا معنى قوله: ﴿وَقَلْبُوا لَكِ الْأُمُورَ﴾ أجالوا أفكارهم وقلبوا الأمور ونظروا في احتمالاتها لينالوا كيداً يكيدونك به من تشييط عن الدين، أو إلقاء شر بين المسلمين، أو إعانة عدو عليك حتى يظفر بك — قبّحهم الله — .

﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ جاء الحق وهو نصر الله لنبيه بدين الإسلام، وقتل صناديد قريش يوم بدر.

﴿وَوَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ معناها: غلب دين الله وظهر انتصاره واستقباله، فعند ذلك أسلموا إسلاماً غير حقيقي، وهم يتربصون الدوائر بالمؤمنين في باطنهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ كَرِهُوا﴾ والحال هم كارهون — قبّحهم الله — لأن كل ما يناله المسلمون من نصر وفتح وخير يكرهونه ويسوؤهم، وكل ما جاءهم من شرٍ يفرحون به، وهذه عادة الكفار، لا يزالون يحاولون رد المؤمنين عن الدين حتى يقنطهم الله من ذلك، كما قال الله في الكفار: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْبَلُونَكُم حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِن

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف.

أَسْتَطْعَمُوا ﴿ [البقرة: آية ٢١٧] وبيّن أنهم لم يستطيعوا في قوله: ﴿ أَلْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾ [المائدة: آية ٣] كذلك المنافقون كانوا يطمعون في ضياع الدعوة، وأن النبي ﷺ يضمحل أمره حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ذلك - قبحهم الله - وهذه من خسائس المنافقين يظهرها الله لنبيه ﷺ، ومن أسماء هذه السورة العظيمة: (الفاضحة) لأنها فضحت أسرار المنافقين كما تقدّم، وسيأتي فيها كثيراً. وهذا معنى قوله: ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾.

/ وقوله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُرُ أَتَدْنٰ لِي ﴾ [التوبة: آية ٤٩] قرأ [٨/ب]

هذا الحرف عامة السبعة غير ورش عن نافع والسوسي عن أبي عمرو: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُرُ أَتَدْنٰ لِي ﴾ بهمزة محققة، وقرأه ورش والسوسي بإبدال الهمزة واواً مادةً للآم ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُرُ أَتَدْنٰ لِي ﴾ أما عند الوقف فقد أجمع جميع القراء على أنك إن وقفت على ﴿ يَكْفُرُ ﴾ ابتدأت فقلت: ﴿ ائذن لي ﴾<sup>(١)</sup> وهو الأمر من أذن له يأذن له. تقول العرب: أذن له يأذن له. وإذا جاء منها أمر تقول: ائذن لي. أصله: ائذن لي. ولكن القاعدة المقررة في العربية: أن كل همزتين اجتمعتا في كلمة أخراهما ساكنة وجب إبدالها حرف مد مجانساً للشكلة التي قبلها سواءً كانت التي قبلها همزة وصل أو همزة قطع، وهذا حكم لا خلاف فيه بين القراء ولا بين علماء العربية ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُرُ أَتَدْنٰ لِي ﴾ أي: ائذن لي في القعود ولا تكلفني بالشخوص إلى غزوة تبوك. وهذه الآية نزلت في الجد بن قيس الخبيث المنافق أخي بني

(١) انظر: الإتحاف (٩٢/٢).

سلمة، كان رجلاً سيّداً فيهم، ولما قدم النبي ﷺ قال لبني سلمة: من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: الجد بن قيس على أنا نبخله؛ لأنه بخيل لا وجود بالمال. فقال: وأي داء أدوأ من البخل؟ إنما سيدكم هذا الشاب الأبيض الجعد<sup>(١)</sup>. يعني بشر بن البراء بن معرور. وكان حسان (رضي الله عنه) يمدح بشر بن البراء بتسويد النبي ﷺ إياه ويقول<sup>(٢)</sup>:

وَسُوْدٌ بِبَشْرِ بْنِ الْبِرَاءِ بِجُودِهِ      وَحُقَّ لِبَشْرِ بْنِ الْبِرَاءِ أَنْ يُسَوِّدَا  
فَتَىٰ إِنْ أَتَاهُ الْوَفْدُ أَتْلَفَ مَالَهُ      وَقَالَ خِذُوهُ إِنِّي عَائِدٌ غَدَا

(١) في بعض روايات الحديث أن النبي ﷺ قال ذلك في عمرو بن الجموح (رضي الله عنه)، كما في الأدب المفرد رقم: (٢٩٧) من حديث جابر (رضي الله عنه)، وهو في صحيح الأدب المفرد رقم: (٢٢٧)، وأخرجه الحاكم (٢١٩/٣)، - وصححه ووافقه الذهبي - من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) بنحو حديث جابر، وأورده الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب (١/١٤٦)، وعزاه لابن إسحاق، كما أورده الحافظ في الإصابة (١/١٥٠)، وفي الفتح (١٧٨/٥).

أما الرواية التي فيها أن النبي ﷺ قال ذلك في بشر بن البراء (رضي الله عنه) فقد ذكرها الواحدي في أسباب النزول ص ٢٤٧ - ٢٤٨، وأوردها الحافظ في الفتح (١٧٩/٥)، وعزاه للوليد بن أبان في كتاب الجود من حديث كعب بن مالك (رضي الله عنه)، وقد صحح الحافظ هذه الرواية وجمع بينها وبين الرواية الأخرى، بيد أن الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب (١/١٤٦)، وابن الأثير في أسد الغابة (١/٢١٨)، رجحا أنها في بشر بن البراء، والله أعلم.

(٢) البيتان عند الواحدي في أسباب النزول ص ٢٤٨، القرطبي (٨/١٥٩) ونص البيت الثاني هناك:

إِذَا مَا أَتَاهُ الْوَفْدُ أَذْهَبَ مَالَهُ      وَقَالَ خِذُوهُ إِنِّي عَائِدٌ غَدَا

فنزلت هذه الآية في الجدين قيس على ما عليه جماعة المفسرين ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَذْنَ لِي﴾ هو الجد بن قيس أخي بني سلمة. ذكر ابن إسحاق وغيره<sup>(١)</sup> أن النبي ﷺ في وقت تجهيزه لغزوة تبوك قال له: «يا جد هل لك في جِلاَدِ بني الأصفر؟» يعني الروم. فقال له الجد: يا رسول الله - ﷺ - ائذن لي في الجلوس فأني رجل قد علم قومي أنني لا صبر لي عن النساء، وإن نساء بني الأصفر فيهن جمال ووضاءة وجوه أخاف إن رأيتهن أن لا أصبر عنهن، فائذن لي ولا تفتني بصباحة وجوههن إذا خرجت إليهم. وهذا عذر بارد وليس قصده إلا النفاق، فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾، أي: بصباحة وجوه نسائهم على ما قاله غير واحد.

وقال بعض العلماء وأسنده ابن جرير<sup>(٢)</sup> إن النبي ﷺ قال له: «يا جد بن قيس هل لك في جِلاَدِ بني الأصفر لتغتم منهم سراري ووصفاء؟» فقال: ائذن لي ولا تفتني بالنساء. هذا منزع آخر ووجه في الآية.

وجمهور العلماء يقولون: هي في الجد بن قيس، وهو عذر نفاق لا شك فيه، وهو لا عذر له، وإنما يتلمس الأعذار الكاذبة ليجلس - قبّحه الله - .

(١). أخرجه ابن جرير (٢٨٧/١٤) من طريق ابن إسحاق، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢/١٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٣٠/٧): «فيه يحيى الحماني وهو ضعيف». اهـ، وأورده أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص ٢٤٧، ولم يذكر السند.

(٢) ابن جرير (٢٨٨/١٤) عن ابن زيد مرسلًا.

ثم إن الله قال: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ الفتنه التي يزعم أنه يتوقاها وهي خوفه أن يفتتن بجمال نساء بني الأصفر هذه ليست هي الفتنه، ولكن الفتنه العظيمة هذه التي سقط فيها ووقع فيها وهي تخلفه عن الجهاد واعتذاره الكاذب لرسول الله ﷺ ونفاقه، هذه هي الفتنه والضلال. فالمعنى: هذا الذي سقط فيه باعتذاره هو عين الفتنه العظيمة لا فتنه جمال نسائهم الذي يزعم أنه هو الذي يخاف فتنته. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا نَفْتِنِي﴾.

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾<sup>(١٤)</sup>  
[التوبة: آية ٤٩] في هذه الآية الكريمة وعيد شديد للمنافقين، وجهنم طبقة من طبقات النار، وتطلق على النار.

وقوله: ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لأنها تهلكهم وتغشاهم فتحتوي عليهم من جميع الجهات، وتُغلق أبوابها عليهم، ويُضيق عليهم فيها كما بين تعالى ذلك في آيات كثيرة، فبين إحاطة النار بهم في قوله في العنكبوت: ﴿يَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾<sup>(٥١)</sup> يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ<sup>(٥٥)</sup> [العنكبوت: الآيتان ٥٤، ٥٥] وقوله تعالى في الكهف: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يَأْتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ...﴾ الآية [الكهف: آية ٢٩]. وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: آية ٣٩] ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: آية ٤١] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إحاطتها بهم. وبين (جلّ وعلا) أنها تطبق عليهم وتغلق أبوابها، وهو قوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَدَةٌ﴾<sup>(٨)</sup> في عمِدٍ مُّمدَدَةٍ<sup>(١)</sup> [الهمزة: الآيتان ٨، ٩] وأنها تضيق عليهم ضيقاً شديداً كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا

مُقَرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ [الفرقان: آية ١٣] أعادنا الله وإخواننا المؤمنين منها. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٩].

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٠].

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ هذا مما أبداه الله لنبيه من أسرار المنافقين القبيحة ﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ يا نبي الله ﴿حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ المراد بالحسنة هنا: غلبة الأعداء والظفر والنصر. يعني: إن ظفرتهم بأعدائكم وغلبتموهم ونصركم الله عليهم تسؤهم تلك الحسنة، ساءهم ذلك لأن العدو الشديد العداوة يسوؤه ما ينال عدوه من الخير، معناه: إن غزوتهم ونصركم الله وغلبتم وظفرتهم ساءهم ذلك وحزنوا من أجله ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ كأن يقتل قومك، أو لا ينصروا، أو يأتيك شيء يؤذيك ويؤذي قومك ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ إذا سمعوا أن سرية من السرايا أو جيشاً من الجيوش وقع فيهم قتل أو جراح قالوا: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ نحن خفنا من هذا وأخذنا لأنفسنا بالاحتياط فاستأذنا حتى جلسنا وسلمنا من تلك البلايا التي نالتهم من القتل والجراح ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن دين الله ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون من جهتين: أنكم أصابكم ذلك السوء، وأنهم هم ما كانوا معكم - سلموا منه - كما تقدم إيضاح هذا المعنى في سورة النساء؛ لأن الله أوضحه فيها بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: آية ٧٢] معنى قوله: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضرأ معهم فيصيبني

ما أصابهم من القتل والجراح، وهو السبب الذي تولوا به وهم فرحون الآن. فالآية معناها: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ يا نبي الله ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: يعطك الله ظفراً ونصراً ﴿تَسُوهُمُ﴾ تلك الحسننة ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ﴾ سيئة كقتل قومك وجراحهم وإدالة الكفار منهم ﴿يَقُولُوا﴾ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا ﴿أَخَذْنَا لَأَنْفُسِنَا بِالْأَحْتِيَاظِ وَتَخَلَّفْنَا عَنْ هَذَا الَّذِي وَقَعُوا فِيهِ حَذْرًا مِمَّا وَاحْتِيَاظُوا أَنْ يَصِيبَنَا مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ﴾ وَيَكْتُولُوا ﴿عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَنَصْرَةَ رَسُولِ اللَّهِ، أَوْ يَتَوَلَّى بَعْضُهُمْ رَاجِعًا إِلَى بَعْضٍ، وَالْحَالُ﴾ وَهَمْ فَرِحُوا ﴿مَسْرُورُونَ بِالسُّوءِ الَّذِي أَصَابَكُمْ وَسَلَامَتِهِمْ مِنْهُ، وَأَنْهُمْ لَمْ يَحْضُرُوهُ مَعَكُمْ. هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ:﴾ **﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوهُمُ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَكْتُولُوا وَهُمْ فَرِحُوا﴾**.

ثم إن الله (جلّ وعلا) أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة: آية ٥١] لن يصيبنا أذى من الأذى لا قتل ولا جراح ولا مصيبة كائنة ما كانت إلا ما كتبه لنا ربنا في أزله. وقوله: ﴿مَوْلَانَا﴾ أي سيدنا وناصرنا. والمولى: أصله (مَفْعَل) من الولاية. والمولى في لغة العرب يطلق على كل من ينعقد بينك وبينه معنى تكون تواليه ويواليك به<sup>(١)</sup>؛ ولذا كثر إطلاق المولى على ابن العم؛ لأن بني العم يوالوك بعصبة القرابة وتواليهم، ويطلق على المعتق؛ لأن العتق ولاية حصلت بينه وبين المعتق، فهو يطلق على المعتق وعلى المعتق. ويطلق المولى على الصديق، وعلى كل من بينك وبينه ولاية كائنة ما كانت<sup>(٢)</sup>.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٠) من سورة الأنعام.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ [النساء: آية ٣٣] أي: عصابة يرثون المال، كبنِي العم ونحوهم من العصابات، ومن هذا المعنى قول الفضل بن العباس من أولاد أبي لهب<sup>(١)</sup>:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا لا تُظهِروا لنا ما كان مدفوناً وإطلاق المولى على ابن العم مشهور في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد<sup>(٢)</sup>:

وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ

والله (جلّ وعلا) مولى المؤمنين؛ لأنه يواليهم بالنصر والثواب والرحمة وهم مواليه؛ لأنهم يوالونه بالطاعة، حتى إن كل شيء يوالي شيئاً يقال له: (مولى) ولذا جعل الله النار مولاهم كما قال: ﴿مَا وَنَكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسُّ الْمَصِيدُ﴾ [الحديد: آية ١٥] لأنها تواليهم لما عملوا من الأعمال السيئة المؤدية لها. وهذا معنى قوله: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: آية ٥١] في أزاله ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ سيدنا ومدبر شؤوننا ونحن متوكلون عليه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تقديم المعمول هنا في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ يدل على الحصر، أي: لا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وحده. والتوكل معناه: تفويض الأمور، وكَلْتُ الأمر إليه: فَوَضُّتُهَا إِلَيْهِ.

وعلى العبد أن يفوض أموره إلى ربه (جلّ وعلا) ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. والتوكل على الله والتفويض عليه لا ينافي الأسباب، فيجب على المسلم أن يأخذ

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

بالأسباب كما جاء به الشرع الكريم، ويكون في قرارة نفسه متوكلاً على الله، وهذا سيد المتوكلين (صلوات الله وسلامه عليه) مرّ عليكم في الأيام الماضية أنه مع شدة توكله على الله وثقته بالله يتسبب في المحافظة من أعدائه بأن يدخل في غار مظلم في جبل ثور ليسن لأمتة التوكل على الله والأخذ بالأسباب مع التوكل على ضوء الشرع الكريم، وهذا هو الحق الذي لا شك فيه، فترك الأسباب من الضلال، والاعتماد بالكلية عليها من الضلال، والحق هو أن يأخذ الإنسان بالأسباب حسب ما جاء به الشرع الكريم متوكلاً قلبه على الله، مفوضاً أمره إليه، عالماً بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه كما قال هنا: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: آية ٥١]

وقد أوضح الله لنا في سورة الحديد أن جميع المصائب وجميع الأمور لا يصيب الإنسان منها إلا شيء كان مقدراً قبل أن يخلق الخلق، وقبل أن توجد المصيبة، وربنا يقول لنا في آية الحديد الآتية ما معناه: بينت لكم أن جميع الأمور كتبتها وحتمتها عندي لتتحصلوا على أمرين: أحدهما: أن لا تفرحوا بشيء أتاكم فإنه آتيكم لا محالة، ولا تحزنوا على شيء فاتكم لأنه فائت لا محالة، وهذا نص عليه تعالى بقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أي: أن نخلقها ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: آية ٢٢] إنما بيننا لكم هذا القدر السابق الأزلي ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: آية ٢٣] لا تحزنوا على شيء فاتكم فهو فائت لا محالة؛ لأن الله كتب ذلك وقدره ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ فهو آت لا محالة. وهذه الآيات القرآنية إذا تأملها

المسلم وتدبر معانيها فهم عن الله، وهانت عليه أمور الدنيا فلم تعظم في قلبه، وهذا معنى قوله: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: آية ٥١].

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٢].

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ كان المنافقون - قبحهم الله - في المدينة يداً مع الكفار واليهود على النبي ﷺ وأصحابه يُفشون إليهم أسرارهم، ويُلقون الأراجيف في قلوب المؤمنين، فهم يد مع الكفار والمنافقين على رسول الله ﷺ؛ ولذا كان المنافقون والكفار واليهود كأنهم طائفة واحدة ضد الإسلام والمسلمين؛ ولذا قال هنا: أنتم أيها المنافقون المتعاونون مع إخوانكم من الكفار واليهود الذين تتربصون الدوائر بنا.

التربص في لغة العرب: الانتظار، العرب تقول: «تربص»: إذا انتظر، وتربص بالسلعة إلى وقت الغلاء: انتظر بها. وهذا معروف، وهو مشهور جداً في كلام العرب، ومنه قول الشاعر<sup>(١)</sup>:

تَرَبَّصْ بِهَا رَبِّبَ الْمُنُونِ لَعَلَّهَا تَطَلَّقُ يَوْمًا أَوْ يَمُوتَ حَلِيلُهَا

فالتربص الانتظار. ومعنى الآية الكريمة: أنتم أيها المتربصون بنا عواقب الدهر ونوائبه راجين أن تدور علينا الدوائر فتهلكنا لا تتربصون بنا إلا واحدة من اثنتين كلتاها أحسن من الأخرى ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ أصله (تربصون) حُذفت فيه إحدى التاءين.

(١) مضى عند تفسير الآية (٢٤) من سورة التوبة.

﴿يَتَأْت﴾ (هل) استفهام بمعنى النفي، ما تنتظرون بنا عاقبة إلا عاقبة هي إحدى الحسينين. الحسنى: تأنيث الأحسن، وتُجمع على الحُسَن بضم ففتح، تقول: هذه الأنثى هي الحُسنى، أي: الأحسن من غيرها. وتجمعها على الحُسَن بضم ففتح كما هو معروف في محله. فالحسنى صيغة تفضيل، والحسينين تأنيث الحسنى، وهي صيغة تفضيل. والمعنى لا تنتظرون بنا إلا إحدى خصلتين كلاتهما أحسن من غيرها:

إحداهما: أن نغلب أعداءنا وينصرنا الله عليهم فنظفر بالنصر والغنيمة ورضى الله (جلّ وعلا)، وهذه الخلة لا يوجد أحسن منها، فعاقبتنا إن صارت إليها عاقبة كريمة محمودة.

والثانية: أن يقتلنا أعداؤنا فنموت فننال الشهادة، والشهادة هي أعظم فوز يناله المسلم في دار الدنيا، فهي أيضاً حسنى؛ لأنها أحسن من كل شيء.

وهذه الآية الكريمة من أعظم الآيات التي تجعل المسلم يشاق إلى الجهاد غاية الاشتياق؛ لأنك لا تجد في الدنيا رجلاً ماله إلى خير عظيم على كل التقديرات إلا المجاهد في سبيل الله؛ لأنه إن مات نال أمنية الدنيا والآخرة، ونال الفوز والحياة الأبدية، والكرامة التي لا نظير لها، وإن نصره الله على عدوه فرجع ظافراً غانماً فائزاً فهذا أيضاً حسن، وهذا لا يكون لأحد إلا للمجاهد في سبيل الله، فمن تأمل معنى هذه الآية الكريمة اشتاق لا محالة إلى الجهاد في سبيل الله. وقد ذكر أصحاب المغازي أن النبي ﷺ لما أراد الخروج إلى المشركين في غزوة أحد كان جابر بن عبد الله أبوه عبد الله بن عمرو بن حرام له بنات سبع، فجابر أخواته سبع، ذكروا أن النبي ﷺ

أشار عليهم أن يبقى مع البنات واحد، الابن أو الأب لثلا يموتا فتبقى الإناث لا قيم عليهن، فقال الوالد وهو عبد الله بن عمرو بن حرام (رضي الله عنه وأرضاه): يا بني كل شيء أوثرك فيه على نفسي إلا الشهادة في سبيل الله، فوالله لا أوثر على نفسي بها أحداً، واستشهد يوم أحد (رضي الله عنه). ولا خلاف بين العلماء في أنه من الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١٦٩] إلى آخر الآيات [آل عمران: آية ١٦٩] وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ [التوبة: آية ٥٢] أي: ما تتربصون وتنتظرون بنا إلا واحدة من إحدى مسألتين كلتاها أحسن من كل شيء ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ ظفر ونصر وفوز بالظفر والنصر، أو شهادة في سبيل الله. وهذا كله خير، فكل احتمال صرنا إليه هو احتمال كريم، وهو أحسن من غيره. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾.

﴿وَنَحْنُ نَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ نتظر بكم خلاف ذلك: إحدى السوأيين، نحن نتظر بكم إحدى السوأيين، كلتاها أسوأ من الأخرى؛ أحدهما: أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، كأن ينزل عليكم عقوبة فيهلككم لكفركم وتمردكم وتصيرون إلى النار، أو يسלטنا عليكم ويأمرنا بقتلكم فنقتلكم كما قال في إخوانهم الكفار: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٤] وهذا معنى قوله: ﴿وَنَحْنُ نَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ إذا عرفتم أنكم لا تتربصون بنا إلا الخير ونحن لا نتربص بكم إلا الشر إذن فتربصوا ونحن متربصون أيضاً، فكلنا يصير إلى ما يتربص به الآخر إليه.

وهذا معنى قوله: ﴿ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: آية ٥٢].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [٥٣] وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْتُمْ لِمَنْ كُنْتُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُرٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ [التوبة: آية ٥٣ - ٥٧].

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة والكسائي: ﴿ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ بفتح الكاف، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ أَوْ كُرْهًا ﴾ بضم الكاف<sup>(١)</sup>.

وقرأ عامة السبعة أيضاً غير حمزة والكسائي: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ ﴾ بالتاء. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ وما منعهم أن يُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ ﴾ بالياء<sup>(٢)</sup>.

وهذه الآية الكريمة من الآيات النازلة في الجدل بن قيس أخي بني سلمة؛ لأن النبي ﷺ لما دعاه إلى الخروج في غزوة تبوك واعتذر له أعذار المنافقين المتقدمة قال له: ائذن لي في القعود، وهذا مالي أعينك به، خذ مالي نفقة مني في سبيل الله واطركني أنا أتخلف<sup>(٣)</sup>. فأنزل الله في إنفاقه الذي عرض على النبي ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾

(١) انظر: الإتحاف (٩٣/٢).

(٢) انظر: السبعة ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩٤/١٤)، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

يا نبي الله لهؤلاء المنافقين ﴿ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أي: في حال كونكم طائعين أو كارهين لن يقبل الله منكم نفقة؛ لأنه يعلم أنكم كفار في الباطن، وصيغة الأمر في قوله: ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا ﴾ تقرر في الأصول<sup>(١)</sup> أن من الصيغ التي ترد لها (افعل) قصد التسوية بين الأمرين، فمن أساليب اللغة أن تأتي بصيغة (افعل) تقصد بذلك أن تسوي بين الأمرين، المذكورين بعد ذلك، ونظيره في القرآن: ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الطور: آية ١٦] يعني: صبركم وعدمه سواء لا ينفعكم ذلك. ﴿ أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [التوبة: آية ٨٠] يعني: استغفارك وعدمه سواء، لا ينفع استغفارك ولا عدمه، كذلك قوله هنا: أنفقوا طائعين أو مكرهين لا ينفعكم ذلك الإنفاق؛ لأن الله لا يقبل أعمال الكفرة. وهذا معنى قوله: ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ [التوبة: آية ٥٣] طوعاً أو كرهاً: مصدران منكران في موضع الحال. أي: في حال كونكم طائعين أو مكرهين. وإتيان التسوية بين الأمرين بصيغة (افعل) معروف في كلام العرب، ذكرنا له أمثلة في القرآن العظيم، ومن أمثله في كلام العرب قول كثير عزة<sup>(٢)</sup>:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ

يعني: إن أسأت أو أحسنت إلينا فكل ذلك سواء لا يغير ودنا القديم بالنسبة إليك.

وقوله: ﴿ لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ ﴾ لن يقبل الله نفقتكم. قال بعض

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٢٧/٣).

(٢) البيت في ابن جرير (٢٩٣/١٤)، القرطبي (١٦١/٨).

العلماء: لم يقبلها رسول الله بل فردها عليهم. وقال بعضهم: لا يقبلها الله، أي: لا يؤتيهم عليها أجراً؛ لأنها لا يُراد بها وجه الله.

ثم قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ أي: خارجين عن طاعة الله. والفسق في لغة العرب<sup>(١)</sup> معناه الخروج. وفي اصطلاح الشرع<sup>(٢)</sup>: الفسق الخروج عن طاعة الله. تارة يعظم ذلك الخروج فيكون كفراً، وتارة يكون خروجاً دون خروج، وفسقاً دون فسق، فيكون بارتكاب كبيرة؛ ولأجل هذا كان الفسق يطلق في القرآن على الكفر كقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: آية ٢٠] وتارة يطلق على ارتكاب المحرم الكبير كقوله: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْهُ﴾ [الحجرات: آية ٦] وقوله في القاذفين: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿١﴾ [النور: آية ٤].

وهذه الآية معلوم تعلق المعتزلة بها في أن السيئات تبطل الحسنات، قالوا: لأن الله صرح بأن فسقهم أبطل نفقتهم. ومن هنا زعموا أن كبائر الذنوب تبطل الأعمال. وهذا مذهب باطل لا شك في بطلانه، وهذه الآية التي تعلقوا بها بين الله (جلّ وعلا) بطلان حججهم منها في قوله بعده - يليه - : ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا﴾ فصرح بأن المبطل للأعمال هو صريح الكفر. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾.

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

والضمير في قوله: ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ منصوب في محل المفعول. أعني بقولي: (الضمير) المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها في قوله: ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها في قوله: ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ في محل نصب مفعول به لـ (منع) - أي ما منعهم قبول نفقاتهم - بناءً على أن (منع) تتعدى للمفعول الثاني بنفسها، كمنعت زيدا كذا وكذا. وهو الصحيح<sup>(١)</sup>.

وأما المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها في قوله: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ فالتحقيق فيه أنه في محل رفع، وهو فاعل (منع) وتقرير المعنى: ما منع قبول نفقاتهم إلا أنهم كفروا، أي: إلا كفرهم بالله. فإيضاح المعنى: ما منع قبول النفقات منهم إلا كفرهم بالله.

وقال بعض العلماء: إن فاعل (منع) ليس المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها، وأنه ضمير يعود إلى الله. أي: وما منع الله قبول نفقاتهم إلا أنهم كفروا، إلا لأجل أنهم كفروا. والأول هو الأظهر<sup>(٢)</sup>.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لأن المنافقين وإن كانوا يظهرون الإيمان ظاهراً فهم في باطن الأمر كفرّة فجرة، فهم كافرون في باطن الأمر، والكافر لا يقبل منه صرف ولا عدل، ولا خلاف بين العلماء أن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، فلا ينتفع الإنسان بعمل إلا إذا كان مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة.

(١) انظر: الدر المصون (٦/٦٦).

(٢) انظر: المصدر السابق (٦/٦٦).

وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> أن العمل الصالح الذي يُثاب به صاحبه يوم القيامة هو ما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: منها أن يكون مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الله لا يقبل أن يتقرب إليه إلا بما شرع على لسان رسوله ﷺ، فمن تقرب إليه بما لم يشرعه لم يقبله منه ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: آية ٢١].

الثاني: أن يكون العبد فيما بينه وبين الله في نيته التي لا يعلمها إلا الله مخلصاً في عمله لله؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: آية ٥] ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: آية ١١].

الثالث: هو هذا الذي نحن بصده: أن يكون العمل مبنياً على أساس الإيمان بالله والعقيدة الصحيحة؛ لأن العمل كالسقف، والعقيدة الصحيحة والإيمان بالله كالأساس، والسقف لا يستقيم إلا على أساس؛ ولذا من عمل أعمالاً صالحة ليست مبنية على أساس الإيمان فهي باطلة منهارة لا ينتفع بها، والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: آية ١٢٤] فقيّد بقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا لا نزاع فيه؛ لأن كل عمل يعمله الكافر ولو كان مطابقاً للشرع، والكافر مخلص فيه لله، فإن بعض الكفار يبر والديه، ويصل رحمه، ويقري الضيف، ويعين المظلوم، وينفس عن المكروب، كل ذلك يقصد به وجه الله، فهذه قُرْبٌ صحيحة موافقة للشرع هو مخلص فيها لله، لا ينفعه الله بها يوم

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

القيامة؛ لأن الله يقول: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: آية ٢٣] وقال (جلّ وعلا): ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: آية ١٦]، ﴿ أَعْمَلْتُمْ كَسْرًا... ﴾ [النور: آية ٣٩]، ﴿ كَرَمَادٍ ﴾ [إبراهيم: الآية ١٨] ونحو ذلك من الآيات، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن عمل الكافر الصالح - كأن يبر والديه، وينفّس عن المكروب، ويقري الضيف، ويعين المظلوم، ويصل الرحم - يقصد بذلك وجه الله، فمثل هذا من الأعمال الصالحة إذا فعله الكفار أثابهم الله به في دار الدنيا فأعطاهم عرض الدنيا من المال وأطعمهم وسقاهم ورزقهم العافية، ولا يكون لهم عند الله جزاء، وقد ثبت هذا المعنى من حديث النبي ﷺ الذي رواه عنه أنس، ورواه مسلم في صحيحه من حديث أنس عن النبي ﷺ: أن الله يطعم الكافر بعمله الصالح في الدنيا، ويثيبه في الدنيا، فإذا جاء الآخرة لم يكن له عمل يُجازى عليه، أما المسلم فالله يثيبه بعمله في الدنيا ويدخر له في الآخرة<sup>(١)</sup>.

والآيات الدالة على أن الكفار ينتفعون بأعمالهم في الدنيا جاءت في القرآن، كقوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: آية ٢٠] وما دلّ عليه هذا الحديث الصحيح من أن الكافر يُجازى بعمله في الدنيا ولا يجازى به في الآخرة، وما دلّ عليه بعض

(١) مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا، حديث رقم: (٢٨٠٨)، (٢١٦٢/٤).

الآيات. وقال بعضهم: إن منه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا﴾ [النور: آية ٣٩] قال بعض العلماء: وفاه حسابه في دار الدنيا بما رزقه على عمله الصالح من العافية. وإن كان الوجه الآخر أصح في الآية، كل هذا الذي هو إثابة الكافر من عمله في الدنيا لا شك مقيد بمشيئة الله؛ لأن ذلك دلت عليه آية سورة بني إسرائيل، وهي قاضية على كل شيء في هذا الباب. أعني قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: آية ١٨] فقوله: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ قيد بالمشيئة للجزاء الثابت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ من حديث أنس. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: آية ٥٤].

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً<sup>(١)</sup> أن أصل مادة الكاف والفاء والراء معناها التغطية والستر، فكل شيء غطيته وسترته فقد كفرته، ومنه قيل للزُّرَّاع: (كفار)؛ لأنهم يكفرون البذر في بطن الأرض، وقيل لليل: (كافر) والعرب تسمي الليل كافراً؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها بظلامه. وكفر الشيء إذا غطاه وستره، ومن هذا المعنى قول لبيد بن ربيعة في معلقته<sup>(٢)</sup>:

يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرٌ فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا  
أي: ستر النجوم وغطاها غمام تلك الليلة. وقوله أيضاً في معلقته هذه في تسمية الليل كافراً<sup>(٣)</sup>:

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

حتى إذا أَلْقَتْ يَدَا فِي كَافِرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظِلَامُهَا  
 هذا أصل معنى المادة في لغة العرب، ومنه قيل لتكفير الذنوب  
 تكفير الذنوب؛ لأن الله يسترها ويغطيها بحلمه حتى لا يظهر لها أثر،  
 من (كفرته) إذا سترته.

والكافر يغطي أدلة التوحيد ويحاول جحدها وتغطيتها وهي  
 كالشمس في رابعة النهار، أو يحاول تغطية نِعَمِ الله عليه بأكله رزقه  
 وعبادته غيره.

قوله: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: آية ٥٤] هو  
 محمد ﷺ، والرسول بمعنى مُرسل، أي: بالإنسان الذي أرسله الله  
 (تبارك وتعالى)، وهو نبينا. والرسول (فَعُول) بمعنى (مُفْعَل) وأصله  
 مصدر، وإتيان المصادر على وزن (فَعُول) بفتح الفاء نادر موجود في  
 كلمات معدودة<sup>(١)</sup> كالقبول، والولوع، والرسول بمعنى الإرسال  
 والرسالة. والتحقق أن أصل الرسول مصدر، والعرب تطلق الرسول  
 وتريد المصدر الذي هو الرسالة، ومنه قول الشاعر<sup>(٢)</sup>:

لقد كَذَبَ الْوَأَشُونَ مَا فَهَتَ عِنْدَهُمْ      بقولٍ ولا أَرْسَلْتَهُمْ بِرَسُولِ  
 أي: ولا أرسلتهم برسالة، وقول الآخر<sup>(٣)</sup>:

أَلَا أَبْلِغُ بَنِي عَمْرٍو رَسُولًا      بِأَنِّي عَن فَتَاخَتِكُمْ غَنِي  
 أبلغ بني عمرو رسالة. وإنما قلنا: إن الرسول أصله مصدر  
 لنبين بذلك أن في ذلك حللاً لبعض الإشكالات في القرآن العظيم؛

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٨) من سورة البقرة.

لأن الأشياء التي أصلها مصادر إذا تنوسيت فيها المصدرية واستعملت استعمال الأوصاف جاز أن يُراعى فيها أصلها وهو المصدر، والعرب إذا نعتت بالمصدر التزمت الأفراد والتذكير، ومن هنا كان الرسول يجوز إفراده مراداً به الجمع أو الثنية؛ لأن أصله مصدر؛ ولذلك جاء مفرداً في سورة الشعراء في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: آية ١٦] نظراً إلى أصل مصدريته. وجاء مثني في سورة طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: آية ٤٧] اعتداداً بالوصفية العارضة وإلغاءً للمصدرية الأصلية؛ ولذلك كانت العرب تطلق الرسول وتريد به الجمع على عادتها إذا نعتت بالمصادر، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي<sup>(١)</sup>:

الْكِنْيَ إِيْهَا وَخَيْرَ الرَّسُولِ أَعْلَمُهُمُ بِنَوَاحِي الْخَبْرِ  
يعني: وخير الرسل. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ.

﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ هي هذه الصلاة المكتوبة، أقامها الله وأدامها ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ إلا والحال هم كسالي، والكسالي جمع الكسلان: المتكاسل عنها الذي هي ثقيلة عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: آية ٤٥] لأن الصلاة لا تخف إلا على من يريد جزاء الله وثوابه، أما المنافقون والذين لا إيمان لهم، فهي أثقل شيء عليهم؛ ولذا لا يأتونها إلا متكاسلين في غاية الكسل يراؤون الناس ولو كانوا بانفرادهم لا يطلع عليهم الناس لما صلوها كما تقدم في قوله تعالى في سورة النساء:

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَأَوْنَ لِلنَّاسِ ﴾ [النساء: آية ١٤٢] هذه حالة المنافقين - قبحهم الله - .

﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة: آية ٥٤] فقوله: ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ معناه: أن المنافقين لا يخرجون نفقة طيبة بها أنفسهم، ولا يخرجونها إلا كرهاً لئلا يطلع المسلمون على نفاقهم فيجروا عليهم أحكام الكفرة. وبهذا تعلم أن قوله: ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ [التوبة: آية ٥٣] أنهم كارهون على كل حال، وأن المراد بالآية تسوية جميع الحالات، الحالة الواقعة وغيرها أنهم لا فائدة لهم في ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ أي: كارهون ذلك الإنفاق؛ لأنهم لا يطلبون ما عند الله ولا يرجون عاقبة ولا جزاء من الله، فالإنفاق في سبيل الله يعدونه مغرمًا ويكرهونه غاية الكره كما سيأتي في قوله: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَابِرَ عَلَيْهِنَّ دَائِرَةُ السُّوءِ ﴾ [التوبة: آية ٩٨].

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: الآيتان ٥٥، ٥٦].

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: آية ٥٥].

نهى الله نبيه ﷺ عن أن يستحسن ما أعطى للمنافقين من متاع الدنيا من الأموال والأولاد، لا يعجبك ما أعطيناكم من الأموال والأولاد فإننا أعطيناكم إياه استدراجاً منا وعاقبته سيئة ووخيمة عليهم

في الدنيا والآخرة، لا تستحسن ذلك ولا تعجب به؛ ولا تمدن إليه عينيك كما قال: ﴿وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿١٣١﴾ [طه: آية ١٣١] وقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَمَبِينٍ ﴿٥٥﴾ سُارِعٌ لَّهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥٥، ٥٦]، ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبا: آية ٣٧]، ﴿مَا آغَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٦﴾﴾ [المسد: آية ٢] إلى غير ذلك من الآيات، لما بين الله في هذه الآيات من سورة براءة أن المنافقين لا حظ لهم من الله في الآخرة بين أن ما أعطاهم من زينة الحياة الدنيا من متاعها من الأموال والأولاد أيضاً لا ينبغي أن يستحسن، ولا أن يعجب به؛ لأنه تافه أعطوه استدراجاً وعاقبته سيئة عليهم ﴿إِنَّمَا تَعْمَلُ لَهَا لِيَزِدَّادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: آية ١٧٨] هذا معنى قوله: ﴿فَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ العرب تقول: أعجبه الشيء يعجبه إذا استحسنه استحساناً يسره، فكل من استحسّن الشيء استحساناً يسرُّ به تقول العرب: أعجبه، أي: لا تستحسن ما أعطيناهم من متاع الدنيا استحسان سرور ﴿فَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بإعطائه إياهم ليعذبهم، هذه اللام التي تأتي في القرآن بكثرة وفي كلام العرب بعد فعل الإرادة فيها خلاف للعلماء؛ لأنه يكثر في القرآن وفي كلام العرب إتيان هذه اللام بعد فعل الإرادة كقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: آية ٢٦] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطِغُوا ثُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: آية ٨] ونحو ذلك من الآيات، وقوله هنا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: آية ٥٥] تكثر هذه اللام بعد فعل الإرادة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطِغُوا ثُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: آية ٨] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء:

آية ٢٦] وهي موجودة في كلام العرب نحو هذا، ومنه قول الشاعر<sup>(١)</sup>:

أريد لأنسى ذكـرَها فكأنما  
تمثل لي ليلى بكل سبيل  
هذه اللام التي تأتي في القرآن وفي كلام العرب بعد فعل  
الإرادة اختلف العلماء في معناها، وأظهر أقوالهم فيها قولان:

أحدهما: أنها لام نادرة المعنى تأتي بمعنى (أن)، وأنها لام  
مصدرية، وإن لم يكن علماء العربية عدوا حرف اللام من  
الموصلات الحرفية المصدرية، قالوا: فهذه اللام بمعنى (أن)  
والدليل على هذا القول تعاقب هذه اللام و(أن) في قوله ﴿يُرِيدُونَ  
أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: آية ٨]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ  
اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥٥] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ في الآية الآتية.  
وعلى هذا القول فاللام مصدرية بمعنى (أن)، وهو قول يقل من يقوله  
من علماء العربية.

القول الثاني: أن المفعول محذوف، واللام لام تعليل  
لمحذوف، والمعنى على هذا القول: إنما يريد الله إعطاءهم ومتاعهم  
بها لأجل أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا  
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ قال بعض العلماء: الضمير عائد إلى الأموال.

وفي هذه الآية وجهان معروفان من التفسير عند العلماء<sup>(٢)</sup>:  
قالت جماعة من العلماء: في الآية الكريمة تقديم وتأخير، والمعنى:  
فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله

(١) البيت لكثير عزة وهو في تاريخ دمشق (٨٠/٥٠).

(٢) انظر: القرطبي (١٦٤/٨)، البحر المحيط (٥٤/٥)، الدر المصون (٦٧/٦).

ليعذبهم بها - أي في الآخرة - وعلى أن في الآية تقديماً وتأخيراً فلا إشكال في المعنى. وهذا القول مروى عن ابن عباس<sup>(١)</sup> وجماعة من السلف.

وقال جماعة من العلماء منهم الحسن البصري وغيره<sup>(٢)</sup>: إن الآية لا تقديم فيها ولا تأخير، وأن الله يعذب المنافقين بالأموال في الحياة الدنيا. وعلى قولهم فالضمير راجع إلى الأموال فقط دون الأولاد، ومعنى كون الله يعذبهم بأموالهم في الحياة الدنيا أن الله يفرض عليهم فيها الزكاة ويفرض عليهم فيها الحقوق الواجبة فتؤخذ قهراً منهم رغم أنوفهم، وأعظم ما يعظم على الإنسان إذا كان يؤخذ الشيء من تحت يده وهو محب له كرهاً رغم أنه لا يريد به وجه الله، وأن الله أيضاً يسلط عليها المصائب والبلايا فتحزن قلوبهم وتتعذب، ولأنه يتعذبهم في جمعها أولاً فتأتيهم بمتاعب من جهات متعددة، منها: تعبهم ونصبهم في جمعها أولاً وما ينزل بها من المصائب، وتكليفهم دفع الزكاة فيها، وإنفاقها في سبيل الله للجهاد ونحو ذلك، فهذا تعذيب لهم؛ لأن أشد ما يؤلم المنافق أخذ ماله من تحت يده قهراً لعزة المسلمين ونصر دين الإسلام، هذا أمر يؤلم قلوبهم جداً، وكل ما يؤلم الإنسان يسمى تعذيباً له. وعلى هذا القول فلا تقديم ولا تأخير في الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ويجمع لهم مع ذلك عذاب الآخرة ﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: يموتوا ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فيتصل لهم عذاب الآخرة الذي لا ينقطع بعذاب الدنيا. وهذا معنى قوله: ﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩٦/١٤)، من طريق علي بن أبي طلحة.

(٢) أورد هذه الروايات ابن جرير (٢٩٦/١٤).

وقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: آية ٥٦] هذه عادة المنافقين يتقون بالأيمان الكاذبة ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ للنبي والمسلمين ﴿بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ في الباطن والظاهر، والله يقول: ﴿وَمَا هُمْ مِّنكُمْ﴾ بل هم أعداؤكم ولا عاشروكم إلا مرغمين على ذلك لا يجدون عنه مفراً، كما يأتي في الآية الآتية بعد هذا ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ للنبي وأصحابه قائلين ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ باطناً وظاهراً، والله يقول: ﴿وَمَا هُمْ مِّنكُمْ﴾ هم كفرة أعداء ليسوا منكم ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (٥٦) يفرقون معناه: يخافون. العرب تقول: فرّق الرجل بكسر الراء يفرّق بفتحها على القياس فرقاً بفتحتين فهو فرّق إذا كان خائفاً شديد الخوف<sup>(١)</sup>. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول أبي محجن الهذلي في أبياته المشهورة<sup>(٢)</sup>:

القومُ أعلمُ أني لساعتهم إذا تطيشُ يد الرعدِيدةِ الفرقِ

الذي يرتعد إذا أراد أن يرمي فترتعد يده من الفرق وهو الخوف. أي: ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (٥٦) أي: يخافون منكم فيتوددون ويحلفون لكم الأيمان الكاذبة أنهم منكم في الباطن وليسوا منكم في الباطن، بل هم أعداء كفرة فجرة، هم أعدى الناس لكم كما سيأتي قريباً. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (٥٦).

ثم بين شدة عداوتهم لهم فقال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا﴾ [التوبة: آية ٥٧] لو كانوا يجدون ملجأً يلجؤون إليه ويعتصمون به دونكم للجوءوا إليه.

(١) انظر: المفردات (مادة: فرق)، ص ٦٣٤.

(٢) البيتان لأبي محجن الثقفي، وهما في تاريخ دمشق (٤٦/٦٨، ٤٧)، وفيه «أنى من سراتهم».

﴿أَوْ مَعْرَبٍ﴾ المغارات جمع مغارة، والمغارة: هي الغيران في الجبال. المغارة: الغار في الجبل، وهو بفتح الميم. والتحقيق أن أصل ألفه منقلبة عن واو؛ لأن المغارة من غار يغور إذا انحدر في أسفل، ومنه ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: آية ٣٠] أي: غائراً. وكل غائرٍ منسفل فهو غور. ومعنى مغارة: أي: غاراً منسفلاً ينحدرون في أسفله ويختفون فيه عنكم.

﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ قراءة السبعة وجمهور القراء غيرهم: ﴿مُدْخَلًا﴾ والمُدْخَلُ أصل وزنه [مفتعلاً] من دخل، أصله (مُدْتَخَلٌ) بالتاء، أبدلت التاء دالاً وأدغمت الدال في الدال<sup>(١)</sup>. والمُدْخَلُ هو المكان الذي يُدْخَلُ فيه كالسَّرَبِ والنَّقِ في باطن الأرض. أي: لو يجدون غيراناً في الجبال أو أنفاقاً وسروباً في داخل الأرض يدخلون فيها، أو ملجأً يعتصمون به لولوا راجعين إليه عنكم / ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [١/٩] يجمعون مضارع جمع يجمع إذا أسرع في سيره إسراعاً لا يرد وجهه شيء، ومنه: فرس جموح إذا كان اللجام لا يمسكه ولا يرده عن وجهته شيء، فكل مسرع في جريه لا يرده عن وجهه شيء تسميه العرب جموحاً وجامحاً. أي: لو وجدوا أي موضع يذهبون فيه إليكم ولا يصحبونكم لولوا إليه في غاية الإسراع لا يردهم عنه شيء، ولكنهم لا يجدون طريقاً أبداً غير معاشرتكم فهم مُلْجِؤُونَ إليها يعاشرونكم مكرهين لا مفر ولا ملجأً لهم، ولو وجدوا أي مفر للجؤوا إليه، وهذا غاية العداوة، بين الله أسرارهم وشدة عداوتهم لنبيه ليتحرز منهم؛ لأن العدو إذا كان في ثياب صديق هو أشد الأعداء:

(١) انظر: القرطبي (١٦٥/٨)، الدر المصون (٦٨/٦ - ٦٩)، معجم مفردات

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة<sup>(١)</sup>

وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٧].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿وَمِنَّمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ [٥٨] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَاءَ أُنْهَارٍ اتَّخَذُوهُمْ رِزْقًا وَرَسُولَهُمْ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [٥٩] ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ الْمُؤْتَفَقَةِ لِقُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآيات ٥٨ - ٦٠] ذكر كثير من

أهل العلم أن هذه الآية نزلت في حرقوص بن زهير ذي الخويصرة التميمي رأس المنافقين. قالوا: وجد النبي ﷺ يقسم مالا فقال: يا نبي الله اعدل فإنك لم تعدل - قبّحه الله - وقصة ذي الخويصرة معروفة ثابتة في الصحيح<sup>(٢)</sup>، ولكن الذي يظهر أن هذه الآية ليست نازلة فيه، وإن زعم كثير من كبار المفسرين أنها نازلة في ذي الخويصرة، وإنما قلنا إن الأظهر أنها نازلة في غيره أن المعروف أن القسمة التي قال فيها حرقوص بن زهير التميمي المعروف بذئب الخويصرة أصل الخوارج - قبّحه وقبّحهم الله - أن ذلك في قسم

(١) نسبه في قرى الضيف (١٣٧/٣) إلى ابن حجاج، وفي محاضرات الأدباء للراغب (٢١/٣) نسبه إلى علي بن عيسى.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم: (٣٦١٠)، (٦١٧/٦)، وأخرجه في مواضع أخرى. انظر الأحاديث: (٤٣٥١)، (٦٩٣١)، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم: (١٠٦٤)، (٧٤١/٢)، من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه).

النبي لغنائم حنين، قال ذلك فيه، وهذه الآية يصرح الله فيها بأنهم لمزوه في قسم الصدقات وهي الزكوات والصدقات غير الغنائم<sup>(١)</sup>، فالأظهر أن الأصوب فيها هو ما قاله ابن جريج (رحمه الله) وغيره أنها نزلت في رجل من الأنصار من المنافقين حضر النبي ﷺ يقسم مالا من الصدقات فقال: يا نبي الله اعدل فإنك لم تعدل - قبحه الله - فنزلت هذه الآية فيه<sup>(٢)</sup>.

وهذه الآيات من سورة براءة يبيّن الله بها أصنافاً من المنافقين يقول: ومنهم من هو كذا، ومنهم من هو كذا، كما تقدم في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُرُ أَتَدْنٰ لِي وَلَا نَفْتِي﴾ [التوبة: آية ٤٩] وقال هنا: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ وسيأتي قوله: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ

(١) الذي يظهر أنهما واقعتان متشابهتان:

الأولى: في قسم غنائم حنين، وذلك في الجعرانة حيث قال له رجل: «يا محمد اعدل» كما في حديث جابر (رضي الله عنه) عند البخاري (٣١٣٨)، ومسلم (١٠٦٣).

الثانية: في قسم ذهبية بعث بها علي (رضي الله عنه) من اليمن والنبي ﷺ في المدينة، وقد قسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر، فقال رجل: يا رسول الله: اتق الله... الحديث. كما في حديث أبي سعيد الذي تقدم تخريجه قريباً، وقد جاء في بعض الروايات عند البخاري ومسلم التصريح باسمه وهو ذو الخويصرة التميمي، وكذا في رواية ابن جرير (٣٠٣/١٤) والواحدي في أسباب النزول ص ٢٤٩، وفيهما أيضاً التصريح بأن هذه الحادثة كانت سبب نزول الآية.

قال الحافظ في الفتح (٦٨/٨): «تنبيه: هذه القصة غير القصة المتقدمة في غزوة حنين، وهم من خلطها بها». اهـ.

وقال في (٢٩٣/١٢): «وقد ظهر أن المعترض في الموضوعين واحد». اهـ.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٠٢/١٤)، وقد رواه ابن جريج عن داود بن أبي عاصم، ولا يخفى أن هذا له حكم الإرسال.

النَّبِيِّ ﴿ [التوبة: آية ٦١] هذه طوائف من المنافقين تعمل قبائح مختلفة الأصناف بينها الله في هذه السورة ﴿ وَمَنْهُمْ ﴾ أي: من المنافقين ﴿ مَنْ يَلْمِزُكَ ﴾ يا نبي الله، واللمز معناه: العيب والظعن. تقول العرب: لمزه. إذا عابه وظعن فيه، ومنه قوله: ﴿ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: آية ٧٩] ﴿ وَلَا نَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات: آية ١١] أي: لا يعب أحدكم أخاه ويطعن فيه ومنه ﴿ وَبَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُحْمًا ﴾ لأن اللُّمزة فُعلة تدل على المبالغة، أي: كثير لمز الناس، أي: عيبتهم والظعن فيهم. ومن هؤلاء المنافقين صنف آخر يلمزك يا نبي الله، يطعن عليك ويعيبك في قسم الصدقات ويقولون: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، ولم يراع فيها العدل كما ينبغي.

ثم إن الله بين قبائحهم وفضحهم بأن هذا القول الذي تجرؤوا عليه ما حملهم عليه إلا الطمع والشهه ومحبة شيء يعطونه في خصوص أنفسهم؛ ولذا قال: ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ﴾ فإن أعطوا من الصدقات رضوا ذلك العطاء وسكتوا وفرحوا ﴿ وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا ﴾ (إذا) حرف مفاجأة، وقد قدمنا في هذه الدروس أن (إذا) الفجائية فيها لعلماء العربية ثلاثة أقوال: قيل: هي حرف، وقيل: ظرف مكان، وقيل: ظرف زمان، كما هو مقرر في محله<sup>(١)</sup>. والمعنى: إذا لم يُعطوا من الصدقات شيئاً فاجأ ذلك سخطهم، أي: غضبتهم وعدم رضاهم. فبين الله أن سخطهم ورضاهم منوطان بمصلحتهم الخاصة إذا أعطوا شيئاً رضوا وفرحوا، وإذا لم يعطوا شيئاً غضبوا وسخطوا. وهذه ليست حالة من يريد وجه الله ولا المصلحة العامة؛ ولذا قال:

(١) مضى عند تفسير الآية (٢٠١) من سورة الأعراف.

﴿ فَإِنْ أَعْتَبُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ يسخطون مضارع (سخط الأمر) بكسر الخاء (يسخطة) بفتحها (سَخَطًا) على القياس، وسُخْطًا إذا كرهه، وسَخِطَ الرجل بمعنى غضب، ومنه: ﴿ لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: آية ٨٠] أي: غضب عليهم - والعياذ بالله - .

ثم إن الله قال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة: آية ٥٩] معروف في علم العربية أن (لو) حرف شرط في الماضي، وأن حروف الشرط إنما تتولى الجمل الفعلية، ومعلوم أن (أن) في قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ﴾ في محل مصدر، والمصدر الذي هي في محله اسم. والعلماء يجيبون عن هذا بأن متعلق (لو) محذوف<sup>(١)</sup> عامل في قوله: ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ والمعنى: ولو ثبت، أو لو وقع أنهم فعلوا كذا لكان خيراً لهم ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ رضوا أصله: (رَضِيُوا) أصله (فَعِل) وأصل لامة واو؛ لأن أصل رضي (رَضِيَ) بالواو؛ لأنك تقول منها: الرضوان بالواو، ولا تقول: الرضيان بالياء. أصلها (رَضِيَ) بالواو فتطرفت الواو بعد كسرة فوجب إبدالها ياء، فقليل فيها (رضي) بالياء مبدلة من الواو<sup>(٢)</sup> ومن المعروف في علم التصريف أن كل فعل ناقص - أعني معتل الآخر - إذا أسند إلى واو الجمع حذفت لامة، أصله (رضيو) والياء مبدلة من واو، فحذفت اللام التي هي ياء أصلها واو وجعلت كسرتها ضمة لمجانسة الواو، فلذا قيل فيه: (رضوا) وأصل وزن الكلمة بالميزان الصرفي (فَعِلُوا) ووزنها الحاضر الآن (فَعُوا) لأنها محذوفة اللام. وهذا معنى

(١) انظر: البحر المحيط (٥/٥٦)، الدر المصون (٦/٧٢).

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا ﴾ شيئاً ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (إذا) الفجائية تأتي جواباً للشرط كما هو معروف في محله. ثم إن الله قال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ لو رضوا بنصيب الله الذي قسم لهم كما يُعطى لسائر المسلمين من الصدقات وغيرها ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ حسبنا معناه: يكفينا الله (جلّ وعلا)؛ لأن في الله خلفاً من كل شيء، وكفاية من كل شيء، فمعنى ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ يكفينا الله ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ ﴾ سيعطينا الله من فضله، أي: من فضل الله على يد رسوله ﷺ، وسيؤتينا رسوله ما أمره الله به أن يؤتينا، لو حسنوا الظن بالله، وتوكلوا على الله، ورجبوا فيما عند الله، وقالوا: إنا إلى ربنا راغبون. أي: رغبنا إليه، ورهبتنا إليه؛ لأن طمعنا وأملنا كله فيه؛ لأن المؤمن بمعناه الصحيح رغبته إلى الله؛ لأنه يطبع الله ويتقيه ويرغب فيما عند الله (جلّ وعلا) من الخير، كما قال تعالى مادحاً للأنبياء: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: آية ٩٠] وقال لنبينا ﷺ: ﴿ فَإِذَا فَرَعْتَ فَأَنْصَبْ ۖ وَإِلَّا رَيْكَ فَارْزُبْ ۖ ﴾ [الشرح: الآيتان ٧، ٨] لأن الرغبات كلها إلى الله (جلّ وعلا)؛ لأنه هو الذي بيده الخير، وكل شيء بيده، فرغبة المؤمن إليه (جلّ وعلا) يستنزل رحمات الله وما يرجو من الله بطاعة الله (جلّ وعلا) وتقواه. وهذا معنى قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة: آية ٥٩] جواب (لو) محذوف دل المقام عليه، والتقدير: لو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم. وقد جاء في القرآن وفي كلام العرب حذف جواب (لو) إذا دلّ المقام عليه، فهو كثير في القرآن وفي كلام العرب فمن أمثلة حذف جواب (لو) في

القرآن مع دلالة المقام عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: آية ٥] أي: لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ [الرعد: آية ٣١] فجواب (لو) محذوف واختلف العلماء في تقديره على قولين متقاربين<sup>(١)</sup>: قال بعضهم: تقدير جواب (لو) في آية الرعد هذه ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ لكان هذا القرآن على حد قوله<sup>(٢)</sup>:

ولو طَارَ ذُو حَافِرٍ قَبْلَهَا لَطَارَتْ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَطِرْ  
وقال بعض العلماء: تقديره: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ لكفروا بالرحمن. ويدل لهذا قوله بعده: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الرعد: آية ٣٠] ومن حذف جواب (لو) في كلام العرب قول الشاعر<sup>(٣)</sup>:

فَأَقْسِمُ لَوْ شِئْتُ أَنَا رَسُولُهُ سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا  
يعني: لو شئت أنا رسوله سواك لدفعناه. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٩].

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ فُلُوجِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَدِيمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٦٠].

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنفال وراجع ما تقدم عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنفال.

لما كان من المنافقين طائفة يلّمزون رسول الله ﷺ في قَسَمِ الصدقات ويفترون عليه أنه لم يعدل في قَسَمِها بين الله لهم أن الله تولى قسمتها وبينها وهو ﷺ منفذ لما أوضحه الله (جلّ وعلا) فقال: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ ﴾ المراد بالصدقات هنا: زكوات المال الواجبة، فالله (جلّ وعلا) بيّن في هذه الآية من سورة براءة مصارف زكاة المال التي هي إحدى دعائم الإسلام الخمس، جعلها ثمانية، وهي: الفقراء، والمساكين، والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمون، وفي سبيل الله، وابن السبيل، هي ثمانية، و(إنما): أداة حصر وإثبات، يعني: لا يثبت استحقاق الزكاة لشيء غير واحد من هذه المصارف الثمانية بإجماع العلماء.

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ الفقراء: جمع فقير، والفعل إذا كان وصفاً ينقاس جمعه جمع كثرة على (فُعَلَاءَ) على العادة ما لم يكن معتل اللام أو مُضَعَّفًا. وهذا معروف<sup>(١)</sup>، كل (فَعِيل) في القرآن وفي كلام العرب بمعنى (فاعل) لم يكن معتل اللام ولا مُضَعَّفًا ينقاس تكسيره جمع كثرة على (فُعَلَاءَ) ككريم وكرماء، وأديب وأدباء، وشريف وشرفاء، وعليم وعلماء، وفقير وفقراء. أما إذا كان معتل اللام أو مُضَعَّفًا فالقياس أن يُكْسَر على (أفِعَلَاءَ) فمثال معتل اللام: كتقي وأتقياء، وسخي وأسخياء، ونبي وأنبياء. وكذلك المُضَعَّف: كحبيب وأحباء، وشديد وأشداء. كما هو معلوم في محله. فالفقراء جمع فقير، وهو جمع على القياس. والمساكين: جمع مسكين كذلك.

(١) مضى عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

واختلف العلماء في الفقير والمسكين أيهما أحوج وأسوأ حالاً<sup>(١)</sup>؟! والقاعدة المقررة عند علماء التفسير كما قالها غير واحد من المتأخرين ويكادون يطبقون عليها: أن الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. ومعنى هذا الكلام: أنهما إذا افترقا بأن جاء في آية من كتاب الله أو حديث من سنة رسول الله اسم الفقير وحده، أو المسكين وحده، شملهما معاً، دخل الفقير في المسكين، والمسكين في الفقير؛ لأن كونهما محتاجين يشمل كلاً منهما وإن كان أحدهما أشد فقراً من الآخر، وإن اجتمعا كما نُصَّ عليهما موجودين كقوله هنا: ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ فقد اجتمعا، فيلزم إذا اجتمعا أن يفترقا، فيكون للفقير معنى خاص به، وللمسكين معنى خاص به. والحاصل أنه إذا ذُكر الفقير وحده أو المسكين وحده دخل الفقير في المسكين والمسكين في الفقير، وإذا ذُكرا معاً في محل واحد كهذه الآية وكمن أوصى للفقراء والمساكين كان لكل منهما معنى يخصه.

والعلماء مختلفون في الفقير والمسكين أيهما أسوأ حالاً؟ فذهب جماعة من فقهاء الأمصار وأهل اللغة إلى أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين، وهذا مذهب الشافعي (رحمه الله)، ورواية قوية عن أحمد (رحمه الله)، وبه قال جماعة من السلف، أن الفقير أحوج من المسكين. وقالت طائفة: إن المسكين أحوج من الفقير، وهو مذهب مالك وأصحابه، ومذهب أبي حنيفة (رحمه الله). وكل منهما يوجه قوله، أما مالك فقال: إن المسكين أحوج من الفقير لأن الله قال: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَرْبٍ﴾ [البلد: آية ١٦] فوصف المسكين بأنه لاصق

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

بالتراب لا شيء عنده، والعرب تطلق الفقير على من عنده شيء لا يغيثه، فعنده بُلغة ولكنها لا تغنيه، قال: ويدل لذلك قول راعي نمير وهو عربي قح<sup>(١)</sup>:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وَفَقَّ العيال فلم يُترك له سَبْدُ

فسمّاه فقيراً وعنده حلوبة قدر عياله. وأما الذين قالوا الفقير أحوج فإنهم قالوا: إن الفقير مشتق من فقرات الظهر؛ لأن الفاقة كأنها فقرت ظهره، أي: قصمته. وقالوا: المسكين. الله قال في سفينة الخضر وموسى: ﴿فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: آية ٧٩] فسمى أهلها مساكين مع أن عندهم سفينة عاملة في البحر بالإيجار، فدلّ على أن الفقير أسوأ حالاً. وهذا خلاف بين أهل اللغة والعلماء معروف، جماعة يقولون: الفقير أسوأ حالاً، وجماعة يعكسون. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: آية ٦٠] معناه: أن السهم الثاني يعطى للعاملين عليها، وهم الذين يتعبون في تحصيل الزكاة، كالجباة الذين يرسلهم الإمام ليجمعوا الزكاة من أقطار الناس ويأتون بها ويذهبون بها ليفرقونها. فالعاملون عليها كالجباة للزكاة من خارج، والمفرقين لها على الناس، فهؤلاء لهم سهم في الزكوات وهو قدر أجرتهم. وأظهر الأقوال أنه لا يتقدر فيه شيء معين إلا بقدر أجرتهم، وكل ما يعطى أحد من هؤلاء فيه خلاف كثير<sup>(٢)</sup>، وأظهرها أنه كله يوكل إلى اجتهاد الإمام، ونصيب العاملين عليها يكون بقدر أجره مثلهم بحسب ما عانوه من التعب، يعطون على قدر

(١) السابق.

(٢) انظر: ابن جرير (٣١١/١٤)، القرطبي (١٧٧/٨).

ذلك، سواء كانوا فقراء أو أغنياء. وهذا معنى قوله: ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهِمْ﴾.

والسهم الثالث للمؤلفة قلوبهم، والمؤلفة قلوبهم المراد بهم قوم كانوا في زمن النبي ﷺ عندهم إيمان إلا أن إيمانهم ليس بقوي ولهم مكانة وشوكة إذا حسن إسلامهم اعتزّ بهم الإسلام والمسلمون وقويت شوكة المسلمين، أو ناس لهم شرف إذا كانوا في الإسلام تابعهم غيرهم، فالمراد أنه يكون رجال دخلوا في الإسلام لهم مكانة وقوة وفائدة للإسلام فيهم، وإيمانهم ليس بقوي، فتجبر خواطرهم وتؤلف قلوبهم بالمال ليستحسنوا الإيمان ويتمكن الإسلام من قلوبهم فتكون في ذلك المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، ومعلوم أن المؤلفة قلوبهم يقسمهم كتب الفروع إلى أقسام متعددة<sup>(١)</sup> وقصدنا هناك أن نذكر ما يكون مصرفاً للزكاة، وهو الإنسان الذي يكون في إسلامه خير للمؤمنين، والظاهر أنه لا بد أن يكون مسلماً؛ لأن الزكاة لا تدفع للكافر وهي قربة لا يستحقها إلا المسلمون، فمن قال: إنها تدفع للكافر ليسلم فالظاهر أنه خلاف الظاهر.

واعلم أن النبي ﷺ كان في زمنه نصيب المؤلفة قلوبهم، وألغى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) نصيب المؤلفة قلوبهم، ولم يكن بعد ذلك معروفاً في صدقات المسلمين وزكواتهم<sup>(٢)</sup>. وهذه الفقرة دخل منها كثير من الذين ينتصرون للقوانين بشيطنة وخفية وراء الستار، ويزعمون أن الشرع يتغير بتغير الأوضاع، قالوا: لأن النبي دفع نصيب المؤلفة قلوبهم وعمر لما رأى المصلحة لا تحتاج إلى

(١) انظر: ابن كثير (٢/٣٦٥).

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٣١٥)، القرطبي (٨/١٨١)، ابن كثير (٢/٣٦٥).

ذلك لم يدفعه لهم؛ ليتصلوا بذلك إلى أن الشرع تابع للمصالح، وأنه قابل للتغيير في كل وقت وزمان تبع المصالح والتطورات الراهنة، وهذا باطل؛ لأن الشرع أنزله الحكيم الخبير العظيم الجليل العالم بكل ما كان وما يكون، فجعله شرعاً خالداً إلى يوم القيامة، مسيراً لجميع التطورات، تمكن مجابته لكل الأحداث مهما كانت، ولا إشكال في إلغاء عمر لنصيب المؤلفه قلوبهم؛ لأن هذه الأصناف الثمانية لا يعطى منها إلا شيء موجود فإذا عُدِم الشيء فإنما لم يجعل له سهم لعدمه، فالإنسان إذا قطعت يده مثلاً والله يقول في الوضوء: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٦] لا نقول: هذا لم يغسل يده لأن يده سقطت!! فالإسلام لما عز وتمكن من قلوب المسلمين وقويت شوكة الإسلام لم يبق هنالك مؤلف، فلما ذهب هذا الصنف ذهب نصيبه بذهابه، وقد أجمع العلماء أن كل ما ذهب من هذه الأصناف الثمانية يذهب نصيبه معه، إذا لم يوجد ابن السبيل فلا نصيب لابن السبيل، فكل ما ذهب منها ذهب نصيبه معه، فعدم إعطاء عمر نصيب المؤلفه نظراً لعدم وجود المؤلفه بالكلية؛ لأن الإسلام قوي وتمكنت شوكته وصار لا تأليف لأحد. وهذا معنى قوله: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبِهِمْ﴾.

وعلى كل حال فالتحقيق في هذه المسألة أن حكم المؤلفه قلوبهم باق إذا وجدوا وكان رجال لهم مكانتهم وقوتهم في دين الإسلام، والإسلام محتاج إليهم، والمسلمون محتاجون إليهم، فإنه يرجع نصيبهم لتألفهم للمصلحة العامة كما فعل النبي ﷺ وجاء به القرآن العظيم، وإن كان لا تأليف هنالك، ولا حاجة ولا ضعف في الإسلام ولا ضعف في الإيمان، بل المسلمون في قوة

ونشاط وفي عزة وقوة ومنعة فالمؤلفة غير موجودين فيسقط نصيبهم لعدمهم، وكذلك هذه الأصناف الثمانية كل ما عدم منها سقط نصيبه معه.

واعلم أن العلماء مختلفون في هذه الأصناف الثمانية هل يجب أن تكون الزكاة موزعة بينها ثمانية أجزاء ولا يجوز أن يُحْرَم واحد منها، أو يجوز أن تعطى الزكاة لواحد منها، أو لاثنين، أو ثلاثة دون تعميم الآخرين<sup>(١)</sup>؟ هذا خلاف معروف بين العلماء، فذهبت جماعة من العلماء منهم مالك وأبو حنيفة (رحمه الله) وجماعة كثيرة من فقهاء الأمصار إلى أنه لا يلزم تعميم هذه الأصناف، بل يجوز أن تعطى الزكاة لصنف واحد منها، وأن كل ذلك موكول إلى نظر الإمام يرى الأصلح فالأصلح فيؤثر أفقرها وأحوجها وأشدّها مصلحة للامة. هذا قول مالك وأبي حنيفة وجماعة كثيرة من العلماء، قالوا: والآية إنما بينت المصارف الذي لا يجوز أن تُتعدى بها الزكاة إلى غيرها وصنف واحد منها يكفي. وكان بعض علماء المالكية يقول: أكبر دليل على عدم وجوب تعميم الأصناف أنا لو أعطينا الفقراء جزءاً فإننا لا يقول أحد أننا نعمم جميع الفقراء، وإذا أعطينا المساكين جزءاً فلا يمكننا أن نعمم جميع المساكين، فإذا كان الصنف الواحد لا يمكن تعميمه فلا يلزم تعميم الأصناف جميعها؛ لأننا لو مشينا مع التعميم لزمنا أن نعمم نصيب الفقراء على جميع الفقراء ولا نترك فقيراً واحداً، ونصيب المساكين على جميع المساكين ولا نترك مسكيناً واحداً. والحاصل أن هذا خلاف قديم اختلفت فيه أنظار العلماء، فمنهم من يقول: إن المراد بـ ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾

(١) انظر: ابن جرير (٣٢٢/١٤)، القرطبي (١٦٧/٨)، المغني (١٢٧/٤).

أنها لام التمليك، واستدلوا بحديث جاء عن النبي ﷺ أن الله لم يكل قسمها إلى نبي وإنما جزأها ثمانية أجزاء، قالوا: واللام للتمليك، فهي شركة بين هؤلاء الثمانية، ومن حرّم واحداً من هؤلاء الثمانية فقد ضمن له نصيبه؛ لأنه حرّمه ما أعطاه الله إياه.

وقالت جماعة من العلماء: المراد بالآية: أن هذه هي المصارف الذي لا يجوز تعديها إلى غيرها، ولم يلزم تعميمها، بل يوكل إلى نظر الإمام، فما رآه الإمام أحسن للمصلحة العامة فعله للمسلمين، فلو اقتضى نظره أن يصرفها لواحد من هذه الثمانية دون غيرها لفعل. هذا ملخص كلام العلماء في هذا الموضوع.

وقوله: ﴿وَالْفَرَمِينَ﴾ الغارمون معناه: أصحاب الديون الذين يطلبون بالدين، والغارمون عند العلماء فيهم تفصيل<sup>(١)</sup>: منهم من يكون غارماً لمصلحة عامة للمسلمين، كالذي يجد بعض القبائل بينها شحناء وفتن وستقع بينها قتلى وبلايا ثم يتحمل الديات ويكون غارماً بتلك الديات للمصلحة العامة، فمثل هذا النوع لم يختلف العلماء في أنه يعطى من زكاة المسلمين ويغرم عنه ما تحمل للمصلحة العامة للمسلمين من زكوات المسلمين ولو كان غنياً. وبعضهم يقول: لا يعطى منه إلا إذا كان فقيراً. وأما إذا كان الإنسان تحمل الديون في خاصة نفسه، كالذي يتحمل لينفق [على]<sup>(٢)</sup> أهله وأولاده، وينفق في تجارته ثم يخسر، ونحو ذلك من الأمور فأكثر العلماء على أن هذا إذا كان لم يستدن في سرف، ولم يستدن في معصية، ولم يئذر المال في المعاصي أنه يدخل في الغارمين، وأنه يقضى عنه قدر دينه من

(١) انظر: ابن جرير (٣١٧/١٤)، القرطبي (١٨٣/٨)، ابن كثير (٣٦٥/٢).

(٢) ما بين المعقوفين [ زيادة يقتضيها السياق.

الزكاة، وبعض العلماء يقول: ولو عنده مال. وبعض العلماء يقول: لا يعطى هذا الغارم من الزكاة إلا إذا كان لا شيء عنده، أو عنده شيء إذا أعطاه للغرماء بقي فقيراً لا شيء عنده. وأظهر القولين في هذا: أنه يقضى عنه الدين إلا إذا كان ملياً يقدر على قضاء الدين، ويبقى عنده ما يكفيه. وبعض العلماء يقول: هو غارم على كل حال، يقضى عنه سواء كان غنياً أو فقيراً. والأول أظهر. وهذا معنى قوله: ﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَافَةَ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ اختلف العلماء في المراد به<sup>(١)</sup>، فذهبت جماعة من العلماء إلى أن المراد بالرقاب: إعانة المكاتبين خاصة. وذهب إلى هذا الشافعي في طائفة من العلماء، واستدلوا لهذا بقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَعَانُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: آية ٣٣] قالوا: ﴿مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ هو المذكور في قوله هنا: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وعلى هذا القول الذي قاله الشافعي وجماعة من فقهاء الأمصار إذا كان المكاتب عليه نجوم من كتابته فإنه يعان بما عسر عليه من نجوم كتابته من زكاة المسلمين ليتخلص حراً.

وذهبت جماعة من العلماء منهم مالك بن أنس وأصحابه في طائفة من فقهاء الأمصار إلى أن معنى قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أنه ليس معناه المكاتبين، قالوا: المكاتبون داخلون في قوله: ﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ لأن المكاتب غارم لسيده نجوم كتابته. قالوا: أما معنى قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فهو أنه يُشترى من زكاة المسلمين عبيد ويكونون

(١) انظر: ابن جرير (٣١٦/١٤)، القرطبي (١٨٢/٨)، الأضواء (٤٧٠/٢).

أحراراً ولاؤهم للمسلمين. قالوا: وهذا هو معنى قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ . و ﴿وَالْغُرْمِينَ﴾ تكلمنا الآن عليه.

وقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا خلاف بين العلماء أن الغزاة الذين ليسوا في الديوان داخلون في سبيل الله، وإيضاح هذا أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لما جعل مسألة الديوان كتب أسماء الجند في ديوان قيد أسماءهم فيه، وكل قطر من الأقطار عدّد ما فيه من المُقاتلة وكتبهم في ديوان ليحفظوا الثغور ويعينوا على الجهاد، وكانت لهم أرزاق معروفة في بيت مال المسلمين، وهؤلاء إذا قتل واحد منهم عَقَلَ عنه الآخرون قبل عصبته، فهؤلاء قال العلماء: ليسوا هم المراد هنا؛ لأن لهم أرزاقاً من بيت مال المسلمين وهم مدنون معروفون، وأن المراد بهؤلاء الغزاة: هم الذين يتطوعون ليقاتلوا ويسدوا الثغور مع المسلمين، مع أنهم لم تكن لهم أرزاق مكتوبة، ولم يكونوا مكتوبين في الديوان، فهؤلاء يعطون من زكاة المسلمين وإن كانوا أغنياء، ويعطون ما يشترون به السلاح والمراكب ليسدوا ثغور المسلمين فيجاهدوا في سبيل الله، وكون المراد في سبيل الله الغزاة هو قول الشافعي (رحمه الله) في طائفة من العلماء.

وقال الإمام مالك وأصحابه: إن المراد بسبيل الله كل ما يتعلق بالغزو والرباط فيدخل فيه جميع ما يتعلق بالغزو كشراء السلاح والكراع، والرباط في سد الثغور المخوفة التي يخشى أن تدخل منها الكفار للمسلمين، أن هذا كله يدخل في سبيل الله.

وذهبت جماعة من العلماء وهو مروى عن الإمام أحمد بن حنبل أن (في سبيل الله) الحُجاج والعمارة، أنه يعطى من بيت مال المسلمين للعاجز عن الحج والعمرة ما يحج به ويعتمر. قالوا:

والحج والعمرة في سبيل الله . هذا ملخص عيون كلام العلماء في هذه المصارف . وهذا معنى قوله : ﴿ وَالغَرِيمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

﴿ وَأَبْنُ السَّبِيلِ ﴾ السبيل في لغة العرب<sup>(١)</sup> : الطريق . ومعنى (ابن السبيل) ولد الطريق ، وإنما قيل للمسافر الغريب : (ابن السبيل) لأحد أمرين : قال بعض العلماء : لأنه ملازم للطريق لذهابه معها ، وكل ملازم لشيء تقول له العرب ابنه ، ومنه سمت الطير الملازم للماء (ابن الماء) كما هو معروف ، ومنه قول غيلان ذي الرمة<sup>(٢)</sup> :

وردت اعتسافاً والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماءٍ مُحَلِّقٍ  
فسماه ابن الماء لملازمته للماء .

وقالت طائفة من علماء العربية : إنه إنما قيل له (ابن السبيل) لأن السبيل وهي الطريق كأنها تمخضت لنا عنه ورمتنا به كما ترمي النفساء الناس بولدها ، كان غائباً في بطن الطريق فرمتنا به ، كما تكون النفساء ولدها غائب في بطنها فترميننا به . وهذا المعنى يوجد في كلامهم ، وقد أوضحه مسلم بن الوليد الأنصاري – وإن كان كلامه إنما يذكر مثلاً لا استدلالاً ؛ لأنه في زمن الدولة العباسية ، ولكنه أوضح هذا المعنى – بقوله حيث يقول يذكر رجلاً سافر في فلاة من الأرض شهرين إلى أمير ليمدحه قال له<sup>(٣)</sup> :

تمخضت عنه تمّاً بعد محمله شهرين يبداء لم تُضرب ولم تلد  
ألقته كالنَّصْلِ معطوفاً على هَمَمٍ يعمدن منتجعاتٍ خيرَ مُعْتَمِدٍ

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام .

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال .

(٣) هذان البيتان سبق ذكرهما في الموضع السابق .

فصرح بأن هذه الفلاة تمخضت عن هذا وولדתه وأنتجته، فكذلك الطريق كأنها تتمخض عنه وترميهم به. وأكثر العلماء يقولون: سُمي (ابن السبيل) لملازمته للطريق، وابن السبيل هو الإنسان الذي فئت نفقته وانقطع زاده وهو متغرب عن أوطانه يعطى من زكاة المسلمين زاداً وما يبلغه إلى وطنه ولو كان غنياً في محله، ولا تتبع ذمته ولو كان غنياً في محله؛ لأنه مصرف للزكاة في ذلك الوقت وإن كان غنياً في بلده، وهذا من محاسن دين الإسلام وما فيه من مكارم الأخلاق. قال بعض العلماء: ويدخل في ابن السبيل ما لو كان له سفر يضطر إليه، كما لو كانت له أولاد في دار حرب أو في ضيعة وهو مضطر إلى الإتيان بهم ولا مال عنده فإنه يُعطى ليذهب ويجيء ويكون داخلاً في ابن السبيل.

وقد أجمع العلماء على أن ابن السبيل إذا كان مسافراً في معصية لا يجوز أن يعطى من الزكاة شيئاً لأنه إعانة له على معصيته، والله يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: آية ٢] وإن كان سفره في قرابة فلا خلاف في أنه يعطى. وإن كان في مباح فقد اختلف العلماء في ذلك، فقالوا: لا يعطى؛ لأن المباح لا يلزم. وقال بعض العلماء: يعطى؛ لأن السفر المباح فيه جميع التسهيلات التي في السفر الواجب، فالسفر المباح تقصر فيه الصلاة، ويفطر فيه المسافر، ويفعل فيه كل الترخصات، فكذلك يعان صاحبه عليه. هكذا قال بعضهم والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ مصدر، أي: فرض الله هذا فريضة عليكم ﴿وَاللَّهُ﴾ جلّ وعلا ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ [التوبة: الآيات ٦١ - ٦٣].

[١/ب]

/ يقول الله (جل و علا): ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ [التوبة: آية ٦١].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع: ﴿ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ ﴾ بياء مشددة، وقرأه نافع وحده: ﴿ يؤدون النبيء ﴾ بهمزة<sup>(١)</sup>. وأبدل ورش ومن وافقه همزة ﴿ يُؤَدُّونَ ﴾ فقرأ: ﴿ يودون ﴾ وقرأ عامة السبعة غير نافع وحده: ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ بضم الذال في الحرفين، وقرأه نافع وحده: ﴿ أُذُنٌ ﴾ بسكون الذال<sup>(٢)</sup>.

وقرأ عامة السبعة غير الكسائي: ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ بالرفع، وقرأ الكسائي وحده ﴿ ورحمة ﴾ بالخفض<sup>(٣)</sup>.

فعلى قراءة الجمهور فهو عطف على المضاف في قوله: (أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ وَرَحْمَةٌ) وعلى قراءة الكسائي<sup>(٤)</sup> فهو عطف على المضاف إليه. أي: (أُذُنٌ خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ لَكُمْ)<sup>(٥)</sup>.

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام، وانظر: الإتحاف (٩٤/٢).

(٢) انظر: السبعة ص ٣١٥، المبسوط لابن مهران ص ٢٢٧.

(٣) قراءة الخفض إنما هي لحمزة وليست للكسائي. انظر: السبعة ص ٣١٥، المبسوط لابن مهران ص ٢٢٧، وقد استدرك الشيخ ذلك فتبه على الصواب كما سيأتي قريباً.

(٤) الصواب: حمزة كما سبق.

(٥) انظر: حجة القراءات ص ٣٢٠، الدر المصون (٧٤/٦).

وقوله: ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ هذا صنف آخر من أصناف المنافقين؛ لأن الله بين في هذه الآية أصناف المنافقين، قال: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْفُوْلُ آذَنَ لِي وَلَا نَفْتِيَّ ﴾ [التوبة: آية ٤٩]، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة: آية ٥٨]، ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ [التوبة: آية ٦١] كان في المنافقين طائفة يسطون ألسنتهم إلى رسول الله ﷺ بالكلام السيء فيعيبونه ويقولون فيه ما لا ينبغي، وهذا هو قوله: ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ [التوبة: آية ٦١] أي: ومن المنافقين الطائفة الذين يؤذون النبي محمداً ﷺ بالاستطالة في عرضه.

﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُوذِنٌ ﴾ معنى هذا أنه إذا قيل لهم: كيف تقدحون في نبي الله ﷺ وتعيبونه وهو إن علم بذلك فعل بكم وفعل بكم؟ فيقولون: لا يهمنا ذلك؛ لأنه أذن!! العرب تقول: فلان أذن. وأذن بالسكون لغة فيه، إذا كان يسمع من كل من جاءه، فإذا كان الرجل كلما جاءه أحد وأخبره سمع منه وصدقه قالت العرب: هذا الرجل أذن. يعنون: هو كلما جاءه أحد بخبر صدقه، ونحن إن قيل عنا إننا أذيناه جئناه وكذبنا له وحلفنا له فيصدقنا، فنحن نؤذيه ولا تضرنا عاقبة ذلك؛ لأن ما لنا أن نكذب الحديث ونحلف له عليه، وهو أذن يصدق كل من جاءه بخبر، فيصدقنا ولا ينشأ لنا من ذلك سوء. وهذا معنى قوله: ﴿ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُوذِنٌ ﴾ لما عابوا النبي ﷺ آذوه وعابوه بأنه أذن في زعمهم الباطل — قبّحهم الله — يعنون: يسمع من كل من حدثه، بين الله أنه أذن ولكنه أذن خير خاصة، لا أذن شر، فإذا جاءه الناس بالخير وبالحق صدقهم في الخير والشر، أما الباطل فليس بأذن فيه ولا بمصدق أحداً فيه، ولا ينفعكم اعتذاركم الباطل. وهذا معنى قوله: ﴿ قُلْ أُوذِنُ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ هو أذن خير لكم، أي: يسمع — هو سامع — ولكنه سامع خير، سامع من كل من جاءه بخير وبحق لا من كل من جاءه بشر وباطل مثلكم فليس بأذن له. وهذا

معنى قوله: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يصدق بالله (جلّ وعلا) التصديق الكامل من الجهات الثلاث، يؤمن بالله تصديقاً صحيحاً من قلبه ولسانه وجوارحه (صلوات الله وسلامه عليه) ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يصدق المؤمنين العدول الأتقياء إذا جاؤوه بمقالة، أما الكفرة الكذبة أمثالكم فلا يصدقهم.

وجرت العادة باستقراء القرآن أن الله تبارك وتعالى إذا كان الإيمان بالله عداه بالباء، كأن يقول: ﴿ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ [الحجرات: آية ١٥، النساء: آية ١٣٦] ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: آية ١١٤] وإذا كان الإيمان معناه تصديق مخلوق فإنه يعديه باللام دائماً؛ ولذا قال هنا: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: ويصدق المؤمنين. ولا يكاد هذا التصديق المتعلق بالآدميين يوجد في القرآن إلا مجروراً باللام، كقوله: ﴿فَقَامَنَ لَمُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: آية ٢٦] ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: آية ١٧] وقوله هنا: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويصدق المؤمنين الأتقياء في الخير الذي جاءه به، ولكن ليس بأذن للكفرة الفجرة أمثالكم. فقولهُ: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ على قراءة الجمهور هو أذن خير، وهو أيضاً رحمة للمؤمنين، وقد أرسله الله رحمة للعالمين.

وفي هذه الآية سؤال معروف؛ لأن طالب العلم يقول: الله قال في آية براءة هذه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فقيّد كونه رحمة للذين آمنوا، وفي سورة الأنبياء قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: آية ١٠٧] فلم يقيد كونه رحمة بالإيمان، بل قال لجميع العالمين، وهذا وجه السؤال.

والجواب عنه: أن الله (جلّ وعلا) أرسله (صلوات الله وسلامه

عليه) رحمة لجميع الخلائق، إلا أن بعضهم قبل من الله التفضل بتلك الرحمة فحازها، فخص في قوله: ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبعضهم لم يقبلها ولم يحزها، ولا ينافي ذلك أن الله أعطاه تلك الرحمة إلا أنه لم يقبلها ولم يحزها. وضرب العلماء لهذا مثلاً قالوا: لو أن سلطان البلد مثلاً - والله المثل الأعلى - أرسل لجميع سكان البلد إنعاماً كثيراً كان أجرى لهم المياه تأتيهم، وأجرى عليهم الأرزاق والنعم، وبعضهم امتنع أن يأخذ، وبعضهم أخذ فلا ينافي أنه أنعم على الجميع. فالله أرسله رحمة للعالمين، بعض الناس قبل من الله فضله وبعضهم لم يقبل فضله، ولا ينافي ذلك أنه تفضل عليه ببعثه (صلوات الله وسلامه عليه).

وأما على قراءة حمزة الذي قرأ: ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالخفض - هو حمزة لا الكسائي<sup>(١)</sup> - أما على قراءة حمزة ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ هو أذن خيرٍ ورحمةٍ. معطوف على الخير؛ لأن الله (جلّ وعلا) جعل فيه الخير والرحمة فإذا كان سامعاً من أحد فهو سماع لا يقود إلا إلى خير من خير ورحمة لا سماع شر. ولا يخفى ما في قراءة حمزة من عدم ظهور المعنى، وظهور المعنى على قراءة الجمهور. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالاستطالة في عرضه بكلام السوء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من الله (جلّ وعلا)، وقد بين في الأحزاب أن ذلك العذاب مصحوب باللعنة أيضاً في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) سبق التنبيه على ذلك قريباً.

لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴿ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [الأحزاب: آية ٥٧]. وهذا معنى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١١).

ثم قال تعالى: ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: آية ٦٢] قال بعض العلماء: كانت جماعة من المنافقين ومعهم غلام حدث من الأنصار يسمى عامر بن قيس، فقال بعض المنافقين لبعض: والله إن كان ما يقوله محمد ﷺ حقاً لنحن شر من الحمير، فغضب ذلك الغلام وقال: أَتَشْكُونُ فِي حَقِّ مَا يَقُولُهُ، وَاللَّهِ إِنْ مَا يَقُولُهُ لِحَقٍّ، وَإِنَّكُمْ لَشَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ، ثُمَّ نَمَا الْحَدِيثُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا سَأَلَهُمْ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى أَنْ تَقُولُوا مَا قَلْتُمْ، حَلَفُوا بِاللَّهِ مَا قَلْنَا، قَالَ مِنْ رَوَى هَذِهِ الْقِصَّةَ فِي سَبَبِ هَذَا النُّزُولِ: وَكَانَ ذَلِكَ الْغُلَامُ الْأَنْصَارِيُّ يَدْعُو اللَّهَ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ الْمَحْقَ مِنَّا مِنَ الْكَاذِبِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ سُورَةِ بَرَاءةٍ تَصَدِيقاً لِذَلِكَ الرَّجُلِ وَتَكْذِيباً لِأَوْلَئِكَ الْمَنَافِقِينَ (١) ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ﴾ ﴿ لِيَرْضَوْكُمْ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ ﴿ فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ، وَلَمْ يَكُونُوا مَنَافِقِينَ، وَلَمْ يَقَعُوا فِي نَبِيِّهِ ﷺ بِمَا لَا يَنْبَغِي.

(١) أخرجه ابن جرير (٣٢٩/١٤) وابن أبي حاتم (١٨٢٨/٦) عن قتادة مرسلًا، وليس فيه تسمية الذي نقل ذلك إلى رسول الله ﷺ، وعزاه في الدر (٢٥٣/٣) لابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقد ساق رواية عند ابن أبي حاتم عن السدي مرسلًا وفيها تسمية الأنصاري. وفي المطبوع من ابن أبي حاتم رواية عن السدي تتعلق بتفسير الآية لكن لا علاقة لها بسبب النزول أو تسمية الأنصاري.

وقد رد الضمير هنا على الرسول وحده قال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ من أن يعيبوه. قال بعض العلماء<sup>(١)</sup>: إنما اكتفى بالضمير الواحد لأن إرضاء الله إرضاء لرسوله، وإرضاء الرسول إرضاء الله ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: آية ٨٠] فلما تلازما صارا كأنهما شيء واحد.

وذهب غير واحد من علماء العربية وعلماء التفسير<sup>(٢)</sup> إلى أن رجوع الضمير على أحد المتعاطفين اكتفاءً به لأن الآخر مفهوم منه أسلوب عربي معروف كثير في القرآن العظيم وفي كلام العرب وهو كثير، أن العرب ربما حذف بعض الأمرين واستغنت عنه بالآخر، سواء كان في ضمير أو غير ضمير، فمن أمثله في غير الضمير قول قيس بن الخطيم<sup>(٣)</sup>:

نحنُ بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مُخْتَلِفٌ

فحذف «راضون» لدلالة «راضٍ» عليها وقد أنشد هذا لهذا المعنى سيبويه في كتابه، وأنشد سيبويه لهذا المعنى أيضاً قول عمرو بن أحمr الباهلي<sup>(٤)</sup>:

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئاً وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي

أي: كنت بريئاً وكان والدي بريئاً، فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه، وأنشد له سيبويه في كتابه أيضاً: قول ضابيء بن

(١) انظر: القرطبي (٨/١٩٤)، الدر المصون (٦/٧٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٣) البيت في الكتاب لسيبويه (١/٧٥).

(٤) السابق.

الحارث البرجمي<sup>(١)</sup>:

فمن يكُ أُمسَى بالمدينةِ رحلُهُ فإنِّي وقَيَّاراً بها لغريبُ  
 فإنِّي لغريب وقيار لغريب. هذا من أمثله في غير الضمير،  
 وأمثلة حذف أحد الضميرين اكتفاءً عنه بالآخر كثيرة في كلام  
 العرب وفي القرآن العظيم، فمن أمثلتها في القرآن في المتعاطفات  
 بالواو كما هنا: قوله: ﴿يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾  
 [التوبة: آية ٣٤] ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥]  
 ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾  
 [الأنفال: آية ٢٠] وأمثال ذلك كثيرة في القرآن. ومن أمثله في كلام  
 العرب قول نابغة ذبيان وهو شاهده المشهور<sup>(٢)</sup>:

وقد أراني ونُعماً لاهيين بها      والدهرُ والعيشُ لم يههم بامرارِ  
 يعني: لم يههما. فرد الضمير على واحد من العيش أو الدهر؛  
 لأن الآخر مفهوم منه، ومنه قول حسان رضي الله عنه<sup>(٣)</sup>:  
 إن شَرَّخَ الشَّبَابِ وَالشَّعْرَ الْأَسْوَدَ مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جُنُونًا  
 فلم يقل: ما لم يعاصيا. وهو كثير.

وأما في المعطوف بـ (أو) فالقياس أن يرجع الضمير  
 بالإفراد؛ لأن الضمير في المتعاطفات بـ (أو) يرجع إلى الأحد الدائر  
 بينها، وهو القياس كقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ﴾  
 [النساء: آية ١١٢] وقد رده إلى أحدهما بعينه تعالى في قوله:

(١) الكتاب (٧٥/١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

﴿ وَإِذَا<sup>(١)</sup> رَأَوْا تَحِيْرَةً أَوْ لَهْمًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة: آية ١١].

وقد يرجع إلى أحدهما في المتعاطفات بالفاء، ومن أمثلة رجوعه إلى أحدهما في المتعاطفين بالفاء قول امرئ القيس في معلقته<sup>(٢)</sup>:

فَتُوضَحَ فَاَلْمِقرَاةَ لَمْ يَعْغُ رَسْمَهَا لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ

فرده لإحداهما. وعلى كل حال فالمعنى: يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين، ولكنهم لم يكونوا مؤمنين - قبّحهم الله - . وهذا معنى قوله: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: آية ٦٢].

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَبَى لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: آية ٦٣].

قدمنا في هذه الدورس مراراً<sup>(٣)</sup> أن كل فعل مضارع مجزوم بـ (لم) إذا تقدمتها همزة استفهام بأن قيل فيه (ألم) كل فعل مضارع مسبوق بـ (ألم) فيه لعلماء التفسير وجهان في جميع القرآن:

أحدهما: أن تصير مضارعه ماضوية، ويصير نفيه إثباتاً، فأصله مضارع منفي بـ (لم) فتصير حقيقة معناه أنه ماضٍ مثبت فتقلب المضارعة ماضوية، وينقلب النفي إثباتاً، وهذا مطرد كقوله:

(١) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وقد أثبت تمام الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) ديوانه ص ١١٠.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ معناه: علموا أن من حاد الله ﴿ أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ [البلد: آية ٨] جعلنا له عينين ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: آية ١] شرحنا لك صدرك. فإن قيل: بأي وجه انقلبت المضارعة ماضوية، وانقلب النفي إثباتاً، مع أن النفي والإثبات نقيضان؟ فالجواب: أن انقلاب المضارعة ماضوية أمر واضح لا إشكال فيه؛ لأن (لم) حرف قلب، تقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى معنى الماضي، وهذا أمر معروف لا نزاع فيه ولا إشكال، أما انقلاب النفي إثباتاً فوجهه أن همزة الاستفهام التي قبل حرف (لم) هي استفهام إنكار، والإنكار مضمن معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن في الهمزة على النفي الصريح في (لم) فينفيه، ونفي النفي إثبات. هذا وجه من قال هذا القول.

القول الثاني: أن كل فعل مضارع مسبوق بـ (ألم) في جميع القرآن هو استفهام تقرير، والمراد باستفهام التقرير هو حمل المخاطب على أن يقر فيقول: بلى، وليس المراد منه طلب فهم البتة. فالمراد بهذا على هذا القول أن يقولوا: بلى نعلم أنه من يحاد الله ورسوله فإن له نار جهنم ﴿ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ ﴾ إنما فك الإدغام هاهنا لأن الفعل مجزوم، ومعلوم أن المضعّف إذا جزم أو صار أمراً جاز فيه الإدغام وفك الإدغام كما هو معروف في محله. ومعنى قوله: ﴿ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ ﴾ أي: يشاق الله ويخالفه ويعاصيه. وأصل المحادة: من الحد؛ لأن المحاد يكون في الحد الذي ليس فيه من حاده، تقول: زيد محاد لعمرو. أي: مشاق له ومعاد له ومعاند؛ لأنه في الحد الذي ليس فيه، فهذا في الحد الذي ليس فيه هذا وذلك بعكس ذلك أيضاً. وهذا معنى معروف في كلام العرب، وأعظم

محادة لله هي إيذاء نبيه ﷺ والتجرؤ على ذلك بالأيمان الباطلة الكاذبة.

﴿ فَإِنَّ لَهُمُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ إذا كانت (أن) مثلاً في جزاء الشرط بعد فاء جاز فيها الفتح كما هنا وجاز فيها الخفض أيضاً، وهما لغتان عربيتان. وقراءة الجمهور منهم السبعة هنا: ﴿ فَأَنْتَ لَهُمْ ﴾ بفتح الهمزة، ولو كسرت لجاز لغة لا قراءة؛ لأن القراءة الصحيحة بعكسه ﴿ فَأَنْتَ لَهُمُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أضاف النار إلى جهنم لأن جهنم طبقة من طبقاتها.

﴿ خَلِيداً فِيهَا ﴾ في حال كونه خالداً فيها، وهي حال مقدره كما هو معلوم.

﴿ ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ أي: الخلود في النار — عياداً بالله — بسبب محادة الله ومشاقته، والخزي العظيم أي: الذل الأكبر والهوان الأعظم. فالخزي في لغة العرب: غاية الذل والهوان والانسفال. وقد صرح الله (جلّ وعلا) بأن من حاد الله في غاية الذل والمهانة والسفالة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَىٰنِ ﴾ [المجادلة: آية ٢٠] فقلوه: ﴿ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَىٰنِ ﴾ [٢٠] بين أن الخزي هنا — عياداً بالله — يتضمن أعلى الذل والحقار والصغار، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [المجادلة: آية ٥] وذلك الكبت ملتزم لأصناف الذل والمهانة والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ ﴾ [آل عمران: آية ١٩٢] أي: أذلتته وأهنته — والعياد بالله أجازنا الله منها وإخواننا المسلمين — وهذا معنى قوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الضمير ضمير الشأن، والجملة هي اسم (أن)، و(أن) الثانية فيها

للعلماء أوجه<sup>(١)</sup> متعددة أصحابها وأقربها للصواب أنها هي (أن) الأولى كررت لما طال الفصل بينهما، وتكرير (أن) إذا طال الفصل أسلوب عربي معروف كثير في كلام العرب، ومنه هذه الآية على الصحيح. ﴿فَأَنْتَ لَمْ تَأْرَجْهُمْ﴾.

﴿خَلِدًا فِيهَا﴾ الخلود معناه: المكث الطويل، والمراد بخلود أهل النار خلود لا انقطاع فيه البتة؛ لأن الله يقول: ﴿كَلَّمَا خَبَتِ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧] فليس للنار خبوة نهائية ليس بعدها زيادة سعير، وقد قدمنا في هذه الدروس<sup>(٢)</sup> أن جماعة من العلماء زعموا أن النار تفتنى، وأنهم يخرجون منها، واستدلوا بقوله: ﴿لَيَبِثَنَّ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبا: آية ٢٣] وبقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في سورة هود [هود: آية ١٠٧] وبقوله: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] وبتنا مراراً أن التحقيق في خلود أهل الجنة وخلود أهل النار أنه خلود أبدي لا انقطاع له أبداً لا يزول ولا يحول فهو باق بقاء سرمدياً لا انقطاع له، أما خلود أهل الجنة فقد صرح الله به في آيات من كتابه كقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ [هود: آية ١٠٨] ﴿إِنَّ هَذَا الرَّزْقَ مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: آية ٥٤] وقوله (جلّ وعلا): ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: آية ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات، وأما خلود أهل النار فجاءت فيه آيات كثيرة كقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: آية ٣٦]، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ

(١) انظر: ابن جرير (٣٣٠/١٤)، القرطبي (١٩٤/٨)، الدر المصون (٧٧/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام، والآية (٣٦) من سورة الأعراف.

فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ [طه: آية ٧٤]، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: آية ٣٦]، ﴿كُلَّمَا حَبَت زِدْنَهُمْ سَعِيرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: آية ٩٧] والحاصل أن من قال من السلف: «إن النار تفتنى ويبقى محلها لا أحد فيه» يجب حملها كما صرح به البغوي في تفسيره<sup>(١)</sup> على الطبقة التي كان فيها عصاة المسلمين؛ لأن الله يخرجهم بعد أن تطهرهم النار فيؤولون إلى الجنة فتبقى طبقتهم التي كانوا فيها خاوية، أما الكفار فهم باقون معذبون لا يموتون ولا يخفف عنهم العذاب ولا تفتنى النار عنهم، وقد نفى الله فناءها بقوله: ﴿كُلَّمَا حَبَت زِدْنَهُمْ سَعِيرًا ﴿٧٧﴾﴾ فمن يدعي أن لها خبوة نهائية ليس بعدها زيادة سعي رُد عليه بهذه الآية الكريمة، وكذلك لا يخرجون منها؛ لأن الله يقول: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: آية ٢٠]، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: آية ٢٢]، ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: آية ١٦٧]، ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: الآية ٣٧] وكذلك لا يموتون فيها كما قال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيطٍ﴾ [إبراهيم: آية ١٧]، ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: آية ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات كما أوضحناه في هذه الدروس.

/ (٢) [أما آية النبأ، وهي قوله: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: ١/١٠] آية ٢٣] فقد بيّنتها غاية البيان آية سورة ص، وإيضاح ذلك أن

(١) تفسير البغوي (٢/٤٠٣).

(٢) في هذا الموضوع انقطع التسجيل، وتم استيفاء النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأعراف، وجعلت ذلك بين معقوفين.

المعنى: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿أَحْقَابًا﴾ ﴿٢٣﴾ في حال كونهم في تلك الأحقاب ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ﴿٢٥﴾ [النبأ: الآيتان ٢٤، ٢٥] فإذا انقضت أحقاب [الحميم والغساق، عذبوا بأنواع آخر من أنواع العذاب لا نهاية لها ولا يعلمها إلا الله. وإنما قلنا: إن هذه الأحقاب، مختصة بأحقاب الحميم والغساق لأن الله بين ذلك وصرح به في سورة (ص) وخير ما يفسر به القرآن القرآن؛ لأن الله يقول في (ص): ﴿هَذَا وَابِتٌ لِلطَّغِيئِ لَشَّرٍ مَثَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَمِنَ السَّمَاءِ هَذَا فَيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: الآيات ٥٥ - ٥٨] فبين أن هنالك أصنافاً آخر وأشكالاً من أنواع العذاب غير الحميم والغساق. فبيّنت آية (ص) هذه آية النبأ، بياناً واضحاً وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

وذكرنا<sup>(١)</sup> أن بعض الملحدين يقول: أين الإنصاف والحكمة في أن تكون أيام المعصية في دار الدنيا وأيام الكفر مدة محدودة والجزاء في مدة لا تنقضي، فأين العدل والميزان، في عمل في مدة معينة مع جزاء في مُدَد لا تنقضي ولا تفي؟! والجواب عن هذا: أن خبث الكافر الذي عُدب بسببه هو باقٍ دائم لا يزول في جميع المُدَد، فكان العذاب دائماً لا يزول؛ لأن سببه باقٍ لا يزول، والدليل على أن خبث الكفار باقٍ لا يزول أبداً فكان جزاؤه دائماً لا يزول أبداً لأنهم لما رأوا النار وعابنوا الحقائق يوم القيامة وندموا على تكذيب الرُّسل فتمنوا الرَّد إلى الدنيا ليتوبوا ﴿فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٧] قال الله فيهم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَمَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: آية ٢٨]

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

فصرح (جلّ وعلا) بأنهم لو رُدوا إلى الدنيا بعد معاينة النار والعذاب وبلايا القيامة لعادوا لما نهوا عنه .

وهو تصريح بأن خبثهم الطبيعي منطبقٌ فيهم دائم لا يزول، فلذلك كان جزاؤه دائماً لا يزول. والجزاء بحسب العمل؛ ولذا قال تعالى: ﴿ جَزَاءٌ وَفَاءًا ۖ ﴾ [النبا: آية ٢٦] موافقاً لأعمالهم فخبثهم لا يزول وجزاؤهم لا يزول، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: آية ٢٣] ف (خيراً) نكرة في (١) سياق الشرط وهي تعم، فعرفنا أن الله لم يعلم فيهم خيراً ما في وقت ما كائناً ما كان، ولما كان الخير منتفٍ عنهم أبداً والشرّ ملازم لهم أبداً، كان جزاؤهم لازماً أبداً. وهذا معنى قوله: ﴿ فَأَنْتَ لَهُمُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ ﴾ [التوبة: آية ٦٣] - والعياذ بالله - ﴿ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ الهوان والخزي الكبير. والعظيم صفة مشبهة من عَظُم الشيء يعظم فهو عظيم، وهو معنى معروف لا خفاء به.

قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ أُسْتَهْزِئُوا بِكُ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ [٦٤] وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْكٰفِرَاتُ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ [التوبة: الآيات ٦٤ - ٦٨].

يقول الله (جَلَّ وعلا): ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَمُخْرِجٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: آية ٦٤].

قرأ هذا الحرف عامة القراء، غير ابن كثير وأبي عمرو: ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ ومعنى القراءتين واحد، فالله (جَلَّ وعلا) في هذه السورة الكريمة يفضح ما تنطوي عليه ضمائر المنافقين، فبيّن لنبية ﷺ في هذه الآية الكريمة أن المنافقين في غاية الخوف والقلق والحذر من أن ينزل الله على نبيه قرآناً يكشف به أسرارهم، ويوضح ما تنطوي عليه ضمائرهم من الكفر والسوء فقال: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ مضارع حَذَرَ الأمر يحذره إذا كان يخاف وقوعه خوفاً شديداً.

قوله: ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ التحقيق أن المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها في محل نصب مفعول به ليحذر<sup>(١)</sup>؛ لأنه (يحذر) تتعدى بنفسها دون حرف، وأنشد سيويه لتعدي (حذر) بنفسها قول الشاعر<sup>(٢)</sup>:

حذرٌ أموراً لا تضيرُ وآمنٌ ما ليس ينجيه من الأقدار

فقوله: «أموراً» مفعول به لـ (حذر) وهو الوصف من حَذَرَ يحذر فهو حَذِرٌ ﴿أَنْ تُنَزَّلَ﴾ يعني: يحذر المنافقون تنزيل سورة من الله عليهم. أي: على النبي وأصحابه تفضح المنافقين، وقال بعض

(١) انظر: الدر المصون (٦/٧٩).

(٢) الكتاب (١/١١٣).

العلماء: ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: على المنافقين؛ لأنها إذا نزلت في شأنهم مبينة فضائحهم وما تنطوي عليه أسرارهم فكانها نزلت عليهم ﴿ قُلِ ﴾ لهم يا نبي الله ﴿ اسْتَهِزُّوْا ﴾ صيغة الأمر هنا للتهديد، يعني: دوموا على ما أنتم عليه من الاستهزاء بآيات الله وباللغة وبرسوله فستلقون جزاء ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ﴾ أي: مظهر لنبيه بما يوحى إليه ما أنتم تسرونه وتبتظونوه، ذلك الذي تحذرون أن يفضحكم الله فيه، إن الله مخرجه ومظهره، وقد أطلع الله نبيه ﷺ على حقائقهم بعد أن لم يكن يعلمها؛ لأن قوله هنا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحَدَّرُونَ ﴾ ﴿ ١٤ ﴾ يدل على أن النبي في هذا الوقت لم يكن يعلمه كما يأتي في قوله: ﴿ وَمَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة: آية ١٠١] وقد بين الله لنبيه المنافقين، أشار له إلى معرفتهم بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴾ ﴿ ٢٩ ﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ ثم قال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد: الآيتان ٢٩، ٣٠] وقد أطلع الله نبيه عليه في غزوة تبوك، وأطلع النبي حذيفة بن اليمان على جماعة منهم بأسمائها. وهذا معنى قوله: ﴿ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحَدَّرُونَ ﴾ ﴿ ١٤ ﴾ [التوبة: آية ٦٤].

قوله: ﴿ مَا ﴾ في محل المفعول به لاسم الفاعل الذي هو (مخرج) والسؤال الذي يتبادر في هذا جوابه ظاهر، لأن (مخرج) هنا قد وقع وتعلق بالماضي، والمقرر في علم العربية أن اسم الفاعل إذا كان نكرة لا يعمل إلا بمسوغ، ولا يعمل في الماضي، وهنا كأنه عمل في الماضي. والجواب واضح؛ لأن هذه الآية تحكي ما كان في ذلك الوقت مستقبلاً؛ لأن وقت نزول هذه الآية يحكي الله (جلّ

وعلا) فيها أنه سيفعل ذلك في المستقبل، فإذا لم يتعلق اسم الفاعل بأمر ماضٍ كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحَدَّرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: آية ٦٥] نزلت هذه الآية في غزوة تبوك بإطباق المفسرين في قوم استهزؤوا بالله وآياته ورسوله. قال بعض العلماء: كان النبي ﷺ يسير في غزوة تبوك وأمامه ركبٌ من المنافقين، فكان بعضهم يقول لبعض: «يظن هذا أنه يفتح قصور الشام ويقدر على بلاد بني الأصفر، هيهات هيهات» فأطلع الله نبيه على ذلك فاستوقفهم فسألهم: «لَمَ قَلْتُمْ هَذَا؟» قالوا: كنا نخوض ونلعب، لم نقل هذا عن طريق الجد، وإنما قلناه عن طريق الهزل واللعب. فأجابهم الله: ﴿أَبِاللَّهِ وَعَإِنتِيهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لا تعذروا قد كفرتم<sup>(١)</sup> [التوبة: آية ٦٥].

وذكر بعض العلماء أن النبي ﷺ ضلّت راحلته في غزوة تبوك فقال جماعة من المنافقين: انظروا إلى هذا الرجل يدّعي أنه يعلم علم الغيب، وأنه ينزل عليه الوحي وهو لا يدري أين ذهبت ناقته!! وأن جبريل أتاه فأخبره بموضعها، أمسكتها شجرة كذا بزمامها، فناداهم وقال: «لَمَ قَلْتُمْ مَا قَلْتُمْ؟» قالوا: كنا نخوض ونلعب<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه ابن جرير (٣٣٤/١٤)، وابن أبي حاتم (١٨٣٠/٦)، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٥٠، عن قتادة مرسلًا، وعزاه في الدر (٢٥٤/٣)، لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.  
 (٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٣٢/٥)، وذكره ابن هشام في السيرة ص ١٣٧٥، من طريق ابن إسحاق، وانظر: الذهب المسبوك ص ٢٤٩، وليس للآية ذكر في =

وعلى كل حال فلا خلاف بين العلماء أن هذه الآية من سورة براءة نزلت في غزوة تبوك في قوم استهزؤوا بالنبي ﷺ واستخفوا به، فسألهم رسول الله ﷺ فأجابوا معتردين اعتذاراً كاذباً قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ في الحديث ﴿وَنَلْعَبُ﴾ نَهْزاً ونضحك فيما بيننا لا نقول ذلك عن جدِّ وقصد. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا نبي الله: ﴿أَبِاللَّهِ وَعَإِينِيهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٥﴾ يعني أستهزئون بالله وبرسوله وبآياته؟! فالاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفر بواح لا عذر لصاحبه البتة. قال بعض العلماء<sup>(١)</sup>: يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن من استهزأ بالله وبرسوله وبآياته ولو كان هازلاً مازحاً أنه يكون كافراً؛ لأنه لا هزل في الكفر، وقد جاء في الحديث أن بعض المسائل هزلها كجدها، كالطلاق، والعتاق، وهي ثلاث مسائل معدودة في الحديث: «ثلاث جدهن [جد]<sup>(٢)</sup>: الطلاق والعتاق...». ونسيت الثالثة<sup>(٣)</sup> مع أنها مختلف فيها

= الرواية التي وقفت عليها، وقد أخرج ابن أبي حاتم (١٨٣٠/٦)، وكذا أورده السيوطي في الدر (٢٥٤/٣) عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال رجل من المنافقين: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا في يوم كذا وكذا وما يدرية بالغيب؟! وعزاه السيوطي لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(١) انظر: القرطبي (١٩٧/٨).

(٢) في الأصل: «هزل»، وهذا سبق لسان، والصواب: جدهن جد وهزلهن جد.

(٣) الثلاث في أشهر الروايات هي: النكاح والطلاق والرجعة.

والحديث أخرجه أبو داود في الطلاق، باب في الطلاق على الهزل، حديث رقم: (٢١٨٠)، (٢٦٢/٦)، والترمذي في الطلاق، باب ما جاء في الجد =

هل هي الرجعة أو غيرها.

وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيَّهِمْ وَرَسُولِيُّهُمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا﴾ الاستهزاء: الاستخفاف، و﴿لَا تَعْذِرُوا﴾ هذا الاعتذار البارد الكاذب، ليس مقبولاً منكم حتى تتوبوا توبة نصوحاً ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: بعد إظهاركم الإيمان وإعلانكم إياه.

ثم قال: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ [التوبة: آية ٦٦] قرأ هذا الحرف عامّة القراء السبعة، غير عاصم وحده: ﴿إِنْ يُعَفَّ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ كانوا مجرمين ﴿بِقَوْلِهِ: يُعَفَّ﴾ بالياء وبناء الفعل للمفعول، و﴿تُعَذِّبْ﴾ طائفة بالتاء، وضم طائفة على أنه نائب الفاعل، وقرأ عاصم وحده من السبعة: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾<sup>(١)</sup> بنون العظمة ونصب طائفة الثانية. وفي نظم ابن المرحل<sup>(٢)</sup>:

لعاصم قراءة لغيرها مخالفة  
إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة

فهذه قراءة عاصم وحده، برواية حفص وشعبة عنه معاً.

= والهزل في الطلاق، حديث رقم: (١١٨٤)، (٤٨١/٣)، وابن ماجه في الطلاق، باب من طلق أو نكح أو رجع لاعباً، حديث رقم: (٢٠٣٩)، (٦٥٨/١)، والدارقطني (٤/١٨، ١٩)، والحاكم (٢/١٩٨)، وابن الجارود (٣/٤٤). وللوقوف على روايات الحديث وألفاظه انظر: التعليق المغني على الدارقطني (٤/١٩)، إرواء الغليل (٦/٢٢٤).

(١) مضت عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

وهذا معنى قوله: ﴿ لَا تَعْدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ ﴾ .

قال بعض العلماء<sup>(١)</sup>: هذا العفو نزل في [مخشي بن الحمير] لأنه كان من الذين خاضوا في الاستهزاء. قال بعض العلماء<sup>(٢)</sup>: كانوا ثلاثة نفر اثنان استهزؤوا وواحد ضحك لهما من كلامهما، ثم إن الثالث الذي هو مخشي بن الحمير (رضي الله عنه) تاب إلى الله، وحسن إسلامه، وعفى الله عنه، وأنزل الله فيه: ﴿ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعْدَبَ طَآئِفَةٌ ﴾ .

وقال غير واحد إن مخشياً (رضي الله عنه) تاب من نفاقه، وحسن إسلامه، وأتاب إلى الله، ودعا الله أن يموت شهيداً، وأن لا يطلع أحدٌ على قبره، وقال من قال هذا: قتل باليمامة شهيداً. ولم يطلع عليه أحدٌ، ولم يعثر عليه (رضي الله عنه)، هكذا قال بعضهم<sup>(٣)</sup>.

﴿ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ ﴾ تابت إلى الله وأتابت إليه ورجعت عن النفاق إلى الإيمان الخالص والتوبة النصوح ﴿ نَعْدَبَ طَآئِفَةٌ ﴾ أخرى لم يتوبوا بل كانوا مصرين على النفاق والاستهزاء بالله وآياته ورسوله بسبب أنهم ﴿ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ ﴿ ١١ ﴾ مرتكبين الجريمة،

(١) أخرجه ابن جرير (٣٣٦/١٤) عن ابن إسحاق مرسلًا، وقد أخرج ابن أبي حاتم (١٨٣١/٦)، كما أورد السيوطي في الدر (٢٥٤/٣) شاهداً له عن كعب بن مالك (رضي الله عنه)، وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأورده أيضاً عن ابن عباس وعزاه لابن مردويه.

(٢) انظر: القرطبي (١٩٩/٨).

(٣) جاء ذلك في أثر كعب بن مالك وابن عباس اللذين أشرنا إليهما قريباً.

وهي الإصرار على الكفر والنفاق من غير إقلاع ولا توبة عنه، والمجرمون<sup>(١)</sup> جمع المجرم، والمجرم مرتكب الجريمة، والجريمة هي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه النكال العظيم و (مجرمون) هنا اسم فاعل (أجرم) بصيغة (أفعل) بالهمزة التي صار بها رباعياً، ويستعمل هذا الفعل استعمالين: أجرم رباعياً بصيغة (أفعل) وجرم ثلاثياً مجرداً. وما جاء مستعملاً في القرآن إلا بصيغة الرباعي فقط ﴿مُجْرِمِينَ﴾. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا﴾ [المطففين: آية ٢٩] ولم يأت بصيغة الثلاثي المجرد في القرآن ولكنه جاء بذلك في لغة العرب، ومن ذلك قول الشاعر:

وَنَنْصُرُ مَوْلَانَا وَنَعْلَمُ أَنَّهُ كَمَا النَّاسُ مَجْرُومٌ عَلَيْهِ وَجَارِمٌ<sup>(٢)</sup>

لأن المجروم اسم مفعول جرمه الثلاثي المجرد بلا نزاع، وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ نَعَفْ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ [٦٧] وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكَفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: الآيتان ٦٧، ٦٨].

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: آية ٦٧] المنافق هو من يظهر الإيمان، ويُسِر الكفر، وهو المسمّى في عرف

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

الفقهاء بالزنديق. قال بعض العلماء: اشتقاقه من النافق وهو جحر اليربوع؛ لأن جحر اليربوع يكون له أبواب مختلفة يدخل من باب ويخرج من آخر، فالمنافق يخرج بغير ما دخل به، هكذا قيل.

﴿الْمُنْفِقُونَ﴾ الذكور ﴿وَالْمُنْفِقَاتُ﴾ الإناث، هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن مما استدلّ به جماعة من [أهل] (١) الأصول على مسألة أصولية مختلف فيها وإيضاحها أن الصفات التي يشترك فيها الذكور والإناث إذا جاءت في كتاب الله أو سنة رسوله بصيغة خاصة بالذكور هل يدخل فيها الإناث نظراً إلى اشتراكهنّ مع الذكور في أصل الوصف، أو يختص بها الذكور لأن البناء مختص بالذكور؟! وإيضاح هذا، أن النفاق هو صفة تتصف بها الأنثى والذكر، ولكن قوله: ﴿الْمُنْفِقُونَ﴾ اختصّ بالذكور، فإذا جاء في كتاب الله جمع مذكر سالم أصل معناه يشترك فيه الذكور والإناث، هل يحكم بدخول الإناث أو لا يحكم بدخولهنّ إلا بدليل منفصل؟! هذا خلاف مشهور في الأصول (٢)، قال أكثر أهل الأصول: إن الجموع المذكرة السالمة ونحوها مما يختص بجماعة الذكور، إذا ورد في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ لا يدخل فيه النساء إلا بدليل خاص، لاختصاص الصيغة بالذكور، وإن كان الوصف شاملاً للجميع، واستدلوا على أن النساء لا يدخلن في الجموع المذكرة بمثل هذه الآية في القرآن، قالوا: لو كانت المنافقات الإناث يدخلن في اسم المنافقين بصيغة الجمع المذكر السالم لكفى ذلك عن عطفهن عليهم، قالوا: والعطف دليل على المغايرة وعدم الدخول، واستدلوا لهذا بكثرة نحوه في القرآن كقوله: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب: آية ٧٣] وقوله:

(١) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/ ٢٣٥).

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَيْصُرِهِمْ ﴾ [النور: آية ٣٠] ثم قال: ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [النور: آية ٣١] فقالوا: فعطف النساء على الذكور المجموعين بصيغة الجمع المذكر يدل على عدم دخولهن فيه لاختصاص الصيغة بالذكور، وإن كان الوصف شاملاً للجميع.

وذهبت طائفة أخرى إلى أن النساء يدخلن في الجموع المذكورة وما جرى مجراها؛ لأن الجميع سواء في التكليف، واستدلوا بآيات من كتاب الله جاء مصرحاً فيها بدخول الأنثى في صيغة الجمع المذكر السالم، كقوله تعالى في [بلقيس] (١): ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [النمل: آية ٤٣] فأدخل هذه المرأة في «الكافرين» وهو جمع مذكر سالم. وقوله في مريم ابنة عمران: ﴿ وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتٍ وَكِتَابِهِ ﴾ [التحریم: آية ١٢] وفي القراءة الأخرى: ﴿ وَكِتَابِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَتِينِينَ ﴾ (٢) [التحریم: آية ١٢] فأدخل مريم وهي امرأة في اسم (القانتين) وهو جمع مذكر سالم، قالوا: ونظيره قوله في امرأة العزيز: ﴿ يَوْسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: آية ٢٩] وهذا خلاف معروف في الأصول. وأكثر الأصوليين يقولون: إنهن لا يدخلن. وأجمع العلماء على عدم دخول النساء في صيغة الذكور في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [الآياتان ٥، ٦] فلا يجوز للمرأة أن تتخذ عبدها وتتسراه؛ لأن الإناث لم يدخلن في هذه الصيغة المختصة بالذكور، وعلى كل حال فأظهر قولي الأصوليين - وعليه أكثرهم - أن أصل اللغة يقتضي تغليب الذكور على الإناث، وهذا لا نزاع فيه، أمّا التبادر عند

(١) وقع في الأصل: «امرأة العزيز»، وهو سبق لسان.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٤٤٠.

الإطلاق، فهل يتبادر دخول النساء في الجموع المذكورة أو لا؟ فالظاهر أنه ما دخلن في جمع مذكر سالم إلا بقريئة زائدة دالة على ذلك، وأنه إذا تجرّد من القرائن لم يدخلن فيه، وعلى هذا أكثر علماء الأصول.

وقوله: ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: آية ٦٧] هذه الآية تضمنت تكذيب المنافقين المذكور في قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: آية ٥٦] وصدقت قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُنْكَرٍ﴾ [التوبة: آية ٥٦] كأن الله يقول: المنافقون يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم. الحقيقة هم ليسوا منكم ولكن بعضهم من بعض، وليسوا منكم ولستم منهم، بل هم بعضهم من بعض؛ لأنهم هم المتشابهون في الأخلاق والأهداف، أخلاقهم واحدة وغرضهم واحد، فبعضهم من بعض وبعضهم أولياء بعض، وليسوا منكم ولستم منهم، فهذا معنى قوله: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ ثم بين صفاتهم التي يجتمعون فيها وهي ضد صفات المؤمنين، على خط مستقيم، وهي قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ والمؤمنون يأمرون بالمعروف ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ والمؤمنون ينهون عن المنكر.

والمنكر: اسم مفعول أنكره، والمراد به كل ما أنكره الشرع ولم يأذن فيه. والمعروف: اسم مفعول (عرفه) وهو كل ما عرفه الشرع ودعا إليه وأمر به.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ المراد بقبض اليد هنا كناية عن البخل وعدم مدّ الأيدي بما ألزم الله بإعطائه، فهم لا يزكون ولا ينفقون، فالعرب تقول: فلان يتعوّد قبض اليد، ويده مقبوضة، ويقبض يده يكون بذلك عن

البخل. يعنون: لا وجود. فبسط اليد معناه الجود، وقبض اليد معناه البخل، قال بعض العلماء: قبضهم أيديهم: بخلهم بما يلزمهم من الزكوات وسائر الإنفاق. وقال (...)(<sup>١</sup>).

(...) وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول زهير (<sup>٢</sup>):

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ دَعَاها لِقَبْضِ لَمْ تُجِبْهُ أَنَامِلُهُ  
وهذا معنى قوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.

﴿سَأُوا اللَّهَ﴾ المراد بالنسيان هنا: الترك عمداً، معناها: تركوا أوامر الله وجعلوها وراء ظهورهم.

﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ الله، تركهم الله من كل خير ومن كل ثواب. والعرب تطلق النسيان على الترك عمداً (<sup>٣</sup>)، ومنه قوله: ﴿نَسِيَهُمْ﴾ أي: الله تركهم من كل خير، ومن كل ثواب. والله (جل وعلا) يستحيل في حقه النسيان الذي هو ذهاب الشيء عن العلم، فمعنى ﴿نَسِيَهُمْ﴾: تركهم عمداً وإرادة؛ لأن الله (جل وعلا) لا ينسى كما قال تعالى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: الآية ٥٢]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦٤]، وهذا معنى قوله: ﴿سَأُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل.

(٢) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه (٢٩/٣)، البحر المحيط (٢/٢٤٨)، الدر المصون (٤/٣٤٣).

(٣) تقدم عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ﴾ قبحهم الله ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٦٧﴾  
 الخارجون عن طاعة الله خروجاً عظيماً وإن زعموا أنهم مؤمنون،  
 وحلفوا للنبي وأصحابه على أنهم مؤمنون مطيعون لله ولرسوله.  
 وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ [التوبة:  
 الآية ٦٧].

ثم قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾  
 [التوبة: الآية ٦٨]، المراد بـ ﴿الْمُنْفِقِينَ﴾ من يظهرون الإسلام  
 ويبطنون الكفر. ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ أعلنوا كفرهم فهم كلهم كفار، والفرق  
 بينهم: أن بعضهم يتظاهر بكفره وبعضهم يخفي كفره، فهؤلاء الكفار  
 جميعاً المتعالنون بكفرهم والجاحدون له وعدمهم الله جميعاً نار  
 جهنم، كما تقدم في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنْفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ  
 جَمِيعًا﴾ ﴿١٤﴾ [النساء: الآية ١٤٠]، وقال هنا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ  
 وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

﴿وَعَدَ﴾ تأتي بلا نزاع في الخير والشر، إلا أن مصدر ذات  
 الشر: (وعده وعيداً) ومصدر ذات الخير: (وعده وعداً). وأما  
 (أوعد) بزيادة (الهمزة) فلا تكاد العرب تطلقها إلا بالوعد بالشر  
 خاصة<sup>(١)</sup>. وهذا معنى قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ  
 وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ هو المفعول الثاني لوعد، ونار جهنم معروفة،  
 وجهنم طبقة من طبقاتها، وربما أطلقت على جميع طبقات النار<sup>(٢)</sup>.

(١) تقدم عند تفسير الآية (١٣٤) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم عند تفسير الآية (١٧٩) من سورة الأعراف.

واختلف علماء العربية في لفظة جهنم هل هي عربية أصلاً أو مُعَرَّبَةٌ<sup>(١)</sup>؟ والتحقيق أن القرآن العظيم ليس فيه عجمي أصلاً<sup>(٢)</sup> إلاّ الأعلام، وإن كان بعض الكلمات معروفة في كلام العجم، فبدلاً من أن نقول: إن العرب أخذوها من العجم نقول: إن العجم أخذوها من العرب؛ لأن الله يقول في القرآن: ﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: الآية ١٩٥]. ولا يمكن أن نحكم بأن شيئاً منه غير عربي إلاّ بدليل قاطع كالأعلام، فإن الأعلام تُذكر في جميع اللغات حسب ما وُضعت بوضعها الأول.

وعلى أن ﴿جَهَنَّمَ﴾ أصلها عربية وأصلها من كلام العرب لا مُعَرَّبَةٌ: فأصل مادتها (الجيم، والهاء، والميم) والنون المشددة فيها زائدة - فعلى هذا القول يكون وزنها بالميزان الصرفي: (فَعَنْل)<sup>(٣)</sup> بزيادة النون المشددة بين العين واللام، وعليه فحروفها الصحيحة هي: (الجيم) في محل (الفاء)، و (الهاء) في محل (العين) و (الميم) في محل (اللام) من (جَهَمَه يَجْهَمُه) إذا لقيه بوجه عابس مقطَّب كرية؛ لأن أصحابها إذا دخلوا فيها تلتقتهم بوجه عابس كرية وتقطَّبت وعبست وجوههم فيها، والعرب تقول: (جَهَمَه) (يَجْهَمُه) إذا تلقاه بوجه عابس كرية، ومنه قول عمرو بن الفضفاض الجهني<sup>(٤)</sup>:

ولا تَجْهَمِينَا أُمَّ عمرو، فإنما بنا داءً ظبيِّ لم تخنه عَوَامِلُهُ

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

وقال بعض العلماء: هذه أصلها فارسية مُعَرَّبَةٌ، وزعم من قال هذا أن في الفارسية القديمة: (كَهَنَام) <sup>(١)</sup> يطلق على النار، وأن العرب عرَّبَتها وأبدلت كافها جيماً فقالت فيها: (جهنم) <sup>(٢)</sup>، والله تعالى أعلم.

وهذا معنى قوله: ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي [ماكثين] <sup>(٣)</sup> فيها على الدوام ﴿خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ﴾، أي: مقدِّرين الخلود فيها على الدوام ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: كفايتهم من العقاب. معناه: أن الجرائم التي ارتكبوها إذا جُوزوا بالنار ففي النار كفاية تامة لجزاء ذلك السوء الذي ارتكبه؛ لأنها جزاء فظيع ﴿جَزَاءً وَفِاقًا﴾ <sup>(٤)</sup> [النبأ: الآية ٢٦] فمن عُدِّبَ بالنار فقد جُوزِيَ جزاءً بالغاً وافياً هو حسبه أي: يكفيه؛ لأنه لا جزاء أعظم منه ولا أشد، وهذا معنى قوله: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾.

﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم وأبعدهم عن رحمته. واللعن في لغة العرب التي نزل بها القرآن: معناه الطرد والإبعاد <sup>(٤)</sup>، فالرجل إذا كان صاحب جنایات: قتل من هؤلاء، وقتل من هؤلاء، وخاف قومه أن يجر لهم حروب القبائل وذحول الدماء <sup>(٥)</sup>، إذا تبرؤوا منه، وأعلنوا البراءة منه، وطرده وأبعده سُمِّيَ رجلاً لعيناً؛ لأن قومه

(١) وبعضهم يضبطها بكسر الكاف والهاء.

(٢) السابق.

(٣) في الأصل: «ماكثاً» وذلك أن الشيخ (رحمه الله) ذهب إلى قوله تعالى: ﴿فَأَن تَكُنَّ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ فجرى التعديل.

(٤) تقدم في الأعراف عند تفسير الآية (٤٤).

(٥) أي: ثارات الدماء. انظر: القاموس (فصل الذال من باب اللام)

طردوه وأبعده، ومن هذا المعنى قول الشماخ<sup>(١)</sup>:

ذَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذِّيبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ

واللعنة في اصطلاح الشرع<sup>(٢)</sup>: هي الطرد والإبعاد عن

رحمة الله (جل وعلا) أعاذنا الله وإخواننا المؤمنين منها.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (١٨) أي: دائم أبداً لا يزول ولا يحول

ولا ينقطع كما أوضحناه في الدروس الماضية.

قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ

أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ

وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧٠) [التوبة: الآيتان ٦٩، ٧٠].

يقول الله (جل وعلا): ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ

قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا

اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَطَّتْ

أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٩) [التوبة:

الآية ٦٩].

اعلم أولاً أن تفسير هذه الآية الإجمالي قبل أن نشرع في تحليل

ألفاظها أن مضمونها أن الله يُهدد الكفرة والمنافقين في زمن النبي ﷺ

(١) تقدم في الأعراف عند تفسير الآية (٤٤).

(٢) السابق.

بأن الأمم التي كانت قبلهم كانت أشد منهم وأكثر قوة وعتاداً وأموالاً وأولاداً لما عتوا على الله وتمردوا وكذبوا رسله أهلكتهم الله الإهلاك المستأصل، فكأنه يقول لهم: إذا كنا أهلكتنا الأمم قبلكم التي هي أقوى منكم وأشد تمكناً في الدنيا من جميع النواحي، فعليكم أن تخافوا، ولا تكذبوا نبينا لئلا ننزل بكم ما أنزلنا بمن هو أقوى وأعظم منكم. والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة جداً، كقوله:

﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأُولَىٰ ﴾ [الزخرف: الآية ٨]، ﴿ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ [الدخان: الآية ٣٧] فكيف لا يخافون أن نهلكهم؟ ﴿ أَوْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: الآية ٩]، يعني: إن كنا أهلكتنا هؤلاء الذين هم أقوى منكم بأضعاف لما كذبوا رسلنا فعليكم أن تحذروا لئلا ننزل بكم ما أنزلنا بمن هو أقوى منكم. فهذا المعنى الإجمالي للآية الكريمة والآيات الموضحة له في القرآن كثيرة جداً.

واعلم أن علماء التفسير اختلفوا في محل الكاف من قوله: ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ هل هي في محل نصب؟ أو محل رفع<sup>(١)</sup>؟ قال بعضهم: هي في محل نصب. والذين قالوا: الكاف في محل نصب اختلفوا على قولين: قال بعضهم: هو يتعلق بقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة: الآية ٦٨]، ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ يعني: سيعدكم الله كما وعد الذين من قبلكم، واستبعد بعضهم هذا القول. وقال بعض العلماء: هو في

(١) الدر المصون (٦/٨٢).

محل نصب على أن المعنى: فعلتم ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: كفعل الذين من قبلكم فسينزل بكم من العقوبات مثل ما نزل بهم. واختار بعض المحققين من العلماء أن الكاف في محل رفع. والمعنى: أنتم أيها الكفرة والمنافقون كالذين كانوا من قبلكم، أنتم مثلهم، كقوله: ﴿كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [آل عمران: الآية ١١] أنتم كالذين من قبلكم كفروا وتمتعوا بخلاقهم في الدنيا، وآثروا الدنيا على الآخرة، وتمردوا على الله وكذبوا رسله، فأنزل الله بهم نِقَمَه في الدنيا، وعذبهم العذاب الأبدي في الآخرة. ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وهؤلاء الذين من قبلهم سيأتي إيضاح إجمالهم في قوله بعد هذا: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ إلى آخر المذكورات الآتية.

﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ ﴿قُوَّةً﴾ تمييز محول عن الفاعل، ومعلوم أن فاعل صيغة التفضيل قد يكون تمييزاً كثيراً محولاً عن الفاعل<sup>(١)</sup>، أي: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ لقوة أبدانهم وعتادهم وكثرة أموالهم.

﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً﴾ منكم وأكثر أولاداً. ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِحُلَّتِهِمْ﴾ وكذبوا الرسل وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة فأهلكناهم.

والخلاق في لغة العرب: النصيب<sup>(٢)</sup>. يعني: استمتعوا بنصيبهم في الدنيا مؤثرين الدنيا على الآخرة، مغترين بزخارف

(١) انظر: التوضيح والتكميل (١/٤٩٧).

(٢) انظر: المفردات (مادة: خلق) ص ٢٩٧.

الدنيا، معرضين عن الله، مكذبين رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

وقال بعض العلماء<sup>(١)</sup>: الخلاق: الدين، قالوا: لأن كل فرقة تنتحل ديناً وهي تفرح بذلك الدين وتتمتع به وتزعم أنها على هدى، وهو الهدى الذي كان عليه آباؤها في زعمها، كما ذكرنا مراراً، وكما في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴿٢٣﴾ أَي: دين وملة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ عَثْرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف: الآية ٢٣] وقال (جل وعلا) في أخريات سورة المؤمن: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴿٨٣﴾ وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَىٰ دِينٍ ﴿٨٤﴾ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: الآية ٨٣].

فالحاصل أن الأظهر المعروف في اللغة أن معنى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ تمتعوا بنصيبيهم وحظهم الدنيوي الذي أعطاهم الله إياه استدراجاً. وقال بعض من الصحابة فمن بعدهم: ﴿بِخَلْقِهِمْ﴾ أي: دينهم كما بينا.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ أيها الكفار والمنافقون (بخلاصكم) أي: بنصيبيكم الدنيوي مؤثرين الدنيا على الآخرة، أو فرحين بما عندكم من الدين زاعمين أن ما كان عليه آباؤكم حق، كما قالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: الآية ١٠٤].

﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ وخضتم في الباطل والكفر وتكذيب الرسل.

(١) انظر: القرطبي (٢٠١/٨).

﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ قال بعض العلماء<sup>(١)</sup>: (الذي) هنا حرف مصدرى، والمعنى: كالخوض الذي خاضوه. وعلى هذا فلا إشكال في الآية، وعليه فالتشبيه في نفس الخوض، لا بين الخائضين والخائضين.

وقالت جماعة من العلماء: التشبيه بين الخائضين والخائضين، و (الذي) بمعنى (الذين) أي: وخضتم في الباطل والكفر وتكذيب الرسل كخوض الذين خاضوا في ذلك من قبلكم.

وقد تقرر عند العلماء<sup>(٢)</sup> أن لفظة (الذي) تأتي بمعنى (الذين)، وإتيان (الذي) بمعنى (الذين) أمر لا شك فيه، وهو كثير في القرآن. وفي كلام العرب، وإيضاحه: أن لفظ (الذي) مفرد، وأن معناها جمع؛ لأنه اسم موصول، والموصولات صيغ عموم. تعم كل ما تشمله صلاتها فقد يراعى لفظ (الذي) فيفرد، وقد يراعى معناه، وهو شامل لكل ما تشمله صلته فيعم، ويكون بمعنى الجمع. وإتيان (الذي) بمعنى (الذين) في القرآن العظيم وفي كلام العرب كثير جداً، فمن أمثلته في القرآن العظيم ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾ [البقرة: الآية ١٧] أي: كمثل الذين استوقدوا، بدليل قوله بعده يليه: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: الآية ٣٣] لأن معناه: والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به، بدليل قوله بعده: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وكقوله تعالى:

(١) انظر: الدر المصون (٨٣/٦).

(٢) السابق (١٥٦/١) وراجع ما ذكره الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٥٤/٧)،

(٣٨٧)، دفع إيهام الاضطراب ص ١١.

﴿ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤] أي: كالذين ينفقون أموالهم رثاء الناس بدليل قوله في آخر الآية: ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤] فدل قوله: ﴿ لَا يَقْدِرُونَ ﴾ أن (الذي) بمعنى (الذين) ونحو هذا من الآيات. وورود هذا في كلام العرب معروف، وأنشد له سيبويه قول الأشهب بن رميلة<sup>(١)</sup>:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أمَّ خالد  
فقوله: (الذي حانت) يعني: الذين حانت دماؤهم. ومنه قول  
عدي بن الفرخ العجلي<sup>(٢)</sup>:

وبت أساقي الموت إخوتي الذي غوايتهم غيبي ورشدهم رشدي  
وقول الراجز<sup>(٣)</sup>:

يارب عبس لا تبارك في أحد في قائم منهم ولا في من قعد  
إلَّا الذي قاموا بأطراف المسد

يعني: إلَّا الذين قاموا.

(١) البيت في الكتاب لسبويه (١/١٨٧)، المحتسب (١/١٨٥)، رصف المباني ص ٣٤١، دفع إيهام الاضطراب ص ١١، أضواء البيان (٧/٥٥، ٣٨٨).

(٢) البيت في سر صناعة الإعراب (٢/٥٣٧)، المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية (١/٢٥٩)، دفع إيهام الاضطراب ص ١٢، أضواء البيان (٧/٥٥، ٣٨٨).

(٣) رصف المباني ص ٢٧٠، اللسان (مادة: ذا)، المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية (٣/١١٤٠)، مع شيء من المغايرة في اللفظ، وقد أثبتته الشيخ (رحمه الله) كما هنا في الأضواء (٧/٥٥، ٣٨٨)، دفع الإيهام ص ١١.

والخوض لا تكاد العرب تطلقه إلا على الخوض في الباطل<sup>(١)</sup>. وأصله الخوض في الماء؛ لأن الخائض في الماء يتخبط فيه بغير انتظام، ليس كالماشي على الأرض.

ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت واضمحلت في الدنيا حيث لم يكن معتداً بها عند الله، وكذلك هي باطلة في الآخرة، وعكس هذا قوله في إبراهيم: ﴿وَأَيِّنَّا أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٧].

وقد قدمنا انتفاع الكفار بأعمالهم في الدنيا خاصة<sup>(٢)</sup>، وأن ذلك مقيد بمشيئة الله كما دل عليه قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَٰجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: الآية ١٨].

وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت واضمحلت حتى لا يظهر لها أثر ينتفعون به يوم القيامة. قال بعض العلماء: أصل اشتقاق ﴿حَبِطَتْ﴾ من الحَبَطَ بفتحين، وهو نبت في البادية إذا أكلته الدواب انتفخت بطونها فماتت<sup>(٣)</sup>، كانوا يقولون: «حبطت الماشية» إذا أكلت الحَبَطَ فهلكت، وصارت العرب تستعمله في الهلاك حتى كان أغلب استعماله في هلاك الأعمال واضمحلالها وعدم الاعتداد بها.

(١) انظر: المفردات (مادة: خوض) ص ٣٠٢.

(٢) راجع كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة في الأضواء (٣/٤٩٣)، دفع إيهام الاضطراب ص ١٥١، معارج الصعود إلى تفسير سورة هود ص ٦٩.

(٣) انظر المفردات (مادة: حبط) ص ٢١٦، معارج الصعود إلى تفسير سورة هود ص ٧١.

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٦) أي: المغبونون حظوظهم من الله (جل وعلا). ومن غُبن في حظه من خالقه فهو الذي خسر الخسران المبين - والعياذ بالله (جل وعلا) - وهذا الخسران أقسم الله في آيات من كتابه أنه لا ينجو منه إنسان إلا بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، حيث قال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرُ ﴾ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿ ٢ ﴾ ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ ﴾ معناه: أن كل إنسان كائناً من كان لفي خسر ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: الآيات ١ - ٣].

وقد قدمنا<sup>(١)</sup> أن بعض العلماء ضربوا لهذا الخسران المذكور في القرآن بكثرة، ضربوا له مثلين:

أحدهما: أنكم تعلمون أولاً أن الخسران نقصان مال التاجر الذي يحركه لإرادة الربح، سواء كان النقص في الربح أو في رأس المال، والله (جل وعلا) أعطى كل إنسان كائناً من كان أعطاه رأس مال، وأمره بالتجارة مع الله فيه، ورأس المال هذا هو الجواهر النفيسة التي لا مثل لها في الدنيا يشبهها ألبتة، ألا وهي ساعات العمر، فالجواهر العظيمة هي أصل مال كل إنسان هي دقائق عمره وثوابه وساعاته، هذا رأس المال، أعطاه الله لكل معمر، أعطاه عمراً في الدنيا وأمره أن يحرك رأس هذا المال مع عظيم كريم شديد الوفاء، وسمى معاملة العبد لربه بالتجارة معه برأس هذا المال الذي هو ساعات العمر وأيامه سماها بيعاً، وسماها شراء، وسماها تجارة، وسماها قرضاً، أما تسميتها بيعاً وشراء فقد نصَّ الله عليه في هذه السورة الكريمة

(١) مضى عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

— سورة براءة — في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية ١١١] وسماه تجارة في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية [الصف: الآيتان ١٠، ١١] ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَكُونُ﴾ ﴿٢٩﴾ [فاطر: الآية ٢٩]، وسماه قرضاً في آيات كثيرة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: الآية ٢٤٥] ونحوها من الآيات. فإذا كان الإنسان عاقلاً لبقاً كيساً. يفهم عن الله استعمل رأس هذا المال وحركه تحريكاً سديداً بانتظام على ضوء ما جاء به الرسول ﷺ فإذا اتجر مع الله في ساعات عمره وأيامه ولياليه ودقائقه وثوانيه، نظر في الأوقات التي تتوجه إليه فيها أوامر من السماء من رب العالمين فاشترى نفسه وما عند الله من الجزاء بامثال تلك الأوامر وتلك النواهي، ونظر في الأوقات التي لم تجب فيها أوامر معينة فاستكثر من الخير بحسب استطاعته، وكف أذاه وشره، وكف جوارحه عن معاصي الله، فإذا حرك رأس هذا المال وهي ساعات هذا العمر وأيامه تحريكاً سديداً فيما يرضي الله ربح من رأس هذا المال مجاورة رب غير غضبان، والحدود والجنان، ونعيمياً لا ينفد، ومجاورة رب غير غضبان، والنظر إلى وجه الله الكريم، فهذا هو الرابع حقاً، فهي التجارة الرابعة، وإذا كان المسكين سفيهاً لا يدري ما قيمة رأس هذا المال الذي عنده كالجاهل الذي يجد الياقوتة فيلقبها في المزبلة لا يلقي لها بالاً، وضيع رأس هذا المال، وضيع أوقاته في قيل وقال، وألعاب وملاهي، وربما كان في معصية الله، حتى انتهى رأس المال والساعات المقررة له، وفاتت الفرصة، وضاع الأوان، جاء الندم حيث لا ينفع الندم، وجُر إلى

القبر وقد ضيع رأس المال، ومن ضيع رأس المال فالتجارة أضيع، وهذا هو الخاسر الخسران المبين تماماً؛ لأن الآخرة دار لا تصلح للفقراء ولا للمفاليس من الحسنات؛ لأنها دار لا إرفاق فيها ولا خلة ولا شفاعاة ولا بيع، ليس للإنسان فيها إلا ما قدم، فالمضيع لرأس هذا المال - أيام الدنيا في إمكان الفرصة - هو الخاسر كل الخسران - والعياذ بالله - ولا سيما الذي يضيعها ويفنيها في معاصي الله (جل وعلا) وفي محادة خالقه، ويستعمل نعمه في ما يسخطه ويغضبه (جل وعلا). هذا أحد المثليين اللذين ضربهما العلماء للخسران المذكور بالقرآن.

الثاني: قال بعض العلماء: إنه جاء حديث<sup>(١)</sup> عن النبي ﷺ [أن لكل إنسان]<sup>(٢)</sup> منزلاً بالجنة ومنزلاً بالنار، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أطلع أهل الجنة على مساكنهم في النار لو كانوا كفروا وعصوا الله ليزداد بذلك سرورهم وغبطتهم، وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣]. ويطلع الكفار على مساكنهم في الجنة لو أنهم أطاعوا الله وآمنوا بالله ورسوله لتزداد ندامتهم وحسرتهم - والعياذ بالله - وبعد ذلك تصير منازل أهل الجنة في النار لأهل النار، ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، ومن استبدل منزله في الجنة بمنزل غيره في النار فصفقته خاسرة كما ترى، قال هذا بعض العلماء. وهذا معنى قوله: ﴿حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: الآية ٦٩].

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

(٢) في هذا الموضوع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَأْتِينَتْ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة: الآية ٧٠].

لما قال (جل وعلا): ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ وبين أن الكفار بأنواعهم في زمن النبي ﷺ فعلوا كما فعل كفار الأمم الماضية، وهددهم أن ينزل بهم مثل ما أنزل بهم ذكر بعضاً من تلك الأمم الماضية التي أجملت في قوله: ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ ذكر منها أمثلة يكثر ذكرها في القرآن العظيم؛ لأن الرسل كثير منها ذكره الله وقص خبره، وبعضه لم يذكره ولم يقص خبره، وبعض الأمم لا يعلم تاريخه إلا الله وحده؛ لأن الله يقول في الرسل: ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: الآية ٧٨]، ويقول في الأمم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ يَأْتِينَتْ ﴾ الآية [إبراهيم: الآية ٩].

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ قدمنا قريباً الوجهين المذكورين في ﴿ أَلَمْ ﴾ إذا جاءت مع المضارع. ألم يأت هؤلاء الكفرة الفاعلين مثل ما فعلت الأمم المتقدمة؟ ألم يبلغهم ما فعلنا بهم من النكال والعذاب المستأصل ليكون ذلك رادعاً لهم وزاجراً عن أن يعملوا مثل عملهم؟ ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾.

﴿النبأ﴾ في لغة العرب أخص من الخبر، فكل نبأ خبر، وليس كل خبر نبأ، لأن العرب لا تكاد تطلق في لغتها النبأ إلا على الخبر

الذي له خطب وشأن<sup>(١)</sup>، فالنبا ليس كل خبر يُسمى نبا، وإنما النبا الخبر الذي له أهمية، وله خطب وشأن، فلو قلت: «جاءنا نبا الجيوش، وجاءنا نبا ما وقع من الزلازل والبلايا، أو كذا من الأمور العظام»، لكان ذلك من لغة العرب، ولو قلت: «جاءنا نبا عن حمار الحجام» لما كان هذا من كلام العرب، لأن هذا لا أهمية له. أي: خبر ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ لم يذكر في القرآن اسم قوم نوح إلا بقوله: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وقد بين الله قصة قوم نوح وشرحها في آيات كثيرة من كتابه، ذكر طغيانهم وتمردهم، وشدة عصيانهم لنبي الله، وطول مكثه فيهم وهم لا يزدادون إلا عتوا، فأهلكهم الله هلاكاً مستأصلاً، وهذا ذكره الله في آيات كثيرة مشهورة، كقوله: ﴿وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفرقان: الآية ٣٧]. وكقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ١٤]. وكقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [١٠] ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ﴾ [١١] ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ [١٧] [القمر: الآيات ١٠ - ١٢]. والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقد بين تعالى في سورة نوح شدة عناد قومه، وشدة معالجتهم لهم وصبره عليهم في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [٥] ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [٦] ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ [٧] إلى آخر الآيات [نوح: الآيات ٥ - ٧]. حتى دعا عليهم نبي الله نوح،

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

وطلب ربه والتجأ إليه في أهلاكهم فأهلكهم ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ [الصفات: الآية ٧٥]، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٧٦﴾ [الشعراء: الآية ١٧٠] ونحوها من الآيات، وقد قال نوح: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاِجْرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ [الآيات [نوح: الآيتان ٢٦، ٢٧]، وما دعا عليهم نوح حتى أوحى الله إليه أنه لا يؤمن منهم أحد، وأن الأمل في الخير منهم انقطع في قوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود: الآية ٣٦] فعند ذلك دعا عليهم.

﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أرسل إبراهيم إلى نمرود وقومه في سواد العراق، وقد صرح الله بأنه أرسل إبراهيم كما صرح بذلك في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [الحديد: الآية ٢٦]، وذكر الله تفاصيل قصته مع قومه في آيات كثيرة، وبين أنه جاء إلى قوم يدعوهم إلى التوحيد في سورة العنكبوت في قوله مصحوباً بقصة نوح: ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَجْنَبْنَاهُ وَصَحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ [العنكبوت: الآيتان ١٤، ١٥]، ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ أي: وأرسلنا إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقَرُوا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ [العنكبوت: الآيات ١٦ - ٢٤] وقد أمر الله نبيه أن يتلو على هذه الأمة قصة إبراهيم مع قومه في سورة الشعراء في قوله: ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّهَا عَنْكُمِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿١٩﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا بَلْ

وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ  
 الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴿الشعراء: الآيات ٦٩ -  
 ٧٧﴾، وقال: ﴿ \* \* \* \* \* ﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ  
 قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا  
 عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا  
 بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ . . . ﴿ إلى قوله: ﴿ \* \* \* \* \* ﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى  
 إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴿الأنبياء: الآيات  
 ٥١ - ٧٠﴾، وهؤلاء قوم إبراهيم كذبوه وأهلكهم الله (جل وعلا) قال  
 بعض العلماء: أشار الله إلى إهلاكهم في سورة النحل بقوله: ﴿ فَخَرَّ  
 عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾  
 [النحل: الآية ٢٦] كما سيأتي بيانه في سورة النحل - إن شاء الله  
 تعالى - .

وقوله: ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ هم قوم شعيب، واعلم أن  
 العلماء اختلفوا في أصحاب مدين هل هم أصحاب الأيكة؟ وعليه  
 فشعيب أرسل لأمة واحدة، أو أصحاب مدين غير أصحاب الظلة؟  
 فيكون شعيب أرسل إلى أمتين<sup>(١)</sup> .

﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ بين الله تمردهم وكذبهم، ونقصهم في  
 المكيال والميزان، وتمردهم على شعيب، وقولهم له: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ  
 يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف:  
 الآية ٨٨] وبين طغيانهم وكفرهم، وقطعهم للطريق، ونقصهم  
 المكيال والميزان في آيات كثيرة من كتاب الله، وبين مصيرهم

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٥) من سورة الأعراف.

في آيات، كقوله في سورة هود فيهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعْبَاءٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ وهم مدين بلا نزاع ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِينًا﴾ (١١) ﴿كَانَ لَرِغْنُوا فِيهَا أَلَا بَعْدَ لَمَدَيْنَ كَمَا بَعَدَتْ نَمُودُ﴾ (١٥) ﴿[هود: الآيتان ٩٤، ٩٥] والآيات في مثل هذا معروفة، وهذا معنى قوله: ﴿وَقَوْمٍ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ المؤتفكات: هي قرى قوم لوط، وهي المذكورة في قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: الآية ٥٣] وقد قدمنا<sup>(١)</sup> أن (الأفك) في لغة العرب معناه قلب الشيء، وسُمي أسوأ الكذب إفكاً لأنه قلب للحقيقة عن وجهها الصحيح إلى وجهها الباطل، وإنما قيل لقرى قومه ﴿الْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ وسُميت (المؤتفكة) لأن جبريل - عليه السلام - أفكها أي قلبها حيث اقتلعها من الأرض ورفعها إلى السماء، وجعل أعلاها أسفلها، فمعنى اثتفاكها أوضحه الله بقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: الآية ٧٤] فما جعل عاليه سافله فقد أفك ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ أي: المجمعول أعلاها أسفلها؛ لأن الملك قلبها، كما صرح به بقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ وهذا معنى قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾.

﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ورسلمهم معروفون، فكذبوا الرسل فأهلكهم الله ودمرهم بالإهلاك المستأصل، وعذبهم في الآخرة.

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ هذه اللام هي التي يسميها علماء العربية (لام الجحود)، وهي بعد الكون المنفي خاصة، والمضارع

(١) راجع تفسير الآية (٨٠، ١١٧) من سورة الأعراف، والآية (٥٤) من سورة الأنفال، والآية (٣٠) من سورة التوبة.

بعدها منصوب بـ (أن) مضمرة<sup>(١)</sup>، يعني: ما كان الله مريداً لأن يظلمهم، أو مقدرأ لأن يظلمهم، أو نحو ذلك.

﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة: الآية ٧٠] لأن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا ﴾ [النساء: الآية ٤٠]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: الآية ٤٤]، ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾، وفي القراءة الأخرى<sup>(٢)</sup>: ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ ﴿ أَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧]، وهذا معنى قوله: ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) انظر: مغني اللبيب (١/١٧٧)، معجم الإعراب والإملاء ص ٣٥٤.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٠٢.

(٣) هذا آخر ما وُجد من دروس التفسير المسجلة، والحمد لله رب العالمين.



## ثبت مصادر التعليق

- ١ - الآحاد والمثاني: ابن أبي عاصم. تحقيق: باسم الجوابرة. ط: دار الراجعية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ٢ - آداب البحث والمناظرة: محمد الأمين الشنقيطي. ط: شركة المدينة للطباعة والنشر، جدة.
- ٣ - آداب الزفاف في السنة المطهرة: محمد ناصر الدين الألباني. المكتبة الإسلامية، الأردن - عمان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٤ - الآداب الشرعية والمنح المرعية: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي. ط: مؤسسة قرطبة، القاهرة.
- ٥ - الآيات البينات: أحمد بن قاسم العبادي الشافعي. تحقيق: زكريا عميرات. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٦ - الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير: الحسين بن إبراهيم الجوزقاني. تحقيق: عبد الرحمن الفيروائي. ط: المطبعة السلفية بنارس. الناشر: إدارة البحوث الإسلامية، بالجامعة السلفية بنارس؛ الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٧ - الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة: عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري. تحقيق: رضا نعيان معطي، دار الراجعية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

- ٨ - إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة: حمود بن عبد الله التويجري. دار الصمعي، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ٩ - إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: أحمد بن محمد البنا. تحقيق: شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ١٠ - إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني. ط: مجمع الملك فهد ومركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
- ١١ - الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: المكتبة العصرية، بيروت، (١٤٠٧هـ).
- ١٢ - أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء: مصطفى سعيد الخن. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٤٠٢هـ).
- ١٣ - الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة: بدر الدين الزركشي. تحقيق: سعيد الأفغاني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٠هـ).
- ١٤ - الأحاديث المختارة: ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي. تحقيق: عبد الملك بن دهيش. ط: مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ١٥ - الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر: حمود بن عبد الله التويجري. ط: مكتبة دار العليان، بريدة، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ).
- ١٦ - الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان: علاء الدين علي بن بلبان الفارسي. قدم له وضبط نصه: كمال يوسف الحوت. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤٠٧هـ).

- ١٧ - أحكام أهل الذمة: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: صبحي الصالح. ط: دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٩٨٣م).
- ١٨ - أحكام الجنائز وبدعها: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ١٩ - إحكام الفصول في أحكام الأصول: أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي. تحقيق: عبد الله محمد الجبوري. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤٠٩هـ).
- ٢٠ - الإحكام في أصول الأحكام: أبو محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري. تحقيق: أحمد شاكر. مطبعة العاصمة، القاهرة.
- ٢١ - أحكام القرآن: محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: دار المعرفة، لبنان.
- ٢٢ - أدب الكاتب: عبد الله بن مسلم بن قتيبة. تحقيق: محمد الدالي. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).
- ٢٣ - الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل البخاري. ترتيب: كمال يوسف الحوت. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٢٤ - الأذكار: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: بشر بن محمد بن عيون. ط: مكتبة المؤيد، الطائف، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٢٥ - إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: عبد الباري السلفي. ط: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٢٦ - إرواء الغليل: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).

٢٧ - أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. تحقيق: عصام الحميدان. دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

٢٨ - أسباب النزول: جلال الدين السيوطي. ط: دار ابن قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٢٩ - الاستذكار: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر. تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي. ط: دار قتيبة للطباعة والنشر ودار الوعي، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

٣٠ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٢٨هـ).

٣١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة: عز الدين بن الأثير. تحقيق: محمد إبراهيم البناء، محمد أحمد عاشور. ط: دار الشعب.

٣٢ - أسرار البلاغة في علم البيان: عبد القاهر الجرجاني. تحقيق: محمد رشيد رضا. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٣٣ - الأسماء والصفات: البيهقي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.

٣٤ - أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب: محمد درويش الحوت. دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤٠٣هـ).

٣٥ - الأشباه والنظائر: جلال الدين السيوطي. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. ط: مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، (١٣٩٥هـ).

٣٦ - أشراف الساعة: يوسف بن عبد الله الوايل. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

- ٣٧ - الإصابة في تمييز الصحابة: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٢٨هـ).
- ٣٨ - إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: الحسين بن محمد الدامغاني. تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل. ط: دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، بيروت، (١٩٨٥م).
- ٣٩ - الأصنام: هشام بن محمد الكلبي. تحقيق: أحمد زكي. مصورة عن طبعة دار الكتب سنة (١٣٤٣هـ). الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
- ٤٠ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.
- ٤١ - الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. صححه: أحمد محمد مرسى. ط: المطبعة العربية، باكستان.
- ٤٢ - الأعلام: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٩٨٠م).
- ٤٣ - إعلام الساجد بأحكام المساجد: محمد بن عبد الله الزركشي. تحقيق: مصطفى المراغي. الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).
- ٤٤ - إعلام الموقعين عن رب العالمين: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، (١٩٧٣م).
- ٤٥ - أعلام النساء: عمر رضا كحالة. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٧هـ).
- ٤٦ - الأغاني: عبد الستار أحمد فراج. ط: دار الثقافة، بيروت.

- ٤٧ - الاقتصاد في الاعتقاد: الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٤٨ - اقتضاء الصراط المستقيم: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. تحقيق: ناصر العقل. توزيع: وزارة الشؤون الإسلامية. الطبعة السابعة، (١٤١٩هـ).
- ٤٩ - الإقناع في القراءات السبع: أبو جعفر أحمد بن علي ابن الباذش. تحقيق: عبد المجيد قطامش. ط: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٥٠ - الإكسير في علم التفسير: سليمان بن عبد القوي الصرصري البغدادي. تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة.
- ٥١ - إكمال الإعلام بتلخيص الكلام: محمد بن عبد الله بن مالك الجبائي. تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي. ط: مكتبة المدني، الطبعة الأولى، جدة، (١٤٠٤هـ).
- ٥٢ - إكمال إكمال المعلم: أبو عبد الله الأبي. ط: مكتبة طبرية، الرياض.
- ٥٣ - ألفية ابن مالك (الخلاصة): محمد بن عبد الله بن مالك. ط: دار طيبة للنشر، الطبعة الثانية، (١٤٠٩هـ).
- ٥٤ - الأم: محمد إدريس الشافعي. ط: دار المعرفة، لبنان.
- ٥٥ - الأمالي: أبو علي القالي. ط: دار الكتاب العربي، لبنان.
- ٥٦ - الأمثال: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: عبد المجيد قطامش. ط: دار المأمون، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ).
- ٥٧ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه: خالد بن عثمان السبت. ط: المنتدى الإسلامي، الطبعة الأولى، لندن، (١٤١٥هـ).

- ٥٨ - الأموال: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: محمد خليل هراس. ط: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ).
- ٥٩ - الأنساب: عبد الكريم بن محمد السمعاني. تحقيق: عبد الله البارودي. ط: الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٦٠ - الإنصاف: علاء الدين أبو الحسن بن سليمان المرداوي. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٧٦هـ).
- ٦١ - أهل الفترة ومن في حكمهم: موفق أحمد شكري. ط: مؤسسة علوم القرآن، عجمان، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٦٢ - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف: محمد بن إبراهيم بن المنذر. ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٦٣ - إثبات الحق على الخلق: أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليماني. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٦٤ - الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني. ط: الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٦٥ - الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه: مكّي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: أحمد حسن فرحات. ط: دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٦٦ - إيضاح المبهم من معاني السلم: أحمد بن عبد المنعم الدمهوري. تحقيق: عبد الجليل العطا البكري. ط: مكتبة البيروتية، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).
- ٦٧ - الإيمان: أبو بكر عبد الله محمد بن أبي شيبة. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: دار الأرقم، الكويت.

- ٦٨ - الإيمان: أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ).
- ٦٩ - الإيمان: محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده. تحقيق: علي بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ).
- ٧٠ - الإيمان: محمد بن يحيى العدني. تحقيق: حمد الحربي. ط: الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٧١ - الإيمان الأوسط: أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة. توزيع: مكتبة الفرقان ومكتبة الإيمان.
- ٧٢ - الإيمان ومعالمه وسنته: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: الألباني. مطبعة المدني، مصر.
- ٧٣ - البحر المحيط: محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي الغرناطي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).
- ٧٤ - البحر المحيط في أصول الفقه: بدر الدين محمد بن بهادر الشافعي الزركشي. تحقيق: عبد الستار أبو غدة. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).
- ٧٥ - بدائع الصنائع: لأبي بكر بن مسعود الكاساني. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).
- ٧٦ - بدائع الفوائد: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. دار الفكر، بيروت.
- ٧٧ - البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠١هـ).
- ٧٨ - البدع والنهي عنها: محمد بن وضّاح القرطبي. تحقيق: محمد أحمد دهمان. دار الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

- ٧٩ - البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي. ط: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٨٠ - البرهان في أصول الفقه: أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني. تحقيق: عبد العظيم محمود الديب. ط: دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، المنصورة، (١٤١٢هـ).
- ٨١ - البرهان في توجيه متشابه القرآن: محمود بن حمزة الكرمانى. تحقيق: عبد القادر عطا. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٨٢ - البرهان في علوم القرآن: محمد عبد الله الزركشي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية، (١٣٩١هـ).
- ٨٣ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.
- ٨٤ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: محمود شكري الألوسي. تحقيق: محمد الأثري. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.
- ٨٥ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام: ابن حجر العسقلاني. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.
- ٨٦ - البهجة في شرح التحفة: أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي. ط: مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، (١٣٧٠هـ). وكذا: طبعة دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٧هـ).

- ٨٧ — بهجة المجالس وأنس المجالس: أبو عمرو يوسف بن عبد البر. تحقيق: محمد مرسي الخولي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٨٨ — البيان والتبيين: أبو عثمان الجاحظ. تحقيق: عبد السلام هارون. ط: دار الجيل، بيروت.
- ٨٩ — تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الزبيدي. دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ٩٠ — تاريخ الأمم والملوك: ابن جرير الطبري. ط: دار الفكر، (١٣٩٩هـ).
- ٩١ — تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي. ط: دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٩٢ — التاريخ الكبير: إسماعيل بن إبراهيم البخاري. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.
- ٩٣ — تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة. تحقيق: السيد أحمد صقر. المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ).
- ٩٤ — التبصرة في أصول الفقه: إبراهيم بن علي الشيرازي. تحقيق: محمد حسن هيتو. ط: دار الفكر، دمشق، (١٤٠٠هـ).
- ٩٥ — التبيان في أقسام القرآن: شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية. صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي. ط: دار المعرفة، بيروت.
- ٩٦ — التبيان في شرح الديوان: أبو البقاء العكبري. تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأنباري، وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت.
- ٩٧ — التحرير والتنوير: محمد الطاهر ابن عاشور. ط: الدار التونسية للنشر.
- ٩٨ — تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج: عمر بن علي المعروف بابن الملقن. تحقيق: عبد الله بن سعاف اللحياني. ط: دار حراء للنشر، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

- ٩٩ - تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني: أبو محمد عبد الله بن يحيى الغساني. تحقيق: أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم. ط: دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ١٠٠ - تخريج أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد: فريح بن صالح البهلال. دار الأثر، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
- ١٠١ - تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري: أبو محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي. تحقيق: سلطان بن فهد الطبيشي. ط: دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ١٠٢ - تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد: عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري. تحقيق: عباس مصطفى الصالحي. ط: دار الكتاب العربي، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ١٠٣ - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق: عبد الوهاب بن عبد اللطيف. ط: المكتبة السلفية.
- ١٠٤ - تذكرة الأريب في تفسير الغريب: أبو الفرج ابن الجوزي. تحقيق: علي حسين البواب. ط: مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤٠٧هـ).
- ١٠٥ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. ط: دار الفكر، لبنان.
- ١٠٦ - التراتيب الإدارية: عبد الحي الكتاني. ط: دار الكتاب العربي، بيروت.
- ١٠٧ - تسهيل المنطق: عبد الكريم بن مراد الأثري. ط: سجل العرب، الطبعة الثانية، (١٩٨٤م).

- ١٠٨ - التعريفات: علي بن محمد الجرجاني. تحقيق: عبد الرحمن عميرة. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ١٠٩ - تعظيم قدر الصلاة: محمد بن نصر المروزي. تحقيق: عبد الرحمن الفيروزآبادي، مكتبة الدار، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ١١٠ - تغليق التعليق على صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: سعيد عبد الرحمن موسى القزقي. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ١١١ - تفسير سورة النور: محمد الأمين بن محمد الشنقيطي. عناية: عبد الله بن أحمد الأهدل. ط: دار المجتمع للنشر، جدة، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).
- ١١٢ - التفسير الصحيح: حكمت بشير. ط: دار المآثر، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).
- ١١٣ - تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم): عبد الرحمن بن محمد ابن إدريس (ابن أبي حاتم). تحقيق: أسعد محمد الطيب. ط: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).
- ١١٤ - تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. ط: دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٢هـ).
- ١١٥ - تفسير مبهمات القرآن: أبو عبد الله محمد بن علي البنلنسي. تحقيق: حنيف بن حسن القاسمي. ط: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤١١هـ).
- ١١٦ - تفسير المشكل من غريب القرآن: مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: علي حسين البواب. ط: مكتبة المعارف، الرياض، (١٤٠٦هـ).

- ١١٧ - تفسير المنار: محمد رشيد رضا. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.
- ١١٨ - تفسير النصوص في الفقه الإسلامي: محمد أديب صالح. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٤٠٤هـ).
- ١١٩ - تقريب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: صغير أحمد شاغف الباكستاني. ط: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ١٢٠ - التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. تحقيق: عبد الله هاشم اليماني المدني.
- ١٢١ - تلخيص كتاب الاستغاثة: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية. ط: الدار العلمية، الهند، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).
- ١٢٢ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد بن عبد الكبير البكري. ط: المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).
- ١٢٣ - تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق: محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي. تحقيق: عامر حسن صبري. ط: المكتبة الحديثة، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ١٢٤ - التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني. ط: حديث أكاديمي، فيصل آباد، باكستان، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).
- ١٢٥ - تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

- ١٢٦ - تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ١٢٧ - تهذيب سنن أبي داود: ابن القيم الجوزية. تعليق: محمد حامد الفقي. ط: دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٠هـ).
- ١٢٨ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال: أبو الحجاج يوسف المزي. تحقيق: بشار عواد معروف. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).
- ١٢٩ - تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار القومية العربية للطباعة، (١٣٨٤هـ).
- ١٣٠ - توضيح النحو: عبد العزيز محمد فاخر.
- ١٣١ - التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل: محمد بن عبد العزيز النجار، الطبعة الثانية، (١٣٩٩هـ).
- ١٣٢ - تيسير التحرير: محمد أمين المعروف بأمير بادشاه. ط: دار الكتب العلمية، لبنان. الناشر: دار الباز، مكة المكرمة.
- ١٣٣ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي. ط: المطبعة السلفية.
- ١٣٤ - جامع الأصول في أحاديث الرسول: المبارك بن محمد بن الأثير الجزري. تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط. ط: دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت، (١٤٠٣هـ).
- ١٣٥ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. تحقيق: محمود وأحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ومكتبة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثالثة، (١٣٨٨هـ).

- ١٣٦ - جامع بيان العلم وفضله: أبو عمر يوسف بن عبد البر. تحقيق: أبو الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ١٣٧ - جامع التحصيل في أحكام المراسيل: خليل العلائي. تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. ط: الدار العربية، الطبعة الأولى، (١٣٩٨هـ).
- ١٣٨ - جامع التفسير من كتب الأحاديث: أشرف على إخراجه: خالد آل عقدة. ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ).
- ١٣٩ - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم: أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي. تحقيق: طارق عوض الله، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
- ١٤٠ - الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٩٦٥م).
- ١٤١ - الجامع لشعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: مختار أحمد الندوي. الدار السلفية، بومباي، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ١٤٢ - الجدل على طريقة الفقهاء: أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الحنبلي. الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مصر.
- ١٤٣ - الجهل بمسائل الاعتقاد وحكمه: عبد الرزاق بن طاهر بن أحمد معاش. ط: دار الوطن، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤١٧هـ).
- ١٤٤ - الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم: محمد بن إبراهيم آل الشيخ. مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، (١٣٦٩هـ).

- ١٤٥ - جواهر البلاغة في المعاني والبيان البديع: السيد أحمد الهاشمي . ط: دار الكتب، بيروت.
- ١٤٦ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية الزرعي الدمشقي، دار الفكر، بيروت.
- ١٤٧ - حاشية البناني على جمع الجوامع: ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية، (١٣٥٦هـ).
- ١٤٨ - حاشية الروض المربع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم . ط: المطابع الأهلية، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).
- ١٤٩ - حاشية محمد علي الصبان على شرح علي بن محمد الأشموني لألفية ابن مالك. دار الفكر، بيروت.
- ١٥٠ - الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة: إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني. تحقيق: محمد بن ربيع. دار الراجعية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ١٥١ - حجة القراءات: أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة. تحقيق: سعيد الأفغاني. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٤هـ).
- ١٥٢ - حجج القرآن: أحمد بن محمد الرازي. ط: دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).
- ١٥٣ - الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين: هادي عطية مطر الهلالي. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ١٥٤ - حصول الأجر في أحكام وفضائل العمل في أيام العشر: سعود الخماس. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ).

- ١٥٥ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٥٦ - حلية الفقهاء: أبو الحسين أحمد بن فارس. تحقيق: عبد الله التركي. ط: الشركة المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ١٥٧ - الحماسة: الوليد بن عبيد البحر. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٨٧هـ).
- ١٥٨ - حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين الدميري. المكتبة الإسلامية، بيروت.
- ١٥٩ - الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط: مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية.
- ١٦٠ - خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي. ط: دار صادر، بيروت.
- ١٦١ - الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق: محمد علي النجار. دار الكتاب العربي، بيروت.
- ١٦٢ - الخصائص الكبرى: جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد خليل الهراس. مطبعة المدين، مصر، دار الكتب الحديثة، مصر.
- ١٦٣ - خلاصة البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير: سراج الدين عمر بن علي بن الملقن. تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).
- ١٦٤ - درء تعارض العقل والنقل: أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).

- ١٦٥ - الدراية في تخريج أحاديث الهداية: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. تحقيق: عبد الله هاشم اليماني المدني. ط: دار المعرفة، بيروت.
- ١٦٦ - درة التنزيل وُغرة التأويل: محمد بن عبد الله الإسكافي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ١٦٧ - الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة: جلال الدين السيوطي. تحقيق: خليل محيي الدين الميس، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ١٦٨ - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي. تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ١٦٩ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت.
- ١٧٠ - الدعاء المأثور وآدابه وما يجب على الداعي اتباعه واجتنابه: أبو بكر الطرطوشي الأندلسي. تحقيق: محمد رضوان الداية. ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ١٧١ - دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب: محمد الأمين الشنقيطي (مطبوع في آخر أضواء البيان).
- ١٧٢ - دلائل النبوة: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: عبدالمعطي قلعجي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ١٧٣ - ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس: تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

- ١٧٤ - ديوان الأقيشر الأسدي: تحقيق: محمد علي دقه. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٧م).
- ١٧٥ - ديوان امرىء القيس: تحقيق: مصطفى عبد الشافي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ١٧٦ - ديوان أوس بن حجر: شرح محمد بن يوسف نجم. الطبعة الثالثة، (١٣٩٩هـ).
- ١٧٧ - ديوان البحري: ط: دار بيروت للطباعة والنشر، (١٤٠٨هـ).
- ١٧٨ - ديوان بشار بن برد: شرح وتكميل محمد الطاهر بن عاشور. ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (١٣٨٦هـ).
- ١٧٩ - ديوان تأبط شراً: تحقيق: طلال حرب. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).
- ١٨٠ - ديوان حاتم الطائي: شرحه: أحمد رشاد. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ١٨١ - ديوان حسان بن ثابت: تحقيق: عبد الأمير مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ١٨٢ - ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت: تحقيق: نعمان محمد أمين طه. ط: مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ). وكذا: بشرح أبي سعيد السكري. ط: دار صادر.
- ١٨٣ - ديوان حميد بن ثور الهلالي: صنعه: عبد العزيز الميمني. ط: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٧١هـ).
- ١٨٤ - ديوان ابن دريد: تحقيق: عمر بن سالم. ط: الدار التونسية، (١٩٧٣م).
- ١٨٥ - ديوان أبي دلالة الأسدي: إعداد: رشدي علي حسن. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤٠٦هـ).

- ١٨٦ — ديوان الراعي النميري: شرح واضح الصمد. ط: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ١٨٧ — ديوان ابن الرومي: شرح وتحقيق: عبد الأمير علي مهنا. ط: دار مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ١٨٨ — ديوان ابن الرومي: تحقيق: حسين نصار.
- ١٨٩ — ديوان زهير بن أبي سلمى: ط: دار صادر.
- ١٩٠ — ديوان شعر ذي الرمة: تعليق: زهير فتح الله. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٥م).
- ١٩١ — ديوان الشنفرى: ط: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).
- ١٩٢ — ديوان طرفة بن العبد: تحقيق: درية الخطيب. مطبوعات مجمع اللغة العربية، مطبعة دار الكتاب، (١٣٩٥هـ).
- ١٩٣ — ديوان الطرماح: تحقيق: عزة حسن. ط: دار الشرق العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ).
- ١٩٤ — ديوان العباس بن مرداس: تحقيق: يحيى الجبوري. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ١٩٥ — ديوان عبيد بن الأبرص: تحقيق: حسين نصار، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٧٧هـ).
- ١٩٦ — ديوان عروة بن حزام: تحقيق: أنطوان محسن القوال، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ١٩٧ — ديوان علقمة بن عبدة: شرح: سعيد نسيب مكارم. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).
- ١٩٨ — ديوان علي بن أبي طالب: جمعه: حسين الأعلمي. الناشر: مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).

- ١٩٩ - ديوان عمر بن أبي ربيعة: ط: الهيئة المصرية العامة، (١٩٧٨م).  
وكذا: ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٢٠٠ - ديوان أبي فراس: ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٢٠١ - ديوان قيس بن الخطيم: تحقيق: ناصر الدين الأسد. ط: دار صادر،  
الطبعة الثالثة، (١٤١١هـ).
- ٢٠٢ - ديوان كثير عزة: شرح قدرى مايو. ط: دار الجيل، بيروت، الطبعة  
الأولى، (١٤١٦هـ).
- ٢٠٣ - ديوان ليبد بن ربيعة: ط: دار صادر، بيروت، (١٣٨٦هـ).
- ٢٠٤ - ديوان المثقب العبدى: شرح حسن حمد. ط: دار صادر، الطبعة  
الأولى، (١٩٩٦م).
- ٢٠٥ - ديوان مجنون ليلى: شرح عدنان زكي درويش. ط: دار صادر،  
(١٤١٤هـ).
- ٢٠٦ - ديوان مهلهل بن ربيعة: عناية: طلال بن حرب. ط: الدار العالمية  
للطباعة والنشر، بيروت، (١٤١٣هـ).
- ٢٠٧ - ديوان النابغة الجعدي: تحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب  
العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٢٠٨ - ديوان أبي نواس: شرح: عمر فاروق الطباع. ط: شركة دار الأرقم،  
بيروت، (١٤١٨هـ).
- ٢٠٩ - ديوان أبي الوليد مسلم بن الوليد: ط: بريل، ليدن، (١٨٧٥م).
- ٢١٠ - ديوان يزيد بن معاوية: ط: المجمع العلمي بدمشق. تحقيق: سامي  
الدهان.
- ٢١١ - الرؤية: علي بن عمر الدارقطني. تحقيق: إبراهيم العلي وزميله. ط:  
مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

- ٢١٢ - الرد على الجهمية: عثمان بن سعيد الدارمي. تحقيق: زهير الشاويش وتخريج محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٢هـ).
- ٢١٣ - الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك: أبو العباس ابن تيمية الدمشقي. تحقيق: محمد بن عبد الله السمهوري، دار بلنسية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
- ٢١٤ - الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي: عبد المحسن العباد. ط: مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).
- ٢١٥ - الرسالة: محمد بن إدريس الشافعي. تحقيق: أحمد شاكر.
- ٢١٦ - الرسل والرسالات: عمر سليمان الأشقر. ط: مكتبة الفلاح، الطبعة الثالثة، الكويت، (١٤٠٥هـ).
- ٢١٧ - رصف المباني في شرح حروف المعاني: أحمد بن عبد النور المالقي. تحقيق: أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ٢١٨ - رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٢١٩ - الروح: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: السيد الجميلي. ط: دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٤٠٨هـ).
- ٢٢٠ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين الألوسي. ط: دار الفكر، بيروت.

- ٢٢١ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٢٢ - رياض الجنة بتخريج أصول السنة: محمد بن عبد الله الأندلسي (ابن أبي زمين). تحقيق: عبد الله البخاري. ط: مكتبة الغرباء، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
- ٢٢٣ - زاد المسير في علم التفسير: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٤هـ).
- ٢٢٤ - زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط. ط: مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثانية، (١٤٠١هـ).
- ٢٢٥ - الزهد: عبد الله بن المبارك المروزي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. ط: دار الكتب العلمية.
- ٢٢٦ - زهر الآداب وثمر الألباب: إبراهيم بن علي القيرواني. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية.
- ٢٢٧ - زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه: عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد. ط: مكتبة دار القلم والكتاب، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ٢٢٨ - السبعة في القراءات: لابن مجاهد. تحقيق: شوقي ضيف. دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.
- ٢٢٩ - سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام: محمد بن إسماعيل الصنعاني. تحقيق: محمد صبحي حلاق. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، (١٤٢١هـ).

- ٢٣٠ - سبل الهدى والرشاد: محمد بن يوسف الصالحي. تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ٢٣١ - سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني. (المجلد الأول والثاني) المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٥هـ)، (المجلد الثالث) نشر: الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ)، (المجلد الرابع) نشر: المكتبة الإسلامية، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ) (المجلد الخامس) مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٢٣٢ - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، (١٣٩٨هـ).
- ٢٣٣ - السنّة: عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني. تحقيق: الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ).
- ٢٣٤ - السنّة: محمد بن نصر المروزي. تحقيق: أبو محمد سالم بن أحمد السلفي. ط: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٢٣٥ - سنن الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. تحقيق: إبراهيم عطوة عوض. مطبعة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، (١٣٩٥هـ).
- ٢٣٦ - سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني. ط: حديث أكاديمي، نشاط أباد، فيصل أباد، باكستان.
- ٢٣٧ - سنن الدارمي: الدارمي. تخريج وتحقيق: السيد عبد الله بن هاشم اليماني. ط: حديث أكاديمي للنشر والتوزيع. باكستان، (١٤٠٤هـ).

- ٢٣٨ — سنن سعيد بن منصور: سعيد بن منصور. تحقيق: سعد بن عبد الله آل حميد. ط: دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).
- ٢٣٩ — السنن الكبرى: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: عبد الغفار البنداري، وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ٢٤٠ — السنن الكبرى: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. ط: دار المعرفة، بيروت.
- ٢٤١ — سنن النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٢٤٢ — سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وزملائه. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).
- ٢٤٣ — السيرة النبوية: أبو محمد عبد الملك بن هشام. تعليق جماعة من العلماء. ط: دار الفكر، القاهرة.
- ٢٤٤ — شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: دار إحياء الكتب العربية، ط: مطبعة البابي الحلبي.
- ٢٤٥ — شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي. تحقيق: أحمد سعد حمدان. ط: دار طيبة، الرياض.
- ٢٤٦ — شرح تنقيح الفصول: شهاب الدين أبو العباس القرافي. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. ط: مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر، الطبعة الأولى، (١٣٩٣هـ).
- ٢٤٧ — شرح الجلال شمس الدين محمد بن أحمد المحلي على متن جمع الجوامع: ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية.

- ٢٤٨ - شرح ديوان أبي تمام: شاهين عطية. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٢٤٩ - شرح ديوان جرير: مهدي محمد ناصر الدين. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ).
- ٢٥٠ - شرح ديوان الخنساء: تحقيق: عبد السلام الحوفي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٢٥١ - شرح ديوان زهير: أبو العباس ثعلب. تحقيق: فخر الدين قباة. ط: دار الآفاق، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).
- ٢٥٢ - شرح ديوان صريع الغواني: مسلم بن الوليد الأنصاري. تحقيق: سامي الدهان. ط: دار المعارف بمصر.
- ٢٥٣ - شرح ديوان أبي العتاهية: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٥٤ - شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة: عبد الأمير علي مهنا. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ).
- ٢٥٥ - شرح ديوان عنتره: (بدون مؤلف). ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٢٥٦ - شرح السنة: البغوي. تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٠هـ).
- ٢٥٧ - شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري.
- ٢٥٨ - شرح الشفا: الملا علي القاري. ط: الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٥٩ - شرح صحيح مسلم: محيي الدين النووي. تحقيق: عبد الله أحمد أبو زينة. ط: الشعب، القاهرة.

- ٢٦٠ - شرح العقيدة الطحاوية: علي بن علي بن محمد بن أبي العز. تحقيق: عبد الله التركي، شعيب الأرنؤوط. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).
- ٢٦١ - شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات: ابن النحاس، أحمد بن محمد المرادي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٢٦٢ - شرح قصيدة كعب بن زهير: جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري. تحقيق: الدكتور محمود حسن أبو ناجي. ط: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثالثة، دمشق، (١٤٠٤هـ).
- ٢٦٣ - شرح القصيدة الميمية: مصطفى عراقي. ط: مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ٢٦٤ - شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط: إحياء التراث، لبنان، (١٣٨٣هـ).
- ٢٦٥ - شرح القواعد الفقهية: أحمد الزرقاء. صححه وراجعته: عبد الستار أبو غدة. ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٢٦٦ - شرح الكافية الشافية: جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجبائي. تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي. ط: دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).
- ٢٦٧ - الشرح الكبير: شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر بن قدامة، دار الكتاب العربي، (١٣٩٢هـ).
- ٢٦٨ - شرح الكوكب المنير: محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحى الحنبلي. تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، دار الفكر، بيروت، (١٤٠٠هـ).

- ٢٦٩ - شرح مختصر الروضة: نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٢٧٠ - شرح معاني الآثار: أبو جعفر أحمد بن سلامة الطحاوي. تحقيق: محمد سيد جاد الحق. ط: الأنوار المحمدية، القاهرة.
- ٢٧١ - شرح مقامات الحريري: يوسف بقاعي. ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٨١م).
- ٢٧٢ - شرح منتهى الإرادات: منصور بن يونس البهوتي. ط: دار الفكر، بيروت.
- ٢٧٣ - شرح المواقف في علم الكلام: علي بن محمد الجرجاني. تحقيق: أحمد المهدي، مكتبة الأزهر.
- ٢٧٤ - الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام: يحيى الشامي، دار الفكر العربي، بيروت، (١٩٩٣م).
- ٢٧٥ - الشريعة: أبو بكر محمد بن الحسين الآجري. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: حديث أكادمي، باكستان، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٢٧٦ - شعر الدعوة الإسلامي في عهد النبوة والخلفاء الراشدين: جمعه وحققه: عبد الله الحامد. ط: دار الأصالة للثقافة والنشر، الطبعة الثانية، الرياض، (١٤٠٥هـ).
- ٢٧٧ - الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة. تحقيق: محمد عبد المنعم العمران، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٧هـ).
- ٢٧٨ - شعراء مقلون: حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

- ٢٧٩ - شعراء النصرانية قبل الإسلام: لويس شيخو. دار المشرق، الطبعة الثالثة، (١٩٦٧م)، المطبعة الكاثوليكية، (١٩٨٢م).
- ٢٨٠ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن القيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، (١٣٩٨هـ).
- ٢٨١ - شمائل الرسول ﷺ: ابن كثير. تحقيق: مصطفى عبد الواحد. دار القبلة، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٩هـ).
- ٢٨٢ - الصاحبى: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق: السيد أحمد صقر. مطبعة البابى الحلبي، القاهرة.
- ٢٨٣ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي. ط: كوستانتسوماس، القاهرة.
- ٢٨٤ - صحيح الجامع الصغير وزياداته: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ).
- ٢٨٥ - صحيح ابن خزيمة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة. تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).
- ٢٨٦ - صحيح سنن الترمذي باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٢٨٧ - صحيح سنن أبي داود باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٢٨٨ - صحيح سنن ابن ماجه: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٢٨٩ - صحيح سنن النسائي باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

- ٢٩٠ - صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، استانبول.
- ٢٩١ - الصواعق المرسله: شمس الدين ابن قيم الجوزية. تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله. ط: دار العاصمة، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤٠٨هـ).
- ٢٩٢ - الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة: أحمد بن حجر الهيثمي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٢٩٣ - ضعيف الجامع الصغير وزيادته: تأليف: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، (١٣٩٩هـ).
- ٢٩٤ - ضعيف سنن ابن ماجه: محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٢٩٥ - ضياء السالك إلى أوضح المسالك: محمد عبد العزيز النجار.
- ٢٩٦ - الطبقات الكبرى: محمد بن سعد (كاتب الواقدي). ط: دار التحرير، القاهرة، (١٣٨٨هـ).
- ٢٩٧ - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي المشهور بابن قيم الجوزية. راجعه: أحمد عبد الحلیم العسكري. ط: دار الفكر، بيروت.
- ٢٩٨ - طريق الهجرتين وباب السعادتین: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).
- ٢٩٩ - ظلال الجنة في تخريج السنة: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ).

- ٣٠٠ - العُجاب في بيان الأسباب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).
- ٣٠١ - العذب الفائض شرح عمدة الفارض: إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم الفرضي. ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، (١٣٧٢هـ).
- ٣٠٢ - العرف وأثره في التشريع الإسلامي: مصطفى عبد الرحيم أبو عجيلة. ط: المنشأة العامة، طرابلس، الطبعة الأولى، (١٣٩٥هـ).
- ٣٠٣ - عقد الدرر في أخبار المنتظر: يوسف بن يحيى المقدسي. تحقيق: مهيب بن صالح البوريني. مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٣٠٤ - العلل المتناهية في الأحاديث الواهية: عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: إرشاد الحق الأثري. إدارة ترجمان السنة، لاهور.
- ٣٠٥ - العلل الواردة في الأحاديث النبوية: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله السلفي. ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٣٠٦ - علماء ومفكرون عرفتهم: المؤلف: محمد المجذوب. ط: دار الاعتصام، الطبعة الثالثة، القاهرة.
- ٣٠٧ - عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: شهاب الدين أحمد بن يوسف الحلبي الشافعي. تحقيق: محمود السيد الدغيم. ط: دار السيد، تركيا، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٣٠٨ - عمل اليوم والليلة: أبو بكر بن السني. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. ط: دار المعرفة، لبنان، (١٣٩٩هـ).

- ٣٠٩ - عون المعبود شرح سنن أبي داود: أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٩هـ).
- ٣١٠ - عيون الأخبار: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. ط: دار الكتاب الإسلامي.
- ٣١١ - غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).
- ٣١٢ - غريب الحديث: أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي. ط: دار الكتاب العربي، الهند، الطبعة الأولى، (١٣٨٤هـ).
- ٣١٣ - غوث المكودود بتخريج منتقى ابن الجارود: أبو إسحاق الجويني الأثري. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٣١٤ - فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ط: دار المعرفة، لبنان.
- ٣١٥ - فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: زكريا الأنصاري. تحقيق: محمد الصابوني. ط: دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٣١٦ - الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير القاضي البيضاوي: زين الدين عبد الرؤوف المناوي. تحقيق: أحمد مجتبي بن نذير عالم السلفي. ط: دار العاصمة، الرياض، النشرة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٣١٧ - فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني. ط: دار الفكر.
- ٣١٨ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب. تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط. ط: مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

- ٣١٩ - الفروع: محمد بن مفلح. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ).
- ٣٢٠ - الفروق: شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس القرافي. ط: عالم الكتب، بيروت.
- ٣٢١ - الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري. تحقيق: حسام الدين القدسي. ط: دار الباز، مكة المكرمة، (١٤٠١هـ).
- ٣٢٢ - فضائل الصحابة: أحمد بن حنبل. تحقيق: وصي الله عباس. ط: مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٣٢٣ - فضائل القرآن ومعالمه وآدابه: أبو عبيد القاسم بن سلام. دراسة وتحقيق: الأستاذ أحمد بن عبد الواحد الخياطي. ط: مطبعة فضالة، المغرب، (١٤١٥هـ).
- ٣٢٤ - فقه السيرة: محمد الغزالي، بتخريجات الشيخ ناصر الدين الألباني، دار الكتب الحديثة، مصر، الطبعة السادسة، (١٩٧٦م).
- ٣٢٥ - فقه اللغة وسر العربية: أبو منصور الثعالبي. تحقيق: فائز محمد وإميل يعقوب. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).
- ٣٢٦ - الفقيه والمتفقه: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي. تحقيق: عادل بن يوسف العزازي. ط: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، الدمام، (١٤١٧هـ).
- ٣٢٧ - فيض القدير شرح الجامع الصغير: محمد عبد الرؤوف المناوي. ط: دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت، (١٣٩١هـ).
- ٣٢٨ - القاديانية: إحسان إلهي ظهير. الناشر: إدارة ترجمان السنة، باكستان، الطبعة الخامسة عشر، (١٤٠١هـ).

- ٣٢٩ - القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً: سعدي أبو حبيب. ط: دار الفكر، الطبعة الثانية، (١٤٠٨هـ).
- ٣٣٠ - القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: مكتب تحقيق التراث. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٣٣١ - القراءة خلف الإمام: محمد بن إسماعيل البخاري. ط: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).
- ٣٣٢ - القراءة خلف الإمام: أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: محمد السعيد زغلول. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٣٣٣ - قصص العرب: محمد أبو الفضل إبراهيم وزملاؤه. ط: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، (١٣٨٢هـ).
- ٣٣٤ - القطع والائتناف: أبو جعفر النحاس. تحقيق: أحمد خطاب العمر، مطبعة العاني، بغداد، (١٣٩٨هـ).
- ٣٣٥ - القواعد: محمد بن محمد المقرئ. تحقيق: أحمد عبد الله بن حميد مطبوعات جامعة أم القرى.
- ٣٣٦ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام: عز الدين عبد العزيز عبد السلام. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. ط: مكتبة ابن تيمية، مصر.
- ٣٣٧ - قواعد الترجيح عند المفسرين: حسين بن علي الحربي. ط: دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).
- ٣٣٨ - قواعد التفسير جمعاً ودراسةً: خالد بن عثمان السبت. ط: ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).
- ٣٣٩ - القواعد الحسان لتفسير القرآن: عبد الرحمن بن ناصر السعدي. ط: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، الدمام، (١٤١٣هـ).

- ٣٤٠ - القواعد الفقهية الخمس الكبرى من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: إعداد: إسماعيل بن حسن علوان. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).
- ٣٤١ - القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنی: محمد صالح العثيمين. دار ابن القيم ومكتبة ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٣٤٢ - القواعد والفوائد الأصولية: أبو الحسن علاء الدين ابن اللحام. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٣٤٣ - قواعد وفوائد لفقہ كتاب الله: لعبد الله بن محمد الجوعي. ط: دار الوطن، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤١٤هـ).
- ٣٤٤ - الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني [ملحق بتفسير الكشاف] دار المعرفة، بيروت.
- ٣٤٥ - الكافي في فقه أهل المدينة المالكي: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٣٤٦ - الكافية في الجدل: عبد الملك عبد الله بن يوسف الجويني. تحقيق: فوقية حسين محمود. ط: عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (١٣٩٩هـ).
- ٣٤٧ - الكامل: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد. تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٣٤٨ - الكامل في التاريخ: عز الدين بن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٥هـ).

- ٣٤٩ - الكامل في ضعفاء الرجال: عبد الله بن عدي الجرجاني. ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).
- ٣٥٠ - الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه). تحقيق: عبد السلام هارون. ط: عالم الكتب، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ).
- ٣٥١ - كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم: خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).
- ٣٥٢ - الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها: لنصر بن علي بن محمد الشيرازي الفارسي الفسوي. تحقيق: عمر حمدان الكبيسي. ط: الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ٣٥٣ - كتاب الوقوف من مسائل الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: أحمد بن محمد الخلال. تحقيق: عبد الله بن أحمد الزيد. ط: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).
- ٣٥٤ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود بن عمر الزمخشري. ط: دار المعرفة، لبنان.
- ٣٥٥ - كشاف القناع عن متن الإقناع: منصور بن يونس البهوتي. ط: عالم الكتب، بيروت، (١٤٠٣هـ).
- ٣٥٦ - كشف الأستار عن زوائد البزار: علي بن أبي بكر الهيثمي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. ط: مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثانية، (١٤٠٤هـ).
- ٣٥٧ - كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: إسماعيل بن محمد العجلوني. تحقيق: أحمد القلاش. ط: مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ).

- ٣٥٨ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٣هـ).
- ٣٥٩ - الكشف عن وجوه القراءات السبع: مكّي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: محيي الدين رمضان. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٧هـ).
- ٣٦٠ - كفاية الإنسان من القصائد الغرر الحسان: جمع: محمد بن أحمد سيد أحمد. ط: دار ابن القيم، الدمام، (١٤٠٩هـ).
- ٣٦١ - الكفاية في علم الرواية: الخطيب البغدادي. ط: المكتبة العلمية، المدينة المنورة.
- ٣٦٢ - كلمة الحق: أحمد شاكر، دار الكتب السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٣٦٣ - الكليات: أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي. تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٣٦٤ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي بن حسام الدين الهندي. تحقيق: بكرى حيانى. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٥هـ).
- ٣٦٥ - الكنى والأسماء: أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، (١٤٠٣هـ).
- ٣٦٦ - الكوكب الدرّي فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية: جمال الدين الأسنوي. تحقيق: محمد حسن عواد. ط: دار عمان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٣٦٧ - لامية الشنفرى: عناية: عبد المعين الملوحى. ط: مديرية إحياء التراث القديم، دمشق.

- ٣٦٨ - باب النقول في أسباب النزول: جلال الدين السيوطي. ط: دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٣٦٩ - لسان الميزان: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٠هـ - ١٩٧١م).
- ٣٧٠ - اللمع في أصول الفقه: إبراهيم بن علي الشيرازي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٣٧١ - لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية: محمد بن أحمد السفاريني. ط: المكتب الإسلامي، مكتبة أسامة.
- ٣٧٢ - المبسوط: السرخسي. ط: دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٦هـ).
- ٣٧٣ - المبسوط في القراءات العشر: أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني. تحقيق: سبيع حمزة حاكمي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق.
- ٣٧٤ - مجالس ثعلب: تحقيق: عبد السلام هارون. ط: دار المعارف، مصر.
- ٣٧٥ - المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين: محمد بن حبان البستي. تحقيق: محمود إبراهيم زايد، نشر: دار الوعي، حلب، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).
- ٣٧٦ - مجلة الحكمة: مجلة بحثية علمية شرعية ثقافية. تصدر من بريطانيا.
- ٣٧٧ - مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني. تحقيق: أبو الفضل إبراهيم. ط: البابي الحلبي.
- ٣٧٨ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ).
- ٣٧٩ - مجمل اللغة: أحمد بن فارس الرازي. تحقيق: شهاب الدين أبي عمرو. ط: دار الفكر، بيروت، (١٤١٤هـ).

- ٣٨٠ - المجموع شرح المذهب: أبو زكريا محيي الدين النووي. ط: دار الفكر.
- ٣٨١ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام: أحمد ابن تيمية. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه محمد. طبع بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين.
- ٣٨٢ - محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي. ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الثانية، (١٣٩٨هـ).
- ٣٨٣ - المحتسب في تبیین وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق: علي النجدي وزملاؤه. يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة، القاهرة.
- ٣٨٤ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: عبد الحق بن غالب بن عطية. تحقيق: المجلس العلمي بفاس. ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (١٣٩٥هـ).
- ٣٨٥ - المحلى: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم. ط: دار الفكر.
- ٣٨٦ - محنة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل: تقي الدين عبد الغني المقدسي. تحقيق: عبد الله التركي. ط: هجر للطباعة والنشر، والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٣٨٧ - مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: محمد بن مكرم المعروف بابن منظور. تحقيق: رياض عبد الحميد مراد وزملاؤه. ط: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٣٨٨ - مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة لابن القيم: محمد بن الموصلي. ط: مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- ٣٨٩ - مختصر العلو لعلي الغفار: شمس الدين الذهبي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).

- ٣٩٠ - مختصر الفتاوى المصرية: بدر الدين أبو عبد الله محمد بن علي الحنبلي البعلبي. صححه: محمد حامد الفقي. ط: دار ابن القيم، الطبعة الثانية، الدمام، (١٤٠٦هـ).
- ٣٩١ - مختصر قيام الليل: أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي. ط: المطبعة العربية، الطبعة الأولى، باكستان، (١٤٠٢هـ).
- ٣٩٢ - مختصر المزني: ط: دار المعرفة، لبنان.
- ٣٩٣ - مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: الزرقاني. تحقيق: محمد الصباغ. ط: مكتب التريية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).
- ٣٩٤ - مختصر من قواعد العلائي وكلام الأسنوي: محمود بن أحمد حمودي (ابن خطيب الدهشة). تحقيق: مصطفى محمود البنجويني، (١٩٨٠م).
- ٣٩٥ - مدارج السالكين بين منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية الدمشقي. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٢هـ).
- ٣٩٦ - المدخل إلى الصحيح: الحاكم أبو عبد الله النيسابوري. تحقيق: ربيع بن هادي. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٣٩٧ - المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى: أبو النصر أحمد بن محمد بن أحمد السمرقندي المعروف بالحدادي. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. ط: دار القلم بدمشق، دار العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٣٩٨ - المدهش: أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزي. تعليق: مروان قباني. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).

- ٣٩٩ - المدونة الكبرى: للإمام مالك التي رواها سحنون بن سعيد التنوخي عن ابن القاسم عن الإمام مالك. ط: مطبعة السعادة.
- ٤٠٠ - مذكرة أصول الفقه: محمد الأمين بن المختار الشنقيطي. ط: المكتبة السلفية، المدينة المنورة.
- ٤٠١ - المراسيل: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٤٠٢ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها: عبد الرحمن جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وزملاؤه. ط: دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- ٤٠٣ - مسائل الإمام أحمد بن حنبل: رواية صالح. تحقيق: فضل الرحمن دين محمد. ط: الدار العلمية، الهند، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٤٠٤ - المساعد على تسهيل الفوائد: بهاء الدين بن عقيل. تحقيق: محمد كامل بركات. ط: دار الفكر بدمشق، (١٤٠٠هـ).
- ٤٠٥ - المستدرک: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم. ط: دار الباز، مكة المكرمة.
- ٤٠٦ - المستصفي من علوم الأصول: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. ط: دار العلوم الحديثة، بيروت.
- ٤٠٧ - المسند: أبو عبد الله أحمد بن حنبل. ط: المكتب الإسلامي.
- ٤٠٨ - المسند: أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. ط: عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبسي، القاهرة.
- ٤٠٩ - مسند أبي داود الطيالسي: سليمان بن داود بن الجارود. ط: دار المعرفة، لبنان.

- ٤١٠ - مسند أبي يعلى: أحمد بن علي بن المثنى التميمي. تحقيق: حسين سليم أسد. ط: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٤١١ - المسودة في أصول الفقه: أبو العباس الحنبلي الحراني. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط: دار الكتاب العربي، لبنان.
- ٤١٢ - مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف: محمد عليان المرزوقي الشافعي. [ملحق بتفسير الكشاف]، دار المعرفة، بيروت.
- ٤١٣ - مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٥هـ).
- ٤١٤ - مشكل الآثار: أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي. ط: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند، الطبعة الأولى، (١٣٣٣هـ).
- ٤١٥ - مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي. تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٤١٦ - المصباح المنير: أحمد بن محمد الفيومي المقرئ. ط: مكتبة لبنان.
- ٤١٧ - المصنف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).
- ٤١٨ - مصنف ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي. تحقيق: مختار الندوي. إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، (١٤٠٦هـ).

- ٤١٩ - معارج الصعود إلى تفسير سورة هود: محمد الأمين بن المختار الجكني الشنقيطي. ط: دار المجتمع للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، جدة، (١٤٠٨هـ).
- ٤٢٠ - معارج القبول: حافظ بن أحمد حكيمي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٤٢١ - المعارف: ابن قتيبة. تحقيق: ثروت عكاشة. ط: دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.
- ٤٢٢ - معالم التنزيل: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي. تحقيق: خالد العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٤٢٣ - معالم السنن: أبو سليمان الخطابي. تحقيق: أحمد شاكر، محمد الفقي، دار المعرفة، لبنان.
- ٤٢٤ - معاني القرآن: يحيى بن زياد الفراء. تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وزميله. ط: دار السرور.
- ٤٢٥ - معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري الزجاج. تحقيق: عبد الجليل شلبي. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٤٢٦ - معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، (١٤٠٠هـ).
- ٤٢٧ - معجم الإعراب والإملاء: إميل بديع يعقوب. ط: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٩٨٨م).
- ٤٢٨ - معجم الأمثال العربية: رياض عبد الحميد مراد. ط: جامعة الإمام، (١٤٠٧هـ).

- ٤٢٩ - المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: أبو معاذ طارق عوض الله وزميله. ط: دار الحرمين، مصر، (١٤١٥هـ).
- ٤٣٠ - معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي. ط: إحياء التراث العربي، بيروت، (١٣٩٩هـ).
- ٤٣١ - المعجم الصغير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان. المكتبة السلفية، المدينة المنورة، (١٣٨٨هـ).
- ٤٣٢ - المعجم الكبير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. ط: مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.
- ٤٣٣ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي. تحقيق: مصطفى السقا. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ).
- ٤٣٤ - معجم مفردات الإبدال والإعلال في القرآن الكريم: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٤٣٥ - المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية: إميل بديع يعقوب. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).
- ٤٣٦ - المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية. ط: المكتبة الإسلامية، استانبول، الطبعة الثانية، (١٣٩٢هـ).
- ٤٣٧ - معرفة الصحابة: أبو نعيم الأصفهاني. تحقيق: محمد راضي بن حاج عثمان. ط: مكتبة الدار بالمدينة المنورة، مكتبة الحرمين بالرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٤٣٨ - المعرفة والتاريخ: يعقوب بن سفيان البسوي. تحقيق: أكرم العمري. ط: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).

- ٤٣٩ — المغازي: محمد بن عمر بن واقد. تحقيق: مارسون جونس. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٤هـ).
- ٤٤٠ — المغني: موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة. تحقيق: عبد الله التركي عبد الفتاح الحلو. ط: دار هجر، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٤٤١ — مغني اللبيب: جمال الدين بن هشام الأنصاري. ط: دار إحياء الكتب العربية.
- ٤٤٢ — مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة: محمد بن أبي بكر ابن القيم. تحقيق: علي حسن عبد الحميد. ط: دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ٤٤٣ — مفحمت الأقران في مبهمات القرآن: جلال الدين السيوطي. تحقيق: إياد خالد الطباع. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٤٤٤ — مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٤٤٥ — المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).
- ٤٤٦ — المفضليات: المفضل بن محمد بن يعلى الضبي. تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. ط: دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة.
- ٤٤٧ — المقاييس في اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق: عبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

- ٤٤٨ - المقتصد في شرح الإيضاح: عبد القاهر الجرجاني. تحقيق: الدكتور كاظم بحر المرجان.
- ٤٤٩ - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي. تحقيق: سعيد الفلاح. ط: دار الغرب، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٤٥٠ - المنتخب: عبد بن حميد. تحقيق: أبو عبد الله مصطفى بن العدوي. ط: دار الأرقم، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٤٥١ - المنتخب من كنيات الأدباء وإشارات البلغاء: أحمد بن محمد الجرجاني. تحقيق: محمد شمس الحق شمس. ط: بإعانة وزارة المعارف والشؤون الثقافية للحكومة العالية الهندية، الهند، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٤٥٢ - المنهاج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: زين محمد شحاته. ط: مكتبة العواصم، دار بلنسية، الرياض، الطبعة العاشرة، (١٤٢٢هـ).
- ٤٥٣ - منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد: عثمان علي حسن. ط: دار إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).
- ٤٥٤ - منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات: محمد الأمين الشنقيطي. الدار السلفية، الكويت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٤هـ).
- ٤٥٥ - الموافقات: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي. تحقيق: مشهور حسن سلمان. ط: دار ابن عفان، الطبعة الأولى، الخبر، (١٤١٧هـ).
- ٤٥٦ - الموسوعة الفقهية: إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.

- ٤٥٧ - الموضح في وجوه القراءات وعللها: نصر بن علي بن محمد المعروف بابن أبي مريم. تحقيق: عمر حمدان الكبيسي. ط: بإشراف الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ٤٥٨ - الموضوعات: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن عثمان. ط: دار الفكر، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).
- ٤٥٩ - موطأ الإمام مالك: رواية يحيى بن يحيى الليثي. ط: دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠١هـ).
- ٤٦٠ - موقف ابن تيمية من الأشاعرة: عبد الرحمن صالح المحمود. ط: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
- ٤٦١ - ميزان الاعتدال: أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: علي بن محمد البجاوي. ط: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٨٢هـ).
- ٤٦٢ - الناسخ والمنسوخ: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس. تحقيق: سليمان بن إبراهيم اللاحم. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٤٦٣ - الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: محمد المديفر. ط: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ٤٦٤ - النبوات: أحمد ابن تيمية. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٢هـ).
- ٤٦٥ - نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار: ابن حجر العسقلاني. تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. ط: مكتبة المثنى، بغداد، (١٤٠٦هـ).

- ٤٦٦ - نثر الورود على مراقي السعود: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي. تحقيق: محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي. ط: دار المنارة، الطبعة الأولى، جدة، (١٤١٥هـ).
- ٤٦٧ - النحو الوافي: عباس حسن. ط: دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة.
- ٤٦٨ - نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٤٦٩ - النشر في القراءات العشر: أبو الخير محمد بن محمد ابن الجزري الدمشقي. تحقيق: علي محمد الصباغ، دار الكتاب العربي.
- ٤٧٠ - نصب الراية لأحاديث الهداية: جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي. ط: دار المأمون، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٥٧هـ).
- ٤٧١ - النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي. تحقيق: السيد عبد المقصود. ط: المؤيد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٤٧٢ - نهاية السؤل: جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٤٧٣ - النهاية في غريب الحديث: مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير. تحقيق: محمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، اسطنبول.
- ٤٧٤ - النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى: محمد الحمود. ط: مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، الطبعة الثانية، (١٤١٧هـ).
- ٤٧٥ - نواقض الإيمان الاعتقادية: محمد بن عبد الله بن علي الوهبي. ط: دار المسلم، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤١٦هـ).

- ٤٧٦ - نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار: محمد بن علي الشوكاني. ط: دار القلم، بيروت.
- ٤٧٧ - الهداية شرح بداية المبتدي: أبو الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني. ط: مكتبة الحلبي، مصر.
- ٤٧٨ - الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع: عبد الفتاح عبد الغني القاضي. ط: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٤٧٩ - الوسيط في تراجم أدباء شنقيط: أحمد بن الأمين الشنقيطي. ط: مطبعة المدني، مصر. الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، مؤسسة منير، موريتانيا، (١٤٠٩هـ).
- ٤٨٠ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر، بيروت.





## فهرس الآيات القرآنية

الآية	الصفحة	الآية	الصفحة
١٩	٤٣٠/٣	﴿سورة الفاتحة﴾	
٢٠	٣٣/٣ ، ٥٣٥ ، ٢٣٥/٢	٦١٤/٢	٦
	١٩/٤ ، ٣٦٤ ، ٣١٩	٣٣٧ ، ١٧٠/٤ ، ١٩٦/٢	٧
٢١	٤٢١/٤ ، ٤٢٥ ، ٩٣/١	٥٤٤	
٢٢	٥٨٩/٢	﴿سورة البقرة﴾	
٢٣	٥٧٩ ، ٤٥٢/٤	٨/٣	٢-١
٢٤	٥٧٩/٤ ، ٤٣٠/١	٤٥٥/٤ ، ١٥/٣	٢
٢٥	٢٢٧/٥ ، ٦١٠/٢	١٠٤/٥	٤-٢
٢٦	٥٩/٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٥/٣	١٨٤/٤	٥
	٢٩٥/٥ ، ٢٨٤	٤٢٢ ، ٥٢/٤	٦
٢٨	٢٣٦ ، ٢٢٠/٤	١٣٠ ، ١٢٩/٢ ، ٢٢٢/١	٧
٣٠	١١٠/٣	٣٩/٤	
٣٢-٣١	٥٤٦/٥ ، ٣٨/٢	٥٤ ، ٣٩/٤ ، ١٢٨/٢	١٠
٣١	٦٠٢ ، ٣٣٢ ، ١١٠/٣	١٠٥/٥	
٣٢	١١٠/٣ ، ٣٨٦ ، ٢٨٤/١	٥٦٠/٤	١٣
	٦٠٢ ، ٣٣٢	١٤٤/٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥١/١	١٤
٣٣	١١١ ، ١١٠/٣	٣٢٤/٤	
٣٤	٢٢ ، ٢٠/٣	٣٠٧/٣	١٥-١٤
٣٧	١٠٠/١	٢٢٨ ، ٢٢٠ ، ١٩٤/١	١٨

١٤١، ١٤٠، ١٣٥		٦٠، ٥٩، ٥٦—٥١، ٤٥/١	٤٧-٤٥
١٢٥ ، ١٢٤ ، ١٢٢/١	٦٧	٢٧٣، ١٧٧، ٥٠—٤٧/١	٤٥
١٤١، ١٣٨		١٢٩/٤، ٦١٨/٣، ٢٧٤/٢	
١٢٨، ١٢٧، ١٢٥، ٩٨/١	٦٨	٦٠٤، ٥٧٤، ٤٥٥/٥	
٥٠٠/٢، ٢٧٤		٢٠٠/٢	٤٦
٢١٥/٥	٦٩	٦٢٤/٣	٤٧
١٤٥، ١٤٤، ١٤١، ١٢٠/١	٧٤-٧٢	٧٤-٦٩، ٦٧، ٦٣-٦٠/١	٤٩-٤٨
٥٠٠/٥، ٢٢٥/٣	٧٢	٨٥، ٨٢، ٨١، ٧٧-٧٤/١	٥٣-٥٠
١٤٥ ، ١٤٢ ، ١٠٤/١	٧٣	٨٨-٨٦	
٤٧٠، ١٥٢، ١٥٠، ١٤٧		١٣٢/٤	٥٠
٢١٣ ، ١٥٤ — ١٥٢/١	٧٤	١٠٣، ١٠٢، ٩٠/١	٥٦-٥٤
٣٨٣/٣		١٠٠ — ٩١ ، ٨٢ ، ٧٧/١	٥٤
١٦٧-١٦٢، ١٥٩-١٥٥/١	٧٩-٧٥	٢٢٠/٢ ، ٤٨٢ ، ١٢١	
١٧٢ ، ١٧٠ — ١٦٨/١	٧٩	٢١٥/٥، ٣٨٨، ٢٩٧	
٥٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨		١٠٣ ، ١٠١ ، ١٠٠/١	٥٥
٢٩٨/٤، ١٧٥/٣، ٣٥٨/٢		١٩٤ ، ١٩٢/٤ ، ١٠٣/٣	
٥٨٤		١٩٨، ١٩٥	
١٠٠، ٣٧/٣	٨٥	١١٨، ١١٦-١١٠، ١٠٦/١	٥٩-٥٧
٢٦٠/١	٨٧	٤٣٧ ، ١١٠ — ١٠٦/١	٥٧
٢٩٨/٥	٩٠	٤٢٠/٤، ١٠٣/٣	
١٥٣/٤	٩٥	٢٦١/٤	٥٨
٥٦/٤	١٠٠	٢٧٠/٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٣/٣	٥٩
٨٥/٤	١٠٢	٣٥٠/٥	
٤٠٥/٥	١٠٥	٢٥٥/٤، ١٤٨/١	٦٠
٤١٨/٥	١٠٦	٢٦٠/٤، ١٠٣/٣، ١١١/١	٦١
٤١٩/٥، ٣٦٤/٣، ٥٠٤/١	١٠٩	٤٢٠، ٣١٩، ٣٠٦/٤	٦٣
١٦٧/١	١١١	٢٧٣ ، ٢٧١/٤ ، ٥٩/١	٦٥
٦٠٢/٢	١١٣	٢٨٩، ٢٨٠	
٤١١/٥، ٢٠٩/٣، ٥١٢/١	١١٤	— ١٢٨ ، ١٢١ ، ١٢٠/١	٧١-٦٧

٣٢٩/٥	١٦٢	٢٥٨/٥	١١٧
٥٧٠، ٤٠٥/٢	١٦٣	٤٧٨/٣	١١٨
٩١/٣	١٦٤	٤٦٧/١	١٢٠
١٢١/٥	١٦٥	٩٧، ٤٠/٢، ٣٧٣/١	١٢٤
٢٢٧/٣، ٥٢٧/١	١٦٦	٣٣٣، ١٨٧، ١٧١/٣، ٦١٨	
٦٠٩/٥، ٥٩٥/٤	١٦٧	١٧١/٣	١٢٦
٢٢٧، ٢٢٤/٣	١٦٧-١٦٦	١٢٤/٢، ٤٢٤، ٩٤/١	١٢٨
٣٥٠/٤	١٧١	١٤٦، ١٤٥/٤	
٣٦١، ٢٣٢، ٢١٩، ٧٦/٢	١٧٣	٥٧٥/٢	١٢٩
٢٨/٣، ٥٧٢، ٣٨٤		٦٢٩/٢	١٣١
٤٤٢/٥، ٢٣٠/٤		٦٢٨/٢	١٣٢
١٢١/٥	١٧٤	٣٨٧/٢، ١٦٧/١	١٣٥
٢٠٨/٣	١٧٥	٥٥٥/٤	١٣٧
٢٠٣/٤، ٤٨١/١	١٧٨	٥٠٣، ٥١/٢، ٣١٧/١	١٤٠
٥٣٨، ١٧٧/٢، ٤٨١/١	١٧٩	٣٦٢، ٣٤٩/٣، ٥٦٤	
١٢٠/٣	١٨٠	١٠/٤	
٢٠٣/٤	١٨٣	١٩/٣، ٢١٥/٢، ٢٨٣/١	١٤٣
٢٦٨/٥، ٤٧٥/١	١٨٤	٦٢٤، ٣٧٠، ٢٥١، ٥٩	
٣٦٥، ٢٥٨/٣، ٢٢١/٢	١٨٥	١٧٦/١	١٤٤
٥٦٤، ٤٥٥، ٢١٣/٤		٤٧١/١	١٤٥
٤٥٠، ٢٦٨/٥		٢٠٨/٤، ١٦٧/٢	١٤٦
٢٣٩/١	١٨٦	١٥/٣	١٤٧
٥٥٧/٣	١٨٧	١٩/٤	١٤٨
٣٨٦/٣، ٥٤٥/١	١٨٩	٤٤٠، ٩٩/٣، ٣٣٥/١	١٥٢
٧٨/٢	١٩٠	١٥٩/٤، ٤٤١	
٢٦٨/٢، ١٧٩، ١٤٢/١	١٩١	٢٥٩/١	١٥٥
٢٦٦/٥، ٥٨٦/٤، ٥١٧/٣		٤٠١/٢، ٣٣٣، ٨٦/١	١٥٨
٤٩٩، ٢٨٧، ٢٦٨		٤٤٠، ٢١٨، ٩٧/٣	
		٥٦٤، ٤١٥، ١٥٧/٤	

١٠٦-١٠٤/١	٢٤٣	١٧٩/٣، ٥٣٨/٢، ٣٢٦/١	١٩٣
١٠٥/١	٢٤٤	١٩٨/٤	
٨٦، ٨١/٣	٢٤٥	٤٩٩/٥، ١٧٥/٣	١٩٤
٣٤٢، ١٧٤/٤	٢٤٦	١٤٢، ١٤١/٤، ٤٧٤/١	١٩٦
١١٢/٢، ٥٥٧، ١٥١/١	٢٤٨	٢٨٠/٣، ٢٨٥/١	١٩٧
٣٦١/٤، ٩٠/٣، ٢١٣		٣٠٥/٣	١٩٨
٣٦٥/٥، ٢٣٦/٣، ٢٠٠/٢	٢٤٩	٣٠٥/٣	١٩٩
٤٨١/٣، ٢٦٧/٢، ١٨٣/١	٢٥٣	٢٠٠/٤	٢٠١
٢٢٦/٤		٣٩٥/٢	٢٠٨
٢٦١، ٨٤ - ٨٢/١	٢٥٤	٥٦٢، ١٤٣/٢، ٢٦٩/١	٢١٠
٢٩٤، ٥١/٣، ٢٦٠/٢		٥٨٩	
١٦٩، ٦٤، ٦٢/٤، ٢٩٦		٣٢٨/١	٢١٢
٥٥٠، ٣٥٧، ١٢٩/٥، ٢٦٩		٢٤٢/٤، ١٨٧/٣، ٩٧/٢	٢١٣
٣٠٩، ٣٠٨، ٦٧، ٦٦/١	٢٥٥	٣٢٢/٥، ٢٨٥/٤	٢١٤
٥٧١، ٥٦٧، ٤٠٦/٢		٥٢٥، ٤٨٤، ٤٨٣/٤	٢١٦
٣٧٠، ٣٦٥، ٢٨٠/٣		٥٥٥/٥، ٥٣٨/٢، ٤٦٩/١	٢١٧
٢٤، ٢٠/٤، ٣٧٥		٢٦٧/٥، ٤٣٨/٤	٢١٩
٣٤/٣	٢٥٧	٣٧١/٣، ٥١٢/٢	٢٢٠
٣٦٩/٣، ٤٤٥/١	٢٥٨	٥٥٧/٣	٢٢٢
١٠٤/١	٢٥٩	٥٥٨ - ٥٥٥، ٣٢٥/٣	٢٢٣
١٠٥، ١٠٤/١	٢٦٠	٣٩٣/٤	
٨١/٣، ٦٠٩/٢	٢٦١	١٧٩/٣، ٥٤٠، ٥٦/٢	٢٢٨
٥٧٢/٢	٢٦٣	٣٢٣/٥	
٣٢٩، ٣٢٠، ٣١٨/٢	٢٦٧	٤٦٢/٤، ٤٥٢، ١٩٦/٣	٢٢٩
٣٦٩/٣	٢٦٩	١٣٨/٥	
٢٧٢/١	٢٧٠	١٣٤، ١٣٣/٣، ٣٧١/٢	٢٣٠
١٨٧/١	٢٧٢	٦٧/٥	٢٣١
٩٥/٢	٢٧٩-٢٧٨	٣٦٨/٣، ٥٧٤/٢	٢٣٣
		٥٣٩/٥، ٣٩٣/١	٢٣٥

١٠١/٥	٣٣	٥٦٨ ، ١٩٨/٢ ، ٢٣١/١	٢٨٢
٤٥٩/١	٣٨	١٧٠ ، ٢١ ، ٢٠/٤ ، ٦١٧	
٢٢١ ، ١٧٨/٤	٣٩	٣٣٩	
٥٥٨/٣	٤٠	٤١/٤	٢٨٣
٢٥٢/٤ ، ١٤٨/٢	٤١	٥٧٨/٢	٢٨٤
٢٢١/٤	٤٥	٢٣٩ ، ٢٢١/٤ ، ٢٦٩/١	٢٨٥
٣٩١/٢	٥٠	٢٢١ ، ٢٢٠/٢ ، ٤٨٢/١	٢٨٦
٢١٥/٣ ، ٤٠٠ ، ٣٩٨/٢	٥٥	٤٠١/٥ ، ١٨٩/٤ ، ٥١٧	
٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٦		﴿سورة آل عمران﴾	
١٣٩/٣ ، ٧/٢ ، ٤٦١/١	٥٩	٨/٣	٣-١
٤٦٠/٢	٦٤	٦٨/٥	٥
٥٩٧/٣ ، ٤١٥/١	٦٧	١٠٣/٣ ، ٤٣/٢ ، ٥١٠/١	٦
٥١٠/١	٧٨	١٠٧ ، ١٠٦	
٤٥٢/٥ ، ٤٦٠/٢	٨٠	٥٥٧/٤ ، ٤٤٥ ، ١٦٨/٢	٧
١٦٧/٢	٨١	٥٥٧/٤	٨
٢٠٨/٤	٨٢-٨١	٣٠٧/٢	٩
٤٥٠ ، ٤٢٠ ، ٢٠٨ ، ٥٦/٥	٨٥	٧١ ، ٥٦/٥ ، ٥٥١/١	١٣
٢٨٤/٢	٩١	١٨٥/٣	١٤
٣٩٥ ، ٣٩٤/٢ ، ٥٠٦/١	٩٣	٢٠٧ ، ٥٦/٥ ، ١٥١/١	١٩
٤٥١/٥ ، ٢٨٧/٤ ، ٥٢٦		٤٥٠ ، ٤٢٠	
٩٣/٥	٩٩	٢٥٦/٥ ، ٣٩٣/٢ ، ٢٨٠/١	٢١
٢٣٣ ، ٢٣٢/٣ ، ٥٣٤/٢	١٠٣	٢٥٧	
١٦٦ ، ١٥٤/٥		٢٤/٤ ، ٣٦٩/٣ ، ٥٧٢/٢	٢٦
٦٢٤ ، ٦٢٣/٣ ، ٥٦/١	١١٠	٥٣٥/١	٢٧
٢٩٦/٤ ، ٦١٥/٢	١١٣	٣٢٣ ، ٢١٨/٥ ، ١٩٩/٣	٢٨
٢٤٤/٤	١١٤-١١٣	٤٣٢	
٦٠٠/٥	١١٤	٦١٢ ، ٦٠٧/٢ ، ٣٤٢/١	٣٠
٣٢٤/٥	١١٨	٢٥٣/٣ ، ٤٨٥ ، ٣٥١/١	٣١
٥٥٨/٢ ، ٢٦٩/١	١١٩	٣٦٢/٥ ، ٥٣٤ ، ٢٤٠/٤	

١٩٠	٤١١/١ ، ٤٤٣ ، ١١٣/٢	٩٢/٤	١٢٠
	٢٦٢/٤ ، ٢١٤	٣٤٣/١ ، ١٠٠/٢ ، ٩٥/٥	١٢٢
١٩١	٤٦٥ ، ٤٦٤/٤	٩٦	
١٩٢	٦٠٧/٥	٥٣٨ ، ٢٧٧/٤ ، ٤٥٦/٢	١٢٣
١٩٥	٩٠ ، ٧٩/٤	٣٩٣/٥ ، ٥٣٦/٤	١٢٤-١٢٣
١٩٩	٢٩٦ ، ٢٤٤/٤	٥٣٧ ، ٥٣٦ ، ٥٠٥ ، ٥٠٤/٤	١٢٥-١٢٤
٢٠٠	٤٦/١	٥٣٨/٤	١٢٤
	﴿سورة النساء﴾	٣٨٧/٥ ، ٥٤١ ، ٥٣٧/٤	١٢٦
١	٦/٢ ، ٧ ، ١٤٠/٣	٥٣٧/٤	١٢٧
	٣٨٩/٤ ، ٣٩٠ ، ٤٠٤	٥٧٢/٢	١٢٩
	٥٠٣ ، ١٧٢/٥	٣٢٢/٥	١٤٢
٢	٨٨/٤ ، ٣٦٩/٣	٢١٢/٣	١٤٥
٣	٤٠٧/٤ ، ٢٥١/٢	٨٤/٥	١٥٢
٤	٥٥٨ ، ١٤٢/٢ ، ٢٦٨/١	٦٨/٥	١٥٣
٦	١٨٩/١ ، ٤٠٦/٢ ، ٥٠٧	٥٤٣/٤ ، ٥٤٤ ، ٦٨/٥	١٥٤
	٥٧٠ ، ٥٠٩ ، ٥٠٨	٣٢٠	
٨	٣٦٨/٣ ، ٥٧٤/٢	٣٩٧ ، ٣٩٤/٥ ، ٥٣٧/٤	١٥٥
٩	١١٠/٥ ، ١٣٨/٤ ، ٧٢/١	١٧٦/٢	١٥٩
١٠	٣٧٠/٢ ، ٥٠٣ ، ١٣١/٣	٣٦٩/٣	١٦٤
	٥٨٤/٤	٨٤/٥	١٦٥
١١	٤٦١/١ ، ٥٧/٢ ، ٢٣٤/٥	٣٢٢/٥	١٦٧-١٦٦
١٢	١٢٧/٣	٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ١٧٠/١	١٦٧
١٦	٥٥٤/٣	٥٦٥/٥	١٦٩
١٨	٢٨٤/٢	١٧٠/٥	١٧٣
٢٠	٣٦٩/٣	١٤٨/٥ ، ٤٢٩/٤	١٧٥
٢٢	١٧٤/٣ ، ٢٢٥/٢	٥٧٦/٥ ، ٣٣٠/١	١٧٨
٢٤	٥٧/٢	٣٢٢/٥ ، ٦٠١/٤ ، ٣٩٢/١	١٧٩
٢٦	٥٧٧ ، ٥٧٦/٥	٣٤٣/٥	١٨٥
٢٨	٥٦٨/٢	٤٠٥ ، ٢٧٠/٥	١٨٦

٤٠٢ ، ٣٩٤ ، ٢٢٨/٢	٨٧	١٨٠/٣	٢٩
٣٤٩/٣		٥٦١، ٩/٥	٣٣
٢٥٩/٥	٩٠-٨٩	٥٧١ ، ٥٠٥ ، ٤٠٦/٢	٣٤
١٥٨/٥ ، ٦٣٣/٢ ، ٤٧٢/١	٩٢	٢٤٤/٤ ، ٣٧٠ ، ٣٢١/٣	
٤٨٨/٢	٩٣	٣٩٨	
٥١٠/٤ ، ٢١٣ ، ٢١٢/٣	٩٧	١١٨/٥ ، ٧١ ، ٤٩/٣	٤٠
١٠٧ ، ١٠٦/٥		٢٧٦/٢	٤٢
١٠٦/٥	٩٩-٩٧	٢٦٧/٥	٤٣
٢٣٣/٣ ، ٥٤٥/٢ ، ٥٤٦/١	١٠٢	٢٦٦/١	٤٧
٧٧ ، ٧٦/٥ ، ٥٨٣/٤		٤٥٢ ، ٣٠٩ ، ٢٨٤/٢	٤٨
١٨٦ ، ١٨٥/٢	١٠٣-١٠٢	٦٢٩ ، ٤٩٥	
١٥١/٥	١٠٥	١٣٠/٥	٥١
٦٠٤ ، ٤٥٥/٥ ، ٢٧٢/١	١١٢	١٢١ ، ١٠٣/٥ ، ٥٥٦/٤	٥٦
٣٠/٣ ، ٥٢٤ ، ٣٧٤/١	١١٧	٥١٨/٢	٥٨
٤٨٦ ، ٤٤٣ ، ٢٥٧/٥		٣٠/٣ ، ٥٢٤ ، ٣٧٥/١	٦٠
٣٤٠/٢	١١٩	٤٤٤/٥ ، ٢٣٣/٤ ، ٣١	
٣٤٩/٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٤/٢	١٢٢	٤٨٨	
١٦٧/١	١٢٣	١٣٤/٢	٦٤
٥٧٠/٥ ، ٢٥٣/٣ ، ٣٦٠/١	١٢٤	١١٣/٣ ، ٤٦١ ، ١٢١/٢	٦٥
٤١٦ ، ٨٣/١	١٢٥	٤٨٨ ، ٤٤٤/٥	
٥٠٦/٢	١٢٧	٥٤٦/٥	٦٦
٤٠٦/٤	١٢٩	٢٦٨/١	٦٩
٥١١/٥ ، ٣٠٥/٢	١٣٣	٥٥٩/٥	٧٢
٥٢٠ ، ٥١٩/٢ ، ٢٧٢/١	١٣٥	١٠٦/٤	٧٨
٤٥٥/٥ ، ٥٨٨ ، ١٨١/٣		٢٥٣/٣ ، ٤٨٥ ، ٣٥١/١	٨٠
٦٠٠/٥	١٣٦	٦٠٣/٥ ، ٥٣٤ ، ٢٤٠/٤	
٢١١/٥	١٤١	٢٣٦/٢ ، ١٣/١	٨٢
٥٧٥/٥ ، ٢٨٨ ، ٥١/١	١٤٢	٣٠٧ ، ٦٤/١	٨٥
٢٩٨/٢	١٤٥	٢٨٢/٥ ، ٣٩٤/٣ ، ٣٥٢/٢	٨٦

٥٤٢ ، ٣٨٦ ، ٢٣٠/٢	٢	١٠١/١	١٥٣
٥٩٧/٥ ، ٥٥٨/٤		٣٠٦/٤	١٥٤
٢١٧/٢ ، ٤٧١ ، ٤٧٠/١	٣	١٣٠/٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢/١	١٥٥
٣٨٢ ، ٣٦١ ، ٢١٩ ، ٢١٨		٥٣ ، ٣٩/٤ ، ٣٩٣	
١١٦/٤ ، ٦٢١/٣ ، ٣٨٤		٣٩٦/٢	١٥٦
٤٥٠ ، ٤٤٢ ، ٤١٧ ، ٥٦/٥		٣٩٣/٢	١٥٧-١٥٦
٥٥٥		٣٩٧/٢	١٥٩-١٥٦
٢٥/٤ ، ٣٦٩/٣ ، ٥٧٥/٢	٤	٤٠٢ ، ٣٩٦/٢ ، ٤٣٤/١	١٥٧
٤٦٩/١	٥	٢١٧ ، ٢١٦/٣	
٥٥٨ ، ١٤٢/٢ ، ٢٦٨/١	٦	٢١٦/٣ ، ٤٠٢/٢	١٥٨-١٥٧
٥٩٣/٥ ، ٥٥/٣		٥٩١ ، ٣٩٧ ، ٣٩٦/٢	١٥٩
٥١٩/٢ ، ٩٧/١	٨	٢١٩ ، ٢١٧/٣	
٢٤٩/٤	١٢	٣٩٣ ، ٣٩١/٢	١٦١-١٦٠
٥٠٥ ، ٥٠٣ ، ٣٥٥/١	١٥	٢٧٦/٣ ، ٥٢٦/٢ ، ٥٠٥/١	١٦٠
٤٥١ ، ٤٤٨/٥		٤٧٧ ، ٣٩٠/١	١٦٣
١٦٧/١	١٨	٢١/٤ ، ٥٦٨/٢ ، ١٨٣/١	١٦٤
٥٧٨ ، ٤٥٠/٣ ، ٢٩١/٢	١٩	١٦٢	
٦٢٣		٢٩٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٠/٢	١٦٥
٢٧٦/٤ ، ١١١/١	٢١	٢٨١ ، ٢٢٦/٤ ، ٤٩/٣	
٢٧٦/٤ ، ٥٩/١	٢٢	٣١٢	
٢٥٠/٤	٢٦-٢٤	٦٧/٣ ، ٥٦٨/٢	١٦٦
٢٧٦/٢٤ ، ٥٩ ، ٥٨/١	٢٤	٣٧٨/٤	١٧١
٤٨٨		٢١٤/٤ ، ٣١٩/٣ ، ٥٣٥/٢	١٧٤
٧٥/١	٢٥	٤٤٨/٥	
٣٠٦/٣ ، ٤٤٩/٢	٢٦	١٢٧/٣ ، ٥٥٣/٢ ، ٣٧٩/١	١٧٦
٥١٧/١	٢٨	٣٩٥/٤ ، ٣٢٠ ، ١٢٨	
١٥٢/٢	٢٩	٥٣٨ ، ٢٣٤/٥ ، ٤٠٥	
٤٨٩/٢	٣٣	﴿سورة المائدة﴾	
١٩/٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٤/٣	٣٤	٥٢١/٢	١

٢٨١/٤، ١٠١/٢، ٣٤٥/١	٧٩	٦٠٩/٥، ٢٤٩/٢	٣٧
٩٧/٥		٤٢٧/٤، ١٨١/٣	٣٨
٥٨٤/٥	٨٠	٥٢٧/٢، ١٩٣، ١٨٧/١	٤١
٤٠٥، ٢٧٠/٥	٨٢	٣٧٣/٤، ٦٠٠، ٤٩٠/٣	
٣٩٤/٣	٨٦	٤٥٥	
١٦٠/٣	٨٧	١٢٤/٣	٤٧-٤٤
٤٧٤، ٤٧٣، ٤٧٢/١	٨٩	٦٣٠، ٣٩٢/٢، ٤٨٤/١	٤٤
٢٦٧/٥، ١٨٠/٣، ١٨١/٢	٩٠	٢٠٦/٤	
٥٤٠/٢	٩١	٤٨١/١	٤٥
٢٧٧، ٢٧٦/٤، ٥٩/١	٩٤	٣٩٢/٢	٤٧
٦٨/١	٩٥	٤٩٣، ٤٨٤، ٤٨٣/١	٤٨
٨٠/١	٩٧	٤٥١/٥، ٣٩٤/٢، ٥٠٥	
٢١/٣	١٠٥	١٢٤/٣	٤٩
٥٨، ٥٧/٣	١٠٩	٢١٨/٥	٥١
٣٩٨/٢	١١٧-١١٦	٢٢١/٥، ٤٣٦/٤، ٥٤٤/٢	٥٤
٢١٦/٣	١١٦	٥١١	
٢١٥/٣، ٣٩٨/٢	١١٧	٢٢٢/٥، ٤٣٠، ١٩٨/٤	٥٥
١٧٩، ١٧٨/٥، ٥١٢/٤	١١٨	٨٥/٥	٥٨
﴿سورة الأنعام﴾		٩٧/٥، ١٠١/٢، ٣٤٥/١	٦٣
٣٨٩/٤، ١٤١/٢، ١٥٣/١	١	٤٥٦، ٥٤/٤	٦٨-٦٤
٣٣٨، ١٣٢/٥		٣١٥/٣	٦٤
٦/٢	٢	٢٤٥/٤، ٦٣٠/٣، ٥٦/١	٦٦
١٢٥/٢	٧	٤٣٢/٤	٦٧
١٣١، ١٠٨، ١٠٧/٢	٨	٣٠٦/٣، ٢٨٤/٢	٧٢
٢٨٧، ١٩٤/٣	٩	٣٧٨، ٣٧٧/٤، ٤٢٦/٢	٧٣
٣٦٠/١	١٣	٤٠٢/٥، ١٨٦/٤، ٣٤١/١	٧٤
١٧١/٢، ٤٢٦/١	١٤	٤٨/٤	٧٥
٢٢٤، ٢٠٢/٤، ٤٢٦/٢	١٩	٣٣٧/٤	٧٧
٣٥١		٢٧١/٤	٧٨

٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ١٧٠/١ ٣٨  
 ،٢١٤ ، ٢١٢ ، ٢١٠ ، ٢٠٩  
 ،٢٤٣ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦  
 ،١٧٥/٣ ، ٣٥٠ ، ٢٢٨/٢  
 ٥٨٤ ، ٥٥٨/٤  
 ،٢٢٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٠/١ ٣٩  
 ٢٣٢ ، ٢٢٩  
 ٢٣٣/١ ٤١-٤٠  
 ٢٣٨ ، ٢٣٧/١ ٤٠  
 ٢٣٩ ، ٢٣٨/١ ٤١  
 ٢٤١ ، ٢٤٠/١ ٤٥-٤٢  
 ٣٦٣/٤ ، ١١١/٢ ٤٤  
 ،٢٤٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٠/١ ٤٧-٤٢  
 ،٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٤  
 ،٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٠  
 ،٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨  
 ،٢٧١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٢  
 ٢٧٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥  
 ٢٧٨/١ ٤٩-٤٨  
 ،٢٨٥ ، ٢٨٣ ، ٢٧٨/١ ٥٢-٤٨  
 ،٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٢٨٦  
 ،٣٠٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٩٤  
 ٣٨٧ ، ٣٠٥  
 ،٢٩٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٠/١ ٥٠  
 ،٣٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٠  
 ٣٨٥ ، ٣٨٤/٤ ، ٣٣٢/٣  
 ،٣٢١ ، ٣١٤ ، ٣١٢/١ ٥٢  
 ٥٢٠ ، ٥١٩ ، ٣٢٣  
 ٣١٢/٣ ٥٣

٢٨٦/١ ٢١  
 ،٢٧٦ ، ٦٢/٢ ، ٣٢٦/١ ٢٣  
 ٢١٨/٥ ، ٥٦٠ ، ١٩٨/٤  
 ،١٩٧ ، ١٩٦/٢ ، ٢٣٠/١ ٢٤  
 ١٧١/٤  
 ٤٥٠/٤ ٢٥  
 ٣٦١/١ ٢٦  
 ،٣٧/٢ ، ٥٥٣ ، ٤٤٩/١ ٢٧  
 ،٢٠٦/٣ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩  
 ،٣٢١ ، ١٩٧/٥ ، ٣٣٥  
 ٦١٠ ، ٥٤٦  
 ،٣٧/٢ ، ٥٥٣ ، ٤٤٩/١ ٢٨  
 ،٣٣٥ ، ٢٠٦/٣ ، ٢٥٠  
 ،١٩٧/٥ ، ٥٢/٤ ، ٦٠١  
 ٦١٠ ، ٥٤٦ ، ٣٣٠ ، ٣٢١  
 - ١٧٦ ، ١٧٤ ، ١٧٣/١ ٣٦-٣٣  
 ،١٨٧ ، ١٨٥ ، ١٨١ ، ١٧٨  
 ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩١-١٨٩  
 ١٣٧ ، ٨٥/٢ ٣٥-٣٣  
 ،١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧٤/١ ٣٣  
 ٣١٤ ، ١٣/٣ ، ١٨١ ، ١٧٨  
 ،١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٨١/١ ٣٤  
 ١٣٧/٢ ، ١٨٥  
 ٤١٧ ، ٤١٢ ، ٧٩/٢ ٣٥  
 ١٩٨-١٩٦ ، ١٩٤ ، ١٠٦/١ ٣٦  
 ،٢٠٢ ، ٢٠١ ، ١٩٩/١ ٣٧  
 ٢٧٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤  
 ٢٠٥/١ ٤١-٣٨

٤٤٠ ، ٤٣٧ ، ٤٣٦/١	٨١	٣٣٣ ، ٣٣٢ ، ٣٢٤/١	٥٥-٥٣
٣٣٣/٥ ، ٤٢٩/٤		٣٤٦ ، ٣٤١ ، ٣٣٧ ، ٣٣٦	
٢٦٠/٢ ، ٤٣٧ ، ٨٣/١	٨٢	٣٥٢	
٢٦٩/٤ ، ٢٩٤ ، ٥١/٣		٢٧٧/٣ ، ٤١١ ، ٣٥٣/١	٥٥
٥٥٠ ، ٣٥٨ ، ١٢٩/٥		٤٨/٤ ، ٥٨٤	
٤٥٨ ، ٤٣٩/١	٨٥-٨٣	٣٧٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٠/١	٥٩-٥٦
٤٣٩ ، ٤٢٢ ، ٤١٥/١	٨٣	٣٩١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٠ ، ٣٧٩	
٤٤٦ ، ٤٤٣		٣٩٥ ، ٣٩٣	
٤٥٣ ، ٤٥١ ، ٤٥٠ ، ٧٩/١	٨٤	٧٨ ، ٧٥/٢	٥٧
٣١٠/٣ ، ٤٧٦ ، ٤٧٥ ، ٤٥٤		٣٧٨/٤	٥٩
٤٦٢/١	٨٦	٢١٩/٣ ، ٤٠٠/٢	٦٠
٤٦٦/١	٨٧	٢١٣ ، ٢١٢/٣ ، ٥٦١/٢	٦١
٤٦٩ ، ٤٦٧/١	٨٨	١٠/٥	٦٢
٤٨٥/١	٨٩	٢٥٥/١	٦٨
٤٨٣ ، ٤٧٨ ، ١٩٢ ، ٧٩/١	٩٠	٤٠٢/١	٧١
٤٩٤ ، ٤٨٩ ، ٤٨٨ ، ٤٨٤		٤١٠ ، ٤٠٩ ، ٤٠١/١	٨٢-٧٤
٣١٠/٣ ، ٦١٩/٢ ، ٤٩٦		٤٢٢ ، ٤١٥ ، ٤١٤ ، ٤١١	
٤٥٤/٤		٤٦٨ ، ٤٢٤ ، ٤٢٣	
٤٩٨ ، ٤٩٦ ، ٤٦٩/١	٩١	٤٠٥ ، ٤٠٣ ، ٤٠٢/١	٧٤
٥٠٢ ، ٥٠١ ، ٥٠٠ ، ٤٩٩		٥٣٩/٣ ، ٤٤٢ ، ٤٠٨ ، ٤٠٧	
٢٩٨/٤ ، ٥٢٥ ، ٢١٧/٢		٦٢٤/٢	٧٥
٥٠٨ ، ٥٠٧ ، ٥٠٤ ، ٧/١	٩٢	٤٢٢ ، ٤١٥ ، ٤١٢/١	٧٦
٥٢٥/٢ ، ٥١١		٤٤٤ ، ٤٤٢ ، ٤٤٠ ، ٤٢٧	
٥١٢ ، ٥١١ ، ٤٩٧/١	٩٣	٦٢٤ ، ٦٢٣ ، ٦٢١/٢	
٥٢١ ، ٥٢٠ ، ٥١٦ ، ٥١٥		٥٩٧ ، ٥٤٤/٣	
٥٧٩/٤ ، ٢١٧/٢ ، ٥٢٤		٤٤٤ ، ٤٢٧-٤٢٤ ، ٤١٤/١	٧٩-٧٨
١١٣/٥		٤٢٧ ، ٤٢٢ ، ٤١٥/١	٨٠
٥٢٨ ، ٥٢٥ ، ٥٢٠/١	٩٤	٤٤٦ ، ٤٢٨	
٥٥٩ ، ٥٥٤ ، ٥٣٧ ، ٥٣٠/١	٩٧-٩٥		

١٩١، ١٦٥، ١٦٢، ٧٢/٢	١١٥	٦١، ٤١، ٣٤/٢	٩٥
٢٠٢، ٢٠١، ١٩٤/٢	١١٦-١٢٠	٣٤، ١٦، ١٣/٢	٩٧
٢٠٨، ٢٠٦، ٢٠٥		٥/٢	٩٩-٩٨
١٩٩، ١٩٨، ١٩٥/٢	١١٦	٤١، ٣٤، ١٦، ١٣، ٦، ٥/٢	٩٨
٥٦/٤، ٦٠٣، ٢٠١		٢١، ١٨، ١٧/٢، ٥٣٢/١	٩٩
٣٨٣/١	١١٧	٤٢٢/٣، ٤١، ٣٤، ٣٢	
٣٨١، ٢١٨، ٢١٥/٢	١١٩	٤٢، ٤١، ٣٨، ٣٦، ٣٣/٢	١٠٤-١٠٠
٢٥٧/٣		٥٧، ٥٦، ٥٣، ٤٦، ٤٥	
١٧٣/٣، ٤٨٣، ٢٢٤/٢	١٢٠	٥٠١/٥	١٠١
٧٦/٢، ٥٢٢، ٣٧١/١	١٢١	١٥٢/٤	١٠٣
٢٨، ٢٧/٣، ٢٣٢، ١٤٩		٧٥، ٧٤، ٧٠، ٦٦، ٦٠/٢	١٠٤
٢٣٢، ٢٣١/٤، ٣٧، ٢٩		٧٤، ٧٠، ٦٩، ٦٦/٢	١٠٥
٤٤٢، ٤٠٧، ٤٠٦/٥		٧٠/٢	١٠٧-١٠٦
٤٨٥، ٤٤٣		٧٩، ٧٨، ٧٤، ٧٠/٢	١٠٦
٥٣٤/٢، ١٩٧، ١٠٦/١	١٢٢	١٣٠، ١٢٦، ٧٩/٢	١١٠-١٠٧
٣١٩/٤، ٥٩٥/٣	١٢٤	٤٣٧، ٤١٢، ٨٥، ٨٤، ٧٩/٢	١٠٧
١٤/٣، ١٩٢/١	١٢٥	٩٨، ٩٦، ٩٥، ٨٥/٢	١٠٨
٢٣١، ٢٢٨، ٢٢٦/٢	١٢٨	٤٧٦، ١٠٦	
٢٤٤، ٢٤٣، ٢٤٢، ٢٣٣		٥٦٠/٢	١١١-١٠٩
٢٦٤، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٥٠		١٢٤، ١٠٨، ١٠٧/٢	١٠٩
٦٠٨/٥، ٢٠٤، ٢٠٣/٣		١١٣/٣، ٤٦٢، ١٢٦	
٢٦٤، ٢٥٦، ٢٥٥/٢	١٢٩-١٣٤	١١٠/٤، ٢٢٣/١	١١٠
٣٠٧، ٢٧٨، ٢٧٤		١٣١، ١١٧، ١٠٨/١	١١١
٢٨٣، ٢٨٢، ٢٧٨/٢	١٣١-١٣٤	١٥٣، ١٣٧، ١٣٦/٢	١١٥-١١٢
٣٠٠، ٢٩٨		١٧٠، ١٦٨، ١٥٨، ١٥٧	
٥١١/٥، ٣٠٩/٤	١٣٣	٣٤٢، ٢٥٢، ٢٥١/١	١١٢
٣١٠/٢	١٣٥	١٤٠، ١٣٧، ١٣٥، ٩٨/٢	
٤٤٤/٢	١٣٦	٣٢٤/٤، ١٥٢، ١٤٩	
٧٧/٢، ٥٢٣، ٣٧٤/١	١٣٧	٩٤/٥، ٤٣٤، ٣٨٨	

٤٧/٤، ٢٦/١	١٥٧	٤٣٧/٢	١٣٨
٥٨٩، ٥٨٨، ٥٧٨، ٥٦٠/٢	١٥٨	٤٣٧/٢	١٣٩
٦٠٨، ٦٠١/٢	١٥٩	٤٢٣/٤	١٤٠
٢٢٨/٣، ٦١٠، ٦٠٨/٢	١٦٠	٣٣٣، ٣٣١، ٣٣٠/٢	١٤١
٢٥٥		١٢٩/٤، ٤١٠، ٣٣٧	
٦١٣/٢	١٦١	٣٤٤، ٣٣٣/٢	١٤٢
٦٢٦/٢	١٦٣-١٦٢	٤١٠، ٣٥٨، ٣٤٤، ٣٣٤/٢	١٤٣
٦٣٠/٢	١٦٤	٣٥٦/٢	١٤٤
٦٣٥، ٤٠٧/٢	١٦٥	٣٥٧، ٢١٨/٢، ٤٧٠/١	١٤٥
﴿سورة الأعراف﴾		٣٦٤، ٢١٧/٢، ٤٧١/١	١٤٦
٨/٣	٢-١	٣٨٦	
٥/٣	٣-١	٤٠٧، ٤٠٣/٢	١٤٧
٣٧، ٣٤، ٣٢، ٢١، ٢٠/٣	٣	٢١٨، ٢١٧/٢، ٤٧١/١	١٤٨
١٢٣، ٩٢، ٩١، ٤١		٤١٦، ٤١١، ٤٠٩، ٣٦٤	
٥٤، ٤٩، ٤٨، ٤١، ٤٠/٣	٧-٤	٤٣٤، ٤٢٩، ٤٢٨، ٤٢٦	
٥٧، ٥٦		٤١٧، ٨٢/٢، ٢٢٥/١	١٤٩
٧٠، ٦٧، ٦٣، ٦١/٣	٧-٦	٣٣٤، ٣٦/٤، ٤٣٧-٤٣٥	
٦١، ٥٨/٣، ٥٧٦/٢	٦	١٦٩/٣، ٤٣١، ٤٣٧/٢	١٥٠
٣٤٨/٥، ١٢/٤، ٣٥٣		- ٥١٦، ٥٠٤، ٤٤٤/٢	١٥٣-١٥١
٢٥٥/٢، ٣٩٥، ٣٩٤/١	٧	٥٢٣، ٥٢٠، ٥١٨	
٥٦٨، ٤٨٤		٤٤٤، ٢١٧/٢، ٤٩٧/١	١٥١
٩٢، ٩١، ٨٩، ٨٥، ٦٩/٣	٩-٨	٤٨٢، ٤٧٤، ٤٦٨، ٤٤٥	
٢٨٥، ٨١، ٧٩/٣، ٦١٠/٢	٨	٥٢٣، ٥٠٠، ٤٨٨، ٤٨٧	
- ١٠٠، ٩٦، ٩٤ - ٩٢/٣	١٣-١٠	٤٠٩/٤، ١١٣/٣، ٥٢٥	
١١٥، ١١٢ - ١٠٨، ١٠٣		١٠٨/٣	١٥٤-١٥٣
١١٩، ١١٨		٥٣٥/٢، ٢٣٣/١	١٥٣
١٢١، ٢٠/٣	١٢-١١	٥٢٥، ٥٢٤/٢	١٥٤
١٥٢/٥، ٤١٩/٤	١١	٥٣٦، ٥٢٥، ٥٢٤/٢	١٥٥
		٥٥٣/٢	١٥٧-١٥٦

— ٢٧٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧١/٣	٤٤	١٢١ ، ١٨/٢ ، ٢٣/١	١٢
٦٢١ ، ٦٢٠ ، ٢٧٦		١٥٢/٥ ، ٤٦١	
٢٨٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢/٣	٥١-٤٦	٣٤٠/٢	١٧-١٦
٢٩٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩١ ، ٢٨٩		٢٧٦/٥ ، ٣٤٤/٢	١٦
٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠١ ، ٢٩٧		٤٣٧ ، ٣٥٦/٢	٢٨
٣١٣ ، ٣١٢		٥١٣/١	٣٠
٣٢٧/١	٤٩	١٥١ ، ١٤٩/٣ ، ٣٣٢/٢	٣١
٣٠٣ ، ٢٩٩/٣ ، ٢٨٤/٢	٥٠	١٦٥ ، ١٥٩ ، ١٥٦ ، ١٥٤	
٣٠٥		١٦٧	
٢٤٠/١	٥١	١٧٢ ، ١٧٠ ، ١٦٨/٣	٣٢
٣٠٠/٥	٥٢	١٧٨ ، ١٧٧ ، ١٧٥ ، ١٧٣/٣	٣٣
٣١٨ ، ٣١٥ ، ٣١٤/٣	٥٤-٥٢	١٩٠ ، ١٨٥ ، ١٨٤/٣	٣٧-٣٤
٣٤٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣١		١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩١	
٣٤١		٢٠٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٠	
٤٢٨/٢	٥٣	١٨٩ ، ١٨٧ ، ١٨٥/٣	٣٤
٣٤٢/٣ ، ٥٨٤/٢ ، ٢٣/١	٥٤	٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٣-٢٠٩/٣	٣٧
٣٧٦ ، ٣٥٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٣		٢٢٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢-٢٢١/٣	٤٠-٣٨
٣٩٠ ، ٣٨٤ ، ٣٨٢ ، ٣٨١		٢٤٩ ، ٢٤٠ ، ٢٢٨-	
٤٩٤ ، ٣٩٦		٢٧١ ، ٢٥٧/٢ ، ٢٤٢/١	٣٨
٣٧٣ ، ٣٤٢ ، ٣٤١/٣	٥٧-٥٤	٥٠٠/٥	
— ٤٠٤ ، ٤٠٢ ، ٣٩٩ ، ٣٩٧		٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٢١٣/٣	٤٠
٤١٣ ، ٤١٢ ، ٤٠٨ ، ٤٠٦		٢٤٧ ، ٢٤٤	
٤٢٩ ، ٤٢٥ ، ٤٢١ ، ٤١٦		٥٥٨/٥	٤١
٣٠٠/١	٥٥	٢٨٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٦ ، ٢٤٩/٣	٤٦-٤٢
١٨-١٧/٢ ، ٢٣/١	٥٧	٢٦٠-٢٥٥ ، ٢٥١-٢٤٩/٣	٤٣-٤٢
٤٤٢ ، ٤٣٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٠/٣	٥٨	٢٦٩-٢٦٣ ، ٢٦١ ، ٨٩/٣	٤٣
٤٤٣ ، ٤٤٢/٣	٦٢-٥٩	١٧٦/٤ ، ٦١٩ ، ٢٧١	
— ٤٤٨ ، ٤٤٣/٣ ، ٤٥١/٢	٥٩	٣٤٤ ، ٣٤٣	
٤٧٦ ، ٤٧٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٢			

٥٩١ ، ٥٨٩ ، ٥٨٨/٣	٨٩-٨٥	٥٦٩ ، ٥٣٩ ، ٥٠٩ ، ٤٧٧	
— ٥٩٨ ، ٥٩٥ ، ٥٩٤ ، ٥٩٢		٥٧٤	
٦١٠ ، ٦٠٦ ، ٦٠٠		٤٦٠ ، ٤٥٦ ، ٤٥٣/٣	٦٠
٥٧٤/٣ ، ٥١٤ ، ٤٥١/٢	٨٥	٤٧٨ ، ٤٧٣	
— ٥٨٤ ، ٥٨١ ، ٥٧٨ ، ٥٧٦		٤٨٠ ، ٤٧٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٤/٣	٦١
٦٠٨ ، ٦٠٠ ، ٥٩٠ ، ٥٨٧		٤٥٦ ، ٤٥٥/٣	٦٢
٦٧/٤ ، ٤٠٣ ، ٨٧/١	٨٦	٤٦٧ ، ٤٦٦ ، ٤٥٦/٣	٦٤-٦٣
٢٧٥/٥ ، ٥٣٠ ، ٤٠٩ ، ٣٠٥		٤٧٣ ، ٤٧٢ ، ٤٧٠ ، ٤٦٨	
١٦٥/١	٨٩	٤٥٩-٤٥٦ ، ١٩٥/٣	٦٣
٦١٢ ، ٦٠٧ ، ٦٠٦/٣	٩٠	٤٨٠ ، ٤٧٩ ، ٤٧٨-٤٧٣/٣	٦٨-٦٥
٦٢٠ ، ٦١٥ ، ٦١٢/٣	٩٢-٩١	٤٧٧ — ٤٧٤/٣ ، ٤٥١/٢	٦٥
٦٠٩ ، ٦٠٨ ، ٥٣٢/٣	٩١	٥٧٤ ، ٥٧٠ ، ٥٣٩ ، ٥٠٩	
٦١١ ، ٦١٠		٤٨٣/٣	٧٢-٦٩
٦٢٥ ، ٦٢١ ، ٦٢٠/٣	٩٣	٤٨٦ — ٤٨٤ ، ٤٧٥/٣	٦٩
٦٢٨-٦٢٥/٣ ، ٢٤٦/١	٩٥-٩٤	٥٢٢ ، ٤٩٠	
٦٣٠ ، ٦٢٩/٣	٩٦	٥٠٥ ، ٤٩٥ ، ٤٩٣-٤٩١/٣	٧٢-٧٠
٤٨/٣	٩٩-٩٧	٥٠٨-	
٦٠٥/٤	١٠١-٩٧	٥٢٣ ، ٥٢٢ ، ٥٠٨/٣	٧٥-٧٣
٧٠٦/٤	٩٨	٥١١ ، ٤٧٦/٣ ، ٤٥١/٢	٧٣
٢٧ ، ٢٦ ، ١٣ ، ٨ ، ٧/٤	٩٩	٥٣٩ ، ٥٢٠ ، ٥١٩ ، ٥١٢	
٤٣ ، ٤٠ — ٣٨ ، ٣١ — ٢٧/٤	١٠٠	٥٧٤ ، ٥٧٠	
٦٠ — ٥٢ ، ٥٠ ، ٤٧ — ٤٤/٤	١٠٥-١٠١	٥٣٤ ، ٥٢٧/٣	٧٩-٧٥
٦٥		٥١٧ ، ٥١٦ ، ٥٠٩/٣	٧٧
٣٦٥/١	١٠١	٥٣٤ ، ٥٣٢ ، ٥١٩/٣	٩١-٧٨
٥٧٢/٣	١٠٣	٦١٢ ، ٦٠٩	
٧٣-٧١ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٥/٤	١٠٥-١٠٤	٥٤١ ، ٥٣٩ ، ٥٣٥/٣	٨٤-٨٠
٧٤ ، ٧٣/٤	١٠٦	٥٦٨-٥٦٣ ، ٥٤٧ ، ٥٤٣	
٥٥٨/٤ ، ٢٢٧/٢	١١١	٥٩٣ ، ٥٩٢ ، ٥٦٩/٣	٨٧-٨٥
٧٥ ، ٧٤/٤	١١٤		

٢٧٧/٣، ١٩٨/٢، ٢٥٤/١	١٤٦	٨١، ٧٨-٧٥/٤	١١٦-١١٥
٢٩٨، ٩٣/٥		٩٢، ٩٠-٨٨، ٧٦، ٧٥/٤	١٢٤-١١٥
١٦٨، ١٦٥، ١٦٣، ١٦٢/٤	١٥٠-١٤٨	٨٧، ٨٦، ٨٢، ٨١/٤	١١٩-١١٧
٨٢، ٨١/١	١٤٨	٨٨-٨٦، ٨٤/٤	١٢٠
١٧٢، ١٦٩/٤	١٤٩	- ١٠٠، ٩٨-٩١، ٨٧/٤	١٢٩-١٢٥
- ١٨٢، ١٧٧، ١٧٦/٤	١٥٥-١٥٠	١٣٦، ١٠٣	
١٩٤، ١٩١-١٨٩، ١٨٥		١١١، ١٠٩، ١٠٦-١٠٣/٤	١٣٥-١٣٠
١٩٩		١٢٣، ١٢٠-١١٧، ١١٣-	
١٥٨، ١٠٢/١	١٥٥	١٢٥-	
٤٦٠/٣	١٥٧-١٥٦	١٢٠/٥	١٣٢
٢٠٠، ١٩٩/٤	١٥٩-١٥٦	١٢٠/٥	١٣٥-١٣٤
٤٠٣، ٣٨٧/٢، ٣٤٠/١	١٥٦	١٣٢/٤	١٣٦
٢٠٥، ٢٠٠/٤		١٣٠-١٢٥/٤	١٣٧
٥٣٥، ٢٢٠/٢، ٤٨٢/١	١٥٧	١٣٠/٤	١٣٩-١٣٨
٢٠٨-٢٠٥، ٢٠٠/٤		٥٨٢، ١٣٣، ١٣٠/٤	١٣٨
٤٤٨/٥، ٢١٧، ٢١٦		٣٦٧/٥	
٢٢٠، ٢١٨/٤، ٥٠٧/١	١٥٨	١٣٥، ١٣٤، ١٣٠/٤	١٤٠-١٣٩
٢٢٨، ٢٢٣، ٢٢٢		١٣٦، ١٣٥، ١٢٦/٤	١٤١
٢٤٤، ٢٢٢/٤، ٥٣٧/١	١٥٩	١٤٠، ١٣٩	
٣٥٨، ٢٩٤، ٢٤٧، ٢٤٥		١١٥، ٢٢/٣، ٧٨/١	١٤٢
٢٤١/٤	١٦٠-١٥٩	١٧٩، ١٤٣-١٤٠/٤	
٢٥١، ٢٤٩-٢٤٧/٤	١٦٠	١٥٢/٥	
٢٥٩، ٢٥٤		١٤٧، ١٤٤، ١٤٣/٤	١٤٤-١٤٣
٢٦٣، ٢٦٠، ٢٥٩/٤	١٦١	١٩٢، ١٥٦-١٥٤، ١٤٨	
٢٦٢، ٢٦١		٤٨، ٤٦/٢	١٤٣
٢٧٠، ٢٦٧، ٢٦٢/٤	١٦٢	٢١/٤، ٥٦٨، ٤٠٤/٢	١٤٤
٢٧٤، ٢٧٠/٤، ٥٩/١	١٦٣	١٦٠، ١٥٧	
٢٧٨، ٢٧٥		١٥٧/٤، ٣٩٢/٢	١٤٥

٣٨٥/١	١٨٧	— ٢٧٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢/٤	١٧٠-١٦٤
٣٨٩، ٣٨٧-٣٨٣/٤	١٩٠-١٨٨	، ٢٩٣ ، ٢٩١ ، ٢٨٩ ، ٢٨١	
٣٣٣/٣، ٣٨٧، ٢٩١/١	١٨٨	٣٠٤، ٣٠٣، ٣٠١	
٢٧٩، ٢٧٨/٣، ٧/٢	١٨٩	٢٨٤، ٢٨٣، ٢٨١، ٢٧٢/٤	١٦٥
— ٤١٩ ، ٤١٥ ، ٤٠٤/٤	١٩٤-١٨٩	٢٨٩، ٢٨٤، ٢٧٦، ٢٧٢/٤	١٦٦
٤٢١، ٤٢٢		، ١٤٠/٤ ، ٢٤٥ ، ٧٤/١	١٦٨
— ٤٣٢ ، ٤٣٠ — ٤٢٤/٤	٢٠٣-١٩٤	، ٢٩٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٧٨	
، ٤٤٢ ، ٤٣٩ ، ٤٣٨ ، ٤٣٥		٢٩٧	
، ٤٤٨ ، ٤٤٧ ، ٤٤٥ ، ٤٤٤		١٨١/٥	١٦٩
٤٥٦، ٤٥٥، ٤٥٣		٣١٨، ٣٠٤/٤	١٧٤-١٧١
١٥٠/٢	١٩٩	، ٣١٤ ، ٣١٠ ، ٣٠٨ ، ٥٢/٤	١٧٣-١٧٢
١٥٠/٢	٢٠٠	٣١٨-٣١٦	
٤٤٦، ٤٤٥/٤، ١٢٨/٢	٢٠١	٢٧٣/٣	١٧٢
٤٦١، ٤٥٦/٤	٢٠٤	٣٣٠، ٣٢٦، ٣١٨/٤	١٧٧-١٧٥
، ٤٦٤ ، ٤٦١/٤ ، ٤٠١/٣	٢٠٥	٤٣٦/٣	١٧٦
٤٦٥		، ٣٥١ ، ٣٣١ ، ٣٣٠/٤	١٨٦-١٧٨
٤٦٦، ٤٦٥/٤	٢٠٦	٣٥٧، ٣٥٦	
﴿سورة الأنفال﴾		، ٣٤٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٦/٤	١٧٨
، ٤٧٤ ، ٤٧٢ ، ٤٦٧/٤	٦-١	٤٥٤، ٣٤٤	
، ٤٨٤ ، ٤٨١ — ٤٧٩ ، ٤٧٦		، ٣٤٧ ، ٣٤٤/٤ ، ٥٥٩/١	١٧٩
٤٨٩-٤٨٦		٢٩٤/٥، ٣٩٧، ٣٥١	
٥٥، ١٦/٥	١	٣٥٩، ٣٥٧، ٢٤٧/٤	١٨١
١٩/٣	٢	٥٢٢/٣، ٣٣٠/١	١٨٣-١٨٢
٢٢٤، ٢٢٣/٥	٤	، ٣٦٢ ، ٣٦٠ ، ٣٥٩/٤	١٨٧-١٨٢
٧١/٥	٦-٥	— ٣٧٣ ، ٣٧٠ — ٣٦٦ ، ٣٦٤	
، ٥٠٠ ، ٤٨٦/٤ ، ٤٥٦/٢	٧	٣٨٣، ٣٧٥	
، ٥٢٨ ، ٥٢٧ ، ٥٢٥ ، ٥٢٤		٣٦٦، ٣٦٤، ٣٦٠ ، ٨/٤	١٨٣
٥٤٧، ٥٣٧، ٥٣٠		، ٣٧٠ ، ٣٤٣/٤ ، ٤١٠/١	١٨٥
٤٥٦/٢، ٢٣٤/١	٩	٣٧٣، ٣٧٢	

— ٥٧٠ ، ٨/٤ ، ١٣٥/٢	٣٠	٨٠/٥	١٠
، ٥٧٨ ، ٥٧٥ ، ٥٧٣		، ٥٠٥ — ٥٠٣ ، ٤٨٩/٤	١١-٧
٥١٤ ، ٣٠٨/٥		، ٥٣١ ، ٥٢٩ ، ٥٢٨ ، ٥٢٣	
٥١٦/١	٣١	، ٥٤٢ ، ٥٣٩ ، ٥٣٧ — ٥٣٥	
، ٥٨٥ — ٥٨١ ، ٥٢١/٤	٣٣-٣٢	٥٤١	
٥٨٨ ، ٥٨٧		٥٤٦ ، ٥٤٤ ، ٥٤٣ ، ٤٩٩/٤	١١
٤٩٢/٣ ، ٣٨٠ ، ٣٦٧/١	٣٢	٧١ ، ٦٥/٥ ، ٥٤٨ —	
٣٢٦/٥ ، ٥٨٩ — ٥٨٥/٤	٣٤	، ٥٣٥ ، ٥٠٦ ، ٤٨٤/٤	١٢
، ٥٩٤ — ٥٩٢ ، ٥٨٩/٤	٣٧-٣٥	، ٥٥٣ ، ٥٥٠ — ٥٤٧ ، ٥٣٨	
٦٠٢ — ٥٩٩ ، ٥٩٧ ، ٥٩٦		٣٩٣/٥ ، ٥٥٤	
٥/٥	٤٠-٣٨	٥٥٥/٤	١٣
، ٧ ، ٦ ، ٥/٥ ، ٣٤١/١	٣٨	٢٦٩/١	١٥
٤٠٢ ، ٤٧٩		٣٩٣/٥	١٦
، ١٧٩/٣ ، ١٧٧ ، ١٧٦/٢	٣٩	١٦٥ ، ١٦٤/١	١٩
٢١٧ ، ٨٠ ، ٧/٥ ، ١٩٨/٤		، ٤٥٥/٥ ، ٢٧٣ ، ٤٩/١	٢٠
١١ ، ١٠ ، ٨/٥	٤٠	٦٠٤	
١٢/٥	٤٢-٤١	٣٣٠/٥	٢١
٤٩/٥	٤٤-٤١	٢٥٠/٢	٢٣-٢٢
، ٣٧٣/٤ ، ٥٥١ ، ٢٥/١	٤١	٦١١/٥ ، ٢٠٧/٣	٢٣
، ١٥ — ١٢/٥ ، ٥٦٩ ، ٤٧٤		١٦٦/٥ ، ٥٥٨ — ٥٥٧/٤	٢٤
— ٥٣ ، ٥٠ ، ٤٥ ، ٤٣ ، ٢٦		، ٥٦٠ ، ٥٥٩/٤ ، ٤٦٤/٣	٢٥
٦٧ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٦		٥٦١	
٦٦/٥	٤٣-٤٢	، ٣٠٥/٤ ، ٤٠٣ ، ٨٧/١	٢٦
، ٦٢ ، ٦١ ، ٥٦/٥ ، ٥٥١/١	٤٢	٥٦٤ — ٥٣٠	
٧٠ ، ٦٧ — ٦٤		٥٦٦ ، ٥٦٥/٤	٢٧
٧٢ — ٧٠/٥	٤٣	٥٦٨ ، ٥٦٧/٤	٢٨
٧٤ — ٧٢/٥	٤٤	٥٨١ — ٥٧٨ ، ٥٦٨/٤	٣٣-٢٩
٧٥ ، ٧٤/٥	٤٨-٤٥	٥٧٠ ، ٥٦٩ ، ٥٦٦/٤	٢٩

١٦٣ - ١٦١/٥ ، ٢٣٢/٣	٦١	٥٤٥ ، ١٨٦/٢ ، ٥٤٧/١	٤٥
١٦٥		٤٧٨ ، ٧٧ ، ٧٥/٥ ، ٢٣٤/٣	
١٦٥ - ١٦٣/٥	٦٢	١٥٧ ، ١٠٦ ، ٨٩ ، ٨٠	
١٦٧ ، ١٦٦/٥	٦٣	٨٠/٥ ، ٢٣٢/٣ ، ٥٣٤/٢	٤٦
١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٧١ - ١٦٧/٥	٦٤	١٥٤ ، ٨٩ - ٨٤	
١٧٦ - ١٧٤/٥	٦٥	٩٣ ، ٩٢ ، ٩٠ ، ٨٩/٥	٤٧
١٧٧/٥	٦٦	٩٩ ، ٩٤/٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٥/٤	٤٨
١٧٨/٥	٦٩-٦٧	١٠٢ -	
٥١٣/٤ ، ٥٦٨/٢ ، ٣٠٠/١	٦٧	١٠٣/٥	٥٤-٤٩
١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٨/٥		- ١٠٦ ، ١٠٤ ، ١٠٣/٥	٤٩
١٧٩/٥ ، ٥٦٤ ، ٥١٣/٤	٦٨	١١٠ ، ١٠٨	
١٨١		١١٦ ، ١١٥ ، ١١٠/٥	٥١-٥٠
١٨٠/٥ ، ٥٦٤ ، ٥١٣/٤	٦٩	٢١٤ ، ٢١٣/٣ ، ٥١٧/١	٥٠
١٨٢/٥	٧٥-٧٠	١١٤ - ١١٠/٥	
١٧٨ ، ١٨٢/٥ ، ٥١٤/٤	٧٠	١١٨ - ١١٦/٥	٥١
١٩٤ - ١٨٩		١٢١ ، ١٢٠ ، ١١٨/٥	٥٢
١٩٦ - ١٩٤/٥	٧١	١٢٤ - ١٢٢/٥	٥٣
- ٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠١/٥	٧٢	١٢٩ ، ١٢٧ - ١٢٤/٥	٥٤
٢٣٣ ، ٢٢٨ ، ٢١٠		١٣٠/٥	٥٨-٥٥
٢١٠/٥	٧٥-٧٣	١٣١ ، ١٣٠/٥	٥٥
٢١٤ ، ٢١٢ ، ٢١٠/٥	٧٣	١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٣١/٥	٥٦
٢٢٢ ، ٢١٩ ، ٢١٦		١٣٤ ، ١٣٣/٥ ، ١٩١/٣	٥٧
٢٢٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢/٥	٧٤	١٣٧ ، ١٣٦	
٢٠٢/٥ ، ٢١ ، ٢٠/٤	٧٥	٢٤٩ ، ١٤٤ ، ١٤٢ - ١٣٧/٥	٥٨
٢٣٦ ، ٢٣٣ - ٢٣١ ، ٢٢٨		١٥٠ - ١٤٨ ، ١٤٦ - ١٤٤/٥	٥٩
﴿سورة التوبة﴾		١٥٠/٥	٦١-٦٠
- ٢٤٩ ، ٢٤٧ ، ٢٤٥/٤		٥٣٣ ، ١٨٥/٢ ، ٥٤٦/١	٦٠
٢٨٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥١		٤٣٦ ، ١٥٩ - ١٥٦/٥	
٢٤١/٥	٤-١	١٦٠/٥	٦٩-٦١

٣٢٥/٥، ٣١٠/٤، ٢٧٥/٢	١٧	٢٦٥، ٢٥٨، ٢٥١، ١٥٠/٥	٢
٣٣٠		٢٥٣، ٢٥١/٥، ٢٩٠/٤	٣
٣٣٤، ٣٣٢-٣٣٠/٥	١٨	٢٥٨، ٢٥٦	
٣٣٨ - ٣٣٦، ٣٣٤/٥	١٩	٢٦٠ - ٢٥٨، ٢٥٠/٥	٤
٣٤٣-٣٤٠		٢٨٧، ٢٦٢	
٣٤٢/٥	٢٤-٢٠	٢١٢/٥	٨-٥
٣٤٣، ٣٤٢/٥	٢٢-٢٠	٤٩١، ٧٨/٢، ٣٢٦/١	٥
٣٥٤، ٣٥٣، ٣٤٥/٥	٢١	٢٤٧، ١٦٣/٥، ٤٩٥	
٣٥٥، ٣٥٤/٥	٢٢	٢٦٦، ٢٦٥، ٢٦٣، ٢٦٢	
٣٥٨، ٣٥٦، ٣٥٥/٥	٢٣	٢٧٤، ٢٧٣، ٢٧٠، ٢٦٨	
٣٦٤، ٣٦١، ٣٥٩، ٣٥٨/٥	٢٤	٢٧٨، ٢٧٧، ٢٧٦	
٣٦٥-٣٦٤/٥	٢٧-٢٥	٢١/٤، ٥٦٨، ٤٠٤/٢	٦
٣٨٦/٥	٢٦-٢٥	٢٨٠، ٢٧٩/٥	
٣٩٩/٣، ٤٠٢/٢، ٣٢٦/١	٢٥	٢٨٥، ٢٨٤/٥	١١-٧
٣٧١، ٣٦٥/٥، ٥٨٠، ٤٠		٢٨٥، ٢٥٩، ٢٥٠، ٢٤٩/٥	٧
٤٩٨، ٣٨٩-٣٨٦		٤٠٤، ٢٩٠، ٢٨٨-	
٣٩٢ - ٣٩٠/٥، ٥٣٨/٤	٢٦	٢٩٦-٢٩٤، ٢٨٩، ٢٨٨/٥	٨
٣٩٥، ٣٩٤		٢٩٩، ٢٩٨، ٢٩٦/٥	٩
٣٩٧، ٣٩٦، ٣٩٤/٥	٢٧	٢٩٩/٥	١٠
٤٠٢/٥	٢٩-٢٨	٣٠٠، ٢٩٩، ٢٧٨/٥	١١
٤٠٤ - ٤٠٢، ٢٨٧/٥	٢٨	٣٠١، ٣٠٠/٥	١٦-١٢
٤١٨-٤١٣		٣٠٧-٣٠١/٥	١٢
- ٤١٨، ٤٠٦، ٣٦٩/٥	٢٩	٣٠٨، ٣٠٧، ٣٠١/٥	١٣
٤٣٠-٤٢٧، ٤٢١		٥٣٠، ٣٣٤، ٣١٣-٣١٠	
٤١٨/٥	٣١-٢٩	- ٣١٣، ٢٥١/٥، ٥٣٩/٤	١٤
٤٢٩/٥	٣١-٣٠	٥٦٥، ٣٩٤، ٣١٥	
٤٣٩/٥	٣٣-٣١	٣١٧، ٣١٣/٥	١٥-١٤
٤٣٢، ٤٢٩، ٤٠٦/٥	٣٠	٣١٨/٥	١٩-١٦
٤٤٠-٤٣٧		٣٢٥-٣٢١، ٣١٩، ٣١٨/٥	١٦

٥٣٨ ، ٥٣٦/٥ ، ٢٤/١	٤٤	٤٧٧/٢ ، ٥٢٤ ، ٣٧٤/١	٣١
٥٤٩ ، ٥٤٠		٢٣٤/٤ ، ٣٥/٣ ، ٢٣٤	
٥٤١-٥٣٩/٥	٤٥	٤٠٨ ، ٤٠٦ ، ٢٧٠/٥	
٥٤٢/٥ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩/١	٤٧-٤٦	٤٤٨ ، ٤٤٧ ، ٤٤٠ ، ٤٣٩	
٣٨ ، ٣٧/٢ ، ٥٥٤/١	٤٦	٤٨٧	
١٩٧/٥ ، ٦٠١ ، ٣٣٥/٣		٣٦٥/٣ ، ٤٥٣ ، ١٨٢/١	٣٢
٥٤٣ ، ٥٤٢ ، ٣٢١		٥٧٧ ، ٤٥٠-٤٤٨/٥	
٣٣٥/٣ ، ٣٨/٢ ، ٥٥٤/١	٤٧	٤٥٢ ، ٤٥٠/٥	٣٣
٦٠٢ ، ٦٠١ ، ٣٣٦		٦٠٢/٤	٣٥-٣٤
٥٤٣ ، ٣٢١ ، ١٩٧/٥		٤٥٢/٥	٣٦-٣٤
٥٥٠ ، ٥٤٩ ، ٤٥٤ ، ٥٤٤		٢٧٣ ، ٤٩ ، ٢٤/١	٣٤
٥٥٢/٥	٥٢-٤٨	٤٥٦ - ٤٥٢ ، ٣٤٤/٥	
٥٥٥-٥٥٢/٥	٤٨	٦٠٤ ، ٤٥٩	
٥٥٨ ، ٥٥٧ ، ٥٥٥/٥	٤٩	٢٧٣/١	٣٥
٥٩٨ ، ٥٨٢		٢٦٢/٥ ، ٦٤/٤ ، ٦١٢/٢	٣٦
٥٦٠ ، ٥٥٩/٥	٥٠	٢٣٨/٤ ، ٣١/٣ ، ١٣٩/٢	٣٧
٥٦٣-٥٦٠/٥	٥١	٤٨٠ ، ٤٧٩ ، ١٦٨/٥	
٥٦٥ ، ٥٦٣/٥ ، ٦٠١/٢	٥٢	٤٩٦-٤٩١ ، ٤٨٧ ، ٤٨٥	
٥٦٦		٤٩٩/٥	٣٩-٣٨
٥٦٦/٥	٥٧-٥٣	٥٠٠/٥ ، ٢٢٥/٣ ، ١٤٣/١	٣٨
٥٧٥ ، ٥٦٨-٥٦٦/٥	٥٣	٥٠٧ ، ٥٠٣	
٥٧٢ ، ٥٦٩ ، ٥٦٨/٥	٥٤	٥١٣-٥٠٨/٥	٣٩
٥٧٥ ، ٥٧٣		٥٥٨/٤ ، ٢٣٧/٣ ، ١٨٩/٢	٤٠
٥٧٥/٥	٥٦-٥٥	٥١٤-٥١٢ ، ٣٩٣ ، ٨٨/٥	
٥٧٨-٥٧٥/٥	٥٥	٥٣٤-٥٣٠	
٦٢١-٥٧٩/٥	٥٦	٥٣٤/٥	٤٣-٤١
٥٨١ ، ٥٨٠ ، ٥٧٩/٥	٥٧	٥٣٥ ، ٥٣٤/٥	٤١
٥٨١/٥	٦٠-٥٨	٣٠٠/١	٤٣
٥٩٩ ، ٥٨٥-٥٨٢/٥	٥٨	٥٣٦ ، ٥٣٥/٥	٤٥-٤٤

٢٨٥/٢	١١٣	٥٨٦،٥٨٥،١٧٠/٥	٥٩
٥٧٣ ، ٢٨٥/٢ ، ٤٠٥/١	١١٤	٥٩٧-٥٩٤،٥٨٩-٥٨٦/٥	٦٠
٤٩،٢٥/٤،٣٧١/٣		٥٨٣/٥ ، ١٥٦ ، ١٠١/١	٦١
٥٤٥/٢	١٢٣	٦٠٢،٦٠١،٥٩٩،٥٩٨	
٣١٦ ، ٣١٥/٣ ، ٦٧/٢	١٢٥-١٢٤	٦٠٢/٥ ، ٢٧٣ ، ٤٩/١	٦٢
٤٥٦،٤٠،٣٩/٤		٦٠٥،٦٠٤	
٤٧٨/٤	١٢٤	٦١١،٦٠٧-٦٠٥/٥	٦٣
٥٤/٤،١٣٠/٢	١٢٥	٦١١/٥	٦٨-٦٤
٥٦٥/٢ ، ١٧٨ ، ١٧٧/١	١٢٨	٦١٣،٦١٢/٥	٦٤
٢٥/٤،٣٧١/٣		٣١١/٣	٦٦-٦٥
١٧٠/٥،٥٧١/٢	١٢٩	٦١٦-٦١٤/٥،٣١١/٣	٦٥
﴿سورة يونس﴾		٦١٨-٦١٦/٥	٦٦
٨/٣	١	٦٢١،٦١٨/٥،٢٨٢/٤	٦٧
٤٨٣ ، ١٩٥/٣ ، ٣٠٤/١	٢	٦١٨/٥	٦٨-٦٧
٤٨٤		١٢٦/٥	٧٠
٣٧٦/٣	٦-٣	٤٣٦/٤،٥٤٥،١٥١/٢	٧٣
٢٨٠/٣	٣	٩٤/٤	٧٤
٣٩٨/١	٥	٥٨٣/٥	٧٩
٢٦٥/٣،٢٨٣/١	٩	٥٦٧/٥	٨٠
٤٤٩/٤،٦٩/٢	١٥	٥٧٥/٥	٩٨
٥٢٧ ، ٣٠٧ ، ٦٦/١	١٨	٢٢٥،٢٢٤/٥	١٠٠
٣٤١/٣،٩٦/٢	-	٦١٣،١٥٩/٥	١٠١
٢٨٨ ، ٢٨٧/٢ ، ٢٣٦/١	٢٣-٢٢	٢٦٢ ، ٢٦١ ، ٧٣/٢	١٠٢
٤٥٨		٢٤٦/٤	
٢٩٨ ، ٢٢٥/٣ ، ١٤٣/١	٢٤	٤٥٦/٥	١٠٣
٥٠٠،٣٨٨/٥		٣٢٠/٥	١٠٥
٤٢٥/٢	٢٥	٣٢٣/٤	١٠٧
٢٦٧/٤،٥٦/٢	٢٦	٦١٨ ، ٦١٧ ، ٨٦/٣	١١١
٣٣٧/٤	٣٠	٥٠٢/٥،٣٤٢،١٧٤/٤	

٢٦٩ ، ١٦٩ ، ٦٤ ، ٦٢/٤		٣٤٢/٣ ، ٥٦٧/٢	٣١
٥٥٠ ، ٣٥٨ ، ١٢٩/٥		١٧٠/٢	٣٢
﴿سورة هود﴾		٤٢٢ ، ١٦٨/٤	٣٥
١٦٨/٢	١	٤٣١ ، ٢٠٠/٢ ، ١٦٨/١	٣٦
٣٦٨/٣ ، ٤٧٤/٢	٦	١٢٤/٣ ، ٤٣٤	
١٩٣/٢ ، ٤٧٨ ، ٢٩٤/١	٧	٢٠٤/١	٣٧
٤٠٨ ، ٦٦/٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤		٥٧٩ ، ٤٥٢/٤	٣٨
٢٠٠ ، ٦٨/٥ ، ٢٦٥/٤		١١٨/٥	٤٤
٣٨٠ ، ٣٦٧ ، ٢٤٢/١	٨	٩٧/٢ ، ٢٤٢/١	٤٧
١٨٨ ، ١٨٧/٣ ، ٩٧/٢		٢٥٨/١	٥٨
٢٤٣/٤		٢٢٩/٤ ، ١٦٩/٣ ، ٢٣٣/٢	٥٩
٢٥٨ ، ٢٥٦/١	١٠-٩	٦٥/٣ ، ٤٨٧ ، ٣٩٣/١	٦١
٢٥٨/١	١٠	٣٤/٣	٦٢
٥٦٣/٢ ، ٢٥٦/١	١١	٤٣٠ ، ١٩٨/٤	٦٣-٦٢
٤٧١ ، ١٥/٣ ، ١٧٦/١	١٢	٦٣٠/٢	٧٢
٥٨٠ ، ٤٥٢/٤	١٣	٢٢٢/١	٧٤
٥٨٠/٤	١٤	٨٦/٤	٨٢-٨١
٣٢٩ ، ٣٢٨/٥ ، ٢٥٤/٣	١٦-١٥	١٢٣/٤ ، ٤٠٤ ، ٤٠٣/٣	٨٨
٤٣٢/٥ ، ٣٥٢ ، ٢٥٠/١	١٦	١٧٩/٥ ، ٥١٢	
٥٧١		٤٥٩ ، ١٢٣/٤	٨٩-٨٨
٣١٥/٣ ، ١٩٤ ، ٦٧/٢	١٧	٤٠٤/٣	٨٩
٤٥٦ ، ٢٢٤/٤		٥٣/٢ ، ٣٧٨/١	٩٠
٣٨/٤	٢٠	٥٢٣/٣	٩٣
٣٠١/١	٢٤	١٥/٣	٩٤
٥١٠/٥	٢٥	٤٩٦ ، ٣٦٤/٥ ، ٣٥٧/٢	٩٧-٩٦
٣٢٣ ، ٣٢١ ، ١٨٢/١	٢٧	٦٢٦/٣	٩٨
٥١٩ ، ٣٢٤		٣٧٢/٤ ، ٤١٠/١	١٠١
٤٩٥ ، ٤٩٤ ، ٣٢٤ ، ٣٢١/١	٢٩	٢٦١ ، ٨٤ ، ٨٣/١	١٠٦
٣٢٤ ، ٣٢١/١	٣٠	٢٩٤ ، ٥١/٣ ، ٢٦٠/٢	

٥٣٢/٣	٦٨-٦٧	٣٨٥/٤، ٣٨٧، ٢٩٠/١	٣١
١٢٦/٥، ٥١٩/٣	٦٧	٤٥٣، ١٨٢/١	٣٢
٥٣٢/٣	٩٤-٦٧	٢٤٨/٣	٣٥
٣٨٨، ١٦٩/١	٦٩	٤٦٦، ٤٦١/٣	٣٦
، ٤٠/٢ ، ٣٨٩ ، ٣٨٨/١	٧٠	٤٦٨/٣	٣٧
٥٤٧/٥، ٣٣٣/٣		١٨٢/١	٣٨
٤٥١، ٤٥٠/١	٧١	٤٦٣، ٣٠٨، ٣٠٧/٣	٣٩-٣٨
٤٤/٤، ٤٥١/١	٧٢	، ٣٣٤ ، ٣٣٣ ، ١٨٨/٣	٤٠
٧٧/١	٧٣	٤٦٦، ٤٦٥، ٤٦٣	
٥٦٤/٣	٧٨-٧٧	٤٦٣/٣	٤٣-٤٢
، ٢٧٣/٢ ، ٣٨٩ ، ٦١/١	٧٧	٤٦٦، ٤٦٢/٣	٤٢
، ٦٠٣ ، ٤٥١ ، ٣٣٣/٣		٤٦٦، ٣٧٩/٣، ٥٧٥/٢	٤٤
٥٤٧/٥		٤٦٢/٣	٤٦-٤٥
٥٦٥/٣	٧٨	، ٦٠٤ ، ٣٣٣/٣ ، ٣٩٠/١	٤٥
، ٦٠٣ ، ٣٣٣/٣ ، ٣٨٩/١	٨٠	٥٤٨/٥	
٥٤٧/٥		٦٠٤/٣	٤٧-٤٦
، ٣٣٣ ، ٤٨/٣ ، ٣٨٩/١	٨١	٥٤٨/٥، ٣٣٤/٣، ٣٩٠/١	٤٦
٥٤٨/٥، ٦٠٣، ٥٦٧-٥٦٥		٥٤٨/٥، ٣٣٤/٣، ٣٩٠/١	٤٧
٥٦٩-٥٦٧، ٥٤١/٣	٨٣-٨٢	٤٠٥/٣، ٥٧٣/٢	٥٢
١٢٦/٥	٨٢	٥٩/٣، ١٨٢/١	٥٣
٥٨٥/٣	٨٤	٤٢٩/٤	٥٥-٥٤
٥١٤/٢	٨٥	٣٣٣/٥، ٤٤١/١	٥٦-٥٤
٥٥٦/٤	٨٨	٦٢٤/٣، ٤٤١، ٤٤٠/١	٥٤
٥٩٢، ٥٠٩/٣	٨٩	٤٢٩/٤	٥٦
١٧٦/٥، ٥٧١/٣	٩١	٣٠٥/٢	٥٧
٥٩٣/٣	٩٥-٩٤	٤٩٥/٣	٥٨
، ٦١٠ ، ٦٠٩/٣ ، ٢٧٨/١	٩٤	١٨٢/١	٦٢
٦٢٠		٥٣٢، ٥١٨/٣، ٤٩٣/١	٦٥
		٢٧٨/١	٦٦

١٨٧/٣ ، ٩٧/٢ ، ٢٤٢/١	٤٥	٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٤٤/١	١٠٢
٢٤٣/٤		١٢٠/٥ ، ٣٦٦/٤	
٥٧٢ ، ٥٧١/٢	٥٠	١٩٤/٢	١٠٣
٣٧١/٣ ، ٥٧٣/٢	٥١	٢٠٢/٢	١٠٥
٢٤ ، ٢١/٤ ، ٥٦١ ، ٤٠٤/٢	٥٤	٢٠٣/٣ ، ٢٤٦/٢	١٠٧-١٠٦
٤٩٢/١	٦٦	٦٠٨/٥ ، ٢٠٤/٣ ، ٢٥٠/٢	١٠٧
٤١٧ ، ٤١٦/٥	٦٧	٣٥٤/٥ ، ٢٥٩ ، ٢٠٤/٣	١٠٨
٣٣٤/٣ ، ٥٦٨/٢ ، ٣٨٩/١	٦٨	٦٠٨	
٤١٦/٥ ، ٢١/٤ ، ٦٠٤		١٨٦/٥ ، ١٥٣ ، ١٥٢/٣	١١٤
٥٤٨		٥٨٧/٤	١١٧
٤٩٢/١	٧٢	١٨٥ ، ١٨٢/١	١٢٠
١٤١/٣	٧٧	﴿سورة يوسف﴾	
١٥٣/٤	٨٠	٨/٣	١
٦٠٤/٣ ، ٣٨٩/١	٨٤	٣٤٥/٤	٢
٦٠٤ ، ٤٠٧/٣ ، ٣٨٩/١	٨٧	٣٣٩/٤ ، ٣٧٩ ، ٣٦٨/١	٣
٥٤٨/٥		٩٥/٢ ، ٢١٨/١	٤
٤٠٥ ، ١٩٧/٢ ، ٣٢١/١	٩٥	٣٣٩ ، ١٠٧/٤ ، ١٩٧/٢	٨
٢٢٢/٤ ، ٣٦٧/٣ ، ٥٧٠		١٧/٣ ، ٢١٤/٢ ، ١٥٦/١	١٧
٣٣٩ ، ١٧٠		٦٠٠/٥ ، ٢٣٦/٤	
٧٠/٥	١٠٠	٤٩٠/١	٢٥
٦٣٠/٢	١٠١	٤٩٠/١	٢٧-٢٦
٥٦/٤ ، ٦٠٤ ، ٦٠٣/٢	١٠٣	٤٩٠/١	٢٦
٤١٠/١	١٠٥	١٠١ ، ١٠٠/١	٢٧
١٠١ ، ٣٦/٣ ، ٤٣٨/١	١٠٦	٤٩٠/١	٢٨
١٩٨ ، ٦٢/٢ ، ٣٥٤/١	١٠٨	٦٢٠/٥	٢٩
٩٣/٥ ، ٤٥٣/٤ ، ٢٧٧/٣		٢٣٨/١	٣٣
٢٩٨		٤٤٤/٥	٤٠
٤٨٤ ، ٤٥٧ ، ١٩٤/٣	١٠٩	١٩٠/٤ ، ٣٧٠/٣ ، ٥٧٢/٢	٤٣
		١٩١	

١٢١/٥	٢	٤٨٤ ، ٤٨٣ ، ٢٥٠/١	١١١
٣٥٦/٥	٣	٩١/٤ ، ٥٣٦ ، ٤٧٣/٣	
٥٧٨/٣	٤	﴿سورة الرعد﴾	
٤٠٥ ، ٣٠٤/٢ ، ١١٠/١	٨	٣١ ، ٣٠/٢	٤-١
٥١٢/٥ ، ٥٧٠ ، ٤١٥		٨/٣	١
١٤٢/٣	١٠	٤٤٣/٢	٥-١
١٤٢/٣	١١	٣٧٧ ، ٣٧٦/٣	٤-٢
١٨٤/١	١٤-١٣	١٦ ، ١٤/٤	٢
١٠٣/٥ ، ٥٥٦/٤ ، ٨٤/٣	١٧	٥٧٠ ، ٤٠٥/٢	٤
٦٠٩ ، ١٢١		٣٣١/٥	٥
٥٧١/٥ ، ٢٥٤/٣ ، ٣٥٢/١	١٨	٢٥٠/٣ ، ٥٧٢ ، ٤٠٨/٢	٦
٥١١/٥	٢٠-١٩	٣٧٠/٣ ، ٥٦٣ ، ٣٩٨/١	٩
٤٤٣ ، ٤٠٧ ، ١٠١/٥	٢٢	٢٤/٤	
٥٢٨/٤	٢٤	٢٩٤/١	١١
١٧٤ ، ١٤٣/٢ ، ٢٦٩/١	٣٤	٢٤٢/٣	١٤
٥٣٣/٣		٤٥/٢ ، ٤٢٥ ، ٩٣/١	١٦
٤٢٤/١	٣٥	٤٢١/٤	
١٧٩/٥	٣٦	٣١٩/٣ ، ٥٣٦ ، ٢٣٥/٢	١٩
٤٥١/١	٣٩	٤٤٩/٥ ، ٢١٥/٤ ، ٤٧٣	
٣٠٠/٢	٤٢	٤٩١	
٤٩/٤	٤٥	٤٧٩/٤	٢٨
﴿سورة الحجر﴾		٥٨٦ ، ١١٥/٥	٣٠
٨/٣	١	٥٨٦ ، ١١٥/٥ ، ١١١/٢	٣١
١٥٧/٢	٣	٢٤٤/٤	٣٦
١٣٢/٢	٨	١٩٤ ، ٧٧/٣	٣٨
٣٤/٣ ، ٢٣٦ ، ٢٢٧/٢	٩	٨٥ ، ٦٥/٢ ، ١٨٧/١	٤٠
٤٥٢/٤		١٩١/٣	
١١٧/٢	١٥	﴿سورة إبراهيم﴾	
٢٩١/١	٢١	٨/٣	١

٣٧١/٣ ، ٥٧٣ ، ٣٣٤/٢	٧	٦/٢	٢٦
٤١٢		١٠٩ ، ١٠٢/٣	٢٩-٢٨
٣٦/٥	٨	١١١/٣	٣٠
٤٦٨/٣	١٤	٣٤١/٢	٤٠-٣٩
٥٥٥ ، ٤٢٥/١	١٦	٣٤٤ ، ٣٤٠/٢	٣٩
٩٣/١	١٧	٣٤٢/٢	٤٠
٥٥٨ ، ٣١٠/٢ ، ٥٤/١	١٨	٦٠٠ ، ٣٤٤/٤ ، ٢٤٨/٢	٤٤
٦٩/٢	٢٤	٢٦٤/٣	٤٧
٣٥٠/١	٢٥	٢٥٠/٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٧/٢	٥٠-٤٩
٤٣٠ ، ٤١٨/١	٢٧	٦٠٣ ، ٢٣٣/٣ ، ٤٠/٢	٥٢
٣١٤/٤ ، ٢٧٦ ، ٦٢/٢	٢٨	٥٤٧/٥	
٣٦٤ ، ٢١٨/٢ ، ٤٧٢/١	٣٥	٤٧٧/٤	٥٣-٥٢
٤١٨ ، ٤١١ ، ٤٠٩		٢١/٤	٥٣
٥٧٤ ، ٤٧٦/٣ ، ٤٥٠/٢	٣٦	٤٣٠/١	٥٤
٥٧٥		٣٣٣/٣ ، ٤٠/٢	٥٨-٥٧
٦٠٠/٣ ، ١٩٣ ، ١٨٧/١	٣٧	٥٥٨ ، ٣١٠ ، ١٤٣/٢	٦٨
٤٥٥ ، ٣٧٣/٤		٥٣٣/٣	
٢٨٦/٤ ، ٣٩٢/٣	٤٠	٥٦٤/٣	٧٠
٣٢٦ ، ١٣/١	٤٤	٨٣/٤ ، ٥٦٨/٣	٧٤
٤٨/٣	٤٧-٤٥	٥١٠/٣	٨٣-٨٠
٢٥/٤	٤٧	٤٣٦/٤ ، ٥٤٥ ، ١٧٦/٢	٨٨
٢٥٢/٤ ، ١٤٩/٢	٦٨	١٢/٤ ، ٦٠/٣ ، ٥٧٦/٢	٩٣-٩٢
٤١٨/٥	٧١	٣٤٨/٥	
٥٦٤ ، ٥٠/٢ ، ٣١٦/١	٧٤	٣٥٣/٣	٩٢
١٦٢/٤ ، ٣٥٢ ، ٣٤٩/٣		١٣/٣ ، ١٧٧ ، ١٧٦/١	٩٧
٥٠٢ ، ٤٣٦/٢ ، ٢٦٥/١	٧٨	١٧٧/١	٩٨
١٠٥/٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٦/٣		﴿سورة النحل﴾	
٦٤/٥	٧٩	٣٩٣/٣ ، ٤٢٧/٢	١
٣٣٦/٢ ، ١٩٨/١	٨٠	٣٣٦/٢	٥

٢٩٢، ٢٩١/٤	٨	٣٦٠/١	٨١
٤١٣/٤، ٦١٤/٢	٩	٢٢٨، ٢٢٦/٣، ٥٥٧/٢	٨٨
٧٢، ٦٣/٣	١٤-١٣	١٦١/٢، ٢١٧/١	٨٩
٧٨/٣، ٦٠٧، ١٠٥/٢	١٤	١٢١/١	٩٠
٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٠/٢	١٥	٣٠٢/٥	٩٢
٣١٢/٤، ٢٩٣، ٢٩١، ٢٨٦		٢٠٤/٣ ، ٥٧٠ ، ٤٠٥/٢	٩٦
٥٧٢/٥	١٨	٣٥٤/٥ ، ٢٢/٤ ، ٣٦٧	
٢١٦/٢	١٩	٦٠٨	
٤٨١/٤، ٢٩٨/٢	٢١	٥٥/٣	٩٨
١٤٧/٥	٢٢	٤٤٣، ٤٠٨/٥	١٠٠
١٦٣ ، ٥٤/٢ ، ٢٩٦/١	٢٣	٦٨/٢	١٠٣
١٣٠/٣، ٤٦٥، ٣٦٩		٨/٥، ٢٢٢/٢	١٠٦
٤٤١، ٤٤٠/٢	٢٤-٢٣	٥٢٥/١	١١١
٢٢٤/٣	٢٧	٣٦١، ٢١٩/٢، ٤٧٠/١	١١٥
٤٤١/٢	٢٨	١٦٩/٣	١١٦
١٤٧/٥، ٣٣٢/٢	٢٩	٣٦٤، ٢١٧/٢، ٤٧١/١	١١٨
٤٧٤ ، ٤٧٢ ، ٤٦٨/٢	٣١	٥٩٧/٣، ٩٧/٢، ٢٤٢/١	١٢٠
٢٤/٤ ، ٣٧٠/٣ ، ٥٧١		٢٤٣/٤	
٤٠٩، ٢٦٤		٦١٨ ، ٤٠/٢ ، ٤١٥/١	١٢٣
١٧٩/٣، ١٨٢، ١٨١/٢	٣٢	٦٢١	
٤٨١/١	٣٣	٢٠٤/٢	١٢٥
١٥٩/٥	٣٦	٣٦٣/٢	١٢٦
٤٤١/٢	٣٩	٨٥/٢	١٢٧
٢٤/٤، ٣٧٠/٣، ٥٧١/٢	٤٠	٨٨/٥	١٢٨
٦٢٣/٢	٤٢		
٢٨٣/٣ ، ٢١٣ ، ٢١٢/١	٤٤	﴿سورة الإسراء﴾	
٣٨٤		٤٠٤، ٥٥/٥	١
١٨٨/١	٥١-٥٠	٣٣٣/١	٣
٥٧/٤، ١٣٦/١	٥٨	٢٩١/٤	٥-٤
		٥٠٨/٥، ٢٩١، ١٣٤/٤	٧

﴿سورة الكهف﴾		٥٩	٢٠١/١ ، ٢٠٥ ، ٥١٩/٣
١	٥٠٥/١ ، ٧٢/٢ ، ٢٦٢		٤٥١/٤
	٤٣٩ ، ٢٧٨/٣	٦١	٥٠٣/٥
٥	١٨٨/١	٦٢	٣٤٤ ، ٣٤٠/٢
٦	١٧٨/١ ، ١٨٦ ، ٨٥/٢	٦٤	٤٢٠/٤
	١٥/٣	٦٦-٦٧	٢٣٦/١ ، ٢٨٧/٢ ، ٤٥٧
٧	٣٩٤/١ ، ١٩٣/٢ ، ٢٥٥		٥٣٣/٤ ، ٤٥٨
	٢٦٦/٣ ، ٤٠٨ ، ٢٦٥/٤	٦٧	٢٣٥/١
	٢٠٠ ، ٦٨/٥	٧٦	٣٠٩/٥
١٨	١٤٥/١	٧٨	١٥٠/٥ ، ٢١/٣
٢٤-٢٣	٢١٢/٢ ، ٤٧٦/٤	٧٩	٢٨٠/٣ ، ٣٠٨ ، ٦٧/١
٢٦	٣٧٠/١ ، ٧٤/٢ ، ٧٦ ، ٧٧	٨٢	٦٧/٢ ، ٧٠ ، ٣١٥/٣
	٢٩/٣ ، ٢٢٩/٤ ، ٤٤١/٥		٤٥٦ ، ٥٤/٤ ، ٣٣٧
	٤٨٥	٨٥	٥٤٧/٥
٢٧	٢٢٩/٤	٨٨	٥٨٠ ، ٤٥٢/٤
٢٨	٤٦/١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٣٧	٨٩	٧٤/٢
	٥٢٠ ، ٩٥/٤ ، ٨٧/٥	٩١-٩٠	٤٤٩/٤
٢٩	١٥٧/٢ ، ٥٩٢/٤ ، ٥٥٨/٥	٩٢-٩٠	٢٠٤/١
٣٠	٣٠٤/٤	٩٣-٩٠	١٠٧/٢ ، ٢٧٩/١
٣٣	٩١/١ ، ٢٥٩/٢ ، ٢٦٠	٩٠	٤٥٠/٤ ، ٢٠٤/١
	٣٤٥/٣ ، ٦٤/٤ ، ٢٦٩	٩٣-٩٢	٢٠٥ ، ٢٠٤/١
	٢٧٠ ، ١٢٨/٥ ، ٣٥٧ ، ٥٥١	٩٢	١٣٢ ، ١٣١/٢
٣٥	٢٥٩/٣	٩٤	٤٨٣ ، ٤٥٧ ، ١٩٤ ، ١٤٢/٣
٣٦	٣٣٠/١	٩٧	٢٠٥/٣ ، ٢٤٨/٢ ، ٢٢٨/١
٤٧	٢٢٨/٢ ، ٣٨٠/٤ ، ٥٥٨		٦٠٩ ، ٦٠٨ ، ٣٢٩/٥
٤٨	٥٢٩/١	٩٩	١٦/٢
٤٩	١٠٥/٢ ، ٥٢٩/١ ، ٦٠٨	١٠٢	١١٩/٥ ، ٦٢/٤ ، ٣٤٣/٣
	٦٣/٣	١٠٨-١٠٧	٣٤٤/٤
		١١٠	٤٦٣ ، ٣٥١/٤

٣٧٥ ، ٣٦٥/٣ ، ٥٦٧/٢	١٥	٢٥٢ ، ١١٨ ، ٨٥/١	٥٠
٢٠/٤		٥٢/٣ ، ٣٤٠ ، ٢٦٠/٢	
٤٩٣/١	١٦	٢٦٩ ، ٥٩/٤ ، ١١٨_١١٦	
٤١٧/٥	٢٥	٢٩٥/٥ ، ٢٨٤	
٤٣٣ ، ١٥٣/٤	٢٦	١٠١/٥ ، ٢٠٠/٢ ، ٥٣/١	٥٣
٢٠/٤ ، ١٣٩/٣ ، ٣٩٥/٢	٢٨	١٨٧/٥ ، ١٥٤ ، ١٥٣/٣	٥٤
٣٩٨/٢	٣١	١٣٠/٢ ، ٥١٢ ، ٢٢٢/١	٥٧
٣٦٦/٣ ، ٥٦٧/٢	٣٨	٣٩/٤ ، ٤٧٢/٣	
٥١١ ، ٣٨٢ ، ٣٨١/١	٣٩	٢٥٥/١	٦٣
٥٠٧ ، ٥٠٦/٥		٥٧٤/٢	٦٥
٤٠٥/١	٤٣_٤١	١٦٧/٤	٧٥
٤٤١ ، ٤٠٦/١	٤٢	٤٣/٣ ، ٥٧٢/٢ ، ١٣٦/١	٧٩
٢٣٣/٢ ، ٥٢٣ ، ٣٧٣/١	٤٤	٥٣/٥ ، ٥٧/٤ ، ٣٧٠ ، ٤٤	
٤٨٦ ، ٤٤٣ ، ٤٠٨/٥		٥٨٩	
٢٨٦ ، ٢٨٥/٢	٤٧_٤٦	٢٨٩/٥	٩٧
٨٩/٥ ، ٣٦٤/٤	٤٦	٣٨/٤	١٠١
٣٨٢/٤	٤٧	٥١٤ ، ٥١٣/١	١٠٤_١٠٣
٤٥٣/١	٤٩	٣٥٤/٥ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨/٣	١٠٨
٢٤/٤ ، ٣٧٠/٣ ، ٥٧١/٢	٥٠	١٦٨/٤ ، ١٧٤/٢ ، ١٨٤/١	١٠٩
٤٦١/١	٥٤	٢٣٩	
٢٤/٤ ، ٣٧٠/٣ ، ٥٧١/٢	٥٧	٢٢٩/٤ ، ٢٩/٣ ، ٧٤/٢	١١٠
٢٧٠/٣	٦٣	٤٨٥ ، ٤٤١/٥	
٢٨٢/٥ ، ٢٥٥/١	٦٤	﴿سورة مريم﴾	
٣٤٩/٣ ، ٥٦٤ ، ٥٠/٢	٦٥	٨/٣	٢_١
٣٥٢		٣٩٩/٣	٣_١
١٦/٢	٦٨_٦٦	٤٥٩/١	٢
٤٢٦/٢	٦٧	٥٥٨/٣	٥
٣٢٧/١	٧٣	٥٥٣/١	٩
٣٣٠/١	٧٧	٢٥٢/٤ ، ١٤٨/٢	١١

٦٠٩/٥، ٨٤/٣	٧٤	٤٢٦/٤، ٥٢٨/١	٨٢-٨١
١٣١، ١٣٠/٤، ٧٥/١	٧٧	٦٠٠/٤	٨٦
١٨٠/٤	٨٠	٥٢٩/١	٩٥
١٨٦/٤	٨٢	٣٨٦/٤، ١٧/٣	٩٧
١٤٣/٤	٨٤-٨٣	﴿سورة طه﴾	
١٩٧، ١٨١/٤	٨٥	٣٧٧/٣	٦-١
١٨٠/٤	٨٦	٥٨٠، ٥٧٨، ٥٧٥/٢	٥
١٦٣/٤	٨٧	١٥/٥، ٣٥٦/٣، ٥٨٥	
١٦٧/٤	٨٨	٣٧٧/٣	٨-١
١٨٢/٤	٩١-٩٠	٣٩٩/٣	٧
١١٣/٣، ٤٦١/٢	٩٣-٩٢	٣٥١/٤	١٨
١١٤/٣	٩٢	١٤٣/٤	٣٦
١١٥، ٢٢/٣	٩٣	٤٢٩/٣، ٥٠٢/٢، ٢٤٨/١	٤٤
١٨٢/٤	٩٤-٩٣	٣٠٦/٥، ٢٤١، ١٠٥/٤	
١٥٢/٥، ٣١٠/٣	٩٤	٥٣١/٥	٤٦
١٦٤/٤	٩٦-٩٥	٥١/٤، ٤٨١/٣، ٢٦٧/٢	٤٧
٨٢، ٨١/١	٩٦	٥٧٤، ٣١٠/٥، ٢٢٦	
١٦٦/٤	٩٧	١٩٨/٢، ٢٥٥، ٢٣١/١	٥٢
٥٠٧/٥	١٠٤	٢٨٢، ١٧٠/٤، ٣١٣/٣	
٥٢/٢، ٣٢١، ٣١٩/١	١١٠	٣٣٩	
٥٨٨، ٥٨٧، ٥٧٩، ٥٦٦		٢٢/٢	٥٤
٣٧٤، ٣٥٤، ٣٥٢/٣		١٦٦/٤	٥٧
١٦٢، ٢٧، ١٢/٤، ٣٨٠		٧٦، ٧٥/٤	٦١
٣٥٢، ٣٥١، ٣٤٩، ٣٤٨/٥		٧٦/٤	٦٤-٦٢
٢٨٢/٤	١١٥	٧٨/٤	٦٧-٦٥
٣٤١، ٣٤٠/٢	١١٧	٨٠، ٧٩/٤	٦٦
٣٤٢/٢	١١٩-١١٨	٧٨/٤	٦٧
٤٥٠/٤	١٢٢	١٢١، ٩٠/٤	٧١
		٩٣، ٩٢، ٩١، ٨٧/٤	٧٢

٥٧١، ٢٨٧/٢، ٤١٧/١	٦٣	٥٧٦/٥	١٣١
٢٨٧/٢، ٤٠٨/١	٦٥	٢٥٨/٤، ٢٠٦/٢، ٤٧/١	١٣٢
٤٤١، ٤٠٨/١	٦٧	٢٨٣، ٢٨١، ٢٨٠/٢	١٣٤
٤٠٨/١	٧٠-٦٨	٣١٢/٤، ٤٩/٣	
٤٢٨/٣، ٢١/٢	٦٩	﴿سورة الأنبياء﴾	
٤٢٢/١	٧٤	٥٨٦/٣، ٥١٤/٢، ٢٩١/١	٨
٤٦١/٣	٧٧-٧٦	١٦٦/٤	
١٤٤/٣	٧٨	٤٥/٣	١٥-١١
١٤٤/٣	٧٩	٣٣٨/٥	١٥
٤٥٩/١	٨٩	٥٨٠، ٣٠/٤، ١٩١/١	١٧
٥٨٥/٥	٩٠	٦٢٣/٢، ٤٤٣/١	٢٢
٢٤٣/٤، ١٨٧/٣، ٩٨/٢	٩٢	٤٥٠، ٤٢٦/٢، ٢٠٧/١	٢٥
١١٣/٣، ٤٤٩، ١٢٠/٢	٩٥	٥٧٤، ٤٧٦، ٤٥٠/٣	
٣٠٦		٣٧٥، ٣٦٥/٣، ٥٦٧/٢	٣٠
٨٦، ٤٢/٢	٩٨	٢٠/٤	
١٤/٢	١٠٤	٦٩/٤	٣٣
٦٠٠/٥	١٠٧	٥٤٤/٣، ٦٢٤/٢	٣٤
٥٧٥، ٤٧٧/٣	١٠٨	١٩٧/٤، ٢٤٥، ٧٤/١	٣٥
٢٧٤/٣	١٠٩	٢١٧/٥، ٥٥٩	
﴿سورة الحج﴾		٥٥٨/٥	٣٩
٢٧٩/٣	١	٨٠، ٧٦/٣	٤٧
١٥، ١٤، ٦/٢، ٢٦٨/١	٥	٨٩/١	٤٨
٥٠٣/٥، ٥٥٠، ١٤٢		٤٠٥/١	٥٢-٥١
١٤/٢	٧-٦	٤٠٧/١	٥٤-٥١
٣٠٤/٣	٢٠	٦١٣/٢، ٤١٥/١	٥١
٦٠٩/٥	٢٢	٤٠٧/١	٥٥
٤٩٩/٣	٢٦	٤٠٧/١	٥٦
٣٨٠/٢، ٢١٠/١	٢٧	٤٠٧، ٤٠٦/١	٥٧
٣٨٠/٢	٢٨	٤٠٨/١	٦٣-٥٧

١٠/٢	١٦-١٢	١٥١/٥، ٢١/٣، ٥٢٠/٢	٢٩
٣٩٠/١	٢٧	٢٤٤/٣، ٢٨٤/٢	٣١
٣٧٩/٣	٢٨	٤١/٤	٣٢
٤٥٧/٣	٣٤-٣٣	٣٨٠/٢	٣٧
١٤٢/٣	٣٣	٢٦٨/٥، ٧٨/٢	٣٩
١٩٤، ١٤٢/٣	٣٤	٥٥٢/٢	٤١-٤٠
٦/٥، ١٨٧/٣، ٢٤٤/١	٤٤	٣٠٩/٥، ٩٥/٤	٤٠
٢٤٢/١	٥٢	٤٥، ٤٤/٣	٤٥
٥٧٦/٥، ٣٦٤/٤، ٣٣٠/١	٥٦-٥٥	٣٠٢، ٣٠١، ١٦٠/١	٤٦
٣٢٢/٥، ٤١٨/٢	٦٣	٥٠٣، ١٣١، ٦٤/٢، ٣٠٣	
٣٢٦-٣٢٥/٥	٦٧-٦٦	٣٧٠، ٤٠/٤، ٤٧٢/٣	
٥٥٨، ١٤٢/٢، ٢٦٨/١	٦٧	٢٩٤/٥، ٤٤٦، ٤٢٤	
٦٠٢، ٣٣٦/٣، ٣٨/٢	٧٥	٣٤٥، ١٨٨/٣، ٢٧٧/٢	٤٧
٥٤٦/٥		٣٧٣/٤	
٢٦٥/١	٧٨	٢٠٥/٤	٥٢
٤٣٥/٤، ١٥١/٢	٩٨-٩٦	٢٥/٤، ٣٧١/٣، ٥٧٣/٢	٥٩
٧٦/٣	١٠٤-١٠١	٣٦٥/٣	٦١
٢٢٩/٢	١٠٨-١٠٧	٤٥٧/٤	٧٢
٢٨٦/٤	١٠٨	٤٢١/٤، ٤٣٦/٣	٧٣
٤٩٨/١	١١٥	٥٦٧، ٢٦٦/٢، ٢٧٩/١	٧٥
٤٩٨/١	١١٦	١٩٥/٣	
١٧٦/٣، ٤٩٨/١	١١٧	٢٥٨، ١٤/٣، ٢٢١/٢	٧٨
﴿سورة النور﴾		٢١٣/٤	
١٧٩/٣، ١٨٢/٢	٢	﴿سورة المؤمنون﴾	
١٣٣، ١٣٢/٣، ٢٨٧/١	٤	٥٦١، ٨٣/٣	١
٥٦٨/٥، ٢٨٤/٤، ١٨٠		٦٢٠/٥، ٥٦١/٣	٦-٥
٥٤١/٢	٥-٤	٢٥١/٢	٦
٤٣٤/٢	١٠	٥٦١/٣	٧
٤٠، ٣٩/٢، ٢٨٨، ٢٨٧/١	١١	٤٥/٢، ٥١٥/١	١٤-١٢

﴿سورة الفرقان﴾			
		١٩٩/١	١٤
٥٠٨ ، ٥٠٧ ، ٣٠٤/١	١	٢٤٩ ، ٢٠٠/١	١٦
٢٢٤/٤ ، ٣٢/٢		٢٠٤/٤ ، ٢٤٨/١	٢١
٦٨ ، ٦٧/٢	٤	١٣٣/٣ ، ٣٧٠/٢	٢٣
٥٨١/٤ ، ٦٩-٦٧/٢	٥	٣٣٢/٣ ، ٣٩/٢ ، ٣٨٨/١	٢٦
١٩٤/٣ ، ١٣٢/٢ ، ٢٩١/١	٧	٦٠٣	
٤٥٧		٦٢٠/٥	٣٠
٣٨/٤	٩	٥٥٨ ، ١٤٢/٢ ، ٣٤٧/١	٣١
٣٣١/٥	١١	٦٢٠/٥ ، ١٨٦/٤	
٥٥٩/٥ ، ٦٨/٣ ، ١٠٦/٢	١٣	٥٦٢ ، ٣٩٨/٢	٣٢
٤٥٧/٣ ، ٣٢٧ ، ٢٩١/١	٢٠	٥٩٤/٥	٣٣
١٣٢ ، ١٣١ ، ١٠٧/٢	٢١	٣٩١/٣ ، ٢٨/٢	٣٥
١٣٢ ، ٦٢/٢	٢٢	٤١١/٥	٣٦
١٣٤/٤ ، ٢٥٤/٣ ، ٣٥٢/١	٢٣	٥٧١/٥ ، ٢٥٤/٣ ، ٣٥٢/١	٣٩
٥٧١ ، ٣٤٢ ، ٣٢٨/٥		٥٧٢	
٢٧٧/٢	٢٤	٤٩١/٥	٤٠
٢٧٨/٢	٢٦	٢١٢/١	٤١
٩٧/٥ ، ١٠١/٢ ، ٣٤٤/١	٣٠	٢٠ ، ١٩/٢ ، ٥٣٢/١	٤٣
١٣٨/٢	٣١	٤١٨ ، ٤١٧ ، ٤١٦/٣	
٣٥٧/١	٣٣	٦٠٢/٤ ، ٤١٩	
١٢٦/٥	٣٧	١٤٥/٤ ، ١١٦/٢ ، ٩٤/١	٥٢
٥٦٨/٣	٤٠	٦٢٢/٣ ، ٦٥/٢	٥٤
١٣١/٥ ، ٣٤٣/٣ ، ٥٥٩/١	٤٤	٥١١/٢	٥٩
٥٤١/١	٤٧	٢٦٩/١	٦١
٤٢٤ ، ٤٢٣ ، ٤٢٠/٣	٥٠-٤٨	٥٤٦ ، ٢٦٩ ، ٥٤/١	٦٣
١٩/٢		١٨٥ ، ١٧٤ ، ١٤٣/٢	
٢٠/٢	٥٠	٢٢ ، ٢١/٣ ، ٥٥٨ ، ٣١٠	
٤٢٠/٣	٥١-٤٨	١٥٢/٥ ، ٤٥٩/٤ ، ٥٣٣	
٣٧٧/٣	٥٩-٥٨		

٥٣١/٥	٦٢	٣٧٥ ، ٣٦٥/٣ ، ٥٦٧/٢	٥٨
٣٧٠/٣ ، ٥٧١/٢ ، ٧٥/١	٦٣	٢٠/٤	
١٣١ ، ٢٤/٤		٣٤٩/٥	٥٩
٤٠٥/١	٧٠-٦٩	٢٠٥/٣	٦٥
٤٤١/١	٧٣-٧٢	٣٣٢/٢	٦٧
٥٧٠ ، ٤٠٥/٢	٧٦	٤٥٣/٢	٦٩-٦٨
٤٠٥/١	٨٦	٤٥٣/٢	٧٠
٦٥/١	١٠٠	٤٤٢/٤	٧٢
٤٩٤/١	١٠٩	١٤٢/٢ ، ٢٦٨/١	٧٤
٥١٩ ، ٣٢٤/١	١١١	٥٥٨ ، ١٤٢/٢ ، ٢٦٩/١	٧٥
٣٢٤/١	١١٣-١١٢	﴿سورة الشعراء﴾	
٣٢٤ ، ٣٢٢/١	١١٤	٨٥/٢ ، ١٨٦ ، ١٧٨/١	٣
٥٠٢/٢ ، ٢٤٧ ، ٨٥/١	١٢٩	١١٤/٢	٤
٢٤٠ ، ١٠٥/٤ ، ٤٥٩/٣		٥٦/٤ ، ٦٠٣ ، ١٩٤/٢	٨
٣٠٦ ، ٧٨/٥		٥١/٤ ، ٤٨١/٣ ، ٢٦٧/٢	١٦
٣٧١/٣ ، ٥٧٢/٢	١٣٠	٥٧٤ ، ٣١٠/٥ ، ٢٢٦	
٥١٤/٣	١٥٥	٦٥/٤	١٩-١٨
٥٤٨ ، ٥٤٧/٣	١٦٦-١٦٥	٥٤٤/٣	٢٢
٥٤١/٣	١٦٨	٣٤٣/٣	٢٣
٥٦٨/٣	١٧٣	٤٦٦ ، ٢٦٤ ، ٥٥/١	٢٤-٢٣
٥٧٣/٣	١٧٧-١٧٦	٨٨ ، ٦٦/٤ ، ٤٥٤ ، ٣٩٧/٣	
٥٧٢/٣	١٧٦	٢٢٧/٢	٣٦
٦٠٩/٣	١٨٠	٧٧ ، ٧٦/٤	٤٤
٥١٤/٢	١٨٢-١٨١	٨٧/٤	٥٠-٤٩
٥٨٥/٣	١٨١	٩٢/٤	٥٠
٣٤٥/٤	١٩٥	٩٣ ، ٩٢/٤	٥١
٣٦١/٥ ، ٥٠٨/١	٢١٤	١٣٠/٤	٥٥-٥٤
٤٢٦/٤ ، ٥٤٥/٢	٢١٥	١٦٣ ، ١٢٧ ، ١٢٦/٤	٥٩
٣٧٨/١	٢٢٢	٥٣/٢	٦١

٥٣٢/٤، ٢٣٤/١	٥٩	٥٩٠/٣	٢٢٧-٢٢٥
٥٣٢/٤	٦٢-٦٠	٩٣/٤	٢٢٧
٢٣٤/١	٦٠	﴿سورة النمل﴾	
٢٣٤/١	٦١	٤٨، ٤٧/٤	١
٢٣٥/١	٦٢	٤٦٢/٤ ، ٣٤٣ ، ٨٩/٣	١٤
٢٣٥/١	٦٣	١١٩/٥ ، ١٠٣	
٢٣٥/١	٦٤	٩٩ ، ٩٧/٣ ، ٣٣٥/١	١٩
٣٩٥ ، ٣٩١ ، ٣٨٦/١	٦٥	١٥٨/٤ ، ٤٤١	
٦٠٤/٣		٣٣٤/٣ ، ٣٩٠/١	٢١-٢٠
٥٠٠/٥	٦٦	٥٤٨/٥ ، ٦٠٤/٣ ، ٤٩٢/١	٢١
١٠/٤	٧٤	٥٤٩/٥	٢٤-٢٢
٥١٨/٢ ، ٥٠٣/١	٧٦	٣٣٤/٣ ، ٣٩١ ، ٢١٤/١	٢٢
٥٩٧/٢	٨٢	٦٠٤	
٣٨٠/٤	٨٨-٨٧	٣٩١/١	٢٤-٢٣
١٠/٤ ، ٣٧٣ ، ٣٤٨/٣	٨٨	٥٧١/٢ ، ٢٥٧/١	٢٣
٣٤٦/٥ ، ٣٨٠		٥٤٩/٥	٢٨-٢٧
٤٣/٥	٩١	٣٩١/١	٢٧
٦٢٥/٣	١٢٧	٢١٤/١	٢٨
﴿سورة القصص﴾		٣٤٦/٣	٤٢
١٢٨/٤	٦٠	٢٩٤/٣ ، ٤٠٨/٢ ، ٤٢٨/١	٤٣
٩٩/٤	٧	١٢٥/٤ ، ٥٧٧ ، ٤٣٨	
٣٠٦/٣	١٢	٦٢٠ ، ٥١٢ ، ٢٠٩/٥ ، ٢٤٢	
٤٩٣/١	٢٧	٥١١/٣	٤٥
١٢٥/٥	٣٨	١٠٧/٤ ، ٢٢٥/٣ ، ١٤٣/١	٤٧
٣٠٤/٥	٤١	٥٠٠/٥	
٢٤٥/٢	٤٥	٥١٥/٣	٤٨
٢٢٦ ، ٢٩٠/٢ ، ٢٠٦/١	٤٦	٥٠/٣	٥٦
٥٧٨/٣		٥٦٨/٣	٥٨
٣١٢/٤ ، ٤٩/٣ ، ٢٨١/٢	٤٧	٤٥٦ ، ٤٥٥/٢	٦٤-٥٩

٤٦١،٥٩/٣	١٤	٥٢٥/٢	٤٨
٤٦٨،٤٦٣/٣،٤٠١/٢	١٥	٢٩٥،٢٩٤،٢٤٤/٤	٥٤-٥١
٤٢٦/٤،٢٢٤/٣،٥٢٧/١	٢٥	٤٤٢/٤	٥٥
٤٦٥ ،٤٥٢ ،١٥٦/١	٢٦	٣٧٣/٤،٢٨٥/٢،١٩٣/١	٥٦
٦٠٠/٥،٥٤٠،٥٣٩/٣		٤٥٥،٤٥٤	
٤٥٤/١	٢٧	٢٥٧/١	٥٧
٥٦٧،٥٦٦/٣	٣٢	٤٢٦/٢	٥٨
٤٦٢/٣	٣٣	٥٧/٤،٤٣/٣،١٣٦/١	٥٩
٥٣٢/٣	٣٧	٥٧/٣	٦٦-٦٥
٤٣٥/٣	٤٣	٥٨/٣	٦٥
٣٦٧،٤٧/١	٤٥	٦٩/٤	٦٦
٢٣٩،٢٠٧/٤	٤٨	٤٤٥/٥	٧٣-٧٠
٤٥٢/٤،١١٠/٢	٥١-٥٠	٤٩٠،٤٤٤/٥	٧٠
٥٧٩/٣،٢٠٤،٢٠٢/١	٥١	٣٨٢/٣	٧٢-٧١
٥٥٨/٥	٥٥-٥٤	٥٤١/١	٧٣-٧١
٥٢٣/٣	٥٨	٤٩١،٤٩٠/٥	٧١
٤٥٧ ،٢٨٧/٢ ،٢٣٦/١	٦٥	٣٨٢/٣	٧٣
٥٣٣/٤		٦٩/٤	٧٦
٤٠/٤	٦٩	٦٠/٣	٧٨
﴿سورة الروم﴾		٥١٩/٥،٥٧٥/٤	٨٥
٥٠٦/٥،٥١٠/١	١٦-١٤	٤٩٠،٤٤٦/٥،٢٠٢/٤	٨٨
٢٨١/٣	١٤	﴿سورة العنكبوت﴾	
٢٨١/٣	١٦-١٥	٣٢٢/٤	
١٧/٢	١٩-١٧	١٤٦/٥	٤
٤٢٤،٣٧٥،٣٦٥/٣	١٩	٥٣/١	٥
١٢/٢	٢١-٢٠	٤٦٧/٢	٨
٦/٢	٢٠	٦٣١/٢	١٣-١٢
١٤٧/٥	٢٤	٢٧٧/٣،٣٥٠/١	١٣
٢٨٠/٣،٥١٠/١	٢٥	٤٧٠/٣	١٥-١٤

٣٧٨/٣	٩-٣	١٤/٢	٢٧
١٩٦/٢ ، ٥٢٨ ، ٢٣٠/١	١٠	٤٨٨ ، ٤٨٧/١	٣١-٣٠
٣٣٨ ، ١٧١/٤ ، ١٩٧		٢٨١/٣	٤٣
٢١٢/٣ ، ٥٦١/٢	١١	٤١٥/٣	٤٦
٤٣٧ ، ٤١٧ ، ٤١٢ ، ٧٩/٢	١٣	٢٣٦/٤ ، ٤١٦/٣ ، ١٧/٢	٥٠
٦١/٥		١٢١/٥ ، ٥٧٣/٢	٥٤
٢٥٥/١	١٤	٥٠٧/٥	٥٥
٣٦٩/٣ ، ٥٧٤ ، ٢٧/٢	١٧	﴿سورة لقمان﴾	
٣٥٤/٥ ، ١٧٤/٤		٤٣٧ ، ٢٦١ ، ٨٤ ، ٨٣/١	١٣
٢٤٩ ، ٢٤٨/٢ ، ٢٨٧/١	٢٠	٢٩٤ ، ٥١/٣ ، ٢٦٠/٢	
٦٠٩ ، ٥٦٨/٥ ، ٢٨٤/٤		٢٦٩ ، ١٦٩ ، ٦٤ ، ٦٢/٤	
٥٢٦/٤ ، ٤٢٩/٢	٢١	٥٥٠ ، ٣٥٨ ، ١٢٩/٥	
٣٧٩/١	٢٥	٤٦٥/٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٣/١	١٤
٦٠٦/٣	٢٩	٤٤٠ ، ٩٩ ، ٩٧ ، ٩٦/٣	
﴿سورة الأحزاب﴾		٤١٥ ، ١٥٩ ، ١٥٧/٤ ، ٤٤١	
٤٨٧ ، ٤٨٦/١	٢-١	٤١٧-	
١٧١/٢	١	٤٦٧/٢	١٥
٦٣٣ ، ٥١٨ ، ٥١٧/٢	٥	٦٢٢/٣	١٧
٣٢٤/٣		١٦٨/٤ ، ١٧٤ ، ١٣٤/٢	٢٧
٢٣٤ ، ٢٢١/٥ ، ٤٣٠/٤	٦	٢٣٩	
٢١٨/٣ ، ٤٠٠/٢	٧	٣٧٥ ، ٣٦٥/٣ ، ١٤٧/١	٢٨
٣٩٢/٥ ، ٥٣٨/٤ ، ٥٥٠/٢	٩	٥١٣/٥	
٥٤٩ ، ١٨٨/٢ ، ٥٤٨/١	١١-١٠	٢٨٨/٣	٢٩
٥٧/٥ ، ٢٣٤/٣		٤٥٧ ، ٢٨٧/٢ ، ٢٣٦/١	٣٢
٥٦٨/٢	١٣	٥٣٣/٤	
١٠٥/١	١٦	٣٧٨/٤ ، ٣٨٤/١	٣٤
٤٣٩/٢ ، ١٧٦/١	١٨	﴿سورة السجدة﴾	
٢٢٠ ، ١٩٥/١	١٩	٢٩١/٢	٣
١٦٥/٣ ، ٤٨٥ ، ٢٩٥/١	٢١	٢٧٧/٢	٥

٢٢٦/٣	٣٣-٣١	٢٣٥/٣، ٥٤٩/٢، ٥٤٨/١	٢٢
٢٤١/٣	٣٢	١٩٢، ٥٨/٥	
٥١٩/١	٣٤	١٩٢، ٥٨/٥، ٥٤٩/٢	٢٥
٥٧٦/٥، ١٤٢/٢، ٣٣٠/١	٣٧	٢٣٥/٣، ٥٤٩، ٥٤٨/١	٢٧-٢٥
٥٧٤/٢	٣٩	٥٤٩/٢	٢٧-٢٦
٤٨٦/٥	٤٠	٦٠، ٥٩/٥	٢٧
٤٨٦، ٤٤٣، ٤٠٨/٥	٤١	٤٨٦/١	٢٩-٢٨
٢٩٠/٢	٤٤	١٠٥/٥	٣٢
٢٥٧/٥، ٣٦٧/٤	٤٦	١٥٢/٥، ٢٢/٣	٣٦
٤٩٦-٤٩٤/١	٤٧	٦٢١/٣، ٤٨٧/١	٣٧
١٢٤/٣	٥٠	٤٦٠/١	٤٠
﴿سورة فاطر﴾		٤١٢/٣، ٣٠٤/٢، ٣٥٣/١	٤٣
١٩٥/٣، ٢٠٩/١	١	١٨٨، ١٥/٥، ٤٨٧/١	٥٠
١٠٧/٥	٥	١٨٨/٥، ٢٨٣/٣	٥٣
٣٤٠/٢	٦	٦٠٢/٥	٥٧
١٨٦، ١٧٨/١	٨	٣٧٦/٤، ٤١١/٣، ١٢٤/٢	٦٣
٢٤٢/٣	١٠	٣٨٣	
٤١٤، ٤٣١/٤	١١	٥٦٧/٤، ٣٨٤/٣، ٢١٣/١	٧٢
٤٢٥/٤	١٤-١٣	٦١٩/٥	٧٣
٦٠/٢	١٤	﴿سورة سبأ﴾	
٣٠٥/٢	١٧-١٥	٣١٤/٤، ٢٧٣/٣	٣
٣٠٣/٢، ١١٠/١	١٥	٢٠٤/١	٩
٦٣١، ٣٢/٢، ٣٠٤/١	١٨	٤٦٩/٣	١١-١٠
٣٨٨/٤، ٤٣٨/٣		٤٦٩/٣	١١
١٩٧، ١٠٦/١	٢٢	٥٦٤، ٤١٥، ١٥٧/٤	١٣
٢٤٢/١	٢٤	٣٤١/٢	٢٠
٣٤٢/٤	٢٩	٣٠٨، ٦٧/١	٢٣
٧٢، ٧١/٢	٣٦-٢٩	٦٠٦/٣	٢٦
		٢٢٤/٤، ٥٠٧/١	٢٨

٥٦٩ ، ٤٠٥/٢ ، ٣٩٨/١	٣٩
٢٢/٤ ، ٣٦٧/٣ ، ٥٧٠	
٤٦٧/٣	٤٤-٤١
٤٦٨/٣	٤١
٤١٠/٢	٤٧
٣٨١/٤	٥٠
٤٠٨/٥ ، ٣٧٣/١	٦١-٦٠
٤٤٤٣/٥ ، ٢٣١/٢ ، ٣٧٣/١	٦٠
٤٨٦	
٢٣٣ ، ٢٣٢/٤	٦٢-٦٠
٢٣٢ ، ٧٧/٢ ، ٥٢٣/١	٦٥-٦٠
٣٠/٣	
٤٨٦/٥	٦٢-٦١
٢٣٣ ، ٢٣١/٢ ، ٣٧٣/١	٦٢
٤٨٦ ، ٤٠٨/٥	
٤٨٦ ، ٤٠٨/٥	٦٤-٦٣
٢٣٣/٤ ، ٣٧٣/١	٦٥-٦٣
٢٧٦ ، ٢٣٣ ، ١٠٤ ، ٦٢/٢	٦٥
٦٢/٣ ، ٥٦٩ ، ٤٠٤ ، ٢٧٧	
٢١/٤	
١٩٧/١	٧٠
٣٣٧ ، ٣٣٦/٢	٧٢-٧١
٣٦٩/٣ ، ٥٧٤/٢	٧١
٣٢٦/٢	٧٢
١٥/٢	٧٩-٧٨
١٥/٢	٧٨
١٤١/٣	٧٩
٢٧٣/٣	٨١

٥٠٥ ، ٨٤ ، ٥٦/١	٣٢
٦٤/٤ ، ٤٣٩/٣ ، ٢٦١/٢	
٣١٩ ، ٣١٣ ، ٢٤٥	
٢٤٥/٤ ، ٨٥ ، ٥٧ ، ٥٦/١	٣٣
٢٤٦ ، ٢٤٥/٤ ، ٢٦٢/٢	٣٥-٣٣
٢٦٦/٣	٣٥-٣٤
٩٧/٣ ، ٣٣٣ ، ٨٦/١	٣٤
٥٦٤ ، ٤١٥ ، ١٥٧/٤ ، ٤٤٠	
٣١٣/٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨١/٢	٣٧-٣٦
٨٤/٣ ، ٢٤٩/٢ ، ٣٢٣/١	٣٦
٦٠٩ ، ٦٠٨/٥ ، ٢٤٦/٤	
٣٤١ ، ١٧٥/٤ ، ٦١٨/٣	٣٧
٥٦٠/٢	٤٣-٤٢
﴿سورة يَس﴾	
٢٩٠/٢	٦
٤٩٦/٥	٧
٥٤٣/٤ ، ٣٨١/٣ ، ٢٤٢/٢	٩
٥١٧/٥ ، ٥٧٣	
٣٢/٢ ، ٥٥٧ ، ٣٠٤/١	١١
١٩٠/٤ ، ٤٣٨ ، ١٧٢/٣	
٣٠٠/٥ ، ٣٨٨	
٢٢٧/٢	١٢
٤٥٧ ، ١٩٤/٣	١٥
١٠٧/٤	١٩-١٨
٤٩٤/١	٢١-٢٠
٥٩٥/٤	٣٠
٥٣٣/١	٣٥-٣٣
٣٨٢ ، ٢٨١/٣	٣٨-٣٧
٣٨٨/٣	٣٨

٤٨٤/١	١٣٨-١٣٧	٣٩٢، ٣٦٥/٣، ٤٢٧/٢	٨٢
٤٦٤/١	١٤١-١٤٠	١٨١/٥، ٢٨٦/٤	
٤٦٤/١	١٤٤-١٤٢	﴿سورة الصافات﴾	
٤٦٤/١	١٤٨-١٤٧	٣٥٧/٤	٤
١١٧/٣، ٢٣١، ٢٣٠/٢	١٥٨	٥٠٣/٥، ٦/٢	١١
١٨٤/١	١٧٣-١٦١	٢٦٤/٢	٢٢
٢٩٥/٤	١٦٤	٦١/٣	٢٥
﴿سورة ص﴾		٢٧٧/٤	٣٩
٣٥٧/٤، ٤٢٨/١	٥	٣٠١، ٣٠٠/٣، ٣٢٩/١	٥٧-٤٨
٤٥٠/٤	٧	٥٦/٤، ٦٠٣، ١٩٤/٢	٧١
٣٠٨/٢	١٤	٥٧٠، ٤٠٥/٢، ٤٥٤/١	٧٧
٣٨٠، ٣٦٧، ٣٦٦/١	١٦	٢٢/٤، ٤٦٧، ٣٦٧/٣	
٤٩٢، ١٨٨/٣		٦٠٦/٢	٨٣
٢١٣/١	١٨	٤٠٧، ٤٠٦/١	٨٩-٨٨
٥٤١/٤، ٣٧١/٣، ٥٧٣/٢	٢٣	٤١٦/١	٩٣-٨٨
٥٣٣، ١٦٧/٥		٤٠٧/١	٩١
٧٣/٢	٢٤	٤٠٧/١	٩٣
٤٩٨/١	٢٧	٤٤١/١	٩٥
١٣/١	٢٩	٤٥٢/١	١٠٢-١٠١
٦٠٨/٥، ٢٥٩، ٢٠٤/٣	٥٤	٢٥/٤، ٣٧١/٣، ٥٧٣/٢	١٠١
٢٠٦/٣، ٢٥٢، ٢٥١/٢	٥٨-٥٥	٤٥٢/١	١٠٢
٦١٠/٥		١٤٠/١	١٠٣
٢٢٦/٣	٦٤	١٤٠/١	١٠٥-١٠٤
١٠٢/٣	٧٢-٧١	١٤٠/١	١٠٦
١٠٩/٣	٧١	١٤٠-١٣٩/١	١٠٧
٤٥٣، ١٢١/٢، ٣٠٩/١	٧٥	٤٥٢/١	١١٣-١١٢
١١٥، ١١٢/٣		١٧١/٣	١١٣
﴿سورة الزمر﴾		٦١٤/٢	١١٨
٣٤١/٣، ٩٦/٢	٣	٤٦٢/١	١٢٦-١٢٣

٤٩٣/٣، ٤٢٨، ٤٢٧/٢	٧٣-٦٩	٥٨٠، ٣٢٦/٤، ١٩١/١	٤
٥٨٩، ٢٧٥/٢	٦٩	٩، ٧/٢، ٥١٠، ٥٠٩/١	٦
٦١/٣، ٢٨١، ٢٧٥/٢	٧١	٣٤٦، ٤٥، ٤٤، ٤٣، ١٢	
٦٠٠، ٣١٣/٤		٣٨٩/٤، ٢٧٩، ١٠٧/٣	
٥٢٣، ٢٧٢/٣	٧٤	٥٠٤/٥، ٣٩٠	
﴿سورة غافر﴾		٤١٢/٢، ٣٠٨، ٦٥/١	٧
٢٩٣/٤، ٢٥٠/٣	٣-١	٥١٢/٥، ٤٢٤، ٤١٨	
٤٠٨/٢	٣-٢	١٥٧/٢، ٢٣٨/١	٨
٢٣٩/٤	٨-٧	٩٥/٤، ٤٦/١	١٠
٢٣٨/٤	٧	٥٧٠/٥، ٢٥٣/٣، ٣٥٢/١	١١
١٠١/٥	١٠	٢٥٣/٣	١٥
٢٣٥، ٢٢٠، ٢١٩/٤	١١	٥٥٨، ١٤٢/٢، ٢٦٩/١	٢٠
٧٨، ٧٥/٢، ٣٧٠/١	١٢	٣٧٣/٤	٢٣
٤٩٠/١٢، ٢٢٨/٤، ٢٩/٣		٢٧٨/٣	٢٨
٣٧٩، ٣٦٨/١	٢٠	٢٠٩/٣	٣٢
١٠٠/٤	٢٥	٣٣٣/٥، ٤٢٨/٤، ٤٤١/١	٣٦
٥٣١، ٥٣٠/٢	٢٨	٤٤١/١	٣٨
٣٧١، ٣٧٠/٣، ٥٧٢/٢	٣٥	٢١٢/٣، ٥٦١، ٤٠٠/٢	٤٢
٣٦٧/٢	٣٧-٣٦	٢١٩	
٢٨٢، ٢٧٦/٢	٥٠-٤٩	٣٠٧/١	٤٤
١٨٤/١	٥١	٢٢٩/٣	٤٧
١٤١/٣، ١٦/٢	٥٧	٤٥٣/٢، ٣٤١/١	٥٣
٥٦/٤	٥٩	٦١٩، ٢٦٩، ٨٩/٣	٥٧
٥٦٧/٢	٦٥	٣٤٤، ١٧٦/٤	
٢٨٦/٢	٧٤	٣٧١/٣، ٥٧٢/٢	٦٠
١٨٥، ١٨٣/١	٧٨	٤٢٩/١	٦٤
٣٣٧/٢	٧٩	٢٦٢/١	٦٦-٦٥
٣٧٨/١	٨٤	١٦٥/٢، ٤٦٩، ٤٦٨/١	٦٥
		٤٢٥/٣	٦٨

٤٩٠، ٤٤٤/٥، ٧٨/٢	١٠
— ٤٩/٢، ٣١٩ — ٣١٦/١	١١
، ٥٧٩ ، ٥٦٦ — ٥٦٤ ، ٥٢	
، ٣٤٨ /٣ ، ٥٨٨ ، ٥٨٣	
، ٣٦٦ — ٣٦٠ ، ٣٥٥ — ٣٥٠	
— ١٠/٤ ، ٤٩٤ ، ٣٧٨ ، ٣٧٤	
، ١٦١ ، ٢٧ ، ١٨ ، ١٥ ، ١٢	
٣٤٧ ، ٣٤٥/٥ ، ١٦٢	
٤٨٤ ، ٥٠/١	١٣
٢٦٩ ، ١٦٤/١	١٥
٤٢٧/١	١٦
٤١١/٣ ، ١٢٤/٢	١٧
٣٧٦/٤ ، ٣٦٧/١	١٨
٥٧١ ، ٣٢٩/٥	٢٠
٥٧٠ /٥ ، ٢٣٣/٢ ، ٣٥١/١	٢١
٥٠٩/٥ ، ٢٣٢/٤ ، ٣٨/٣	٣٠
١٧٥/٣	٤٠
٥٧٢/٢ ، ٤٦/١	٤٣
١٣٧/٤	٤٩
، ٣١٩/٣ ، ٥٣٥/٢ ، ١٩٣/١	٥٢
، ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٢١٤/٤	
٤٤٨/٥ ، ٤٥٥ ، ٤٥٤	
٧٤/٥	٥٣
﴿سورة الزخرف﴾	
٤٢٥ ، ٤٢٤/٣	١١
٣٧٩/٣ ، ٥٧٥/٢	١٣
٣٩٦ ، ٣٩٥/٤ ، ٣٢١/٣	١٨
٣٣٧/٥ ، ٣٨٨/٤ ، ١٤٠/٢	١٩
٤١٨ ، ٤٠٩/٢	٢٠

﴿سورة فصلت﴾	
٢٠٥/٤	٧-٦
٣٤٤ ، ٣٤٣/٣	١٠-٩
٣٤٤/٣	١٢-١١
٩٥/٢ ، ٢١٨/١	١١
١٢١/٥ ، ٤٨٨/٣ ، ٢٧٣/٢	١٥
، ٢٨/٤ ، ١٩٢ ، ١٩١/١	١٧
٣٥٦/٥ ، ٤٥٤	
، ٢٧٦ ، ١٠٤ ، ٦٢/٢	٢١
٢٢١ ، ٦٢/٣	
٦٣ ، ٦٢/٣	٢٣-٢٢
٢٧٦ ، ١٠٤ ، ٦٢/٢	٢٢
٤٧٥/٣	٢٥
٥٩٠ ، ٤٥٧/٤	٢٦
٣٨٢/٣	٢٧
٩٤/١	٢٩
، ١١٣/٣ ، ٤٦٢ ، ١٢١/٢	٣٤
٤٣٥/٤ ، ١١٥	
٤٣٥/٤ ، ٤٦/١	٣٥
٤٣٥/٤	٣٦-٣٥
١٩١/٣ ، ١٥١/٢	٣٦
١٤٠/٣ ، ١٧/٢	٣٩
١٣٧/٢ ، ١٨٥ ، ١٨٢/١	٤٣
، ٣٣/٣ ، ٢٣٥ ، ٧٠ ، ٦٧/٢	٤٤
٤٥٦ ، ٤٥٥/٤ ، ٣٣٧ ، ٣١٥	
٣٣٠/١	٥٠
﴿سورة الشورى﴾	
٢٠٢/٢	٧
٤٩٠ — ٤٤٥/٥	١٢-١٠

﴿سورة الجاثية﴾		٩٧/٢	٢٢
٥٤٠، ٣٨٧/٤	٨-٧	٢٤٣/٤، ١٨٧/٣، ٢٤٣/١	٢٣
٥٧٢/٢	١٤	٣٠٣/٥	
٣٦٣/١	٢٣	٥٣١/٢، ٣٣١/١	٣١
١٣٢/٢	٢٥	٤١٨/٥، ٣٣١/١	٣٢
١٦٨/١	٣٢	١٦٩/٣	٣٥-٣٣
٢٢٢/١	٤٥	٢٣٧/٣	٣٩
﴿سورة الأحقاف﴾		٤٤٣/٤، ١٩١/٣	٤١
٤٢٦/٤، ٢٥٨/١	٦-٥	٤٧٧، ٤٧٦/٣، ٤٥٠/٢	٤٥
٤٢٦/٤	٥	٥٧٥	
٥٢٨، ٥٢٧/٢	١٠	٢٢٤/٣	٤٨
٣٣٢، ٣٣٠، ٣٢٧/١	١١	١٢٥، ٥١/٥	٥٢-٥١
٣١٢/٥		١٢٥/٥	٥٢
٥٢٥/٢	١٢	٣٤٣/٣	٥٤
٥٠٩/٢	١٥	٥٩٥، ٥٨٨/٤، ٢٧٧/٣	٥٧
٤٨١/٤	١٩	٥٠١/٥	٦٠
٤٧٦/٣، ٤٠٣، ٨٧/١	٢١	٢٠٥/٣	٧٥
٥٣٠، ٣٠٥/٤، ٤٨٥		١٢١/٥، ٣٤١، ٨٤/٣	٧٧
٤٩٨/٣	٢٤	٣٤٢/٣	٨٧
٣٤٧/٤، ٢٢٨، ١٩٥/١	٢٦		
٢٦٩/٢	٢٩	﴿سورة الدخان﴾	
٥٢٥/٢	٣٠	٤٧/٤	٢
٢٢٣/٣، ٢٧٢، ٢٧١/٢	٣١	٥٨٤/٢	١٠
٣٤٦/٤، ٢٨٧		٥٢٦/٤	١٦
١٤١/٣، ١٦/٢	٣٣	١٣١/٤	٢٤
١٣٧/٢، ١٨٥/١	٣٥	١٢٧، ١٢٦/٤	٢٨
﴿سورة محمد﴾		١٣٢/٢	٣٦
١٥١/٤، ٥٥٠/٤، ٢١/٣	٤	٤٩٨/١	٣٩-٣٨
٢٧١، ١٨٠		٢٨٠/٢	٣٨

٤٣٦/٤ ، ٥٤٤ ، ١٥٢/٢	٢٩	١٤٠/٣	١٠
٢٢١/٥		١٠/٥	١١
﴿سورة الحجرات﴾		٥٣٠ ، ٣٠٩/٥	١٣
٥٥٣/٢ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨/١	٦	٥٥٨ ، ١٤٢/٢ ، ٢٦٨/١	١٥
٢٩٥/٥ ، ٢٨٤ ، ٥٩/٤		٢٦٥/٣	
٥٦٨ ، ٥٣٨		٤٠/٤ ، ٤٥٨ ، ١١٥/١	١٧
٢٢٤/٣	١٠	٢٢٢/١	٢٣
٣١٢ ، ٣١١/٢ ، ٤٢٨/١	١١	١٣/١	٢٤
١٧٩/٣ ، ٥٤١ ، ٤٠٨		١١٤-١١٣/٥	٢٨-٢٥
٥٧٧ ، ٤٣٨ ، ٢٩٣ ، ١٨٠		١١٤/٥	٢٦
٦٠٨/٥ ، ٢٤٢ ، ١٢٤/٤		٦١٣/٥	٣٠-٢٩
٥٨٣ ، ٥١١		٣٢٢/٥	٣١
١٧٩/٣ ، ٥٤١/٢	١٢	٥١٢/٥	٣٢
٦٠٠/٥	١٥	١٦٢/٥	٣٥
﴿سورة ق﴾		٥١١/٥	٣٨
٤٨٤/٣	٢	﴿سورة الفتح﴾	
٣٧١/٤ ، ٤١٠/١	٨-٦	٢٢٩/٥	١
١٨ ، ١٧/٢	١١-٩	٤٧٨/٤ ، ١٩/٣	٤
٣٠٨/٢	١٤	٢٣٢/٥	١٠
٥٥٤ ، ٣٩٣ ، ١٦٤/١	١٦	٢٠٨/١	١١
٢٥٥ ، ٢٥٣ ، ١٩١/٢		٢٣٦/٣ ، ٥٥٠/٢ ، ٥٤٩/١	١٨
١٩٢/٥ ، ٢٦٦/٤ ، ٤٨٦		٢٣١ ، ١٩٢ ، ٥٩/٥	
٥٣٩ ، ٢٠٠		١٩٢/٥ ، ٦١٤/٢	٢٠
٤٨٦/٢	١٨	٢٣٦/٣ ، ٥٥٠/٢ ، ٥٤٩/١	٢١
٢٥٣/٢	١٩	١٩٢ ، ٦٠/٥	
٩٧/١	٢٠	٥٩/٥ ، ٥٨٨ ، ٥٨٦/٤	٢٥
٣٠٨/٢	٢٩-٢٨	٢٢٨	
٢٦٧/٤	٣٥	٢١٢ ، ٢١١ ، ٢١٠/٢	٢٧
١٦٠/١	٣٧	٣١٢/٥ ، ٤٧٦/٤	

٣١٨/٣ ، ٥٦٤ ، ٥٠٣		٣٢/٢ ، ٥٥٦ ، ٣٠٤/١	٤٥
٨١/٥ ، ١٠/٤ ، ٣٤٩		٤٣٨ ، ٤٣٧ ، ١٧٢/٣	
٢٠٠/٢	٢٨	٢٦٧ ، ١٩٠/٤ ، ٥٧٧	
٦١٨ ، ٤٠/٢ ، ٣٧٣/١	٣٧	٣٠٠/٥ ، ٣٨٨	
١٢٦/٥ ، ٨٢/٤	٥٣	﴿سورة الذاريات﴾	
٥٤٣/٤ ، ٣٨١/٣	٥٤	٤٣١ ، ٢٠١ ، ١٩٩/٢	١٠
﴿سورة القمر﴾		٢١٦/٥ ، ٥٥٩/٤ ، ٣٢٥/١	١٣
٢٠٣/١	١	٤٤/٢	٢١
٤٦٣/٣	١٢-١٠	٥٦٨/٢	٢٨
٤٦١/٣	١٠	٤٥١/١	٢٩
٥٠٧/٣ ، ٢٤/٢	٢٠	٥٦٧ ، ٥٦٤/٣	٣٣-٣١
١٩٤ ، ١٤٢/٣ ، ٣٣١/١	٢٤	٥٦٣/٣	٣٦-٣٥
٤٥٧		١٨٨/٣	٤٢
٣٣١/١	٢٥	١٢٦/٥ ، ٥٦٣ ، ٣٧١/٤	٤٧
٥١٤/٣	٢٨	١٦٥	
٢٨٦/٤ ، ٥١٦/٣	٢٩	٦٢٢/٣	٥٤
٣٣٣/٣ ، ٣٨٩/١	٣٧	٢٨١/٤ ، ١٨/٣	٥٥
٥٦٧/٣	٣٩-٣٧	٦٦/٣ ، ٢٤٠/٢ ، ٤٧٨/١	٥٦
٥٥٨ ، ١٤٢/٢ ، ٢٦٩/١	٤٥	٢٦٥/٤	
٥٢٧ ، ٥٢٦/٤		٣٦٨/٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٣/٢	٥٨
٤٢١/٢	٥٠-٤٩	﴿سورة الطور﴾	
٤٢/٣	٤٩	٦١/٣	١٥
٣٤٥/٣	٥٠	٥٦٧/٥ ، ٣٧٧/٤	١٦
٥٥٨ ، ١٤٢/٢ ، ٢٦٨/١	٥٤	٣٦٧/٤	٢٩
٣٧٠/٣	٥٥	٥٧٢/٤	٣٠
﴿سورة الرحمن﴾		٥٨٠ ، ٤٥٢/٤	٣٤
٢٥/٤	٢-١	٣٥٠/٢	٣٥
٣٦٩/٣	٣-١	﴿سورة النجم﴾	
٥٧٤/٢	٤-١	٥١/٢ ، ٣١٧ ، ٣٠٠/١	٤-٣

٥٤١/٥	١٤	٥١٤/٢	٩-٧
٥٦١،٩/٥	١٥	٣٤٧/٤	١٣
١٥٣/١	١٦	٣٤٠/٣	١٩
٥٦٢/٥	٢٢	٣٤٠/٣	٢٠
٥٦٢/٥	٢٣	٣١٥/١	٢٧
٤٥٤/١	٢٦	٢٦٩/٢	٣٢
٦٤/١	٢٨	٢٦٩/٢	٣٣
١١٤،١١٣/٣،٤٦١/٢	٢٩	٦٠/٣	٣٩
﴿سورة المجادلة﴾		٢٢٣/٣، ٢٧٣، ٢٧٢/٢	٤٦
٢٠/٤	١	٣٤٧/٤، ٢٨٨، ٢٨٧	
١٦٢/٣، ٤٧٣، ٤٧٢/١	٣	٢٢٣/٣، ٢٧٣، ٢٧٢/٢	٤٧
٣٣٩/٣، ٤٧٤، ٤٧٣/١	٤	٢٨٨	
٦٠٧/٥	٥	٣٤٧/٤، ٢٢٣/٣، ٢٧٢/٢	٥٦
٨٨/٥	٧	٢٢٣/٣	٧٤
٢٥٥/١	١٩	﴿سورة الواقعة﴾	
٦٠٧/٥	٢٠	٣٨٠/٤	٥
١٨٤/١	٢١	٤٣٤/١	٢٦-٢٥
﴿سورة الحشر﴾		٢٢٨/٢	٥٠-٤٩
٤٣١/٥	٢	١٤٦/٥، ٣٩٧/٣	٦١-٦٠
٤٠٥/٣	٥	١٤١/٣، ١٤/٢	٦٢
٣٨، ١٥، ١٤/٥	٦	٢٠٧/٣	٧٣
٢٣/٣، ٣٥١، ٢١٧/١	٧	٢٧٧/٤	٧٦
١٤/٥، ٢٥٣، ٢٥٢		﴿سورة الحديد﴾	
٢٥/٥	١٠-٨	٣٧٨/٣	٥-٣
٢٢٥/٥	٨	٣٦٧/٣، ٥٦٩، ٣٠٥/٢	٣
٢٢٦، ٢٢٤/٥	٩	٢١/٤، ٣٦٨	
٢٢٦، ٢٥/٥	١٠	٨٩/٥	٤
٨٥/٥، ٥٣٤/٢	١٤	٢٢٥/٥	١٠
١٠٠/٥	١٦	٥٤١/٥، ٢٨٣/٣، ٢٢٨/١	١٣

٤١٠/٤، ٤٧٤/٢	٧	٢٥٥/١	١٩
٥٤٢، ٥٤١/٤	٨	٤٣٥/٣، ٢١٣/١	٢١
٥٤٤/٢	٩	٣٧٠/٣، ٥٧٢، ٥٧١/٢	٢٣
٢٤٩/١	١٠	٢٤/٤	
﴿سورة التغابن﴾		٣٩٢/٣، ٩٢/١	٢٤
٢٠٢/٢	٢	﴿سورة الممتحنة﴾	
٣٠٤/٢، ١١٠، ١٠٩/١	٦	٥٣٠، ٣٠٩/٥	١
١٤٢/٣، ٥٧٠، ٤٠٦		٥١٧/١	٢
٥١٢/٥، ٥٧٩، ٤٥٧		٢١٩/٥، ٢٨٦/٢	٤
٤١٠/٤، ٢٧٣/٣	٧	٤٦٧/٢	٨
٢١٤/٤، ٣١٩/٣، ٥٣٥/٢	٨	١٢/٥	١٠
٤٤٩/٥، ٥٥٩		﴿سورة الصف﴾	
٢٢٨/٢	٩	١٨٨، ٥٠/١	٣
٣٥٥/٥، ٥٤٤، ١٦٧/٢	١٤	١٣٠، ١٢٨/٢، ٢٢٣/١	٥
٣٥٦		٥٤، ٣٩/٤	
٢٢١/٢، ٣٥١/١	١٦	٥٧٧، ٥٧٦/٥، ٣٦٥/٣	٨
﴿سورة الطلاق﴾		٣٤٢، ١٧٤/٤، ٦١٧/٣	١١-١٠
٤٨٦/١	١	٨٦/٣	١٢-١٠
٦٣٠، ٦٢٩، ٤٠٥/٣	٣-٢	٢٨٩/٥	١٤
٤١٠/٤		﴿سورة الجمعة﴾	
١٣١/٣، ٤٣٢، ٣٦٩/٢	٢	٣٧٠/٣، ٥٧٣، ٥٧١/٢	١
٥٦٨/٤		٢٤/٤	
١٦٢/٥	٣	٩٢/٣	٢
١٧٩/٣، ٥٤٠، ٥٦/٢	٤	٤٣٦/٣	٥
٤٠٥		٤٥٥/٥، ٥٧٤/٢، ٢٧٢/١	١١
٤٤/٣	١٠-٨	٦٠٥	
١١٣/٢، ٥٥٩، ١٥٢/١	١١	﴿سورة المنافقون﴾	
٩٢/٣، ٢١٤		٥٣، ٣٩/٤	٣
		٢٢٠، ١٩٥/١	٤

٤٤٦، ١١٣/٤	١٩	﴿سورة التحريم﴾	
٢٩٥، ٢٩٤/٢	٤٣-٤٢	١٦٢، ١٦١/٣، ٤٨٦/١	١
٤٩٥/١	٤٦	١٦٤، ١٦١/٣، ٤٨٦/١	٢
٤٦٣/١	٤٨	٢٥/٤، ٣٦٩/٣، ٥٧٥/٢	٣
﴿سورة الحاقة﴾		٥٥٨ ، ١٥٤/٢ ، ٢٦٩/١	٤
٤٩٨/٣	٧-٦	١٠/٥	
١٨٨/٣	٦	١٥٢/٥، ١١٦/٣	٦
٤٢٨/٢	٨-٧	٥٤١، ٣٩٨/٥، ٣٤٧/١	٨
٢٤/٢	٧	٢٢١/٥	٩
٣٧٥/٤، ١٣٠/٢	١١	٥٦٥، ٤٦٢/٣	١٠
٥٣/١	١٨	٦٢٠/٥	١٢
٢٠٠/٢، ٥٢/١	٢٠	﴿سورة الملك﴾	
٢٦٤/٤	٣٧-٣٦	٢٥٥ ، ١٩٣/٢ ، ٣٩٤/١	٢
﴿سورة المعارج﴾		٤٠٩ ، ٤٠٨ ، ٦٦/٣	
٥٨٢/٤	٢-١	٢٠٠، ٦٨/٥، ٢٦٥/٤	
٢٧٧/٢	٥-٤	٣٦، ٣٥/٢، ٤١٠/١	٤-٣
٢٧٧/٢	٤	٥٥٥/١	٥
٥٦١/٣	٣٠-٢٩	٢٨٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨١/٢	٩-٨
٥٦١/٣	٣٠	٣١٢/٤	
﴿سورة نوح﴾		٣٢/٣، ١٦١/١	١٠
٥٩/٣	٧-٥	٢٢١/٣، ٢٧٤/٢	١١
٤٦٦/٣	١٠-٥	٣٧٠/٣	١٢
٤٥٧/٤	٧	٢٦٦/٤، ١٩١/٢، ٥٥٤/١	١٤
٦٢٤/٣	٩-٧	٣٠٤/٢، ٥٤١، ٥٣٥/١	١٩
٦٣٠، ٤٠٥/٣	١٢-١٠	٥٨٠/٥	٣٠
٤٤، ٩/٢	١٤-١٣	﴿سورة القلم﴾	
٤٥/٢	١٤	٨/٣	١
٢٦٨/٢	١٦-١٥	٣٦٧/٤	٢
٤٤٦/٣، ٤٥٣/١	٢٤-٢٣	٣٥٣/٥، ٢٥٩/٣، ٢٧/٢	١٧

١٥/٢	٤٠-٣٧	٥١٢/٤	٢٧-٢٦
﴿سورة الإنسان﴾		١٧٩/٥، ٤٦١/٣	٢٦
٤٥٤/٤	٣-٢	٤٦١/٣	٢٧
٣٧٥، ٣٦٦/٣، ٥٦٧/٢	٢	﴿سورة الجن﴾	
٢٠/٤		٢٧٠/٢	٥
٢٨/٤، ١٩٢/١	٣	٢٨٧/٣، ٢٤٤/٢	٦
٢٦٤/٣	٦	٢٧٤/٥	٩
٥٢٠/٢	٧	٢٧٠/٢	١١
١٠٦/٢	٢٠	٥١٦/٢	١٥
١٤٧/٥، ٤٣٩، ١٧١/٢	٢٤	٥٥٩، ١٩٧/٤	١٧-١٦
١٩٠/٥، ٣٠٥، ٤٤٤/٢	٢٨	٥٥٩، ١٩٧/٤	١٧
٨٣/٢، ٢٢٩، ٢٢٨/١	٣٠	٣٣٥/٣، ٣٩٢، ٣٩١/١	٢٧-٢٦
٤٢١، ٤٢٠، ٤١٩، ٤١٥		﴿سورة المزمل﴾	
٣٣٢، ٣٧/٤		٣٨٠/٤	١٤
﴿سورة المرسلات﴾		٤٥١/٣	١٨-١٧
٧٥/١	٤	٢٧٣/٢	١٧
٢٢/٤، ٣٦٨/٣	١٧-١٦	﴿سورة المدثر﴾	
٢٩/٤	١٨-١٦	٦٩/٤	٣
٩٣/٣، ١٣/٢	٢٦-٢٥	٢٧٨/٢	١٠-٩
٢٤٦/٣، ١٢٩/١	٣٣-٣٢	٦٨/٢	٢٦-١٨
١٥٢/٥	٤٨	٣٣٢، ٣٣١/١	٣١-٣٠
﴿سورة النبأ﴾		٤٧٨/٤	٣١
٣٨٣/٤	٥-٤	٣٠٨، ٦٥/١	٤٨
٣٧١/٤	١٢	﴿سورة القيامة﴾	
٣٩٠/٣	١٣	٦٢/٢	١٥-١٤
٣٨٠/٤	٢٠	٥٦، ٥٤، ٥٣، ٤٧/٢	٢٣-٢٢
٢٥٢/٢	٢٦-٢٣	١٥٢، ١٥١، ١٥٠/٤	
		٥٥٧/٢	٣١
		٤٩٨/١	٣٨-٣٦

﴿سورة التكويد﴾	٢٥١ ، ٢٥٠ ، ٢٤٦/٢	٢٣
٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١١ ، ٢١٠/١	٦٠٨/٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٣/٣	
٦١/٣	٦١٠	٩-٨
﴿سورة الانفطار﴾	٦١٠/٥ ، ٢٠٥/٣	٢٥-٢٤
١٠٧/٣	٦١١/٥ ، ٢٠٧/٣	٢٦
٤٨٤/٢	٣٢٩/٥ ، ٢٤٩/٢	٣٠
٥٦٨/٢	١٢	١٢-١٠
﴿سورة المطففين﴾	١١٢/٥ ، ٢٩٤/١	٥
٥١٤/٢	٦٠٨/٣	٧-٦
٥٨٦/٣ ، ٥١٥/٢	٤٢٥/٣	١٤-١٣
١٧٢/٣	١٩٧/٤	٦-٤
٢٩٠/٤	٩٩/٤ ، ٣٤٣/٣ ، ٣٧٨/١	٦
١٢٨/٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢/١	١٢٥/٥	١٤
٤٠/٤ ، ١٣٠	١٤١/٣	٢٩-٢٧
٤٠/٤ ، ٥٦ ، ٥٤ ، ٤٧/٢	١٦/٢	١٥
٦١٨/٥ ، ٢٤٨/٣ ، ٣٥٨/١	٣٧١/٤	٢٩
٣٠٧/٣	٣٤٤/١	٣١-٣٠
٣١٢/٣ ، ٣٢٨/١	٣٨٣/٤ ، ٣٨٥/١	٣٠
﴿سورة البروج﴾	١٧٢/٣ ، ٣٢/٢ ، ٥٥٧/١	٤٥
٩٤/٤	٣٠٠/٥ ، ١٩٠/٤ ، ٤٣٨	٨
٥٥٩ ، ١٩٧/٤ ، ٣٢٥/١	﴿سورة عبس﴾	١٠
٢١٧/١٠	١٢٤/٢	٣
٤٨/٣	٥٢٨/٢	١٢
٣٦٥/٣	٣١٦/٣	١٦
٩/٣ ، ٥٢٨/٢ ، ٢١٤/١	٩/٣ ، ٢١٤/١	٢٢-٢١
٤٣٠/٤ ، ٣١٦	٤٣٠/٤	١٦-١٣
﴿سورة الطارق﴾	٥٠٥/٥ ، ٢٧٩/٣ ، ٥١٠/١	٢٠
٢٨٥/٤	٥٣٢/١	٤
٢٧٨/٣	٤٢٢/٣ ، ١٨/٢ ، ٥٣١/١	٦-٥

﴿سورة الضحى﴾		٥٠٣/٥	٥
٥٤٢/١	٢	﴿سورة الأعلى﴾	
٣٣٩/٤، ١٩٧/٢، ٢٣١/١	٧	١٠٤/٥، ٤٤٢/٢، ٨٩/١	٤-١
﴿سورة الشرح﴾		٢٩٢	
٣٠٢، ١٦٧/٤، ٢٦٥/٢	١	٢١١/٢	٩
٦٠٦/٥		﴿سورة الغاشية﴾	
٥٨٥/٥	٨-٧	٣٨٩/٣	٢٠
﴿سورة التين﴾		٨٥/٢	٢٢-٢١
١٥/٢	٤-١	﴿سورة الفجر﴾	
١١٤/٣، ١٢٠/٢	٣	٤٧٥/٣	٨-٦
٦٠٠-٥٩٩/٢	٦-٥	٤٨٥/٣	٧
١٥/٢	٧	٢٧٤/٥	١٤
﴿سورة العلق﴾		٥٥٨، ١٤٣/٢، ٢٦٩/١	٢٢
٢٦٤/٤	١٦	٥٦٢	
﴿سورة البينة﴾		١٢١، ١٠٣/٥، ٢٨٦/١	٢٦-٢٥
٥٢٨/٢	٣-١	﴿سورة البلد﴾	
٤٠٥، ٢٦٩/٥	١	١١٤/٣، ١٢٠/٢	١
٩/٣	٣-٢	٣٠٢، ١٦٧/٤، ٢٦٥/٢	٨
٣١٩/٤	٤	٦٠٦/٥	
٥٧٠/٥، ٢٥٣/٣، ٣٥٢/١	٥	١٠٨/٣	١٧-١١
٤٠٥، ٢٧٠/٥	٦	٥٢/٥	١٦-١٤
٣٤٥/٥	٨	٥٨٨/٥	١٦
﴿سورة الزلزلة﴾		﴿سورة الشمس﴾	
٦٢/٣، ١٠٥-١٠٤/٢	٥-١	٥١٧/٣	١٤-١١
٥٠٦/٥، ٢٨١/٣، ٥١٠/١	٦	٥٤٢/٥	١٢
١٣٠/٣، ٣٦٩/٢	٨-٧	٥٨٥/٤	١٤
﴿سورة العاديات﴾		﴿سورة الليل﴾	
٥٤١، ٥٣٥/١	٤-١	٢٠٢/٢	١٠-٥
٣٢٧/٥، ٢٧٥/٢	٧-٦	٤٣٤/١	٢٠-١٩

﴿سورة قريش﴾		٣١٠/٤	٧
٤٨٤/٤	٢	﴿سورة القارعة﴾	
﴿سورة الماعون﴾		٣٨٠/٤	٥
٥٠٥_٥٠٤/٢	٢-١	٧٦/٣	١١-٤
٥١/١	٥-٤	﴿سورة التكاثر﴾	
﴿سورة الكوثر﴾		٥٠٦/٥، ٢٨٠/٣	٢-١
٦٢٧/٢	٢	٥٨٦، ١١٥/٥	٥
﴿سورة المسد﴾		﴿سورة العصر﴾	
٤٢٧/٢	٣	٦٢٠، ٦١٩، ٦١٦، ٨٥/٣	٣-١
﴿سورة الإخلاص﴾		٣٤٠، ١٧٣/٤	
٥٠، ٤٩/٢، ٣١٦/١	٤	﴿سورة الهمزة﴾	
٣٥٢، ٣٤٩/٣، ٥٦٤		٥٨٣/٥	١
١٦٢، ١٠/٤		٢٨٦/١	٧
﴿سورة الفلق﴾		١٠٦/٢	٩-٨
٤٢٠/٢	٢-١		





## الفهرس العام

٤٣-٩/١	.....	مقدمة العمل على الكتاب
٤٥/١	.....	تفسير سورة البقرة
١٧٣/١	.....	تفسير سورة الأنعام
٥/٢	.....	تفسير سورة الأنعام بداية ٩٨ إلى آخره السورة
٥/٣	.....	تفسير سورة الأعراف
٤٦٧/٤	.....	تفسير سورة الأنفال
٢٤١/٥	.....	تفسير سورة التوبة
٦٤٣/٥	.....	ثبت مصادر التعليق
٦٩٣/٥	.....	فهرس الآيات القرآنية
٧٤٦/٥	.....	فهرس الموضوعات